السلسلة الجامعية

الهادي روجي إدريس

الدولة الصنهاجية

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12 م.

نقله إلى العربية
حمادي الساحلي

الجزء الثاني

دار الغرب الإسلامي

الدّولةُ الصِّنهاجيّة

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري

مِن القرن 10 إلى القرن 12 م.

الهادي روجي إدريس

الدّولةُ الصّنهَاجيّة

تاريخ إفريقية في عهد بني زيري
من القرن 10 إلى القرن 12 م.

نقله إلى العربية
حمّادي السّاحلي

الجزءُ الثّاني



دار الغرب الإسلامي

هذه الترجمة تصدر للكتاب المنشور باللغة الفرنسية سنة 1962
La Berbérie Orientale sous les Zirides Xe - XIIe siècle
Par Hady Roger Idris
الصادر عن :
Librairie d'Amérique et D'Orient
ADRIEN-MAISONNEUVE
11, Rue Saint-Sulpice, PARIS (6e)

الطبعة الأولى
1992

La traduction de cette thèse est publiée avec l'accord de l'éditeur initial de l'ouvrage.

(ننشر هذه الترجمة باتّفاق مع الناشر الأصليّ للكتاب)

دار الغرب الإسلامي
ص.ب : 113/5787
بيروت - لبنان

القِسمُ الثّاني
المؤسّسات والحياة العامّة

البَابُ السَّابع

البِلاَد وَالعِبَاد

نظـرة عامّـة :

في هذه اللّمحة شبه الجغرافيّة ، المقتصرة في أغلب الأحيان على تسميات جافّة وغير ثابتة ، لم نحتفظ إلاّ بالبيانات الصالحة للعصر الصنهاجي .

وقد دعتنا متانة المسالك والمراكز العمرانيّة إلى اعتبار نفس الطرقات التي سلكها الجغرافيّون العرب ، إذ كانت نظرتهم تمثل وثيقة تاريخيّة غزيرة بالمعلومات .

ففي البرّ تبينّ وسائل النقل المستعملة (أي الدوابّ بلا عَرَبات) وجود مأوى في كلّ محطّة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى المساحلة التي تستدعي وجود موانىء ساحليّة ، تفصل بين الميناء والآخر مسيرة يوم في البحر . أمّا سلسلة الرباطات المكثّفة بوجه خاصّ في السواحل التونسيّة، والمعزّزة في الغالب بسلسلة ثانية من الرباطات الداخلية ، فإن المسافات التي تفصل بينها تطابق عموماً مقتضيات رؤية الأضواء القائمة مقام الإشارات .

وإنّ إفريقيّة بحصر المعنى التي تحتوي على مجموعة من السهول المتميّزة بسهولة المواصلات وقلة المضايق والجبال المنيعة ، وتتمثّل في بلاد منظمة على أحسن وجه ممكن حول القيروان ، يقابلها المغرب الأوسط الذي يتمثّل في مركّب من الجبال المفصول بعضها عن بعض بصورة غير منتظمة .

كما إنّ سكّان شرق بلاد المغرب الحضريّين والمقيمين فوق أرض مزدهرة على وجه العموم ، كانوا يتصدّون دوماً وأبداً للأعراب الرّحل الذين كانوا يهدّدونهم . إلاّ أنّ زحفة بني هلال سوف تقضي على هذا التوازن النّسبي وستُفْضي إلى تراجع الزراعات لفائدة المراعي ، وتصحير عدد كبير من المناطق المزدهرة . وفي حين تحضّر الفاتحون العرب القليلو العدد بسرعة ، كانت الحشود الهلاليّة الغفيرة عاجزة عن التخلّي عن الحياة الرعويّة وتعاطي الفلاحة .

وعلى غرار هجرة الكتاميّين في العهد الفاطمي ، كانت هجرة بني زيري الصنهاجيّين في اتجاه

إفـريقيّة ، عن طـريق المنخفض الجنوبي بـالمغرب الأوسط ، مـرتبطة بنمط العيش ومقتضيـات الجغرافيا . وكان هؤلاء القوم المستقرّون الأفظاظ الذين لم يشملهم الدين الإسلامي بما فيه الكفاية ولم يتمّ تعريبهم تعريباً كاملاً ، قد غادروا منطقتهم الجبليّة الفقيرة نسبيّاً ، والثريّة برجالها ومساكنها المتفرّقة . ويبدو أن هذا المدد البربري الجديد الذي نجهل أهميّته من حيث الكمّ ، ولكنّنا نظنّ أنه كان ضعيفاً ، لا سيما بعد تأسيس مملكة بني حمّاد التي خفّضت من نسق تدفّقه ، بل أوقفته تماماً ، قد اندمج بسهولة في صلب المجموعة العربيّة البربـريّة المنصهـرة من قبل في بـوتقة الحضـارة القيروانية .

ولئن كنّا نجهل طرق تعريب الصنهاجيّين القادمين إلى إفريقية ، إلاّ أننا نفترض أنّ ذلك قد تمّ بسرعة بالنظر إلى تعريب رؤسائهم[1] . أما بالنسبة إلى الذين قدموا إلى إفريقية مع بني زيري ، فإنّ الصنهاجيين الذين مكثوا بالمغرب الأوسط قد حافظوا على فظاظتهم السابقة .

ولقد تفاقم ، بالرغم من الانتفاضات الزناتية العنيفة ، تقهقـر اللغة الـبربريّـة والمذهـب الخارجي السائرَيْن في خطّ واحد ، ذلك التقهقر الذي بدأ منذ العهد الفاطمي . إلاّ أنّ الغزوة الهلالية التي استهدفت السهول وأجلت سكّان الريف إلى أعالي الجبال ، لم تؤثّر فيها ولم تتسرّب إلى الجبال التي ظلّت إلى يومنا هذا بربريّة اللّسان ، مثل مناطق القبائل ، ولا سيما الأوراس معقل المذهـب الخارجي .

ويبدو أن الشعر [الشعبي] قد بقي مدّة طويلة ملاذ اللغة البربرية[2] . ولتقدير مدى اتّساع رقعة المذهب الخارجي البربري في جنوب إفريقية ، يكفي التذكير بأن أهل قسطيلية وقفصة ونفطة والحامّة وبشّار وجبل نفوسة كانوا ـ حسب ابن حوقل[3] ـ من الخوارج الإباضيـة أو الوهبيّـة . وبالطبع ينبغي أن نضيف إلى تلك المناطق جزيرة جربة وأقصى جنوب المغرب الأوسط (شوف

---

1) علاوة على الألقاب البربريّة التي يحملها بعض الأشخاص الذين قاموا بدور سياسي ، نلاحظ وجود بعض آثار لأسماء بربريّة ، انظر ، مناقب ، 105 ، 115 ، 128 ـ ونقائش عربيّة ، 304/1 ، 340-341 ، 376-378 ، 401-402 ، 462-466/2 .

2) الشماخي ، 256 ، 400 ، 405-406 ، 408-409 (في عصر أبي نوح) : هل يمكن تسمية الله باللغة البربرية باسم يزريطر ؟ 498 ، 519 ، 520 .

3) ابن حوقل ، 96/1 ، وأضاف أن أجوارهم التابعين لقبيلتين بربريّتين كبيرتين ، زناتة ومزاتة كانوا في معظمهم معتزلة من أتباع واصل بن عطاء .

وأريغ وورجلان والزاب)[4]، وربّما أيضاً جبل وسلات وجبل زغوان وجبل خمير ، التي تعتبر بمثابة التخوم الخارجة عن المركز . وفي عهد المعزّ بن باديس كان يقيم عدد من الخوارج الوهبيّين بقابس التي كانت تضمّ عدداً من المساجد الخاصّة بهم[5] .

وكان الإباضيون يقومون بدور بارز في السودان ، وقد نشروا فيه الإسلام بصورة تزيد أو تنقص قبل بني زيري[6] .

أمّا بقايا المسيحيّين واليهود ، فستحدّث عنهم في الباب المخصّص للحياة الدينيّة .

وقد ظلّ المغرب الأوسط إبّان الفتح الموحّدي منطقة مُجَزَّأة ومفتقرة إلى نواة تركيز لا يمكن أن تكون لا بجاية ولا قسنطينة ولا من باب أولى وأحرى القلعة المهجورة . وأمّا في المغرب الأدنى ، فقد كانت مدينة تونس مُهَيَّأة لتحلّ محلّ القيروان المتقهقرة ولتصبح عاصمة ما كانت تُسمّى إفريقية .

إلاّ أنّ العرض الموالي سيبيّن إلى أيّ حدّ ، تمكّنت الغزوة الهلالية من قلب جغرافيا شرق المغرب البشريّة رأساً على عقب . وقد بدأت هذه البلاد في البحث عن توازن جديد بين الرّعاة الرُّحّل والمزارعين المستقرّين[7] ، بفضل تسوية بالتراضي ، كانت ضروريّة ومع ذلك مفيدة ، لا سيما بالنسبة إلى المراكز العمرانيّة التي ظلّت قائمة الذّات .

---

4) الشماخي ، 413 ، 418-419 (إشارة إلى تراجع التأثير الخارجي في المغرب الأوسط) ، 440 ، 447 ، 458 ، 463 ، 468 ، 480 ، 484-485 ، 488 ، 588-598 .

5) نفس المصدر ، 474-475 .

6) نفس المصدر ، 457-458 ، 483-484 ، 516 ، والبكري ، 178 .

7) سندرس الدور البالغ الأهمية الذي يقوم به البحر في إفريقيّة عند الحديث عن التجارة الخارجية .

الفصل الأوّل
إفريقيّة

القيروان :

كان معظم السكّان ، قبل غزوة بني هلال ، مستقرّين ، وكان التّرحال قليل الانتشار . إذ كانت إفريقيّة تشتمل على عدد كبير ، من المراكز العمرانية الزاهرة[8] . وكانت ضواحي القيروان تعتبره أصدق مثال لذلك الازدهار غير المنتظر .

ورغم ما كانت تشهده كلّ من صبرة ـ المنصورية ، وزويلة ـ المهديّة ، من تطوّر كبير ، فإن القيروان لا تزال تقوم في عهد بني زيري ، بالنسبة إلى إفريقية ، بدور العاصمة السياسيّة والاقتصادية والدينية والثقافية . وممّا لا شكّ فيه أن الفترة السابقة للقطيعة قد كانت ملائمة لها . إذ إنّ انتصار المذهب المالكي كان يمثّل انتصارها هي بالذّات ، أوّلاً وقبل كلّ شيء .

ولئن لم تتأثّر القيروان بما قُدّر من مصير ، يبدو لأوّل وهلة من باب المفارقات ، لذلك المعسكر الذي رفعه الأغالبة إلى مقام العاصمة ، ولا بتفاهة الدور الذي أصبحت تقوم به منذ خرابها إلى الآن ، إلاّ أنّه لم يكن هناك ما ينبىء بانحطاطها القريب والحتمي . ذلك أن مدينة تونس تستطيع أن تتحكّم في شمال البلاد وتتطوّر إلى أبعد حدّ ، دون أن تلحق بها أيّ ضرر . أمّا مدن الساحل ، فلا تستطيع أيّة واحدة منها أن تحلّ محلّها .

ولا شيء يدلّ على أن إنشاء مملكة بني حمّاد قد تسبّب بأيّة صورة من الصّور في التنقيص من كثافة المبادلات بين القيروان والمغرب الأوسط . فقد كانت القيروان عبارة عن مركز كبير لحطّ رحال القوافل وسوقاً ضخمة . وكان ازدهارها مرتبطاً بازدهار المنطقة الشاسعة الواقعة جنوب الظهر التونسي ، التي كانت آنذاك مستغلّة أحسن استغلال وآهلة بالسكّان ، أكثر ممّا كان مرتبطاً بمرتبتها كعاصمة للبلاد . وكانت القيروان تجتذب وتوزّع المنتجات الواردة ، سواء من الساحل وقمّودة أو من الجريد ونفزاوة .

---

8) انظر مثلاً ، شهادة المقدسي ، 22-23 .

كما كانت تحظى برعاية المعزّ بن باديس الذي فكّر في ربطها بالبحر ، رغم أن موانىء السواحل الشرقية كانت تعتبر منافذ بحريّة تابعة لها[9] .

ولئن لم يتمكّن ذلك المعسكر الحصين الذائع الصيت الذي شيّده الفاتحون العرب ، من الانبعاث ، بعدما هدّمه الغزاة الهلاليّون ، فيبدو أن سبب ذلك يرجع أوّلاً وبالذات إلى إقدام أولئك الأعراب الرّحل على تخريب البوادي المزدهرة التي كان ثراؤها متوقّفاً على ثراء السّوق الكبرى المتمثلة في مدينة سيدي عقبة . فبالنسبة إلى السّباسب الإفريقية ، كان أيّ تهوان من قِبَل المجهود البشري ، يرجع بالوبال على الزراعات التي تترصّدها الصحراء .

الأبـواب والأسـوار :

لقد دكّ زيادة الله بن إبراهيم [ابن الأغلب] في سنة 209 هـ/ 824-825 م سور القيروان القديم الذي كان قد بناه محمد بن الأشعث سنة 144 هـ/ 761-762 م ، ويبلغ عرضه عشرة أذرع ، وذلك لمعاقبة أهل القيروان الذين أيّدوا ثورة منصور الطنبذي . وقد أمسك الفاطميّون وملوك بني زيري الثلاثة الأوائل عن ترميمه . وحسب البكري[10] كان سور القيروان يشتمل على الأبواب [السبعة] التالية : باب تونس في الشمال ، وباب أبي الربيع في الجنوب الشرقي ، وباب عبد الله وباب نافع في الشرق ، وباب أصْرَم وباب سَلَم (أو باب أَسْلَم) في الغرب ، وباب آخر لم يذكر المؤلف اسمه في الجنوب الغربي[11] .

واعتباراً للخطر الهلالي ، أسرع ابن زيري في سنة 444 هـ/ 1052-1053 م إلى الزيادة في علوّ السّور الذي ارتفع إلى 22000 ذراع . وأقيم من جهة صبرة سور متقدّم يتمثل في جدارَيْن متوازيَيْن يبعد الواحد عن الآخر حوالي نصف ميل ، للربط بين المدينتين . وقد أكّد البكري[12] أن القيروان أصبحت تشتمل وقتئذ على أربعة عشر باباً : الأبواب السبعة السابقة الذكر ، وباب النخيل والباب الحديث والبابان التابعان للسور الرابط بين القيروان وصبرة ، وباب الطِّراز وباب القلّالين وباب سحنون الفقيه . وأشارت المصادر إلى وجود بابَيْن آخرين في العصر الصنهاجي ،

---

9) انظر الباب الثاني عشر : : الحياة الفكرية والفنية .

10) البكري ، 25 .

11) يمكن أن يتعلّق الأمر بباب الغنم أو بالأحرى باب الريح الواقع في اتجاه فحص الدوّارة . وحول باب سلم أو أسلم انظر ، مناقب ، 197 ، الهامش عدد 4 ، وشوريا ، 183/2 ، الهامش 1 . وحسب حسن حسني عبد الوهاب ، ببساط ، 4-5 ، كان باب عبد الله يحمل اسم عبد الله (بن الزبير بن العوّام) .

12) البكري ، 25 .

هما : باب الغنم وباب الرّيح[13] .

ويبدو أنّ القيروان ، قد اشتملت دوماً وأبداً على سبعة محارس (وهي نوع من الثكنات وحصون الحراسة) منها أربعة خارج السّور وثلاثة داخل المدينة[14] .

المقابر :

كانت أهمّ مقابر القيروان[15] تمتدّ خارج السّور في جميع النواحي ، ما عدا الناحيتَيْن الغربية والجنوبية الغربية . ففي الناحية الشمالية كانت توجد مقبرة باب تونس ، حيث دُفِنَ [أبو الحسن] القابسي ، وفي الناحية الغربية تقع المقبرة البلويّة حيث يوجد ضريح الصحابي الجليل أبو زمعة البلوي [رضي الله عنه] . وفي الناحية الشمالية الغربية فيما وراء باب أسلم (أو سَلْم) كانت تمتدّ المقبرة العظمى التي تسمّى أيضاً مقبرة قريش وتعرف اليوم بالجناح الأخضر[16] .

وكان موجوداً بباب أسلم مصلّى الجنائز الذي هو عبارة عن مسجد في الهواء الطلق مخصّص للصلاة على الأموات[17] . كما كان موجوداً بباب تونس مصلّى آخر مماثل[18] . وغير بعيد عن ذلك المكان ، في باب أصرم أقيمت صلاة الجنازة مرّتين متتاليتين بالرُّيحانيّة[19] . وفي الناحية الشرقية ، كانت توجد مقبرة باب نافع ، بالإضافة إلى مقبرة سحنون ومقبرة السّيوري (ت. 460 هـ/

---

13) انظر : إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 102 و البيان ، 278/1 . وحول باب الريح ، الباب الشرقي للعباسية القصر القديم ، انظر ، بساط ، 12-13 .

14) البكري ، 24 ، الإدريسي ، المعجم ، 283-284 ، محرس .

15) إدريس ، المرجع المذكور ، 100 - 101 - 102 ، معالم ، 7/3 ـ 75-98 ، 99-105 ، 119-120 ، 122 ، 128-129 ، 132 ، 164 ، 168 ، 179-180 ، بساط ، 8-9 ، برنشفيك ، العهد الحفصي ، 369/1-372 . [الترجمة العربية ، 402/1 ـ 404] .

16) وربما لم تكن من باب الصدفة تسمية الطّريق الشمالية الغربية المفضية إلى أبّة والأربس وغيرهما ، من طرف البكري ، 53-54 ، باسم الجناح الأخضر . وقد كانت تلك الطريق تعبر مقبرة باب أسلم ، وربما سميت منذ ذلك التاريخ بذلك الاسم ، انظر ، نقائش عربية ، 104/1 ، الهامش 1 .

17) معالم ، 164/3-166 .

18) إدريس ، المرجع السابق ، 100 .

19) معالم ، 147/3 : صلّى القابسي على ابن أبي زيد (ت. 386 هـ/ 996 م) بالريحانيّة عند باب أصرم ودُفِن بداره . معالم ، 211/3 : لمّا توفّي أبو بكر بن عبد الرحمان (432 أو 435 هـ/ 1040-1044 م) ، « صلّى عليه ولده بالرّيحانيّة ودفن بباب تونس إلى جانب أبيه عبد الرحمان » . قارن بين اسم هذه المقبرة وبين اسم باب ريحانة أو باب للاّريحانة التابع للجامع الأعظم في العصر الحفصي ، برنشفيك ، العهد الحفصي ، 361/1-366 [الترجمة العربية ، 398/1] .

1068-1067 م)[20] . وفي القرن الرابع هجري (10-11 م) ، دُفِن عدد كبير من الأموات بالرماديّة ، ويبدو أنّ هذا الاسم كان يُطلَق على مقبرة باب أسلم الواقعة على ربوة تعتبر امتداداً لربوة الجناح الأخضر[21] . وبالنسبة إلى نفس العصر ، لم نجد أيّة إشارة إلى استعمال مقبرة باب أبي الربيع[22] .

الجامع الأعظم :

في سنة 374 هـ/ 984-985 م، أضاف المنصور إلى الجامع الأعظم [بالقيروان] أبواباً جديدة . كما أمر المعزّ بإعادة دهن سقوفه وأضاف إليه المقصورة الشهيرة التي يمكن تحديد تاريخها بسنة 413 هـ/ 1022-1023 م[23] .

وكان للجامع الأعظم عشرة أبواب[24] وهي : باب السماط وباب الرهادنة وباب الفضوليّين وباب المئذنة وباب الصبّاغين وباب الحدّادين[25] وباب سوق الخميس وباب الميضاة وأخيراً باب الخاصّة الذي يفتح على شارع التّمارين (باعة التّمر) . أمّا بقيّة رواية المقدسي[26] الغامضة شيئاً ما ، فيبدو أنها تعني أن رجال الحاشية يمكنهم المرور من باب اللحّامين وسوق الرمّاحين .

المساجد الأخرى[27] :

كانت أهمّ مساجد القيروان القديمة [28] تتمثّل فيما يلي :

---

20) برنشفيك ، المرجع المذكور ، 361/1-372 [الترجمة العربية ، 403/1] .

21) معالم ، 7/3 ـ 75 ـ 105 ـ 122 ـ 132 ـ 168 . نقائش عربية ، 1 عدد 54 ص 116 وما بعدها ، و146/1 ، الهامش 1 .

22) دفن فيها ابن البرذون وابن هُذَيْل بعد تعذيبهما في سنة 299 هـ/ 911-912 م ، معالم ، 177/2 ـ 182 ـ 183 . أبو العرب ، 216 . الديباج ، 87-88 . البيان ، 154/1 وهي المقبرة التي ستعرف فيما بعد باسم مقبرة أبي عبد الله محمد العسّال .

23) جورج مارسي ، قباب وسقوف الجامع الأعظم بالقيروان ، تونس 1926 ، البيان ، 241/1 ، البكري ، 22-24 ، العهد الحفصي ، 365/1-366 [الترجمة العربية ، 398/1] ، إدريس ، مجلة أرابيكا ، ماي 1956 ، 214-215 .

24) المقدسي ، 14-17 . اقتصر البكري على ذكر عدد الأبواب .

25) حسب الرياض ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 99 . المقدسي : باب الحواريّين .

26) « باب الخاصّة في التمارين وهمُ باب اللحّامين وسوق الرمّاحين » .

27) بساط ، 6-7 ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1986 ، 99-100 ، معالم ، 54/3 ، العهد الحفصي ، 365/1-368 [الترجمة العربية ، 399/1-402] .

28) حسب ابن ناجي ، معالم ، 54/3 ، الذي أكد أن عدد المساجد القديمة سبعة .

ـ مسجد عبد الله بباب عبد الله الذي يحمل اسم عبد الله بن الزبير[29] .
ـ المسجد الكبير الذي يبدو أنّه كان يحمل على التوالي اسم مسجد إسماعيل ثم مسجد الزيتونة ، وقد بناه إسماعيل بن عُبَيْد تاجر الله ، مولى الأنصار ، في محرس الأنصار ، وقام مقام المسجد الجامع [جامع خطبة] مدّة إتمام أشغال الجامع الأعظم[30] .
ـ مسجد الأنصار الواقع قرب محرس الأنصار ، وينسب بناؤه الأوّل إلى الصحابي رُوَيْفَع بن ثابت الأنصاري[31] .
ـ مسجد أبي ميسرة ، « وهو عن يسار الداخل للقيروان من باب تونس »[32] .
ـ مسجد حَنَش الواقع في جهة باب الريح ويحمل اسم التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني[33] .
ـ مسجد الحبلي الواقع بباب تونس والمنسوب إلى التابعي عبد الله بن يزيد الحبلي[34] .
ـ مسجد ابن أبي سرح[35] ، ويقال : إنه كان يسمّى مسجد ابن الزبير[36] .
ـ وكان موجوداً على يمين الخارج من باب نافع مسجد بناه علي (أو أُبيّ) بن رباح اللّخمي في القرن الثاني من الهجرة[37] .
ـ وبالقرب من نفس الباب كان يوجد المسجد الذي بناه في نفس الفترة زياد بن أنْعَم[38] .
ـ ويطلق اسم مسجد هارون[39] ، حسب الاحتمال ، على المسجد المعروف باسم « مسجد

---

29) بساط ، 6-7 .
30) نفس المصدر . العهد الحفصي ، 367/1 [الترجمة العربية ، 399/1] . رياض النفوس ، مخطوط باريس 10 و[طبعة بيروت ـ 107/1] .
31) بساط ، 6-7 ، العهد الحفصي ، 367/1[الترجمة العربية، 399/1] . وحول ترميم هذا المسجد في القرن السادس ، انظر ، معالم ، 256/3 .
32) معالم ، 54/3 ، بساط ، 6-7 ، العهد الحفصي ، 368/1 [الترجمة العربية ، 400/1] .
33) رياض النفوس ، مخطوط باريس 11/ظ [طبعة بيروت ، 121/1] .
34) معالم ،138/1-139، انظر ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 99 . وسمّي هذا المسجد فيما بعد على التوالي مسجد الرباطي ومسجد ابن عياض وأخيراً مسجد أولاد بني جعيط ، العهد الحفصي ، 368/1 [الترجمة العربية ، 400/1] .
35) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 7 ظ .
36) معالم ، 138/1-139 . أفلا يتعلق الأمر بمسجد عبد الله المشار إليه أعلاه والمنسوب إلى عبد الله بن الزبير ؟ .
37) رياض النفوس ، مخطوط باريس 11 ظ . [طبعة بيروت ، 119/1] . معالم ، 28/1 ، 152 ، العهد الحفصي ، 368/1 [الترجمة العربية ، 400/1] .
38) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 12 ظ . [طبعة بيروت ، 129/1] ، معالم ، 164/1 .
39) رياض النفوس ، مخطوط باريس 64 و ـ 97 و ـ [طبعة بيروت ، 430/2] ، معالم ، 197/2 ، أبو العرب ، 233 ، =

الأبواب الثلاثة » الذي بناه في سنة 252 هـ/ 866 م أبو جعفر محمد بن محمد بن خيرون المعافري (ت. 301 هـ/ 912-913 م) .

- وكان يوجد غير بعيد من سبيل بئر برّوطة مسجد أسد بن الفرات الذي بُني تخليداً لذكر هذا الفقيه صِنْو الإمام سحنون[40] .
- مسجد يحيى بن عمر الواقع بالقرب من حمّام النعمان[41] .
- مسجد (أبي) عيّاش الفقيه ، وهو يحمل اسم أحد أصحاب سحنون[42] .
- مسجد أحمد بن أبي سليمان ومسجد عبد الجبّار ، وقد أقيما تخليداً لذكر صاحبَيْن من أصحاب سحنون[43] .

مساجد العصر الصنهاجي :

- مسجد الحسن بن خلدون ، وقد قُتِل فيه هذا الفقيه سنة 407 هـ/ 1016 م .
- مسجد أبي بكر بن عبد الرحمان (ت. 432 أو 435 هـ/ (1040-1043 م)[44] .

- **العهد الحفصي** ، 368/1 [الترجمة العربية ، 400/1] ، **البيان** ، 169/1 ، وقد أطلق على هذا المسجد اسم المسجد الشريف الذي ربما يكون مجرّد نعت . **نقائش عربية** ، 61/1-64 ، 184-186 ، 254 وفي نفس المرجع ، 186/1 نجد ما يلي :

محمد بن خيّرون أبو جعفر محمد (ت. 301 هـ) أحمد

أبو الحسن جعفر (ت. 310 هـ) أبو محمد حسن (ت. 347 هـ) .

40) حسب تعليق لحسن حسني عبد الوهاب ، **أعمال** ، 493 . ولعلّ الأمر يتعلق بمسجد مقام بالقرب من بئر بروطة ، **معالم** ، 231/4 ، **العهد الحفصي** ، 369/1 [الترجمة العربية ، 401/1] .

41) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس 54/ظ [طبعة بيروت ، 494/1] .

42) نفس المصدر ، **مخطوط** باريس 72/ظ : مسجد عبّاس الفقيه صاحب سحنون [طبعة بيروت ، 152/2 : مسجد أبي عيّاش الفقيه صاحب سحنون] ، **البيان** ، 182/1-183 : مسجد ابن عيّاش الفقيه . وحول أبو عيّاش ، انظر ، **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 51/و [طبعة بيروت ، 235/1 ـ 354 ـ 417] ، **معالم** ، 174/2 ، **مدارك** ، **مخطوط** حسن حسني عبد الوهاب .

43) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس 54 ظ . [طبعة بيروت ، 501/1] .

44) **معالم** ، 192/3 - 140/4 . المسجد الأول ما زال قائم الذات ويسمى مسجد ابن خلدون . **نقائش عربية** ، 335/1 ، حسب ، **معالم** ، 211/1-212 . والمسجد الثاني كان موجوداً قرب سور المدينة بحارة الغرانطة . ولا شكّ أن الأمر يتعلق بالسور التابع للعصر الموالي للعهد الصنهاجي . أفلا يكون اسم هذه الحارة : « القرامطة » عوض الغرانطة (أهل غرناطة) ؟ .

ـ مسجد السّدرة[45] .

ـ مسجد أبي الحَكَم[46] ، وقد اعتصم به السّبائي مدّة عشرين سنة .

ـ مسجد أبي زرجونة[47] .

ـ مسجد آخر يقع بالقرب من حمام أبي إسحاق ودرب الأقرع بن بكّار[48] .

ـ مسجد ابن أبي نصر[49] .

ـ مسجد عون[50] .

ـ مسجد ابن اللجّام[51] .

ـ مسجد أبي الفتح الواقع في المكان الذي ينتصب فيه « أصحاب الشواذيق » (صانعو الأغطية)[52] .

ـ مسجد رحبة القرشيّين[53] .

ـ مسجد المقرعة القريب من الجامع الأعظم[54] .

ـ مسجد أبي عبد المطّلب الواقع بباب سَلَم (أو أسلم)[55] ، وقد أهدت إليه الأميرة أمّ العلوّ أخت المعزّ بن باديس مصحفاً .

---

45) معالم ، 105/3 وحول السّدرة ، انظر : رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 20 ظ . ، [طبعة بيروت ، 208/1] . وحسب معالم ، 129/2 ، فإن السدرة هي ربض من أرباض القيروان .

46) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 101 ظ . [طبعة بيروت ، 475/2] .

47) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 76 و. [طبعة بيروت ، 204/2] ، ستوريا ، 266/2 : أبو زرمونة .

48) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 72 ظ . [طبعة بيروت ، 151/2] .

49) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 36 و. [طبعة بيروت ، 336/1] .

50) نفس المصدر ، مخطوط باريس 41 و. [طبعة بيروت ، 375/1] ، ولا شك أن الأمر يتعلّق بعون بن يوسف صاحب سحنون .

51) معالم ، 113/3 . وانظر ، رياض النفوس ، مخطوط باريس 84 و. [طبعة بيروت ، 332/2 : أبو محمد عبد الله بن سعد اللجّام].

52) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 13و .[طبعة بيروت ، 138/1] .

53) أبو العرب ، 231 ، معالم ، 6/3 .

54) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 43 ظ [مسجد المقرعة لا « المفزعة » كما جاء خطأً في النصّ الفرنسي ، انظر : رياض النفوس طبعة بيروت ، 398/2 ، الهامش 20] .

55) شهيرات التونسيات (ط 1) ، 47 ، الهامش 1 .

ـ مسجد التوفيق بباب سلم الذي يرجع تاريخه ، حسب الاحتمال ، إلى العصر الصنهاجي[56] .
ـ مسجد باب سَلَم المعلّق الكبير[57] .

وأخيراً ، ورد ذكر مسجد المرجي (ولعله المرخي) في قبريّة مؤرّخة في سنة 416 هـ/ 1025 م[58] .

بناءات مختلفة :

كان قصر الحكومة السابق المعروف بدار الإمارة قائماً شرقيّ الجامع الأعظم[59] ، وكان يضمّ مختلف المصالح الإدارية (الدواوين)[60] . وكان المجلس الشرعي « دار القاضي » ملاصقاً للجامع الأعظم من الجهة الشرقية[61] .

ويبدو أنّ القصور الأغلبيّة السابقة لم تزل قائمة الذات عهدئذ ، وهي قصر الفتح وقصر الحمص وقصر الماء الواقع غربيّ الماجل الكبير قرب باب تونس . وقد شيّد الصنهاجيّون القصر الجديد ، ولكنّهم كانوا يفضّلون الإقامة في المصائف المحيطة بالمدينة . وكانت دار الضيافة مخصّصة لاستقبال السفراء وكبار رجال الدولة[62] .

الشـــوارع :

كان الشارع الرئيسي المعروف باسم السّماط ، مسقّفاً ومحاطاً من الجانبين بالدكاكين ، وكان يمتدّ من باب تونس شمالاً إلى باب أبي الربيع جنوباً ، « وطوله من باب أبي الربيع إلى الجامع ميلان غير ثلث ، ومن الجامع إلى باب تونس ثُلُثا ميل »[63] .

---

56) **العهد الحفصي** ، 369/1 [الترجمة العربية ، 401/1] .
57) نفس المرجع ، وفي القاهرة بنى الخليفة الحاكم ثلاثة مساجد معلّقة ، **الخطط** ، 42/2 ، **والنُّجوم** ، 54/4 .
58) **نقائش عربيّة** ، 360/1 ، بادريس ، حوليّات معهد الدّراسات الشرقيّة ، 1954 ، 129 : محمد المرخي (؟) (ت. 334 هـ/ 946 م) .
59) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 9 و ـ 22 ظ . [طبعة بيروت ، 12/1 ـ 97 ـ 225 ، 226 ، 237] . البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب . وفي فتوى صادرة عن السّيوري (ت. 460 أو 462 هـ/ 1067-1069 م) ، **المعيار** ، 26/7 ، ورد ذكر بعض الأعمدة التي نُقِلت من مسجد متداع يقع قبالة قصر الأمراء ، واستعملت من جديد في جامع القيروان .
60) **بساط** ، 10-11 .
61) نفس المرجع ، 26 .
62) نفس المرجع ، 10-11 .
63) البكري ، 25-26 .

وقد حوّل الخليفة الفاطمي المنصور وابنه المعزّ لدين الله جميع المتاجر والصناعات من القيروان إلى صبرة المنصوريّة[64] . وفي سنة 405 هـ/ 1014 م اتخذ باديس إجراءاً مماثلاً[65] . ويبدو أنّ أسواق القيروان قد استأنفت نشاطها السابق إثر ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش .

وقد أعطانا صاحب رياض النفوس المعلومات التالية حول ذلك الشارع الذي أسماه « السّماط الأعظم » :

يسلك المارّ « مُرَبّع السّماط الذي يُؤْخَذُ منه إلى « السقطيّين » [باعة الأسقاط أي الأشياء القديمة] وإلى ناحية « الأبزاريّين » [باعة الطّيب] »[66] . وفي موضع آخر[67] أشار المؤلّف إلى شخص كان قاصداً الجامع الأعظم ، فقال : إنه مرّ من درب سعيد بن السّكران ثم ساباط [ممرّ مسقّف] ابن العزفي حتى انتهى إلى المسجد الواقع قرب حمّام أبي إسحاق جوار درب الأقرع بن بكّار .

وكانت القيروان تضمّ خمسة عشر درباً[68] ، منها الدّروب التي كانت تحمل أسماء الأبواب المفضية إليها ، حسب الاحتمال ، وهي : درب (أبي) الربيع ودرب عبد الله ودرب تونس ودرب أصْرَم ودرب أسْلَم[69] . وكانت توجد دروب أخرى ، وهي : درب الحذّائين[70] ودرب السكّة[71] قرب دار ابن أبي زيد ودرب المُعَلّى[72] الذي كان يقيم به الشيعة ودرب الأقرع بن بكّار[73] ودرب أزهر[74] قرب باب تونس ، ودرب عبيد بن سوادة[75] ودرب الهذلي[76] ودرب ابن

---

64) البيان ، 219/1 ، البكري ، 25 وحسب المقدسي ، 14-15 ، الذي ألّف كتابه حوالي سنة 375 هـ/ 985 م ، تحوّل تجّار القيروان الخاضعين للضرائب إلى صبرة لطلب الرزق وهجروا أسواق العاصمة .

65) البيان ، 261/1 .

66) رياض النفوس ، مخطوط باريس 22 ظ . [طبعة بيروت ، 225/1] ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 101 ، بساط ، 5 .

67) رياض النفوس ، مخطوط باريس 9 ظ . [طبعة بيروت ، 151/2] ، بساط ، 5 .

68) المقدسي ، 16-17 .

69) هذا دليل آخر يؤيّد افتراضنا : باب سَلْم = باب أَسْلَمْ .

70) المقدسي ، 16-17 : الحذّائيّين .

71) معالم ، 121/3 ، مدارك ، 2-245/3 ظ . إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 ، 367 .

72) البيان ، 268/1 .

73) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 72/ ظ . [طبعة بيروت ، 151/2] .

74) نفس المصدر .

75) نفس المصدر .

76) بساط ، 5 .

دينـار[77] ودرب البهلول [بن راشد][78] ودرب المهـدي[79] بالقـرب من أحد أبـواب الجامـع الأعظم ، ودرب زيدان[80] ودرب الفرساس[81] قرب سوق اليهود ، ودرب أمّ أيّوب[82] قرب سوق الأحد . وتقع دار القاضي ابن أبي منظور في الشارع الأعظم[83] .

وأمّا أسماء الشوارع الأخرى فهي : شارع ابن المعتّب ، وهو يحمل اسم أحمد بن معتّب بن الأزهر (ت. 277 هـ/ 890-891 م) الذي كان يقيم فيه[84] ، وزقاق ابن حسنة[85] وزقاق ابن دينار[86] وزقاق بني (أو ابن) غانم[87] وزقاق الفرّانين[88] ، قرب السّماط ، والزّقاق الذي كان يقيم به « قوم من الجزيريّين » (أي سكّان جزيرة شريك)[89] .

السّاحـات والأسـواق :

أشار المالكي إلى الطرق التالية التي سلكها أحد الشبّان ، فقال : « مرّ من باب الريح حيث كان يسكن السبائي ثم رحبة ابن أبي داود ، وتمادى في طريقه فمرّ بالسّماط على دار ابن أسود الداعي ثم سوق ابن هشام (حيث كانت تباع المواد الغذائية كالبقول والحنطة والزيت واللحم)

---

77) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 ظ . [طبعة بيروت ، 362/2] .
78) نفس المصدر، 20 و . [طبعة بيروت ، 203/1] .
79) نفس المصدر ، 95 و . [طبعة بيروت ، 405/2] .
80) نفس المصدر ، 22 و .
81) بساط ، 5 ، نقلاً بلا شك عن المدارك ، 2-3/78 و .
82) نفس المرجع .
83) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و . [طبعة بيروت ، 359/2] . ولعل الشارع الأعظم تسمية أخرى للسماط الأعظم .
84) بساط ، 5 ، مدارك ، 2-3/8 و .
85) بساط ، 5 .
86) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 ظ . [طبعة بيروت 274/1] .
87) نفس المصدر ، 18 و . [طبعة بيروت 185/1] ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 101 .
88) نفس المصدر ، 44 ظ . 63 و . [طبعة بيروت ، 405/1] .
89) نفس المصدر ، 55 و. 104 ظ . [واعتبر ناشر طبعة بيروت ، 505/2 ، الهامش 393 ، أن هذا الزقاق ينسب إلى قوم من مسلمة الروم أصيلي إحدى جزر البحر الأبيض المتوسـط. ولعل هذا الافتراض هو الأقرب إلى الصواب] . ويبدو أن الحي الموجود في الوقت الحاضر قرب الجامع الأعظم بالقيروان والمعروف بحي القرانطة ، قد سُمِي بهذا الاسم نسْبةً إلى القرامطة (أي الشيعة) . كما يوجد الآن شارع بمدينة تونس اسمه « نهج القرمّطو » ، ولعل هذا الاسم تحريف لكلمة « قرامطة » .

إلى أن وصل إلى بئر أمّ عياض ، (وهي بئر قديمة تقع قرب الجامع الأعظم)(90) . وقد أشارت مصادر أخرى إلى وجود بئر برّوطة الشهيرة(91) .

أمّا السّاحات التي كان يطلق عليها اسم الرحبة ، فهي تتمثّل فيما يلي : رحبة بني دِراج [أو بني دارج] ، وينبغي لمن يدخل القيروان من باب تونس(92) ويروم الوصول إليها ، أن يمرّ من رحبة الأنصار(93) ورحبة القرشيّين(94) . وكانت توجد بالقيروان دار تسمّى دار الجمل(95) .

ويبدو أنّ سوق الأحد الواقعة غربيّ المدينة(96) كانت من أكبر أسواق القيروان ، تباع بها الأقمشة والفخّار . وفي وسط هذه السوق التي كان لها باب يسمّى باب سوق الأحد ، كان يوجد حيّ اسمه حارة أبي محرز . وأشار أحد المصادر إلى وجود صبّاغ في باب أبي الربيع(97) ، كما تحدّث عن سوق (الغنم) الواقعة بباب الغنم(98) ، وعن شراء الإبل من باب سَلْم(99) .

وكانت سوق العبيد تعرف باسم البِرْكَة(100) . ويبدو أن سوق الدّجاج كانت تقام كلّ يوم خميس قرب باب تونس(101) . ومن بين أسواق القيروان الأخرى ، نذكر : سوق الكتّانين(102)

---

90) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 102 ظ ، 105 و . 104 ظ [طبعة بيروت ، 488/2] ـ معالم ، 203/3 . وقد اشترى الشاعر الصرائري (ت . 418 هـ/ 1027 م) اللحم من سوق هشام .

91) مناقب ، 201 ، الهامش 19 ـ العهد الحفصي ، 364/1-369 [الترجمة العربية ، 397/1] .

92) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 24 و . [طبعة بيروت ، 235/1-236] .

93) معالم ، 19/3 .

94) أبو العرب ، 231 ـ معالم ، 6/3 .

95) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 82 ظ . [طبعة بيروت ، 236/2] .

96) نفس المصدر ، 44 و . [طبعة بيروت ، 404/1] ـ مدارك ، 2-192/3 ، و . ظ . أبو العرب ، 177 . الشماخي ، 260 ـ معالم ، 237/2 : كان هاشم بن مسرور يدخل من باب أبي الربيع فيتصدق (على الفقراء) ثم من باب سوق الأحد فيتصدق ، ويسير في الشارع ويتصدق . وكان يدخل من باب سَلْم (أو أسلم) ويتصدّق . بساط ، 5 ، ابن قنفطي ، 210/2 : تعال معنا إلى ماجل مهرية لنتسل . . . وكانت داره قريبة من سوق الأحد .

97) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 86 ظ . [طبعة بيروت ، 308/2] .

98) نفس المصدر ، 91 ظ . [طبعة بيروت ، 366/2] .

99) نفس المصدر ، 29 ظ . [طبعة بيروت ، 275/1] .

100) نفس المصدر ، 91 ظ . [طبعة بيروت ، 366/2] ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى القاهرة وتونس وفاس .

101) نفس المصدر ، 72 و . [طبعة بيروت ، 146/2] . المقدسي ، 14-17 : باب سوق الخميس هو أحد أبواب الجامع الأعظم العشرة .

102) بساط ، 5-6 .

وسوق الغَزْل (الخيوط)[103] وسوق الخزّازين (باعة أقمشة الحرير)[104] وسوق إسماعيل التي تحمل اسم إسماعيل تاجر الله وتقع بالقرب من المسجد الكبير الذي بناه ذلك التابعي[105] وسوق الكعك[106] والسوق الكبيرة[107] التي كان يوجد بها بعض الطبّاخين ، وسوق الجواهريّين[108] وسوق الصّيارفة[109] . وغير بعيد عنها توجد في سوق الضّرب (أي السكّة) ، القيصريّة[110] (وهي عبارة عن مستودع عام) . وتقع دار الضرب بجوار باب الطراز[111] . كما توجد أيضاً سوق البزّازين[112] (باعة النسيج) وسوق السرّاجين[113] وسوق الرهادنة[114] (أو الرهادرة أي باعة الأقمشة) الواقعة حسب الاحتمال قرب باب الرهادنة التابع للجامع الأعظم ، وسوق الجزّارين[115] وسوق العطّارين[116] وسوق الطعام (الحبوب)[117] وسوق الزجّاجين[118] . وفي

---

103) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 72 ظ . [طبعة بيروت ، 146/2] **بساط** ، 5-6 ، وقد أكّد المؤلف أن سوق الأحد وسوق الكتانين وسوق الغزل كانت متلاصقة .

104) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 42 ظ . [طبعة بيروت ، 390/1] . وقد ورد فيه ذكر شاب خزّاز . **مخطوط** لندن : الجزارين ، دون ذكر مهنة الشاب .

105) نفس المصدر ، 10 و . [طبعة بيروت ، 407/1] . معالم ، 149/1 .

106) نفس المصدر ، 72 ظ . [طبعة بيروت ، 151/1] .

107) نفس المصدر ، 52 ظ . [طبعة بيروت ، 575/1] .

108) **بساط** ، 5-6 .

109) نفس المرجع ، ابن قفطي ، 210/2 ، مرّ المهري إلى ناحية القيصرية من سقوق الصيارفة .

110) البكري ، 22 . **نقائش عربية** ، 11/1 الهامش 2 . وأشار برنشفيك إلى وجود قيصرية في كل من تونس وبجاية ، **العهد الحفصي** ، 345/1-347 ، 382 ، 235/2 .

111) **بساط** ، 10 .

112) نفس المرجع ، 5-6 . **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 46 ظ . [طبعة بيروت ، 421/1] .

113) **بساط** ، 5-6 .

114) نفس المرجع . **نقائش عربية** ، 279/1-282 و2 عدد 308 . **العهد الحفصي** ، 364/1 [الترجمة العربية ، 397/1] . وحول الرهادنة/ الرهادرة ، انظر : الإدريسي ، المعجم ، 309 ، ودوزي ، الذيل ، 562/1 .

115) **رياض النفوس** ، **مخطوط** باريس ، 44 ظ . [طبعة بيروت ، 405/1] ، ابن قفطي ، 210/2 : مررنا من الجزارين .

116) ابن قفطي ، 210/2 : رومي من سكان (سوق ؟) العطّارين .

117) نفس المصدر ، 210/2 . وفي رياض النفوس ، **مخطوط** باريس ، 36 ظ : « سوق املار » [حسب قراءة مؤلف هذا الكتاب . أما ناشر طبعة بيروت ، فقد قرأها « سوق إيلان » ، وهي قراءة ظنية ، انظر الطبعة المذكورة ، 338/1 ، الهامش 46] . **نقائش عربية** ، 2/ عدد 318 : قبرية عبد العزيز بن خلف الحريري تاجر بسوق الحريريين (ت . 427 هـ/ 1036) .

118) أبو العرب ، 78 .

العصر الأغلبي تمّ ، حسب الاحتمال ، بناء الحوانيت الجديدة[119] في أقصى الجانب الشرقي من سوق الرهادنة وفي آخر سوق الكتانين . وهي عبارة عن دور قديمة تمّ تحويلها إلى دكاكين وأطلق عليها اسم « الحوانيت الجديدة » . وقد غادر النّاس أسواقهم وانتصبوا في الحوانيت التي أذن الأمير ببنائها[120] .

وأخبرتنا فتوى صادرة عن أحد فقهاء العصر الصنهاجي[121] ، أن الفاطميّين قد بنوا في موقع السجن القديم سوقاً أسموها سوق الحبس وأشار أبو الحسن القابسي إلى هذه السوق قائلاً : إن سوق الحبس جحيم وأسواق صبرة معرّة ، ويبدو أن حبس الزيادة هو السجن الجديد الذي بناه بنو عُبَيْد[122] . وكان فندق (أو فنادق) ابن خيرون مجاوراً للسجن[123] . وأشارت بعض المصادر إلى فندق آخر يقال له فندق الكتّان[124] .

وفي شهر ربيع الأوّل 305 هـ/ 22 أوت ـ 20 سبتمبر 917 م ، « تمّ شأن القاسميّة (نسبة إلى الخليفة الفاطمي أبي القاسم) بالقيروان» ، وانتقل إليها التجار وأهل الصناعات »[125] . وفي الإبراهيمية[126] التي لا شكّ أنها كانت تحمل اسم الخليفة الأغلبي إبراهيم الثاني ، كان الناس يشترون الأبْدان[126م] . وكانت موجودة « على ضفّة الوادي (وادي القصّارين) نوّالات[127] مغصوبة يباع فيها البقل »[127م] .

---

119) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 22 ظ . [طبعة بيروت ، 280/1] .
120) معالم ، 24/2 .
121) فتوى القابسي (ت . 403 هـ/ 1012) ، المعيار ، 431/9 .
122) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 101 ظ .
123) البيان ، 169/1 . رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 64 و . ابن فرضي عدد 1197 ، في ترجمة شخص من قرطبة (ت . 317 هـ) قيل إنه نزل بالقيروان في فندق ابن خيرون .
124) البيان ، 280/1 .
125) نفس المصدر ، 180/1 . وورد ذكر القاسمية في رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 104 و . [طبعة بيروت ، 499/2] .
126) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 101 و . [طبعة بيروت ، 469/2] .
126 م) [أبدان = جمع بَدَن وهو ثوب يصنع عادة من الصوف] .
127) [نوالات = جمع نوالة أي الكوخ لا الدكان ، كما أكد ذلك المؤلف] .
127 م) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 85 ظ . [طبعة بيروت ، 293/2] .

الحمّامات العموميّة :

كانت القيروان تضمّ أربعة وثمانين حمّاماً عموميّاً[128] على أقلّ تقدير ، نخصّ بالذكر منها حمّام النّعمان وحمّام أبي إسحاق ، « جوار درب الأقرع بن بكّار »[129] ، وحمّام الجزّارين ، « وربْعُه حبس على القصر الجديد »[129م] ، وحمّام أبي محمّد الذي كان مخصّصاً لذريّة أبي محمد (بن أبي زيد) ، وحمّام ابن العزفي[130] ، وحمّام أبي الربيع الواقع ، حسب الاحتمال ، قرب باب أبي الربيع[131] .

الأرباض :

كان ربض المُبْتلين أو الدِّمنة يضمّ دار الجُذماء ، ومأوى المكفوفين والعُجّز المعوزين ، ومسجدَيْن يجتمع فيهما النّاس للذكر والدعاء ، وهما مسجد السّبت المبني بالطّوب ومسجد الخميس الذي بناه الزّاهد إبراهيم الدمني (ت. 305 هـ/ 917-918 م) بالقرب من « حارة المرضى » . ولعلّ هذه الدمنة لا تختلف عن دمنة سوسة[132] .

كما كان موجوداً بالقيروان أيضاً ربض السدرة[133] وربض الرّوْحاء[134] الذي يبدو أنه كان

128) حسب البكري ، 26 . وأكد صاحب البساط ، 11-12 ، أن هذا الرقم هو دون الواقع ، لأن الإدريسي (ص 110) قد صرح بأن صبرة ـ المنصورية كانت تعد 300 حمام . ولكن أفلا يكون هذا التقدير مبالغاً فيه ؟ على أن الإدريسي قد أوضح أن معظم هذه الحمامات لم تكن عمومية بل كانت موجودة في المساكن الخاصة .

129) رياض النفوس مخطوط باريس ، 54 ظ ، 72 ظ ، 102 و . [طبعة بيروت 269/2] ، معالم ، 141/2-142 - مدارك ، 2-182/3 و .

129م) [رياض النفوس ، طبعة بيروت ، 151/2] .

130) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 72 ظ . [طبعة بيروت 151/2] .

131) فتوى القابسي (ت . 403 هـ/1012) ، المعيار ، 431/9 .

132) بساط ، 10 ، العهد الحفصي ، 368/1 [الترجمة العربية 401/1] ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 54 ظ ، 71 - ظ . و . 72 ظ . و . 84 ظ . [طبعة بيروت 138/2] ، معالم ، 115/2-117 ، 235 ، 27/3-28 ، 134 . البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب 222 ظ ومخطوط الجزائر 95/1 ظ ، المعيار ، 309/1/310 . وفي فتوى صادرة عن القابسي (ت . 403 هـ/1012) ، المعيار ، 25/7 ورد ذكر دمنة تقع في مكانٍ ما بإفريقية ويقيم بها أناس غير مصابين بأي مرض يتوارثون ويبيعون الممتلكات ، وبها موضع يقال له الأحباس المحبّسة في الأصل على الجلماء .

133) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 20 ظ . [طبعة بيروت ، 209/1] . معالم ، 129/2 ، بساط ، 5 .

134) مدارك ، 2-22/3 و ، بساط ، 5 ، ياقوت ، البلدان ، 298/4 ، يعتبر الروحاء (التي يكتبها روحة) قرية تابعة للقيروان .

قرية مستقلّة بذاتها تقع شمال غربيّ المدينة وربض البقريّة ، وهو حيّ الملاهي[135] .

وكان لليهود سوق وحيّ خاصّ بهم يقال له حارة اليهود أو حارة خيبر[136] ومقبرة تسمّى « اليهوديّة »[137] ، وتقع ، حسب الاحتمال فيما وراء باب أبي الربيع[138] .

وكان هناك خمسة عشر حوضاً خارج المدينة[139] ، لتزويد السكّان بالماء ، منها حوضان كبيران ، أحدهما يقع في الناحية الشمالية بالقرب من باب تونس ويُعرَف اليوم باسم « فسقيّة الأغالبة » ، والثاني يقع بباب أبي الربيع . أمّا ماجل أبي الزمرّد الواقع شرقي المدينة في اتجاه سوسة ، فلعلّه يتمثل في قرية مستقلة بذاتها تقع في ضواحي القيروان[140] . وبالقرب من سوق الأحد يوجد ماجل مهريّة ، وهو عبارة عن حوض أغلبي مُعَدّ للتنزّه ، كان النّاس يتردّدون عليه للتجوّل والفسحة[141] . وكان ماء وادي السّراويل مخصّصاً لتبييض الأقشمة المنسوجة في القيروان والمصنوعة من القطن والكتّان[142] . وكانت تمتدّ شرقيّ المدينة سبخة فسيحة يستخرج منها ملح صافٍ وممتاز .

وكانت تحيط بالقيروان مساحات من الأراضي البالغة الخصوبة ، الواقعة بالخصوص في الناحية الشرقية والجنوبية الشرقية فيما وراء باب سلمَ وباب أصْرَم وباب الريح ، والتي يتكوّن منها فحص الدوّارة[143] . وفي سنوات الرخاء كانت الحبّة تنتج مائة حبّة . وكان الهواء في تلك المناطق نقيّاً وملائماً للصحّة . فكان الطبيب زياد بن خلفون ، كلّما خرج من القيروان متوجّهاً إلى رقّادة ومرّ

---

135) معالم ، 118/2 ، حسب صاحب الرياض. وفي البساط ، 5 ، 23-24 ، ورد أيضاً ذكر ربض المفلس (؟) وربض الريدان (؟) ، وقد سبق أن أشرنا إلى درب زيدان .

136) بساط ، 5-6 . وذكر حسن حسني عبد الوهاب أن الإسرائيليين بالقيروان كان يُطلَق عليهم اسم « خَيْبَري » ، المجلة التونسية ، 1917 ، ص 11 .

137) فتوى القابسي ، المعيار ، 431/9 ، والنص محرف .

138) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 86 ظ ، [طبعة بيروت ، 310/2] : لما خرج أهل القيروان مع أبي يزيد اجتمعوا في الجامع ثم اعترضوا في السماط وضربوا أخبيتهم عند اليهودية .

139) البكري ، 25-26 ، العهد الحفصي ، 373/1 [الترجمة العربية 406/1] . جورج مارسي ، الفنّ المعماري وسولينياك ، المنشآت المائية ، في مواضع مختلفة .

140) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 83 و . [طبعة بيروت ، 267/2] .

144) نفس المصدر ، 44 . [طبعة بيروت ، 404/1] ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 195 ، (Solignac) .

142) سولينياك ، نفس المرجع ، 35 .

143) البكري ، 24 : فحص الدرارة ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 72 ظ . [طبعة بيروت 150/2] : فحص الدوراة ، الشماخي ، 262 : فحص القيروان .

أمام باب أصرم ، إلاّ ونزع عمامته ليتلقّى الهواء على أحسن وجه ويحافظ على سلامة صحّته . وفي اتجاه زغوان نجد فحص صالح (المطابق لسهل الفحص الحالي)[144] . ومن الأشياء الجديرة بالملاحظة أنّ الزياتين المحيطة بالقيروان لا تتضرّر قطّ ، مهما قطع أهل المدينة من حطبها لاستعمالها في أغراض منزلية ، حيث لم يكن لديهم أيّ نوع آخر من الحطب[145] .

هذا ومن الصّعب تقدير عدد سكّان القيروان قبل خرابها . وحسب البكري ، أُحصِيَت الحيوانات المذبوحة في عيد واحد من أعياد عاشوراءِ ، فكان عددها 950 ، باعتبار رؤوس البقر لا غير[146] .

وقد تعجّب المقدسي من رخص الأسعار المعمول بها في القيروان ، قائلاً : يمكن للمرء أن يشتري بدرهم واحد خمسة أُمْنَاء (المنى يساوي رطلين) من اللحْم وعشر تينات . ولا فائدة في السؤال عن سعر الزبيب والتمر والعنب والزيت[147] .

وبعد مرور زهاء العشر سنوات على تخريب القيروان من طرف بني هلال تخريباً كاملاً[148] وارتحال معظم سكّانها ، تمثّل تدهورها في بناء سور جديد أقلّ طولاً من السور السابق . فلما تمّ « اختصار » المدينة بقيت دار السّيوري (ت. 460-462 هـ/ 1067-1068 م) خارج السور ، رغم احتجاجه على ذلك[149] . ويبدو أنّ رسم السّور الحالي يرجع عهده إلى ذلك العصر ، على الأقلّ بالنسبة إلى جزء كبير منه[150] . فقد أصبحت القيروان محصورة في الحيّ الغربي وضواحي الجامع الأعظم . كما أصبح باب نافع وباب تونس اللّذان حُوّلا في اتجاه الغرب ، يحتلاّن منذ ذلك التاريخ موقعهما الحالي . أمّا السّماط الذي لم يعد هناك أيّ داعٍ لبقائه ، فقد تمّ تعويضه بالشارع الرئيسي (الممرّ) الممتدّ من باب تونس إلى باب الجلاّدين[151] .

---

144) المؤنس ، 55 .

145) البكري ، 26 .

146) نفس المصدر ، 60 .

147) المقدسي ، 14-15 .

148) حدّد البكري (26) تاريخ نهب القيروان خطأً بسنة 452 هـ/1060 م .

149) معالم ، 357/1-362 ، العهد الحفصي ، 358/1-360 ، [الترجمة العربية ، 392/1] .

150) العهد الحفصي ، 357/1 [الترجمة العربية ، 391/1] .

151) معالم ، 246/3 : توفي عبد الواحد ابن مفرج التلالسي حوالي سنة 480 هـ « ودُفِن بباب نافع المحدث مجاور لقبر أبي القاسم السيوري من الشرقي » . نفس المصدر ، 257/3 : « البرج الكبير الذي قرب باب تونس المحدث » . نفس المصدر ، 262/3 : « فمشى إلى كدية عند باب الجلادين ، من عادة الناس الجلوس عندها » .

وفي سنة 523 هـ/ 1128-1129 م قدّم كثير من أهل القيروان إلى الإمام المازري الذي وافق على ذلك « محضراً » يتضمّن عزمهم على بيع الموادّ المتأتّية من الأجزاء المتداعية من السور والحصن والأبراج ، وترميم تلك الأبراج التي سقطت سقوفها وأصبحت مهدّدة بالانهيار[152] .

وأشار أحد المصادر إلى وجود « البرج الكبير الذي قرب باب تونس المحدث » ، قبل سنة 580 هـ/ 1184-1185 م ، وقد كانت تقام فيه الصلاة على الجنائز[153] .

صبرة ـ المنصوريّة[154] :

حوالي سنة 336 هـ/ 947-949 م بنى الخليفة الفاطمي المنصور في صبرة المدينة الأميريّة التي أطلق عليها اسم المنصورية ، وذلك على بعد نصف ميل من القيروان ، على الأرجح . وكان موقع تلك المدينة الذي سُمّي في أوّل الأمر « صلب الجمل » يحتلّ تلّاً صغيراً . ولعل الأمر يتعلّق بالمُعَلّى التي أشار إليها الحُصْري (ت. 488 هـ/ 1095 م) في إحدى قصائده[155] .

وكانت المدينة ذات الشكل الدائري[156] محاطة بسور مبني بالطوب الموصول بالجير ، ومفصولة عن بناءات القيروان بفضاء فسيح كالطريق[157] . وكان التجّار ينتقّلون ذهاباً وإياباً بين القيروان وصبرة على ظهور الحمير .

وكانت لصبرة ـ المنصوريّة خمسة أبواب مزخرفة بالحديد ، وهي الباب القِبلي (الجنوبي) والباب الشرقي ، (ولعلّ أحدهما وبالأحرى الأوّل كان يحمل اسم باب وادي القصّارين) ، وباب

---

152) فتوى المازري ، المعيار ، 154/7 ، الإدريسي ، 110 ، البكري ، 26 .

153) معالم ، 257/3 ـ العهد الحفصي ، 362/1 [الترجمة العربية ، 395/1] .

154) حسب ابن حوقل ، 72/1 ، انتهت أشغال بناء المنصورية آخر يوم من شوال 336 هـ ، البكري ، 58 ، المقدسي ، 16-17 ـ بساط ، 14-15 ـ البلدان ، 336/5 ، 178/8 ، البيان ، 219/1-276-278 ـ ابن حماد ، 24-47 جورج مارسي ، الفن المعماري ، 66 ، 79-81 ـ نقائش عربية ، 87/1 ، الهامش 2 ، سولينياك ، المنشآت المائية ، 262-265 ، 268-272 ـ سليمان مصطفى زبيس ، المهدية وصبرة المنصورية ، المجلة الأسيوية ، 1956 ، 79-93 ـ .

155) ابن بسام ، 1/4 ، 214-215 ـ المنتخب ، 84 ، ابن حماد ، 24 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 271-272 ـ البيان ، 268/1 : درب المعَلى .

156) مثل بغداد .

157) وبلا شك فقد بُني هناك الفصيل وجدارَيْه سنة 444 هـ/1052-1053 م .

158) المقدسي ، 16-17 ، البكري ، 25 ، البيان ، 219/1 : في سنة 336 هـ بنى الخليفة الفاطمي المنصور المنصورية واستوطنها . « وخلت أكثر أرباض المهدية وتهدمت . ونقل أبو الطاهر سوقة القيروان إلى صبرة . وكان لها أربعة أبواب » .

زويلة وباب كتامة في الناحية الشمالية ، وباب الفتوح الذي كان يمرّ منه الأمير وجنوده متوجّهين إلى الحرب[159] .

وقد أشارت بعض المصادر[160] إلى بناء سور المنصوريّة في سنة 437 هـ/ 1045-1046 م . فهل كانت المدينة قبل ذلك بلا سور ، أم أهلّ أنّ الأمر يتعلق بترميم السور القديم ؟ ومهما يكن من أمر ، فإن أحد أبواب « مدينة عزّ الإسلام » كـان يحتوي عـلى نقيشة[161] مؤرّخـة في سنة 437 هـ/ 1045-1046 م ، ممّا يؤكّد صحّة الإشارة السابقة . وفي سنة 441 هـ/ 1049-1059 م ، « بُني المصلّى بالمنصوريّة »[162] . والجدير بالتذكير في هذا الصّدد أنّ المعزّ ، لمّا بنى سور القيروان سنة 444 هـ/ 1052-1053 م ، وصله بسور المنصورية[163] .

وقد أُقيم قصر الخليفة الفاطمي المنصور وسط المدينة[164] . وبنى المعزّ لدين الله الحنايا[165] وعدّة قصور مزدانة بالبساتين والأحواض . ومن بين المباني والقصور التي شيّدها الفاطميّون[166] ، نشير بالخصوص إلى قصر الماء[167] والإيوان والخَوَرْنَق[168] ومجلس الكافور ومجلس الرّيحان وحُجْرة التاج وحجرة الفضّة وقصر الخلافة[169] والمعزيّة .

وفي سنة 376 هـ/ 986 م ، بنى الأمير الصنهـاجي المنصور قصـراً بديعـاً[170] . وفي سنة 378 هـ/ 988-989 م ، « دخل الوادي إلى المنصوريّة وهدّم دورها »[171] .

---

159) ربما في اتجاه رقادة حيث كانت تتجمع جيوش بني زيري .

160) البيان ، 276/1 .

161) نقائش عربية ، 87/1-90 .

162) البيان ، 278/1 .

163) انظر الفقرة السابقة : الأبواب والأسوار .

164) حسب المقدسي .

165) سولينياك ، المرجع السابق ، 265 ، المعز ، 208-209 .

166) ابن حماد ، 24-47 ، المؤنس ، 82 ، جورج مارسي ، الفن المعماري ، 79-81 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 269 .

167) انظر وصف الشاعر علي ابن الأيادي لهذا القصر ، المنتخب المدرسي 46-47 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 268-269 ، المعز ، 207-208 .

168) ربما بسبب الاشتباه بين الخليفة الفاطمي (المعز لدين لله) والأمير الصنهاجي (المعز بن باديس) ، نسب صاحب المؤنس ، 82 ، إلى هذا الأخير بناء الإيْوان الأعظم والخورنق .

169) لعله قصر المنصور .

170) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني (ولاية المنصور) .

171) البيان ، 244/1 .

وكانت المنصوريّة تضمّ ثلاثمائة حمّام ، معظمها موجود داخل البيوت الخاصّة[172] ، كما تضمّ مسجداً جامعاً وأسواقاً مزدهرة وشوارع فسيحة[173] .

وحسب البكري ، كان الجُباة يستخلصون كل يوم في باب واحد من أبواب المدينة 26000 درهم ، بعنوان رسوم الدخول[174] .

وفي سنة 407 هـ/ 1016 م ، شهدت صبرة ـ المنصوريّة اضطرابات داخليّة موجّهة ضدّ الشيعة . وقد دُمّرت دار الإمارة وحُرِقت الأسواق[175] . وبعدما خرّبها بنو هلال ، لم تنبعث من جديد .

ضواحـي القيـروان :

كانت توجد الرّوحاء[176] في النّاحية الشمالية الغربية من القيروان وصَدَف[177] في النّاحية الجنوبية الشرقيّة ، وتشير قبريّة مؤرّخة في 425 هـ/ 1033 م[178] إلى وجود بلدة تسمى العَلَم (وهي ما زالت قائمة الذات إلى يومنا هذا) ، تقع على بعد 25 كلم شمالي القيروان . ولا شكّ أنه لم يبق عهدئذ أيّ أثر يذكر للمراكز العمرانية الأغلبيّة السابقة مثل العبّاسية ـ القصر القديم[179] والرُصافة[180] ورقّادة . إلاّ أن المنصور قد أقام برقّادة التي لم تبق منها إلاّ البساتين ، وبنى بها جامعاً ومصلّى سنة 374 هـ/ 984-985 م . كما أقام بها خليفته باديس[181] .

---

172) الإدريسي ، 110 ، بساط ، 14-15 .

173) بساط ، 14-15 .

174) البكري ، 25 .

175) انظر الفصل الثاني من الباب الثالث .

176) حسب خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة الواردة في صفحة 77 ، وقد رُسِمَت فيها الروحاء شمال غربي القيروان ، رغم ما جاء في رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 15 و . [طبعة بيروت ، 361/1] ، من أن شخصاً قد سار من باب أبي الربيع (الباب القبلي) إلى منزله بالروحاء ، واجتاز بلا شك كامل المدينة . البلدان ، 298/4 : الروحة قرية من قرى القيروان .

177) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، بئر صرف في الوقت الحاضر . رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 82 ظ . [طبعة بيروت ، 187/1] ، صدف اسم قبيلة يمنية .

178) نقائش عربية ، 1/ عدد 291 ص 419-420 .

179) دائرة المعارف الإسلامية (2) 24/1-25 (عبد الوهاب) .

180) بساط ، 13 ، البكري ، 28 .

181) أمر المعزّ لدين الله بحرث موقع رقادة باستثناء البساتين . البكري ، 27-28 ـ البلدان ، 267/4-268 ـ الإدريسي ، 130/3 المؤنس ، في مواضع مختلفة ، بساط ، 13-14 ـ سولينياك ، 233-235 .

وكان المسافر الذي ينطلق من القيروان[182] ، يسلك الطريق الرابطة بين رقّـادة والقصر القديم ، فيمرّ أوّلاً من المُنية المعروفة[183] ، وهي بلدة ذات أهمّية ، ثم زرود[184] ، وهي بلدة تنتج كثيراً من البقول ولا سيما الجَزَر ، وأخيراً قلشانة[185] الواقعة على بعد 12 ميلاً جنوب شرقي القيروان . وهي مدينة هامّة بها جامع[186] وحمّـام عمومي وزهـاء العشرين فندقـاً ، وتحيط بها البساتين وأشجار التّين التي تزوّد القيروان بثمارها . ويقـال إنّ أهلها قد جعلوا لبيوتهم أبواباً واطئة جدّاً إلى درجة أن الدوابّ لا يستطيعون اجتيازها ، وذلك لمنع العُمّال والجباة من دخولها . وفي قلشانة كانت تتوقّف القوافل القادمة من القيروان أو المغادرة لها لشحن وتفريغ البضائع . ولم تذكر لنا المصادر هل تمّ فيما بعد أم لا ، تجديد سور المدينة المبني بالطوب والطين ، الذي كان قد هدّمه زيادة الله [الأغلبي] إثر ثورة منصور الطنبذي[187] .

وفي الناحية الجنوبية الشرقية من القصر القديم كانت توجد منية الخيل[188] ، وفي الناحية الجنوبية الغربية دوران[189] . وعلى بعد حوالي عشرين كلم جنوب شرقي القيروان تقع قرية يقال لها : بُطْنة[190] . وفي الطريق الرابطة بين القيروان وقابس نجد المراكز العمرانية التالية : قلشانة ، وغدير الأعرابي وعين الزيتونة[191] .

وقد مرّ شخص متوجّه إلى سوسة من ماجل أبي الزمرّد ، ثم مال إلى قصر القبرياني فبات

---

182) البكري 28 .

183) نفس المصدر ـ سولينياك ، المرجع السابق ، 228-229 ، منية تعني مدينة النزهة .

184) البكري ، 28-29 وبساط ، 15 : زرور . وحسب الإدريسي ، 103-105 ، لا يتعلق الأمر بزرود الواقعة في ضواحي القيروان ، بل يتعلق ببلدة تقع على بعد خمس مراحل من قفصة في اتجاه جبل نفوسة . ولعل المؤلف المطلع أكثر على المدن الساحلية قد أخطأ . وعلى كل حال فإنه لم يذكر قلشانة . ويوجد في تلك المنطقة وادٍ يسمى زرود .

185) اليعقوبي ، 208 ، البكري ، 29 ، المقدسي ، 66-67 ، أبو العرب ، الترجمة 75 ، معالم ، 167/1 ، نقائش عربية ، 2/عدد 306 الهامش 3 ، البلدان 147/7 .

186) في عصر سحنون كانت قلشانة أهم من المنستير وسوسة وصفاقس والأربس . وقد أضفى عليها هـذا الإمام صفـة « مصر » ، التي لم يخص بها المدن السابقة الأخرى ، زروق وابن ناجي ، شرح الرسالة ، 346/1 .

187) اليعقوبي ، 347-348 . وفي المعيار ، 216/2 نجد فتوى صادرة عن البرقي فيها إشارة إلى خصومة نشبت بين صفَّيْن من القلشانيين ، يضم الصف الأول المدعو محمد بن عبد الحميد وأقرباءه ويسمى الصف الثاني أولاً مرق الأرض .

188) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، سولينياك ، المرجع السابق ، 24 .

189) الخلاصة ، نفس المرجع .

190) نقائش عربية ، 161/1 والهامش 3 ، قرب سيدي علي بن سالم .

191) اليعقوبي ، 347-348 .

به . وفي الصباح استأنف طريقة محاذياً الساحل إلى أن وصل إلى قصر الحمّامات حيث توقّف ليلة ثانية[192] . ومن بين المراكز العمرانية الأخرى الواقعة في ضواحي القيروان ، نشير بالخصوص إلى قرية الحُصْر[193] وخُشَن[194] والحريريّة[195] وقَلُوت الواقعة في الناحية الشرقية[196] وقرية بني تميم[197] الواقعة حسب الاحتمال قرب قلشانة .

قمّـودة :

تقطع منطقة قمّودة المزدهرة (تاكمودة في العصر القديم)[198] بين مناطق سبيبة والقيروان وصفاقس وقفصة ، وتشتمل على عدد كبير من المدن والقرى .

ففي المنطقة الواقعة بين قفصة وماجن الفجّ ، توجد مدينة طراق الهامّة التي تضم مسجداً جامعاً وسوقاً مزدهرة وتصدّر الأنسجة الصوفيّة إلى كلّ مكان ، حتى إلى مصر ، وتحيط بها البساتين المشتملة على عدد وافر من أشجار الفستق[199] . ويوجد في بلدة ماجن الفجّ (فجّ الحمار أو الحمام) المحاطة بالبساتين فندق وحوض كبير[200] . كما توجد في الناحية الشمالية بلدة الحوريّة (تلابت في العصر القديم)[201] . وتقع شمالي الفجّ مدينة مذكور (أو مذكورة) التي حلّت منذ عهد بعيد ، بلا شكّ ، محلّ سبيطلة ، قاعدة تلك المنطقة . وقد كانت تضمّ مسجداً جامعاً وعدداً

---

192) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 83 و . [طبعة بيروت ، 2/267-268] .

193) المنتخب ، 60 . بساط ، 15 .

194) البلدان ، 3/442 ، شذرات ، 3/39 ـ وهي البلدة التي يُنْسَب إليها الخشني صاحب الطبقات (ت . 361 هـ/972) .

195) المؤنس ، 55 ، توجد ضاحية من ضواحي مدينة تونس تحمل نفس الاسم ، مناقب ، 326 .

196) الشماخي ، 261 .

197) اعتماداً على كتاب أبي عبيد البكري وكتاب الحسن بن محمد المهلبي ذكر ياقوت ، البلدان ، 6/291 ، غزة وقال إنها بلدة في إفريقية على بعد مسيرة 3 أيام من القيروان تحط بها رحالها القوافل المتجهة إلى الجزائر (؟) .

198) حسن حسني عبد الوهاب ، كراسات تونس ، 1954 م عدد 5 ص 5-16 ـ الأمالبة 61 ـ نقائش عربية ، 1/381-382 ـ الهامش 5 .

199) البكري ، 47 ـ البلدان : طراق ، 6/38 ـ قفصة ، 7/138 . وأكد حسن حسني عبد الوهاب في المرجع السابق أن هذه البلدة تقع في المكان المسمى حوانت الحواكة قرب هنشير بو علم ، في منتصف الطريق الرابطة بين قفصة وماجن الفج .

200) البكري ، 47-75 ، حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع المذكور ، و . البلدان ، 6/38 .

201) البكري ، 75 .

كبيراً من المساجد والحمّامات والفنادق والأسواق وعيون الماء ، وتحيط بها من كلّ جانب الأشجار المثمرة ، لا سيما منها أشجار التين التي كانت تزوّد بثمارها المجفّفة القيروان وسائر المدن الأخرى . وقد بلغ تين مذكور من لذّة الطّعم ما جعله يباع بأسعار أغلى من أسعار الأنواع الأخرى[202] .

ولعلّ بلدة قصيرة غير المعروفة التي اعتبرها ابن حوقل مستقلّة بذاتها لم تكن سوى تسمية أخرى لمدينة مذكور ، حسب رأي الإدريسي ، أو بالأحرى اسم حارة من الحارتين التابعتين لها[203] .

وبعيداً في اتّجاه الشمال ، نجد مدينة جمونس (وكثيراً ما تسمّى جمونس الصابون) التي يبدو أنها مطابقة لبلدة بئر الحفيّ الحالية . وهي مدينة من أكبر مدن ذلك الإقليم ، تشتمل على مسجد جامع وسوق مزدهرة وحمام عمومي وقصر مُستَعمل كمستودع عامّ ، ويحيط بها عدد كبير من القرى الزاهرة والبساتين المغروسة بالزيـاتين وأشجـار التين واللّوز[204] . وتوجـد شرقيّ قصـيرة بلدة نقاوس[205] .

ولم يُشر سوى المقدسي إلى قرية كبيرة من قرى قمّودة ، أطلق عليها اسم خَوْر الكاف[206] . وقد حاولنا تعريفهـا بمجدول التي لم يذكرها هذا المؤلّف[207] . وهي قرية كبيرة تبعد بنفس المسافة عن جمونس والساحل وتقع بالقرب من السبخة التي تحمل نفس الاسم ، وكان يقيم في تلك الجهة الزناتيون[208] . وأخيراً توجد في ما وراء تلك المنطقة في اتجاه القيروان ، قرية لبني دعّام المطابقة

---

202) اليعقوبي ، 349 ، ابن حوقل 94/1 : مذكور التي يبدو أنها عُوِضَت فيها بعد بمذكـود (حسب الناشر) ، البكـري ، 153 : مذكود ، وحسب حسن حسني عبد الوهاب (المرجع المذكور) ينبغي البحث عن موقع هذه المدينة في أطـلال سيدي علي بن عون أو من ناحية ماجن السماوي وسليسة . .

203) ابن حوقل ، 94/1 (الطبعة الأولى 67) ، الإدريسي ، 105 ، البلدان : قفصة ، 138/7 ، لقد أهمل حسن حسني عبد الوهاب (المرجع السابق) شهادة الإدريسي واقترح تحديد موقع قصيرة في أطلال قصور سيدي عيش .

204) البكري ، 75 ، ابن حوقل 94/1 : كمونس الصابون ، وجعل المقدسي ، 18-19 ، من جمونس قاعدة قمودة .

205) ابن حوقل ، 1-94 : نفايض، ابن حوقل ، الطبعة الأولى 67 : نقاوس . وذكر الإدريسي (ص 105) : نقاوس كما أوضح أن جمونس ونقاوس تقعان شرقي قصيرة = مذكورة (أو قفصة ؟) . وفي فتوى صادرة عن القابسي ، المعيار ، 415/2-41/7 ورد ذكر منزل يسمى جسطة (؟) يمكن أن يكون موجوداً في تلك النواحي .

206) المقدسي ، 18-19 .

207) ومن يدري لعل الأمر يتعلق ببلدة مزدوجة : خَوْد الكاف ـ مجدول . والجدير بالملاحظة أن البكري ، 75 قد أكد أن مجدول تشبه جمونس الصابون .

208) البكري ، 75 ، البربر ، 295/2 ، البلدان ، 388/7 ، مدارك ، 2-29/3 وـ العهد الحفصي ، 304/1 ، الخلاصة الخريطة ص 77 . حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ، 11 . إن بحيرة مجدول التي أشار إليها البكري مطابقة لقرعة مجدول الواقعة بين جبل سيدي خليف والطريق الرئيسية عدد 20 .

لبلدة سيدي علي بن نصر الله الحالية[209] .

وقد خرّب بنو هلال منطقة قمودة وقفصة بتمامها وكمالها[210] .

زغــوان :

كانت منطقة زغوان (زيكة في العصر القديم) غزيرة المياه وعامرة بالقرى والبساتين . وكانت تُعتبَر المكان المفضّل بالنسبة إلى المتنسّكين[211] .

جبـل وســلات :

لقد ظلّ جبل وسلات الواقع غربي سهل القيروان بين أيدي مزاتة الإباضيين[212] حتى حلول بني هلال في تلك المنطقة المرويّة إلى أبعد حدّ . وقد كانت في عصر الإدريسي مغطّاة بالزراعات وآهلة بالسكّان البربر المتعاطين لتربية البقر والغنم والبغال والخيل . وقد أصبح الأعراب الذين أبعدوهم إلى الجبال يسيطرون على السهل . وكان جبل وسلات يضمّ عدداً كبيراً من الحصون ، نخصّ بالذكر منها حصن الجوزات وحصن تيفاف وحصن القيطنة ودار إسماعيل ودار الدوابّ[213] .

وعلى بعد مسيرة يوم غربيّ القيروان ، توجد مدينة جلولة في الناحية الشمالية (كولوليس في العصر القديم)[214] . وهي مدينة صغيرة محصّنة ومحاطة بالبساتين والنخيل ، تقع في مكان كثير الأطلال ، ولذلك بُنِيَت بالحجارة ، وقد تسبّبت وفرة الياسمين في شهرة عسل جلولة . كما كان

---

209) البكري ، 75 ، حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ، 11 .

210) الاستبصار ، الترجمة ، 76 .

211) البكري ، 46 ، الإدريسي ، 119 . ويلحق البكري بمنطقة زغوان فندق شَكْل ، وهي قرية كبيرة تبعد مرحلة على تونس وقرية قلمجنة (؟) التي أسسها أبو القاسم بن عُبَيْد الله لإقامة بعض المتسولين من هوارة ونفوسة .

212) سولينياك ، المرجع المذكور 61-62 ـ البرزلي ، مخطوط عبد الوهاب 94 ـ و ـ ظ . وقد ذكر أن جبلْ وسلات كان في عصره خارجاً عن القوانين الإسلامية ، « لا تناله الأحكام الشرعية » ، الشماخي ، 292 : فتوح بن أبي حاجب الوسلاتي المزاتي .

213) الإدريسي ، 119-120 ـ مقديش ، نزهة الأنظار ، الطبعة الحجرية ، 38/1 [طبعة بيروت ، 126/1] ـ العهد الحفصي ، 304/1 [طبعة بيروت ، 335/1] .

214) ابن حوقل ، 86/1 ، البكري ، 31-32 ، الإدريسي ، 120 ، البلدان ، 129/3 ، الحلل ، 83/1-85 ـ العهد الحفصي ، 304/1 [طبعة بيروت ، 335/1] . الخلاصة ، خريطة ص 77 ، بساط ، 14 .

يزرع في تلك المنطقة قصب السكر أيضاً . وكانت الثمار والبقول تُنقَل كلّ يوم إلى القيروان بكمّيات وافرة . وكان يقيم في البساتين المحيطة بالمدينة أقوام تابعون لقبيلة ضريسة .

وعلى بعد مسافة قليلة ، يقع شمالي جلولة منتزه سردانية الذائع الصيت(215) ، وقد كان يُعتَبر أحسن مُقَام في إفريقيّة . إذ كان ينتج الثمار اللذيذة والورد والياسمين وقصب السكر ، وكان يعدّ زهاء الألف شجرة أترنج . وقد أُطلق على هذا المنتزه اسم سردانية ، نسبةً إلى جالية أجنبية قدمت من جزيرة سردانية إلى تلك المنطقة واستقرّت بها على الأرجح قبل قيام الدولة الفاطميّة .

وفي الناحية الغربيّة والغربية الشمالية من القيروان ، كانت توجد بعض الأماكن التي تعيد إلى الأذهان ذكرى العرب التجوبيّين الذين أقاموا في السابق في تلك المنطقة(216) .

وعلى بعد مسيرة يوم ، جنوب غربي جلولة تقع بلدة أجّر (أغار في العصر القديم)(217) . وهي ، حسب الإدريسي ، بلدة جميلة تحيط بها الحقول المزروعة قمحاً وشعيراً . ويؤكد البكري من جهته أن ضواحي أجّر ، كانت تقيم بها بعض القبائل العربية والسكان البربر التابعون لقبيلتيْ ضريسة ومرنيسة .

ولم نتمكّن من تحديد موقع مرنيسة التي قيل إنها بلدة بدون سور مبنيّة بالطوب . وقد أكّد المقدسي أنها تقع بين قرنـة وممّس(218) . فهل لا يتعلّق الأمر بمدينة أجّر ذاتها التي قد يكون أُطلِق عليها اسم قبيلة من أهمّ القبائل البربريّة المستقرّة في تلك المنطقة ، أي قبيلة مرنيسة ؟ وفي المنطقة الواقعة بين أجّر والأربس ، وعلى بعد مسيرة يومين من هاتين البلدتين ، نجد طاقجنّة(219) ، أو طاجنّة(220) ، أو طافجنّة(221) . وهي قرية تقع وسط سهل فسيـح وتوفّـر للسكّان ، في نـاحية الأربس ، الحنطة والشعير .

---

215) البكري ، 32 ، العبر ، 419/6 ، المؤنس ، 25 ، 62-63 ، حلل ، 83/1-85 ، نقلاً عن ابن الشباط . وقد بقي ذكر هذه القرية عالقاً بالمكان المسمى هنشير سردانية ، بساط ، 14 .

216) سولينياك ، المرجع السابق ، 163 ، الهامش 74 .

217) ابن حوقل ، 86/1 ، الإدريسي ، 120 .

218) المقدسي ، 4-5 ، 18-19 ، ومرنيسة هو اسم قبيلة بمنطقة تازة ، انظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، 335/3 ، البكري ، 90 ، 94 .

219) ابن حوقل ، الترجمة 223 .

220) الإدريسي ، 120 ، الترجمة ص 140 ، الهامش 2 : قلمجنة (حسب البكري) وطاقجنة (حسب ابن حوقل) وطاجنة (حسب الأدريسي) ونستخلص من ذلك القراءة الظنية . تاجنة .

221) ابن حوقل ، 86/1 .

مدينـة تونـس :

لقد تطوّرت مدينة تونس[1] تطوّراً كبيراً وازدادت تألّقاً في عهد بني زيري وبني خراسان ، وزاد خراب القيروان في نهضتها . فأضيف إلى المدينة العتيقة ربضان كبيران ، هما ربض بـاب السويقة في الناحية الشمالية وربض باب الجزيرة في الناحية الجنوبيّة . وقد أشارت بعض المصادر إلى وجود مجاري المياه المكشوفة في شوارع المدينة ، ممّا كان يتسبّب في عرقلة حركة المرور ، ربّما من أجل تكاثر السكّان[2] .

ويقال : إن سور تونس قد جُدِّد في عصر سيدي محرز [ابن خلف][3] . وقد أكّد البكري أنّ لتونس خمسة أبواب ، ولكنّه لم يذكر منها سوى أربعة وهي : باب الجزيرة (جزيرة شريك) في الناحية الجنوبية الشرقية ، وباب قرطاجنّة في الناحية الشمالية الشرقية وباب السّقائين في الناحية الشمالية وباب أرطة في الناحية الغربيّة . أما الباب الخامس فهو على الأرجح باب البحر[4] .

وكانت توجد قرب باب أرطة مقبرة سوق الأحد ، ويوجد خارج المدينة ، بجوار ملّاحة كبيرة ، ربض المرضى الذي يبدو ، كما يدلّ على ذلك اسمه ، أنه كان مخصّصاً للجذماء[5] .

وقد أُنجزَت طوال الفترة المعنيّة بالأمر ، أشغال هامّة بجامع الزيتونة الأعظم فيما بين 380 و 385 هـ/ 990-996 م وهي أروقة الصحن وقبّة باب البهو . كما أنشىء باب جديد في الرّواق الشرقي سنـة 457 هـ/ 1064-1065 م ، وباب آخـر يفتح عـلى سوق العـطارين سنة 474 هـ/ 1081-1082 م[6] .

---

1) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 73/1 ، اليعقوبي ، 348-349 ، البكري ، 37-41 ـ المقدسي ، 4-5 ، 52-53 ، 64-65 . الاستبصار ، الترجمة 18 ، الإدريسي، 111-112، المؤنس ، 6-10 ، 274-275 ـ مقديش ، 34/1-35 [طبعة بيروت ، 117/1-120] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 881/4-881 (برنشفيك) ، جورج مارسي ، تونس والقيروان ، باريس 1937 ـ برنشفيك ، العهد الحفصي ، 338/1-357 ، [الترجمة العربية ، 369/1-389] .

2) حسب المازري (ت . 536 هـ/1142 م) ، محمد الطالبي ، أرابيكا ، 296/3 .

3) مناقب ، 183-341 .

4) البكري ، 39-40 ، العهد الحفصي ، 340/1-342 [الترجمة العربية ، 371/1-373] ، ورد في أعمال ، 445 ذكر باب القيروان وباب الجزيرة في العصر الأغلبي ،وذكـر الإدريسي ، 111 ، خطأً لا محالة أن لتونس ثلاثة أبواب .

5) البكري ، 40 .

6) زبيس ، نقائس ، 1/ عدد 5 ، 6 ، 16 ، 17 ، ص 31-34 ، 37-41 ـ جورج مارسي ، الفن المعماري ، 71-72 العهد الحفصي ، 348/1 [الترجمة العربية 380/1] .

وانقرض عهدئذ قصر بني خراسان[7] . ويمكن تحديد تاريخ جامع القصر الذي ربّما كان تابعاً له بأوائل القرن السادس هجري ، (حوالي سنة 1106 م)[8] . كما شُيِّدَت في حدود سنة 486 هـ/ 1093-1094 م في وسط مقبرة لا تبعد كثيراً عن نهج سيدي بوخريصان الحالي ، قبّة بني خراسان ، وهي عبارة عن تُرْبة تضمّ أضرحة أعضاء تلك الأسرة[9] . وسيُطْلَق عليها فيما بعد اسم سيدي ابن نفيس ثمّ السلسلة[10] . ويرجع تاريخ بعض المعالم الدينيّة الأخرى إلى ذلك العصر ، مثل زاوية سيدي عبد العظيم[11] ومسجد المهراس[12] ومسجد عبد الله الواقع قرب الميناء[13] .

ولم نعثر على أيّ إشارة حول أسماء شوارع مدينة تونس في العصر الصنهاجي . ولعلّنا سنكتشف البعض منها بفضل إجراء دراسة مدقّقة في هذا الشأن[14] .

وكانت السّفن لا تستطيع الوصول إلى ما وراء القنال ، فيتمّ تفريغها حينئذ في موضع اسمه « وقور » ، ثمّ تنقل البضائع إلى المدينة بالزوارق[15] . وكانت تتحكّم في دخول الميناء سلسلة ممدودة بين سور مبنيّ بالحجارة في الناحية الشمالية وبين خزّان مبني أيضاً بالحجارة في الضفّة الجنوبية يقال له قصر السلسلة[16] . وقد أشار البكري إلى وجود قصر متهدّم في جزيرة شكلة (شكلي في الوقت الحاضر)[17] .

ويبدو أنّ ازدهار مدينة تونس لم يتقلّص قطّ . فقد اشتهرت ببواقيلها وصحونها الملوّنة وفخّارها المماثل للخزف المستورد من العراق ، وخوخها وثمارها . وحسب ابن حوقل كان إقليم

---

7) جورج مارسي ، المرجع السابق 89 .

8) نفس المرجع ، 75 ، ابن الخوجة ، **معالم التوحيد** ، 96-98 [طبعة بيروت ، 165] .

9) جورج مارسي ، المرجع المذكور ، 75-76 ، زبيس ، **نقائش** ، 1/ عدد 19 ، 42-43 .

10) زبيس ، المرجع المذكور ، 1/ عدد 8 ، 50-51 .

11) نفس المرجع ، 1/ عدد 19-57 ، عبد العظيم بن عبد الله التنوخي الزيّات (ت . 495 هـ/1101-1102 م) . توجد هذه الزاوية المتداعية بسوق السكاجين عدد 39 مكرر.

12) نفس المرجع 1/ عدد 18 ، 41-42 ، نهج جامع الزيتونة (نهج الكنيسة سابقاً) عدد 1 مكرر وبه نقيشة تأسيسه من طرف أبي محمّد عبد العزيز عبد عبد الحقّ بن خراسان مؤرخة في 485 هـ/1092-1093 م .

13) البكري ، 39 .

14) تفضل السيد حسن حسني عبد الوهاب بإعلامنا بوجود شارع بالقرب من نهج عاشور (حيّ سيدي محرز) يحمل اسم « نهج القرمطّور » ولعله تحريف لاسمْ : شارع القرمطي .

15) الإدريسي ، 111-112 [ومقديش ، **نزهة الأنظار** ، طبعة بيروت ، 120/1] .

16) البكري ، 39 .

17) نفس المصدر ، 39 .

تونس ينتج نوعاً ممتازاً من القطن الذي كان يُصدَّر إلى القيروان . وكان ينتج أيضاً القنّب والكرويّة والقرطم والعسل والسّمن والحبوب والزيت وعدداً كبيراً من الأنعام .

ضواحي مدينة تونس :

أشارت المصادر إلى وجود التجمّعات السكنيّة التالية في ضواحي مدينة تونس ، وهي قرية الفول والخضراء وطراقش ومـاينة وقـرية الحَـمّام (أو الحمّام) وشـبركة[18] وقـرية الجبّـاسين[19] والحريريّة[20] ومنزل خارجة الواقع في سهل عتيقة (أوتيك)[21] . كما ورد فيها ذكر أريـانة[22] ومنّوبـة[23] في العصر الصنهاجي . وأبعد من ذلـك تقع في الجهـة الشماليـة الغربيـة ، ربّما في ضواحي الجديّدة ، باجة تونس[24] وطبرية ، (توبربو مينوس في القـديم) ، وقد كـانت مأوى بعض المغامرين من بني هلال[25] . وكانت طنبذة القديمة الواقعة جنوبي سبخة السيجومي تسمّى منذ ذلك العهد بالمحمّدية[26] ، [وهي ما زالت قائمة الذات إلى يـومنا هـذا] . وخلف تلك المنطقة نجـد على التـوالي ، من الشمال إلى الجنـوب ، أوذنة[27] (أوثينـة في العصر القديم) ،

18) مناقب ، 150 . والبلدان ، 41/6 وفيه إشارة إلى طرطايش وهو اسم إفريقي ، لعله تحريف لاسم طراقش .

19) مناقب ، 154 .

20) نفس المرجع ، 158

21) المرجع المذكور ، 118 ، 120 ، 150 .

22) نفس المرجع ، 111-112 ، 123 ، 142 ، 153 . وحول بطن إباضي اسمه أريان ، انظر الشماخي ، 373 .

23) نفس المرجع ، 117 .

24) خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، إحدى المدن الإفريقية الثلاث التي تحمل اسم باجة . والمدينتان الأخريان هما : باجة الزيت الواقعة شمال شرقي الجمّ وباجة القمح ، وهي مدينة باجة الحاليّة الواقعة في منطقة وادي مجردة . مناقب ، 103 ، 112 ، 114 ، أقام سيدي أبو سعيد الباجي في أوّل الأمر بباجة ، وهي بلدة تقع غربي مدينة تونس ، وقد وُلد بها سنة 551 هـ . وعلّق السيد حسن حسني عبد الوهاب بخط يده على « مجموعة المناقب » التي على ملكه بهذه العبارة : « غير باجة القمح ، إنما هي باجة منّوبة » .

25) العهد الحفصي ، 300/1 ، [الترجمة العربية ، 331/1] .

26) البكري ، 38 ، رحلة التجاني ، 8-9 ، العهد الحفصي ، 301/1 [الترجمة العربية ، 332/1] .

27) الخلاصة ، الخريطة ص 77 . وأشار المقدسي إلى هذه البلدة الواقعة بين لافس (؟) وقلانس (؟) .

وشاذلة[28] وسمنجة[29] . وحسب شهادة البكري يوجد غير بعيد عن تلك المنطقة فندق شكل ، وهو عبارة عن قرية كبيرة تبعد عن مدينة تونس مسيرة يوم ، ثمّ قلمجنّة التي بناها ـ كما أسلفنا ـ أبو القاسم بن عبيد الله المهدي وخصّصها لإقامة الشحّاذين الغرباء القادمين من بلاد هوّارة ونفوسة[30] .

ونجد على شاطىء الساحل جنوبي مدينة تونس أوّلاً رباط رادس القديم (مكسولا في العصور القديمة) ، وهو ميناء كبير كان موجوداً في عصر البكري ولكن الإدريسي لم يذكره[31] . وخلف تلك المنطقة ، في المكان الذي تقع فيه بلدة حمّام الأنف (أو حمة شريك ، أو حمّة الجزيرة أو الحامّة ، فارو في العصر القديم) ، أشارت المصادر إلى وجود رباط اسمه قصر الحامّة ، وميناء اسمه مرسى الحامّة[32] . وفي قرية بني صلتان[33] كانت تقام سوق عموميّة .

أمّا في المنطقة الداخليّة ، فكان يمتد سهل مرناق الذي يقال إنه كان يشتمل في عهد الفتح الإسلامي على ما لا يقلّ عن 360 قرية[34] . وممّا لا شكّ فيه أنّه كان يضمّ في العصر الصنهاجي عدداً كبيراً من القرى . كما أشارت بعض المصادر إلى وجود بلدة إبيانة[35] وقرية بني فراس[36] الواقعة في ضواحي تونس .

---

28) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 وتقع هذه البلدة في مكان سيدي علي الحطاب وينسب إليها أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية .

29) نفس المرجع .

30) البكري ، 37-46 .

31) نفس المصدر ، 37 ، 38 ، 84 ـ **العهد الحفصي** ، 301/1 [الترجمة العربية ، 332/1] . بيل (Bel) ، **بنو غانية** ، 81 ، الهامش 1 .

32) البكري ، 84 ، ح . ح . عبد الوهاب ، تحيّة ويليام مارسي ، 2-3 ـ **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 93 ـ و . [طبعة بيروت ، 377/2] ، **رحلة التجاني** ، 10 ، **العهد الحفصي** ، 301/1 ، [الترجمة العربية ، 332/1] .

33) **رياض النفوس** ، 93 و . [طبعة بيروت ، 382/2] ، دائرة المعارف الإسلامية 1936 ، 297 ، ح . ح . عبد الوهاب ، المرجع المذكور [رحلة التجاني ، 22] .

34) البكري ، 37 .

35) **مدارك** ، 2-166/3 ظ ، ح . ح . عبد الوهاب ، المرجع المذكور ، 11-13 يمكن تحديد موقعها بالمكان المعروف باسم خاربة برج الخلّادي .

36) **المنتخب المدرسي** ، 57 .

وشمالي هذه المدينة كانت توجد بعض القرى الأخرى نخصّ بالذكر منها قصر الأمير الذي يبعد عن تونس ثمانية أميال ، ويبدو أنه مطابق لحلق الوادي ، ومرسى قرطاجنّة[37] والمعلّقة الكائنة في موقع قرطاجنّة والمحاطة بسور من الطوب ، وقد كانت مأوى لبني زياد الرياحيّين[38] ، وكانت جميع ضواحيها مزروعة[39] . وأشار البكري أيضاً إلى قصر قومش . وبالقرب من مرسى قرطاجنّة الذي تحوّل إلى ملّاحة ، يقع قصر الرباط المعروف باسم برج أبي سليمان . وفي قرطاجنّة ذاتها يوجد قصران يُعرفَان باسم الأختيْن[40] . ويبدو أن ضاحية المرسى الحالية كانت تسمّى عهدئذ بقصر الرّوم[41] .

وفي اتّجاه بنزرت تقع على شاطىء البحر المراكز العمرانية التالية : قصر جردان[42] وقصر جلّة[43] ومرسى رباط قصر الحجّامين[44] ورباط أبي الصقر[45] الواقع شمالي غار الملح ومرسى الثنيّة[46] ومرسى رأس الجبل ، ويسمّى طرفه الكنيسة[47] وقصر صونين[48] ، وقصر ترشة داود[49] ومرسى الوادي[50] ومرسى بني وجّاص[51] ومرسى القبّة[52] وقصر ياقوتة[53] الواقع في مدخل ميناء

37) البكري ، 84 .
38) نفس المصدر ، 43 ، الإدريسي ، 112-124 ـ **العهد الحفصي** ، 301/1 [الترجمة العربية ، 332/1] .
39) الإدريسي ، 114 .
40) البكري ، 44 .
41) **مناقب** ، 91 ، 101 ، 117 ، 120 ، 132 . وفي **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 69 ظ . [طبعة بيروت ، 126/2] ورد ذكر « أقلام مرساوية » ، نسبة إلى المرسى ؟ وجاء في حاشية أحد كتب المناقب ، أطلعني عليه الشيخ الفاضل بن عاشور ، أنّ حيّ دار الجلد كان يحمل في القديم اسم مرسى الروم ، المذكور في عقد ملكيّة قديم (رسم دار) .
42) الإدريسي ، 124 .
43) نفس المصدر .
44) المقدمي ، 4-5 : مرسى الحجّامين ، البكري ، 83 .
45) البكري ، 83 .
46) نفس المصدر .
47) نفس المصدر ، الإدريسي 124 .
49) نفس المصدر : برشة .
50) على بعد ثلاثة أميال من رأس بني وجّاص ، الإدريسي ، 123 .
51) نفس المصدر : وقّاص .
52) البكري ، 83 .
53) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 .

بنزرت ، وغير بعيد عنه حصن ابن أبي المهزول الذي أشارت بعض المصادر إلى وجوده في القرن الرابع هجري[54] .

إقليم سطفورة والشريط الساحلي من بنزرت إلى بونة :

كانت بنزرت[55] (هيبو دياريتوس في العصور القديمة) تُعتَبر قاعدة الإقليم الشمال الغربي المعروف في أوائل العصر الوسيط باسم سطفورة[56] . وهي مدينة جميلة يحيط بها سور مبني بالحجارة وبها مسجد جامع وحمّام وبساتين . [وبجهة الشرق منها][57] ، توجد بحيرتها الوافرة الأسماك ، وعند تعرّض أهلها لأيّ خطر ، كانوا يلتجئون إلى الحصون المجاورة لها . وإثر زحفة بني هلال التي يبدو أنّ المدينة لم تتضرّر منها كثيراً ، ظلّت بنزرت ، كما كان شأنها من قبل ، أصغر من مدينة سوسة ، ولكنّها كانت مجهّزة وعامرة على أحسن وجه ، وذات تجارة مزدهرة . وقد ساهم بنو الورد في نموّها وأقاموا بها بناءات ذات منفعة عامّة .

وأشارت المصادر إلى تينجة من بين المدن الثلاث الهامّة التي كان يشتمل عليها إقليم سطفورة[58] وهي بنزرت وتينجة وأنبلونة[59] الواقعة بين بنزرت وتونس . وحسب ابن حوقل ، كان سكّان تلك الربوع غِلاظاً شِدَاداً في البرّ والبحر ، يعرفون كيف يتغلّبون على المخاطر والشدائد .

والجدير بالتّذكير أنّ حصن جبل شُعَيْب المعروف باسم قريشة (أو قرشينة) وبلدة زرع كانا

---

54) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 92 ظ . [طبعة بيروت ، 376/2] .

55) **اليعقوبي** ، 348 ، ابن حوقل ، 74/1 ، البكري ، 57-58 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 27-29 ، الإدريسي ، 114-115 ، **البلدان** ، 266/5 (شطفورة) ، بيل ، بنو غانية ، 115 ، هامش 3 ، **العهد الحفصي** ، 299/1 [الترجمة العربية ، 330/1] .

56) [اسمٌ كان يُطْلَق على الإقليم الشمالي الشرقي من البلاد التونسية ، ويكتب بالسّين والصّاد] .

57) [زيادة من الإدريسي] .

58) أبن حوقل ، 74/1 (وورد خطأ في هذه الطبعة اسم متيجة) ، **البلدان** ، 266/5 : متيجة (خلط مع البلدة الجزائرية) ، الإدريسي ، 114 ، **العهد الحفصي** ، المرجع المذكور .

59) ابن حوقل ، 78/1 ، **البلدان** ، 343/1 ، 266/5 : انبلونة وشطفورة ، الإدريسي ، 114 ، مقديش ، 122/1 طبعة بيروت [أشلونة] ، **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، في المكان المسمّى سيدي أحمد بوفارس .

وكراً للأعراب المرتزقة . وخلف مرسى القبّة من الجهة الغربيّة الساحليّة ، أشارت المصادر إلى وجود مرسى الروم[60] ومرسى (أو قلعة) ابن أبي خليفة[61] وعندة[62] وطبرقة (تابركة في العصر القديم) . وقد كان الأعراب خلال القرن الثاني عشر يقومون بغارات على ضواحي تلك القلعة البحرية التي كانت ترسي بها مراكب الأندلس[63] . وكذلك الشأن بالنسبة إلى المناطق الداخليّة القليلة الزرع المحيطة بمرسى الخرز (القالة في الوقت الحاضر وتونيزة في العصور القديمة) . « وهي مدينة صغيرة عليها سور حصين ولها قصبة وحولها عرب كثير ، وعمارة أهلها على صيد المرجان لكثرته وجودته »[64] .

وادي مجـــردة :

في وسط وادي مجردة (بجردة في العصور القديمة) تقع مدينة باجة[65] ، (أو باجة القمح ، فاغا في العصور القديمة) ، وهي قاعدة إقليم من أخصب أقاليم المغرب ، ومدينة كبيرة تُنعَت بحقّ « بمطمر »[65م] إفريقيّة . وقد بُنيت في منحدر ربوة تحمل اسم عين من أهمّ العيون التي كانت تزوّد باجة بالماء ، ألا وهي عين الشمس ، كما يُطلَق اسمها أيضاً على أحد أبواب المدينة . وقد أضيف إليها ربض جديد في الجهة الشرقية بعد انهيار جانب من السور في تلك الجهة . كما بني محراب المسجد الجامع الضخم في اتّجاه ذلك السور (القبلة) .

وكانت في باجة خمس حمّامات وعدد كبير من الفنادق وثلاث ساحات عمومية تقام بها

---

60) البكري ، 83 .

61) نفس المصدر ، الإدريسي ، 123 .

62) البكري ، 57 ، **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، لعلها بلدة الجبل الأبيض الحالية .

63) **الأصطخري** ، 38 ، ابن حوقل ، 1/74-75 ، البكري ، 57 ، المقدسي ، 4-5 ، الإدريسي ، 115 ، **العهد الحفصي** ، المرجع المذكور .

64) ابن حوقل ، 1/75 ، البكري ، 55-83 ، المقدسي ، 4-5 ، الإدريسي ، 116 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 28-29 .

65) ابن حوقل ، 1/74 ، اليعقوبي ، 348-349 ، المقدسي ، 4-5 ، 18-19 ، البكري ، 56-57 ، الإدريسي ، 115-116 ، **البلدان** ، 2/25-27 العهد الحفصي ، 1/300 [الترجمة العربية ، 1/331] ، **الدولة الأغلبية** ، 62-64 - بيل ، **بنو غانية** ، 112 ، هامش 1 ، فورنال ، 1/213 ، هامش 1 .

65 م) [مَطْمَر = مكان لخزن الحبوب] .

الأسواق . وكانت تحيط بالمدينة مياه جارية تروي بساتينها ذات التربة السوداء والخفيفة . وكما هو الشأن بالنسبة إلى العصر الحاضر ، كانت منطقة باجة تجني كلّ سنة محاصيل وافرة من الحبوب والحمص والفول . وعندما ينخفض سعر الحنطة في القيروان ، كان من الممكن شراء حمل بعير من باجة بدرهمَيْن . وكان يتوجّه إليها كلّ يوم أكثر من ألف بعير ودابّة لشحن الحبوب وغيرها من الموادّ الزراعية ، دون أن ينجرّ عن ذلك أيّ ارتفاع في الأسعار المحلية .

وقد ظلّت خطّة عامل باجة التي هي من الوظائف المرغوب فيها إلى أبعد حدّ ، حكراً على بني علي بن حُمَيْد الوزير ، مدّة طويلة خلال العهد الأغلبي . وقد صرّح أحد أفراد تلك الأسرة أنّهم يولون أهمّية بالغة إلى تلك الخطة من أجل حنطة عندة وسفرجل زانة وعنب بلطة وسمك درنة .

وكان الصّيادون يصطادون البوري في منطقة باجة ويرسلونه مُلبّساً بالعسل ليحتفظ بغضاضته ، إلى عُبَيْد الله المهدي الذي كان يلتذّ به .

وبالطبع فقد استقرّ بنو هلال في سهل باجة وسيطروا عليه ، ولكن يبدو أنّ ذلك لم يكن له أيّ تأثير محسوس على ازدهار المدينة ومنطقتها .

وتقع غربي المدينة بلطة(66) ودرنة (سدي مشرق في الوقت الحاضر ؟) الواقعة بين باجة وطبرقة(67) . كما تقع بلدة خَوْلان(68) جنوبي بلطة .

وفي الجهة الشمالية الغربية توجد بلدة الأنصاريّين (الأنصاريّين في الوقت الحاضر) الواقعة في منتصف الطريق الرابطة بين باجة [القمح] وباجة تونس(69) . وفي مستوى باجة ، تقع في الناحية الجنوبية بلدة مجاز الباب (ممرسة ومبرسّة في العصور القديمة)(70) .

وعلى بعد مسيرة يوم من باجة ، أشار البكري إلى وجود قرية باسلي الواقعة في أراضي قوم

66) البكري ، 57 ، **الخلاصة** ، ص 77 ، **العهد الحفصي** ، 302/1 [الترجمة العربية ، 333/1] .

67) البكري ، 57 **الاستبصار** ، 88 **العهد الحفصي** ، 299/1-300 ، [الترجمة العربية . 330/1-331] .

68) **الخلاصة** ، ص 77 ، **الاستبصار** ، 88 ، العبدري ، **الرحلة** ، مخطوط على ملك ح . ح . عبد الوهاب ، 336 ، وفيه تعليق بالهامش يشير إلى أنّ هذا المنزل يقع شمالي سوق الخميس [بو سالم في الوقت الحاضر] بالقرب من بلطة وأنّ هناك وادٍ يسمّى وادي خَوْلان .

69) **الخلاصة** ، خريطة ص 77 . ينبغي التمييز بين هذا المدينة وبين المدينة التي تحمل نفس الاسم وتقع على بعد مسيرة يوم من الأربس .

70) **الخلاصة** ، خريطة ص 77 ، **الدولة الأغلبية** ، 63-64 .

من البربر اسمهم أورداجة (أو وزداجة)[71] . كما ذكر من بين القرى التابعة لمدينة باجة قرية على غاية من الجمال اسمها المغيريّة ، كانت بها عدّة كنائس قديمة بديعة[72] .

وفي الطريق الرابطة بين باجة والقيروان ، تقع بلدة قرنة التي كان يفصلها عن المدينتين المذكورتين طابقان ، ويحيط بها سور مبني بالحجارة[73] . وعلى بعد مسيرة يوم من فندق شكل وسبع مراحل من القيروان وثلاث مراحل من باجة ، كان يوجد منستير عثمان الذي هو عبارة عن قرية كبيرة بها مسجد جامع وعدّة فنادق وأسواق وحمّامات وحصن قديم . وقد كان بناها القرشيّون القادمون مع جنود الفتح ، وكان يسكنها قوم من العرب والبربر والأفارق[74] . وأشار نفس المؤلف أيضاً إلى وجود منزل مجفة[75] .

جزيرة شريك :

كانت جزيرة شريك[76] (أو جزيرة أبي شريك أو جزيرة باشو أو الجزيرة) منطقة خصبة ذات أسواق نافقة « وعمارات متّصلة » . وقد أشارت المصادر إلى وجود بعض القرى الواقعة في المنطقة الداخلية ، نخصّ بالذكر منها قرية القرشيّين وقرية الصقالبة[77] [ما زالت قائمة الذات إلى اليوم] وقرية اللّوزة[78] . إلاّ أن أغلب القرى تقع على شاطىء البحر ، إذ نجد في الجهة الغربية في المنطقة الفاصلة بين خليج تونس ورأس أدار : قصر جُهْم[79] وقربص[80] (أو قصر قربس -

71) اليعقوبي ، 73-74 ، البربر (النويري) ، 426/1 ، البكري ، 56-57 ـ الدولة الأغلبية ، 62-63 .
72) البكري ، 57 ، الاستبصار ، 88 : معرّبة ، أفلا يتعلق الأمر بقرية بولاريجية ؟ .
73) المقدسي ، 4-5 ، 18-19 ، 66-67 ، البربر (النويري) ، 410/1 ، الدولة الأغلبية ، 63 .
74) البكري ، 37 ، 55-56 .
75) نفس المصدر ، 41 ، البلدان (حسب البكري) ، 434/2 : مُجَفّة .
76) البكري ، 45 ، اليعقوبي ، 348 ، المقدسي ، 20 ، ابن حوقل ، 73/1 ، الإدريسي ، 118 ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 90 ظ . 91 ـ و . [طبعة بيروت ، 334/1-340] .
77) انظر حول هذين الموقعين ، خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، فالموقع الأول يطابق المكان المعروف باسم قرشين ، المقدسي ، قرية الصقالبة (الصقالبة الحالية الواقعة قرب منزل تميم) .
78) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و . [طبعة بيروت ، 355/2] : «مضوا لزيارة نصرون بقرية اللوزة بالجزيرة» ، لا ينبغي أن تشتبه علينا هذه القرية بلوزة الساحل .
79) الإدريسي ، 124 .
80) نفس المصدر ، مناقب ، 96 .

كوربيس في العصور القديمة) ، وقصر النخلة[81] وقصر بنزرت (؟)[82] وقصر نُوبَة (سيدي داود في الوقت الحاضر وميسوا في العصور القديمة) . وكانت نوبة في العهد الأغلبي تمثّل أهمّ مرسى إبحار إلى صقليّة ، قبل إنشاء دار الصناعة بسوسة ، وقاعدة الوطن القبلي[83] .

وعلى الواجهة الشرقية تقع من الشمال إلى الجنوب . مدينة قليبية (أو إقْليبية ، كلوبيا في العصور القديمة)[84] وقصر أبي مرزوق[85] ولبنة (أو قصر لبنة)[86] وقصر سعد[87] وقُرْبَة (أو قصر قربة ـ كوروبيس في العصر القديم)[88] ، وقصر توسيحان ، وهو قرية مبنيّة على رأس يحمل نفس الاسم ، بالقرب من أطلال رومانية[89] وأخيراً نابل (قصر نابل ، نيابوليس في العصور القديمة) ، حيث لم يشر الإدريسي إلاّ إلى وجود أطلال رومانيّة[90] .

وقد كان بعض المزاتيّين من الإباضيّة يقيمون بجزيرة شريك[91] .

ومنذ عهد بعيد حلّت مدينة باشو (أو منزل باشو)[92] محلّ نوبة ، وهي تقع في وسط سهل مدينة قرنبالية الحاليّة على بعد 7 كم من الجهة الجنوبية الشرقية في المكان المعروف باسم جديدة . وقد ألحّ الإدريسي على خصوبة جزيرة شريك المغروسة بالزياتين والمغطّاة بالزراعات والمرويّة على

---

81) الإدريسي ، 124 .
82) نفس المصدر .
83) اليعقوبي ، 348 ، الإدريسي ، 147 ، **العهد الحفصي** ، 306/1 [الترجمة العربية ، 337/1] ، ح . ح . عبد الوهاب ، تحية ويليام مارسي ، 2 . برنشفيك ، المجلة التونسية ، 1935 ، 149-155 ، الشماخي ، 382-383 .
84) البكري ، 45 ، 84 ، الإدريسي ، 124-125 ، اليعقوبي ، 348 ، وقد أشار إلى وجود مدينة النّواتيّة مقرّ إقامة العامل بالقرب من قليبية ، ومنها يتوجه الراكبون إلى صقلية . **الدولة الأغلبية** ، 61 ، ولم يرد ذكرها بعد ذلك ، أي بعد العصر الأغلبي ، والواقع أن الأمر يتعلق بمدينة نوبة ، انظر ح . ح . عبد الوهّاب ، المرجع المذكور .
85) الإدريسي ، 124 ، **الخلاصة** ، ص 77 .
86) الإدريسي ، 124 ، **الخلاصة** ، ص 77 .
87) الإدريسي ، 125 ، ستوريا ، 50/2 ، هامش 2 .
88) الإدريسي ، 125 .
89) نفس المصدر ، 119 ، 125 ، [وفي **نزهة الأنظار** (مقديش) ، 301/1 : توسيهان] .
90) الإدريسي ، 125 .
91) انظر الباب الحادي عشر .
92) ابن حوقل ، 73/1 ، المقدسي ، 19-20 ، البكري ، 45 ، الإدريسي ، 118 ، ح . ح . عبد الوهاب ، المرجع السابق ، 1-15 ، **بنو غانية** ، 72-74 .

أحسن ما يرام بفضل الآبار . ولكنّه أكّد أنّه « لم يبق من مدينة باشو إلاّ مكانها ، وفيه قصر معمور »[93] .

ومع ذلك فقد كانت باشو مدينة كبيرة آهلة بالسكّان ، وهي أهمّ من سوسة . وكان لهذه القاعدة الإقليمية غير المُسَوَّرة مسجد جامع وعدة حمّامات وثلاث ساحات عموميّة وأسواق نافقة[94] وكانت تقام فيها في كلّ شهر أسواق عمومية يتوافد عليها الناس من كلّ حدب وصوب . ويبدو أن هذه المدينة قد كانت ضحيّة جذّابة وسهلة المنال ، من ضحايا بني هلال . فقد تمكّن قسم من سكّانها كيفما كان الحال من الاعتصام بشبه حصن ، ربّما بقي قائم الذات بعد خراب المدينة ، ولاذ الآخرون بالفرار . أفلا يحقّ لنا أن نفترض أن القصور التي لم تشر إليها المصادر قبل أوائل القرن الثاني عشر ميلادي ـ ولكن ذلك لا ينفي وجودها قبل ذلك التاريخ في شكل رباطات مثلاً ـ قد كانت ملجأ للسكّان الخائفين ؟ .

ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أن الإدريسي لم يهتمّ إلاّ بالموانىء وأنه ألّف كتابه لملك صقليّة النرماني . ومهما يكن من أمر فليس هناك أيّ داع لعدم الاعتقاد بأن مدينة باشو قد خُرِّبت إثر زحفة بني هلال . وممّا لا شكّ فيه أن المدينة قد عُمِّرت من جديد فيما بعد ، إذ أكّد التجاني أن علي بن غانية قد خرّبها ونهبها في سنة 582 هـ/ 1186-1187 م ، « فاضطرّ أهلها إلى الفرار ، ففرّوا بأجمعهم إلى تونس ونزلوا بين سوريها ، فدخل عليهم فصل الشتاء هنالك فأهلكهم البرد والماء وأُحْصِيَ مَنْ مات منهم فكانوا اثني عشر ألفاً »[95] . ولكنّ النصّيْن غير متناقضَيْن . ذلك أنّ كثيراً من المدن التي خُرِّبَت في بداية الغزوة الهلاليّة قد استعادت شيئاً من ازدهارها فيما بعد ، ألَمْ يكن ذلك من مصلحة أهل البلاد والغزاة على حدّ السواء ؟ ألَمْ تكن باشو تمثّل بالنسبة إلى أولئك وهؤلاء ضرورة حيويّة ؟ فبعد النّهب لا بدّ من السعي ، كيفما كان الحال ، إلى طلب الرزق ، بزراعة الأرض وتربية الماشية وتعاطي التجارة .

[وجاء في **رياض النفوس**] أنّ بعض المسافرين قد غادروا ذات يوم قصر الحديد (أو الجديد) عند طلوع الشمس ، قاصدين سوسة ، فمرّوا من ماجل أبي الزمّرد وانتهوا إلى قصر

---

93) وقد استُعْمِلت بعض الأعمدة المنقولة من منزل باشو لبناء جامع القصبة الذي تمّ بناؤه من 629 هـ إلى 633 هـ/1231-1235 م ، زبيس ، **نقائش** ، 1/رقم10 ص 35 ، **رحلة التجاني** ، 14-15 ، [**تاريخ معالم التوحيد** طبعة بيروت ، 157] .

94) ابن حوقل ، البكري ، المقدسي .

95) التجاني ، المصدر السابق ، **بنو غانية** ، 72-74 ، ح . ح . عبد الوهاب المرجع المذكور ، 1-15

الفرياني عند المغرب . ومن الغد صباحاً استأنفوا رحلتهم محاذين البحر إلى أن وصلوا إلى قصر الحمّامات عند الظهر(96) .

وفي الناحية الجنوبيّة من مدينة باشو ، نجد على التوالي : قصر الزيت (الواقع في مكان بلدة سياغو العتيقة ، على بعد 4 كم شمال غربي الحمّامات وهو المكان المطابق تقريباً لبلدة بئر بورقبة الحالية) ، ثم فندق رَيْحان وقرية الدّواميس ، وهي قرية كبيرة محاطة بالزياتين والأشجار تقع بين باشو والقيروان ، وتبعد عنهما مسافة مرحلة(98) .

وقد كانت المرحلة الفاصلة بين الدواميس والقيروان عامرة بالقصور والمنازل والقرى(99) .

الشريط الساحلي من نابل إلى سوسة :

ثمّ نجد في الطريق المحاذي للبحر ، من نابل إلى سوسة : قصر الخيّاط(100) وقصر النخيل(101) والحمّامات التي يوجد بها قصر(102) وقصر المنار(103) وقصر المرصد(104) وقصر المرابطين(105) وهرقلة (أو أهرقلية أو هرقلية . هورياكايلا في العصور القديمة)(106) . ولعلّ البلدة المعروفة باسم منزل أبي سعيد(107) كانت موجودة في المكان الذي يُطلَق عليه اليوم اسم سيدي سعيد والواقع بين هرقلة وسوسة . وخلف هرقلة في اتجاه سوسة يوجد قصر عمر الأغلبي(108) .

---

96) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 83 و . [طبعة بيروت ، 267/2] .
97) البكري ، 45 .
98) نفس المصدر .
99) المصدر المذكور .
100) الإدريسي ، 125 .
101) نفس المصدر .
102) نفس المصدر .
103) نفس المصدر . **العهد الحفصي** ، 307/1 [طبعة بيروت ، 338/1] : قصر المنارة ، زبيس ، **نقائش** ، 1/ رقم 47 ، وقد حدّد موقع رباط المنار في بلدة بوفيشة الحالية .
104) الإدريسي ، 125 ، مقديش ، 132/1 [طبعة بيروت ، 136/1] ، **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 .
105) الإدريسي ، نفس المصدر . **الخلاصة** : على بعد 5 كم جنوبي بوفيشة في الساحل .
106) الإدريسي ، نفس المصدر .
107) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 94 ظ ، [طبعة بيروت ، 400/2] .
108) البكري ، 84 .

ســوســة :

لقد كانت سوسة[109] في العصر الصنهاجي قاعدة إقليم السّاحل . وكانت تسمّى في القديم حضرموت . وهي ميناء ومدينة تجاريّة وصناعيّة ، يحيط بها البحر ويطوّقها سور مبنيّ بالحجارة المنحوتة وله ثمانية أبواب . ففي شرقي دار الصناعة[110] يفتح باب الميناء الكبير ، وأمام البابَيْن الغربيَّيْن ، لا تزال موجودة أطلال ملعب ، يرجع تاريخه إلى العصور القديمة . وتمتدّ مقبرة المدينة غربيّ الباب القبلي المعروف باسم باب القيروان . وتشرف قبّة جامع سوسة التي يرفع فيها الآذان على أبواب البحر[111] . ولا شكّ أن باب القبلة كان موجوداً في الناحية الجنوبيّة الشرقيّة[112] .

وفي وسط المدينة يوجد داخل السّور محرس الرّباط المعروف برباط سوسة الذي ما زال قائم الذات إلى اليوم[113] . وفي الزّاوية الجنوبيّة الغربيّة التي هي أعلى زاوية من زوايا السور، ترتفع منارة الميناء المعروفة باسم « منار خَلَف الفتى » . وفي سفح الرّبوة التي أقيمت على منحدرها المدينة ، تقع القصبة في الجهة الشمالية ، غير بعيد عن دار الصناعة التي تشرف عليها[114] . وأشار البكري أيضاً إلى وجود الفنطاس (؟) ، وهو مبنى قديم يقع خارج السور ، ويمثّل أوّل منظر تشاهده المراكب عند وصولها إلى الميناء .

وقد كانت سوسة المبنيّة بالحجارة المنحوتة تضمّ مسجداً جامعاً وحمّامات عموميّة وفنادق وعدّة أسواق تزخر بالبضائع والسلع ، حيث يجد المرء أحسن ما في العالم من اللّحوم وشتّى أنواع

---

109) اليعقوبي ، 348 ، ابن حوقل ، 72/1-73 ، البكري ، 34-36 ، المقدسي ، 16-17 ، الاستبصار ، الترجمة ، 16-17 ، الإدريسي ، 125 ، البغدادي، 173/5-175 ، رحلة التجاني ، 25 ، الحلل ، 129/1 ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية، 1936 ، 103 ، المهد الحفصي، 307/1-308 [الترجمة العربية ، 338/1/339] .

110) من الجدير بالتذكير أن دار الصناعة بسوسة قد أنشئت للتخفيف عن ترسانات المهدية .

111) رياض النفوس مخطوط باريس ، 95 و . [طبعة بيروت ، 403/2] : « أبواب البحر » ، إن استعمال الجمع يدلّ على وجود ثلاثة أبواب على الأقل في سوسة تحمل اسم « باب البحر » . اللّهم إلّا إذا كانت هذه التسمية تعني ثلاثة أبواب مفضية إلى البحر ، إلّا أن كل واحد منها يحمل اسماً خاصّاً ، وقد أطلق على أحد هذه الأبواب ، أي باب الميناء مثلاً ، اسم باب البحر . وقد قيل إنّ سوسة محاطة بالبحر من ثلاث جهات (الشمال والجنوب والشرق) .

112) نفس المصدر ، 78 ظ .

113) انظر حول هذا الرباط ، جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 32 وليزين ، رباط سوسة . . . ، تونس 1956 ، وتقديم هذا الكتاب من طرف جورج مارسي في مجلة « كرّاسات تونس » 1956 ، 127-135 .

114) حسب البكري ، وفي البلدان : محرس القصب (وهذا خطأ لا شكّ فيه) .

الفواكه ، وكلّ ذلك بأسعار زهيدة . وقد كان المسافرون يتوافدون على المدينة من كلّ حدب وصوب .

وكانت صناعة النسيج الزاهرة إلى أبعد حدّ تشغّل بسوسة عدداً كبيراً من النسّاجين ، كما كان يُصنَع بها خيط (من الذهب ؟) يباع المثقال منه بمثقالَيْن من الذهب . ويتمّ فيها أيضاً تجهيز أقمشة القيروان الرفيعة . وكانت تصدّر إلى الشرق والغرب أنسجة سوسة الفريدة من نوعها والنّاصعة البياض ، وأقمشتها الممتازة ولا سيما منها الموصلي الذي يُسْتَعْمَل لصنع العمائم ويبّاع بمائة دينار فما فوق(115) . وحسب البكري ، كانت حباية « ساحل القيروان » (أي سوسة والمهديّة وصفاقس وتونس) تدرّ على الدولة 80.000 مثقال (أو دينار) ، بقطع النظر عن رسوم الدخول والخروج التي لا ترجع إلى بيت المال(116) . وقبل ذلك أشار ابن حوقل إلى خصوبة تلك المنطقة التي يقوم بإحيائها مزارعون نُزهاء وأذكياء . وقد كان أهل سوسة يملكون عدّة ضيعات توفّر لهم مداخيل طائلة ويدفعون للأسير مبالغ ذات بال .

وكانت العداوة بين أهل القيروان وأهل سوسة مضرب الأمثال . وقد فسّرها ابن شرف بالأسباب التالية : « كان أهل سوسة في الأصل عبيداً لأهل القيروان . وذلك أنه لما افتتحت إفريقيّة اشتدّت إغارة الروم على مدن البحر ، فابتنيت القصور على السواحل ، كقصور سوسة وغيرها ، وجُعِل بها من عبيد أهل القيروان ومن انتدب معهم قوم للرباط ، فكثروا هناك واستقلّوا بمدينتهم . فمجرّد دعوى حملت عليها العداوة والعدوى . والواجب أن لا يُقبَل كلام قرويّ ، على سوسي ، والعكس بالعكس »(117) . وهذه العداوة المتوارثة تعطي أهمّية بالغة للمأدبة التي أقيمت بمناسبة « اصطلاح أهل القيروان وأهل سوسة »(118) ، قبيل القطيعة مع القاهرة .

ويبدو أنّ قبّة الرّمل (أو قبّة الرملة) كانت تتمثّل في الأصل في جناح خاصّ بالأمير إبراهيم ابن الأغلب(119) ، ثم دُفِن بها فيما بعد بعض الشهداء(120) . ويمكن المقابلة بين قبّة الرمل هذه

---

115) حسب الاستبصار .

116) البكري ، 36 .

117) رحلة التجاني ، 23 .

118) انظر البيان ، 279/1 .

119) رياض النفوس ، مخطوط باريس 54 و ـ 76 ظ . [طبعة بيروت 487/1 ـ 207/2-231] . وفي صفحة 98 و . (مخطوط باريس) [وصفحة 446/2 (طبعة بيروت)] : قبّة الرمل التي لا تبعد كثيراً عن قصر المنستير .

120) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 79 ظ . [طبعة بيروت 231/2] وصفحة 76 ظ . (مخطوط باريس) [وصفحة 207/2 (طبعة بيروت)] : « وذُفِن الأربسي بسوسة عند قبّة الرمل » .

وبين رملة سوسة [التي أشارت إليها بعض المصادر][121] . وقد قام الأمير المذكور بتوسيع جامع سوسة الذي أضاف إليه ثلاثة سقوف من جهة القبلة وبنى مصلّى[122] . ولعلّ الجامع قد ضاق بالمصلّين إثر توافد اللاّجئين الفارّين من الغزاة الهلاليّين ، فأذن الأمير ببناء بعض القباب ذات الزوايا البارزة وعمودَيْن ملتصقَيْن بحافتي المحراب[123] .

ولا ندري ما الغاية من وجود القبّة التابعة لقهوة القبّة الواقعة في الوقت الحاضر في نهج بين القهاوي بسوسة . وقد رأينا من المفيد الإشارة إليها لأنها تشبه إلى حدٍّ ما قبّة بني خراسان الموجودة في مدينة تونس[124] .

ونشير أيضاً إلى المعالم التالية التي كانت موجودة في ذلك العصر بسوسة ، وهي دار العامل[125] وسوق الغزل[126] والماجل[127] ودار الشيوخ[128] والقنطرة[129] التابعة للمسجد الواقع بالشواري في سوق الفحّامين ، وقصر حبشي الذي كان في السابق تابعاً لأبي إسحاق بن حبشي بن عمر الأغلبي[130] والملعب القديم (المشار إليه آنفاً)[131] ، وحمّام ابن الزمرّد[132] .

وقد تكرّرت في المصادر الإشارة إلى دمنة سوسة[133] ، وهي عبارة عن مستشفى مخصّص للجذماء ، يبدو أنه كان موجوداً بين سوسة والقيروان ، ربّما خلف مصلّى سوسة . وكان حيّ

---

121) نفس المصدر ، 54 و . [طبعة بيروت ، 486/1] .

122) نفس المصدر ، 80 و . [طبعة بيروت ، 241/2] .

123) جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 72 ، زبيس ، القبّة الأغلبية بالجامع الكبير بسوسة ، تحيّة جورج مارسي ، 177/2-193 .

124) جورج مارسي ، المرجع المذكور ، 76 .

125) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 83 ظ . [طبعة بيروت ، 275/2] .

126) فتوى المازري ، المعيار ، 173/10 ، البرزلي ، المختصر ، 142 ظ .

127) رياض النفوس ، مخطوط باريس 79 ظ . [طبعة بيروت ، 230/2] .

128) نفس المصدر ، 78 و . [طبعة بيروت ، 223/2] .

129) نفس المصدر ، 54 و . [طبعة بيروت ، 488/1] .

130) نفس المصدر ، 71 و . [طبعة بيروت ، 135/2] .

131) نفس المصدر ، 95 ظ . [طبعة بيروت ، 402/2] .

132) وأشار البرزلي (3/ و ظ) إلى « أهل المرمى » ، نقلاً عن أحكام السوق ليحيى بن عمر (ت . 289 هـ/902 م) . وقد سبق أن أشرنا إلى ماجل أبي الزمرّد بالقيروان .

133) رياض النفوس ، مخطوط باريس 54 ظ ، 60 ظ ، 71 و ، 79 ظ ، 84 ، ظ ، [طبعة بيروت ، 9/2 ، 231 ، 275] - معالم الإيمان ، 69/2-116 . وأشار البكري ، 45 إلى وجود وادي الدمنة بين قصر الزيت وفندق رَيْحان .

الجذماء يعرف بهذا الاسم المعبّر ، أي « حارة المرضى » . وقد أشارت بعض المصادر إلى شخص كان يتردّد على دمنة سوسة ويمرّ من سوق الخيّاطين (أو الحنّاطين) « في وقت عمارته »[134] .

وكان لدمنة سوسة مسجدان ، هما مسجد دمنة سوسة (أو مسجد الدمنة) وبه مصلّى من جهة القبلة ، ومسجد الخضر . ويمكننا أن نتساءل هل لا يتعلّق الأمر بمسجد السّبت ومسجد الخميس التابعَيْن لدمنة القيروان المُغايِرة لدمنة سوسة ؟ ولعلّ الاسم الأخير قد أطلقه عليها أهل القيروان الذين كانوا يتردّدون عليها مراراً وتكراراً . ولعلّ موقع هذه الدمنة المخصّصة للجذماء كان أقرب إلى سوسة منه إلى القيروان .

السّاحل :

لقد أشارت المصادر إلى القرى التالية الواقعة جنوبي سوسة في اتّجاه الجمّ ، وهي قرية المريدين (وتعرف اليوم بالمردين)[135] والوردانين[136] وقصر الكنائس (وتعرف اليوم بالكنايس)[137] والبرجين[138] ومنزل كامل[139] وتُمَاجر[140] ، وهي مدينة هامّة بها جامع وأسواق وفنادق وحمّام عمومي وحوض (غدير ماء) ، ومحاطة بالزياتين وأشجار الخرّوب ، وباجة الزيت[141] وزبنّة[142] .

ولا ندري هل كان يوجد قبل زحفة بني هلال تجمّع سكني في موقع الجمّ (تيزدروس في

---

134) إن قلّة الدقّة في ضبط حركات المخطوط لا تسمح لنا باختيار إحدى القراءتين . [أمّا ناشر طبعة بيروت ، 275/2 ، فقد اختار قراءة : الخيّاطين] .

135) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 94 ظ . [طبعة بيروت ، 400/2] : المريدين .

136) **خلاصة تاريخ تونس** ، الخريطة ، ص 77 ، **العهد الحفصي** ، 309/1 [الترجمة العربية ، 340/1] .

137) **معالم الإيمان** ، 271/3 ، **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، **العهد الحفصي** ، 309/1 [الترجمة العربية ، 340/1] وفي **البيان** ، 166/1 ، ينبغي ، حسبما يبدو ، تعويض « الباس » بالكنائس ، إذ أن الأمر يتعلق بقرية من قرى الساحل .

138) وإليها ينسب عالمان من علماء الزيتونة (البرجيني) ، 380-385 هـ/990-995 م . زبيس ، **نقائش** ، 1/رقم 6 ، ص 33 .

139) البكري ، 29 .

140) نفس المصدر ، المقدسي ، 66-67 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 16 : تمجرت في منتصف الطريق الرابطة بين المهدية والقيروان على بعد مرحلتين من المدينتين ، وهي تقع بين منزل كامل وقصور الساف .

141) **البلدان** ، 27/2 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 339-340 .

142) **البلدان** ، 375/4 ـ **الخاصة** ، الخريطة ص 77 .

العصر القديم)[143] . ولكنّ التجاني قد أكّد أن « قوماً من البربر كانوا قبل هذا ساكنين بقصر مليّة من أرض زوارة » ثم استقرّوا ، بعدما أجلاهم الغزاة ، في مكان غير بعيد من الجمّ ، حيث كانت توجد في عصره قرية عامرة . وأشار نفس المؤلف إلى « نزوله بمنزلة بين زرمدين وجمّال » أي في قلب منطقة الساحل ، حيث شاهد « من اليمين والشمال قصوراً متفرّقة وقرى كثيرة قد أخلتها العرب وأجلت ناسها »[144] . وحسب البكري[145] ، كان الجمّ يمثّل الحدّ بالنسبة إلى سوق الحُسَيْني ، وهي منطقة كانت توجد بها قرية يسكنها قوم يعرفون باسم أرزلس (؟) أو أزرلس (؟) ، وبها جامع وحمّام وأسواق . وعلى بعد اثني عشر كلم جنوب شرقي الجمّ تقع قرية رُقّة في المكان الذي تحتلّه في القديم بلدة براروس[146] .

وفي فصل الشتاء كانت السفن تحتمي بمرسى شقانص[147] (ضاحية صقانس الحالية القريبة من المنستير) . ويقع هذا المرسى على بعد حوالي ثمانية أميال جنوبي سوسة ، وكان يشرف عليه « محرس رباط » عظيم يطابق قصر الطوب[148] ، حسب الاحتمال . كما أننا نعرف رباطاً آخر يقع بالقرب من سوسة ، اسمه قصر طارق[149] . ويوجد شرقي سوسة قصر سهل المعروف بالقصر الجديد[150] والواقع قبالة قصر الطوب . وبعد قصر ابن الجعد[151] (قرية ابن جعد في الوقت

---

143) **رحلة التجاني** ، 57-59 ، **الحلل** ، 131/1 ، **العهد الحفصي** ، 310/1 [الترجمة العربية ، 341/1] .

144) التجاني ، المصدر المذكور ، 55-56 .

145) البكري ، 20-21 .

146) ورد في رسم وقف يرجع تاريخه إلى القرن الحادي عشر ميلادي ، اسم المحبّس : وهو عبد الله بن يوسف الرقي ، (Objets Kairouanais) ، 210/1 ، هامش 11 .

147) ابن حوقل ، 73/1 ، البكري ، 84 : مرمى خفانص ، الإدريسي ، 126 : شقانس ، **معالم الإيمان** ، 270/3 ، 282 ، **العهد الحفصي** ، 308/1 . [الترجمة العربية ، 341/1] .

148) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 47 و ، 49 و ، 60 ظ ، 61 و ، 62 و ، 70 ظ ، 78 و ، [طبعة بيروت ، 410-411/1 ، 10/2-12-13 . 14-27] ، **معالم الإيمان** ، 75/2 ، **البيان** ، 171/1 ، الخلاصة ، **الخريطة** ص 77 .

149) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 94 ظ ، 95 و ، [طبعة بيروت ، 400/2-401] ، **المنتخب** ، 54 ، هامش 2 .

150) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 79 ظ ، 82 ظ ، [طبعة بيروت ، 136/2-234] . دائرة المعارف الإسلامية ، 1935 ، 297 ، **معالم الإيمان** ، 130/2 .

151) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 46 و ، 49 و ، 99 ظ ، [طبعة بيروت ، 410/1-411-446] ، **معالم الإيمان** ، 107-108 ، 173 ، الإدريسي ، 126 ، المعيار ، 183/1 ، **العهد الحفصي** ، 308/1 [الترجمة العربية ، 341/1] . وكثيراً ما نجد في المصادر قصر أبي الجعد .

الحاضر) ، نجد على بعد أربعة أميال من شقانص ، قصور المنستير ، وغير بعيد عنها قنطرة[152] .

منستيـر :

كانت منستير[153] (أو المنستير ، روسبينا في القديم) المشهورة بالتعبّد ، تتركّب أساساً من ثلاثة رباطات على أقلّ تقدير[154] ، تُعرَف بقصور المنستير . ثم شُيِّدت بعض المساكن وأُلحِقت بعض الأراضي المحبّسة على المرابطين بالمنطقة ، المعروفة بالقَرْطِين[155] . وقد أُطلِق على أقدم جزء من المساكن اسم الزريبة ، وكان في عصر الإمام المازري (ت. 536 هـ/ 1156 م) ، محاطاً هو والقصور الثلاثة بسور[156] .

وقد احترم بنو هلال البساتين والحدائق التي كانت تزوّد المهديّة بخيراتها ، ولم يمسّوا المتعبّدين بأيّ أذى[157] . وكان القَرْطِين يمتدّ إلى مسافة تبعد ثلاثة أميال عن المنستير[158] . وكانت تقام بهذه المدينة سوق عمومية كبيرة بمناسبة موسم عاشوراء[159] . وقد لاحظ البكري وجود طواحين فارسية ، وأشار إلى تصدير الملح الذي كانت تنتجه ملاّحة فسيحة عن طريق البحر .

وما زال رباط المنستير الكبير[160] ومسجدها الجامع[161] قائمَيْ الذّات إلى الآن . وكانت

---

152) المعيار ، 2/2 .

153) البكري ، 36 ، ابن حوقل ، 73/1 ، الإدريسي ، 108-109 ـ البلدان ، 175/8-176 ـ المقدسي ، 4-5 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 627/3 (جورج مارسي) ـ **العهد الحفصي** ، 308/1 [الترجمة العربية 341/1] ، مقديش ، 32/1-33 [طبعة بيروت ، 137/1] .

154) مصدر واحد ، البلدان ، 175/8 ، تحدث عن خمسة قصور محاطة بسور ، أما البكري ، 36 ، فقد أنهى حديثه عن المنستير قائلاً : توجد قرب المدينة خمسة محارس مبنية أحسن البناء يقيم بها المتعبّدون .

155) مخلوف ، **شجرة النور الزكيّة** ، 193/2 .

156) حسب المرجع السابق (192/2-194) الذي يشير إلى وجود آثار ذلك السور في الجهة الشرقية .

157) الإدريسي ، 108 ، مخلوف ، 193/2 .

158 حسب مخلوف، 193/2 ، ففي عصره اندثرت المنازل ، ولكن المسجد بقي قائم الذات .

159) حسب البكري .

160) جورج مارسي ، **الفنّ المعماري** ، 13/2 ، 46 ، 47 ، 50 . ليزين : **رباط سوسة** ، متبوع بتعليقات حول رباط المنستير ، تونس ، 1956 ، ص 35 وما بعدها . تقديم الكتاب من طرف جورج مارسي في مجلة كراسات تونس ، 1956 ، 127-135 ، البكري ، 36 .

161) جورج مارسي ، المرجع المذكور ، 76-77 ، البكري ، 36 ، البلدان ، 175/8 .

توجد جنوبي الرباط « قباب الرباط » التي هي عبارة عن بناءات عالية مشيّدة وسط صحن فسيح ، على أحسن ما يرام ، كانت تتردّد عليها المتعبّدات[162] . وهناك بناءات أخرى قريبة من مسجد السيّدة يرجع عهدها إلى القرن الحادي عشر ميلادي[163] ، كما كان موجوداً رباط آخر لم يبق له أثر الآن ، يعرف بقصر السيّدة . وقد أقيمت في مكانه دور قديمة ومسجد (صنهاجي؟) يحمل اسم الوليّ المدفون فيه ، وهو سيدي عامر ومسجد آخر اسمه مسجِد الدزّ[164] .

أمّا رباط المنستير الثالث ، فيقال إنه كان موجوداً في موقع زاوية سيدي ذويب الحالية التي تضمّ مسجداً (ربّما يرجع عهده إلى ما قبل العصر الصنهاجي) . وربّما كان موجوداً بين الرباطَين الأخيرين دهليز تحت الأرض يسمّى الداموس[165] . وغير بعيد عن قصر المنستير (أي الرباط الكبير على الأرجح) ، تقع قبّة الرمل[166] . ولا ندري أين كان موقع سوق الخسارة[167] وبلدة كانش[168] ، القريبتَيْن من المنستير . كما أشارت بعض المصادر إلى قصر دُوَيْد (أو داود) الواقع بالقرب من تلك الجهة[169] .

ومن الجدير بالتّذكير أنّ قبور موتى أهل المهدية كانت بالمنستير ، وأن ملوك بني زيري الأخيرين كانوا يُدفَنون في بادىء الأمر في قصورهم بالمهدية ، ثم تُنقَل رفاتهم ، بعد انقضاء عام ، إلى مسجد السيّدة بالمنستير (أو مسجد قصر السيّدة) ، أي ، حسب الاحتمال ، الأميرة أمّ ملال عمّة المعزّ بن باديس[170] . وفي هذا المسجد الذي ما زال قائم الذات إلى الآن ويُعرَف بمسجد السيّدة ، لم يُعثَر إلّا على قبريّة أحد أحفاد المعزّ وهو مُزْهَف بن تميم[171] ، (مؤرّخة في سنة

---

162) البكري والبلدان .

163) جورج مارسي ، كرّاسات تونس ، 1956 ، 132 .

164) مخلوف ، 2/192-199 ، وقد تجاسر المؤلف على اعتبار اسم هذا المسجد تحريفاً لمسجد المعزّ .

165) نفس المرجع ، 2/192 .

166) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 98 و . [طبعة بيروت ، 1/487] .

167) نفس المصدر ، 95 ظ . [طبعة بيروت ، 2/15 : قصر تبصة] .

168) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 132 هامش 23 .

169) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 81 ظ ، 97 و ، [طبعة بيروت 2/252] : قصر دُوَيْد ، المدارك ، 2-3/177 و ، [طبعة بيروت ، 3/370] .

170) الإدريسي ، 108-109 ، جورج مارسي ، المرجع السابق ، 77 ، مخلوف ، 2/192 ، 198-199 . وبليام مارسي وعبد الرحمان قيقة ، نصوص تكرونة ، باريس 1924 ، 223 ، هامش 33 ـ ابن خلّكان ، 2/241 . المؤنس ، 93 .

171) حسب بحث قدمه حسن حسني عبد الوهاب ، زبيس ، نقائش ، 2/36 .

505 هـ/ 1111 م) . وقد أشار البكري إلى وجود مرسى قصر القوريتَيْن (أي مرسى قصر جزيرتيْ قورية) ، ملاحظاً أنّ هاتين الجزيرتين الكبيرتين مفصولتان ، الواحدة عن الأخرى ، بواسطة قناة صالحة للملاحة[172] .

وفي الطريق الرابطة بين المنستير والمهدية نجد على التوالي قرية تحمل اسم القاضي الأغلبي عيسى بن مسكين [مسجد عيسى في الوقت الحاضر][173] ، ثم بلدة خنيس[174] وقصر لمطة (لمطة في الوقت الحاضر ولبتيس مينور في القديم)[175] ، وهي قرية تنتج نوعاً من الملح المعدّ للتصدير ، ومكنة (المكنين في الوقت الحاضر)[176] ، وتبصة (أو الديماس ، تبسوس في القديم)[177] ، وأخيراً ميّانش[178] .

المهديّة :

لقد أعادت غزوة بني هلال إلى المهديّة[179] ازدهارها الذي فقدته منذ تأسيس المنصوريّة . وقد اعتبر المقدسي المدينة التي بناها عُبَيْد الله المهدي في طرف شبه جزيرة جمّة ، « مستودع القيروان

---

172) البكري ، 84 .

173) الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، مقديش ، 2/108-109 ، 137 [طبعة بيروت ، 1/343 ، 2/246 ، 306] : قرية عيسى بن مسكين .

174) الخلاصة ، الخريطة ، ص 77 .

175) البكري ، 84 ، الإدريسي ، 126 ، العهد الحفصي ، 1/308 [الترجمة العربية ، 1/341] .

176) المدارك ، 2-3/248 ظ ، وحسب حسن حسني عبد الوهاب ، مكنين = مكتَيْن .

177) ح . ح . عبد الوهاب ، تحية ويليام مارسي ، 14-15 ـ وفي كتاب الشماخي ، 261 : قفصة الساحل شرقي القيروان ، ينبغي ، حسب الاحتمال ، تعويض « قفصة » « بتبصة » كما جاء في رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 60 ظ ، [طبعة بيروت ، 2/15] .

178) البكري ، 29 (قراءة خاطئة) ، البلدان ، 8/219 .

179) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 1/71 ، المقدسي ، 16-17 ، البكري ، 29-31 ، الإدريسي ، 108-109 ، التجاني ، 120-121 ، الحلل ، 1/232-234 ، 235-280 ، البلدان ، 8/205-208 ، فورنال ، 2/123-124 ، ابن حمّاد ، 9-11 ، الاستبصار ، الترجمة ، 14 ، المراكشي ، الترجمة ، 196 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 3/127-128 (جورج مارسي) ، حسن إبراهيم حسن عُبَيْد الله ، 204-208 ، مقديش ، 1/32 [طبعة بيروت ، 1/138] العهد الحفصي ، 1/309 [الترجمة العربية ، 1/34] . زبيس ، المهدية وصبرة المنصورية . . . المجلة الأسيوية ، 1956 ، 79-93 .

ومتجر صقليّة ومصر »[180] . وقد بنى مؤسّس المهديّة أكبر قسم من المدينة في المكان الذي ردمه من البحر ، وكان اتّساعها من الشمال إلى الجنوب قدر رمية سهم . ويوجد هناك جامع بديع يحتوي على سبع مساكب ، وقصر عُبَيْد الله الذي يُفتَح على الجهة الغربيّة ، وبإزائه في الجانب الآخر من ساحة فسيحة اسمها « بين القصرَيْن » ، يوجد قصر أبي القاسم الذي يُفتَح على الجهة الشرقية ، ودار المحاسبات[181] .

كما تمّ تشييد سور متين مجهّز بستة عشر برجاً ، يستطيع أن يركض فوقه عدد كبير من الخيول في وقت واحد ، وهو محاذٍ لساحل البحر ، يحجز المضيق . وقد أشار الإدريسي إلى وجود مقدّم جدار من جهة البرّ يشتمل على عدد من الأبراج يفوق عدد أبراج السّور الرئيسي ، ويحيط به خندق تتجمّع فيه مياه الأمطار . وكان يتحكّم في مدخل المدينة بابان حديديّان كبيران[182] ، يقع الأوّل على الأرجح من جهة البرّ والثاني قبالة البحر[183] .

وكان مرسى المدينة[184] ـ وهو ميناء فينيقي قديم ـ المحفور في الحجر الصلد ، يستطيع أن يسع زهاء الثلاثين سفينة ، وهو متّصل بالبحر بواسطة ممرّ يبلغ عرضه حوالي خمسة عشر متراً ، وتتحكّم في مدخله سلسلة ممدودة بين برجَيْن تربط بينهما قبّة ذات طابقين . وتقع شرقي قصر عُبَيْد الله في إحدى التجويفات الموجودة في طرف شبه الجزيرة ، دار الصناعة التي تسع أكثر من مائتَيْ سفينة ، حسب البكري . وتُخزَن الأعتدة والمؤونة في رواقَيْن مُقبّبَيْن فسيحَيْن وطويلَيْن . ومن فرط ما كانت هذه الترسانة محصّنة بسور المدينة ، فإنّ أيّة سفينة محمّلة بالمقاتلين تستطيع الوصول إليها ، دون أن يقدر أيّ كان على منعها من ذلك من البرّ[185] .

---

180) المقدسي ، 16-17 ـ ستوريا ، 360/2 ، هامش 1 حول جمّة . العهد الحفصي ، 408/2 الهامش 1 [الترجمة العربية 428/2 الهامش 143] ، البيان ، 169/1 : جزيرة جمّة ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 60 ظ ، [طبعة بيروت ، 341/1] .

181) انظر حول هذه المعالم ، جورج مارمي ، الفنّ المعماري ، 69-70 ، 78-79 . زبيس ، المرجع السابق ، 81 .

182) انظر حول هذا السّور ، جورج مارمي ، المرجع المذكور 89-91 .

183) لقد بقي قائم الذات الباب المعروف اليوم باسم « السقيفة الكحلاء » . زبيس ، المرجع السابق ، 89-91 .

184) جورج مارمي ، المرجع السابق ، 91-92 .

185) حسب حسن إبراهيم حسن (المعزّ لدين الله ، 185) نقلاً عن المجالس والمسايرات للقاضي النعمان ، كانت المهدية ، في عهد المعزّ وقبل تحوّله إلى مصر ، مجهّزة بترسانتَيْن (دَارَا صناعة) لم تكفيا لتلبية حاجات الأسطول . وقد ابتهج الخليفة باكتشاف سبعة مواجل قديمة تحت الأرض في دار الصناعة بسوسة ، كانت توفر الماء بواسطة حوض يكفي لتزويد السكان والسفن . فقام بترميم تلك المنشأة المائية وبنى مسجداً على عين المكان .

وفي عصر الإدريسي، كانت المهديّة التي لم تكن بها بساتين تجلب مؤونتها من المناطق المجاورة لها ، ولا سيما من قصور المنستير . وكانت تتزوّد بالماء بواسطة 360 ماجلاً ، عن طريق الأنبوب الذي نصبه عُبَيْد الله . وفي ضواحي ميّانش[186] كان الماء يتصاعد من الآبار بواسطة الدواليب ، ثم يمرّ من خزّان ويجري في أقداس وقناة إلى أن ينتهي إلى حوض قرب الجامع ، ومن هناك يُنقَل إلى القصر بالنّواعير .

وقد ألحّ الإدريسي على جمال مساكن المهدية وأناقة أهلها . ويبدو أن أكابر القوم من بني زيري المقيمين بالمنصوريّة كانوا يقضون فصل الصيف في عاصمة بني عُبَيْد السابقة .

وكانت المهديّة تصنع وتصدّر الأنسجة الجميلة البالغة الجودة[187] .

وبعد غزوة بني هلال ، وقبل ذلك بلا شكّ ، كان أهل المهديّة ينقلون موتاهم بواسطة المراكب إلى المنستير ليدفنوهم هناك . وقد لاحظ الإدريسي أنّ المهدية كانت خالية من المقابر .

وأشار المالكي مرّتين[188] إلى وجود دار البحر بالمهدية في عهد بني عبيد ، فقال : « إن الذين ماتوا في دار البحر أربعة آلاف رجل في العذاب » . ويفهم من هذا النصّ أنّ بني عبيد قد اتّخذوا دار البحر سجناً للمهديّة . ولعلّ الأمر يتعلّق بتسمية أخرى لدار الصناعة .

وجاء في بعض المصادر أنّ جثّة أبي يزيد قد صُلِبت في مجرّ الخابية[189] . وكان يوجد بالمهديّة مسجد السبت[190] . ويبدو أن اسم « رحبة القمح » كان يُطلَق على سوق الحبوب[191] . وقد بقيت قبّة السّلام التي أشارت إليها المصادر عند ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش ، قائمة الذات حتى القرن التاسع عشر . وكانت هذه البناية الصغيرة المعروفة وقتئذ ببرج العريف ، موجودة في السهل على بعد فرسخ غربي المهديّة[192] .

---

186) البكري ، 29 ، البلدان ، 219/8 ، ويقع هنشير ميّانش الحالي على بعد 6 كم جنوب غربي المهدية . وتوجد آثار حوض خزن وتوزيع الماء التي عثر عليها بلاسيت (H. Plecett) في سنة 1935 م في نفس موقع خزان سيدي مسعود الحالي ، على بعد 6 كم شمال غربي المهديّة ، سولينياك ، المنشآت المائية ، 259-262 .

187) الإدريسي ، 108 ، البلدان ، 205/8-207 .

188) رياض النفوس ، مخطوط باريس 79 و - 90 و . [طبعة بيروت 227/2 ، 345/2] .

189) حسب كتاب النبذة المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة ، للقاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن حمّاد .

190) حسب ابن خلّكان ، 240/2 ، نقلاً عن ابن شدّاد .

191) في ذي الحجة 432 هـ/ أوت 1041 م ، تلقّى ابن خير (الفهرست ، 38/1-39) كتاباً من فم أبي حفص عمر بن حُسَيْن المقرىء المعروف باسم ابن النفوسي بالمهدية في مسجده برحبة القمح .

192) جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 87-89 .

وقد أفسد بنو هلال البساتين والأجنّة التابعة لضاحية الحِمَى الواقعة غربي المدينة[193] . وحسب البكري ، كان جنود إفريقيّة من أعراب وبربر يقيمون في ربض الحِمَى . ومن المحتمل أن يكون موقع الميدان (ميدان سباق الخيل)[194] والمصلى[195] موجوداً بين المهديّة وزويلة . وكان يطلق على الفضاء الواقع بين المدينتَيْن اسم الرملة ، « ومقداره أشفّ من رميّة سهم »[196] .

زويلـــة :

كانت مدينة زويلة[197] تمتدّ على طول حوالي ميلَيْن . وكانت دورها مبنيّة بالحجارة مثل دور المهديّة ، وأسواقها وبناءاتها على غاية من الجمال ، وشـوارعها عـريضة . ولما استقرّ عُبَيْـد الله بالمهديّة ، خصّص هذه الضاحية للإقامة العامّـة والسّوقـة (أرباب الـدكاكـين) . وكان هؤلاء يقضون النهار بالمهديّة حيث كانت توجد دكاكينهم وممتلكاتهم ، ويرجعون في المسـاء إلى بيوتهم بزويلة . ويقال : إن الأمير المذكور قد صرّح بأنه لم يعد يخشى من جانبهم أيّ مكروه ، بفضل هذا الإجراء . والواقـع أنّ هذا الـربض ما لبث أن تحـوّل إلى مدينـة حقيقيّة كـانت بمثابـة التكملة للمهدية ، إلى درجـة أن النصوص قـد أصبحت تتحدّث في غـالـب الأحيان عن المهـديّتين[198] . وقـد بنى المعزّ بن باديس سور زويلة في سنة 444 هـ/ 1052-1053 م[199] .

---

193) الإدريسي ، 109 ، المنتخب ، 102-103 : بيت شعر من نظم ابن عُـرَيْبَة (ت . 659 هـ/1260 م) ، التجـاني ، 324 ، الحلل ، 235/1 حمى زويلة .

194) المقري ، طبعة القاهرة ، 1949 ، 289/4-299 : شعر أميّة بن أبي الصلت (ت . 529 هـ/1135 م) حول السّهام التي رماها الحسن في الميدان .

195) ديوان ابن حمديس ، رقم 36 ص 49-53 .

196) الإدريسي ، 109 ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 73 ظ ، 74 ظ ، [طبعة بيروت ، 166/2-174] : صُلِبَ متعبِّدان برملة المهديّة قرب المصلّى .

197) البلدان ، 416/4 .

198) انظر مثلاً : ديوان ابن حمديس ، رقم 36 ص 49-53 ، التجاني ، 331 ، 341 ، 377 ، الحلل ، 234/1-235 . وقال الإدريسي ، 109 ، إنّ المهدية في عصره كانت تتألّف من مدينتين : مدينة المهدية ومدينة زويلة . وحول حارة زويلة وباب زويلة في القاهرة ، انظر ، النجوم ، 37/4 ، والخطط ، في عدّة مواضع ، المؤنس ، 64 ، المراكشي ، طبعة 1847 ، 255 ، وقرأ المقريزي وياقوت زَوِيلَة (بفتح الزاي مثل سفينة) وفي القاموس زُوَيْلة (بضمّ الزاي ، مثل جُهَيْنَة) . وأكّد المؤلّف الأوّل أن زويلة اسم امرأة ! .

199) وقد فكر الخليفة الفاطمي المعزّ في ذلك قُبَيْل تحوّله إلى مصر ، سيرة جوذر ، 112-184 .

وقد أشار الإدريسي إلى حسن هندام تجّار زويلة الأثرياء الذين كانوا يرتدون ملابس بيضاء ونوّه باتساع معارفهم التجارية واستقامتهم في أعمالهم . وحسب نفس المؤلف كانت توجد في ضواحي زويلة عدّة قرى ومحطّات وقصور ، يتعاطى سكّانها الزراعة (القمح والشعير والزياتين) وتربية الماشية (الغنم والبقر) . وكانت تلك المنطقة تنتج أحسن أنواع الزيت بإفريقية وتتولّى تصديرها إلى المشرق . وأكّد البكري أن المهديّة كانت تشتمل على عدد كبير من الأرباض ، مثل ربض زويلة وربض الحمى المشار إليهما آنفاً ، وقصر أبي سعيد وبقّة وقاساس[200] والغيطنة (؟) وربض قفصة[201] .

وبعد استيلاء النّرمان على صقليّة ، وفد على المهديّة وعلى غيرها من المدن والقرى الساحلية جمع غفير من المهاجرين[202] .

الشريط الساحلي من المهدية إلى صفاقس :

نجد جنوبي المهدية على التوالي قصر قراصنة[203] واللّيّانة (أولليانة)[204] وسلقطة (سولكتوم في القديم)[205] وقصر العالية[206] .

---

200) المعيار ، 9/428-429 ، لعلها طساس .

201) نميل إلى قراءة : ربض تبصة ، وحسب التجاني ، 325 والحلل ، 1/235-236 ، كان سوق الأحد موجوداً بين المهدية ومعسكر أبي يزيد الذي كان بموضع يعرف بخربة جميل ، على أميال قريبة من المهدية ، في سهل ترنوط ، انظر ، البكري ، 31 . وكان قصر مسوار (؟) قريباً من المهدية ، معالم الإيمان ، 3/175 : قصر سور . وفي رياض النفوس ، 1/المقدمة ، 40 ، بندون ، وهو اسم بلدة على طريق جمّة (=المهدية) ، البيان ، 1/187 : « إذا أردت الحجّ فخُذْ على بندون ، وبندون هذه قرية في طريق جمّة » . وكان هناك منزل يقع في الطريق الرابطة بين القيروان والمهدية ، اسمه : الأُخوَان ، البكري ، 70 . الديباج ، 237 ، الحاشية .

202) ح . ح . عبد الوهاب ، المجلة التونسية ، 1930 ، 11-12 .

203) زبيس ، نقائش ، 1/70 والهامش 167 مكرر ، 80 ـ العهد الحفصي . 1/309 [الترجمة العربية ، 1/340] ، مناقب ، 237 ، هامش 109 .

204) الخلاصة ، الخريطة ، ص 77 ، القرية المعروفة اليوم باسم ليّانة ، العهد الحفصي ، المرجع المذكور ، النيفر ، عنوان الأريب ، 1/73 .

205) البكري ، 31 ، 35 : مدينة سلقّطة ، الإدريسي ، 126 : قصر سلّقطة ، العهد الحفصي ، 1/310 [الترجمة العربية ، 1/341] ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 87 ظ ، [طبعة بيروت ، 2/320] ، البيان ، 1/219 .

206) الإدريسي ، 126 .

وفي مستوى رأس قبودية[207] توجد في الموقع الحالي لميناء الشابة الصغير بلدة رُصْفة (روسبيا في القديم) حيث ما زال موجوداً إلى الآن قصر أغلبي مجهّز بمنار اسمه برج خديجة[208] . ويبدو أن اسم رصفة كان يطلق على إقليم توجد قاعدته في الجهة الجنوبية الغربية داخل البرّ ويُعرَف باسم ينولش أو ينونش[209] .

وكان الشريط الساحلي الممتدّ من مرسى قبودية المعروف برصفة إلى صفاقس يشتمل على عدد كبير من الحصون[210] نخصّ بالذكر منها : قصر ملّولش[211] وقصر قناطة[212] ، حيث كان يُصنَع « فخّار كثير ساذج ، يتجهّز به إلى المهدية وغيرها ، وطينه أحمر » ، وقصر اللّوزة[213] وقصر زياد[214] وقصر مجدنوس وقصر قاساس وقصر قزل[215] وقصر جبلة وأخيراً صفاقس[216] .

---

207) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، **العهد الحفصي** ، 307/1 [الترجمة العربية ، 338/1] ، الإدريسي ، 126 : قبودية ، **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 88 ظ ، وينبغي تعويض تمّودة بقبّودية ، حسب مخطوط القاهرة ، [طبعة بيروت ، 321/2 : قبّودة] .

208) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، **شهيرات التونسيات** ، 52-54 ، هامش 1 [الطبعة الجديدة ، 87-88] ، وقد ورد ذكر الشاعرة خدّوج الرُّصْفية (منتصف القرن الرابع هجري) ، المقدسي ، 20-21 ، البلدان ، 259/6 : رُصْفة ، 27/2 : باجة الزيت .

209) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 : ينولش ، وحسب بحث لحسن حسني عبد الوهاب ، تقع هذه البلدة التي كان بها قاضٍ شمال شرقي ملّولش ، البلدان ، 529/8 : يانونش ، المقدسي ، 4-5 ، 20-21 : ينونش .

210) حسب الإدريسي ، 126 .

211) نفس المصدر : قصر مليان ، على بعد أربعة أميال من قبودية ، أي ما يطابق تقريباً موقع ملّولش ، ممّا يؤيد صحّة افتراضنا .

212) يمرّ من الجمّ واد قناطة .

213) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 . **العهد الحفصي** ، 310/1 [الترجمة العربية ، 341/1] .

214) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، **العهد الحفصي** ، المرجع المذكور ، العمري ، تحقيق ح . ح . عبد الوهاب ، 6 إدريس **مجلة الدراسات الإسلامية** ، 1935 م ، 298 .

215) مقديش ، 151/2 [طبعة بيروت ، 333/2] : ضريح سيدي منصور ببرج قزل .

216) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 لقد حُدِّد موقع قصر زياد في شمال اللوزة ، في حين أكّد الإدريسي أنه يقع جنوبي تلك البلدة . وقد حدّد هذا المؤلف المسافات بالأميال على النحو التالي : قبودية ـ قصر مُلْيَان 4 ـ قصر قناطة 4 ـ قصر اللوزة 4 ـ قصر زياد 6 ـ قصر مجدونس 8 ـ قصر قساس 8 ـ قصر قزل 2 ـ قصر جبلة 2 ـ صفاقس 5 ، ومن قصر زياد إلى قصر قزل 18 ، ومن قبودية (وجاء في المخطوط غلطا قصر زياد) إلى صفاقس « ثمانية وأربعون ميلًا تقويراً ، وروسيّة ثلاثون ميلًا » ، [مقديش ، **نزهة الأنظار** ، طبعة بيروت ، 138/1] .

وينبغي أن نضيف إلى هذه القائمة التي أوردها الإدريسي : محرس بطريّة (هنشير بترية في الوقت الحاضر وأكولا في القديم)[217] المجهّز بحصن مرتفع ومنارة ، ومحرس أبي الغسن ومحرس مقدومان[218] ومحرس الريحانة[219] ومرسى انشلّة (سيدي مخلوف في الوقت الحاضر وأوسيلا في القديم)[220] . وغير بعيد عن الساحل توجد بلدة ينولش (أو ينـونش) الواقعـة غربي رصفـة وجبنيانة [221] ولبيدة الواقعة في جهة الجنوب[222] . وفي تلك النواحي أشارت المصادر إلى وجود شريانة وسوق بدرنة[223] وسوق الحُسَيْني[224] وبليانة نافد[225] المطابقة لا محالة لبلدة بليانة الواقعة قرب أنشلّة[226] وبنتاي[227] ومنزل مروان العابد[228] وطرس اسباط[229] . وحسب البكري ، تمرّ الطريق الرابطة بين صفاقس والقيروان من طرفة وقصر رباح (أو قصر رياح)[230] .

---

217) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، البلدان ، 87/5 : صفاقس ، البكري ، 20 : بطويّة .

218) الإدريسي ، الترجمة ، 151 ، هامش 1 .

219) ذكر البكري ، 20 ، على التوالي : محرس بطويّة ومحرس جبلة ومحرس أبي الغسن ومحرس مقدمان ومحرس اللوزة ومحرس الريحانة .

220) **الخلاصة** ، الخريطة ص 77 ، **العهد الحفصي** ، 811/1 [الترجمة العربية ، 342/1] ، مناقب ، 35 .

221) مناقب ، في عدة مواضع .

222) نفس المرجع ، 27-45 .

223) المرجع المذكور ، 36 ، **العهد الحفصي** ، المرجع المذكور .

224) مناقب ، 74 ، 76 .

225) نفس المرجع ، 55 .

226) مقديش ، 151/2 [طبعة بيروت ، 343/2] . **العهد الحفصي** ، المرجع المذكور .

227) مناقب ، 71 .

228) نفس المرجع ـ 40 .

229) المرجع المذكور ، 5 . المقدسي ، الذيل ، 4-5 : جونس الصابون ، طرس ، قسطيلية . .

230) البكري ، 20 : على بعد ثمانية أميال شمالي صفاقس ، وفي الخرائط : قصر الريح .

صفـاقــس :

لقد كانت صفاقس[1] (أو سفاقس واسمها في العصور القديمة تابرورة) مدينة كبيرة، ربّما ورثت عن الماضي شوارعها ذات الزوايا المستقيمة . وفي سنـة 478 هـ/ 1085-1086 م[2] رُمِّمَ جامعها الكبير الذي كان قد بُنِيَ في سنة 235 هـ/ 849-849 - 850 م وجُدِّد بناؤه في سنة 378 هـ/ 988-989 م . وكانت المدينة ذات المساجد والأسواق والفنادق والحمّامات العديدة محاطة بسور مربّع الشكل ومبني بالحجارة ، له « أبواب مصفّحة بصفائح من حديد منيعـة وعليها محـارس نفيسة للرباط » . ويقع الباب الجبلي في وسط الواجهة الشمالية ، ولا ندري هل كان الباب المواجه له يحمل في العصر الصنهاجي اسم « باب الديوان » الذي يُطْلَق عليه اليـوم . وقد أشـار مصدر متأخّر[3] إلى عادة قديمة من عادات أهل صفاقس كانت تتمثل فيما يلي : « كانوا يخرجون سابع العرس مصطفّين من باب البحر ، يدورون خارج البلد ويدخلون من الباب الجبلي ، بعدما يكون اجتماعهم بحومة العروسَيْن » .

كما أشار مصدر آخر إلى وجود دار الجذماء[4] . « وكان لأهل صفاقس نخوة وفي أنفسهم عزّة»[4م] . وكانوا يشربون من المواجل ويجلبون الفواكه من قابس بكثرة وبأسعار رخيصة . « وأكثـر صيدهم بالزروب المنصوبة لهم في الماء الميّت »[5] . ولم يكن إتلاف غابة الزيتون البديعة من طرف بني هلال تامّاً على النحو الذي أشار إليه التجـاني في القرن الـرابع عشر ميـلادي[6] . إذ أكّد

---

1) كانت تُكتَب في القديم بالسّين أي سفاقس (لا صفاقس) ، ابن حوقل ، 1/70-71 ، البكري ، 19-20 ، المقدسي ، 4-5 ، 16-17 ، الإدريسي ، 103 ، 107 ، البلدان ، 5/87-88 ، التجاني ، 69 ، الحلل ، 1/135-136 ، مقديش ، (الطبعة الجديدة) ، 2/ ص 171 وما بعدها ، المعيار ، 1/182 ، (فتوى القابسي) : قصر سفاقس ، برنشفيك ، العهد الحفصي [الترجمة العربية ، 1/342] .

2) جـورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 72-73 ، ولنفس المؤلف ، الجامع الكبيـر بصفـاقس ، تـونس 1960 ، منـاقب ، 197-198 .

3) مقديش ، نزهة الأنظار (الطبعة الجـديدة) ، 2/335 وعنـدما تحدّث نفس المؤلف (1/490) عن ثورة صفـاقس ضدّ النرمان ، أشار إلى وجود ساباط الموازين شرقي الجامع الكبير ، وهو جزء مغطّى من الشارع ويسمّى الرمّانة ، نسبة إلى آلة الوزن .

4) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 76 ظ . [طبعة بيروت ، 2/201] .

4 م) [الإدريسي ، 107] .

5) [نفس المرجع ، والزروب شباك تنصب في البحر لصيد السمك] .

6) رحلة التجاني ، 68 .

الإدريسي[7] أن أهمّ ما كانت تنتجه صفاقس هو الزيتون الذي يُسْتَخْرَج منه زيت لا مثيل له ، كان يصدّر إلى المغرب ومصر وصقليّة وإيطاليا[8] . ويبدو أن الثياب الملوكية الرفيعة المصنوعة من صوف البحر ، التي أشار إليها التجاني[9] ، كانت موجودة منذ أوائل العصر الوسيط . فقد تحدّث عنها المقدسي باعتبارها إحدى عجائب المغرب في العصر الفاطمي[10] . وكان أهل صفاقس يتولّون « قِصارة » و « كِمادة » الأقمشة بأكثر براعة من أهل الإسكندرية[11] .

ومن بين القرى التابعة لمنطقة صفاقس أشارت المصادر إلى الناصريّة[12] وكركور (أو قرقور)[13] وفريانة[14] .

الشريط الساحلي من صفاقس إلى قابس :

توجد في عرض البحر قبالة صفاقس ، جزر قرقنة (سرتيناي في القديم) التي كانت مزروعة وتنتج كثيراً من العنب والكمّون والأنيسون ، وكان أهل الساحل يرعون فيها أنعامهم . « وليس لها دور ، وإنّما سكنى أهلها في الأخصاص »[15] . وفي أقصى جزر قرقنة يوجد برج مرتفع لتنبيه البحّارة إلى دخولهم في المياه الميّتة أو « القصير »[16] .

وتقع جنوبي صفاقس على طول الساحل المراكز التالية : طينة ونقطة ومحرس علي (المحرس

---

7) الإدريسي ، 107 .
8) البكري ، 20 ، ابن حوقل ، 70/1 ، وقد أكّد أن كلّ الزيت المستهلك في مصر في عصره مورّد من صفاقس ، البلدان ، 87/5 ، الاستبصار ، الترجمة ، 13 .
9) التجاني ، المصدر المذكور .
10) المقدسي ، 52-53 والهامش 143 .
11) البكري ، 20 ، البلدان ، 87/5 .
12) البلدان ، 237/8-238 ، وقد ورد فيه ذكر معاصر اسمه السلفي (ت . 576 هـ/ 1180 م) ، يحمل لقب الناصري .
13) البلدان ، 7 ، 240 : كركور ، هقديش ، 144/2-150 [طبعة بيروت ، 317/2-333 : قرقور] ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 342/2] .
14) البلدان ، 373/6 ، معالم الإيمان ، 190/3 .
15) رحلة التجاني ، 67 ، [والأخصاص هي أكواخ من القصب] .
16) البكري ، 20 [على رأس القصير بيت مشرف مبني بينه وبين البّر الكبير نحو اربعين ميلاً ، فإذا رأى قلب البيت أصحاب السفن الواردة من الإسكندرية والشام وبرقة ، أداروها إلى مواضع معلومة] .

في العصر الحاضر) ومحرس يُنْقَة (برج يونغة) ومقمداس (ماكومادس مينورس في القديم)[17] .

وإثر غزوة بني هلال ، وربّما بعد ذلك بكثير ، أقام في المحرس « قوم من هوّارة كانوا ساكنين قبل هذا بالقصور المعروفة بقصور بني خيار ، فأجلتهم العرب منها ، فانتقلوا إلى هذا الحصن ، وكان مسجداً خالياً للعبادة والرباط ، فابتنوا دياراً إلى جانبه وجعلوا على الجميع سدّاً »[18] . ويبدو أنّ قصر الروم الواقع شيئاً ما جنوبي ينقة ، يطابق موقع مقمداس[19] . والجدير بالملاحظة أن البكري[20] هو الجغرافي الوحيد الذي قدّم المعلومات التالية حول الطريق الرابطة بين قابس وصفاقس . فمن قابس يصل المسافر إلى عين الزيتونة[21] ، وهي عين جارية بالقرب من مياه راكدة ، يتحكّم فيها مرصد تابع لجابي إفريقية . ثم ينتقل إلى المحطة الموالية وهي عبارة عن منزل عامر يقع في أقصى ساحل الزيتونة ، يقال له تاورقة . وبعد ذلك يصل إلى غافق ، وهي قرية آهلة بالسكّان تقع وسط منطقة ساحلية تشتمل على عدّة قرى وتقام فيها أسواق كلّ يوم جمعة[22] . وأخيراً ينتهي إلى صفاقس .

---

17) نقائش عربية ، 376/1 هامش 2 ، جورج مارسي ، رباط سوسة ورباط المنستير ، تقديم ليزين ، كرّاسات تونس ، 1956 ، 135 والهامش 7 ، خلاصة تاريخ تونس ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك ، 343/1 ، التجاني ، 84 ، الحلل ، 145/1-146 ـ رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 24 ظ ، [طبعة بيروت ، 241/1 : يُنْقَة] ، الإدريسي ، 127 ، وأكّد مقديش ، 2 ، 107 [طبعة بيروت ، 242/2] أنّ حصن يونقا كان يسمّى قصر تليدة . وحول محرس علي الذي أنشأه علي بن أسلم جدّ أبي إسحاق الجبنياني ، وأصبح يسمى فيها بعد المحرس الجديد ، انظر التجاني ، 69 والحلل ، 135/1-136 ، ومناقب ، 3 ، 198 . وفي منطقة سرت كانت توجد بلدة أخرى تسمى مقمداس ، الشماخي ، 130 .

18) رحلة التجاني ، 69 .

19) الإدريسي ، 127 : صفاقس ـ طرف الرملة (4 أميال) ـ قصر بلقة (= نقطة ؟) (10 أميال) ـ قصر تنيلة (= ينقة ؟) (8 أميال) ـ قصر الروم (4 أميال) ـ قابس (75 ميلاً) ـ ومن رأس الرملة إلى طرف الجرف : 150 ميلاً . البكري ، 85 : رأس الرملة ـ الجرف ـ قصر الروم ـ قابس . انظر أيضاً جورج مارسي ، المرجع السابق ، 1956 ، 135 والهامش 7 .

20) البكري ، 20 .

21) اليعقوبي ، 347-347 Wiet ، 208-210 : المحطة الأولى من قابس إلى القيروان هي عين الزيتونة . المقدسي ، 64-65 : الزيتونة ، البلدان ، 423/4 : عين الزيتونة على بعد مرحلة من صفاقس ، الحاج صادق ، وصف المغرب وأوروبا من القرن الثالث إلى القرن التاسع ، الجزائر ، 1949 ، 92 .

22) المقدسي ، 12-13 .

قـابــس :

تقع مدينة قابس[23] (تاكاباس في العصور القديمة) في مؤخّرة خليج سرت ، بالقرب من مصبّ واد يحمـل نفس الاسم [واد قابس] . وتتحكّم في الممـرّ الضيّق الرابط بـين الشطوط [السباخ] والبحر ، وتمرّ منها الطرقات الرابطة بين إفريقية والمغرب وبـين طرابلس والمشرق . وكانت هذه المدينة الضخمـة ذات الوظيفـة البحريّـة والصحراويـة في نفس الوقت أصغـر من طرابلس ، وهي مبنيّة بالحجارة والطوب . وكان سورها المبني بالحجارة يحتوي على ثلاثة أبواب ويحيط به خندق يُملأ بالماء عند حصول أيّ هجوم على المدينة . وكانت تشتمل على قلعة منيعة وعلى عدد من الأرباض والأسواق والحمامات ، وعلى مسجد جامع بديع . وتُنسَب المساجد الواقعة في الوقت الحاضر في حيّ جارة إلى بني جامع ، وهي مساجد سيدي إدريس وسيدي الحاج عمـر وسيدي ابن عيسى[24]. وكانت تُزَوَّد المدينة بالماء عين الأمير وعين سلام[25] . وقد بنى أمراء بني جامع الهلاليّون في عاصمتهم قصر العروسَيْن ، وكانوا يتباهون بجماله . وحسب رواية شفـويّة استقاها التجاني ، « فإن صنهاجة هم الذين ابتدأوا بنيانه وانتهوا إلى قدر الثلثَيْن فأتمّه بنو جامع الهلاليّون »[26] .

وأكّد البكري أنّ مرفأ قابس كان يستقبل السّفن القادمة من جميع أنحاء العالم[27] . في حين لاحظ الإدريسي « أن مرساها في البحر ليس بشيء ، لأنه لا يستر من ريح ، وإنّما ترمي القوارب بواديها ، وهو نهر صغير يدخله المدّ والجزر ، وترسي به السفن الصغار وليس بكثير السّعة »[28] .

وقد كانت بساتين واحة قابس الرائعة مزروعة بشتّى أنواع النباتات ، كأشجار الزيتون والموز والتفاح والتوت والنخل ، وكانت المدينة تصدّر كمّيات كبيرة من الفواكه إلى القيروان . « وكان

---

23) ابن حوقل ، 70/1 ، البكري ، 17-18 ، المقدسي ، 12 ، 13 ، الإدريسي ، 106-107 ، الاستبصار ، الترجمة 7 ، البلدان ، 4/7-2 ـ أبو الفداء ، الجغرافيا ، الترجمة ، 198/2 ، التجاني ، ص 86 وما بعدها ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 344/1-345] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 132/2-133 .

24) جورج مارسي ، الفن المعماري ، 77-78 .

25) رحلة التجاني ، 89 : « وأما الثانية فالمشهور في اسمها عين سلام باللاّم مخفّفة ، وهي إنّما توجد في عقودهم القديمة عين سنام بالنون » .

26) ولاحظ التجاني ، 115 ، أن قلعة بني حمّاد توجد بها أيضاً المعالم التالية : المنار وعين سلام وقصر العروسَيْن .

27) البكري ، 17 .

28) الإدريسي ، 125 .

أهلها يجنون التمـور طريّة ثم يودعونها في دنّانات [جِرار] . فإذا كان بعد مدّة من ذلك خرجت عسيلة تعلو وجهها بكثير »[29] . كما أشارت المصادر إلى وفرة الكروم وقصب السكر . واشتهر أهل قابس باستعمال فضلاتهم لتسميد الحقول[30] . وكانت قابس المدينة الوحيدة في إفريقية التي تنتج نوعاً ممتازاً من الحرير . ولكن يبدو أنّ هذه الصناعة قد تدهورت . فقد ذكر الإدريسي « أنّ بها فيما سلف طرز يُعْمَل به الحرير الحسن ، وبها إلى الآن مدابغ للجلود ، يُتجهّز بها منها » . وأكّد ابن حوقل من جهته أن صناعة الجلد قد ازدهرت بها قبل العصر الصنهاجي[31] . ويشاهد الزائر من بعيد في الناحية الشرقيّة من المدينة ، برجاً عالياً مجهّزاً بمنار[32] . وتمتدّ حول قابس شرقاً وجنوباً أرباض عديدة يقيم بها الأعراب والأفارق وتقطنها جالية يهوديّة . أما المنطقة الخلفيّة ، فقد كان يقيم بها قوم من البربر الخوارج ، أي الإباضيّين ، وهم : لواتة ولماية ونفوسة ومزاتة وزواغة وزوارة ، وغيرهم من القبائل التي كانت تسكن في الأخصاص[33] . وتوجد في ضواحي قابس قرية تحمل اسم المعافرين ، بها مسجد يقال له مسجد سيدي علي ، نسبة إلى الفقيه الذائع الصيت أبي الحسن علي القابسي[34] .

« ولها وادٍ يأتيها من غدير كبير ، وعلى هذا الوادي قصر سجّة ، بينه وبين قابس ثلاثة أميال ، وهو مدينة صغيرة متحضّرة بها من ناحية البحر أيضاً سوق وباعة ، وكان بها حريريّون كثيرون »[35] . وعلى بعد حوالي عشرين كيلومتراً غربي قابس ، توجد الحمّة (حمّة قابس أو مطماطة والحامّة في العصر الحاضر ، وكان اسمها في العصور القديمة أكْوَا) ، وهي مشهورة بواحتها ومياهها المعدنية الساخنة[36] .

---

29) نفس المصدر .

30) البكري ، 18 ، التجاني ، 90 .

31) ابن حوقل ، 70/1 : وكان يُدبَغ بها القَرَظ والجلود التي كانت تُباع في سائر بلاد المغرب ، وكانت معطّرة وناعمة مثل الجلد الجُرَشي ، انظر حول جُرَش باليمن بالخصوص : البلدان ، 84/3-85 .

32) توجد الآن واحة اسمها المنارة ، برنشفيك ، 345/1 (الترجمة العربية) .

33) البكري ، وقد أشار الشماخي ، 409 إلى وجود مزاتة بقابس ، وحول زواغة ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ، 1934 ، 61-62 ، انظر أيضاً ابن حوقل 70/1 : كان يوجد في بادية قابس صعاليك من الخوارج يقولون بالوعد والوعيد (نظرية المعتزلة) ، غاردي وأنواتي ، المقدمة . . . 49-151 : وفي وقتٍ ما نهبوا ممتلكات الباعة ولا سيا منهم مؤدّي الضرائب .

34) معالم الإيمان ، 168/3-169 ، برنشفيك ، 345/1 (الترجمة العربية) .

35) الإدريسي ، 106-240 .

36) برنشفيك [الترجمة العربية 345/1-346]، بنو غانية، 81، الهامش 2، الشماخي حامي من بين ويسيان (؟) 472.

ومن قابس إلى قصر ابن عَيْشُون على الساحل ثمانية أميال ، ومنه إلى قصر زجونة ثمانية أميال أيضاً ثم إلى قصر بني مأمون (أو يامون) عشرون ميلاً ، ومنه إلى أمرود أحد عشر ميلاً ، ومنه إلى قصر الجرف (رأس الجرف قبالة جربة في الوقت الحاضر) ثمانية عشر ميلاً(37) .

وينبغي أن نضيف إلى هذه الواحات الساحليّة القرى الجبليّة شبه الساحليّة الآتية : منزل تبلبو (ولو أن المصادر لم تشر إلى وجود هذه القرية في العصر الصنهاجي)(38) وكتانة(39) وقصور الزارات الثلاثة(40) .

هذا وإنّنا لا نعرف شيئاً كثيراً حول جربة (مينانكس في العصور القديمة)(41) ، سوى أنّها كانت على مذهب الخوارج . وقد أكّد الإدريسي « أنّها كانت عامرة بقبائل البربر ، وكلامهم بالبربريّة أكثر » . وكما هو الشأن الآن ، فقد كان أهل جربة متفرّقين في بساتينها . وأشار البكري إلى وجود كثير من الذهب (؟) في هذه الجزيرة . وكان أبو الصلت قد زار مدينة جربة العتيقة الواقعة شمال حومة السوق الحالية ، فلاحظ أنها « خلاء لا أنيس فيها » ، وأوضح أنه زار « بقايا مدينة صغيرة الصنع ، مربّعة الوضع ، ويحدق بها سور مرتفع هو باقٍ إلى الآن ، ويداخلها جامع حسن البناء ، وقد تخرّب الآن ، فليس الباقي إلاّ آثاره »(42) . كما أشار أحد المصادر إلى وجود سوق الخميس في جزيرة جربة(43) .

ويعدما نوّه التجاني بتفّاح جربة الذي « لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير » ، أضاف قائلاً : « وكان من شجرة بهذه الجزيرة قبل هذا كثير ثمّ قلّ الآن بسبب أن النّصارى (النرمان)

---

37) الإدريسي ، 127 ، برونشفيك [الترجمة العربية ، 1/350-351] .

38) برنشفيك ، المرجع السابق .

39) **خلاصة تاريخ تونس** ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك ، المرجع المذكور لعلّها كتّانة ؟ والغريب في الأمر أن المقدسي ، 64-65 ، وضع كتانة في الطريق الرابطة بين قابس والقيروان ، على بعد مرحلة بين الزيتونة والكبس (= اليسر) الواقعة على بعد مرحلة من القيروان .

40) الإدريسي ، 128 : « ومن طرف الجرف إلى رأس الأودّية على الساحل أربعة وعشرون ميلاً ومنها إلى قصور الزارات عشرون ميلاً » .

41) البكري ، 19-85 ، الإدريسي ، 127-128 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 1/349-350] .

42) حسب الحلل ، 1/171 ، نقلاً عن التجاني ، 127 ، وأضاف المؤلف هذه العبارة الهامة : « قال أبو الصلت » . برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 1/350] .

43) الشماخي ، 403 .

يتحفون به ملوكهم وكبارهم ، دون تعويض لأربابه عنه ، فرأى أهل الجزيرة أنّ غيره من الشجر أَعْوَد بالفائدة عليهم ، فقطعوا أكثره »[44] .

من قابس إلى طرابلس :

لقد عدّ اليعقوبي[45] خمس مراحل من قابس إلى طرابلس ، عبر المنطقة التي كانت تقيم بها زناتة ولواتة والأفارق ، وهي الفاصلات وتامديفت وقصر بني حبّان (؟) وصبرة وويلة (؟) . وأشار كلّ من المقدسي[46] والإدريسي[47] إلى القرى التالية الموجودة في الطريق الرابطة بين قابس وطرابلس ، وهي الفوّارة وآبار دخت (؟)[48] وقصر الدرق وبئر الجمّالين . وحسب الإدريسي ، كانت جميع هذه المحطّات خالية من السكّان لا يقيم بها سوى مرداس ورياح الذين عاثوا فيها فساداً . كما أشار نفس المؤلف[49] إلى وجود طريق ثانية تربط بين قابس وطرابلس وتمرّ من وادي أحناش (؟) وبئر زناتة وتامدفيت وآبار العباس وتافنات (؟) وبئر الصّفا .

وأكّد البكري[50] أن السفن كانت تنطلق من جزيرة جربة إلى مرسى الأندلسيّين ، ثم إلى قصر الدرق وعقيبلات (؟) وتنتهي إلى طرابلس بعد اجتياز جبل قنطبير المخطر .

وأشار الإدريسي[51] إلى المحطّات الموجودة بعد قصور الزارات والمسافات الفاصلة بين الواحدة والأخرى ، وهي قصر ذكومين : 25 ميلاً ، وقصر الهرا (؟) : 6 أميال ، وقصر جرجيس (جرجيس في العصر الحاضر) : 6 أميال ، وقصر بني خطّاب : 25 ميلاً ، « وهو على آخر سباخ

---

44) التيجاني ، 122 .

45) اليعقوبي ، 247 ، وحسب البكري ، 17 ، تمرّ الطريق الرابطة بين قابس وطرابلس من صبرة التي تسكنها زواغة . ابن حوقل ، 68/1 ، وقد سمع أن مقرّ عامل المنطقة كان بصبرة ، وذلك لمّا كانت طرابلس تابعة لإفريقية .

46) المقدسي ، 64-65 : من بئر الجمّالين إلى قابس ، البكرى ، 15u-163 .

47) الإدريسي ، 121 .

48) المقدسي ، 64-65 .

49) الإدريسي ، 121 .

50) البكري ، 85 .

51) الإدريسي ، 128-129 ، وفي الخريطة ص 77 ، خلاصة تاريخ تونس ، وُضِعت تحفت في موقع جيغتيس القديمة (بو غرارة في العصر الحاضر) .

51 م) [كذا في الأصل ، وفي نزهة الأنظار ، 143/1 (طبعة بيروت) : قصر الهواء] .

الكلاب من جهة المغرب ، ويقابله في البحر اسقالة جزيرة زيزو » ، « ومن قصر بني خطّاب إلى قصر شمّاخ[52] خمسة وعشرون ميلاً ، وبينهما جون صغير يسمّى جون صلب الحمار » ، (= بحيرة البيبان الآن ؟)[53] . وقصر صالح : 10 أميال ، « وهو على قرطيل يأخذ من المشرق إلى المغرب ، طوله خمسة أميال ، ويسمّى رأس المخبز » ، وقصر كوطين : 20 ميلاً ، وقصر بني ولول : 20 ميلاً ، وقصر مركيا (؟) : 20 ميلاً ، وقصر عفسلات[54] : 20 ميلاً ، وقصر سرية (أو سربة) : 4 أميال ، وقصر سنان : ميلان ، وقصر البنداري : 3 أميال ، وقصر غرغرة : 10 أميال ، وقصر صيّاد : 6 أميال وأخيراً طرابلس : 20 ميلاً .

طـرابلـــس :

تمثّل طرابلس[55] (أو إطرابلس ، وهو اسم يوناني معـرّب معناه « الثـلاث مدن » ، أي طرابلس ولبدة وسبراتة) آخر مدينة في إفريقية الشرقيّة ، وهي أهمّ من قابس . وقد احتفظت بتخطيطها المنتظم الذي يرجع عهده إلى العصور القديمة . وكان يحيط بها سور جميل مبنيّ بالحجارة البيضاء ، وقد تمّ ترميمه في سنة 345 هـ/ 956-956 م . وهو يحتوي على الأبواب الأربعة التالية : باب البحر والباب الشرقي والباب الجوفي والباب الغربي ، (وكانت تفتح على التوالي على البحر والشرق والشمال والغرب)[56] . وتوجد داخل السور بئران ، هما بئر أبي أكلنود (؟) وبئر القبّة . أما الجامع الكبير فقد بُني ، أو بالأحرى انتهت أشغال بنائه في العهد الفاطمي .

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من السّور ، توجد القلعـة أو القصبة ، مقرّ والي المدينـة ، وأمامها رياض مخصّص للوالي ، يرجع عهده إلى بني مطروح . وبالقرب من القصبة يوجد مسجد العشرة الذي لم يكن جزءاً منها ، وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان مخصّصاً ، قبل الموحّدين ،

---

52) دائرة المعارف الإسلامية ، 1934 ، 59-78 .

53) برنشفيك [الترجمة العربية ، 351/1] .

54) [كذا في الأصل ، وفي نزهة الأنظار (طبعة بيروت) 144/1 : عسقلات] .

55) الأصـطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 68/1 ، 70 ، البكـري ، 6-9 ـ الإدريسي ، 121-122 ، المقدسي ، 12-13 ، الاستبصـار ، الترجمـة 2-3 ، البلدان ، 34/6-36 ، التجاني ، 237-254 ، دائـرة المعـارف الإسـلامية (روسي) ، 861/857/4 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 424/1-428] ، المؤنس ، 61 .

56) المقدسي ، الذيل ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 426/1] .

لاجتماع الأعيان العشرة المكلّفين بإدارة المدينة . وحسب ابن حوقل[57] ، تمّ عنوةً تحويل قسم من الأسواق العديدة الموجودة في ضواحي طرابلس إلى داخل المدينة .

وقد أشارت المصادر إلى وجود بعض المساجد خارج السّور ، مثل مسجد الشّعّاب[58] ومسجد الجدّة أو الجدود الذي أصبح يسمّى فيما بعد مسجد البارزي[59] ، وهو يقع شمالي المدينة ويشرف على المقابر . وفي القرنين العاشر والحادي عشر من الميلاد كان المصلّى موجوداً في الجهة الغربية من المدينة[60] . وكان يقيم بمنطقة طرابلس قوم من البربر ، وهم هوّارة ولماية ولواتة ومزاتة وغيرهم[61] . وفي سنة 430 هـ/ 1038-1039 م غادر المدينة قسم من أهلها على الأقلّ ، إثر ظهور مجاعة[62] . ولمّا نشبت المعارك بين صنهاجة وزناتة ، قدم إليها بنو مزاتة الذين تمّ إجلاؤهم بلا شكّ من مواقعهم ، فاستقروا بها على الأقلّ مدّة من الزمن[63] .

وكان ابن حوقل قد أشار إلى إنتاج الفواكه بكثرة في منطقة طرابلس ، « كالخوخ والكمثري (الأجاص) . . والجهاز الكثير من الصّوف المرتفع وطيقان الأكسية الفاخرة الزُّرْق والكُحْل النفوسيّة (نسبة إلى نفوسة) والسّود والبيض الثمينة ، إلى مراكب تحطّ ليلاً ونهاراً . . »[64] .

وقد أشاد كلّ من ابن حوقل والبكري بخصال أهل طرابلس . وذكر التجاني « أن غابة طرابلس كانت متّصلة إلى الجبل بأنواع الفواكه على اختلافها وتعدّد أصنافها (كالتين والكمثري والتفاح والخوخ) ، فأفسدتها العرب (بنو هلال) وأجلت أهلها عنها »[65] . وكانت ملاصقة

---

57) ابن حوقل ، 69/1 .

58) نسبة إلى عبد الله الشعّاب (ت . 857 هـ) ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 427/1] . رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 71 و- 94 و : مسجد البندومة ، [طبعة بيروت ، 390/2 : مسجد البدويّة] ، مخطوط القاهرة : البدوية (؟) : « وهو اليوم في قبلي (جنوبي) طرابلس بموضع يعرف بالسوق القديم ، وهي قرية مسكونة ، وفيه نحو الخمسين سارية » .

59) نسبة إلى أبي الحسن البارزي ، وحسب التجاني ، 249 ، « اشتهر هذا المسجد بسكنى أبي عثمان سعيد بن خلفون الحسّاني المعروف بالمستجاب » .

60) برنشفيك [الترجمة العربية ، 486/1] .

61) البيان ، 163/1-165 .

62) الشماخي ، 400

63) نفس المصدر ، 375 ، 399-400 .

64) ابن حوقل ، 69/1 .

65) التجاني ، 247 ، الإدريسي ، 121-122 .

للمدينة سبخة تنتج كمّيات كبيرة من الملح . كما أشار البكري[66] إلى وجود سهل في تلك الربوع يقال له فحص سوبجين ، تبلغ محاصيله الزراعية في بعض السنين مائة ضعف . وأكّد الإدريسي أن تلك المنطقة « كانت عديمة المثال في صابة الزرع ، ولا يُدْرَى في معمور الأرض مثلها في ذلك » .

ومن بين القرى التابعة لمنطقة طرابلس في العصر الصنهاجي ، أشارت المصادر إلى قرية حسّان[67] ، وذكر ابن حوقل من جهته قصر ابن كمو (؟) وقصر مظكود (؟)[68] .

وخلف طرابلس[69] توجد أوّلاً لَبْدَة[70] (لبتيس مغنا في العصور القديمة) التي كانت كثيرة العمارة في سالف الزمان ، ثم أفسدها بنو هلال ولم يبق منها في عصر الإدريسي « إلاّ قصران كبيران ، وعمارهما قوم من هوّارة البربر ، ولها على نحو البحر قصر كبير عامر به صناعات وسوق عامرة » . وفي لبدة نخل كثير وزيتون يُستخرَج منه الزيت . ويوجد بعد ذلك قصر بني حسن وسُوَيْقة ابن مثكود[70] ، « وبها سوق مشهورة مشهودة ، وهي قصور كثيرة وأهلها يحرثون الشعير ، والعرب يخزنون بها طعامهم . ويسكنها وما حواليها قوم من هوّارة البرابر تحت طاعة العرب »[71] .

وكانت سِرْت (أو صرت)[72] مركزاً بحريّاً وجمركيّاً هامّاً يصدّر الشبّ والصوف . وقد أكّد الإدريسي أنه لم يبق فيها سوى عدد ضئيل من النخيل وأشجار التين وعدد كبير من أشجار التوت . وعلى بعد خمسة أميال جنوباً توجد بلدة ودّان[73] .

---

66) البكري ، 9 .

67) التجاني ، 249 : « أبو عثمان سعيد بن خلفون الحساني ، وأصله من قرية حسّان من قرى طرابلس » . وذكر نفس المؤلف ، 316 ، . قصر فارة وقصور الورانيز وقصر بني خيار ، « وهو أيضاً خالٍ خَرِب ، أجلت العرب أهله فانتقلوا إلى المحرس بين قابس وصفاقس » .

68) ابن حوقل ، 69/1 .

69) اليعقوبي ، 345-346 ، البكري ، 4-6 ، 85-86 ، الإدريسي ، 129-138 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 352/1] ، الإدريسي ، 122 .

70) البكري ، 9 ، ابن حوقل ، 68/1-69 .

71) الإدريسي ، 179-180 ، بنو غانية ، 134 ، الهامش 3 ، برنشفيك [الترجمة العربية 353/1] ، اليعقوبي ، 346 ، Wiet ، 205-206 : تمتدّ منازل هوّارة من سرت إلى طرابلس .

72) اليعقوبي ، 344 ، ابن حوقل ، 68/1 ، البكري ، 6 ، المقدسي ، 12-13 ، الإدريسي ، 122-130-131 .

73) اليعقوبي ، 345 ، البلدان ، 405/8-406 ، بنو غانية ، 99 الهامش 1 .

أمّا مدينة برقة(74) التي احتلّها بنو هلال ، فقد فقدت ازدهارها ، ولكنّها بقيت مركزاً تجاريّاً هامّاً في البرّ والبحر ، وكانت منطقتها تنتج القطن والفواكه (كالجوز والسفرجل والأترجّ) . وكانت برقة التي يباع فيها الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وبضائع الشرق والغرب ، تصدّر إلى مصر الصوف والعسل ونوعاً مشهوراً من القطران وتمور أوجلة والزيت وتربة تستعمل للمعالجة وتُعرَف بتربة برقة . كما كانت تُدبَغ فيها الجلود .

وكانت أجدابيّة(75) في القديم مدينة تجارية كبيرة بها جامع وأسواق وفنادق الخ . . . ومركزاً هامّاً تمرّ منه القوافل السودانية ، فتحوّلت بعد غزوة بني هلال إلى قصرَيْن قائمَيْن وسط الصحراء ، يقيم بهما بعض التجار من المسلمين واليهود . وعلى بعد عشر مراحل من برقة توجد في الصحراء بلدة أوجلة(76) الواقعة جنوب غربي أجدابية ، وهي عبارة عن مركز هامّ يقع في طريق السودان ، وهناك طريق آخر يربط مباشرة بين أوجلة وودّان .

جبال مطماطة ودمّر ونفوسة :

سوف لا نفيض في الحديث عن المعقل الإباضي المستقلّ عمليّاً والواقع في أقصى شرق بلاد المغرب ، وهو عبارة عن هلال جبلي ضخم يمتدّ من قابس إلى لبدة القديمة ويقع في حافة سهل جفارة ، ويشتمل على جبال مطماطمة ودمّر ونفوسة(77) .

وليست لدينا معلومات كثيرة عن الجبلَيْن الأوْلَيْن ، سوى أنهما كانا آهلَيْن بأبناء لواتة ومطماطة وأولاد دمّرو ورغمّة .

ولْنشِرْ باختصار إلى أنّ معظم الإباضيين المستقرين في منطقة القيروان والمناطق الأخرى كانوا تابعين لمزاتة(78) .

---

74) الأصطخري ، 37-38 ، بنو غانية ، 134 ، الهامش 2 ، حول برقة والسكان العرب والبربر القاطنين بالمنطقة الواقعة بين تلك المدينة ومصر ، انظر ، اليعقوبي ، 342-345 ، ابن حوقل ، 66/1-67 ، الإدريسي ، 131 .

75) اليعقوبي ، 344 ، ابن حوقل ، 67/1 ، البلدان ، 121/1-122 ، الإدريسي ، 132 ، المقدسي ، 12-13 .

76) ابن حقول ، 67/1 ، البكري ، 12 ، الإدريسي ، 132 .

77) اليعقوبي ، 346 ، ابن حوقل ، الترجمة 245-246 ، البكري ، 9 ، الإدريسي ، 105 ، 122-123 ، البلدان ، 305/5 ، الاستبصار ، الترجمة 92 ، الدولة الأغلبية ، 39-46 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 353/1] ، رولي باسي ، معابد جبل نفوسة ، المجلة ، الآسيوية . 1899 ، 423-470 ، 88-120 ديبوا ، جبل نفوسة .

78) نجد في كتاب الشماخي ، 371 ، هذه العبارة : مزاتة القيروان ، ومن بين الزناتيين الناهضين للإباضيين ، يذكر =

أمّا جبل نفوسة ، فقد كانت تقيم به قبيلة نفوسة (نفوسة الأصلية غرباً وبنو زمّور وبنو مسكور وبنو تارديت شرقاً) ، وكذلك زناتة مغراوة وبعض عائلات من سدارتة . وكان آهلاً بالسكّان ويشتمل على عدد كبير من القرى . وكان أهل الجبل يتعاطون زراعة الأشجار المثمرة وتربية الماشية ثم تخلّوا عنها بعد غزوة بني هلال واعتصموا بالجبال . وقد كان جبل نفوسة في العصر الوسيط يمتدّ من الغرب إلى الشرق ، انطلاقاً من لالوت (أو نالوت) إلى تيجرمين (الحدود الحالية لإقليم زنقان) .

وتطلق المصادر الإباضية القديمة اسم أميناج (المشتقّ من اسم بلدة إيناج المنقرضة) على القسم الغربي من نفوسة الذي يضمّ القاعدة الإقليمية شاروس ويتميّز تماماً عن القسم الشرقي الذي تتمثل قاعدته الإقليمية في جادو[79] .

وسنكتفي بالإشارة إلى أهمّ المراكز الواقعة من الغرب إلى الشرق ، وهي لالوت (أو نالوت)[80] التي كانت تمثّل مركزاً ثقافيّاً واقتصاديّاً هامّاً ، يشرف على حظوظه حاكم مستقلّ ، ومعبراً محتملاً يمرّ منه قسم من القوافل السودانية ، وكباو[81] ، وهي قرية هامّة وقديمة تقع في ضواحيها عدّة مراكز عمرانية نخصّ بالذكر منها ابناين[82] وفرسطاء[83] وتملوشايت[84] وتين دغميرة[85] (تندميرة في الوقت الحاضر) . وهي قرية قديمة جدّاً ما زالت مزارة إباضية إلى يومنا هذا ، وبها جامع كبير .

وحسب البكري ، نقلاً عن محمد بن يوسف بن الورّاق كانت شاروس[86] قاعدة قرى جبل

الشماخي ، 417 ، بني توجين . وجاء في نفس الكتاب ، 493-494 أن شيوخ الإباضية قد منعوا أيّ اتصال مع ثلاث قبائل بربرية متّهمة بالنهب ، وهم بنو غمرت وبنو ورسفان وبنوا إينجاسن ، وحول مزاتة طرابلس وبطن زهانة المستقرّ شمال غربي جبل نفوسة في الحدود التونسية الطرابلسية ، انظر ، اليعقوبي ، 344 ، 346 ، الإدريسي ، 123 ، T. Lewicki ، **دراسات إباضيّة** ، 66/1 ، الهامش 7 .

79) الشماخي ، 172-273 ، البكري ، 9 ، الإدريسي ، 105 ، **دراسات إباضية** ، 83/1-88 .

80) الشماخي ، في مواضع متعددة ، **دراسات إباضية** ، 125/1-126 .

81) الشماخي ، 163-286-330-545 ـ **دراسات إباضية** ، 64/1 .

82) الشماخي ، 301-305 ، 340 ، 530 ، 536 ، 550 ، **دراسات إباضية** ، 73/1-74 .

83) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، **دراسات إباضية** ، 71/1-72 .

84) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، **دراسات إباضية** ، 61/1 .

85) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، **دراسات إباضية** ، 59/1-60 .

86) البكري ، 9 ، ابن حوقل ، 94/1-95 ، الإدريسي ، 105 ، الشماخي 273 برنشفيك [الترجمة العربية ، 355/1] ، **دراسات إباضية** ، 43/1-45 .

نفوسة . وقد نفى هذا المؤلف وجود جامع بتلك المدينة ، خلافاً لابن حوقل الذي أكّد وجوده ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى القرى المجاورة الأخرى التي يقدّر عددها بثلاثمائة قرية . وفي ضواحي شاروس كان السكّان يزرعون نوعاً ممتازاً من الشعير ، « ولهم في صنعة الخبز منه حذق ومهارة ، فاقوا في ذلك على الناس »[86م] . وتدلّ أطلال تلك المدينة المماثلة لأطلال جادو ، على ما كانت تكتسيه من أهميّة في سالف الزمان ، فقد كان بها جامع له خمس مسكبات ، وقصر مجاور لحارة اليهود[87] . وكانت تمرّ من هنالك الطريق التي تسلكها القوافل المتّجهة إلى طرابلس والسودان الغربي (تكرور) . وما زال موجوداً إلى الآن مسلك يسمّى « طريق السودان »[88] . وقد تحاربت شاروس طوال سبع سنين مع جارتها ويغو خلال القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م . وحسب رواية شفويّة استنجد أهل ويغو ببني هلال للقضاء على المدينة المنافسة التي دُمّرت في آخر القرن الحادي عشر[89] .

وتوجد في مدينة ويغو[90] التي تبعد بضع كيلومترات جنوب شرقي شاروس أطلال عظيمة ومسجد مبنيّ تحت الأرض . ويبدو أنّها كانت تمثّل أهمّ مركز إسلامي قديم في نفوسة إلى جانب القرية الكبيرة المجاورة لها ، إفاطمان[91] التي تقع بعيداً عنها في الجهة الشرقية . ويبدو أنها صارت خالية من السكّان بعد منتصف القرن الخامس الهجري بقليل .

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ثلاث قرى أخرى قريبة الواحدة من الأخرى ، وهي إينير[92] وتين دوزيغ[93] وإيجطال[94] . أمّا فُسَاطُو[95] ، قاعدة الإقليم الذي يحمل نفس الاسم ، فقد كـان

---

87) ما زال بعض اليهود الطرابلسيّين يحملون ألقاباً منسوبة إلى شاروس ، واكتُشِفَت في تلك المدينة قبريّات عائلات يهودية من القرن الرابع عشر م . أرشيفات مغربية ، 469/14 ، دراسات إباضية ، 45/1 هامش 2 .

88) ديبوا ، جبل نفوسة ، 289-290 . وحول إدخال ملك زنجي إلى الدين الإسلامي على يدي عالم إباضي من القرن الرابع هـ/ العاشر ، كان يتعاطى التجارة مع السودان ، انظر ، الشماخي ، 312 . انظر أيضاً ، البكري ، 158-159 ، 172 ، 177-182 . الشماخي ، 483-484 : تحوّل شيخ أباضي إلى غانة ، 457-458 ، دراسات إباضية ، 71/1 الهامش 2-72-73 .

89) الشماخي ، 327 ، ديبوا ، جبل نفوسة ، 299 ، دراسات إباضية ، 48/1 .

90) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، جبل نفوسة ، 47/1-48 .

91) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 120/1-121 .

92) الشماخي في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 34/1-35 .

93) الشماخي ، 163-317 ، دراسات إباضية ، 62/1-63 .

94) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 33/1-34 .

95) الشماخي ، في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 108/1-110 .

يديرها مقدّمون ، لم تكن علاقاتهم مع حكّام جادو دائماً على أحسن ما يرام . وفي نفس الإقليم كانت مدينة إيجناون[96] في أوائل القرن الثالث هـ/التاسع م . تمثّل خلال مدّة من الزّمن أهمّ مركز سياسي وديني في جبل نفوسة . ويدلّ اسمها[97] على وجود جالية سودانية بها قبل القرن الثامن م . وفي القرن الموالي كان والي نفوسة الرستمي يتكلّم لغة كانم السودانية ، بالإضافة إلى العربية والبربريّة . وكانت مدينة جادو المجاورة تمثّل من القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر م ، نقطة الطريق المفضية إلى زويلة في فزّان ، ومنها إلى بلاد كانم[98] .

وفي مدينة جادو التي كانت عبارة عن مركز اقتصادي وسياسي وديني قديم في نفوسة ، توجد آثار ممتدّة الأطراف[99] ، منها بقايا جامع وأسواق ، وبالقرب منها حارة اليهود وبيعة ومقبرة يهودية . وقد أشارت بعض المصادر القديمة[100] إلى وجود جالية يهُوديّة في تلك السوق الكبيرة التي كان يديرها قاضٍ خاصّ[101] ويتوافد عليها الناس من القرى المجاورة العديدة . وكان لكلّ من زمّور وطرميسة يوم خاصّ لارتياد السّوق . وصادف في إحدى السنين أن كان اليوم التاسع من محرّم هو اليوم المخصّص لطرميسة ، فالتمس منهم الزمّوريّون السماح لهم بقضاء شؤونهم في ذلك اليوم من السوق ، بمناسبة عاشوراء . فرفض الطرميسيّون طلبهم وانهالوا عليهم شَتْماً . وانجرّت عن ذلك معركة طاحنة بين الفريقَيْن أسفرت عن مقتل عدد كبير من طرميسة[102] .

وتوجد شرقي مدينة جادو وعدّة قرى أخرى ، نخصّ بالذكر منها ميري[103] وإيدرف[104] وتارديت[105] وأخيراً تيجرمين[106] .

96) الشماخي في مواضع مختلفة ، دراسات إباضية ، 1/94-96 .

97) جمع المذكر من الكلمة البربرية أنياو= زنجي أو أسود باللغة النفوسية ، أو الصفة المشتقة من اسم السودان البربري : جناوة ، دراسات إباضية ، 1/95-96 والهوامش .

98) الشماخي ، 172-185 ، جبل نفوسة ، 289 ، دراسات إباضية ، 1/90-91 ، 93 ، 96 .

99) ابن حوقل ، 1/95 ، البكري ، 9 ، الاستبصار ، الترجمة ، 92 ، الشماخي ، في مواضع مختلفة ، جبل نفوسة ، 245 ، دراسات إباضية ، 1/88 ، 92 .

100) البكري ، 9 ، الشماخي ، 243

101) الشماخي ، 324 .

102) نفس المصدر ، 243 .

103) دراسات إباضية ، 1/103 .

104) نفس المرجع ، 100 ، 101 .

105) نفس المرجع ، 141-142 .

106) نفس المرجع ، 111-112 .

قسطيلية (الجريد ونفزاوة وقفصة) :

تمتدّ قسطيلية في الجهة الشمالية الغربية والجهة الشرقية من سبخة التاكمرت الكبرى[107] (سبخة قسطيلية المعروفة اليوم بشطّ الجريد) . وهي منطقة ممتدّة الأطراف ذات حدود غير مضبوطة تضمّ الجريد ونفزاوة ، بل حتى قفصة وحامة قابس . وأوّل مدينة تقع في الطرف الغربي من شطّ الجريد هي درجين[108] . ومن الجريد تنطلق الطريق الشرقية المفضية إلى نفوسة والطريق الغربية المفضية إلى الأوراس[109] .

وفي الناحية الشرقية توجد مدينة نفطة (نبت في العصور القديمة)[110] ، المبنيّة بالحجارة ، وبها جامع ومسجد وعدّة حمّامات ، وهي مدينة تجاريّة تقع وسط واحة مرويّة بغزارة .

وقد روى المقدسي أنّ أهل قسطيلية (= توزر) ونفطة كانوا يأكلون الكلاب . ويبدو أنّ أكل لحم الكلاب كان منتشراً عهدئذ في الجنوب التونسي الذي كان ينتمي إلى المذهب الإباضي . وقد أشارت بعض المصادر الأخرى إلى أنّ تلك العائدة كانت شائعة أيضاً في قفصة[111] . والغريب في الأمر أن البكري[112] قد أكّد أنّ جميع أهل نفطة كانوا من الشيعة . ولذلك سمّيت

---

107) بالإضافة إلى المراجع الواردة في الهامش 113 ، انظر ، **الدولة الأغلبية** ، 51-53 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 346/1] ، دائرة المعارف الإسلامية، 856/2، T. Lewicki، الإباضيون بتونس. . . ، 12-13 **الاستبصار** ، الترجمة ، 85، الخلاصة، الخريطة ص 77، الشماخي، ٩٨٢: قلعة بني درجين، 400: قلعة درجين، برنشفيك [الترجمة العربية، 348/1 الهامش 72]: ينبغي التمييز بين قلعة بني درجين ودرجين السفلى الجديدة. فلربّما كانت درجين في العهد الصنهاجي تشتمل على مدينة قديمة ومدينة جديدة. وحسب بحث قدّمه حسن حسني عبد الوهّاب يوجد بنفطة باب يسمّى باب درجين. وأكّد الشماخي، 447 أن خلافات نشبت في درجين السفلى الجديدة، فتحوّل أبو عبد الله محمد بن علي الصوفي إلى درجين ولكنّه توقّف في ربض نفطة حيث التقى به الفقهاء والعزّابة، ومن بينهم الشيخ يخلف بن يخلف ومحمد بن سعيد. وذهبوا إلى مسجد قنطرار العليا. فجاءه أهل درجين من الفريقين وأصلح بينهم.

109) **الدولة الأغلبية** ، 50 .

110) **اليعقوبي** ، 35 ، البكري ، 48 ، 74-75 ، **البلدان** ، 304/8-305 ، المقدسي ، 4-5 ، 60-61 ، 66-67 ، الإدريسي ، 105 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 962/3 (جورج مارسي) ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 348/1] . وحسب بحث للسيد ح . ح . عبد الوهاب ، يبدو أنّ كنّومة التي ذكرها الشماخي ، 394 ، 399-400 ، 436 ، 458 هي كنّونة إحدى قرى نفطة . وأشار برنشفيك [الترجمة العربية ، 348/1] إلى كنّومة المنافسة لسدّادة . وفي حاشية نسخة من كتاب الشماخي ، 458 ، إشارة إلى أن الأمر ربّما يتعلّق بقرية كنّوفة الواقعة شمالي نفطة ، خارج مقبرة تلك المدينة .

111) المقدسي 60-61 ، الهامش 172 ص 87-88 ، **الاستبصار** ، الترجمة 86 .

112) البكري ، 75 ، فاغنان ، مقتبسات لم يسبق نشرها ، 53 ، **الاستبصار** ، 79 .

تلك المدينة بالكوفة الصغرى .

وكانت توزر (توسوروس في العصور القديمة)[113] تمثّل قاعدة قسطيلية (أي منطقة الجريد) . وهي مدينة كبيرة يحيط بها سور مبني بالحجارة والطوب ، له أربعة أبواب ، وتضمّ مسجداً جامعاً جميلاً[114] وعدّة أسواق ، وأرباضاً فسيحة وعامرة . وكانت الواحة المرويّة بغزارة تنتج البقول والليمون والموز ، وعلى وجه الخصوص التمور المصدّرة بنسق ألف حمل بعير في اليوم[115] ، وتزوّد إفريقيّة بالفواكه . وكان يتردّد على توزر التي كانت تمثل مركزاً كبيراً للمبادلات التجارية ، عدد غفير من التجار ، وكانت تصدّر بالخصوص الأقمشة الصوفية[116] .

وقد كانت توزر في العصر الصنهاجي تقع شيئاً ما جنوبي المدينة الحالية ، في المكان القديم المطابق لبلد الحضرة (أو بلد الحَضَر) ، ولعلّها كانت تشتمل على ربضَيْن متنافسَيْن ، الأوّل وهو الأقدم يقيم به السكّان الأصليّون ، والثاني يسكنه الأعراب[117] .

وتوجد شمالي توزر على التوالي : الحمّة (حامّة الجريد ، أكْوَا في العصور القديمة) المحاطة بواحة[118] وتقيوس (الوديان ودقاش في الوقت الحاضر) ، « وهي مدينة حسنة عامرة ، لها غلّات

---

113) اليعقوبي ، 35 ، ابن حوقل ، 94/1 ، البلدان ، 428/2-429 ، البكري ، 48-49 ، المقدسي ، 26-27 ، ابن الشبّاط ، 15-16 ، 31-34 ، معالم الإيمان ، 216/2-218 ، بنو غانية ، 55-56 ، الهامش 5 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 347/1] .

114) كان لهذا المسجد أربع قباب ، وقد ابتدأت أشغال بناء مئذنته في سنة 418 هـ/1027-1028 م وانتهت في سنة 422 هـ/1030-1031 م . وكان الباب الشرقي الذي تعلوه قبّة يفتح على سوق الخرّازين ، ابن الشبّاط ، 33-34 ، الحلل ، 214/1-215 ، جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 77 .

115) أبو الفداء ، نقلاً عن ابن سعيد . وأشار صاحب الحلل ، 185/1 إلى زراعة قصب السكر بكثرة . ولكن ابن الشبّاط ، 34 ، أكّد أن حدائق توزر كانت تنتج جميع الفواكه ما عدا قصب السكر ، وذكر أيضاً الزنجبيل والمُخَيْطي والأهليلج .

116) وأشار ابن حوقل إلى الشُقّة والكساء والحنبل .

117) وذكر ابن الشبّاط ، 31-32 أنه سمع شيخاً يؤكد أن توزر قبل الفتح الإسلامي كانت تتركّب من قسمَيْن يفصل بينهما خندق . وذكر نفس المؤلف ، 16 ، جامع القصر ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 347/1] ، جورج مارسي ، محراب توزر المغربي ، ذكرى هنري باسي ، باريس 1928 ، 39/2-58 . وأكد التجاني ، 138 ، وجود جامعَيْن للخطبة داخل البلد . وذكر الشماخي ، 403 أنّ شيخاً أباضيّاً تعلّم بتوزر في درب بني مبدول ، وهو بطن من بطون بني واسين . ولعلّ علم الآثار سيوافينا بمزيد من المعلومات حول تاريخ توزر وغيرها من المدن الأخرى ! .

118) تتحدّث المصادر تارة عن الحمّة وطوراً عن الحامّة . اليعقوبي ، 35 ، ابن حوقل ، 94/1 ، الإدريسي ، 104 ، البكري ، 48 ، المدارك ، 2-2/3-9 ظ : حامّة قسطيلية ، البلدان 344/3-345 ، الاستبصار ، الترجمة ، 80-81 ، بنو غانية ، 81 ، الهامش 2 ، برنشفيك [الترجمة العربية 348/1] : يتعلق الأمر بحمّة البهاليل ، الخلاصة ، خريطة ص 77 : حمّة قسطيلية ، الشماخي ، 432 ، قنطرار من الحمّة ، الذيل ، 447 : مسجد قنطرار العليا ، الشماخي ، 359-360 ، =

الحنّاء والكمّون والكروياء ، وبها نخل وتمر حسن ، وجملة بقول طيّبة ناعمة »[119] .

وتقع شرقي الجريد على بعد ثلاث مراحل من قفصة ومرحلة من نفطة ، مدينة قَيْطون أو قيطون بيّاضة[120] التي تمثّل بداية إقليم سُماطة ، وتمرّ بها الطرق الثلاث المفضية إلى السودان وطرابلس والقيروان .

أمّا أهمّ مدن نفزاوة ، فهي من الشمال إلى الجنوب بشري[121] القريبة من فطناسة والمحاطة بسور ، وهي مقرّ عامل المنطقة في عصر اليعقوبي ، وطرّة (تلمين في الوقت الحاضر الواقعة غربي قبلي ، توريس تمليني في العصور القديمة)[122] ، وجمنة[123] ودوز[124] . وعلى الأرجح فإن بشري ، قاعدة الإقليم ، هي التي سمّاها المقدسي نفزاوة وسمّاها البكري مدينة نفزاوة[125] . وحسب المؤلف الثاني ، كانت مدينة نفزاوة الواقعة على بعد ستّ مراحل غربي القيروان تتزوّد بالماء من عين عظيمة ، يستطيع الناظر مشاهدة قاعها ، تسمّى باللغة البربرية فاورغة ، وتشتمل على سور مبني بالحجارة والطوب له ستة أبواب ، وعلى مسجد جامع وأسواق عامرة . وهي تقع بالقرب من وادٍ يحيط به النخيل والأشجار المثمرة ، وفي ضواحيها تجري عيون كثيرة . ثم أشار البكري إلى

195 : قنطرارات . ابن حوقل ، أشار إلى القصور الثلاثة الواقعة بين الحمّة وقفصة ، وتعليقاً على الخريطة 64/1 ذكر نفس المؤلف على التوالي : قلشانة ، مجّانة ، قصيرة ، القصور ، قفصة ، الحمّة ، نفزاوة ، سُماتة ، قسطيلية ، نفطة ، تامليل ، مدالة . وفي موضع آخر ، الترجمة 242-243 ، تحدّث عن سدّادة وتقيوس المختلفة عن سميتها في نفزاوة ، وهي مدينة جميلة تشبه بشري ولها سور مثلها . وفي نشرة 93/1-94 لم تُذكر سوى مدينة سُماتة ، وهي مدينة جميلة من مدن نفزاوة .

119) الإدريسي ، 104 ، انظر أيضاً ، اليعقوبي ، 35 ، البلدان ، 399/2 ، الاستبصار ، الترجمة ، 80-81 ، بنو غانية ، 81، الهامش 2، برنشفيك [الترجمة العربية 346/1-347]، الشماخي ، 386 وفي مكان آخر، 458؟ ورد ذكر دقاش إحدى قرى تقيوس الموجودة حسبما يبدو في القرن السادس هـ.

120) البكري ، 47 ، 74/7/6 الخلاصة ، خريطة ، ص 77 ، البلدان ، 197/7 ، 304/8 ، الاستبصار ، الترجمة ، 114-115 .

121) اليعقوبي ، 35 ، ابن حوقل ، 93/1-94 ، الاستبصار ، الترجمة ، 82 ، العمري ، ترجمة ديمومبين ، 132 ، الهامش 3 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 346/1] ، الدولة الأغلبية ، 50-51 .

122) بنو غانية ، 95 ، الهامش ، برنشفيك ، المرجع السابق ، أبو الفداء ، الجغرافيا ، الترجمة ، 201/2 : ويصنع بلّور صافٍ جدّاً وأقمشة صوفية تصدّر إلى الإسكندرية .

123) الخلاصة ، ص 77 .

124) نفس المرجع

125) المقدسي ، 4-5 ، 26-27 ، البكري ، 47 ، البلدان ، 303/8-304 .

وجود مدينة قديمة تقع جنوبي مدينة نفزاوة ، سمّاها « المدينة » . وقد كانت محاطة بسور وتحتوي على مسجد جامع وحمّام عمومي وسوق ، وفي ضواحيها توجد بعض العيون والبساتين . ومن المحتمل جدّاً أن يكون الأمر متعلّقاً بمدينة طُرّة[126] .

وبين نفطة وباديس ، أشار ابن حوقل إلى وجود مدالة (مرحلة واحدة) ثم طامليل (مرحلتان) وأخيراً باديس (مرحلة واحدة)[127] .

وتقع شمالي الجريد المعروف وقتئذ بقسطيلية[128] ، مدينة قفصة (كبسة في العصور القديمة)[129] وسط واحة جميلة . وقد كانت ديارها وأسوارها مبنيّة بالحجارة والمرمر القديم . وكانت محاطة بأكثر من مائتي قصر تُعْرَف « بقصور قفصة »[130] . وأكّد البكري أن قفصة كانت تسدّد 50.000 دينار من الجباية . وكانت تلك المنطقة الغزيرة المياه توفّر شتّى أنواع الفواكه التي كان تزوّد بها القيروان . فكانت تنتج على وجه الخصوص ، تمورا غليظة مثل بيض الحمام ، والفستق المصدّر إلى إفريقية ، بل حتى إلى مصر والأندلس وسجلماسة . وكان أهلها يزرعون الزياتين وأشجار التين والتفاح والكروم والحناء والقطن والكمّون والنباتات العصريّة[131] . وكانت أسواق المدينة نافقة . وكانت تُصنَع بها طاسات لشرب الماء رقيقة جدّاً وناصعة البياض ، إلى درجة أنّها سُمِّيت (على غرار بواقيل تونس) « الريحيّة » (نسبةً إلى الريح = خفيفة الوزن) . كما كان يُصنَع بها البلّور والأواني البرّاقة من الدّاخل أو المنحّبة والأردية والعمامات الصوفية البالغة الرقّة .

وحسب الإدريسي ، لا يزال السكّان الذين هم من الأفارق المبربرين ، يتكلّمون في عصره اللغة اللاّتينيّة الإفريقيّة ، وقد كان بقفصة مسجد يقال له : مسجد هوّارة[132] وكان أولئك البربر ينتجعون في المنطقة الوسطى من البلاد التونسية[133] .

---

126) انظر أيضاً ، الاستبصار ، الترجمة ، 82 ، البلدان ، 304-303/8 .

127) ابن حوقل ، 64/1 (شرح الخريطة) ، 88 .

128) دائرة المعارف الإسلامية ، 856-855/2 .

129) ابن حوقل ، 94/1 ، اليعقوبي ، 349 ، البكري ، 47 ، المقدسي ، 4-5 ، 64-65 ، الإدريسي ، 104 ، الاستبصار ، الترجمة ، 71-75 . البلدان ، 138/7 ، بنو غانية ، 57 ، الهامش 1 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 336/1] .

130) أشار المقدسي ، 4-5 ، 66-67 إلى مدينة القصور الواقعة على بعد مرحلتين من القيروان ، ويبدو أن الأمر يتعلق بقفصة .

131) الاستبصار ، الترجمة ، 74-75 .

132) نفس المصدر ، 71 .

133) العمري ، ترجمة دي مونبين ، 108 .

واشتهر أحد قصور قفصة ، وهو شقراطس ، بالكاتب المنسوب إليه ، وهو الشقراطسي(134) . وعلى بعد خمس مراحل جنوبي قفصة ، في اتجاه جبل نفوسة توجد مدينة زرود(135) . وعلى بعد أربع أو خمس مراحل جنوب غربي قفصة تقع مدينة بيلقين(136) التي خرّبها الأعراب .

غرب إفريقية الوسطى :

يبدو أنّ الكاف (شقبنارية) لم تكن في العصر الصنهاجي سوى موقع المدينة القديمة سيكافينيرية ، وربّما كانت توجد هناك قرية(137) .

وتوجد جنوب شرقي الكاف ، على بعد ثلاث مراحل من القيروان مدينة الأربس (لاريس أو لاريبوس في العصور القديمة)(138) ، وقد كانت قاعدة إقليمية تشتمل على مسجد جامع مبني بالحجارة وربض كبير يقال له بلد الأنبار . « وفي وسطها أعين ماء جارية لا تجفّ ، واسم عين منها رباح والأخرى زياد ، وماء عين زياد أطيب من ماء عين رباح ، ولها معدن حديد ، وليس حولها من خارجها عود نابت البتّة » . ولكنها كانت تنتج أحسن نوع من الزعفران ، وتنتج أيضاً القمح والشعير بكثرة ، وكذلك الفواكه . وتدلّ إحدى التسميات(139) على وجود سليانة الواقعة في الجهة الشرقية . وعلى بعد ثلاثة أميال جنوب غربي الأربس ، توجد مدينة أبّة (أبّا في العصور القديمة)(140) المنتمية في الواقع إلى منطقة مشتركة بينها وبين الأربس ، وقد اشتهرت هي الأخرى

---

134) المنتخب المدرسي ، 86 ، إدريس ، تحيّة جورج مارسي ، 95-106 .

135) الإدريسي ، 105 .

136) نفس المصدر .

137) لم يتحدث عنها البكري ، 33 ، إلا في العصر البيزنطي عندما ذكر كنيستها ، الاستبصار ، الترجمة ، 94-95 ، بنو هلالية ، 112 ، الهامش 4 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 333/1] .

138) ابن حوقل ، 86/1 ، البكري ، 136-137 ، بنو هلالية ، 112 الهامش 2 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، الخلاصة ، خريطة ، ص 77 ، وفي شرح الرسالة لابن ناجي ، 246/1 يمكن أن تكون أولاج (؟) هي الأربس . وقد سمع اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) أنها كانت تشتمل على عشرة مساجد .

139) نقائش عربيّة ، 237/1-238 ، قبريّة مؤرخة في 325 هـ/937 م .

140) ابن حوقل ، 87/1 ، البكري ، 53 ، المقدسي ، 66-67 ، الإدريسي ، 177 ، البلدان ، 99/1-100 ، برنشفيك ، المرجع السابق ، الخلاصة ، الخريطة ، ص 77 ، بنو هلالية ، 147 ، الهامش 5 . نلاحظ في الخريطة : محطّة الزعفران ومحطة الأربس .

بإنتاج الزعفران . « وكان بها عين جارية منها شربهم ، وسور مبني بالتراب » . وكانت أسعارها رخيصة . ولكن أكثرها قد صار خراباً في عصر الإدريسي .

وفي الجهة الجنوبية الغربية توجد منذ ذلك التاريخ قلعة الصنم (أو قلعة سنان) التي كانت تسمّى آنذاك قلعة السكّة[141] ، وكانت تقام بها سوق عموميّة ، والقلعة الجرداء التي كانت تسمّى قلعة الديك[142] .

وفي الطريق الرابطة بين الأربس وتامديت ، على بعد مرحلة من سبيبة ، تقع ، على ضفاف واد سرّات (سهل برجنّة) ، مدينة مرماجنّة الجميلة[143] التي كان بها مسجد جامع وفندق وسوق ، وقد كانت تابعة لهوّارة ، واعتبرها المقدسي جزءاً من إقليم تبسّة . وكانت تلك المنطقة تنتج كثيراً من القمح والشعير . وقد سدّد أهل مرماجنّة ، إثر غزوة بني هلال ، ضريبة إلى الأعراب[144] .

وأشار البكري إلى المراكز التالية الواقعة في الطريق الرابطة بين القيروان وبونة ، وهي أجّار والفهميّين (؟) وجزيرة أبي حمامة ومدينة الأنصاريّين التي تفصلها عن الأربس مرحلة واحدة ولا تبعد كثيراً عن سهل بلّ (= بلا ريجية) . وقد كانت تنتج أحسن أنواع الحنطة في إفريقية[145] .

وأشارت بعض المصادر إلى وجود مدينة القصرين الحالية (سيليوم في العصور القديمة) ، الواقعة جنوب غربي سبيطلة . كما تدلّ إحدى التسميات على وجود فريانة غربي القصرين ، ولكنّ

---

141) البكري ، 49 ، الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك ، المرجع المذكور .

142) المرجعان السابقان .

143) ابن حوقل ، 87-84/1 ، البكري ، 145 ، المقدسي ، 18-19 ، الإدريسي ، 118-119 ، الاستبصار ، 89 ، البلدان ، 29/8 ، برنشفيك ، المرجع السابق .

144) ذكر المقدسي (المصدر السابق) بعد مرماجنّة ، قلانش ، ويسمّى إقليمها مكنة أبي منصور التي تنتج بكثرة التين والزيتون والموادّ الغذائية ، ثم إقليم قبيشة ، وقاعدته طرناسة ، ويسكنه بنو العباس الذين استولوا عليه ، وكان ينتج سرفرجلا ممتازاً وبه عدّة زياتين وأشجار التين . وحول بني العباس الذين ينتمون إلى قبيلة بربريّة هامّة . انظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، 719/2 : قلعة بني عبّاس. ويذكر المقدسي بعد ذلك إقليم رُصْفة ، وقاعدته ينونش .

145) البكري ، 46-47 : من جزيرة أبي حمامة الربونة ، توجد خمس مراحل تتخلّلها عدّة قرى . وحسب البكري ، الترجمة ، 99 ، الهامش 1 ، فإن مدينة الأنصاريّين مطابقة لقلعة جابر الحالية ، الواقعة على بعد سبعة فراسخ من الكاف . وقد أوضح المؤلف أن أحفاد جابر بن عبد الله السلامي الأنصاري كانوا قد استقرّوا بها في سالف الزمان .

146) الإدريسي ، 91، الخلاصة ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 335/1 الهامش 25] .

الجغرافيّين العرب قد أهملوا ذكرها ، ما عدا ياقوت(147) .

وتوجد بين التلّ الأعلى وسهل قمّودة المراكز التالية : ممّس(148) (أو ساقية ممّس) ، وهي قرية كبيرة بها مسجد وفندق ، وسبيطلة (سوفيتولا في القديم)(149) التي تدهورت في ذلك التاريخ ، إن لم تكن قد اندثرت تماماً ، وسبيبة (سوفاس أو سوفيبوس في القديم)(150) ، المحاطة بسور حصين مبني بالحجارة ، وبها جامع وحمامات وربض يشتمل على أسواق وخانات ، وفيها مياه جارية غزيرة ، ممّا يفسّر وجود طواحين مائية وبساتين . وبها زراعات متنوّعة مثل الحبوب والفواكه والزعفران والكمّون والكرويّة والكتّان والبقول ، كما كانت تمثّل مركزاً هامّاً من مراكز تربية الماشية .

وأكّد البكري أنّ المرتفعات المجاورة لمدينة سبيبة كانت آهلة بالأعراب من بني مغلس وبني كسلان ، وحولهم قبائل هوّارة ومرنيسة البربرية . وبطبيعة الحال ، احتلّ بنو هلال تلك المنطقة .

وبين سبيبة والقيروان ، على بعد مرحلة من المدينة الثانية ، (في موقع بلدة أولاد حفّوز الحالية بلا شكّ) ، كانت توجد قرية الجُهَيْنِيّين (أو جهنيّين) ، وهي قرية كبيرة بها عدة فنادق ودكاكين ، يسكنها حسب الاحتمال أعراب جُهَيْنة (وبنو غطفان) وتحفّ بها البساتين(151) .

وأشار البكري إلى وجود عدد من القرى المطابقة لبعض المنشآت المائية الواقعة بين ممّس والقيروان ، وهي قرية المستعين وقصر الخير وقصر الزّرادبة المعروف باسم الخُطّارة(152) .

---

147) نقائش عربية ، 1/378-379 ، البلدان ، 6/373 : فرّيانة قرية كبيرة قريبة من صفاقس (كذا) ، فهل اغترّ المؤلف بوجود عائلة عمر الفرياني أو ربما بعض العائلات الأخرى أصيلة فريانة في صفاقس ؟ ولكن من غير المستبعد أن تكون هناك بلدتان تحملان نفس الاسم ، الأولى تقع في الشرق والثانية في الغرب .

148) البكري ، 146 ، المقدسي ، 4-5 ، البيان ، 1/150 ، البلدان ، 8/158 : ممسا ، بلدة في المغرب ، **خلاصة تاريخ تونس** ، الخريطة ص 77 ، سولينياك ، **المنشآت المائية** ، 154-159 .

149) البكري ، 146 ، البلدان ، 5/33 ، **الخلاصة** ، المرجع المذكور .

150) ابن حوقل ، 1/84 ، **المقدسي** ، 4-5 ، 66-67 ، البكري ، 49 ، 146 ، الإدريسي ، 119 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 88 ، البلدان ، 5/32 ـ **خلاصة تاريخ تونس** ، الخريطة ص 77 ، برنشفيك [الترجمة العربيّة ، 1/335] . وأشار البكري ، 146 ، إلى وجود مرصد على الطريق الرابطة بين (تبسة) وسبيبة يقال له عين التينة . وحول موقع منزل الحري المجاور للمرصد وكدية الشاعر التي يبدو أن البكري قد وضعها بين قرية الجهينيّين والقيروان ، انظر ، سولينياك ، المرجع السابق ، 164-165 .

151) ابن حوقل ، 1/84 ، البكري ، 146 ، الإدريسي ، 119 ، سولينياك ، المرجع المذكور ، 161-164 .

152) البكري ، 146 ، سولينياك المرجع السابق ، 165-169 ، البيان ، 1/149 : « فحص باروقس بين مدينة جلولا وحمام السُّرادق » .

الفصل الثاني
المغرب الأوسط

أقصى الجنوب :

تمتّد جنوب غربي الجريد وغربي نفزاوة ، من الشرق إلى الغرب منطقة شاسعة كانت بأسرها بين أيدي الخوارج[1] . وهي سوف وواد ريغ وخلفهما في اتجاه الغرب ، الخضيض الصحراوي الواقع جنوبي الزاب ، والممتدّ إلى أبعد من تلك المنطقة . وتوجد واحة ورقلة الكبيرة (ورجلان أو وارقلان أو وارغلان أو وارجلان)[2] على بعد أكثر من 350 كم من بسكرة . وقد كانت تعتبر « بوّابة السّودان » والمعبر الضروري الذي تمرّ منه القوافل الحاملة للذهب والعبيد إلى التلّ القسنطيني .

منطقة تبسّة :

تقع مدينة تبسّة (تيفيست في العصور القديمة)[3] شرقي وادي شبرو وسط سهل عالٍ ،

---

1) برنشفيك ، **العهد الحفصي** [الترجمة العربية ، 1/297-328] ، وحول سُوف انظر ، الشماخي ، 360 ، 339-340 ، وحول أريغ (= تقرت التي ليست لدينا بشأنها أية معلومات صحيحة بالنسبة إلى العصر الصنهاجي) انظر ، الشماخي ، 360 (وجود مغراوة)، 387، 388-389 (ضواحي أريغ التي كان يعيث فيها بنو وَرْماز فساداً) ، 417 ، 424-425 (وجود بني ويليل) ، 421 ، 422 : قصر بني ويليل ، 429 ، 466 :
بنو ويليل في تلا عيسى والقنطرة)، 429، 430-431: تلا عيسى بين اريغ ورجلان. وحول تجديت، القريبة من أريغ في الجهة الجنوبية، انظر الشماخي 387، 431-432-434 (مقبرة تجديت)، 488، 522 (من طرّة إلى تجديت).

2) برنشفيك [الترجمة العربية ، 1/328] ، البلدان ، 8/414 ، البكري ، 77 ، 182 (من ورجلان إلى مدينة قسطيلية 14 يوماً ومنها إلى القيروان 7 أيام)، الإدريسي، الفهارس، 237، الشماخي، في عدّة مواضع، وحول جبل بني مصعب: الشماخي، 390-425-426، 442. وحول الطريق من درع إلى سجلماسة عبر أجرو (= أجلو؟)، تونين، أجران، وشّان، أمرغاد، انظر، البكري، 156، وحول 468، 484-485، وحول تونين، نفس المصدر، 413، 437، 400، 450، 480.

3) البكري ، 49 ، 145-146 ، المقدسي ، 18-19 ، 66-67 ، البلدان ، 2/363 ، الاستبصار ، الترجمة ، 91-92 ، =

وتحفّ بها البساتين وأشجار الجوز ذات الثمار الجيّدة ، وهي مدينة كبيرة مبنيّة بالحجارة ، قد هدّم أبو يزيد جزءاً من سورها .

وكانت الطريق الرّابطة بين القيروان ومجّانة والمحاذية لجبل أوراس ومنطقة الشّطوط القسنطينيّة ، تمرّ في الشتاء عبر سبيبة وتبسّة ومسكيانة . وفي الصيف يمرّ المسافرون من مرماجنة[4] . وكانت تبسّة التي تمثّل مفرق طرق هامّ تشتمل على عدّة أقباء مخصّصة لاستقبال القوافل ، يستطيع كلّ قبو إيواء ألفيْ دابّة فما فوق في فصل الأمطار والثلوج[5] . ولا شكّ أن تبسّة قد تضرّرت كثيراً من غزوة بني هلال . فقد أكّد صاحب الاستبصار الخفيّ الاسم أنه لم يبق فيها معموراً في سنة 587 هـ/ 1191 م سوى « القصر » المحصّن الذي لم يشر إليه الإدريسي حتى مجرّد الإشارة[6] .

وتوجد غربي تبسّة ، بين هذه المدينة وبين باغاي ، على بعد مرحلة من مجّانة وبجاية بلدة مسكيانة[7] الواقعة في الوادي الذي يحمل نفس الاسم . وهي قرية عامرة ، يحيط بها سور قديم ، ولها سوق مستطيلة كالسماط[7] . وقد كانت منطقتها مروّية بغزارة ومزروعة . وحسب ابن حوقل ، كانت مسكيانة أكبر من مرماجنّة[9] ، وكان يشرف على حظوظ المدينتين والٍ واحد .

باغـــاي :

تقع باغاي (أو باغاية)[10] في سفح جبل أوراس ، على بعد حوالي اثني عشر كيلومتراً شمالي

برنشفيك [الترجمة العربية ، 1/323] البكري ، 49 : وهو يقول أن تبسة تقع شرقي وادي ملاق ، وفي خرائطنا يبدأ وادي ملاق في الشمال الغربي انطلاقاً من رافد واديْ مسكيانة وشبرو .

4) البكري ، 145 ، وجاء في كتاب افتتاح الدعوة الذي ألفه القاضي النعمان سنة 346 هـ ، أنّ الداعي أبا عبد الله قد سلك الطريق التالية : ايكجان ، بجاية ، المسكيانة ، تبسّة ، حيدرة ، القصرين ، دارمدين ، انظر S.M. Stern ، مجلة أرابيكا ، عدد 3 ، 344 .

5) البكري ، 145-146 .

6) ياقوت ، البلدان ، 363/2 .

7) ابن حوقل ، 84/1 ، البكري ، 50 ، الإدريسي ، 119 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية 323/1] .

8) إننا نفضل على قراءة Kramers (المسالك والممالك) : « كالبساط » ، قراءة Degoeje التي أكّدها البكري : « كالسماط » .

9) حسب ما ادعاه الإدريسي ربما نقلاً عن ابن حوقل .

10) اليعقوبي ، 350 ، ابن حوقل ، 94/1 ، البكري ، 50 ، 144-145 ، المقدسي ، 20-21 ، 66-67 ، الإدريسي ، 103-104 ، 119-120 ، البلدان ، 41/2 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 323/1] .

مدينة خنشلة الحالية ، وهي مدينة كبيرة عليها سوران من حجر ، ويحيط بها من جميع الجهات ، ما عدا الجهة الغربيّة ، ربض عليه سور ، وبه أسواق وحمامات وفنادق . أما المسجد الجامع فكان يوجد داخل الحصن .

وقد كانت ضواحي المدينة المرويّة بغزارة بالجداول النازلة من جبل أوراس ، مغروسة بالأشجار المثمرة ومغطّاة بالحقول والمراعي . وحسب ابن حوقل ، كانَ يحكم باغاي عامل مستقلّ يجبي الضرائب (كالصّدقات[11] والمعاون وغيرها من الإيرادات) .

وكان يقيم في سهل باغاي قوم من مزاته وضريسة ، وكان هؤلاء البربر على المذهب الإباضي ، مثل سكّان باغاي الأهليّين . وحرصاً على تجنيب إبلهم قساوة الشتاء ، كانوا يتجهون نحو الرمال .

وقد تمّ تحويل أسواق باغاي إلى الربض في عهد بني زيري . ولكن بعد غزوة بني هلال ، انجرّ عن غارات الأعراب إخلاء الربض ونقل الأسواق إلى داخل المدينة . وقد تضرّرت من تلك الغارات البوادي التي كانت بها في سالف الزمان عدّة قرى ومنازل ، « وعمارها برابر يعاملون العرب (أي يدفعون لهم الجزية) ، وأكثر غلاّتهم الحنطة والشعير »[12] . إلا أن شيوخهم هم الذين كانوا يجبون الضرائب (المعاون) ويديرون شؤونهم[13] .

وأشار البكري[14] إلى وجود قاساس بين باغاي وبلزمة ، وهي مدينة عتيقة تقع على ضفة نهر ، في غربيّه جبل شاهق ، وقد كانت الطريق تمرّ من مدرسن . كما قدّم إلينا ابن حوقل المعلومات التالية[15] : تنطلق الطريق من باغاي وتمرّ من بلزمة ونقاوس وطبنة ، ثم تلتحق بالطريق الرابطة بين مجّانة وتيجس وبونة . ومن تيجس يمكن الذهاب إلى قسنطينة وميلة وسطيف والمسيلة ، أما أقصر طريق مفضية إلى المغرب ، فهي الطريق التي تمرّ من سطيف وحائط حمزة وأشير .

---

11) حسب قراءة Degoeje ، أمّا Kramers فقد قرأ تلك الكلمة : « الصّلاة » ، دون اعتبار القراءة السابقة التي تبدو ملائمة أكثر للسياق .
12) الإدريسي ، 104 .
13) نفس المصدر .
14) البكري ، 50 ، وحسب دي سلانْ توجد اليوم بلدتان تحملان نفس الاسم الأولى تقع على بعد 7 فراسخ جنوب شرقي تبسّة والثانية على بعد 8 فراسخ شرقي باتنة .
15) ابن حقول ، 85/1 .

مجّانة :

تقع مجّانة[16] بالقرب من جبل ونزة على بعد مرحلة كبيرة من مرماجنّة ، وقد اشتهرت بحجر الطواحن الصّلد الذي كان يُقتَطَع من الجبال المجاورة ويُصدَّر إلى القيروان وسائر بلاد المغرب ، ولذلك سُمِّيت مجّانة المطاحن . وتسمّى أيضاً قلعة بُسْر ، نسبةً إلى مؤسّسها وفاتح المنطقة بسر بن أرطا ، أو مجّانة المعادن ، بسبب معادنها الكثيرة كالحديد والفضّة[17] والمرتك [أوّل أكسيد الرصاص] ، والرصاص والإثمد ، وكان يحيط بها سور من تراب أو طوب ، ولها جامع وأسواق وحمّامات . ويحتوي حصنها على 360 ماجلاً . وأخيراً فقد كانت مجّانة مفرق طرق هامّ[18] .

وكان أهل مجّانة أساساً من أصل عربي ، وكانت ضواحيها في قبضة لواتة . وكانت باديتها الخصبة المرويّة بغزارة والمزروعة تنتج الحبوب وعلى وجه الخصوص الزعفران . « وأرض مجّانة تغلّبت عليها العرب ، فتختزن بها طعامها »[19] .

وعلى بعد مرحلتين من الأربس ومرحلة من مرماجنّة توجد تامديت[20] ، وهي مدينة صغيرة تقع بين وادي ملاق وتيفاش ، ولها سور من تراب ، « وغلاّت أهلها من الحنطة والشعير المقدار الكثير » .

أما تيفاش (تيبازة في العصور القديمة) ، فهي « مدينة قديمة عليها سور (مبني) بالحجارة والجير ، وبها عين جارية ، ولها بساتين ورياضات ، وأكثر غلاّتها الشعير »[21] .

---

16) اليعقوبي ، 349 ، ابن حوقل ، 84/1 ، البكري ، 145 ، المقدسي ، 66-67 ، الإدريسي ، 117-118 ، البلدان ، 386/7 ، الاستبصار ، الترجمة 89 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 322/1-323] ، جورج مارمي وليفي بروفنسال ، حوليات الدراسات الإسلامية الشرقية ، 3 ، 1937 ، 13-18 .

17) حسب البكري ، 145 ، كان منجم من مناجم الفضة تابعاً للواتة ويسمّى الوريطسي (؟) .

18) نقائش عربية ، 159/1 ، الهامش 4 ، المقدسي ، 66-67 : من مجّانة إلى تبسّة ، إلى باغاي ، إلى دوفانة ، إلى عين العصافير ، إلى دار ملول ، إلى طبنة ، إلى مقرة أو إلى المسيلة وهي مرحلة ، وكلّ واحدة من تلك المدن تبعد عن الأخرى مسيرة مرحلة . وحسب ابن حوقل هناك طريق تمرّ من مجّانة إلى تيجس ومنها إلى مسكيانة ، وتنفصل عن طريق باغاي قبل وادي ملاق .

19) الإدريسي ، 118 .

20) ابن حوقل ، 87/1-88 ، البكري ، 53 ، الإدريسي ، 117-118 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 322/1-323] .

21) الإدريسي ، 120 ، البكري ، 53 : ويقال لتلك المدينة تيفاش الظالمة ، البلدان ، 442/2 ، برنشفيك [الترجمة العربيّة ، 331/1] ، أشار ابن حوقل ، 64/1 ، إلى وجود مدينتين بين تيفاش وباغاي ، وهما أبّة وقصر الزيت .

ومن تيفاش إلى قصر الإفريقي[22] مرحلة ، وهي مدينة كبيرة « لا سور لها ، ولها مزارع وإصابات جمّة من الحنطة والشعير » .

الطريق من قصر الإفريقي إلى المسيلة :

تنطلق من قصر الإفريقي طريق تشقّ الهضاب القسنطينيّة ، ويسمّى جزء منها على الأقلّ الجناح الأخضر ، ثم تمرّ من المراكز التالية[23] :

- أركو[24] ، وهي قرية « لها جنّات وعيون ومياه وبساتين » .
- تيجس (تيجيزيس في القديم)[25] ، وهي محاطة بسور مبني بالحجارة ، وربض ممتدّ حول المدينة من الجنوب الشرقي إلى الشمال ، ولها أسواق وجامع وحمّام . وحسب البكري كان يقيم بها بربر نفزة وورغروسة وبنو أوتمـو وكزناية وحمزة زناتة .
- مدينة المهريّين[26] ، الواقعة وسط سهل فسيح يسكنه قوم من كتامة ومزاته ، وبه عدّة قرى .
- تامسنت[27] .
- دكمة[28] ، « وهي قرية لها سوق وأصلها من كتامة » ، ومنها يمكن التحوّل إلى القلعة عبر مدينة

---

22) ابن حوقل ، 87/1 ، البكري ، 53 ، الإدريسي ، 120 ، البلدان ، 98/7 ، وقد أهمل هؤلاء الجغرافيون ذكر المدينة العتيقة توبرسكوم نوميداريوم الواقعة قرب منابع مجردة والتي توجد على أنقاضها قرية الخميسة الحالية . وجاء في كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان أن أحد أعوان الداعية أبي عبد الله قد سلك الطريق التالية : إيكجان (بين سطيف وميلة) ، قصر الإفريقي (بين تيفاش وتيجس) طبرسق ، بلاد مكلاتة وبني عمر ، إيكجان ، أرابيكا 6 عدد 3 S.M. Stern ، 343 .

23) ابن حوقل ، 87/1-88 ، البكري ، 53-54 ، المقدسي ، 6-7 ، الإدريسي ، 140-141 .

24) ذكرها ابن حوقل والإدريسي . البكري : من قصر الإفريقي إلى وادي الدنانير ثم تيجس الخ . . . البلدان ، 1 ، 195 . إن مدينة ركوة التي ذكرها المقدسي ، 6-7 وقال إنها تقع بين قصر الإفريقي وقسنطينة ، يمكن أن تكون مدينة أركو ذاتها .

25) ذكر اليعقوبي ، 351 أن تيجس تقع في عمل باغاي ولم يشر إلّا إلى وجود النفزيّين ، ابن حوقل ، 87/1 ، البكري ، 53-54 ، المقدسي ، 6-7 ، وأهمل الإدريسي ذكر تيجس . وأشار البكري ، 53-54 إلى وجود مدينة توبوت بين تيجس والمهريّين في حدود بلاد كتامة ، وتوبسلكي ، وهي مدينة صغيرة تقع في سفح أنف ، ابن حوقل : إيزدران ، قرية تنتج الحنطة والشعير، ابن حوقل، تحقيق Kramers: نهزدوان، ولم يشر المحقق إلى قراءات المخطوطات الأخرى. وأشار الإدريسي إلى وجود قرية بردوان بين أركو والمهريّين، «وهي من أقاليم القمح والشعير».

26) حسب قراءة ابن حوقل والمقدسي وأحد مخطوطات البكري . وحسب الإدريسي كان لها في القديم سور ، قراءة أخرى : سوق .

27) حسب ابن حوقل والمقدسي ، البكري : تامسلت والإدريسي : تامسيت .

28) البكري ، 54 ، البلدان ، 66/6 : دكمة .

الغدير ، أو إلى المسيلة عبر أوسجيت (إيكيزيبنو في القديم)[29] ، وهي قرية بها بعض الدكاكين التابعة لكتامة وتستند إلى المنحدر السفلي لجبل القلعة وتلاصق من الناحية الشمالية أرض عجيسة .

بلزمة :

توجد بلزمة[30] وسط فحص فسيح مزروع على أحسن ما يرام وعامر بالقرى ، وبينها وبين بجاية وقسنطينة يومان . وهي تتمثل في حصن بناؤه بالحجارة وله ربض وسوق ، وقد أصبحت هذه القلعة التميميّة التي قاومت الأمير الأغلبي في سالف الزمن ، تحت سيطرة مزاتة ، حسب البكري . وفي الجهة الغربيّة توجد مدينة اللاوّز[31] التي ربّما تكون مطابقة لمدينة نقاوس أو لبلدة مجاورة لها .

« ومن طبنة شرقاً إلى دار ملّول مرحلة كبيرة ، وكانت فيها سلف من الدهر مدينة عامرة وأسواقها قائمة » فتحوّلت إلى مجرّد منزل (= محطّة) يتوقف فيه المسافرون . وكان بها حصن مطلّ فيه مرصد يرجع تاريخه إلى عهد ازدهار المدينة ، « ينظر إلى محال العرب في بلادهم ، ويتطلّع منه إلى ما بَعُدَ من الأرض »[32] .

أوراس :

كان جبل أُورَاس الضخم (أَوْراس ، أورازيوس في القديم)[33] ، البربري والإباضي آهلاً بأقوام من هوّارة ومكناسة[34] . وكما كان الشأن في العصر الأغلبي ، كانت تلك المنطقة المرويّة بغزارة والمزروعة ، متشبّثة باستقلالها . ومن مجموع القرى المعلّقة التي كان عددها يساوي لا محالة

---

29) ابن حوقل ، الإدريسي وابن حمّاد ، 32 .

30) اليعقوبي ، 351 ، البكري ، 50 ، ابن حوقل ، 93/1 ، الإدريسي ، 99 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 323/1] .

31) البكري ، 50 ، ولعلّ هناك نقص في النصّ .

32) ابن حوقل ، 85/1 ، المقدسي ، 4-7 ، 66-67 ، الإدريسي ، 109 .

33) ابن حوقل ، 84/1-85 ، البكري ، 144 ، الإدريسي ، 93-94 ، الاستبصار ، الترجمة ، 92 ، الهامش ، 4 ، البلدان ، 370/1 ، الدولة الأغلبية ، 46-47 ، بيل ، بنو غانية ، 139 ، الهامش 1 . برنشفيك ، في عدة مواضع .

34) الاتعاظ ، 134 . في بداية عهد المعز لدين الله الفاطمي كان يسكن جبل أوراس بنو كملان ومليلة وهوّارة .

عدد القرى الحالية ، لا نعرف سوى قرية واحدة ، وهي دوفانة[35] الواقعة بين دار ملّول وباغاي .

الـزّاب :

في المنطقة الجنوبية الغربية من أوراس ، تبتدىء منطقة الزاب الشرقية ، وتعتبر بادس (أو باديس ، بدياس في القديم)[36] أهمّ مدينة من مدنها ، وهي تتألّف من حصنَيْن ، لكلّ واحد منهما جامع وأسواق . وكانت الحقول المحيطة بها والمرويّة بغزارة تزرع بالشعير مرّتين في السنة . وما زالت تلك المدينة عامرة في عصر الإدريسي ، ولكنّ بني هلال الذين ملكوا أرضها كانوا يمنعون أهلها من الخروج منها إلا بخفارة رجل منهم .

أما منطقة الزاب الوسطى أو إقليم بسكرة ، فقد كانت تضمّ عدداً كبيراً من المدن ، أكبرها قاعدة الإقليم ، بسكرة (فسكيرا في العصور القديمة)[37] . وقد كان هذا الحصن المبني « في كدية تراب عالٍ » ، والمحاط بسور وخندق ، يحتوي على جامع وعدّة مساجد وحمّامات عمومية وتحفّ به الأرباض . وكان له من الأبواب ، باب المقبرة وباب الحمّام وباب ثالث لم يذكر البكري اسمه . وقد حُفِرت داخل السور عدة آبار يُستخرَج منها ماء عذب ، نخصّ بالذكر منها البئر الواقعة بالجامع والتي لا تنضب أبداً . كما يوجد داخل المدينة رياض مرويّ بواسطة تحويل مجرى النهر . وعلى بعد بضعة فراسخ يقع في الناحية الشمالية الغربية جبل الملح الذي كانت تقتطع منه قوالب الملح[38] . وكانت المدينة محاطة بغابة ممتدّة على مسافة ستة أميال ومغروسة بالنخيل والزياتين وشتّى أنواع الأشجار المثمرة وقد أُطْلِق عليها اسم بسكرة النخيل ، إذ اشتهرت بجودة تمورها التي أصبحت مضرب الأمثال[39] .

---

35) بين دار ملّول وباغاي ، على بعد مرحلة من هاتين البلدتين ، وحسب ابن حوقل ، 85/1 تقع قرية دوفانة في جبل أوراس ويسكنها بنوكُمَّان (؟) (أو ولهان) الذين كانوا هم وبعض البربر من أبناء عمومتهم يملكون كامل المناطق المجاورة .

36) البكري ، 74 ، الإدريسي ، 94 ، المقدسي ، 8-9 ، البلدان ، 29/2 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 327/1] ولم تشر المصادر إلى وجود تنّومة في العصر الحفصي . ولعلّ جمونة التي أشار إليها البكري هي تنّومة ذاتها .

37) ابن حوقل ، 88/1 ، البكري ، 52 ، المقدسي ، 8-9 ، الإدريسي ، 94 ، البلدان ، 182/2 ، بنو هانية ، 90 ، الهامش 1 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 326/1] الدولة الأغلبية ، 50 .

38) وأضاف البكري أن عبيد الله وخلفاءه قد استعملوا ذلك الملح في طعامهم .

39) وأشار البكري إلى الأنواع التالية من التمور : النوع الذي يسميه أهل بسكرة الكسبا وهو الصيحاني الذي يعتبر أحسن الأنواع ويضرب به المثل ، ونوع الليارى (قراءة أخرى : كباري) وهو أبيض وأملس ، وقد أمر عبيد الله عمّاله بمنع بيع =

وكان سكّان بسكرة من المولّدين[40] . وكانت تقيم في ضواحيها بعض قبائل بربريّة ، وهي سدراتة وبنو مغراوة التابعون لأسرة بني خزر ، وبنو إيزمرتين . وكانت بسكرة تمثل مركزاً هامّاً من مراكز الدراسات الدينيّة ، وكان سكانها على مذهب أهل المدينة ، أي المذهب المالكي .

وجنوب شرقي بسكرة ، توجد مدينة تهودة (أو تهوذة)[41] المعروفة بمدينة السُّحْر ، وهي مدينة عامرة مبنية بالحجارة ومطوّقة بربض يحيط به من كلّ جانب خندق يُملأ بالماء في وقت الحرب ، بواسطة نهر نازل من جبل أوراس . وكان لها جامع بديع وعدّة مساجد وأسواق وفنادق . وفي ضواحي المدينة التي تعدّ أكثر من عشرين قرية ، تمتدّ الحقول المزروعة وواحات النخيل التي توفّر محاصيل من شتى أنواع الفواكه والحبوب . وكان يسكن تهودة قوم من الأعراب ، بعضهم من القرشيّين ، ويقابلهم خصومهم الأباضيون التابعون لهوّارة ومكناسة ، المستقرّون شمالي المدينة . وقد أكّد البكري أنهم ، خلافاً لأجوارهم المقيمين في بسكرة ، كانوا على مذهب أهل العراق ، أي المذهب الحنفي . وفي تهودة يوجد ضريح عقبة بن نافع الذي أدخل عليه المعزّ بن باديس بعض التحسينات[42] . وفي تلك الناحية توجد ملشون[43] . وتُعتبَر طولقة[44] أهمّ بلدة في منطقة الزاب الغربية ، وهي تتألّف من ثلاث مدن ، كلّ واحدة منها محاطة بسور من الطوب وخندق ، يسكن الأولى المولّدون والثانية العرب اليمنيّون والثالثة العرب القيسيّون . وتوجد في ضواحي تلك المنطقة عدّة بساتين مغروسة بالزياتين والكروم والنخيل والأشجار المثمرة .

وتقع جنوب غربي طولقة واحة بنطيوس[45] التي توجد بها ثلاث مدن جنباً إلى جنب ، لكلّ

ذلك النوع من التمر وإرسال جميع المحاصيل إليه . إلى غير ذلك من الأنواع الأخرى العديدة . انظر ، دوزي ، الملحق ، 561/2 .

40) حسب البكري .

41) البكري ، 72-74 المقدسي ، 9-8 ، **البلدان** ، 438/2 ، **الدولة الأغلبية** ، 56 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 326/1] .

42) البكري ، 74 . والجدير بالملاحظة أن تحسين هذا الضريح ينسب إلى المعزّ بن باديس ، جورج مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 4 ، 1936-1940 م ، ص 1 وما بعدها ، **الفنّ المعماري** ، 71 .

43) أبو العرب ، 98 ، البكري ، 52 ، **البلدان** ، 149/8 ، **الاستبصار** ، **الترجمة** ، 109 .

44) البكري ، 52 ، المقدسي ، 8-9 ، **البلدان** ، 72/6 ، **الدولة الأغلبية** ، 56-57 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 326/1] ، ابن حوقل ، 95/1 ، الإدريسي ، 106 . ولا يمكن الموافقة على رواية هذا المؤلف الذي ادّعى أن مدينة طولقة تقع في آنٍ واحد بين جبل نفوسة ومدينة نفزاوة وغربي بسكرة وبادس .

45) البكري ، 52-72 ، المقدسي ، 4-5 ، 8-9 ، **الدولة الأغلبية** ، 57 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 326/1] .

واحدة جامعها وسورها المحاط بخندق ، يسكن الأولى بنو جرف من ذوي الأصل الفارسي ، والثانية المولّدون ، وكلّهم من أهل السنّة . أما الثالثة فيسكنها بنو واصل ، وهم من البربر الأباضيين . وهذه المدن الثلاث مرويّة بنفس النهر الواقع في الناحية الغربية والوارد من الشمال . وفي جهة الغرب تقع « صحراء » بنطيوس المروية بثلث النهر المذكور . ومن الممكن تقدير المحاصيل الزراعية مباشرة إثر انتهاء البذر ، بدون أيّ خطإ متوقّع . وفي تلك النواحي تكثر الزياتين والنخيل والقرى . وتشير بعض المصادر إلىٰ وُجود واحة مليلي (جملاّي في العصور القديمة)[46] الواقعة شيئاً ما في الجهة الشرقية . وقد أشار البكري[47] إلى وجود ساقية ابن خزر غربي بنطيوس ، وسط النخيل والأشجار المثمرة ، وتُعرَف أيضاً باسم إزمرين ، حيث لا يزال قائم الذات فيها قصر قديم متهدّم . وفي الناحية الغربية تمتدّ منطقة صُحراويّة يتراوح طولها بين ثلاث وأربع مراحل ، ويتردّد عليها المغراويّون .

كما أشار البكري إلى جمّونة من بين مدن إقليم بسكرة . وأشار المقدسي من جانبه إلى جميلة . ولعلّ الأمر يتعلّق بنفس المدينة التي يتعيّن علينا ضبط اسمها وتحديد موقعها[48] . وألحق الإدريسي بنفس تلك المنطقة قلعة (أو حصن) بِشْر[49] ، وهو حصن منيع تحيط به الزروع التي سقطت بين أيدي الأعراب أثناء غزوة بني هلال .

الحضنة :

توجد مدينة نقاوس (نيسيفيبوس في القديم)[50] في أقصى الجهة الشمالية الشرقية من منطقة

---

46) البكري ، 52 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 326/1] . ولا شك أن مدينة الدوسن ذات الأصل العتيق التي أكّدت المصادر وجودها في العصر الحفصي كانت موجودة أيضاً في العصر الصنهاجي .

47) البكري ، 72 .

48) نفس المصدر ، 52 : من بين المدن التابعة لبسكرة نذكر مدينة جمّونة ومدينة طولقة ومدينة مليلا (هكذا) ومدينة بنطيوس . . . وهناك قرية أخرى تسمّى ملشون . . . المقدسي 8-9 : تشتمل منطقة الزاب التي عاصمتها المسيلة على المدن التالية : مقّرة وطبنة وبسكرة وبادس وتهودة وطولقة وجميلة وبنطيوس وأدنة وأشير . ولعلّ جمونة التي ذكرها البكري هي تنومة الموجودة في منطقة الزاب الشرقية في العصر الحفصي ، برنشفيك ، المرجع السابق .

49) الإدريسي ، 91 ، 96 ، 99-100 : بينه وبين بجاية أربعة أيام ، وهو إلى قسنطينة أقرب ، وبينهما يومان ، ولا ينبغي الخلط بين حصن بشر وقلعة بسر (= مجّانة) .

50) على بعد 4 أو 5 فراسخ من بجاية و 4 فراسخ شمال شرقي طبنة ، اليعقوبي ، 35 ، البكري ، 50 ، ابن حوقل ، 93/1 ، ←

الحضنة . وهي مدينة كبيرة لها سور مبني بالحجارة وأراضٍ مرويّة بغزارة تنتج كثيراً من اللوز والجوز والعنب والقطن والحبوب . وكان يسيطر على المنطقة المكناسيّون[51] التابعون لأحد بطون زناتة .

وتوجد مدينة طبنة[52] جنوب شرقي الحضنة ، بين شطّ الحضنة وجبال باتنة . وقد اعتبرها اليعقوبي المدينة الرئيسيّة في منطقة الزاب وقاعدتها الإقليميّة ، وأكّد البكري أنّها تمثّل أهمّ مدينة يمكن المرور منها من القيروان إلى سجلماسة . فهي قد نهضت من كبوتها العابرة التي أشار إليها ابن حوقل ، ربّما بسبب الخصومات التي نشبت بين فريقين أوّلهما عربي والآخر بربري تابع لقبيلة برقجانة[53] . وكلّما تشاجر السكان من ذوي الأصل العربي مع السكّان الأهليّين ، استنجد الأوّلون بأعراب تهودة وسطيف واستنجد الآخرون بأهل بسكرة والمناطق المجاورة لها .

ويبدو أنّ زحفة بني هلال لم تقض على ازدهار طبنة التي وصفها الإدريسي « بالحَسَنَة » . وفي الناحية الجنوبية من سور المدينة المبني بالطوب ، يوجد القصر الضخم المبني بالحجارة والمتوّج بعدد كبير من « الآزاج » (الغرف المقبّبة) . وقد اتُّخِذ مقرّاً للعمّال وكان يُغلَق بباب حديدي . وكان به مسجد جامع وخزّان كبير مزوّد بمياه نهر طبنة المستعملة لريّ حدائق المدينة . وبين باب خاقان الضخم المبني بالحجارة وباب الفتح الواقع في الناحية الغربيّة من المدينة يمتدّ السماط (شارع كبير تحفّ به الدكاكين) الذي يبدو أنه كان يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب . وفي الناحية الجنوبية يُفتَح باب تهودة[54] الذي كان ضخماً هو الآخر . وقد كانت مصاريع تلك الأبواب الثلاثة ، وباب

المقدسي ، 26-27 ، الإدريسي ، 94 ، الاستبصار ، الترجمة ، 108 : وقد تحدّث مؤلفه عن تصدير جوز نقاوس إلى القلعة ، بنو حمّادة ، 55 ، الهامش 2 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 326/1] .

51) حسب اليعقوبي ، 351 : مكنانة (؟) .

52) اليعقوبي ، 350 ، ابن حوقل ، 85/1 ، المقدسي ، 6-7 ، 8-9 ، 66-67 - البكري ، 51 ، الإدريسي ، 93 ، البلدان ، 28/6 ، 339 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 322/1] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 847/4 ، تقع أطلال طبنة على بعد 4 كم جنوبي بريكة .

53) أشار البكري ، 144 ، إلى وجود بني زَنْزاج حول طبنة وأعراب هوّارة ومكناسة وكبينة وورقلة في جهة نهر الغابة (واد بريكة ؟) على بعد ثلاث مراحل ، وحسب هذا المؤلف استولت الفاقة على السكان إثر تلك المجازر وتفرقوا في المناطق المجاورة . وأكّد البكري ، 50 ، أيضاً أنّ طبنة كانت آهلة بالسكّان العرب والعجم الذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم وأنّ بني زقراخ (وهي قراءة أخرى لاسم القبيلة البربرية المذكورة أعلاه) كانوا يقيمون في ضواحي المدينة . وأشار كلّ من ابن حوقل ، 85/1-86 والإدريسي ، 86 ، إلى وجود بني زنداج في منطقة المسيلة .

54) تقع تهودة جنوب شرقي بسكرة .

آخر اسمه الباب الجديد ، مصنوعة من الحديد . كما كان يوجد قبالة بلاد كتامة في الناحية الغربية من المدينة باب خامس يقال له باب كتامة ، ربما نسبةً إلى تلك القبيلة .

وفي الناحية الغربيّة يقع الربض قبالة باب الفتح ، وهو يمثّل على الأقلّ الربض الرئيسي ، إذ أكّد البكري أن طبنة كانت لها في الأصل عدّة أرباض . وتساوي مساحة ذلك الربض ثلثَيْ مساحة المدينة ذاتها . وقد كان محاطاً بسور بناه مؤسّس المدينة ، عمر بن حفص المهلّبي ، وملاصقاً لبعض البساتين . وتوجد المقبرة في الناحية الشرقية من المدينة قرب غدير فرغان الذي كانت مياهه تغمر المصلّى . وكان فجّ زيدان يطلّ على المدينة التي كانت تشقّ شوارعها جداول مليئة بالماء الصالح للشراب .

وقد كانت منطقة طبنة المروّية بغزارة مدينةً بأكثر خصوبتها لفيضانات نهر البيطام[55] ، فكانت تنتج كمّيات وافرة من الحنطة والشعير والقطن والكتّان والحبوب وغيرها من الفواكه . أمّا قطاع تربية الماشية (البقر والغنم والخيل والبغال) ، فقد كان أقلّ ازدهاراً من قطاع الزراعة . وكانت طبنة تمثّل مفرق طرق هامّ[56] ما بين الزاب وأوراس وبلزمة ، وهي لا تزال في أوائل القرن العاشر ميلادي مركزاً تجاريّاً وصناعيّاً نشيطاً .

وعلى بعد مرحلة من طبنة والمسيلة ، توجد مدينة مقرّة (مكري في العصور القديمة)[57] الواقعة على ضفّة نهر يحمل نفس الاسم ويوجد به مرصد ، حسب ابن حوقل . وكانت هذه المنطقة مرويّة بغزارة ، « وبها مزارع وحبوب ، وأهلها يزرعون الكتان » . ومن مقرّة تنطلق الطريق المفضية إلى القلعة .

وتقع مدينة المسيلة الكبيرة[58] شمال غربي منخفض الحضنة على ضفة نهر يقال له وادِ سهر .

---

55) أشار البكري ، 5 ، إلى أنّ مياه نهر بيطام كانت تغمر جميع أراضي وبساتين طبنة ، وقد كان أهلها يقولون : « بيطام بيت الطعام » ، (أي مخزن الحبوب) .

56) أعطى الإدريسي ، 93-94 الإيضاحات التالية : من طبنة إلى مقرة مرحلة وإلى المسيلة مرحلتان وإلى باغاي أربع مراحل وإلى بجاية ست مراحل ، ومن طبنة إلى دار ملّول مرحلة كبيرة وإلى نقاوس مرحلتان . وحسب ابن حوقل ، 88/1 كانت إحدى الطرق الثلاث الرابطة بين المسيلة وإفريقية تمرّ من مقرة وطبنة وبسكرة وتهودة وبادس وتمليل ومدالة ونفطة وقسطيلية وقفصة .

57) على بعد 20 كم جنوب شرقيّ المسيلة ، ابن حوقل ، 85/1 ، البكري ، 51 ، المقدسي ، 6-7 ، 8-9 ، 66-67 ، الإدريسي ، 93 ، اليعقوبي ، 351 ، البلدان ، 7 ، 125 ، بنو غانية ، 55 الهامش 2 ، برنشفيك ، [الترجمة الغربية ، 322/1] .

58) ابن حوقل ، 85/1-86 ، البكري ، 59 ، الإدريسي ، 85-86 ، الاستبصار ، الترجمة 107-108 ، المقدسي ، 4-5 ، =

ومنذ تأسيسها في عهد عُبَيْد الله المهدي سنة 313 أو 315 هـ/ 925-927 م ، وقد سمّاها المحمّديّة نسبةً إلى ابنه أبي القاسم محمّد وعهد بإدارتها إلى علي بن حمدون بن الأندلسي ، لا تزال المسيلة تعتبر قاعدة إقليم الزاب ، وتمثّل حصناً من أهمّ حصون المغرب الأوسط ، ولو أنّ ازدهار القلعة الواقعة على بعد 12 ميلاً من تلك المدينة قد أفقدها فيما بعد شيئاً من أهمّيّتها العسكرية . وقد أقام فيها بنو حمدون قصوراً فخمة لا نعرفها إلّا من خلال قصائد مادحهم ابن هانىء الذي شدّد على « بَغْدَدَة » الزّاب وشبّهها بالعراق . وقد كانت محاطة بسورَيْن يجري الماء بينهما في قناة محدقة بالمدينة ، ويُستعمَل في آنٍ واحد لحماية المدينة وريّ ضواحيها بواسطة السّكور . ولا تزال المسيلة بعد غزوة بني هلال مدينة تجاريّة وعامرة ، لها أسواق وحمّامات ، « وهي على نهر فيه ماء كثير ، منبسط على وجه الأرض ، وليس بالعميق ، وهو عذب وفيه سمك صغير ، عليه طرق حمر حسنة ، لم يُرَ في معمور الأرض سمك على صفته ، وأهل المسيلة يفتخرون به ، ويكون مقداره من شبر فَدُون وربّما صِيد منه الكثير ، ما احْتُمِل منه إلى قلعة بني حماد »(58م) .

وتنتج البساتين والحقول المحيطة بالمدينة الحنطة والشعير والفواكه والبقول والسفرجل المستطيل المنسوب إلى تنس والمصدّر إلى القيروان ، والقطن الجيّد . وتساعد المراعي الممتازة على تربية الأنعام والدوابّ ولا سيما الخيول .

وكان الخليفة الفاطمي ، عند تأسيس المسيلة قد نقل إلى فحص القيروان بني كملان أصيلي تلك المنطقة ، كما لو كان قد توقّع مساهمتهم في ثورة أبي يزيد صاحب الحمار . وأكّد ابن حوقل أن بني برزال وبني زنداح وهوّارة كانوا يقيمون في ضواحي المسيلة . وحسب البكري كان يسكن الجبل المجاور للمدينة بنو عجيسة وهوارة وبنو برزال أصحاب المسيلة السابقون . وكان يسكن تلك الربوع ، حسب الإدريسي ، بنو برزال وبنو زنداح وهوّارة وهدراتة ومزاتة .

وكان الزناتيّون التابعون لبني برزال ، المقيمون في مناطق المسيلة والزاب السفلى وسطيف وطبنة وميلة ، متحالفين مع علي بن حمدون . ولكن بعد وفاة زيري وارتحال جعفر بن علي إلى الأندلس ، أصبحوا مطارَدِين من قِبَل صنهاجة وقد شعر عدد كبير منهم بالخطر الذي كان

8-9 ، 28-29 ، 66-67 ، البلدان ، 8/58-59 ، **الاتعاظ** ، 105 ، **بنو هانية** ، 55 الهامش 1 ، حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف ، عبيد الله المهدي ، 208 ، 209 برنشفيك [الترجمة العربية ، 321/1] ، وأشار البكري إلى وجود القباب جنوب شرقي المسيلة بالقرب من مدينة قديمة اسمها بشليقة .

58م) الإدريسي ، 85 .

يهدّدهم ، فهاجروا إلى الأندلس[59] .

وعلى بعد مرحلة من المسيلة ومرحلتين من طبنة توجد مدينة أدنة التي دُمِّرَت سنة 324 هـ/ 935 م وأصبحت خالية ، حسب البكري . ولعلها استرجعت شيئاً من نشاطها فيما بعد ، لأن المقدسي قد ذكرها من بين مدن الزّاب[60] .

وقبيل ولاية بلكّين ، قامت القبيلة الصنهاجية الكبيرة تَلْكاتة التي يبدو أنها كانت تقيم شمال شرقي مقاطعة الجزائر ، بحركة توسّعيّة واسعة النطاق في قلب المغرب الأوسط ، وذلك في اتّجاه الشمال الشرقي حتى حدود القبائل الصغرى ، وبالخصوص نحو الجنوب الشرقي في اتجاه الحضنة . ويسمح لنا تعداد أهمّ مدن تلك المنطقة بضبط حدودها التقريبيّة . وهذه المدن هي : مليانة ومدية ومدينة الجزائر في الشمال ، وبويرة (= حمزة) في الشمال الشرقي والمسيلة في الجنوب الشرقي ، وأشير في الوسط . ويمكن أن نفترض أنها كانت تمتدّ في الشمال من شرشال إلى مرسى الدجاج تقريباً ، ومن الشلف إلى القبائل الكبرى ، وفي الجنوب من الشلف إلى جبل البيبان وجبال وسهل الحضنة . ويتمثل المعقل الرئيسي لتلك المنطقة في جبل تيتري ، حيث كانت توجد قاعدتها أشير . وفي الشمال الشرقي ، يبدو أنها كانت ملاصقة بصورة تزيد أو تنقص لمنطقة القبائل الصغرى وبلاد كتامة .

ولقد عانت بعض القبائل عناءً شديداً من بلكين ، وهي مزاتة وهوّارة ونفزة وغيرهم من البربر الذي كانوا يسكنون بيوتاً مبنيّة بالأحراش ، أي أنهم كانوا شبه مستقرّين[61] . أمّا الزناتيون التابعون لمغراوة ، فقد أجلاهم الصنهاجيّون من المغرب الأوسط منذ عهد قريب صحبة بني يفرن وأبعدوهم إلى الغرب .

على أنّ بلكّين قد سمح لبني ومنّو وبني الومي بالبقاء في أراضيهم ، فأصبحوا أعواناً لصنهاجة واستغلّوا فقدان هؤلاء لنفوذهم في المغرب الأوسط ، لبسط سلطانهم على تلك الربوع . وقد دخل بنو ومنّو في خدمة بني حمّاد ، وبعد سنة 470 هـ/ 1077-1078 م ، ساعدوا المرابطين ،

---

59) البيان ، 3/267-268 ، ليفي بروفنسال ، مذكرات عبد الله ، الترجمة ، 309 الهامش 26 .

60) البكري ، 144 ، البيان ، 1/214 ، مع تعويض المسيلة بأَذْنَة ، المقدسي ، 8-9 وحسب اليعقوبي ، 351-352 كانت مدينة أُرْبَا الواقعة في أقصى غرب الزاب تمثل حدود الدولة الأغلبية ، وغربي الزاب يقيم بنو برزال وهم بطن من بني دمّار الزناتيين الخوارج ، ويشير البيان ، 1/152 ، إلى مدينة أربا في سنة 297 هـ/909 م ، البلدان ، 1/176 : يقال إنّ أربا أكبر مدينة في الزاب كانت تحيط بها 360 قرية . ولعل الأمر يتعلق بأَذْنَة .

61) البربر ، 2/8-9 .

هم وبنو إلومي ، على مقاومة المنصور بن الناصر[62] .

وقد استولى بنو هلال على السهول وأبعدوا الزناتيّين إلى المناطق الجبلية في الزاب والتلّ .

أشيــر[63] :

يؤكّد جميع المؤلّفين[64] أن زيري قد بنى في سنة 324 هـ/ 935-936 م مدينة يقال لها أشير ، تقع في جبل تيتري في مكان به عيون ماء ويقربه مقرّ إقامته السابق الذي أصبح ضيّقاً جدّاً[65] .

وقد قدّم إلينا البكري المعلومات التالية ، ربّما اعتماداً على محمد بن يوسف الورّاق : لم يكن من الممكن الوصول إلى مدينة أشير إلّا من موضع واحد ، يستطيع عشرة رجال فقط منع جيش كامل من الاقتراب منه ، وما عدا ذلك الممرّ الواقع في الناحية الشرقية والمفضي إلى عين مسعود[66] ، ليس هناك سوى الصخور التي يستحيل تسلّقها . وفي داخل المدينة كانت تنبع عينان غزيرتان عميقتان ، هما عين سليمان وعين تالان تيرغ . وأما سورها الحصين ، فقد بناه بلكين سنة 367 هـ/ 977-978 م[67] . وبعد سنة 440 هـ/ 1048-1049 م ، خرّب المدينة يوسف بن حمّاد الذي كان يحكم المغرب باسم أخيه القائد بن حمّاد[68] . ثمّ عمّرت من جديد بعد سنة 455 هـ/ 1063 م[69] . وأكّد الإدريسي أنها ما زالت في القرن الثاني عشر ميلادي تقوم بدور بارز في منطقتها

---

62) نفس المصدر ، 294/3 وحول زناتة انظر ، بنو غانية ، 146 .

63) ابن حوقل ، 90/1 ، المقدسي ، 4-5 ، 66-67 ، البكري ، 60 ، الإدريسي ، 85 ، البلدان ، 264/1-265 ، الاستبصار ، الترجمة ، 105-106 ، البربر ، 2/ الملحق عدد 1 ، 489-492 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 489/1-490 (ابن الشنب) مجلة هسبيريس ، 1953 ، 319 ، شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، 2/ الطبعة الثانية ، 66-68 ، جورج مارسي ، المجلة الإفريقية ، 1922 ، 21-32 ، ولنفس المؤلف ، الفنّ المعماري ، 66 ، 74 ، 89 والملحق ، ص 78 وما بعدها ، إسبانيا الإسلامية ، 101/2 ، دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) 720/1-1 (ج . مارسي) .

64) ربّما اعتماداً على محمد بن يوسف الورّاق ، من خلال البكري .

65) يعتقد جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 89 ، أن القلعة الصنهاجية التي سبقت أشير كانت مقامة عى رأس جبل يعرف اليوم باسم منزه بنت السلطان .

66) وهي على الأرجح عين ماء ينبغي المقابلة بينها وبين الموقع المسمّى الآن سيدي مسعود شمال شرقي عين بوسيف .

67) أوسنة 369 هـ نظراً للخلط الممكن بين سبعة وتسعة .

68) البربر ، 46/2 .

69) لا : « بعد ذلك بخمس عشرة سنة » ، انظر البكري ، الترجمة ، 127 .

الخصبة ، فقال إنها تتمثل في « حصن حسن البقعة ، كثير المنافع ، له سوق في يوم معروف يجلب إليه كل طريفة ، ويباع به كلّ لطيفة »[69م] .

وفي أوائل القرن الخامس هـ/ حوالي سنة 1120 ، كان الثعالبة (بطن من بطون معقل) يحتلّون المنطقة الممتدة من تيتري إلى مدية[70] .

وأخيراً فمن الجدير بالتذكير أنّ أهل تلمسان الذين أجلاهم بلّكين إلى أشير (أواخر 362 أو أوائل 363 هـ/ 973 م) قد بنوا[71] مدينة جديدة يقال إنهم أطلقوا عليها اسم تلمسان .

وقد كشفت الحفريّات الأخيرة[72] عن وجود قصر صنهاجي فخم (لعلّه قصر زيري ؟) في مكان أشير الحالية الواقع شرقي المدينة القديمة (أشير زيري ؟) . كما كشفت جنوبي المكان المعروف باسم بنية عن بقايا مدينة هامّة (أشير بلكين ؟ أو تلمسان ؟) ، من المحتمل أن تكون مطابقة لمدينة أشير التي وصفتها المصادر .

ويشير البكري إلى وجود مدينة تامغلت البعيدة عن أشير بثلاثة أميال والمبنية في سفح جبل يقع في طرف الصحراء[73] .

وقد أسلفنا أن زيري ، بعد مدّة قليلة من تقليده ولاية تاهرت من قِبَل الفاطميّين (349 هـ/ 960-961 م) ، سمح لابنه ببناء ـ أو بالأحرى بإعادة بناء ـ ثلاث مدن في شكل مثلّث ، وهي مدينة الجزائر ومدية ومليانة[74] .

وكانت تشعّ من أشير في اتجاه الشمال ثلاث طرقات ، تفضي الأولى إلى مرسى الدجاج والثانية إلى مدينة الجزائر والثالثة إلى مليانة ومنها إلى تَنَسْ .

وكانت الطريق الرابطة بين أشير ومرسى الدجاج[75] تمرّ من قرية شعبة ثم من فجّ يمتدّ خلفه

---

69 م) الإدريسي ، 85-86 .

70) العبر ، 64/6 ، البربر ، 92/2 ، 123 ، 253 .

71) هل أن الأمر يتعلق بمدينة جديدة تقع بالقرب من أشير أم يتعلق بمجمّع سكني جديد داخل المدينة ؟ ذلك أن العبارة الغامضة التي استعملها ابن الأثير والنويري ، وهي « عندها » ، لا تسمح بالبتّ في المسألة ، لا سيما وأنّ التحصينات ربّما لم توجَد بعد ، اللّهم إلا إذا سلمنا أن بلكين لم يشيّدها في سنة 367 هـ (أو 369) بل أعاد بناءها أو وسّعها .

72) L. Golvin ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع ، انظر أيضاً دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) 720-721 (جورج مارسي) .

73) البكري ، 66 .

74) انظر الباب الأوّل ، الفصل الثالث من هذا الكتاب .

75) البكري ، 64-65 ، البلدان ، 338/3 (حمزة) .

سهل فسيح تلتقط في أرضه جذور الغرديب ، وهي مادّة مخدّرة تصدر إلى بعيد . ويبدو أن مدينة حمزة (البويرة في الوقت الحاضر)[76] المنسوبة إلى العلوي الذي أسّسها ، مطابقة لبلدة سوق حمزة (أو حائط حمزة) وقد أمدّتنا المصادر في شأنها بالمعلومات التالية[77] :

أقام العلوي المذكور في مدينة حمزة الواقعة وسط سهل . وهي مدينة مبنية بالطوب ، ومحاطة بسور وخندق ، تابعة لصنهاجة . ويمكن المرور منها إلى مدينة بلياس[78] الواقعة على جبل شاهق ، ومن بلياس إلى مرسى الدّجاج . وفي الجهة الجنوبية تقع مدينة بني جنّاد .

وقد وصف البكري[79] الطريق الرابطة بين القيروان ومرسى الدجاج على النحو التالي : ينطلق المسافر من القيروان إلى المسيلة ثم إلى عين أوزكور ، وهي عين ماء عذب وبارد مظلّلة بشجرة ضخمة ، تقع في أقصى حدود بلاد صنهاجة ، ومنها إلى سوق ماكسن ، وهي مدينة صنهاجيّة على نهر شلف محاطة بسور ، ثم إلى (مدينة) بني جنّاد ، وهي مدينة صغيرة تقع فوق جبل على بعد ميل من البحر ، وينتهي أخيراً إلى مرسى الدجاج .

وتوجد مدية على الطريق الرّابطة بين أشير والجزائر[80] ، وهي أوّل مدينة أشار إليها البكري تحمل اسم بطن من بطون صنهاجة[81] ثم تأتي مدينة قزرونة (أو أقرزونة)[82] التي يبدو أنها كانت موجودة في ضواحي البليدة على طول النهر الذي يمرّ من هناك ، وقد كانت فيها طواحين وبساتين . وكان سهل متّيجة ـ وهو الاسم الذي يبدو أنه كان يطلق على قزرونة ـ ينتج كثيراً من الكتان الذي كان يصدّر إلى الخارج ، أما المرحلة الأخيرة قبل الوصول إلى مدينة الجزائر فهي إغْزَر التي من المحتمل أن تكون مطابقة لمدينة بوفاريك الحالية .

وعلى الطريق الرابطة بين الجزائر ومليانة[83] توجد المراكز التالية : رطل مازوغة[84] ، وهي

76) البكري ، 65 .

77) البكري ، 65 ، المقدسي ، 4-5 ، 20-21 ، ابن حمّاد ، 29 البلدان ، 338/3 ، ابن خلكان ، 16/1-17 ، الغبريني ، 128 .

78) البكري ، 65 .

79) نفس المصدر .

80) نفس المصدر ، انظر أيضاً ، البلدان ، 382/7 (متيجة) .

81) حسب ابن خلدون ، العبر ، 174/6 .

82) البكري ، 65 ، 76 ، المقدسي ، 4-5 ، 20-21 ، البلدان ، 382/7 .

83) البكري ، 60-61 ، ابن حوقل ، 90/1 ، الإدريسي ، 98-99 .

84) ابن حوقل ، 90/1 ، الإدريسي ، 85 : ماورغة التي لم يشر إليها البكري وذكر في مكانها سوق هوّارة .

قرية جميلة مزوّدة بالماء بغزارة ومحاطة بالزروع ، ويبدو أنها مطابقة لسوق هوّارة الذي أشار إليه البكري ، وريغة التي كانت « لها أرض متّسعة وحروث ممتدّة ، وفواكه وبساتين ، ولها سوق حسنة تُقصَد في كل جمعة »[85] ، وأخيراً سوق كرّان[86] التي تبعد مرحلة عن مليانة وثلاث مراحل عن أشير . وهي حصن قديم جداً يقع على نهر شلف وتحفّ به الحقول والبساتين وله سوق تقام في كلّ جمعة .

أمّا مليانة[87] ، فهي مدينة رومانية قديمة أعاد بناءها زيري بن مناد الذي اتّخذها مقرّاً لإقامة ابنه بلكين ، « ولها نهر يسقي أكثر زروعها وحدائقها وجنّاتها وعليها أرحاء » .

وغربي مليانة توجد أيضاً الخضراء (أوبيديو نوفوم في العصور القديمة)[88] ومدينة بني وريفن (؟)[89] وقارية[90] وتَنَسْ (كرتيناس في القديم)[91] التي تبعد ميْلَين عن البحر .

والغالب على الظنّ أن ضواحي مليانة كانت تمثّل على سبيل التقريب حدود بلاد صنهاجة الذين افتكّوا تلك المدينة من بني مطغـرة . وفي الغرب تبدأ بلاد زناتة ، وقد كان بنو ورسيفن[92] المستقرّون في ضواحي الخضراء تابعين لهم .

وهناك طريق أخرى[93] تربط بين أشير وتنس عبر مدينة بني وريفن (أو ورسيفن) التابعة لبني مطغرة ، وشلف بني واطيل التابعة لزواغة ومدينة شلف و (مدينة) بني جلّيدان التابعة لبني

---

85) الإدريسي ، 85 . ولا شك أن الأمر يتعلق بحمام ريغة الحالي ، أكوا كاليداي في القديم .

86) حسب ابن حوقل ، 90/1 والبلدان ، 228/7 ، البكري : سوق كرّام .

87) الأصطخري ، 10 ابن حوقـل ، 90/1 ، البكـري ، 61 ، 69 ، الإدريسي ، 56 ، 84 ، 85 ، 88 ، البلدان ، 155/8 ، الاستبصار ، الترجمة 106 ، وحول السكّان البربر في جبل وانشريس ، الواقع بين مليانـة وتاهـرت ، انظر الإدريسي ، 85 .

88) ابن حوقل ، 90/1 ، البكري ، 61 ، الإدريسي ، 84 ، البلدان ، 447/3 .

89) ابن حوقل ، 90/1 ، البكري ، 61-69 الإدريسي ، 84 .

90) البكري ، 61 .

91) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 77/1-90 ، البكري ، 61-63 ، الإدريسي ، 84 ، البلدان ، 414/2-416

92) البكري ، 188 ، العبر ، 147/6 ، البربر ، 598/4 الفهارس ، البربـر ، 186/2 : وريفان ، وحـول بني مطغـرة ، انظر ، اليعقوبي ، تحقيق Degoeje ، 98 ، الإدريسي ، 85 ، البكري ، 69 ، البربر ، 172/1 ، 236 ، 237 ، 62/4 .

93) البكري ، 61 ، 69 : واريفان . الإدريسي ، 85 : وقد أورد قائمة القبائل البربرية الزناتية بلا شك التي كانت مستقرّة في جبل وانشريس الواقع جنوب مليانة ، وكذلك البطون الزناتية المقيمة في المنطقة الواقعـة بين تلمسـان وتاهـرت (نفس المصدر ، 88) وقد حرّف النسّاخ أسماء تلك القبائل والبطون تحريفاً كبيراً .

مطغرة . وقد كانت هذه القرية آهلة بالسكّان الأندلسيين والقيروانيين ، وكان دخولها ممنوعاً على بني برقجانة منذ أن حاولوا الاستيلاء عليها .

قلعة بني حمّاد[94] :

بعد ما تخلّص حمّاد من وصاية باديس ، أقام عاصمته الجديدة سنة 398 هـ/ 1007-1008 م شمالي المسيلة على آخر خواصر جبل المعاديد ، وسط مدرج يفتح على الحضنة . وقبل أن تسمّى قلعة حمّاد أو قلعة بني حماد أو القلعة ليس إلاّ ، كانت هذه المدينة الحصينة تسمّى قلعة أبي طويل ، وكان هذا الموقع الذي اختاره حمّاد أحسن اختيار ، لا يقلّ قيمة استراتيجية عن موقع أشير ، وقد عمّره بسكّان المسيلة وحمزة ، بعدما خرّب هاتين المدينتين ، ثم استقدم جراوة من المغرب . وتقع المدينة في سند جبل كيّانة المسمى أيضاً جبل تاقربست (قربوس السرج) . وأفادنا أحد المصادر[95] أنّ أبا يزيد المُطَارَد من قِبَل الخليفة في رمضان 335 هـ/ 26 مارس - 24 أفريل 947 م ، قد التجأ إلى جبل كيّانة الذي تسلّقه واعتصم بقلعة كِيّانة المعروفة باسم تاقربست والمطلّة على قلعة بني حمّاد . وفي موضع آخر أشار نفس المؤلّف[96] عند حديثه عن العمليّات المذكورة إلى قلعة كيّانة الواقعة في جبل القلعة . وأكّد الإدريسي من جهته أنّ « أعلى جبل تاقربست متّصل ببسيط من الأرض ، ومنه مُلِكَت القلعة »[97] . ويتضح من هذه المعلومات أن عدّة حصون كانت موجودة في ذلك الموقع قبل إنشاء عاصمة بني حمّاد . ومن ناحية أخرى كنّا نودّ لو نعرف على أيّ مصدر اعتمد ياقوت لـمّا ادّعى أن بلكّين قد بنى قلعة حمّاد حوالي سنة 370 هـ/ 980-981 م ، ولكن ليس هناك ما يدعو لرفض هذا الادّعاء .

---

94) البكري ، 49 وفي عدّة مواضع ، البلدان ، 148/7 (قلعة أبي طويل) ، 149 (قلعة حمّاد) ، أعمال ، 454 ، 460 ، 463-465 ، الاستبصار ، الترجمة ، 32-33 ، 101 ، الإدريسي ، 86 ، 91 ، العبر ، 171/6 ، شارل أندري جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، 2/ الطبعة الثانية ، 70-71 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 324/1] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 720/2-721 ، L. Golvin ، بحوث أثرية بقلعة بني حمّاد ، أطروحة دكتوراه غير مطبوعة ، الجزائر 1953 م ، ولنفس المؤلف ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع .

95) ابن حمّاد ، الترجمة ، 51 الهامش 1 .

96) نفس المصدر .

97) الإدريسي ، الترجمة ، 100 الهامش 1 ، البكري ، الترجمة 105 ، الهامش 2 .

98) البلدان ، 149/7 .

99) البربر ، 193/3 .

هذا وإنّ جراوة الذين نقلهم حمّاد إلى القلعة وأهل المسيلة وحمزة المنتمين إلى زناتة ، كانوا يسكنون بالقلعة في حيّ متميّز عن الأحياء الأخرى ، يقع على منحدر مُطِلّ على القصر الذي لم يبق منه قائم الذات سوى برج المنار[100] .

وقد كانت القلعة تشتمل على ثلاثة أبواب على الأقلّ ، وهي باب الأقواس في الناحية الشمالية وباب جراوة في الناحية الجنوبية الشرقية ، وباب جنان في الناحية الجنوبية الغربية . ويبدو أنّ الأحياء الشعبية والأسواق كانت موجودة بجوار الجامع الأعظم الذي لا شكّ أنه يقع وسط المدينة . ولا بدّ أن هناك شارعاً كبيراً يربط بين باب جنان وباب الأقواس[101] .

وقد أفادتنا بعض الحفريات[102] بمعلومات حول عدد من المؤسسات التي كانت قائمة الذات في القلعة . فقد كان يوجد في وسط المدينة على بعد حوالي 150 متراً من الجامع الأعظم الواقع في اتجاه الجنوب ، القصر المعروف بدار البحر ، وهو مركّب ضخم متألّف من بعض البناءات ، ومجهّز بمرآة مائية (البحر) . وما زال قائم الذات جنوبي المدينة على حافة الهضبة المطلّة على وادي فرج العميق ، قصر المنار الذي هو عبارة عن حصن منيع يقع شمال شرقي حيّ جراوة . وفي الناحية الغربية يقع قصر السّلام . وقبل أن يؤسّس الناصر بجاية ، جدّد الجامع الأعظم بالقلعة وبنى بجواره عدة قصور ، وهي (قصر العروسَيْن) وقصر بلارة ، نسبة إلى ابنة تميم بن المعزّ التي تزوّجها الناصر سنة 470 هـ/ 1077-1078 م ، وقصر الخلافة ، وقصر الكوكب الذي سيُطلَق اسمه فيما بعد على قصر آخر في بجاية .

وفي أوائل القرن الرابع عشر هجري ، كانت القلعة تشتمل على عدد كبير من المساجد والفنادق ، وما لبث أن توافد عليها الطلّاب والحرفيّون . ولكنّ تخريب القيروان من طرف بني هلال هو الذي رفعها إلى مرتبة العاصمة الثريّة والآهلة بالسكّان . فقد قدم أهل إفريقية زرافات ووحدانا للاستقرار بها . « وكانت قبل عمارة بجاية دار الملك لبني حمّاد ، وفيها كانت ذخائرهم وجميع أموالهم وسلاحهم ، وتبقى الحنطة بها إلى سنتين ، وبها من الفواكه والنعم شيء كثير كله

---

100) يتساءل L. Golvin هل أنّ كنيسة القلعة المكرّسة للعذراء والتي أشار إليها Pierre Diacre قد كانت موجودة في تلك المنطقة ؟ .

101) حسب نفس المؤلف .

102) نفس المؤلف ، **المغرب الأوسط** ، في عدّة مواضع ، جورج مارسي ، **الفنّ المعماري** ، 75 ، 81-84 ، 93-94 ، سولينياك ، **المنشآت المائية** ، 255 ، **الاستبصار** ، الترجمة ، 101 .

103) حسب أبيات من الشعر لابن حمّاد نقلها ابن الخطيب ، **أعمال** ، 463-465 (انظر تعليقات المحقق) .

رخيص »[104] . وكان التجّار والمسافرون يتوافدون عليها من المشرق والمغرب . وكان يُصنَع بها لبد سروج الخيول والأكسية الغليظة ذات النسج الجميل ، المطرّزة بالذهب والمنسوبة إليها . كما كانت تصنع بها الأقمشة الصوفيّة الناعمة والبراقة كالحرير[105] .

ولكنّ قدوم بني هلال ، وما انجرّ عنه من نزوح إلى بجاية ، سرعان ما وضع حداً لازدهار القلعة التي ظلّت مدّة من الزمن نقطة الارتكاز الوحيدة بالنسبة إلى الدولة الصنهاجية . وبعد بناء بجاية بقيت المدينة باستمرار في مظهر العاصمة ، ولكن دورها أصبح ثانويّاً . وقد أخلاها يحيى بن العزيز سنة 543 هـ/ 1148-1149 م ، إلاّ أنها لم تندثر تماماً إلا في حدود القرن الثالث عشر ، إذ بقيت قائمة الذات مدّة من الزمن بعد تدهورها ، وقد أقامت الدليل على ذلك بعض الحفريّات الأثرية الحديثة[106] . ولكن الذي خرّبها نهائياً هو يحيى بن غانية في أوائل القرن السابع هجري/ وأوائل القرن الثالث عشر ميلادي[107] .

وما زال موجوداً إلى الآن بجوار أطلال المدينة ضريح الوليّ الصالح سيدي الفضل الذي أُطلِق اسمه على قرية صغيرة لا تزال قائمة الذات ، مخلّدة ذكرى أبي الفضل النحوي (ت . 513 هـ/ 1119 م)[108] .

وعلى بعد مرحلتين من المسيلة ومرحلة من أشير توجد مدينة تامزكيدة[109] . وبين المسيلة وتاهرت توجد على التوالي[110] : جوزة (أو خرزة ؟) ، وهي محطة قوافل ، وهاز ، وهي قرية كبيرة في حالة خراب ، كان زيري قد أجلى سكّانها ، وجرتيل ، وهي قرية هامّة تسكنها زناتة وتقع وسط منطقة مرويّة وخصبة ، وماما (أو ابن ماما) ، وهي مدينة صغيرة بها جامع « ولها سور تراب وأكثره طوب ، ولها بما استدار بسورها خندق محفور » ، وأخيراً أغير ، وهي قرية تشقّها الطريق

---

104) الإدريسي ، 91 .

105) البلدان ، 149/7 .

106) إنّ قطع الفخّار التي اكتشفها الجنرال De Beylé ودرسها جورج مارسي ، «فخار وخزف قلعة بني حمّاد» قسنطينة 1913 م ، تبدو بكل وضوح موحّدية . وبعد البحث الذي نشره نفس المؤلف في نشرية الجمعية التاريخية والجغرافية بسطيف، اكتشف L. Golvin بعض أجزاء نقائش تابعة لما بعد عهد بني حمّاد .

107) البربر ، 379/1 ، بنو غانية ، 149-150 ، الهامش 3 .

108) الباب الحادي عشر ، الفصل الأوّل .

109) ابن حوقل ، 90/1 ، الإدريسي ، 85 .

110) ابن حوقل ، 86/1 ، الإدريسي ، 87-88 ، البكري ، 143 (هاز) ، 126 ، (نهر جوزة ؟ الواقع بين المسيلة وأشير) ، البربر ، 2/ الملحق عدد 1 ، 490-491 ، الهامش 1 .

وتبعد عن تاهرت مسيرة مرحلة .

وأشار الإدريسي[111] إلى القرى التالية الواقعة على الطريق التي تربط بين أشير زيري وتاهرت وتجتاز منطقة مزروعة : قرية ابن مجبر[112] ، وهي قرية كبيرة سكّانها زناتة ، وماما السالفة الذكر ، وأخيراً المدينتان الصغيرتان دارست وأَغْبَر . وفي عصر الإدريسي ، ما زالت المنطقة الممتدة من تاهرت إلى تلمسان في حوزة قبائل من بطون زناتة ، « وهم قوم رحّالة ظواعن ينتجعون من مكان إلى غيره ، لكنّهم متحضّرون ، وأكثر زناتة فرسان يركبون الخيل »[113] .

بـونـة :

كانت بونة[114] تتألّف من مدينتَيْن : مدينة سبوس (في موقع المدينة العتيقة هيبو ريجيبس) ، وتسمّى أيضاً مدينة زاوي ، وبها مساجد وأسواق وحمّام ، وبونة الحديثة ، وهي أهمّ من الأولى ، ويحيط بها بعد سنة 450 هـ/ 1058-1059 م سور ، وتتحكّم في منطقة خصبة يسكنها البربر (مصمودة وأوربة وغيرهم) . وكانت تنتج القمح والشعير والكتان والعسل والسمن وجميع أنواع الفواكه . وكان أهلها يتعاطون تربية البقر . ويضاف إلى هذه الموارد الصيد البحري والخشب والحديد المستخرج من جبل يدوغ .

وقد كان أغلب التجّار في بونة أندلسيّين . وكانت تلك المدينة توفّر لخزينة الدولة أكثر من 20,000 دينار . وكانت سفنها المصنوعة بسهولة على عين المكان تقوم بغارات على سواحل النصارى ولا سيما سواحل سردانية وكرسيكا .

وعلى إثر وصول بني هلال الذين سيطروا على تلك الربوع ، تدهورت بونة . وعند سقوطها بين أيدي النرمان في سنة 548 هـ/ 1153-1154 ، كانت فقيرة وقليلة العمران .

---

111) الإدريسي ، 87 .

112) وهي بلا شكّ قرية مجبر الحالية الواقعة شمال شرقي بغاري وجنوبي وادي شلف .

113) الإدريسي ، 88 ، وقد ذكر أسماء تلك القبائل الزناتية وأشار إلى أنسابها .

114) البكري ، 54-55 ، المقدسي ، 4-5 ، 18-19 ، الإدريسي 99 ، 103 ، 116-117 ، 123 ، البلدان ، 309/2-310 ، الاستبصار ، الترجمة ، 30-31 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 761/1-762 بنو ثمانية ، 141 الهامش 3 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 319/1] . وحول أصل اسم بونة ، انظر ، شال كورتوا ، غريغوار السابع ، 208-209 ، الهامش 2 . وقد تدلّ تسميتها بمدينة زاوي ، أن المعزّ بن باديس قد أقطعها للأمير العجوز الذي رجع إلى إفريقية سنة 410 هـ/1019-1020 م اللّهم إلاّ إذا كان الأمر يتعلق بتملّك سابق لذلك التاريخ أو بشخص آخر يحمل نفس الاسم .

وقد بُني مسجد بونة المعروف بمسجد سيدي بومروان سنة 435 هـ/ 1033 م في عهد المعزّ بن باديس[115] .

وعلى بعد مرحلة من بونة ، في الطريق الرابطة بينها وبين القيروان ، يقيم في زانة قوم من البربر المستقرّون بأكواخ وأخصاص وسط غابة زان ممتدّة الأطراف ، يُصدِّر خشبها إلى إفريقيّة[116] .

القبائل الصغرى :

تتمثّل منطقة القبائل الصغرى في بلاد كُتامة[117] الذين حقّقوا النصر للفاطميّين . وكان يوجد بها من الشرق إلى الغرب عددٌ من الموانىء والمراسي[118] ، وهي على التوالي :

- مرسى الخروبة الواقع بين بونة ورأس الحمراء .
- ومرسى ابن الألبيري .
- ومرسى تكوش الواقع على بعد 18 ميلاً شرقي رأس الحمراء (قرب بلدة تاكاتوا العتيقة) . وهو ميناء محميّ على أحسن وجه[119] تشتمل منطقته الداخلية على عدة قرى ، وينتج الكثير من الفواكه وجميع خيرات الأرض ، وكان يوجد به في عصر الإدريسي ، رباط[120] .
- ومرسى الروم[121] الواقع على بعد 18 من الجهة الشرقية ، خلف جزيرة غمر ، وربّما جنوب شرقي رأس الحديد . وهو ميناء صالح لإرساء السفن في فصل الشتاء .
- ومرسى استورة[122] الذي كان يمثل ميناء مدينة سكيكدة (تاسكلدة ، روسيكاد في العصور القديمة)[123] .

---

115) جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 73-74 ، ولنفس المؤلف : مسجد سيدي بومروان بعنّابة ، تحية ويليام مارسي ، باريس 1950 م ، 225-236 .

116) البكري ، 54 .

117) الدولة الأغلبية ، 47-49 .

118) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 103 .

119) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 103 .

120) الإدريسي ، 103 : « وهي رابطة وبها قوم ساكنون » .

121) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 103 .

122) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 103 برنشفيك [الترجمة العربية ، 318/1] .

123) اليعقوبي ، 351 : إسكيكدة ، البكري ، 83 : سكيكدة .

- ومرسى القلّ (شلّو في العصور القديمة)[124] الذي ربّما كان يؤمّن المواصلات مع قسنطينة . وفي عصر الإدريسي أصبحت القلّ التي كانت في السابق مدينة صغيرة مزدهرة ، مجرّد قرية تشتمل على ميناء وعدد من المساكن التي كان أصحابها يهجرونها في الصيف ، وهو فصل العمليّات البحريّة ، ويلتجأون إلى الجبال ، فلا يبقى في السّاحل إلا الرّجال . وقد كانت منطقة القلّ مزدهرة[125] .

وكانت جبال الرهمان المطلّة على البحر قبالة سردانية مليئة بالأشجار المثمرة والأنهار والحقول والمراعي الثريّة وآهلة بالسكان الكتاميّين وغيرهم . وكانت تلك المنطقة تصدّر الخشب الصالح للتصنيع إلى إفريقيّة والمناطق القريبة منها . وكانت بها عدّة أسواق وموانىء ، مثل مرسى الشجرة ومرسى الخرّاطين[126]. وفي الطرف الغربي من تلك الجبال يوجد مرسى الزيتونة الواقع على بعد مرحلة من ميلة[127] .

أمّا جيجل (إجيجلي في العصور القديمة)[128] فهي مدينة صغيرة تقع في شبه جزيرة وتشتمل على ربض ، « ولها مرسَيَان ، مرسى منها في جنوبها وهو مرسى وَعْر والدخول إليه صعب لا يدخله إلا بدليل حاذق ، ومرسى من جهة الشمال ، ويسمّى مرسى الشعراء ، وهو ساكن الحركة كالحوض ، يحسن الإرساء به ، لكنّه لا يحتمل الكثير من المراكب لصغره ، وهو رمل » (الإدريسي) .

ولما استولى رُجَار ملك صقلية على جيجل انسحب أهلها إلى الجبال في مكان يبعد ميلاً عن المدينة وبنوا حصناً كانوا يلتجأون إليه في الصيف عند قدوم الأسطول النرماني ، ولا يبقى في المدينة إلّا الرجال المُعَافُون وبعض الباعة . وقد أصبحت جيجل التي كانت عامرة في الشتاء فحسب ، مدينة خاوية وخَرِبة . لكن المنطقة التي لم تفقد خصوبتها ما زالت تنتج بوفرة الحليب والعسل

---

124) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 98 ، الاستبصار ، الترجمة ، 115-120 برنشفيك [الترجمة العربية ، 318/1] .

125) حسب الاستبصار ، الترجمة ، 31 ، كان أقليم القل يحتوي على موارد زراعية كبيرة (كالعنب والتفاح) ويدفع مبالغ طائلة من الجباية .

126) البكري ، 83 ، الإدريسي ، 102 .

127) البكري ، 64 ، الإدريسي ، 102 ، البلدان ، 24/8 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 318/1] .

128) اليعقوبي ، 351 ، البكري ، 64 ، 82-83 ، المقدسي ، 6-7 ، الإدريسي ، 97-98 ، 102 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 317/1-318] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1073/1 ، وحسب الاستبصار ، الترجمة 31 ، كان إقليم جيجل منطقة هامة تصدّر إلى بجاية الفواكه والعنب والأشربة .

والسمن والحبوب ، علاوة على موارد البحر الكثير السمك .

وكان يُستخرَج من جبال كتامة الحديد والنحاس المصدّر إلى إفريقية والمناطق الأخرى واللاّزوردي[129] .

وكان يسكن منطقة جيجل الداخلية على الأرجح بنو زلداوي أو زنداوي (بنو زنداي في الوقت الحاضر) . وهو قوم « لهم منعة وتحصّن ، وهم أهل خلاف وقيام بعض على بعض ، والجبايات التي يلتزمونها لا يؤدّونها إلا بعد نزول الخيل والرجال عليهم في تلك النواحي . ومن عوائدهم التي هم عليها أن صغيرهم وكبيرهم لا يمشي من موضع إلى غيره إلا وهو شاكي السلاح »[130] .

وعلى الشريط الساحلي الممتدّ بين جيجل وبجاية تقع جزائر العافية (منار العافية في الوقت الحاضر)[131] وحصن المنصورية على البحر[132] ومرسى سبيبة[133] . كما أشار الإدريسي إلى متّوسة التي تبعد عن بجاية اثني عشر ميلاً وتقع على الساحل أو بالقرب منه ، «وهي قرية عامرة وبها معادن الجصّ ومنها يحمل إلى بجاية »[134] .

وتقع جنوبي سلسلة الجبال التابعة للقبائل الصغرى عدة مدن نخصّ بالذكر منها قالمة[135] التي لم يذكرها إلاّ الإدريسي باعتبارها مجرّد مرحلة .

قسنطينة :

تتمثّل قسنطينة (سيرتا ثم قسطنطينة في العصور القديمة)[136] في حصن منيع جاشم على

---

129) البكري ، 33 ، 83 ، [واللاّزوردي هو حجر كريم سماوي الزرقة] .

130) الإدريسي ، 97 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 317/1] ، الاستبصار ، الترجمة ، 31 ، 97 ، البيلق ، الترجمة 82 ، الهامش 2 .

131) البكري ، 82 ، الإدريسي ، 98 .

132) حسب الإدريسي ، 98 ، الذي لم يذكر مرسى سبيبة وأكّد دي سلان (البكري ، الترجمة ، 167) أنّ كتابة هذا الاسم مشكوك في صحّتها وربّما يتعلق الأمر بقرية المنصورية الحالية .

133) حسب البكري ، 82 ، الذي لم يذكر المنصورية .

134) الإدريسي ، 114 .

135) نفس المصدر ، 91 .

136) ابن حوقل ، 93/1 ، البكري ، 63 ، المقدسي ، 6-7 ، 20-21 ، الإدريسي ، 94-96 ، البلدان ، 110-113 ، الاستبصار ، الترجمة ، 96 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 418/1-424] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 885/1 .

مسطح صخري مطلّ على جرف وادي الرمل . أضف إلى ذلك أنها كانت تستفيد من موقعها في الطريق الرئيسيّة الرابطة بين إفريقيّة والمغرب الأوسط ، كما كانت متّصلة بالزاب بواسطة مسلك هامّ تمرّ منه القوافل . ولا تزال توجد بها بعض المعالم الرومانيّة القديمة . وكان سورها البالغ ارتفاعه ثلاثة أقدام يشتمل على بابين ، أوّلهما يقع في النّاحية الغربيّة ، وهو باب ميلة والثاني في الناحية الشرقية ، وهو باب القنطرة الذي يفضي إلى جسر قديم متركّب من حنايا وقنطرة فوق جرف وادي الرمل . وتقع المقبرة بالقرب من باب ميلة .

وكان السهل المحيط بالمدينة ينتج القمح والشعير بوفرة ، وكانت قسنطينة مستودعاً كبيراً للحبوب المخزونة تحت الأرض . « وفي كلّ دار منها عدّة مطامير منقورة في الحجر تقيم فيها الحنطة مائة سنة لا تفسد »[137] . وقد كانت قسنطينة في عصر البكري تابعة لكتامة وتقيم بها عائلات أصلها من ميلة ونفزاوة وقسطيلية . « وأهلها مياسير ذو أموال واسعة ومعاملات للعرب (من بني هلال) ، ومشاركة في الحرث والادّخار ، والعسل بها كثير وكذلك السمن يُتجَهَّز به إلى سائر البلاد » .

وينبغي التأكيد على ما كانت تكتسبه قسنطينة من أهميّة باعتبارها مفرق طرق . كما تجدر الإشارة إلى المعلومات التالية التي أمدّنا بها الادريسي في شأنها[138] .

« بين قسنطينة وباغاي ثلاث مراحل ، وبينها وبين بجاية ستة أيّام ، أربعة منها إلى جيجل . ومن قسنطينة إلى أبرس (؟) خمس مراحل ، ومنها إلى بجاية أربع مراحل ومنها إلى قلعة بشر يومان ، وإلى تيفاش يومان كبيران . ومنها إلى قالمة يومان كبيران وإلى القَصْرَيْن[139] ثلاثة أيام وإلى دُورمَدْيَن[140] ستة أيام وإلى مرسى القلّ يومان في أرض العرب . والطريق من قسنطينة إلى بجاية : من قسنطينة إلى النهر إلى فحص فارة إلى قرية بني خلف إلى حصن كلديس . وحصن كلديس منيع جداً ، ومنه لقسنطينة عشرون ميلاً وليس بينهما جبل ولا خندق ، وكلديس على جرف مطلّ على نهر قسنطينة . ومن حصن كلديس إلى جبل سماو وثمانية أميال ، وهو من أعظم الجبال علوّاً وأسماها ارتقاء وأصعبها مسلكاً ، وعلى أعلاه حصن ، ويُصعَد إلى أعلاه نحو من

---

137) الإدريسي ، 95 .

138) نفس المصدر 96-97 .

139) في أحد المخطوطات : القصر ، أفلا يتعلق الأمر بقصر الطين الذي مرّ منه المعزّ قادماً من سطيف ومتوجهاً إلى إفريقية سنة 408 هـ/1017-1018 م ؟

140) وحول دُور مدين ، انظر أيضاً الإدريسي ، 57 ، الذي قال إن هذه البلدة تبعد عن بجاية 11 مرحلة .

خمسة أميال ، ويُسَار في أعلاه أيضاً نحو من ثلاثة أميال » . ولا يستطيع الأغراب اختراق ذلك الجبل الذي يمثل حدود بلادهم . ومن جبل سهاو « ينحدر إلى أسفل وادٍ هناك يسمى وادي شال ، ويمرّ معه إلى سوق يوسف ، وهي قرية في سند جبل ممتنع السلوك إثنا عشر ميلاً ، وهو جبل تخترقه مياه عذبة . ومنه إلى سوق بني زندوي ، وهو حصن في بسيط من الأرض قليل الحصانة ، وهي سوق لها يوم في الجمعة ، وأهل تلك الناحية يقصدونها في ذلك اليوم . ومنه إلى تالة (؟) ، وهو حصن خراب به المنزل (المحطة) ، ومنه إلى المغارة على ساحل البحر إلى مسجد بهلول ، إلى المزارع » ، وهي آخر بلدة قبل جيجل .

وأمّا مدينة ميلة[141] التي دمّرها المنصور سنة 378 هـ/ 988-989 م وأجلى أهلها إلى باغاي ، فقد جُدِّد سورها المبني بالحجارة واستعادت ازدهارها . وكان يحيط بها ربض به عدة حمامات عموميّة ، ولها مسجد جامع وأسواق وحمّامات . وكان جامعها الكبير الواقع بالقرب من الباب الشرقي المسمّى باب الرؤوس ، ملاصقاً لدار الإمارة . وكانت توجد داخل الباب الشمالي أو الباب السفليّ عين أبي السباء التي يأتي ماؤها من جبل بني ياروت[142] ، بواسطة قناة تحت الأرض ويصب في ساقية تجري وسط المدينة . وفي الصيف لا يجري الماء إلا يومَيْ السبت والأحد .

وكانت المدينة آهلة في أوّل الأمر بالعرب والأجناد والمولّدين ، وبعد غزوة بني هلال استقرّ بها قوم من البربر واستولى على باديتها الأعراب . وكانت منطقة ميلة الممتدة الأطراف والخصبة تشتمل على كثير من القرى المزدهرة ، وكانت أسعارها رخيصة جدّاً .

وكان يوجد في قلب بلاد كتامة فوق جبل إيكجان حصن حصين يحمل نفس الاسم .

وفي وسط السهل العالي ، توجد مدينة سطيف (سيتيفيس في العصور القديمة)[145] ، وهي

---

141) اليعقوبي ، 351 ، البكري ، 63-64 ، المقدسي ، 6-7 ، الإدريسي ، 94 ، البلدان ، 226/8-227 ، الاستبصار ، الترجمة ، 97 ، جورج مارسي وليفي بروفنسال ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1937 ، 13-18 ، نقائش عربية ، 155/1 ، الهامش 2 . وأكّد البكري أن ميلة من أهمّ مدن الزاب . وقال الإدريسي إنها « كانت في طاعة يحيى بن العزيز صاحب بجاية » .

142) حسب البكري ، البلدان نقلاً عن البكري : ساورت .

143) البكري ، 76 ، ولعلها مطابقة لبلدة تافلكانت أو تانلكانت أو تاملكانت التي ذكرها الإدريسي ، 93 .

144) المقدسي ، 6-7 ، 52-53 ، الإدريسي ، 91-98 ، ابن حمّاد ، 7 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 317/1 الهامش 16] . ويسمّى موقع إيكجان في العصر الحاضر خربة الكلاب ، وهي ترجمة عربية لاسم بربري قديم . وذكر الإدريسي أن هذه المنطقة كانت في السابق تابعة لبني حمّاد .

145) اليعقوبي ، 351 ، الأصطخري ، 39 ، ابن حوقل ، 95/1-96 ، البكري ، 76 ، الإدريسي ، 98-99 ، البلدان ، 82/5 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 320/1] .

مدينة كبيرة قد دمّر سورها الكتاميّون أنصار الداعي الشيعي الشهير أبي عبد الله ، انتقاماً من الأعراب الذين كانوا قد افتكّوها منهم وأجبروهم على دفع الجزية ، لما اقتحموا المدينة . ورغم أنّها بقيت بلا سور ، فقد كانت مزدهرة ذات أسواق نافقة وسلع رخيصة ، ولا سيّما منها الجوز ، وقد كانت تُصدَّر إلى بعيد .

وأكّد الإدريسي أن قبيلة كتامة التي كانت في سالف الزمان كثيرة العدد ، قد انخفض عدد أفرادها في عصره إلى نحو أربعة آلاف نسمة[146] ، ويقال : إنّ الكتاميّين المقيمين في ضواحي القلّ وقسنطينة ، كانوا من فرط إكرامهم لضيوفهم يسمحون لهم بالاعتداء على شرف أبنائهم ! وهي عادة كان يستنكرها أبناء قبيلتهم المقيمون في منطقة سطيف[147] .

بجاية :

كانت بجاية (سالداي في القديم)[148] ميناء مرتبطاً بعاصمة بني حمّاد وآهلاً بالسكّان الأندلسيّين[149] . وكان يسكن الجبال المشرفة عليها قوم من كتامة يعتنقون المذهب الشيعي ويولون عناية بالغة إلى كلّ من يشاركهم في معتقداتهم . وكانت بجاية تمثّل طريقاً هامّة من طرق المواصلات وتمتاز بمرفأ محميّ على أحسن وجه . وقد لفتت انتباه الناصر بن حمّاد الراغب في الاقتراب من ساحل البحر ، على غرار أبناء عمومته بالمهدية ، ولنفس الأسباب . ولا شكّ أنه قد بنى في آخر منحدرات جبل أمسيون (= جبل غورية) مدينة بجاية الجديدة التي سمّاها الناصريّة[150] في سنة 457 هـ/ 1064-1065 م ، وذلك لا محالة إثر هزيمة سببية التي عرّضت أمن القلعة للخطر .

---

146) الإدريسي ، 99 ، ابن حوقل ، 96/1 ، الذي كان قد أشار إلى افتقار وضعف الكتاميّين الشيعة ، بسبب الجفاف المتواصل والفتن والمذابح التي قام بها بلكين يوسف بن زيري .

147) ابن حوقل ، 95/1 ، الإدريسي ، 99 .

148) البكري ، 82 ، الإدريسي ، 90-91 ، البلدان ، 62/2 ، الاستبصار ، الترجمة ، 32-33 ، 34-35 ، الغبريني ، في عدة مواضع ، دائرة المعارف الإسلامية ، 785/1-786 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 410/1-418] جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 88-89 ، 93-94 ، غولفين ، المغرب الأوسط ، 192-196 ، 224 ، 231-232 .

149) انظر أيضاً : الغبريني ، 32 ، 67-69 : وقد مرّ عدد من أولئك الأندلسيّين على الأقل من تنس ، البلدان ، 2 ، 415 (تنس) .

150) انظر الباب الخامس ، الفصل الرابع من هذا الكتاب .

وقد تبع بناء العاصمة الجديدة نزوح السكّان إليها بصورة مماثلة لنزوح أهل إفـريقية إلى المهديّة ، ولكن ربّما بأقلّ حدّة . وقد حاول الناصر التفاهم مع بني هلال الذين كانوا يمثلون خطراً بالنسبة إلى القلعة ، لا بالنسبة إلى بجاية التي كان من المستحيل الوصول إليها إلّا عن طـريق الوادي الكبير ، وكان يكفي سدّه بواسطة المضيق للحيلولة دون دخولها ، فلا يمكن أن يدخلها سوى من كان يستدعيهم الأمير من الأعراب لإبرام بعض الاتفاقيات الخاصة بالقلعة أو ببعض المدن الداخلية الأخرى التابعة لمملكته[151] .

وكانت السهول المحيطة بالمدينة تنتج بوفرة القمح والشعير والتين وغيرها من الفواكه . وفي سفح جبل أمسيون كانت تُجنى عدّة أنواع من النباتات الطبّية[152] . وقد اتّسع إلى أبعد حدّ نطاق المواصلات البحرية والبرية والنشاط التجاري والصناعي في الناصرية التي سرعان ما استعادت اسمها القديم : بجاية . وقد أثرى تجّار المدينة التي أصبحت مستودعاً كبيراً للبضائع ، وصاروا على اتّصال بتجّار المغرب الأقصى والصحراء والمشرق[153] . وقد أصاب الإدريسي عندما أكّد أن بجاية مدينة بازدهارها لخراب القلعة . ذلك أنّ بني هلال ، لا فحسب لم يقطعوا مواصلاتها مع المغرب الأوسط ، بل بالعكس من ذلك اضطرّوا إلى تسهيلها . ونحن نتصوّر كيف كانوا ينظّمون القوافل أو يحمونها بمقتضى اتفاقات مربحة سواء على المستوى المحلّي أو على نطاق واسع .

وقد كانت توجد في بجاية « دار صناعة لإنشاء الأساطيل للقتال ولإنشاء السّفن الحمّالة ، والمراكب النقّالة ، لأنّ الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود ، ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران ، وبها معادن الحديد الطيّب »[154] .

وكما هو الشأن بالنسبة إلى المهديّة ولنفس الأسباب ، اتّسع نطاق الغزو في البحر الذي يمثّل مورد رزق سواء بالنسبة إلى الخواصّ أو بالنسبة إلى الأمراء[155] .

وقد شيّد الناصر ، وبالخصوص ابنه وخليفته المنصور ، في بجاية قصوراً فخمة أشار بها الشعراء بطيبة خاطر ، وهي قصر اللؤلؤ الواقع بلا شكّ في الناحيـة الشرقية من المـدينة وقصر

151) انظر بالخصوص الاستبصار ، الترجمة ، 34-35 ، مع تعويض المنصور والمنصورية بالناصر والناصرية .
152) حسب الإدريسي 90 ، الذي ذكر أسماء تلك النباتات .
153) الإدريسي ، 90-91 .
154) نفس المصدر .
155) الغبريني ، 23-24 .

الكوكب الواقع في الناحية الغربية وقصر أميمون الموجود في الناحية الشمالية والذي يشرف عليه منار[156] .

ولا شكّ أنّ هذه القصور الصنهاجيّة كانت تشبه قصور القلعة ، وقد نوّه الملاحظون بنوافذها المطلّة على البحر والمزيّنة بمشبكات معدنية ، وبأبوابها المخرّمة والمزوّقة وقاعاتها ذات المقاطع والأطراف المكسيّة بالمرمر الأبيض المنقوش والمطلي بالذهب واللازورد ، وبنقائشها ورسومها الزيتية الحائطية[157] . وأمام البحر كان يوجد منتزهان رائعان يمتدّان على ضفّة الوادي الكبير وهما البديع الواقع في الناحية الغربية والرفيع الواقع في الناحية الشرقية والمتمثل في روضة غنّاء ملاصقة للسور الغربي في أسفل قصر اللؤلؤ[158] . وقد بقي قائم الذات في الجزء الشمالي الغربي من السور عدد كبير من الخزّانات التي كانت تزوّد المدينة بالماء[159] .

وقد اندثر الجامع الأعظم[160] . أما القصبة فيرجع تاريخها على الأرجح إلى العهد الموحّدي . وليست لدينا حول طوبوغرافيا بجاية ، سوى بعض الروايات التي يرجع تاريخها إلى ما بعد العصر الصنهاجي[161] ، فينبغي حينئذ اعتمادها بحذر . ولذلك فإننا سنقتصر على البيانات التي تبدو معاصرة لعهد بني حمّاد[162] . ففي الناحية الجنوبية من المدينة يوجد في وسط الواجهة البحرية وفي مصرف الجسر ، باب البحر ذو الأقواس القوطية الذي كان يسمح للسفن بالدخول إلى مدرج داخلي مماثل لمدرج المهدية[163] . وفي الناحية الشرقية يوجد على الأرجح باب المرسى[164]

---

156) **الاستبصار** ، الترجمة ، 36 ، جورج مارسي ، **الفنّ المعماري** ، 88-89 ، برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 413/1-414] .

157) **الاستبصار** ، الترجمة ، 36 .

158) برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 416/1] .

159) جورج مارسي ، **الفنّ المعماري** ، 93-94 .

160) برنشفيك [الترجمة العربية ، 414/1] .

161) وبالخصوص الغبريني والمراكشي والبيذق .

162) انظر ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 412/1] .

163) جورج مارسي ، المرجع السابق ، 92 وهذا الباب ربما يختلف عن باب المرسى الواقع في الناحية الشرقية ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 378/1] ، الغبريني ، 29 ، وقد أكد أن قبر أبي عبد الله العربي يقع خارج باب المرسى في مسجد أبي زكرياء (يحيى ابن علي) الزواوي الذي أقام فيه رباطه لينتفع ببركة مقام هذا الرجل الصالح ، وقد توفي الزواوي سنة 611 هـ/1214-1215 م ، وتحدث نفس المؤلف ، ص 22 ، عن شخص آخر توفي سنة 582 هـ/1186-1187 م ودُفِن خارج باب المرسى .

164) انظر الهامش السابق .

وباب أمسيون[165] وباب تاطنت الذي كان قد عرفه كلّ من ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي[166] . أمّا باب اللّوز[167] الذي دخل منه علي بن غانية القادم من جبل الخليفة ، أي من جهة الغرب شيئاً ما جنوبي باب البنود[168] الواقع في الناحية الشمالية الغربية ، وباب باطِنَة[169] والباب الجديد[170] وباب البنود السالف الذكر ، فإنّنا نتردّد في نسبتها إلى عهد بني حمّاد .

وكانت المقابر ممتدّة خارج باب أمسيون وباب المرسى وباب البنود ، وكانت المقبرة الواقعة خارج هذا الباب تسمّى مقبرة أبي علي رسميّة (أو أبي سميّة)[171] . أما الأحياء فقد كان بعضها يحمل اسم الأبواب الموجودة بالقرب منها ، مثل حومة باب البحر ، حيث كان يباع الخمر[172] وحومة باب أمسيون[173] وحومة باب باطنة[174] . حيث كانت توجد دار المقدسي المعروفة بدار الفقيه هلال . ولا شكّ أنّ حومة اللؤلؤة كانت قريبة من القصر الذي يحمل نفس الاسم[175] . وفي حومة المذبح[176] الواقعة في ناحية الربض كان القراصنة يبيعون أسراهم ويسدّدون معلوم الخُمُس . كما تجدر الإشارة إلى حومة ساباط الأموي[177] وحارة المقدسي التي يمكن الوصول إليها

---

165) برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 412/1] .

166) المراكشي ، 164 ، برنشفيك ، المرجع السابق .

167) الغبريني ، 24 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 413 .

168) الغبريني ، 119 ، 234 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

169) الغبريني ، 63 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

170) الغبريني ، 63 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

171) الغبريني ، 16 ، 20 ، 29 ، 35 ، 119 ، 234 ، برنشفيك ، نفس المرجع . وقد ذكر الغبريني اسم المقبرة الواقعة خارج باب البنود عندما تحدّث عن شخص قد دُفِن هناك في سنة 657 هـ/1258-1259 م ، وحول شخص آخر دفن في جبل الخليفة انظر نفس المصدر ، 20 .

172) الغبريني ، 27 ، 80 ، برنشفيك ، المرجع السابق .

173) الغبريني ، 44 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

174) الغبريني ، 108 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

175) الغبريني ، 9 : يقع مسجد أبي زكرياء يحيى الزواوي في حومة اللؤلؤة ، أي خارج باب المرسى ، برنشفيك ، نفس المرجع .

176) الغبريني ، 23-24 ، برنشفيك ، نفس المرجع .

177) برنشفيك ، نفس المرجع .

بتسلّق منحدر[178] وحومة رابطة المتمنّي الواقعة خارج السور[179] وحومة بئر مسفرة (؟)[180] القريبة من مقبرة أبي علي رسميّة (؟)، أي خارج باب البنود .

وعلاوة على الجامع الأعظم[181] يوجد مسجد الإمام المهدي أو مسجد الريحانة الذي درّس فيه ابن تومرت[182] ومسجد النطّاعين (أي صانعي السجادات المصنوعة من الجلد ؟)[183] .

وتقع على الأرجح في الواجهة البحرية خارج المدينة ما يسمّى بالشريعة (أي البطحاء) ، حيث كانت تقام سوق أسبوعية متنقّلة . وقد أشار الغبريني إلى بعض أسواق بجاية التي ربّما كانت موجودة من قبل مثل سوق قيصريّة[185] وسوق الصّوف التي يبدو أنّها كانت مطابقة لسوق الصوّافين[186] ، وأخيراً سوق باب البحر[187] .

أمّا في ضواحي بجاية فلا نعرف سوى حارة ملاّلة التي بنى فيها أبناء العزيز لابن تومرت جامعاً كان الطلاب يتوافدون عليه من كلّ حدب وصوب[188] .

الطريق من بجاية إلى القلعة[189] :

لقد وصف لنا الإدريسي وصفاً مفصّلاً الطريق الرابطة بين بجاية والقلعة والمحاذية لمنطقة القبائل الكبرى عبر منخفض وادي ساحل السهّام . فأكّد أنّ تلك الطريق تمرّ من المضيق وسوق الأحد ووادي وَهْت (؟) وحصن تاكلات أو تيكلات ، « وبه المنزل ، وهو حصن منيع على شرف مطلّ على جبل بجاية وبه سوق دائمة وبه فواكه ولحوم كثيرة ورخيصة . وبحصن تاكلات قصور

178) الغبريني ، 17 ، برنشفيك ، نفس المرجع ، لعلّ هذه الحارة مطابقة لحومة باب باطنة السالف الذكر .
179) الغبريني ، 113 ، برنشفيك ، نفس المرجع .
180) الغبريني ، 119 ، برنشفيك ، نفس المرجع .
181) الغبريني ، 37 .
182) الغبريني ، 90 ، برنشفيك ، نفس المرجع ، البيلق ، 52-54 .
183) الغبريني ، 99 ، برنشفيك نفس المرجع .
184) البيذق 52 ، المعجم ، 239 .
185) الغبريني ، 148 .
186) الغبريني ، 100-115 ، برنشفيك ، المرجع المذكور .
187) الغبريني ، 103 .
188) البيلق ، 52-53 .
189) الإدريسي ، 92-95 .

حِسَان وبساتين وجنّات كانت ليحيى بن العزيز صاحبها . ومن حصن تاكلات إلى تادَرْقَت إلى سوق الخميس إلى حصن بكر وبه المنزل ، وحصن بكر حصين وله مراعٍ ممتدّة والوادي الكبير يجري مع أصلها ويحتويها وفيه سوق وبيع وشراء »[190] . ويوجد بعد ذلك حصن وارْفو ويسمّى أيضاً حصن وافو (أو رافو) والقصر (بني منصور في العصر الحاضر) ، « وهناك تترك وادي بجاية غرباً وتمرّ في الجنوب إلى حصن الحديد مرحلة إلى الشعراء إلى قصر بني تراكش إلى تاوَرْت ، وهي قرية كبيرة عامرة على نهر ملح وبها المنزل . ومن تاورت إلى الباب وهي جبال يخترق بينها الوادي الملح (= وادي أزرو) ، وهنـاك مضيق وموضـع مخيف ، ومنه إلى السقـائف ، ثم إلى حصن الناظور[191] إلى سوق الخميس وبه المنزل . وهذه الأرض كلّها تجولها العرب وتضرّ بأهلها ، وسوق الخميس حصن في أعلى جبل وبه مياه جارية ولا تقدر العرب عليه أبداً لمنعه . ومنه إلى الطماطة ، وهو فحص في أعلى جبل ، ومنه إلى سوق الاثنين وبه المنزل ، وهو قصر حصين ، والعرب محدقة بأرضه وفيه رجال يحرسونه مع سائر أهله . ومنه إلى حصن تاف لكانت (؟)[192] ، وهو حصن حصين إلى تازكا ، وهو حصن صغير . ومنه إلى قصر عطيّة ، وهو حصن على أعلى جبل ، ثم إلى حصن القلعة مرحلة » . ولم يذكر الإدريسي الحصون الموجودة في المرحلة الأخيرة قبل القلعة[193] ، ولكنّه أضاف قائلاً : « وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة ، وربّما أضرج بعضهم ببعض ، غير أنّ أيدي الأجناد بها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الأضرار ، وموجب ذلك أنّ العرب لها ديّة مقتولها ، وليس عليها ديّة فيمن تقتل » .

غـديـر وارّو :

تقع مدينة الغدير (أو غدير وارو- برج غدير في الوقت الحاضر)[194] على بعد حوالي خمسة

---

190) الإدريسي ، نفس المصدر ، انظر أيضاً ، بنو غانية ، 54 الهامش 1 .

191) انظر أيضاً ، ابن حمّاد ، 31 .

192) حول هذه القراءة الظنيّة انظر الهامش 143 .

193) على ذكر الحملة الأخيرة ضدّ أبي يزيد اللاجىء إلى كيّانة أو جبل القلعة ، أشار ابن حمّاد ، 32 ، إلى قلعة المري (؟) والتي هي حصن كيّانة ، وإلى قلعة تناكر (؟) التي كان البربر المقيمون في ذلك المكان يطلقون عليها في عصر المؤلف اسم شيكر (؟) .

194) البكري ، 54 ، 59-60 ، ابن حمّاد ، 28-32 ، البلدان ، 270/6 ، الاستبصار ، الترجمة ، 98-99 ، الإدريسي ، 92 .

عشر ميلاً شمال شرقي القلعة ، بين هذه المدينة والمسيلة وبين حمزة (بويرة) وطبنة . وهي مدينة كبيرة تقع قرب منابع نهر سهر وتحيط بها الجبال ، وبها جامع وأسواق نافقة ومياه جارية تحرّك الطواحين .

وكانت تلك الربوع تنتج بوفرة الفواكه والقمح واللّحوم الرخيصة والنيلة الشهيرة . وكان قنطار العنب يُبَاع فيها بدرهم . وكان يقيم بها قوم من هوّارة وبني يغمراسن ، يُقدّر عددهم بحوالي 60.000 نسمة .

وجنوبي غدير وارو تقع قرية طرفلة التي لا مثيل لها ، حتى أنها شُبِّهَت بركن من الجنّة .

الشريط الساحلي من بجاية إلى الجزائر :

إنّ أوّل مدينة على ساحل البحر غربي بجاية هي تدلس (أو دلّس ، روسوكورو في العصور القديمة)[196] . « وهي على شرف متحصّنة ، لها سور حصين ، وديار ومنتزهات ، وبها من رخص الفواكه والأسعار ما لا يوجد بغيرها مثله ، وبقرها وأغنامها كثيرة تباع بثمن رخيص ، وتخرج من أرضها إلى كثير من الأراضي والآفاق »[197] .

وعلى بعد عشرين ميلاً يوجد مرسى الدجاج ، وهو ميناء ضيّق ، قليل العمق ، غير مأمون في فصل الشتاء ، والمدينة محاطة بالبحر من ثلاث جهات ومغلقة من الجهة الرابعة بسور ممتدّ من الضفة الغربية لشبه الجزيرة إلى الضفة الشرقية . وبها مسجد جامع وأسواق داخل السور ، « وفيها من جميع الفواكه واللحوم أشياء كثيرة ، تباع بالثمن اليسير ، والتّين يُحمَل منها منثوراً وشرائح إلى سائر الأقطار ، وأقاصي المدائن والأمصار ، وهي بذلك مشهورة » . وفي عصر الإدريسي كان يسكن مرسى الدجاج عدد قليل من الأندلسيّين والكتاميّين الذين كانوا ينسحبون في الصيف إلى المناطق الداخلية خوفاً من نزول الأعداء بالميناء .

وفي الجهة الشرقية تقع مدينة (أو مرسى) بني جنّاد[198] على بعد ميل من البحر ، وهي أصغر من مرسى الدجاج ، وسكّانها ينتمون إلى قبائل زواوة .

وبعدها نجد مدينة تامدفوس ، « وهي مرسى حسن ، عليه مدينة حصينة صغيرة خراب ،

---

791) الإدريسي ، 89-90 ، انظر أيضاً ، ابن حوقل ، 76/1 ، البكري ، 65-82 ، البلدان ، 24/8 .

197 م) الإدريسي ، 89-90 .

198) ابن حوقل ، 76/1 ، البكري 65 .

وبها بقايا بناء قديم وهياكل وأصنام وحجارة »[199] .

ثم نصل إلى مدينة الجزائر (مرسى الجزائر أو جزائر ـ وأحياناً ـ جزيرة مَزْغَنّا ، إكوسيوم في العصور القديمة)[200] . وهي إحدى المدن الثلاث التي بناها ـ أو بالأحرى ـ أعاد بناءها بلكين . وقد كانت عامرة آهلة وتجارتها رابحة وصناعتها نافقة ، يحيط بها سور . وحسب البكري ، كانت توجد بها بعض المعالم الأثرية القديمة من بينها كنيسة فسيحة قد تحوّلت إلى مصلّى ، إذ بقي منها جدار ممتدّ من الشرق إلى الغرب يقوم مقام المحراب في صلاة العيدَيْن . وفي مدينة الجزائر مسجد جامع وعدّة أسواق نافقة ، وميناؤها محميّ جدّاً ومزوّد بالماء من عيون عذبة على البحر ومن آبار ، وقد كان يتردّد عليه البحّارة القادمون من إفريقية والأندلس ومن الأقطار الأخرى . « ولها بادية كبيرة ، وجبال فيها قبائل من البربر ، وزراعتها الحنطة والشعير ، وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ، ويتّخذون النحل ، فكثر عندهم السمن والعسل ، فيتجهّز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم »[200م] .

الشريط الساحلي من الجزائر إلى تنس :

تقع بين مدينة الجزائر وشرشال المراسي التالية :

ـ مرسى جنابية[201] ، وهي جزيرة (أو شبه جزيرة) بها مدينة قديمة خالية بالقرب من نهر .

ـ مرسى الذبّان (الذّباب)[202] الواقع بالقرب من أنف القناطر ، وبه بقايا جسور قديمة .

ـ مرسى هور[203] ، وهي قرية قديمة يسكنها بعض الصيّادين ، تقع وسط خليج يحمل نفس

---

199) الإدريسي ، 89 ، انظر أيضاً ، ابن حوقل ، 1/76-77 ، البلدان ، 2/354 .

200) الأصطخري ، 38 ، ابن حوقل ، 1/76 ، البكري ، 66 ، 82 ـ الإدريسي ، 89-101 ، البلدان ، 3/93 ، فورنال (Fournel) ، 2/205-206 ، الهامش 5 : لا نعلم أيّ شيء حول بني مزغنّا ولا حول الدور الذي يبدو أنهم قاموا به في تأسيس مدينة الجزائر أو تجديدها. وقد افترض المؤلف أن الأمر يتعلق ببطن من بطون صنهاجة بنى في فترة غير معروفة في موقع مدينة الجزائر الحالي مدينة جديدة قد قام بلكين بتوسيعها ليس إلاّ . وهو افتراض معقول ولكنّه اعتباطي .

200 م) الأدريسي ، 89 .

201) البكري ، 82 . يمكن أن تكون الجزيرة مطابقة لرأس سيدي فرج ، حيث يوجد في جنوبه نهران صغيران بالإضافة إلى وادي شفة ـ مزفران . وحسب P. Salama « الطرقات الرومانية في إفريقيا الشمالية » ، تقع بين ذلك الرأس وبين مصبّ النهر الأخير المدينة العتيقة أويوري (؟) (= سيدي فرج) .

202) البكري ، 82 .

203) نفس المصدر : مرسى هور بين أنف القناطر ومرسى البطّال في جبل شنوة ، الإدريسي ، 101 : « ومن شرشال إلى طرف

الاسم على بعد مسافة قليلة من البحر .

- مرسى البطّال[204] الواقع بالقرب من رأس يقال له طرف البطال ، وقبالته جزيرة صغيرة ، وهو خالٍ من السكّان حسب شهادة البكري .

أمّا شرشال (إيول سيزاريا في العصور القديمة)[205] ، فهي مدينة قديمة في حالة خراب ولكنّها كانت تشتمل في عصر ابن حوقل على ميناء . وأكّد البكري من جهته أنّ مرسى شرشال يقع بالقرب من مدينة قديمة كبيرة غير مسكونة وأنّ المدينة تشتمل على ميناء مسدود ورباطات يتوافد عليها الناس في كلّ سنة بأعداد غفيرة . ولكنّ المقدسي لم يذكرها . ويبدو أنها استعادت شيئاً من ازدهارها فيما بعد ، إذ أكّد الإدريسي أن شرشال مدينة صغيرة القدر ولكنّها آهلة بالسكّان . وقد كانت منطقتها تنتج الفواكه بكثرة ، وبالخصوص السفرجل الغليظ كالقرع والعنب والتين . وكان الأعراب يتعاطون زراعة الحنطة والشعير وتربية المواشي والنحل . ومن سوء الحظّ فإن ابن حوقل الذي كان الإدريسي يعتمد عليه كثيراً قد قدّم المعلومات السالفة الذكر[206] حول مدينة برشك (جونوجو في العصور القديمة)[207] الواقعة غربي شرشال . وحسب ابن حوقل كان سور برشك متهدّماً . أمّا الإدريسي فقد أكّد أنها « مدينة صغيرة على تلّ ، وعليها سور تراب ، وهي على ضفّة البحر ، وشرب أهلها من عيون ، وماؤها عذب وبها فواكه وحنطة كثيرة وشعير » .

والجدير بالملاحظة أنّ غرب ولاية الجزائر (فيما وراء شرشال ومليانة شمالاً ويغاري والشلف جنوباً) لم يكن تابعاً لمملكة بني حمّاد ، بحيث لا يمكن تناوله بالدرس ، ولو بصورة مقتضبة .

= البطال وهو خارج في البحر إثنا عشر ميلاً ، ويقابل هذا الطرف جزيرة صغيرة في البحر . ومن طرف البطال ابتداء جون هور ، وهذا الجون يقطع روسية بأربعين ميلاً وتقويره بستين ميلاً ، وهو قرية صغيرة في وسط الجون على بعد من البحر ، وبها قوم صيّادون للحوت ومكانه أقصار لا يسقط فيه أحد ويتخلص منه البتّة » .

204) البكري والإدريسي ، انظر التعليق السابق . هل يمكن أن يكون طرف البطال مطابقاً لرأس شنوة الحالي الواقع غربي الجبل الذي يحمل نفس الاسم ؟ أفلا يتعلق الأمر بتيبازة ؟

205) ابن حوقل ، 77/1 ، البكري ، 81-82 ، الإدريسي ، 89 .

206) ورد في أحد مخطوطات . المسالك والمهالك لابن حوقل ، شرطقل عوض برشك ، ممّا يفسّر الالتباس الملاحظ في هذا الشأن .

207) ابن حوقل ، 77/1 ، الإدريسي ، 88 .

208) تجدر الإشارة إلى الأهمّية التي تكتسبها مدينة تنس باعتبارها قاعد بحرية أندلسية ، انظر شارل كورتوا ، مجلة جورج مارسي ، 55/2 .

الباب الثامن
النّظام السّياسي والإداري

الفصل الأوّل
الأميـر

لقد تلقّب بنو زيري وبنو حمّاد بلقب الأمير ، وخلال السنوات القليلة التي دخل فيها المعزّ بن باديس في طاعة الخليفة العباسي ، يبدو أنه وُصِف مراراً كثيرة بالوالي[1] . ورغم أنّ عامل إفريقيّة ونائب الأمير في نفس الوقت كان يظهر بصورة تزيد أو تنقص في مظهر الممثل الشخصي للخليفة خلال مدّة ولاية أمراء بني زيري الثلاثة الأوائل ، فإنّ الأمير كان مستقلاً عملياً ، فهو المتحكّم في شؤون الدولة والماسك بزمام السلطة المدنية والعسكرية والمالية والقضائية .

وقد كان أمراء بني زيري يتلقبون بالألقاب الفخرية التي أضفاها عليهم الخليفة ، وكـان المؤرّخون الرسـميّون يسمّونهم بها في أغلب الأحيان ، مثل ناصر الدولة بـالنسبة إلى بـاديس ، وشرف الدولة بالنسبة إلى المعزّ بن باديس ، وتاج الخلافة بالنسبة إلى الحسن . ولمّا دخل المعزّ في طاعة العباسيّين ، أضفى الخليفة الفاطمي عمداً لا محالة نفس اللقب الفخري ، الذي كان يتلقّب به نائبه السابق في إفريقية ، أي شرف الدولة ، على القائد بن حمّاد الذي كان قد رجع إلى الحظيرة الفاطميّة .

ورغم ادّعاء الأمراء الصنهاجيّين أنهم ينحدرون من أصل حميري ، فإنهم لم يتجاسروا سواء في القيروان أو في القلعة وسواء في بجاية أو في المهدية ، على إعلان استقلالهم التامّ أو من باب أولى

1) في عقد نكاح مؤرخ في رجب وأوّل رمضان 446 هـ .

وأحرى الطمع في الخلافة[2] . ذلك أنّ هؤلاء البربر كانوا يتّسمون بشيء من الاتّزان رغم عجزهم عن الصمود أمام المشروع الطموح المستجيب إلى أبعد حدّ لطموحات أهل السنة في إفريقية ، الراغبين في التحرّر من التبعيّة الشيعية ، وذلك حينما كانوا في ذروة قوّتهم ، وهي غلطة قد دفعوا ثمنها غالياً ، ومبادرة لم يكونوا ـ والحقّ يقال ـ مسؤولين عنها تماماً .

وكان اسم الخليفة الفاطمي مرسوماً على الأعلام والرايات والبنود وطرز الملابس الرسمية . ولا يبدو أنّ الأعلام والخلع كانت تُصنَع في إفريقية ذاتها ، بل كانت تُقدَّم بعنوان هدايا من قِبَل الخليفة[3] . وكانت البنود والطبول تمثّل أهمّ علامات السيادة . ونحن نجهل لون الأعلام الصنهاجية[4] . ولعلّها كانت بيضاء مثل خلع الخلفاء الفاطميّين وأتباعهم . وقد رأينا أنّ ملابس كبار رجال الدولة قد صبغت باللّون الأسود إثر القطيعة مع القاهرة ، وأنّ المعزّ بن باديس قد تلقّى من خليفة بغداد بنوداً سوداء[5] ، ومن المحتمل أن يكون أمراء بني زيري قد أحبّوا اللّون الأرجواني على غرار الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي[6] فهل استعملوا اللّون الأحمر للإعراب عن غضبهم ؟[7] ومهما يكن من أمر ، فقد رُوِي أن باديس تعمّم بعمامة حمراء في سنة 405 هـ/ 1014-1015 م خلال إحدى المعارك[8] . ويبدو أن الأمير قد كان له عَلَم خاصّ ربّما كان اسمه اللّواء[9] .

كما كان بنو زيري وبنو حمّاد يضعون على رؤوسهم التاج المحبّب إلى الفاطميين . وهو عبارة عن عمامة ملفوفة حول شاشية ، تبدو وكأنها مجرّد عمامة غليظة أكثر من كونها تاجاً .

ولعلّ تأثير الأميرات الصنهاجيّات ودورهنّ في البلاط قد كانا على غاية من الأهمّيّة ، وكذلك

---

2) لاحظ ابن أبي دينار (المؤنس، 71، 93) «إن بني حفص لم يبلغوا ما بلغ بنو زيري ، وإن كان ذكرهم عند الناس أكثر إلا النادر منهم ، وكون بني حفص خطب لهم بأمير المؤمنين ولم يخطب لبني مناد بأمير المؤمنين ، وكانوا كلهم أهل نجدة وشجاعة وإحسان ومعروف» .

3) معالم الإيمان ، 207/3 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 ، 39-40 . وحول المظلة الفاطمية ، انظر ، إسبانيا الإسلامية ، 13-14 وبالخصوص كنار Canard ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 381 ، الهامش 62 .

4) حول الأعلام الفاطمية ، انظر ، كنار ، المرجع السابق ، 372 ، 383-384 ، والمعزّ ، ص 184 : كانت أعلام الأمان بيضاء ، والأعلام الفاطمية الأخرى خضراء أو بيضاء .

6) الشماخي ، 351-352 .

7) نفس المصدر ، 348 .

8) معركة شلف ، البيان ، 264/1 :

تجلو عمامته الحمراء غرّته ... كأنه قمر في حمرة الشفق

9) ابن حمديس ، الديوان ، عدد 36 ص . 49-53 ، والمعزّ ، ص 184 .

الشأن بالنسبة إلى بلاط أمراء بني زيري في غرناطة[10] .

والجدير بالملاحظة من ناحية أخرى أنه كلّما توفّي أمير من أمراء بني زيري أو بني حمّاد ،خلفه بدون صعوبة وليّ العهد المعيّن من قبل ، حسب تقدّمه في السنّ . وباستثناء بعض الحالات النادرة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى حمّاد الذي استفاد من بعض الأوضاع الجغرافية ، فإنّ محاولات اغتصاب العرش من قِبَل أعمام الأمير في أغلب الأحيان ، كانت تبوء دائماً بالفشل . وكان إخلاص العبيد يساهم بقسط وافر في ارتقاء الخليفة الشرعي إلى العرش .

وحالما يُعلَن عن وفاة الجالس على العرش ، ينادى بوليّ عهده خليفةً له . وإثر موكب الدفن ، تجري عملية البيعة ثم يُنظّم استعراض عسكري ، يتمّ أثناءه تقديم الجنود إلى الأمير الجديد . وعلى وجه العموم يبقى كبار رجال الدولة ، وعلى رأسهم الوزير الأكبر ، في مناصبهم ، ولو بصورة وقتيّة . وقد رأينا باديساً يقوم بجولة تفقّدية في بعض أنحاء مملكته إثر ارتقائه إلى العرش[11] . ثم يعلم الأمير الصنهاجي الجديد الخليفة الفاطمي بتولّيه الإمارة ، فيوجّه إليه الخليفة بواسطة سفير سجلّ التقليد وبعض الهدايا ، ولا سيما البنود . وفي مرّة من المرّات على الأقل وجّه إلى الأمير الصنهاجي طابعاً . ويُقْرَأ السجلّ بمحضر الأمير الجديد في قصره ثم في جامع القيروان وجامع صبرة المنصورية ، وتُوجّه نُسَخٌ منه إلى مختلف الأقاليم . وإذا توفّي الخليفة في الأثناء ، يحرص من يرتقي بعده إلى العرش على تثبيت الأمير الصنهاجي في منصبه .

وقد تلقّى مرّة واحدة على الأقلّ مبعوث الخليفة البيعة نيابةً عن مخدومه . إذ أخبرتنا بعض المصادر أنّ القاضي الباهري ، مبعوث الخليفة الفاطمي الجديد « قد أخذ العهد على باديس وجماعة بني مناد للحاكم . ثم دعا وجوه الصنهاجيّين وأخذ عنهم البيعة »[12] . والغالب على الظنّ أنّ البيعة الموالية لتولية خليفة جديد ، كانت تقع عادة عند وصول سجلّ التقليد وبمحضر الداعي الفاطمي ، فهي تمثّل من ناحية ثانية دخول الأمير الصنهاجي الجديد في طاعة الإمام الإسماعيلي ، دون قيد ولا شرط . وقد رأينا المنصور يرفض تقديم البيعة إلى عامل القيروان الذي كان الخليفة قد عيّنه داعياً في إفريقية . وكلّ شيء يدعو إلى الاعتقاد أنّ الخليفة الفاطمي لم يجدّد فيها بعد مثل هذه المحاولة الفاشلة .

---

10) انظر ، كنار ، المرجع المذكور ، ص 58 ، **إسبانيا الإسلامية** ، 3/13-14 ، في معركة سبيبة سلّم الناصر إلى أخيه الذي كان يرمي إلى إنقاذ حياة الأمير ، تاجه ولواءه .

11) **المؤنس** ، 78 .

12) **البيان** ، 249 .

وفي الجملة فقد بقيت هذه الطقوس على حالها في عهد أمراء بني زيري الأوائل ، ثم تغيّرت جزئياً إثر تولية يحيى[13] « الذي ركب على العادة بأكابر الدولة وغيّر لباس الحزن وفرّق الأموال على الأجناد والعبيد »[14] . ولكننا لا نعلم أيّ شيء عمّا جرى عند تولية أمراء بني زيري الأخيرين في المهدية وأمراء بني حمّاد في بجاية .

وبمناسبة الاحتفال بالعيدَيْن [عيد الفطر وعيد الأضحى] ، كان الأمير هو الذي يصلّي بالناس صلاة العيد . من ذلك أن المنصور قد خرج من رقّاده يوم العيد (أول شوّال 374 هـ/ 25 فيفري 985 م) ، « فصلّى بالمصلّى وخطب القاضي ابن الكومي »[15] .

وفي الجامع كان أمراء بني زيري وبني حمّاد ، مثل أسلافهم الأغالبة والفاطميّين ، مفصولين عن بقيّة المصلّين في مقصورة . ونحن نعرف مقصورة المعزّ بن باديس التي يستطيع الزائر مشاهدتها إلى يومنا هذا في جامع القيروان[16] .

هذا وإنّنا لا نعلم بالضبط أين دفن بلكين والمنصور ، ولكن يبدو أنّ باديساً قد دفن بالمهدية ، وكذلك المعزّ وتميم بلا شكّ . ومن المحتمل أن تكون رفاتهم قد نُقِلت فيما بعد إلى المنستير ، وقد تعوّد أهل المهديّة نقل موتاهم إليها بالسفن[17] .

وكان قصر السيّدة ـ المنسوب حسب الاحتمال إلى أمّ ملال[18] ـ يضمّ قبور آخر أمراء بني زيري الذين كانوا يُدفَنون إثر وفاتهم في قصرهم ثم يُنقَلون فيما بعد إلى قصر السيّدة . وقد أشارت المصادر بصريح العبارة إلى هذه العادة ، عندما تحدثت عن وفاة يحيى وعلي . وكان بنو خراسان أصحاب مدينة تونس يصنعون لقبورهم شواهد مزدوجة[20] .

وكان بنو زيري مولعين بالاستعراضات الفخمة التي كثيراً ما كانت تشارك فيها الحيوانات النادرة (مثل الزرافات والفيلة والأسود والجمال الأصيلة)[21] . كما كانوا يستمتعون بعروض

---

13) الباب السادس ، الفصل الأول .
14) المؤنس ، 88 .
15) البيان ، 240/1 .
16) ابن خلدون ، المقدمة ، 72/2 .
17) الإدريسي ، 108-109 .
18) الباب الثالث الفصل الأول .
19) المؤنس ، 93 ، ابن خلكان ، 241/2-242 ، جورج مارسي ، الفنّ المعماري ، 77 .
20) سليمان مصطفى زبيس ، نقائش ، 29/1 ، 63-64 .
21) البيان ، 249/1 ، وقد وصف الشاعر عبد الكريم النهشلي (ت . 405 هـ/1014 م) الفيل الذي أهدي إلى باديس .

ومصارعات الحيوانات الضارية . وكان المعزّ بن باديس يملك معرضاً للوحوش .

ويمكن أن نؤكد أنّ هؤلاء الأمراء كانوا مولعين أيضاً بالصيد . وكانوا يحبّون الاصطياف في المساكن الريفية بضواحي القيروان (مثل سردانية وجلولة) ، حيث كانت لهم أجنحة مخصصة للصيد ، وقد جاء في كتاب ابن عذاري أن باديساً « قد ركب ليلة وفاته ولعب العساكر بين يديه ، فكلّما هزّ رمحاً كسّره وأخذ غيره »[22] . وأخبرنا مصدر آخر أنّ الحسن آخر أمراء بني زيري قد رمى سهاماً في ميدان سباق الخيل بالمهديّة[23] .

وقد بنى الأمراء الصنهاجيّون عدّة قصور . كما تفنّن الشعراء والمؤرخون الرسميّون في وصف عظمة بلاط بني زيري الذي بلغ ذروته في عهد المعزّ بن باديس ، وكلّ شيء يدلّ ، لا سيما ازدهار إفريقية قبل غزوة بني هلال ، على أنّ ذلك الوصف كان مطابقاً للواقع .

وليست لدينا معلومات مفصّلة حول ملاهيهم ومجالسهم الخاصّة[24] التي لا شكّ أنها كانت تشتمل على شرب الخمر والطرب والغناء والرقص ، بمشاركة الجاريات الغواني .

وسنرى في الفصول الموالية ما بلغته الآداب والفنون من تألّق ، بفضل بعض الأمراء الأسخياء المناصرين للآداب ، الذين عرفوا كيف يواصلون عن جدارة العمل الذي بدأه الأغالبة قبلهم . وقد كان بنو زيري بن مناد ذوي شخصيّة فذّة لا يقومون بدور أمراء من درجة ثانية ، ولم يكن من أقلّ مزاياهم عدم انغماسهم في الملذات ، فقد ظلّوا إلى آخر عهدهم يتمتّعون بشخصية قوية ، بل كانوا أشدّاء لا يتأثّرون بالبذخ الذي اعتبروه من ضروريّات العظمة ، أكثر مما اعتبروه مصدراً للمتعة الدنيئة .

وكثيراً ما كانوا يشرفون بأنفسهم على سير العمليّات الحربيّة ويضطلعون بمهمّة تسيير شؤون الدولة ، كلما سمحت لهم الظروف بذلك . على أنّ ميلهم إلى إشباع شهواتهم لم يكن من باب الفساد ، بل كان ناشئاً عن قوّة شكيمتهم وحاجتهم إلى الراحة المسموح بها للمقاتلين .

---

22) البيان ، 266/1 .

23) المقري ، طبعة القاهرة ، 1949 م ، 299/4 (قصيدة للشاعر أبي الصلت ، ت . 529 هـ/1134-1135 م) . ولنفس الشاعر قصيدة أخرى يصف فيها غلاماً يرمي بالنشاب ويلعب في الميدان بالصولجان ، الخريدة ، مخطوطة باريس 106/330 [طبعة تونس ، النشرة الثالثة ، 1985 م ، 253/1] .

24) حول مجلس لهو في قصر بلقين بن محمد بن حمّاد ، انظر ، الذخيرة لابن بسام ، 189/1 . وفي ديوان ابن حمديس عدد 110 ص 153-156 قصيدة خمرية نظمها وهو يبلغ من العمر 60 سنة أي حوالي سنة 507 هـ/1113-1114 م ، إذا كان صحيحاً أنه توفي في سنة 527 هـ وقد بلغ من العمر 80 سنة . وفي هذه القصيدة وصف لمجلس لهو في قصر يحيى ، فقد وصف الشاعر القيان والمغنيات والراقصات وآلات الطرب : العود والمزمر والطار . انظر أيضاً الشماخي ، 517 .

الفصل الثاني
نوّاب الأمير والوزراء

لقد أسلفنا أن أمراء بني زيري الثلاثة الأوائل المشغولي البال أوّلاً وبالذّات بشؤون المغرب ، قد عهدوا بحكم إفريقية إلى نوّاب كانوا يحملون لقب عامل إفريقية ، وكان هؤلاء العـمّال من العرب لا من الصنهاجيّين . والغالب على الظنّ أنّ تسميتهم كان تُعرّض على الخليفة الفاطمي بالقاهرة للمصادقة عليها ، بل يبدو أنهم كانوا في أغلب الأحيان يحظون بثقته . ذلك أنّ الفراغ الذي تركه في إفريقية رحيل الكتاميّين والفاطميّين إلى المشرق لم يملأه الصنهاجيون الذين كانوا دوماً وأبداً في حالة قتال في الغرب ، رغم أن ارتقاء أسرة بربرية إلى الحكم قد انجرّ عنه بشكل متناقض تعزيز نفوذ الطبقة الأرستقراطية والبرجوازية العربية التي كانت تمثّل أكبر سند بالنسبة إلى عـمّال إفريقية ، إلى جانب الجند العربي الذي كان قد أخضعه الأغالبة في سالف الزمان ، وإن لم نكن مخطئين ، فإن لقب الكاتب[1] الّذي كان يطلق على العامل ، كان يعني الوزير الأكبر . ولكن ليس من المستبعد أن يكون أولئك العمال معيّنين من بين كتّاب ديوان الإنشاء أو أحفادهم . ومن جهة أخرى نشير إلى إلغاء وظيفة الحاجب الفاطمية بصورة تكاد تكون ثابتة[2] . وفي عهد أمراء بني زيري الأوائل ولا سيما باديس ، كان ممثل الأمير الصنهاجي في إفريقية يسمّى نائب الأمير .

ولعلّ دار الإمارة بالمنصورية التي هدّمها أهل السنة سنة 407 هـ/ 1016 م كانت مقرّ الإدارة المركزية ، أي مكاتب عامل إفريقية . وقد أكّدت إحدى الروايات[3] وجود الأمير تميم وحاشيته في دار الإمارة . كما أشارت إلى بيت المال وغرفة أخرى تقوم مقام المكتبة .

ولما ارتقى بلكين إلى العرش ، أبقى كاتب أبيه في منصبه ، وهو عبد الله بن محمد الكاتب

---

1) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 53/2] .

2) البيان ، 208/1-221 ، ابن حمّاد ، 32 ، 37 ، 43 : جعفر بن علي حاجب عبيد الله ثم القائم والمنصور ، وحول تعيين عبيد الله لأربعة حجّاب وكاتب واحد (أبو الفضل جعفر بن علي) ، انظر البيان ، 159/1 . وقد حمل جوهر الكاتب ، وزير المعزّ لدين الله ، لقب الوزير ابتداء من سنة 347 هـ ، المعزّ ، ص 146 . وفي العهد الأغلبي كان يطلق على الوزير الأكبر اسم البديل ، البساط ، 27-28 .

3) لا شك أن دار الإمارة تعني هنا القصر الذي كان يقيم به تميم في المهدية .

الذي كانت صلاحياته مطابقة لصلاحيات كاتب دولة في العصر الحاضر ، بل حتى وزير أكبر . ويبدو أن الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي ، من خلال تعيينه لجابي الضرائب وصاحب الخراج ، قد أراد فصل إدارة المالية عن إدارة الشؤون السياسية التي كان يتولّاها بلا شكّ عامل القيروان وصبرة ـ المنصورية . ولما توفّي العامل طلب جابي الضرائب إلى بلكين تعويض المتوفّى . فعيّن الأمير عبد الله بن محمد الكاتب الذي قبل ذلك المنصب على مضض منه . ويبدو أن المنافسة بين الجابي زيادة الله بن القديم وبين عامل القيروان ، كانت تنمّ عنْ رغبة العامل في وضع يده على إدارة شؤون البلاد بتمامها وكمالها ، سواء منها السياسية أو المالية . وبعدما تخلص من منافسه واستحوذ على مهامّه أصبح بحقّ « عامل إفريقية والقيروان » وبعبارة أبسط « صاحب القيروان »[4] . ويدلّ هذا اللّقب الجديد على ما صار يتمتع به العامل من سلطة مطلقة . وقد طبّق سياسة جبائية لا شعبية اعتبرها الخليفة ذاته مشطّة ، رغم أنه كان أهمّ مستفيد منها ، إن لم يكن المستفيد الأوحد .

وقد اتّخذ عبد الله بن محمد الكاتب لنفسه حرساً خاصّاً من العبيد ، وجمع لهذا الغرض أموالاً طائلة من كبار الموظفين وبنى عدة قصور ، وكان له شعراؤه[5] . وعند إقامته في المهديّة مرّة في السنة ، كان يترك نائبين اثنين ، أحدهما في المنصورية ، والآخر في القيروان[6] .

وقد أقرّه المنصور في منصبه وتلقّى منه هدايا ثمينة . كما صاحب العامل الأمير مرّتين متتاليتين في حملته العسكرية بالمغرب الأوسط ، حيث تولّى قيادة الجيش ، وكلّف بنيابته في القيروان ابنه يوسف الذي بنى قصر المنصور في صبرة المنصورية وأنفق عليه أموالاً طائلة .

ولكنّ ثروة نائب إفريقية الطائلة وسلطته المطلقة في إفريقية ، وصرامة نظامه الجبائي المجحف ، ودعوته الشيعيّة المتشدّدة ، واتّصالاته التي تقارب الخيانة مع الفاطميّين ، كلّ ذلك قد تسبّب في هلاك ذلك الرجل الذي كان يُعرَف باسم « المختال » ، فلمّا عهد إليه الخليفة بمهمة « الدعوة » بعد مدة قليلة من رجوعه إلى القيروان سنة 377 هـ/ 987-988 م ، قتله المنصور .

وخلفه يوسف بن أبي محمد على رأس أعمال القيروان ، وتلقى شارات السيادة ، الطبول والبنود ، وانتصب في دار القائد جوهر ، وقد أصبح ذلك القصر التابع للقائد الفاطمي الذائع

---

4) صاحب القيروان : معالم التوحيد ، 112/3 (ترجمة ابن التبّان ، ت . 371 هـ/981-982 م)، و174/3 (ترجمة القابسي . ت . 403 هـ/1012 م) .

5) نعرف كثيراً من الشعراء الذين مدحوه منهم : أبو الحسن الكاتب (ت . 408 هـ/1017-1018 م والحسن بن محمد التميمي النحوي اللغوي النسّابة الإفريقي وبكر بن علي الصابوني (ت. 409 هـ/1018-1019 م) .

6) الباب الأول ، الفصل الثاني .

الصيت مقرّ إقامة نواب أمير إفريقية . ولعلّه كان يقع داخل المدينة الأميرية ، صبرة المنصورية . إلّا أنّ ذلك الشخص المنغمس في الملذّات والمعروف باسم « شيخ الورد » ، قد فوّض سلطاته إلى المدعوّ ابن البوني الذي كان يطوف كلّ سنة في البوادي والأرياف لجمع الجباية واستلام الهدايا . وفي سنة 382 هـ/ 992-993 م وضع المنصور حدّاً لابتزازات هذين الشريكين المتواطئين .

وبعدما قتل المنصور ابن البوني ـ وقد حاول قبل ذلك أن يأخذ منه مالاً كثيراً ـ عزل شيخ الورد وعهد « بإمارة » إفريقية إلى محمد بن أبي العرب الكاتب . وقد بقي العامل الجديد الذي أقرّه باديس في منصبه ، على رأس إفريقية حتى وفاته في سنة 396 هـ/ 1005 م ، وكان قد كُلِّف سنة 389 هـ/ 999 م بتنظيم جيش عظيم وقيادته ، فخلفه ابنه أبو القاسم . ولا ندري هل استعاد منصبه بعدما حاول في سنة 399 هـ/ 1008-1009 م شقّ عصا الطاعة في وجه الأمير الذي عفا عنه فيما بعد . ومهما يكن من أمر فقد أخبرتنا المصادر أن باديساً قد أعفى يوسف بن أبي الحبوس من قيادة الجيش وغيرها من المهام الأخرى ، وذلك في سنة 403 هـ/ 1012-1013 م . ولعلّ الأمر يتعلق بخليفة أبي القاسم ، ولكننا لا نستطيع تأكيد هذا الافتراض ، رغم أن نائب الأمير سيتولى بعد ذلك قيادة الجيش . وإن كان الأمر يتعلق بأخي حمّاد الذي قد يكون تقلّد بالفعل خطّة نائب الأمر ، فإننا نستطيع أن نؤكّد أن تلك الخطة قد عُهِد بها إلى أحد أعمام الأمير . وإثر ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش ، كلّف عامل طرابلس أبا محمد بن الحسن الذي كان قد استدعاه إلى بلاطه ، « بالنظر في العساكر » والإشراف على شؤون إفريقية بأسرها ، بما في ذلك الأقاليم الجنوبية . وقد وضع هذا الشخص يده على أموال الدولة ، وأصبح بفضل ثروته وأنصاره العديدين ، الحاكم بأمره في البلاد . فبالإضافة إلى العلاقات الدبلوماسية الرسمية ، أقام علاقات خاصة مع الخلافة الفاطمية في مصر ، فكان يوجه الهدايا إلى كبار رجال الدولة المصرية ، وتلقّى ذات مرّة سجلاً من الخليفة لا نعرف محتواه . فلعل الخليفة قد عهد إليه بمهمة الدعوة في إفريقية ؟ أضف إلى ذلك أن أخاه عامل طرابلس كان متواطئاً مع الزناتيّين المتمرّدين . وفي سنة 413 هـ/ 1022 م أمر المعزّ بقتل وزيره القويّ النفوذ وعوّضه على رأس إفريقية بأبي القاسم بن أبي عبّود (المعروف بأبي عبد الله) محمد بن أبي العرب الكاتب[7] ، وقد قلّده سيفه الخاص وسلّم إليه الطبول والبنود . والجدير بالملاحظة أن اللوحة المنقوشة في مدخل مقصورة القيروان[8] قد أطلقت عليه لقب « زمام

---

7) النويري ، 138/2 .

8) إدريس ، مجلة أرابيكا ، 1956 م ، 214-215 .

الدولة » . ولكنّه عُوِّض في السنة الموالية ، 414 هـ/ 1023-1024 م بأبي البهار بن خلوف الذي كُلِّف « بجباية الأموال وولاية العمّال والنظر في العساكر وسائر الأشغال »[9] ، وقد قام بهذه المهمّة على أحسن ما يُرَام . على أنّ ما قام به هذا الشخص من دور في قمع الاضطرابات التي اندلعت في سنة 407 هـ/ 1016 م وما حظي به من ثقة من لدن الأمير ، يسمحان لنا بالاعتقاد أنه كان مخلصاً لمخدومه .

وقد تمكّن محمد بن محمود السكّاك وكيل أمّ الأمير ، بفضل ما كان يحظى به من رعاية لديها ، من تسيير شؤون الدولة ، بصورة خفيّة لا محالة ، إلى أن فقد حظوته في سنة 433 هـ/ 1041-1042 م .

ومن المحتمل أن يكون « مملوك المعزّ ، أمين الدولة وصافي الخاصّة أحمد بن زهير الكاتب » ، المذكور في نقيشة قيروانية مؤرخة في سنة 437 هـ/ 1045-1046 م ، وزيراً آخر من وزراء المعزّ بن باديس . إذ أن اللقب الفخري الذي أطلق عليه وتسميته بالكاتب لا يتركان أي مجال للشكّ في هذا الشأن[9] . وممّا لا شكّ فيه أيضاً أن عبد الله (بن؟)[10] جبارة كان هو أيضاً وزيراً[11] .

ويبدو أنّ « القائد » عبّاد بن مروان الملقّب بسيف الملك والمنتمي إلى الخاصّة ، قد كان هو الآخر وزيراً من وزراء المعزّ . فقد أخبرنا ابن عذاري أنه « نُكِبَ في سنة 441 هـ/ (1049-1050 م) ، ودُفِع إلى أعدائه وأُمِرَ باستخراج أمواله ، والقبض على جميع من استعمله في أعماله »[12] .

فيمكننا التأكيد حينئذ أنّ إفريقية كان يحكمها في عهد بني زيري حتى بداية غزوة بني هلال ، شبه نائب ملك ، ماسك بزمام السلطات المدنية والعسكرية بتفويض من الأمير . وأن منح الألقاب الفخرية لعامل إفريقية لم تكن تعني بالتأكيد توسيع نطاق سلطاته ، بل بالعكس من ذلك ، فإن ذلك الحاكم المطلق النفوذ قد تحوّل إلى وزير أكبر إثر استقرار الأمر في القيروان .

واعتباراً من تميم بن المعزّ ، وهو أوّل من استقرّ في المهدية من أمراء بني زيري ، يبدو أن

---

9) **البيان** ، 272/1 .

10) **نقائش عربية** ، 42/1 ص 87-90 ، إدريس ، مجلة أرابيكا ، 1956 م ، 214 . انظر أيضاً ، **نقائش عربية** ، 21/1 ، الهامش 16 .

11) وقد وُصِف « بالكاتب عند سيّدنا » . **نقائش عربية** ، 474/2 واعتماداً على بحث لحسن حسني عبد الوهاب أكّد مؤلفو **نقائش عربية** ، 623/2 والهامش 9 « أنّ معد ابن جبارة كاتب المعزّ قد أشار إليه ابن رشيق » .

12) **البيان** ، 279/1 .

الوزير الأكبر الملقّب « بمتولّي أمور الدولة »[13] ، قد أصبح يقوم بدور ثانوي . وقد أفلتت منه تماماً ـ حسبما يبدو ـ السلطة المالية التي عهد بها الأمير إلى جرجي الأنطاكي . والوزير الوحيد الذي نعرف اسمه ، بالنسبة إلى تلك الفترة ، هو المدعوّ عبد الله بن منكوت الذي اعتُبِر مسؤولاً عن نزول النصارى بالمهدية في سنة 480 هـ/ 1084 م ، بسبب « مخالفته لقائد الأسطول في الخروج إليهم للقائهـم في الماء ومنعهم من النزول في البرّ »[13م] . ونستخلص من ذلك أن الوزير كان يتمتع بصلاحيات عسكرية في ذلك التاريخ .

كما أن محاولة اغتيال يحيى بن تميم التي جرت في سنة 409 هـ/ 1115-1116 م ، وهي آخر سنة من مدة ولاية هذا الأمـير ، قد أودت بحيـاة وزيره الشريف أبي الحسن بن أحمـد الفهري الصقلي . ونحن لا نعرف أي شيء عن هذا الوزير سوى أنه من أصلي صقلّي[14] . وممّا تجـدر ملاحظته في هذا الصدد ، استعمال لفظة الوزير للمرّة الأولى للإشارة إلى هذا الموظف السامي الذي لا شكّ أن سلطته كانت محدودة جدّاً ، إذ تؤكد المصادر أن يحيى كان يدير شؤون الدولة بنفسه .

وما عدا ذلك ، فإننا لا نعرف اسم أيّ وزير في عهد علي بن يحيى . ولمّا ارتقى إلى العرش الحسن الذي كان صغير السنّ ، انتقلت الوصاية من أحد الموالي الذي لا شكّ أنه كان ضابطاً عسكريّاً ، إلى قائد من قوّاد الجيش . ولكنّ جميع هؤلاء الأشخاص ربما كـانوا من كبـار خدم القصر ، شبه المغتصبين للسلطة أكثر مما كانوا وزراء . كما أنّنا لا نعرف أيّ شيء عن طريقة تسيير شؤون الدولة في ذلك العهد ، لا سيما بعد بلوغ الأمير سنّ الرّشد .

أمّا دواليب الحكم في مملكة بني حمّاد فقد كانت غامضة للغاية ، وقد سبق أن ذكرنا أنّ حماداً قد عهد في سنة 389 هـ/ 998-999 م بالشؤون الصنهاجية إلى غلامه خلف الحميري الذي كان قد أهان تلكاته ثم أصبح والياً على أشير في سنة 406 هـ/ 1015-1016 م .

ومن سوء الحظّ ، لا نستطيع المزيد من التوضيح بالنسبة إلى الفترات الموالية . وكلّ ما نعرفه أن الوزارة قد انتقلت إلى أسرة بني حمدون . كما نعرف اسم وزيرين متتاليَيْن من وزراء الناصر .

وقد عيّن الخليفة الموحّدي عبد المؤمن بن علي ابنه والياً على إفريقية ، ولكنّه عهد بالسلطة المدنية والمالية على وجه الخصوص إلى شخص آخر .

---

13) البيان ، 301/1 : متولّي أمور الدولة ، التجاني ، 238 : متولّي تدبير البلد ، وفي نسخة أخرى : متولّي البلد ومدبّره .

13 م) البيان ، 301/1 .

14) لدينا قبريّة ابنته عائشة المدفونة بالمنستير ، زبيس ، 76/2 .

الفصل الثالث
ولاة الأقاليم

لقد كان على رأس كلّ مدينة بل حتى كلّ بلدة مهما كانت أهمّيتها وَالٍ أو عامل . ونحن نجهل صلاحيات هؤلاء الممثلين للأمير في إفريقية . ويبدو أن كلمة عامل مرادفة لكلمة والٍ .

إلاّ أن بعض الأقاليم كانت خارجة بصورة تزيد أو تنقص عن السلطة المركزية . إذ تحدّث الدّاودي (ت. 402 هـ/ 1011 م) عن بعض المناطق التي لم يكن فيها لا قاضٍ ولا سلطان . كما سلّم أبو عمران الفاسي (ت . 430 هـ/ 1038-1039 م) بصحّة الأحكام العادلة (أحكام الجماعة) التي يصدرها مجلس الأعيان أو « عمّال المنازل » في المناطق التي لا تخضع للسلطة[1] .

ويبدو أن منصوراً بن رشيق الذي كان عاملاً على القيروان عند وفاة باديس قد قُتِل أثناء المعارك التي جرت في سنة 407 هـ/ 1016 م . وإن لم نخطىء ، فإنّ عامل القيروان ، على الأقلّ اعتباراً من ذلك التاريخ ، كان يختلف عن نائب الأمير في إفريقية ، ويبدو أنه كان تابعاً لهذا النائب الذي كان معروفاً في أغلب الأحيان باسم « صاحب القيروان » ، وهي عبارة ينبغي فهمها بمعناها الأوسع . ومن الصعب تحديد مهامّ أبي البهار بن خلوف الذي قام بدور كبير أثناء اضطرابات سنة 407 هـ . وقد رأينا أن عامل القيروان الذي عيّنه وزير المعزّ محمّد بن الحسن ، وهو المدعوّ محمد بن لصوية (؟) ، قد قتل الفقيه أبا علي بن خلدون ، « وكان على رأس قوم من المشارقة (أي الشيعة) والشُرَط »[2] .

ولا ندري هل كان العمّال معيّنين من قِبَل نائب الأمير ، بعد الحصول على موافقة هذا الأخير ، أو معيّنين رأساً من قِبَل الأمير ذاته . ففي سنة 389 هـ/ 999 م عهد باديس إلى أمير زناتي بولاية طبنة وسلّم إليه سجّلاً لهذا الغرض . إلاّ أن ابن الأثير لم يستعمل كلمة « ولاية » ، بل كلمة « إقطاع » . وإثر ارتقاء المنصور إلى العرش ، تولّى تعيين « العمّال والأمراء » . فهل نستخلص من هذه الإشارة الغامضة ـ والحقّ يقال ـ وجود موظّف مدني في بعض المدن ، وهو العامل المكلف

1) المعيار ، 76/10 .
2) معالم الإيمان ، 192/3 .

بالشؤون الإدارية ومنها الشؤون المالية ، إلى جانب الأمير ، وهو القائد العسكري والسياسي ؟ ألم يكن هذا الأمير هو الذي أطلق عليه القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) في إحدى فتاواه اسم « الوالي ومتولّي أمر البلد »؟[3] .

كما تحدّثت بعض المصادر عن وجود عامل في كلّ من زويلة وطرابلس وطبنة ، في عهد المنصور الذي عيّن مولاه قيصر عاملاً أو والياً على الأربس[4] . وكان أحد الصنهاجيّين عاملاً على أريانة في عصر محرز بن خلف[5] . وقبل أن يُعيّن يوسف بن أبي محمد عاملاً على إفريقية ، كان عاملاً على قفصة ، ويبدو أنه عُيّن والياً على متيجة ، بعد عزله . وكان المدعوّ الحسن بن بلبل ، عاملاً على سوسة[6] ، وأبو الربيع سليمان بن سعيد والياً على القيروان ، وذلك لا محالة بعد غزوة بني هلال[7] .

وعندما غادر المعزّ القيروان متوجّهاً إلى القيروان التي كان ابنه تميم والياً عليها ، عيّن قائد بن ميمون والياً على القيروان وتونس . ولكن يبدو أن هذا التعيين كان استثنائياً ، لأن مدينة تونس كان على رأسها بلا شكّ والٍ خاصّ بها .

وتقلّد ولاية طرابلس التي ألحقت بالدولة الصنهاجيّة في سنة 367 هـ/ 977-978 م ، على التوالي تمصولت بن بكار الذي قام بعدّة تجاوزات وجمع ثروة طائلة ، ثم محمد بن الحسن (في عهد باديس) الذي أصبح وزيراً للمعزّ في سنة 407 هـ/ 1016 م ، فعوّضه بلا شكّ أخوه عبد الله بن الحسن الذي شقّ عصا الطاعة في وجه الأمير إثر مقتل ذلك الوزير سنة 413 هـ/ 1022-1023 م ، وألقي عليه القبض بعد ذلك بقليل ، وأشارت بعض المصادر إلى الدور السياسي الذي كان يقوم به قاضي طرابلس . ففي سنة 429 هـ/ 1037 م تولّى القاضي ابن المنمّر رئاسة المجلس البلدي ، وقبل سنة 444 هـ/ 1052-1053 م ، أشرف قاضٍ آخر على حظوظ المدينة .

وتقلّد ولاية قابس على التوالي : بنو عامر ، ويبدو أنّ آخرهم كان يوسف بن عامر ، ثم

3) المعيار ، 434/9 ، 437-438 . وحول قبريّة شخص يدعى الحسن بن الطاهر بن يزيد الوالي (ت . 401 هـ/1011 م) ، انظر ، نقائش عربية ، 313/1 .

4) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني ، ولاية المنصور .

5) مناقب ، 112 ، 290 . يبدو أن عامل توزر الذي سجن أبا نوح (في عهد المنصور بن بلكين) ، كان صنهاجياً ، الشماخي ، 360 .

6) وقد مدحه الشاعر أبو الفتوح بن محمد السوسي ، الغبريني ، 47/1 والتجاني ، 26 .

7) معالم الإيمان ، 254/3 .

إبراهيم أخو باديس ومنصور بن ماواس . وأشارت بعض المصادر الإباضية إلى محمد بن تموصلت الذي كان يشرف على بلاد زواغة (في المنطقة الساحلية غربي طرابلس)[8] . ولا شكّ أن جبل نفوسة الإباضي كان يتمتع باستقلالية تامة . وفي عهد باديس التجأ المتمرّد الزناتي فلفل بن سعيد إلى أمير نفوسة يحيى بن محمد .

ومما لا شكّ فيه أن سلطة بني زيري على الجنوب والجنوب الغربي كانت ضعيفة . فقد عهد باديس في سنة 400 هـ/ 1009-1110 م بولاية نفزاوة وولاية قسطيلية على التوالي إلى ورّو بن سعيد والنُعَيْم بن كنون ، بشرط أن ينجلي هذان الثائران عن طرابلس وأعمالها . وتسلّم النعيم من الأمير البنود والطبول التي كانت علامة لا لبس فيها من علامات الاستقلالية بل حتى السيادة . وفي السنة الموالية خرج ورّو بن سعيد عن طاعة باديس وتحالف مع نفوسة/ضدّه ، في حين اغتنم النعيم الفرصة وضمّ إليه نفزاوة . إلّا أنّ باديساً لم يعترف بالأمر الواقع ، فعيّن والياً على نفزاوة خزرون بن سعيد الذي توجّه إليها بالبنود والطبول ، وكان قد تحالف مع أخيه ورّو وقدّم شواهد الطاعة إلى الأمير . وتحصل على ولاية قفصة بنو مجلية الذين كانوا قد انضمّوا إلى خزرون بن سعيد . وقد لاحظ ابن خلدون أن جميع « مدن الماء » أصبحت في قبضة زناتة .

أضف إلى ذلك أنّ امتلاك زناتة ، أعداء صنهاجة الألداء ، لكامل منطقة الجريد ، ذلك الامتلاك الذي أقرّه باديس بصورة تزيد أو تنقص ، يدلّ على خروج تلك المنطقة بأسرها عملياً عن سلطة بني زيري الذين أصبحت طموحاتهم في تلك الربوع مقتصرة على الاحتفاظ بمدينة طرابلس المطموع فيها من طرف الزناتيين ، بل حتى الفاطميّين . وفي سنة 403 هـ/ 1012-1013 م ، وصلت إلى باديس من الخليفة الفاطمي « سجلّات بإضافة برقة وأعمالها إليه »[9] .

وفي سنة 378 هـ/ 988-989 م ، منح المنصور لأبي زعبل ، بوصفه عاملاً ونائباً عنه ، كامل بلاد كتامة التي كان قد أخضعها منذ عهد قريب . وكانت سلطة هذا النائب الذي كان بمثابة عامل العمّال ، تمتدّ إلى تيجس وقصر الإفريقي وقسنطينة وميلة وسطيف ، وإلى حدّ ذلك التاريخ كان الكتاميّون الذين يرجع إليهم الفضل في عظمة الدولة الفاطمية ، يتجاهلون سلطة بني زيري ولا يدفعون الضرائب . فوجه إليهم الأمير الصنهاجي الجنود والعمّال الذين جبوا السكّان وضيّقوا عليهم الخناق .

8) الشماخي ، 336-337 . T. Lewicki ، دراسات إباضية ، 1 ، 111 . إن مولى المعزّ بن باديس هذا قد فرض على الشيخ الإباضي أبي الخير توزين مائة دينار .

9) [البيان ، 259/1] .

وعهد أمراء بني زيري الأوائل بطيب خاطر إلى أعمامهم بأهمّ المناصب في المغرب الأوسط . ولا شكّ أنهم قد ندموا على صنيعهم فيما بعد . وتكفي الإشارة في هذا السياق إلى الانشقاق الذي حصل بين بني زيري وبني حمّاد ، لإقامة الدليل على فشل هذه السياسة المخطرة التي كانت مطابقة لا محالة لنظام حكم الشيوخ عند البربر .

ورغم انعدام الوثائق الصريحة ، فإننا نميل إلى الاعتقاد أن عامل المسيلة كان في ذات الوقت عاملاً على الزاب ، كما كان الشأن في عصر جعفر بن علي بن الأندلسي . والغالب على الظنّ أن تلك المنطقة قد انتقلت إلى سلطة حمّاد ، ولعلّها كانت خاضعة له منذ سنة 387 هـ/ 997-998 م ، تاريخ تأكيد تعيينه والياً على أشير . وبعد ذلك التاريخ بقليل ، عُيِّن عمّ آخر من أعمام باديس عاملاً على تاهرت .

وقد كانت تلك المنطقة بأسرها التي كان على رأسها أبو زعبل ـ كما أسلفنا ـ تابعة لحمّاد ، إذ أن باديساً قد أمره في سنة 405 هـ/ 1014-1015 م بإرجاعها إلى خليفة ابنه ووليّ عهده ، الذي ارتدى الخلعة ، كعلامة على تقلّده لوظيفته الجديدة ، وتوجه بالطبول والبنود إلى تلك المنطقة للاستيلاء عليها .

وفي سنة 406 هـ/ 1015-1016 م ، كان خلف الحميري والياً على أشير لحساب حمّاد الذي كان آنذاك مستعصياً على باديس . وفي نفس السنة ولّى باديس على طبنة وأعمالها أحد الزناتيّين الذي كان قد انضمّ إليه . ولمّا ارتقى المعزّ بن باديس إلى العرش ، عهد بولاية « الغرب بأسره » إلى أيّوب بن يطوفت . والواقع أن معظم مناطق المغرب كانت خاضعة لسلطة حمّاد ، منذ وفاة باديس وانسحاب جيش بني زيري . وبعدما هزم المعزّ بن باديس حمّاداً (سنة 408 هـ/ 1017-1018 م) ، عهد بالأقاليم الغربيّة إلى أحد أعمامه ، كرامة بن المنصور ، الذي اختار عمّالها .

وبعدما أبرم المعزّ الصلح مع حمّاد في سنة 408 هـ/ 1018 م أصدر منشوراً يقضي بمنح[10] القائد ابن خصمه السابق : المسيلة وطبنة ومرسى الدجاج وبلاد زواوة ومقرة ودكمة وبلزمة وحمزة ، وسلّم إليه البنود والطبول . وأصبحت مملكة بني زيري مقصورة على إفريقية ، حيث تمّ الاعتراف بحمّاد ملكاً مستقلاً على المسيلة وطبنة والزاب وأشير وتاهرت ، وكل ما يمكن أن يفتحه من بلاد المغرب . وأصبح القائد ، ولو بصورة مضمرة ، وليّ عهد أبيه . ومن المعلوم أن الأمراء

10) حسب الكامل يتعلق الأمر بإقطاع ، وتحدثت المصادر الأخرى عن ولاية .

الصنهاجيين قد تعوّدوا تقليد وليّ عهدهم إحدى الولايات الهامة . وقد عيّن القائد أحد إخوانه والياً على الغرب والآخر على حمزة . وفي سنة 415 هـ/ 1024-1025 م ، كان صندل عامل باغاي تابعاً للمعزّ بن باديس ، بما أنه قد وجّه إليه الهدايا . ويتضح من ذلك أن الحدود بين مملكة بني حمّاد ومملكة بني زيري ، لم تكن واضحة بما فيه الكفاية ، لا سيما في الجنوب .

وفي عهد بني حمّاد كان يشرف على بسكرة مجلس شيوخ يحمل رئيسه اسم مقدّم (أو رئيس) وينتمي إلى إحدى العائلات الأكثر نفوذاً في المدينة . وكان للناصر بن حماد والٍ على مدينة ورقلة .

ويبدو أن خطّة « وكيل المنازل » التي كان موجودة قبل بني زيري قد ألغيت[11] . وفي إحدى الفتاوى أشير إلى أنّ أحد المقرّبين من السلطان ، قد عُيِّن ناظراً في جهة من جهات المملكة حيث جمع ثروة طائلة[12] . كما أشار مصدر إباضي إلى وجود مقدّم في طرّة حوالي سنة 471 هـ/ 1078-1079 م[13] ، وهو نفس اللّقب الذي كان يحمله ابن كلدين والي جربة شبه المستقلّ[14] .

وإنّه لمن الصعب تحديد مدى اتساع نطاق سلطة العمّال التي كانت ضعيفة خارج المدن في بعض المناطق الخاضعة للقبائل[15] . وفي بعض المناطق الجبلية نرى العمّال (أو الأمراء) يحاولون إخضاع السكّان المتمرّدين بمنعهم من حرث أراضيهم وإرعاء مواشيهم ، ثم السماح لهم بذلك فيما بعد ، مقابل تسليم عدد من الخيول بعنوان الجزية[16] ، وقد كانت بعض القرى خالية من السكّان بسبب الفقر وانعدام الأمن[17] .

ولّما انتشرت جحافل بني هلال في بوادي إفريقية ، سقطت كثير من المدن والقرى في قبضة

---

11) رياض النفوس ، مخطوط باريس ص 79 و[طبعة بيروت، 226/2] ، وقد ورد ذكر وكيل المنزل في ترجمة أبي جعفر القمودي (ت . 324 هـ/935-936 م . [واصطلح الإفريقيون منذ العهود الإسلامية الأولى على تسمية القرية باسم المنزل] .

12) فتاوى ابن محرز (ت . حوالي 450 هـ/1058) والسيوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) ، المعيار ، 345/1-346 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 246/1 و : لعل المقصود بالناظر صاحب الجمارك أو صاحب الديوان ، كما هو الشأن بالنسبة إلى العصر الحفصي ، انظر ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 67/2] .

13) الشماخي ، 412 ، وهذا المقدم المسمى أبو علي هو الذي اضطهد العزّابة الإباضية .

14) في القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي كان يشرف على كلّ بلدة هامة في منطقة نفوسة (لالوت وشروس وجادو) ، حاكم إباضي مستقل ، انظر ، دراسات إباضية ، 126/1 وفي عدة مواضع وحول وجود شخص في درجين يدعى المصدّر ، في آخر القرن السادس هـ/ الثاني عشر ميلادي ، انظر ، الشماخي ، 453 ودراسات إباضية ، 151 .

15) فتوى ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/996 م) ، المعيار ، 128/6 .

16) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 128/6 .

17) فتوى القابسي ، المعيار ، 437/9 .

بعض الأمراء العرب ، فكان أوّل من يصل إلى بلدة يضع أهلها تحت حمايته ويسلّم إليهم قلنسوة أو تذكرة يرسم عليها علامة لإقصاء المنافسين المحتملين ، وتصبح البلدة حكراً عليه ، إن صحّ التعبير . وباستثناء القيروان ، فقد قاومت المدن بفضل أسوارها . وكانت بعضها تتفاهم مع المغيرين في مقابل دفع الجزية . وبقيت بعض المدن الأخرى تحت سلطة الوالي الصنهاجي الذي كان يبادر إلى الإعلان عن استقلاله . في حين تحوّلت كثير من المدن إلى دُوَيْلات يمارس فيها السلطة نظرياً مجلس أعيان يطلق عليهم غالباً اسم الأشياخ ، وعملياً أكثر العائلات نفوذاً في المدينة . وقد طغت على تلك الفترة المضطربة عدة مظاهر بارزة ، نخصّ بالذكر منها توزيع المناطق بين أهمّ البطون الهلالية ، وظهور ملوك الطوائف في بعض المناطق (أمثال بني الورد في بنزرت وبني جامع في قابس وبني الرند في قفصة الخ . . .) ، وقد استقرّوا في الحكم بل تمكّنوا أحياناً من توسيع نطاق سلطتهم ، وظهور بعض المرتزقة العرب أو غيرهم في بعض الأماكن ، وبعض رؤساء العصابات القائمين بدور الأسياد الإقطاعيين . وقد ذهبت أدراج الرياح كلّ ما قام به بنو زيري من محاولات في المهدية لجمع أشتات مملكتهم المفككة ، واكتست انتصاراتهم صبغة جزئية وعابرة ، إذ استنفذ الغزو في البحر ومقاومة الخطر النرماني أكبر قسط من قواهم المتواضعة .

ولمّا تمكّن النصارى الصقليون من الاستحواذ على المدن الساحلية في إفريقية ، اكتفوا بالاحتلال العسكري والجباية والنهوض بالتجارة البحرية ، دون التدخّل فوق الحدّ في شؤون المدن المحتلّة التي تركوا لها حريّة التصرف على الأقلّ في أمورها المالية والقضائية . حيث كان يشرف على حظوظها الإدارية عمّال أهليّون أو مجالس أعيان ، وكثيراً ما كان احترام التعهّدات مضموناً بواسطة الرهائن . وفي بعض الأحيان ـ كما هو الشأن بالنسبة إلى طرابلس ـ كانت الدعوة توجه إلى الصقليين ، حسبما يبدو ، للاستقرار في المدينة . وقد عيّن رُجّار الثاني أحد الموالي عاملاً على قابس ، وهو يوسف الذي ارتدى الخلعة كعلامة على وظيفته الجديدة ، وأمر بتلاوة سجلّ التقليد وتسلّم « تشاريف النصارى » .

وأسند الناصر بن حماد إلى أربعة من إخوانه الأعمال التالية : القسم الغربي وقاعدته آبّة[19] ، وحمزة ونقاوس وقسنطينة . وعهد بمدينة الجزائر ومرسى الدجاج إلى أحد أبنائه وولّى ابن آخر على أشير .

---

18) [البيان ، 315/1] .

19) قراءة ظنيّة .

وبسبب الفوضى الهلالية السائدة آنذاك في إفريقية ، دخل بعض القوّاد في طاعة ابن حمّاد ، مثل عامل صفاقس السابق حمّو ومقدّم قسطيلية . كما التمست مدينة تونس من الأمير [الناصر] بن حمّاد « تقديم والٍ من قِبَله عليها ، فوليها عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان »[18] ، وهو أوّل أمراء بني خراسان .

ولكن بعد هزيمة سبيبة النكراء ، اجتاحت جحافل رياح بلاد بني حماد . وقد استجابت فكرة تأسيس بجاية وإخلاء القلعة لنفس المقتضيات التي دفعت المعزّ بن باديس قبل ذلك بحوالي عشر سنوات إلى التخلّي عن القيروان والالتجاء إلى المهدية . ولكنّ الناصر سرعان ما نهض من كبوته وهدّد بنجاح في أغلب الأحيان تونس والقيروان وغيرهما من مدن إفريقية . وفي عهد بني خراسان تصالحت مدينة تونس مع بني هلال ودفعت لهم الجزية ، وكانت رهاناً للتنافس بين بني زيري وبني حمّاد . ولكنّها ، لئن اضطرّت إلى الدخول تارة في طاعة صاحب بجاية وطوراً في طاعة صاحب المهدية ، إلاّ أنها قد حافظت على حرية التصرّف في مصيرها . ويبدو أن المدينة قد حكمها طوال فترة من الزمن ، باسم مجلس الأشياخ ، أبنان من أبناء عبد الحق بن خراسان ، كان أحدهما مكلفاً بالشؤون المدنية ، والآخر ، وهو الأمير ، مكلّفاً بالشؤون العسكرية . إلاّ أن سلطة الأشياخ التي تقلّص ظلها أحياناً في عهد بني خراسان ، قد تعرّضت لكثير من المِحَن التي تكاد لا نعرف عنها شيئاً .

وأخيراً تمكّن النظام الموحّدي من القضاء على الفوضى الإقطاعيّة والحماية النرمانية ، وبدأ عهد جديد بالنسبة إلى شرق بلاد المغرب . ففي مدينة بنزرت ترك ابن عبد المؤمن حافظاً موحّداً بعدما أخضع صاحبها حوالي سنة 552 هـ/ 1157-1158 م . وبعد ذلك بسنتين كافأ عبد المؤمن الوالي المهزوم ، فمنحه إقطاعاً وسجّل اسمه في قائمة الموظفين الموحّدين . كما عيّن حافظاً في كلّ من سوسة وصفاقس ، ربّما إلى جانب العامل الأهلي . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ النظام الجديد الذي أقامه الموحّدون في إفريقية يشبه الحماية التي نصبها النرمان على المدن الساحلية ، على أن نستثني من ذلك ـ والحقّ يقال ـ التسامح الديني .

الفصل الرابع
ديوان الإنشاء والبريد والشرطة

إنّنا نجهل تماماً النظام الإداري الذي كان قائماً في عهد بني زيري . ومن المحتمل أن تكون الدواوين التي كان يعمل بها الكتّاب ، قد استمرّت في القيام بدورها ، كما كان الشأن في العهد الأغلبي والعهد الفاطمي .

ونكاد لا نعلم أيّ شيء عن ديوان الإنشاء في عهد بني زيري وبني حمّاد[1] . ويبدو أنّ هذه الخطّة كانت تسمّى الكتابة في عهد المنصور ، حوالي سنة 377 هـ/ 987-988 م . وقد كان صاحبها هو الذي يمسك الخاتم . والجدير بالتذكير في هذا الصدد أن ديوان الإنشاء قد اشتهر في أوج الدولة الصنهاجية بصاحبه الذائع الصيت أبي الحسن علي بن أبي الرجال وبالشاعرَيْن ابن رشيق وابن شرف . وقد خلف ابنَ أبي الرجال في خطّته ابنُه محمود الذي عزله المعزّ بن باديس . وقد كان هو ووالده وأبناء عائلته بمثابة « برامكة إفريقيّة » . وكان ابن أبي الرجال المنجّم الشهير قد تنبّأ قبل وفاته في سنة 426 هـ/ 1034-1035 م بتاريخ نكبة ابنه . وقد تدخّلت أخت المعزّ ، وهي بلا شكّ أمّ العلوّ ، لدى الأمير الذي عفا عن محمود وأكرمه بالغ الإكرام ومنحه عدداً من الضيعات التي كان يتصرّف فيها والده بعنوان الإقطاع[2] .

ونحن نعرف اسم أحد كتّاب الأمير يحيى بن العزيز بن حمّاد ، كان على رأس ديوان الإنشاء . وهناك كاتب آخر كان مكلّفاً في عهد يحيى بن تميم بوضع العلامة على الرسائل الرسميّة ، وهي : « الحمد لله وحده » .

وكان يمثّل المعزّ بن باديس في القاهرة - كما أسلفنا - قائم بالأعمال يسمّى النائب . وقد استدعاه الوزير الفاطمي اليازوري عدّة مرّات بعد سنة 442 هـ/ 1050-1051 م ، أي إثر القطيعة الرسمية بين القاهرة والقيروان . وقد كان النائب يحيط مخدومه علماً بتلك المقابلات .

وحسب ابن خلدون ، كان الولاة يخاطبون الوزير الفاطمي في رسائلهم بقولهم :

1) انظر ، بساط ، 33 ، برنشفيك (الدولة الحفصية) [الترجمة العربية ، 61/2] .
2) ابن الآبار، إعتاب الكتّاب ، تحقيق صالح الأشتر عدد 65 ، 128 ، لم يُنشَر .

يا مولاي ، ولكن المعزّ بن باديس استبدل في مراسلاته مع اليازوري عبارة « عبد » بعبارة « صنيعة » .

ورغم قلّة المعدّات ، يبدو أن بني زيري قد احتفظوا بديوان البريد الذي ثبت لدينا وجوده بإفريقية في العهد الفاطمي . وقد كان موجوداً آنذاك في كلّ مدينة من المدن الهامة صاحب البريد أو صاحب الخبر المكلف بإعلام الخليفة بكلّ ما يقع في تلك المدينة ، وبطبيعة الحال بإبلاغ الرسائل الرسميّة والأوامر وتقديم المعلومات حول تنفيذها(3) . وحول قضية ابن أخي حاضنة المعزّ ، أخبرتنا المصادر ، أن الأمير قد وجّه البرود إلى القابسي(4) .

وكثيراً ما كان البريد الفاطمي والصنهاجي يستعمل الحمام الزاجل لإبلاغ الرسائل إلى أصحابها . وقد استعمل هذه الوسيلة في عهد باديس رجل من القيروان وآخر من تونس ، في مراسلاتهما الخاصة . وهي وسيلة يبدو أن السلطة كانت تسمح باستعمالها(5) . وفي سنة 480 هـ/ 1087 م ، أحيط تميم علماً بسقوط قوصرة بين أيدي النصارى ، بواسطة الحمام الزاجل(6) . وفي سنة 543 هـ/ 1143 م ، في عهد الحسن بن علي بن يحيى بن تميم استحوذ أسطول رجار صاحب صقلية في سواحل قوصرة على مركب قادم من المهدية ، كان يوجد به حمام زاجل يستعمله صاحبه لتبادل الرسائل بين صقلية وإفريقية(7) . وفي نفس الفترة وجّه سفير الحسن لدى رجار الثاني من السفينة التي كان على متنها في طريقه إلى المهديّة ، رسالة إلى الأمير بواسطة الحمام الزاجل .

ولم نتمكّن من الحصول على أيّ خبر حول نظام الشرطة في العصر الصنهاجي(8) ، وكلّ ما

---

3) حول المقاربة بين خبر وكشف وبريد ، انظر الصفحات الموالية . حسب المدارك ، 2-150/3 و : تحوّل ابن اللبّاد (ت . 333 هـ/945-946 م) إلى المهدية حيث التقى بأبي جعفر البغدادي الذي أخبر عبيد الله بقدومه . فرفض الخليفة استقباله ولكنه أمر أبا جعفر البغدادي بأن يحرّر كلّ ما يرغب فيه الفقيه الذي منحه أبو جعفر سجلاّ يضفي عليه الحصانة تجاه القاضي ابن أبي المنهال . فأراد ابن اللباد الحصول على ذلك السجلّ ولكن البغدادي رفض أن يسلّمه إليه وطلب إليه الرجوع إلى بلده (أي القيروان بلا شك) حيث سيصله السجل بواسطة البريد . وحول صاحب البريد في نفزاوة في عصر القاضي ابن طالب ، انظر ، مدارك ، 2-26/3 و .

4) برود : جمع بريد ، مثل شُرَط ، أي أعوان الشرطة .

5) مناقب ، 314-315 ، انظر أيضاً البيان ، 164/1 : كتب عامل طرابلس إلى عُبَيْد الله بخبر قتل أحد المتآمرين على الخليفة ، مع حمام وصل إلى رقادة من ساعته .

6) انظر الباب السادس ، الفصل الرابع : ولاية الحسن بن علي .

7) الكامل ، 56/11 ـ مناقب ، 344 ، الإحالة 106 .

8) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 170 ، بساط ، 28-29 برنشفيك ، المرجع السابق [الترجمة العربية ، 150/2-151] .

نعلمه عنها أنها كانت تابعة لوالي المدينة[9] .

كما أنّنا لا نعلم شيئاً عن نظام السجون ، ما عدا أن النساء السجينات كنّ يقمن في سجن منفصل عن سجن الرجال ، وذلك تحت حراسة امرأة أمينة غير متزوّجة أو متزوّجة برجل من أهل الصلاح[10] .

والغالب على الظنّ أنّ حفظ الأمن بالمدن كان يتولاّه ، كما كان الشأن في الماضي ، أعوان الحرس الذين كانوا يقيمون في المحارس ويقومون بدوريّات لا سيما في الليل ، مصحوبين بأسراب من الكلاب ، لفرض احترام منع التجوّل المعلن عنه بواسطة الأبواق[11] . من ذلك أنّ رجلاً من أصحاب أبي الحسن القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) ، « غرّه القمر ليلاً فأخذه الحرس بالقيروان ، فاستعاذ بهم وأعلمهم بأنه ضيف ومن أصحاب القابسي ، فلم يلتفتوا إليه وحملوه إلى السجن وأودعوه الحرس »[12] .

وكان لبني زيري ، كما كان للأغالبة والفاطميّين من قبل ، أعوان مخابرات (وهم أصحاب الخبر)[13] . وقبل أن يصبح بلكين نائباً عن الخليفة في إفريقية ، التمس منه تعيين موظفين في الخطط التالية : القضاء والخراج والخبر[14] . وتحدّثت فقرة من ترجمة الجبنياني (ت . 369 هـ/ 979 م) عن « صاحب خبر السلطان » ، كان يقيم في الساحل ، وقد عاب على الشيخ عدم رفع الأذان الشيعي[15] . كما أشارت المصادر إلى وجود أصحاب خبر في عهد تميم ، كانوا يحيطون السلطان علماً بكلّ ما يقع في البلاد ويحاولون منع التجاوزات[16] .

---

9) **معالم الإيمان** ، 192/3 . الشماخي ، 336-337 .

10) **فتوى اللخمي** (ت . 478 هـ/ 1085 م) ، البرزلي ، **المختصر** ، 151 ظ .

11) إدريس ، المرجع المذكور ، بساط ، 28-29 . **رياض النفوس** ، [طبعة بيروت ، 38/2] : صاحب المحرس ـ **مدارك** ، 2-15/3 ظ : خلف أحد الشبان أباه في رئاسة الحرس . **البيان** ، 186/1 : في سنة 309 هـ/ 921-922 م شكا أهل القيروان إلى الخليفة جور العامل وأصحاب المحارس ، الإدريسي ، المعجم ، 283-284 .

12) **معالم الإيمان** ، 176/3-177 .

13) **الأغالبة** ، 167 ، أبو العرب ، الترجمة ، 326 . وفي **البيان** ، 162/14 تحدث المؤلف عن « ديوان الكشف » تحت عنوان 298 هـ/ 910-911 م .

14) **الخطط** ، 165/2 ، **الاتعاظ** ، 142 .

15) **مناقب** ، 40 ، 230-231 .

16) **دوزي** ، نقلاً عن النويري ، الملحق ، 347/1-348 .

وأثبتت مراسلة يهودية عربية[17] وجود صاحب خبر في المهدية في عهد آخر أمراء بني زيري ، كان يتمتّع ببعض الصلاحيات القضائية الشبيهة نوعاً ما بصلاحيات صاحب المظالم أو الحاكم . فقد توقّف في المهدية شاعر طليطلة اليهودي الشهير ، يهودا هليفي ، وهو في طريقه إلى فلسطين ، حيث ستدركه المنيّة سنة 536 هـ/ 1141 م ، وكان أحد اليهود الإسبانيّين قد كلّفه بتسليم مبلغ ثلاثين دينار إلى أخيه المدعوّ ابن البصري ، بشرط رجوعه إلى الديانة اليهودية ورحيله إلى فلسطين صحبة يهودا . فسلّم ابن البصري رقعة إلى صاحب الخبر ، أعلمه فيها بالضغوط المسلّطة عليه وطالب باستلام المبلغ الذي بعثه إليه أخوه ، مع تمسّكه بالدين الإسلامي . فاستدعى صاحب الخبر الطرفَيْن المتخاصِمَيْن بمحضر الديّان (قاضي اليهود) وأمر بإحالة قضيّتهما على القضاء الشرعي . فوجّههما القاضي إلى الأمير الذي أحالهما بدوره على القاضي . فوجّه القاضي اليمين إلى يهودا وإلى الرفيق الذي آواه ، واسمه سليمان بن يوسف . وتمّ حسم القضية بإبرام تسوية تصالحيّة بين الطرفَيْن .

ولعلّ خطّة صاحب الخبر المكلّف بإعلام الأمير بالوضع السياسي في البلاد وكيفيّة احترام حقوق كلّ فرد ، قد اختلطت بصورة تزيد أو تنقص بخطّة صاحب البريد ، الذي صار مكلّفاً في آن واحد بالسهر على البريد وبالجوسسة لفائدة السلطان . ومن المحتمل أن تكون كلمة « بريد » وكلمة « خبر » شبه مترادفتَيْن[18] .

---

17) S.D. Goitein, the last phase of yehada Halevi's life in the light of the Geniza papers, Quaterly 1954- XXIV, 1-24.

18) انظر ، دوزي ، الملحق ، 348/1 . وحول أبي جعفر البغدادي المكلف في سنة 298 هـ/910-911 م بديوان الكشف مع زميله عمران بن أبي خالد بن أبي سلام ، والذي عُيِّن في سنة 300 هـ/912-913 م على رأس ديوان البريد إلى أن أدركته المنيّة ، انظر ، البيان ، 162/1-169 . ويمكننا أن نتساءل ألم تكن مصلحة الخبر تشرف آنذاك على الكشف والبريد ؟

الفصل الخامس
الجيش والبحريّة

قيـادة الجيـش[1] :

لقد كان الأمراء الصنهاجيّون المضطلعون بمهمّة القيادة العامّة للجيش ، رجال حـرب ، يشرفون بأنفسهم على سير العمليات الحربية ، وكانوا يختارون قوّادهم بلا ميز من بين أقـاربهم ومواليهم وضبّاطهم . وحسب أسمائهم ، يبدو أن معظم أولئك القوّاد كانوا من عرب إفريقيّة . ولعلّ قائد باديس يعلى بن فرج كان ابن أحد الموالي ، فرج الصقلبي قائد المنصور[2] .

وإلى غاية عهد المعزّ بن باديس ، كان تنظيم قيادة الجيش راجعاً بالنظر إلى نائب الأمـير بإفريقية الذي كان يقوم بنفسه أحياناً بالحملات العسكرية . وعندما اقتصرت مهامّه فيما بعد على الوزارة الكبرى ، يبدو أنه احتفظ بصلاحياته العسكرية .

وكان أعلى الضباط رتبةً هم القوّاد الذين تحدّثت عنهم الأخبار دون سواهم[3] ، وقد أُطلِق على أحد القوّاد في عهد تميم اسم « المقدّم »[4] ، وهي عبارة غامضة تعني لا محالة قائد الجيش . ولكننا نجد أيضاً عبارة « قائد الجيش » . ومنذ عهد المعزّ ، وبلا شك قبله ، كان قائد الخيّالة يسمّى « قائد الأعنّة » ، وهو العنوان الذي تلقب به أُخَوان مرّة وحدة على الأقلّ[6] . وفي عهد هذا الأمير نجد عبارة « العرافة » التي ربّما تعني وحدة عسكرية لا نعرف أهميتها[7] . ويمكن أن نستنتج

---

1) برنشفيك (الدولة الحفصية) [الترجمة العربية 2/88-89] .

2) انظر : I. HRBEX, Die Stawen..., 556 .

3) ورد ذكر المسمّى محمد بن الطاهر القائد في معالم الإيمان ، 3/138 .

4) انتصر على حمّو سنة 493 هـ/1099-1100 م .

5) وهو العنوان الذي حمله إبراهيم بن عبد الله ، وقد أخضع جزيرة جربة في سنة 510/1116-1117 .

6) وهما إبراهيم وقاضي شقيقا عامل قابس المعزّ بن محمّد بن وليّة الصنهاجي . وفي حاشية يحيى نجد القائد إبراهيم ، قائد الأعنة . ولعلّ الأمر يتعلق بقائد علي المسمى إبراهيم بن أحمد . وهناك قائد آخر أو نفس الشخص في عهد علي ، اسمه إبراهيم بن عبد الله (حملة 510 هـ/1116 م ضد جربة) .

7) عند تقديم الجنود إلى الأمير الصغير المعزّ بن باديس (النويري ، 2/133) .

من ذلك أنّ كلّ عرافة على رأسها عريف (ج : عرفاء)[8] . ويبدو أن اسم « عنبر » كان يطلق على قائد أسود من عبيد المعزّ[9] . وإلى حدّ تاريخ غزوة بني هلال ، كان لكلّ فرد من أسرة بني زيري حرس خاصّ مؤلّف في معظمه على الأقلّ من العبيد المخلصين قلباً وقالباً لسيّدهم[10] . ولما انهزم حمّاد في شلف سنة 406 هـ/ 1015-1016 م ، فرّ على رأس عبيده الذين ظلّوا وحدهم أوفياء له ، مع حوالي 5000 فارس . وقد فتّش وصفان باديس (عبيده الزنوج) عن شخص استحوذ على غنيمة بلا موجب قانوني . وقد رأينا عبيد باديس يؤيّدونَ بكلّ قوّة حقّ المعزّ الصغير السنّ في الولاية خلفاً عن أبيه . كما أنشأ نائب الأمير في إفريقية عبد الله بن محمد الكاتب حرساً خاصّاً به مؤلفاً من السودانيّين الذين شاركوا بلا شكّ في الاضطرابات التي أثارها العسكر إثر مقتله (رغم أنّ المصادر لم تشر إلى ذلك) . وكان المعزّ بن باديس قد اشترى 3000 عبد . وفي سنة 448 هـ/ 1056-1057 م جرت معارك طاحنة بين عبيد المعزّ وعبيد ابنه تميم ، والي المدينة ووليّ عهده . وقد رأينا كيف بادر تميم إلى إبادة من تبقّى من حرس أبيه ، حالما تسلّم مقاليد الحكم . وليس من المستبعد أن يكون حرس تميم مؤلّفاً ، ولو بصورة جزئية على الأقلّ ، من البيض . وهذا ما يفسّر النزاع الذي نشب بين الفريقين . إذ يقال إن ذلك الأمير كان متعلّقاً شديد التعلّق بعبيده النصارى[11] .

ويحقّ لنا أن نفترض أنّ الجيش الصنهاجي الذي أبادته الحروب المتواصلة منذ قيام دولة بني زيري قد شهد نقصاً فادحاً في العدّة والعدد . وهذا ما يفسّر لماذا فكّر المعزّ في أوّل الأمر في تجنيد الهلاليّين ، ولماذا رغب تميم في استخدام الأتراك التابعين لشاه مالك حوالي سنة 488 هـ/ 1095 م .

ولم يلبث الأعراب أن قاموا بدور عسكري أساسي ، فقد جنّد علي عدداً كبيراً من أبناء القبائل العربية ، لا سيما ضدّ رافع الذي فعل نفس الشيء ، وكان على رأس الجيش الصنهاجي

---

8) برنشفيك [الترجمة العربية 88/2] . وحول عُرَفاء من كتامة في سنة 301 هـ ، انظر ، البيان ، 170/1 .

9) حسبما أشار إلى ذلك جورج مارمي .

10) وحول « حاشد السودان » ، أي العون المكلّف بتجنيد السودانيين بالقوّة ، انظر رياض النفوس ، ص 92 و[طبعة بيروت ، 367/2-368] . فقد أخذ حاشد السودان أبارزين الأسود الجمونسي (أصيل جمونس الصابون) (ت . 337 هـ/948-949) ، ومضى به إلى رقّادة .

11) إدريس ، أعياد النصارى . . . المجلّة الإفريقية ، 1954 م ، 274 والهامش 48 إن وجود الحبشيّين غير مستبعد ، إذ أكّد ابن الخطيب (أعمال ، 449) أن عبيد الله قد اتخذ له من العبيد 12000 مملوك رومي وحبشي .

الذي أخضع جبل وسلات أمير عربي . وممّا لا شكّ فيه أيضاً أن أمراء رياح كانوا أكبر سند لآخر أمراء بني زيري الذين استفادوا كثيراً من بعض التحالفات ، مثل الحلف المبرم مع محرز بن زياد صاحب المعلّقة . كما سارع بنو حماد إلى الاعتماد على الأثبج .

وإثر ارتقاء الحسن إلى العرش فرّق المال على العبيد والأجناد ، أي الحرس والمرتزقة ، دون أن نستطيع من سوء الحظ توضيح نوعيّة هذين التنظيمين[12] . ويمكن أن نفترض أنّ أغلب أولئك العبيد كانوا من البيض والنصارى ، في حين كان الجيش يضم في آن واحد الصنهاجيّين والعرب ، ولكنّنا لا نستطيع تأكيد ذلك . ولا شك أن زحفة بني هلال قد جعلت من الصعوبة بمكان الاستمرار في انتداب السودانيين الذين لم يرد ذكرهم من جديد في عهد الأمراء الذين خلفوا تميماً . ومن الجدير بالتذكير أن الحسن قد فسّر انتصار النرمان عليه ، بافتقاره إلى الجنود الأوفياء .

القوّات المسلّحة :

لا يمكننا أن نقبل دون رويّة التقديرات التي قدّمها المؤرخون والإخباريّون حول عدد القوّات المسلّحة الصنهاجية ، فهي تقديرات مبالغ فيها بلا شكّ . وإذا ما صدّقناهم ، فإن بني زيري وبني حمّاد كانوا قادرين على تعبئة 30.000 فارس ونفس العدد من المشاة (أو الرجّالة)[13] . وقبل تأسيس بجاية كان عدد الجنود المقيمين بالقلعة يقدّر بحوالي 12.000 فارس وبنفس العدد من المشاة . وخلال المعركة الأولى التي دارت بين بني زيري وبني هلال ، أكّدت المصادر أن 7500 فارس عربي قد واجهوا جيشاً صنهاجيّاً لا نعلم بالضبط عدد رجاله ، ولكن يبدو أنه كان يمثل مقدمة القوّات المسلّحة الزيريّة . وأثناء هزيمة حيدران ، قيل : إن 30.000 فارس و 30.000 راجل قد هزمهم 3000 مقاتل عربي فقط . وخلال عمليّة النهب التي عقبت الهزيمة أُحصِيَت 10.000 خيمة و 15.000 جمل و 3500 قتيل في صفوف الصنهاجيين . وإن وجود مثل هذا العدد من الإبل يبدو غريباً ، فلعلّ الأمر يتعلق بالدواب ، لا سيما وأنه لم يقع التعرّض للبغال ، ومن بين الغنائم التي ظفر بها المتصرون في واقعة سبيبة ، أشارت المصادر إلى الخيام والبغال وأكّدت أن العرب قد أصبحوا بفضل هذا الانتصار مدجّجين بالسلاح ، وبالخصوص مجهّزين بالخيول التي كانوا يفتقرون

12) في فتوى صادرة عن اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) أشير إلى جند السلطان وعبيده (البرزلي - مخطوط الرباط 48/2 ط . والمختصر ، ص 69 ظ) .

13) وعلى سبيل المثال نزل المعزّ بصقلية في سنة 427 هـ/1035-1036 م على رأس 3000 فارس و 3000 راجل .

إليها من قبل .

وقُدِّر عدد مقدّمة الجيش الموحّدي التي فتحت المغرب الأوسط بحوالي 20.000 فارس . وأثناء معركة سطيف (584 هـ/ 1153 م) هجم 30.000 فارس موحّدي على العرب الثائرين . وطاردت الفارّين أسراب من الجنود الذين صدرت لهم التعليمات بعدم الاهتمام بالغنائم . وقد أعربت المصادر عن إعجابها بتنظيم الجيش الموحّدي الذي جاء لفتح إفريقيّة ، وقدّرت عدد جنوده بما يلي : 75.000 و 500.000 راجل أو 100.000 مقاتل ومثلهم من الأتباع والسوقة . وكانت المقدّمة معزّزة بحوالي 12.000 رجل . وكان الإعلان عن تحرّك الجيش يتمّ بواسطة طبل ضخم . فتسير أربعة فيالق متتالية ، تفصل بين الفيلق والآخر ، مسيرة يوم واحد ، وينضمّ إلى كلّ فيلق طوال الطريق عدد من المجنّدين العرب . وفي باجة بلغ عدد الخيالة 100.000 فارس ، بالإضافة إلى الرجّالة الذين لا يحصى عددهم . وفي معركة جبل القرن واجه 30.000 رجل من الجنود الموحّدين الممتازين عدداً كبيراً من المقاتلين العرب الذين كان معسكرهم يحتوي على 80.000 خيمة . وفي معركة سبيبة بلغ عدد القتلى والجرحى في صفوف الصنهاجيين والزناتيين 24.000 رجل . وفي المهدية لم يواجه الموحّدون سوى 3000 رجل من الإفرنج .

الأسلحة :

كانت أهمّ الأسلحة المستعملة تتمثل في السيف والرمح الطويل والرقيق وربّما الحربة أو المزراق[14] . وكان الإباضيون في الجريد مسلّحين بالخنجر الذي يُشَدّ على الذراع الأيسر[15] .

وقد رأينا أن الجيش الصنهاجي كان يضمّ قوّاسين[16] ، وعلى الأرجح كانت السهام مريّشة وذات أسنّة فولاذية[17] .

---

14) برنشفيك [الترجمة العربية 84/2]. وشبّه الشماخي (517) المزراق بالرمح . وحول أسلحة الجيش الفاطمي في عصر المعز لدين الله انظر ، المعزّ ص 186 : الرّماح (ج . رمح) والجِرَاب (ج . حربة) والدّروع (ج . درع) والأطبار (ج . طبر) والخناجر (ج . خنجر) والبُلَط (ج . بلطة) والجِفَارات (ج . جِفَارة) .

15) أخبار أبي زكرياء ، الجزائر 1878 م ، 294 ، وبرنشفيك [الترجمة العربية 84/2] .

16) حسب رياض النفوس ، مخطوط باريس ص 16 و[طبعة بيروت ، 37/2] ، خرج جبلة [بن حمود بن عبد الرّحمان] (ت . 299 هـ/ 911-912 م) ، ومعه سيف وترس وقوس وسهام .

17) ديوان ابن حمديس عدد 291 البيت 35 ص 413 .

ومن المستبعد أن يكون الجنود الصنهاجيّون قد استعملوا القذّافة[18] ، لأنّ المصدرَيْن الوحيدَيْن اللّذين تحدّثا عنها قد أشارا إلى صيد الطيور . وكما يدلّ على ذلك الاسم الذي أطلقه ابن رشيق على السلاح المذكور ، وهو « قوس البندق » ، فإن الأمر يتعلّق بسلاح يتركّب أساساً من قوس لرمي القذائف[19] .

وفي سنة 374 هـ/ 984-985 م ، كان مستودع الأسلحة بالقيروان يسمّى « بيت السلاح » .

ويبدو أنّ استعمال الدروع المصنوعة من جلد الظبي (اللمط) كان منتشراً على نطاق واسع[20] . كما انتشر شيئاً فشيئاً[21] استعمال الدروع العادية والخوذات ، وقد أشارت إلى ذلك المصادر مرّات عديدة ، لما تحدّثت عن بعض القوّاد[22] . وربّما كانت مصنوعة من الحديد والبرنز[23] . وقد وصف ابن حمديس مرّتَيْن متتاليتَيْن مقاتلين مرتدين لزرود مصنوعة من الحديد[24] .

التحصينات :

إنّ المعلومات التي لدينا حول التحصينات الصنهاجية نادرة ، ولا تشير إلى استعمال أيّ تقنيّة مبتكرة في هذا الميدان[25] . وأثناء عمليّات الحصار تشير المصادر إلى الاستعمال المتكرّر للسلاليم

---

18) [قوس قديم لقذف السهام] .

19) دوزي ، الملحق ، 117/1-118 ، 418/2 ، بيريس ، الشعر الأندلسي ، 352 والهامش 5 ، برنشفيك [الترجمة العربية ، 85/2] . وأطلق مقديش (133/2) على القذّافة اسم «البندقية» ، وهي تسمية حديثة . والجدير بالملاحظة أن القذّافة لم تعوّض القوس في إسبانيا وفي بقية الأقطار الأروبية إلاّ اعتباراً من القرن الثالث عشر ، إسبانيا الإسلامية ، 93/3 .

20) من بين الغنائم التي أُخِذت من حمّاد في سنة 406 هـ/1015-1016 م ، هناك 10,000 درع مصنوعة من جلد الظبي (اللمط) ، انظر برنشفيك [الترجمة العربية ، 84/2] ، نقائش عربية ، 297/1-298 : قبريّة مؤرخة في 392 هـ/1002 م تحمل اسم ابن الدرّاق (صانع الدروع المصنوعة من الجلد) .

21) سلّم تميم إلى رياح قبل معركة سبيبة : 1000 درع و1000درقة و1000 مهنّد . وفي حيدران كان الجنود الزيريون يلبسون الدروع والخوذات .

22) في عهد زيري كان أحد القوّاد الزناتيّين يرتدي درعاً ، النويري ، 107/2 وفعل بلكين بن حماد نفس الشيء حوالي سنة 446-447 هـ .

23) من بين الغنائم التي غنمها النصارى في سنة 480 هـ/1087 م ، توجد رِحال برنزية . وكانت دروع العبيد مصنوعة أحياناً من الجلد ، بساط ، 32 .

24) ديوان ابن حمديس عدد 81 ، البيت 7 ص 107 وص 82 البيت 37 ، (مدح يحيى) .

25) نكتفي بالإشارة إلى الوصف الذي أورده برنشفيك ، [المرجع السابق . الترجمة العربية ، 87/2] .

والمنجانيق[26] . كما لاحظنا استعمال الحواجز الخشبية لمنع الفرسان النرمان من الطواف في مدينة طرابلس الثائرة في سنة 553 هـ/ 1158-1159 م .

ويبدو أن المتعبّدين في الرباطات لم يقوموا بأيّ دور عسكري في العهد الصنهاجي ، إذ كان هدفهم الاعتزال لا الحراسة[27] .

العمليّـات العسكـريــة :

ما هو مدى سرعة تحرّك الجيش في العهد الصنهاجي ؟ لقد قضى الجيش الذي حمل جثمان باديس 23 يوماً للتحوّل من المسيلة إلى القيروان و 4 أيام من القيروان إلى المهدية . وقضى الجيش الموحّدي العظيم الذي فتح إفريقية حوالي خمسة شهور لقطع المسافة الفاصلة بين سلا وتونس ، أي ما يعادل مسيرة 70 يوماً بالنسبة إلى فارس سريع .

وإليك فيما يلي نظام سير الجيش الصنهاجي الراجع إلى إفريقية بتابوت باديس : « سارت العساكر على تعبئة الزحف مقدمة وساقـة وقلباً ، يتقـدّمها التـابوت وأمـامه الـطبول والجنـائب والقباب »[28] .

وفي عهود أمراء بني زيري الأوائل ، كانت عملية حشد الجيش تقع في رقّادة حيث يتم توزيع الرواتب على الجنود . وعلى غـرار الفاطميّـين[29] ، تمكّن الأمراء الصنهـاجيون ، حتى في أيـام

---

26) استعمل أبو يزيد الدبّابات والمنجنيق في حصار سوسة سنة 334 هـ/945-946 م ، **الاتعاظ** ، 119 . وحول استعمال جيوش المعزّ لدين الله للمنجنيقات والدبّابات والكبش ، انظر ، **المعزّ** ، 184 . كما استعمل بلكين السلاليم في حصار فـاس ، وكذلـك النـرمـان في حصـار طـرابلس (540 هـ/1145-1146 م) ، وقـد لغمـوا سـور طـرابلس في سنـة 537 هـ/1142-1143 م واستعملوا الكـلاليب . وحسب فتوى صـادرة عن اللخمي (المعيار ، 100/7-101) يجـوز لـلإنسان أن يقتـطع من مال الـزكاة مـا يلزم لشراء الأسلحة وحفـر الخنادق وتجهيـز الحصون بـالمنجنيق . وفي ديـوان ابن حـمديس ، رقم 291 (مدح علي بن يحيى) البيت 30 ص 413 ، إشارة إلى استعمال المنجنيق في حصار اللجم ، وكذلك في حصار قفصة والمهدية من طرف الموحّدين . كما استعملت « العرّادات » في المهدية . وحول معنى عـرّادة ، انظر ، **استوريا** ، 299/2 الهامش 2 و 488/3 الهامش 3 ، **ودائرة المعارف الإسلامية** (الطبعة الثانية) ، 679/1 (كلود كاهين) .

27) **بسـاط** ، 31-32 : معلوماتٌ حـول التـنظيم العسكـري للربـاطـات في العصر الأغلبي ، إدريس ، مجلة الـدراسـات الإسلامية ، 1935 ، 293-298 ـ ليزيرن : رباطان . . . ، كراسات تونس ، 1956 ، 279-288 .

28) [النويري ، 133/2] .

29) **المعزّ** ، 177-178 (استشهادات من مجالس القاضي النعمان ، 295/2-296) .

الشدّة ، من دفع رواتب جنودهم بصورة منتظمة . وكان الأمير يستقبل قوّاده في معسكره داخل خيمه تسمّى « قبّة السلام » . وأشارت المصادر إلى وجود خيمة مماثلة « فازة السلام » في معسكر حمّاد ، سنة 408 هـ/ 1017-1018 م . وليلة وفاة باديس سنة 406 هـ/ 1015 م ، أثناء حصار قلعة بني حمّاد ، « أمر (الأمير) بالتمييز ، فبرز كلّ قائد في عسكره ، وجلس نصير الدولة (باديس) في القبّة وأمر أيّوب بن يطوفت بالطواف على العساكر وحسابها . . ثم ركب عشيّة هذا اليوم ، وهو قد تناهى إقبالاً ، واستوى حسناً وجمالاً ، فلعبوا بين يديه ، فكلما هزّ رمحاً ، كسّره وأخذ غيره »[30] .

وبعد ذلك بقليل ركب الأمير الصغير المعزّ بن باديس ، مستعرضاً العساكر ، وعلى يساره حبيب بن سعيد « الذي وقف يعلمه بهم ويذكر له أسماءهم ويعرّفه بقوادهم وأكابرهم » . وقبل ارتقائه إلى العرش أقام المعزّ بالمهدية ، « فكان يركب في كلّ يوم ويعود إلى قبّة السلام ، وينطعم الناس بين يديه »[30م] .

ويمكن التأكيد أنّ الصنهاجيين ، سواء في إفريقية أو في القلعة أو في بجاية ، كانوا يأمرون الخيالة بالخروج كلّ صباح في زمن الحرب أو في زمن السلم ، وذلك بلا شكّ ليحافظ الفرسان على لياقتهم البدنية . وكانت هذه التمارين اليومية التي تحمل اسماً بربريّاً (تساييست أو استاييست) ، تتمثل فيما يلي :

يخرج القائد على رأس جنوده ، فيقطع مسافة محدّدة إلى أن يصل إلى مكان معيّن يتوقّف فيه ، وذلك بلا شكّ لتمكين الخيول والفرسان من الاستراحة ، ثم يعود فيقف بباب السلطان منتظراً الإذن له بالانصراف[31] .

وفي المعارك يحرز النصر دوماً وأبداً الجيش الأقلّ عدداً والأشدّ إخلاصاً والأكثر انسجاماً وتناسقاً . وبالعكس من ذلك تتعدّد حالات التخاذل والخيانة التي يتسبّب فيها الدفاع عن المصالح الخاصّة والعصبيّة . وأخيراً فإن الخيّالة هي التي تقوم بالدور الرئيسي وتكون لها الكلمة الأخيرة .

ويبدو أن تعمّم باديس بعمامة حمراء أثناء معركة شلف كانت عادة من العادات الفاطمية القديمة[32] .

---

30) [البيان ، 266/1] ، انظر أيضاً المعيار ، 134/9 ، فتوى أبي عمران الفاسي (ت . 430 هـ/1039 م) ، « اللعب بقمة التراب التي يُطعَن فيها الأعداء » .

30 م) [البيان ، 267/1] .

31) ابن حمّاد، 50-51 .

32) الشماخي ، 348 : عندما يوجّه المعزّ لدين الله جيشاً في حملة عسكرية تاديبية ، يسلّم إليه لواءاً أحمر ، علامة على غضبه . =

ويمكن أن نستخلص فكرة عامّة عن الاستراتيجية الصنهاجية من روايتَيْن اثنتَيْن : أولاهما تتعلّق بمعركة شلف السالفة الذكر والثانية تتعلق بانتصار رأس الديماس (517 هـ/ 1124-1123 م) .

وقد كان الأمل في كسب الغنائم يزيد في حماس المقاتلين ، لا سيما عندما يعدهم الأمير بأربعة دنانير عن كلّ رأس يقطعونه[33] . وفي سنة 406 هـ/ 1016-1015 م تسلّم قوّاد باديس رُقَعاً تحدّد حصّة كل قائد من الغنائم نقداً وعيناً ، وكان كل صندوق مَرفوقاً بقائمة جرد .

البحريّة[34] :

لقد رافقت أغلبيّة قطع الأسطول الإفريقي إن لم نقل كلّها ، الفاطميّين إلى مصر . أمّا بنو زيري الذين كرّسوا كلّ جهودهم لحملاتهم العسكرية في المغرب ، فإنهم على الأرجح لم تكن لديهم قوة بحرية ، باعتبارها غير صالحة لتحقيق طموحاتهم .

وقد استمرّ انتداب البحّارة بواسطة عمليات التجنيد الإجباري المعمول بها في العصر الوسيط .

وأخبرتنا المصادر أنّ الأسطول الذي وجّهه المعزّ إلى صقلية في سنة 416 هـ/ 1026-1025 م كان يضمّ 400 قطعة[35] . ويعتبر هذا الرقم غريباً ومشكوكاً فيه ، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بحملة المعزّ الذي نزل في صقلية على رأس جيش يضمّ 3000 فارس و 3000 راجل فحسب . ومع ذلك فالغالب على الظنّ أن القوّة البحرية التي أنشأها بنو زيري كانت عظيمة . وستزداد عظمتها أكثر فأكثر في عهود أمراء المهدية الذين كان مصيرهم مرتبطاً بالبحر . وقد كان همّهم الأول يتمثل في تطوير التجارة وحمايتها من القرصنة المسيحية وتعزيز الجهاد في البحر لمواجهة الأسطول النرماني الذي ما فتىء تفوّقه يتأكّد . وربما لم تكن من باب الصدفة إشارة المصادر إلى « قائد الأسطول » أو

= وبالعكس من ذلك فإن اللواء الأبيض يرمز إلى حسن استعداده . كما قدّم إلينا نفس هذا المصدر الإباضي ، 351-352 أبا تميم (معدّ المعزّ لدين الله) مرتدياً لباساً أحمر وجالساً على سرير أحمر في قبّة حمراء . ولعلّ قبّة السلام التابعة لبني زيري كانت ملوّنة بنفس اللون . انظر أخبار أبي زكرياء ، 291-292-305 .

33) وهذا ما وقع في سنة 408 هـ/1017-1018 م (حملة المعزّ ضدّ حمّاد) .

34) وحول الأسطول قبل بني زيري ، انظر : بساط ، 29-31 . وفي عهد الفاطميين ، كانار ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 393 ، الهامش 109 ، ستوريا ، 221/2 ، المعزّ ، 186-189 .

35) وعلى سبيل المقارنة كان الأسطول الفاطمي يضمّ 600 وحدة ، الخطط ، 193/2 .

« مقدّم الأسطول » في عهد تميم[36] . وابتداء في ذلك التاريخ تطوّرت عمليّات الغزو في البحر وبلغت ذروتها في عهد يحيى وعلي . وتُعْزَى هزيمة الحسن إلى ضعف البحريّة الصنهاجية وعلى الأقلّ إلى تفوّق القوات النرمانية عليها[37] .

ولا شكّ أنّ نقص الخشب البحري[38] قد كان له بالغ الأثر في ضعف أسطول المهديّة . ذلك أن الفوضى الهلالية لم تكن لتسمح بجلبه من منطقة القبائل ، ويمكن التأكيد أن البحريّة الصنهاجية قد تقلّص ظلّها شيئاً فشيئاً لعجزها عن صنع قطع جديدة . ولا بدّ أن يكون النرمان قد بذلوا كلّ ما في وسعهم لمنع وصول الخشب إلى المهدية . وبالنّظر إلى تدهور الأسطول وتقلّص موارد الدولة المضطرة دوماً وأبداً ، لا سيما في سنوات الجدب ، إلى تزويد البلاد بالقمح ، يمكننا الحديث عن حلقة مفرغة : فبقدر ما يضعف الأسطول ، تتقلّص إمكانات شراء الخشب اللازم لصنع السفن بأسعار غالية . فلا غرابة حينئذ إذا ما علمنا أنّ بقايا سفينة بجائيّة دمّرتها العاصفة ، قد آستُعْمِلَت لصنع سفينة بالمهدية في عهد الحسن . وكان الوضع ملائماً أكثر في بجاية ، بفضل الغابات القريبة التي توفّر الخشب الجيّد والزفت والقطران[39] . أضف إلى ذلك أن بجاية كانت تملك معادن حديدية ، في حين كانت المهدية مضطرّة إلى توريد الحديد من الخارج . وكانت ورشة صنع السفن تسمى دار الصناعة أو دار الصنع . وكانت دور الصناعة في المهدية وبجاية رائعة . وفي عصر آخر أمراء بني زيري ، وقبل ذلك بكثير ، كان البحّارة يقيمون في زويلة .

هذا وإنّنا نعرف بعض أسماء الزوارق دون أن نستطيع دائماً تعريفها ، وهي : **القطعة** (ج : قِطَع) ، ويبدو أنه اسم جنس يطلق على الوحدة[40] ، **والمركب** (ج : مراكب) ، وهو عبارة عن سفينة تجارية كبيرة ، **والسفينة** (ج: سُفُن) وهي أصغر من المركب وتستعمل في الغزو في

---

36) يتعلق الأمر بعثمان بن سعيد ، المعروف بالمهر (المهذّب) ، الكامل ، الترجمة 487 ، الخطط ، 193/2 .

37) في سنة 480 هـ/1087-1088 م كان جيش بيزة وجنوة يضم 30,000 رجل على متن 300 سفينة ، وفي الديماس (517 هـ/1123-1124) كان الجيش الصقلي يضمّ 30,000 راجل و1000 فارس ، على متن 300 سفينة شراعية . وكان أسطول جرجي الأنطاكي الذي هجم على طرابلس يتركب من 200 سفينة . أمّا الأسطول الصقلي الذي استولى على المهدية في سنة 543 هـ/1148-1149 م فكان يتركب من 350 سفينة منها 250 شيني . وفي سنة 551 هـ/1156-1157 م ، أرسل غليوم 20شينيّا محملة بالأسلحة والمؤونة لمحاولة تخليص المهدية .

38) M. Lombard ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، إفريل ـ جوان 1959 م ، 234-254 .

39) الإدريسي ، 90-91 .

40) انظر دوزي ، الملحق ، 372/2 . في سنة 416 أو 427 هـ/1035-1036 م كان أسطول المعزّ بن باديس يضم 400 قطعة .

البحر[41] ، **والشيني** (ج: شواني) ، وهو اسم يطلق على سفينة شراعية بحرية[42] ، **والحربية** (ج: حربيات أو حرابي) ، وهي سفينة حربية[43] ، **والغُراب** وهي أيضاً سفينة حربية[44] ، **والطريدة**، وهي سفينة نقل ، **والشلندي** (أو الصندل) وهو قارب مسطّح[45] .

ويمكن تحديد تاريخ أوّل إشارة لاستعمال **النفط** (النار اليونانية) في إفريقية بسنة 387 هـ/ 997-998 م . فلما وصل باديس إلى المهدية في تلك السنة « لعبت المراكب بين يديه ورمى النفّاطون بالنفط »[46] . كما أشارت المصادر إلى استعمال النفط في أيامَ علي والحسن[47] .

41) الإدريسي ، 90-91 : كانت تُصنَع في بجاية الحرابي والسفن والمراكب ، ستوريا ، 377 ، الهامش 1 .

42) **الاتعاظ** ، 102 ، الهامش 1 (مراجع هامة) .

43) ستوريا ، 377/3 ، الهامش 1 ، دوزي ، الملحق ، 265/1 ، الإدريسي ، 90-91 والمعجم ، 282-283 . ديوان ابن حمديس عدد 93 ، البيت 63 . أرسل رجار الثاني إلى قابس 24 من الشواني وأرسل علي ، حربيّات و 4 شواني وبقية أسطوله المتركب من الحربيات والشواني .

44) كان أسطول تميم حوالي 470-471 هـ/1078-1079 م يتركب من 14 غراباً ، ستوريا ، 68/3-69 ، الهامش 7 ، 159-160 ، وفي سنة 503 هـ/1109-1110 م كان أسطول يحيى يضم 15 قطعة متركبة من الغربان والشواني . وقبل وفاته جهّز علي ضدّ رجار الثاني 10 حربيّات و 30 غراباً .

45) كان الأسطول الموحّدي الذي حاصر مدينة تونس يعدّه 70 سفينة (شيني وطريدة وشلندي) ، وكان الأسطول الذي حاصر المهدية يتركب من 150 غراباً ، بقطع النظر عن سفن النقل .

46) **المؤنس** ، 78 ، وحول استعمال النفط في عهد المعزّ لدين الله الفاطمي ، انظر ، المعزّ ، 184 .

47) كان الأسطول الذي أعده علي قبل وفاته مجهزاً بالنفط ، ديوان ابن حمديس ، عدد 314 البيت 28 ص 442 وعدد 320 البيت 57 ص 458 . وحول النفط انظر بالخصوص ، ستوريا ، 374/3 . و Mercier ، باريس 1953 م : Le feu grégeois: les feux de guerre depuis l'antiquité .

الفصل السادس
ضرب السكّة[1]

كانت الدولة هي التي تحتكر ضرب السكّة ، ولكنّ الخواصّ يستطيعون ، مقابل دفع معلوم مالي ، تحويل المعدن النفيس الذي يملكونه إلى نقود ، وذلك حسب عادة كانت رائجة في العالم الإسلامي في العصر الوسيط[2] .

وكان يُطلَق على صاحب السكّة وأتباعه اسم السكّاك[3] . وكانت أهمّ دور ضرب السكّة موجودة على التوالي ، حسب التدرّج التنازلي ، في المنصوريّة والمهديّة وطرابلس وزويلة . على أن نشاط دار السكّة بالمنصورية يفوق بكثير نشاط دار السكّة بالمهديّة[4] .

وحتى تاريخ القطيعة مع القاهرة ، كان بنو زيري التابعون للخلافة الفاطميّة يضربون السكّة باسم الخليفة ، وكانت القطع النقديّة المماثلة للقطع المضروبة في القاهرة تحمل اسم الخليفة ونفس النصوص الشيعية المكتوبة بخطّ كوفي جميل ، ولا تتميّز عنها إلاّ باسم مكان الضرب .

---

1) Lavoix ، 2 : مصر وسوريا ، رقم 337 ص 129 إسبانيا وإفريقيا رقم 934 ص 407 ، فروجيا (Farrugia) ، المجلة التونسية ، 1936 م ، 333-372 ، 1937 م ، 89-136 ، 1948 م ، 103-131 . والنشرة الأثرية لهيئة الأشغال التاريخية والعلمية ، باريس 1953 م (سنة 1950 م) 119-123 . H. W. Hazard, The numismatic history of late medieval North Africa , نيويورك ، 1952 م ، 52-55 ، 90-93 ـ نقائش القيروان العربية ، السفر 1 ، باريس 1950 م ، 36-38 . 165-166 . أشياء قيروانية ، السفر 4 ، باريس 1952 م ، 469-474 ، إدريس ، حول رجوع بني زيري إلى طاعة الفاطميين ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، الجزائر 1953 م ، 25-39 ، حسن حسني عبد الوهاب ، ديناران نرمانيّان بالمهدية ، المجلة التونسية ، 1930 م ، 215-218 . وحول النقود الصقلية ، انظر ، ستوريا ، 270/2 ، 520 وما بعدها . وحول النقود التي ضربها الفاطميون بمناسبة رأس السنة ، انظر M. Canard ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 394-395 .

2) فتوى ابن أبي زيد القيرواني (ت . 386 هـ/996 م) البرزلي ، مخطوط ، A.W 248/2 ظ ومخطوط الرباط ، 101/2 ظ . (A. W = حسن حسني عبد الوهاب) .

3) كان وكيل أعمال أمّ المعزّ بن باديس يسمى محمد بن محمود السكّاك . وحول طريقة ضرب السكة المرابطية انظر ، جورج مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1936 م ، 180 وما بعدها .

4) حول ضرب السكة بالقيروان قرب دار ابن أبي زيد ، انظر ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 367 .

ورغم أن الدنانير الصنهاجية المضروبة في سنتيْ 439 و 440 هـ/ 1047-1048 م قد حافظت دائماً على طابعها الشيعي وعلى اسم الخليفة المستنصر ، فقد أُدْخِل عليها تغيير جديد بليغ المعنى ، يتمثل في تعويض اسم المنصورية التي أنشأها الخليفة الفاطمي المنصور باسمها القديم صبرة[5] .

وحسب رواية ابن شرف ، أمر المعزّ بن باديس في شهر شعبان 441 هـ/ 29 ديسمبر 1049 م - 26 جانفي 1050 م[6] بتعويض اسم الخليفة الفاطمي والنصوص الشيعية بنصوص سنّية نخصّ بالذكر منها هذه الآية القرآنية [التي نُقِشت في وجه الدينار] : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين ﴾[7] .

وبالفعل فإن جميع الدنانير الصنهاجية المضروبة من سنة 441 إلى سنة 449 هـ/ 1049-1058 م كانت من هذا النوع . ومنها قطعتان تتّسمان بنفس الخصائص ، أولاهما ضُربت في سنة 446 هـ/ 1054-1055 م والثانية في سنة 447 هـ/ 1055-1056 م ، وذلك في مدينة المهديّة التي كان تميم والياً عليها . ولكنّ أغلبيّة تلك النقود قد ضُرِبَت في المنصورية التي نُعِتَت « بمدينة عزّ الإسلام والقيروان » . وفي العبارة المنقوشة على رخامة في أعلى باب صبرة القديم والمؤرخة في سنة 437 هـ/ 1045-1046 م نجد منذ ذلك التاريخ إشارة إلى مدينة « عزّ الإسلام »[8] .

وبعد رجوع المعزّ إلى طاعة الخليفة الفاطمي في سنة 446 هـ/ 1054-1055 م[9] ، لا شكّ أنه قد أعيد ضرب السكة حسب النمط الفاطمي . ومهما يكن من أمر فإن جميع النقود المعروفة ، المضروبة في مدّة المعزّ وتميم بالمهدية من سنة 449 إلى سنة 459 هـ/ 1057-1062 م ، كانت تكتسي صبغة شيعيّة وتحمل اسم الخليفة المستنصر . ولم يصلنا أيّ نقد زيري مؤرّخ بعد سنة 459 هـ ، فهل يعني ذلك أن بني زيري لم يضربوا السكّة بعد ذلك التاريخ ؟ .

يمكن تفسير هذه الظاهرة بالزحفة الهلالية التي لا شكّ أنها عرقلت ، إن لم تكن عطّلت ،

---

5) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1953 م ، ص 29 .

6) البيان ، 1 ، 278-279 . [وفي الحقيقة لم يكن سبك المعزّ الصنهاجي لدنانيره في سنة 441 هـ كما ذكر ابن شرف ، بل إنه ضرب منها لأول مرّة سنة 439 هـ ثم استمرّ على ضرب أمثالها في كلّ عام ، حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، ج 1 - ص 447] .

7) سورة آل عمران ، الآية 79 .

8) نقائش عربية ، 1/87-90 .

9) إدريس ، المرجع السابق ، 25-29 ، آخر دينار من النوع السنّي مضروب في « مدينة عزّ الإسلام والقيروان » مؤرخ في سنة 448 هـ/1056 م .

تزويد البلاد بالذهب الخام الوارد أساساً من السودان عبر الصحراء[10] . أما الذهب الذي تمكّن بنو زيري من الحصول عليه في المهدية بواسطة التجارة البحريّة والجهاد في البحر ، فقد سبق تحويله إلى نقود قبل ذلك التاريخ . وأمّا الفضة فقد كان وجودها نادراً في إفريقية . ألم يكن اهتمام يحيى بالكيمياء وتحويل المعادن ناشئاً في آن واحد عن ذوقه الخاصّ وعن حرصه على تدارك نقص الذهب ؟ ولئن ضرب آخر أمراء بني زيري بعض النقود ، فلعلّ النرمان قد استحوذوا عليها وأعادوا سبكها[11] . وعلى كلّ حال فليست لدينا نماذج من جميع النقود التي ضُرِبت في إفريقية بعد غزوة بني هلال .

ولدينا ديناران سنيّان مضروبان في صفاقس ، الأوّل في سنة 449 هـ/ 1057-1058 م ، والثاني في سنة 461 هـ/ 1068-1069 م في مدّة الوالي حمّو بن مليل الذي استبدّ بمدينة صفاقس من 456 إلى 496 هـ/ 1063-1100 م . وقد استمرّ في ضرب النقود السنّية ، بعد انفصاله عن بني زيري الذين دخلوا من جديد في طاعة الفاطميّين منذ سنة 446 هـ/ 1054-1055 م ، وضربوا النقود الشيعيّة ، على الأقلّ ابتداء من سنة 449 هـ/ 1057-1058 م[12] .

وفي إحدى الفتاوى ورد ذكر دراهم مضروبة في دار السكّة التي أنشأها السلطان ووضع على رأسها رجل جائر ، وكانت جميع النقود المتداولة في المدينة واردة منها . فهل يجوز استعمال مثل هذه النقود لأداء مناسك الحجّ ؟ يرى صاحب الفتوى أنه لا يجوز ذلك بأيّ وجه من الوجوه ، ما دام من الممكن الحصول على « الضرب القديم » . وينبغي أن لا يؤخذ من تلك الدراهم إلا ما به الحاجة لسدّ الرمق ، دون استعمالها لأداء مناسك الحجّ أو لأيّ غرض آخر مماثل[13] . وسئل اللخمي (ت . 478 هـ/ 1085-1086 م) عن النقود التي أصدرها السلطان بالقيروان والمهدية وغيرها من النقود (المحظورة) المستعملة لتسديد رواتب الجند[13م] ، والتي لا مناص من استعمالها

---

10) حول استعمال ذهب سجلماسة لضرب النقود من طرف المعزّ لدين الله الفاطمي ، انظر ، المعزّ ، 33 .

11) هازار (Hazard) ، 55 . إن القطعة الفضية الزيرية الوحيدة المعروفة تتمثل في نصف درهم من النوع السنّي بدون ذكر التاريخ ومكان الضرب . ونفس المؤلف 281-233 ، ولم تقع الإشارة إلى أيّ نقد مصنوع من النحاس .

12) إدريس ، المرجع المذكور ، ص 31 .

13) فتوى ابن محرز (توفي حوالي 450 هـ/1058-1059 م) ، المعيار ، 345/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر 246/1 و . وفي فتوى مماثلة صادرة عن السيوري (ت . حوالي 460-462 هـ/1067-1070 م) ، المعيار ، 424/9-425 أشير إلى أن السلطان قد أنشأ في تلك المدينة « سكة تُضْرَب من مال واليها وليس من مال التاجر » .

13 م) « يأخذ الجند في أرزاقهم » .

لعدم توافر الأفضل . فأبدى الفقيه رأياً متسامحاً ، متعلّلاً بضرورة استعمال ما هو متوفر من النقود[14] .

وبعد غزوة بني هلال ، ظهرت عدّة نقود مزيّفة[15] . وعلى كلّ حال فقد تكاثرت قطع النقود حتى أصبح من الضروري في المعاملات التنصيص على عدد القطع ووزنها ونوع الضرب[16] .

وفي آخر العهد الصنهاجي كانت متداولة عدة قطع شوسيّة وطرابلسية وغيرها. .[17] . إذ لا شكّ أن أمراء الطوائف قد ضربوا السكّة باسمهم . وهذا ما فعله صاحب قابس رُشَيْد بن كامل بن جامع (515-541 هـ/ 1121-1147 م)[18] ، ونسج على منواله خلفاؤه بلا شكّ . ويقال : إن تلك النقود كانت من النّوع السنّي[19] . وقد وردت في فتوى صادرة عن الإمام المازري (ت . 536 هـ/ 1141 م)[20] البيانات التالية : إنّ الدّنانير الصفاقسيّة المعروفة بالرُّبُعِيّة[21] وغيرها من الدنانير الإفريقيّة كالثُّلُثِيّة واللّواتيّة[22] والسوسيّة[23] ، كلها نقود مغشوشة لا ينبغي

14) البرزلي ، مخطوط A.W. 201/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 42/2 و .

15) فتوى السيوري ، المعيار ، 297/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 232/1 ظ : حول الدنانير والدراهم المشوبة .

16) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 42/2 و- ظ . المختصر ، 67 ظ ، فتوى المازري ، المعيار ، 238/3 ، البرزلي ، مخطوط A.W. ، 84 ظ : يجب أن يذكر الشهود نوع وتاريخ وخصائص الضرب .

17 فتوى المازري ، المعيار ، 212/6-217 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و .

18) روى ابن خلدون (العبر ، 167/6) أن رشيد بن كامل ضرب « السكّة الرُّشَيْدية » .

19) حول قطعة منسوبة إلى الرشيد بن رافع ، مضروبة في قابس سنة 551 هـ/1156-1157 م . انظر ، هازار ، 55-56 ، 94 الذي اقترح قراءة الرُّشِيد بن الرُّشِيد واعتبر هذا الشخص واحداً من ابنيْ الرُّشِيد (= الرُّشَيْد) (ت . 543هـ/1148-1149 م) اللذين خلفاه الواحد تلو الآخر ، وهما محمد ثم مدافع . ولا يمكننا البتّ في هذه القضية لأنّ تاريخ قابس في تلك الفترة غامض أكثر من اللزوم . فهل تمت قراءة تلك القطعة كما ينبغي ؟

20) المعيار ، 212/6 ، 217 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و .

21) ربما لأنها كانت تحتوي على كميّة من الذهب أقلّ 4 مرات من الدنانير الفاطمية الزيريّة . انظر فروجيا ، المرجع السابق ، 1950 م ، (باريس 1953 م) ، 119-123 ، حوال دينارَيْن من النوع السني ضُربا في صفاقس ، الأول في سنة 447 هـ/1057-1058 م ، ويزن 4,08 غرام والثاني في سنة 461 هـ/1068-1069 م في مدة حمّو بن مليل ويزن 4,20 غرام .

22) حسب البرزلي ، أي نقود لواتة . والجدير بالتذكير أن البكري ، 145 ، قد أشار إلى وجود منجم فضة تابع لقبيلة لواتة البربرية في منطقة مجّانة المعادن . وفي المعيار ، نقود لوّانية ؟

23) حسب البرزلي ، مخطوط الرباط ، وفي المعيار ، سُدَاسيّة . وفي فتوى لأبي القاسم المناري السوسي ورد ذكر 150 ديناراً سوسيّة ، البرزلي ، مخطوط A.W 60/2 ظ .

وزنها مع الدنانير المرابطية[24] أو الطرابلسية .

ويبدو أن النّاس كانوا يحتاطون عند تقدير المبالغ المعبّر عنها بالدنانير التميميّة ، وذلك مثلاً لتحديد قيمة صداق[25] . ومن المحتمل أن يكون الدينار المهدوي والدينار التميمي متطابقَيْن[26] .

وقد ضرب ملك النرمان رُجار الثاني ثم ابنه غليوم الأوّل نقوداً ذهبيّة باسمهما في المهدية . وهي نقود عربية الصيغة ، مقلّدة بصورة تكاد تكون تامّة عن دنانير الخليفة الفاطمي الظاهر (411-427 هـ/ 1021-1036 م)[27] .

وكان المنصور بن الناصر أوّل من ضرب السكة من أمراء بني حمّاد[28] . وتتمثل الإشارة الوحيدة التي لدينا حول النقود الحمّادية في الوصف الذي قدّمه ابن خلدون لدينار مضروب بالناصريّة (= بجاية) سنة 543 هـ/ 1148-1149 م ، في عهد يحيى بن العزيز بالله ، باسم الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله[29] .

كما ضرب السكّة الداعي أبو الفهم الذي أوفده الخليفة العزيز إلى كتامة سنة 376 هـ/ 986-987 م[30] ، وقامت بنفس العمل أسرة بني خزرون التي استبدّت بالحكم في طرابلس (391-541 هـ/ 1001-1147 م) . ونُقِشَت على دينار مؤرخ في سنة 425 هـ/ 1033-1034 م أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة[31] .

ويقال ـ كما أسلفنا ـ : إنّ القائد الفاطمي الحسن بن علي بن ملهم قد ضرب في قابس نقوداً ذهبيّة وفضيّة باسم المستنصر حوالي سنة 455 هـ/ 1063 م .

---

24) حول الدنانير المرابطية المضروبة في سجلماسة ، انظر ، مازار ، 96-99 .

25) فتوى المازري ، المعيار ، 221/3 ، 237 ، البرزلي مخطوط A.W ، 63/2 ظ ، 64 و ـ 66 و : حدّد صداق بمبلغ 100 دينار كِبَار من الذهب من الدنانير التميمية . وفي المعيار حُذِفَت كلمة كبار . ويتعلّق الأمر بالقيمة لا بالمعيار . وفي فتوى لأبي الفرج التونسي ، يبدو أن قيمة النقد بالنسبة إلى صداق قيمته 60 ديناراً تميمية لا تبلغ سوى 30 أو 40 أو 80 ديناراً صفاقسية عوض 120 $\left(\frac{4 \times 6}{2}\right)$ ، إذا كان صحيحاً أن الدينار الصفاقسي يسمّى رُبُعِيًا لأن قيمته تساوي ربع الدينار العادي (أو التميمي) ، المعيار ، 221/3 ، والبرزلي ، مخطوط A.W. ، 64/2 و .

26) فتوى المازري ، المعيار ، 243/3 : جهاز قدره 2000 دينار مهدويّة .

27) وحول دينار ضربه رجار بالمهدية سنة 543 هـ/1148-1149 م وآخر ضربه غليوم سنة 549 هـ/1154-1155 م ، انظر ح . ح . عبد الوهاب ، المجلة التونسية ، 1950 م (الثلاثية الأولى والثانية) ، 215-218 . [ولنفس المؤلّف ، ورقات ، الجزء الأول ص 451-425] .

28) حسب ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق عبد الرحمان محمد (ص 184) الذي استشهد بتاريخ ابن حمّاد .

29) العبر ، 177/6 (نقلاً عن ابن حمّاد) ، انظر أيضاً Canard ، 95-96 .

30) البربر ، 14/2 الهامش 1 (حسب النويري) .

31) فروجيا ، المجلّة التونسية ، 1948 م ، 105-106 .

الفصل السابع
الماليّـة

الغالب على الظنّ أن الأمير الصنهاجي كان مستحوذاً على بيت المال . وحسب شهادة القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) كان السلطان يغتصب خُمُس الغنيمة الراجع شرعاً إلى المسلمين أي إلى الخزينة العمومية التي لا يجوز للإمام أو نائبه إلاّ إدارتها حسب التعاليم الفقهية(1) . وقد كانت إيرادات المغارم(2) (أي الضرائب) الموظفة على المسلمين منذ عهد بني عُبَيْد تتدفّق على « ديوان » السلطان ، أي المصلحة المالية المركزية الموجودة بلا شكّ في صبرة المنصورية حتى تاريخ زحفة بني هلال ، ثم في المهدية بعد ذلك التاريخ .

والجدير بالتذكير أن المعزّ لدين الله الفاطمي ، قبل خروجه من إفريقية إلى المشرق ، « أمر الكتّاب وولاة الأشغال (أعوان الماليّة) بالسمع والطاعة لبلكّين »(3) . ونستنتج من هذه الإشارة أنه كان يوجد إلى جانب كلّ والٍ ، أمين مال ربّما مستقلّ عنه يحمل عنوان « والي الأشغال » أو العامل ، بمعنى المدير الجهوي للمالية(4) .

وقد فوّض الخليفة إلى بلكين الإدارة المالية بأسرها وجباية الضرائب ، ولكنّه عيّن كبار

1) المعيار ، 310/1 . ابن خلكان ، 240/2 (نقلاً عن ابن شدّاد) : استدعى تميم ولده في دار الإمارة واستقبله في بيت المال قرب غرفة توجد بها كتب . فتوى السيوري (ت . 460-462 هـ/1067-1069 م) ، المعيار ، 411/9 : لا يمكن تطبيق القواعد الشرعية على مستغرق الذمة (خارج عن القانون) ، وينبغي توزيع المكاسب المغتصبة على ضحايا الفقراء إن وُجدوا ، وإلاّ توزيعها كصدقة أو استعمالها لبناء الجسور أو تحويلها إلى بيت المال .

2) فتاوى اللخمي (ت . 478 هـ/1985 م) ، المعيار ، 120/6 ، وهي تتعلق بجابٍ فاسد : « يزن في ديوان السلطان المغارم المبسوطة على المسلمين بسطها بنو عُبَيْد . . . » . فتوى ابن محرز (ت . 450 هـ/1050 م) المعيار ، 138/10-293 ، البرزلي ، المختصر ، 125 ظ ؛ كانت إحدى العائلات توفّر الموظفين لديوان الخراج مدة ثلاثة أجيال ، وكانوا يستخلصون المداخيل السلطانية بالدنانير والدراهم .

3) البيان ، 228/1 .

4) برنشفيك (الدولة الحفصية) [الترجمة العربية 53/2-66] .

المسؤولين عن المالية وأمرهم بالسمع والطاعة للأمير[5] وهم :

ـ أبو مُضَر زيادة الله بن عبد الله بن القديم المكلّف بجباية الأموال (الضرائب) في إفريقية[6] ، « ونظر الدواوين بسائر كور (أقاليم) إفريقية » .

ـ وعبد الجبّار الخراساني والحسين بن خلف المرصدي ، مديرا الخراج .

ولا ندري ماذا كانت صلاحيات كلٍّ منهما ، وهل كانا راجعَيْن بالنظر إلى الأمير مباشرة أو إلى أبي مضر زيادة الله .

ويبدو أن المسؤولين عن الجباية في الأقاليم كان يُطلَق عليهم اسم « ولاة الأشغال »[7] ، ولكن رئيسهم لم يكن يحمل اسم « صاحب الأشغال »[8] .

وقد رأينا كيف استأثر عامل إفريقية بالشؤون المالية اعتباراً من سنة 364 هـ/ 974-975 م . ولكن حتى بعد هذا التاريخ ، احتفظ الخليفة الفاطمي ، خلال فترة لا نعرف مدّتها بالضبط ، بحقّ النظر في أموال الدولة الصنهاجية . فقد أمر بلكّين في سنة 663 هـ / 976-977 م بوضع حدّ للجباية المشطّة التي فرضها عبد الله بن محمد الكاتب على الناس . « وفي سنة 367 هـ بعث عبد الله الكاتب عامل إفريقية المال المجموع إلى ملك مصر العزيز بالله بأمر أبي الفتوح (بلكين) من قِبَل العزيز بالله ، وكتب على كلّ صُرّة اسم صاحبها . . . ولما وصل المال إلى مصر ، ردّ العزيز بعض الصُّرَر إلى أربابها »[9] . وفي مناقب الجبنياني (ت . 369 هـ/ 974 م)[10] ورد ذكر ضريبة فرضها عبد الله بن محمد الكاتب على أهل القيروان ، وقد أساء معاملتهم لابتزار ذلك المال الذي نُعِتَ في

---

5) في عهد عبيد الله كانت توجد أربع مصالح مالية متميّزة على رأس كل واحدة مسؤول عنها وهي : بيت المال وديوان الخراج والسكة والعطاء ، البيان ، 159/1 ، المؤنس ، 60-61 : في سنة 342 هـ/973-974 م عُهِد بخراج إفريقية إلى صولة الكتامي ، الاتعاظ ، 186 : في سنة 363 هـ/973-974م عيّن المعز لدين الله في القاهرة موظفَيْن اثنين على رأس ديوان الخراج وموظف آخر على رأس بيت المال ، المعزّ ، 170-171 .

6) في فتوى صادرة عن اللخمي ، المعيار ، 423/9 أشير إلى شخص دخل بطوع إرادته إلى « جباية السلطان » في الديوان الذي أسّسه بنو عُبَيد .

7) البيان ، 228/1 .

8) هـذا العنوان أطلق في صقلية على عبـد الرحمان النصراني وزير المـالية في عهـد رُجار ، التجاني ، 333 ، ستوريـا ، 369-370 ، ابن خلدون ، المقدمة ، 14/2-15 ، دوزي ، الملحق ، 467/1 ، برنشفيك ، المرجع المذكور .

9) البيان ، 230/1 .

10) مناقب ، 64 ، 252-3 .

النصّ « بمال المغرمَيْن » أي الضريبتَيْن[11] .

وفي سنة 373 هـ/ 984-985 م اشترى عامل إفريقية سودانيّين لضمّهم إلى حرسه الخاص ، ووظّف لهذا الغرض ضريبة على العمّال وأصحاب الخراج وكبار رجال الدولة . وأشير في السنة الموالية إلى خزائن الدولة وبيت المال المغلقة ، وإلى أصحاب الخراج ، وهم ـ حسبما يبدو ـ الأمناء الذين تحدّث عنهم ابن أبي دينار .

ولما أقرّ المنصور عبد الله الكاتب في خطة عامل إفريقية ، أوضح أنه مكلّف بجباية أموال القيروان والمهدية وسائر إفريقية . ولم نجد في المصادر أيّ إشارة لخزينة الأمير . بل بالعكس من ذلك ، فإن عبد الله الكاتب هو الذي وزّع ، بإذن من الأمير ، 10.000 دينار على أهل القيروان الذين جاؤوا ليسلّموا عليه في أشير ، وهو الذي موّل بناء قصر المنصور بصبرة الذي بلغت كلفته 800.000 دينار .

وحتى تاريخ القطيعة مع القاهرة ، بلغت قيمة الهدايا الموجّهة إلى الخليفة حدّاً ربما يجعل من الأصحّ وصفها بالجزية[12] . وفي مدة نائب الأمير « شيخ الورد » فُرِضت على البوادي غرامة باهظة وأُعفِي منها أهل القيروان . والجدير بالملاحظة أن هذا الأسلوب المطابق للنصائح التي كان الخليفة قد أسداها إلى بلكين ، يختلف تماماً عن الطريقة التي توخّاها عبد الله بن محمد الكاتب والرامية ـ كما أسلفنا ـ إلى توظيف الضرائب على المدن بوجه خاصّ . فقد كان يقوم بحملات عسكريّة حقيقية شبيهة بالحملات التي ستنظّم في العصر التركي ، « لجباية الأموال » . وكان ابن البوني يجمع الضرائب ويتلقى في كلّ بلدة الهدايا المقدّمة إليه طوعاً أو كرهاً وينفق بلا حساب على حاشية العامل التي كانت تقيم في بعض المدن عدّة أشهر حسب هوى سيّدها . وقد تحمّل المنصور هذه الفضيحة مدة طويلة .وإثر وفاة الحسين بن خلف المرصدي (380 هـ/ 990-991 م) ، فوّض خراج القيروان (أي إفريقية) إلى موظّفَيْن اثنين هما محمد بن عبد القاهر بن خلف وسلامة بن عيسى اللذان كانا يجلسان مع بعضهما في ديوان خراج صبرة المنصورية . والجدير بالتذكير أن المرصدي كان قد عيّنه المعزّ لدين الله الفاطمي في آن واحد مع زميله عبد الجبار الخراساني الذي لا ندري ماذا كان مصيره فيما بعد . وعلى كلّ حال ، نلاحظ أنّ صاحب أو أصحاب الخراج لم يتمّ

---

11) وفي رواية أخرى : مال المُقَدَمتَين ، أو ربما : مال التقديمتَيْن .

12) قُدِّرت الهدايا التي وجّهها المنصور إلى الخليفة العزيز حوالي سنة 374 هـ/984-985 م بمبلغ مليون دينار ذهب .

تغييرهم منذ بداية الدولة الصنهاجية وأن قرار المنصور يدلّ على ما كانت تتميّز به تلك الخطة من استقرار وقد عُهِد بها ـ كما كان الشأن في الماضي ـ إلى موظّفَيْن اثنين، وأُقيم مكتب الخراج في صبرة المنصورية ، أي في محلّ إقامة الأمير ومقرّ الإدارة السلطانية .

وفي سنة 381 هـ/ 991-992 م أعفى الأمير سكّان البوادي من دفع ما تخلّد في ذمتهم من بقايا الخراج ، وجدّد هذا الإعفاء في السنة الموالية ، ولعلّ الأمر يتعلّق بنفس الإجراء الذي اتُّخِذ في سنة 381 أو 382 هـ . ولا شكّ أنّ هذا العفو الجبائي ينمّ عن رغبة في تحقيق العدالة . ذلك أنّ الأمير ، بعد مدّة قليلة من محاولة استرجاع الأموال التي ابتزّها ابن البوني وابنه ، وإثر قتل ذلك الموظّف الجائر ، عزل « شيخ الورد » وعوّضه بمحمّد بن أبي العرب الكاتب .

وحسب إشارة وردت من باب الصدفة[13] قبل سنة 405 هـ/ 1014-1015 م ، كان المسمّى عيسى بن خلف يحمل عنوان « صاحب خراج المغرب » .

ولا شكّ أن إيرادات الجباية العينية كانت تُجمَع في المخازن . فقد أخبرتنا بعض المصادر أن مخازن عامل الأربس كانت تحتوي في سنة 382 هـ/ 992-993 م على 600.000 قفيز من الطعام (أي الحبوب) .

وكانت الهدايا المقدّمة إلى الأمير من قِبَل العمّال بمناسبة ارتقائه إلى العرش أو في بعض المناسبات العائلية ، على غاية من الأهمية ، فهي بمثابة ضريبة حقيقية . من ذلك أن عامل طرابلس قد قدّم إلى المنصور بمناسبة ختان ابنه باديس « هديّة جليلة فيها مائة حمل من المال » .

ويبدو أنّ بلاد كتامة كانت تتجاهل السلطة الصنهاجية ولم تدفع لها الضرائب إلى حدود سنة 376 هـ/ 986-987 م . ففي ذلك التاريخ دخل عمّال وجنود بني زيري للمرّة الأولى إلى تلك البلاد ، فجبوا الأموال وراقبوا السكان عن كثب . وبهذه المناسبة أعطت المصادر بصورة واضحة لكلمة « عامل » معنى الوالي المدني المكلّف بالجباية أوّلاً وقبل كلّ شيء .

ومن بين الامتيازات التي منحها باديس إلى تلاميذ محرز بن خلف قبل سنة 396 هـ/ 1005 م ، الإعفاء من « المظالم » (المكوس) . وقد تمّ تأكيد هذا الإعفاء بمقتضى الظهير[14] الذي

---

13) الحصري ، زهر الآداب ، 221/1 : نظم النهشلي (ت . 405 هـ/1014-1015 م) قصيدة في رثاء هذا الشخص الذي توفّي من أثر دواء تجرّعه .

14) مناقب ، 316-319 ، 325 ، الهامش 155 .

أصدره المعزّ بن باديس سنة 417 هـ/ 1205 م وأمر « من وقف عليه من العمّال وسائر الولاة بأن يعمل ممتثلاً لشروطه ، واقفاً عند حدوده وزواجره » .

وقد جاء في هذا الظهير الموجّه إلى محرز بن خلف ما يلي :

« اقتضى النظر بهذا الظهير لجماعتكم بحفظكم ورعايتكم وحمايتكم وحسن معاملتكم ، وحفظ الأنصار الصائرة إلى حضرتكم وحسم الأيدي الممتدّة إلى إساءتكم وأهلكم وأموالكم ورعاياكم بحضرة تونس وباديتها وشركائكم وأتباعكم ، ومن عرف بكم وانتسب إلى نسبتكم وأوى إلى جنابكم ، ورَفْعِ الأيدي عن عشوركم في قرية أوسانية . . . وما أطاف بمدينة تونس ، وحرم دياركم وزاويتكم . . . وتسريح أعشاركم وإجرائكم على فارط رسمكم وجري عادتكم ، طائعين لجميع ما تضمّنه هذا الظهير الكريم »[15] .

وكان محمد بن الحسن نائب الأمير بإفريقية المعيّن في هذا المنصب إثر ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش يجبي الضرائب لفائدته ، وقد أخذ أموالاً من الخزينة ولم يرجعها ، وجمع ثروة طائلة على حساب الدولة . فأمر المعزّ بقتله في سنة 413 هـ/ 1002 م وصادر جميع ممتلكاته وعوّضه بزمام الدولة أبي القاسم بن أبي عبّود محمد بن أبي العرب الكاتب . وفي السنة الموالية عهد بالوزارة الكبرى إلى أبي البهار بن خلوف الذي كانت صلاحياته تتمثل بالخصوص في جباية الأموال وولاية العمّال وسائر الأشغال . وكان مقرّ بيت المال في آخر عهد تميم يقع ـ كما أسلفنا ـ في دار الإمارة الكائنة بالمهديّة .

ونقلت إلينا المصادر اسم « المتولّي لأشغال أمّ المعزّ » ، وهو محمد بن محمود ابن السكّاك . ويمكن أن نستنتج من لقبه أن جدّه كان مكلّفاً بالسكّة .

ويبدو من العبارات التي أوردها ابن عذاري[16] عند حديثه عن نكبة القائد عبّاد بن مروان الملقّب بسيف الملك ، أنّ هذا الموظف الذي « استعمل في أعماله » أعواناً لجباية الأموال ، كان يشرف على ماليّة الدولة الصنهاجية التي تصرّف فيها طوال عهد تميم بن المعزّ ، جرجي الأنطاكي . وقد أخبرنا التجاني أنّ تميماً « قد حكّمه في دخله وخرجه ، وجعل مصارف الأموال لنظره ، فصارت أموال المسلمين كلّها في يده وأيدي أقاربه »[17] . وفي سنة 480 هـ/ 1087-1088 م دفع تميم

15) [انظر النصّ الكامل لهذا الظهير في « نزهة الأنظار » ، (طبعة بيروت) ج 1 ص 369-370] .

16) **البيان** ، 279/1 .

17) **رحلة التجاني** ، ص 333 .

للمتغلبين عليه مبلغ 100.000 دينار ، قسم منه نقداً والآخر في شكل أوانٍ من المعدن النفيس .

وليست لدينا معلومات مدقّقة حول السياسة الجبائية التي طبّقها النرمان في ممتلكاتهم الإفريقية . والغالب على الظنّ أن العامل الأهلي المشرف باسمهم على إدارة المدينة هو الذي كان يجمع مداخيل الجزية والخراج ويسدّدها إليهم . وفي جزيرة جربة التي استولوا عليها سنة 529 هـ/ 1134-1135 م ، عيّنوا عاملاً عليها وفرضوا الجزية على أهلها .

وفي نفس الوقت الذي عيّن فيه عبد المؤمن بن علي ابنه عاملاً على إفريقية ، عهد « بالأعمال المخزنية » إلى موظف آخر ، يبدو أن صلاحيّاته كانت تكتسي أوّلاً وبالذات صبغة مالية .

الفصل الثامن
القضاء

الحاكم :

لا يبدو أنّ بني زيري قد قاموا بمهمّة « ردّ المظالم » ، لا بصورة مباشرة ولا بواسطة قاضٍ خاصّ[1] ، فقد كان يتولّى القضاء شبه المدني ، قبل ارتقائهم إلى الحكم ، قاضٍ يسمّى على حدّ السواء ـ حسبما يبدو ـ صاحب المظالم والحاكم[2] . وقد كان هذا القضاء يكتسب صبغة أسرع

1) لقد قام الخلفاء الفاطميون بمهمّة ردّ المظالم بأنفسهم ، انظر، المعزّ، 203-203 . وحول ردّ المظالم في العهد الحفصي ، انظر ، برنشفيك ، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** [الترجمة العربية ص 145-146] .

2) المدارك ، 2-30/3 و : مظالم القيروان ، حاكم ، **معالم الإيمان** ، 75/3 : « صاحب مظالم القيروان والحاكم بها أيّام أبي زيد » ، المدارك ، 2-25/3 ظ : عهد القاضي ابن طالب إلى عبد الله بن الوليد (ت . 290 هـ/910-911 م) ، بأسواق القيروان وموازينها .

وحول صاحب السوق (ت . 299 هـ/911-912 م) ، انظر ، **البيان** ، 167/1 . وألّف الفقيه الأندلسي المقيم بسوسة يحيى بن عمر بن يوسف كتاباً بعنوان « **أحكام السوق** » ، خصّه حسن حسني عبد الوهاب بدراسة هامّة غير منشورة .

وكان أبو إبراهيم أحمد بن أبي الوليد (ت . 345 هـ/956-957 م) صاحب المظالم وحاكم القيروان في أيّام أبي يزيد الذي كان قد طلب من أهل القيروان تعيين شخص ليتولى الأحكام الشرعية ، فاختاروا هذا الشخص لكفاءته وتديّنه . وكان أيضاً يتولى الصلاة والخطبة في الجامع الأعظم بالقيروان ، **معالم الإيمان** ، 75/2 ، إدريس ، **مجلة الدراسات الإسلامية** 1935 م ، 171-172 (ص 171 : أبو العبّاس بن أبي ثوبان ، وحول الطرزي (ت . 317 هـ/929-930 م) ، نجد المرادفات التالية : مظالم القيروان ، حكومة القيروان ـ أسواق القيروان ، أحكام القيروان ، الحسبة ، المدارك ، 2-4/3 ظ . ومعالم ، 7-8/3 والبيان .

وأكّد مقديش 124/1 [طبعة بيروت ، 331/1] أن أبا القاسم الطّوزي (كذا) كان قاضي صقلية والمحتسب بالقيروان . ولكن الأمر يتعلق بشهادة متأخّرة تؤكد مع ذلك أن خطة الحاكم كانت مطابقة لخطة المحتسب .

وحسب المدارك ، 2-4/3 ظ . يبدو أن إبراهيم بن الخشاب كان مكلفاً في فترة ما بمظالم القيروان ، في حين كانت الحسبة من نصيب الطّرزي [أو الطوزي] . وكان الشخص الأول الملقب بحارث الحسبة مكلفاً « بأحكام القيروان » وقضاء رقّادة ، **البيان** ، 185/1 . وكان ابن اللبّاد (ت . 333 هـ/944 م) كاتب ابن الخشاب في أوّل الأمر ثم كلّف بمظالم القيروان ، المدارك ، 2-148/3 و . ويطلق اسم حاكم في المصادر الخارجية على عمّال جبل نفوسة الإباضيين . انظر T. Lewicki ، **دراسات إباضية** ، 42/1 ، 125 ، 126 ، 127 ومواضع أخرى ، ليفي بروفنسال ، **إسبانيا الإسلامية** ، 83 ، 89 ، 94 ، **سيرة جوذر** ، 99 ، 123 .

وأنجع وأكثر مرونة من القضاء الشرعي المتقيّد بالإجراءات الشرعية . وكانت صلاحيّات الحاكم في عصر الإمام سحنون مقتصرة على النظر في القضايا التي لا تتجاوز القرارات المتّخذة في شأنها 20 ديناراً ثم ارتفعت فيها بعد إلى 100 دينار . وكان القاضي الشرعي هو الذي يعيّن ذلك المقدار[3] .

ويبدو أنّ الحاكم قد اضطلع أيضاً بمهامّ المحتسب الذي كان يسمّى قبل العصر الصنهاجي « صاحب السوق » . ولا شكّ أنّ العبارة الواردة في مناقب محرز بن خلف (ت . 413 هـ/ 1022-1023 م) ، « الماسك بسيف وسوط السلطان » تعني الحاكم[4] .

« وفي سنة 398 هـ (1007-1008 م) توفّي صاحب المظالم بإفريقية محمد بن عبد الله ، وكانت وَطْأته قد اشتدّت على أهل الرِّيَب والفساد بالضرب والقتل وقطع الأيدي والأرجل ، لا تأخذه فيهم لومة لائم »[5] .

وكانت الشؤون البلدية والتجارة والصناعة راجعة بالنظر لا محالة إلى الحاكم .

ومن الجدير بالتذكير أنّ أوّل من تولّى القضاء في القيروان من آل بني هاشم ، كان قد شغل قبل ذلك منصب حاكم القيروان سنة 337 هـ/ 948-949 م[6] .

وقد عُرضت على الحاكم قضيّة الفتاة التي اُفتُضّت بكارتها ثم سلّمها ابن عمّها إلى صنهاجة . ولما استفتي القابسي حول هذه القضيّة أشار على القاضي بجمع شهادات تتعلق بحسن

---

3) المدارك ، 2-14/3 و : حبيب بن نصر (ت . 286 أو 287 هـ/899-900 م) عيّنه سحنون (صلاحيته محدودة بعشرين ديناراً) ، نفس المرجع ، 2-4/3 وظ : سليمان بن سالم القطّان (ت . 289 هـ/901-902) سمّاه عيسى بن مسكين (رفعت صلاحياته إلى 100 دينار) .

وعهد القاضي ابن طالب خلف بن جُبَيْر بالحكومة بالقيروان ، المدارك ، 2-30/3 و .

وفي سنة 320 هـ/932 م عيّن عُبَيْد الله قاضياً على طرابلس أحمد بن بحر الذي كان عهدئذٍ « صاحب مظالم القيروان وصلاتها » ، وكان قد عهد إليه بذلك الخطة القاضي إسحاق بن أبي منهال . ونلاحظ هنا الجمع بين مهام صاحب المظالم وصاحب الصلاة . وكان سلفه الملقب بصاحب الوثائق مكلّفاً بقضاء ووثائق طرابلس . ولا ندري هل أن هذا التمييز يعني وجود قاض وصاحب الوثائق بالقيروان . انظر ، البيان ، 205/1 ، أبو العرب ، 225 ، المدارك ، 2-174/3 ظ ، 175 و : كان أبو علي الحسن بن نصر (ت . 341 هـ/952-953 م) المكلّف من قبل القاضي حماس بأحكام سوسة ، يقوم بمهمة الحاكم ، حيث كان يقاوم فساد الأخلاق .

4) مناقب ، 286 .

5) البيان ، 258/1 .

6) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و [طبعة بيروت ، 357/2] : صلّى على القاضي ابن أبي منظور (ت . 337 هـ/948-949) ، « عبد الله بن هاشم وهو يومئذٍ حاكم القيروان » .

سلوك ذلك الشخص ، فإن أسفر التحقيق عن نتائج سلبية يجب سجنه ، مع التذكير بأنه مهما كان الأمر لا ينبغي تطبيق الحدود على الشّبهات[7] .

وفي فتوى أخرى لنفس الفقيه ، ورد ذكر مدين قد سجنه الحاكم ، اعتماداً على شكوى صادرة عن الدائن[8] .

وتضمّنت فتوى لابن العطّار إشارة إلى قضيّة عرضت على الحاكم الذي تسلّم وثيقة تقرّ البيّنة[9] .

وجاء في فتوى للإمام المازري أنّ حاكماً كان يستشير مَنْ لم يبلغوا درجة الفتوى ويصدر أحكامه على أساس آرائهم الشرعية[10] . وتدلّ هذه الوثيقة على أنّ الحاكم في عهد بني زيري ، وربّما قبل ذلك ، كان يطبّق على الأقلّ في بعض الحالات إجراءات مماثلة للإجراءات التي يتّخذها القاضي الشرعي .

وفي قضية إقرار بالدّين معروضة هي أيضاً على المازري حكّم الطرفان حَكَماً « وأشهدا على أنفسهما بإنفاذ حكومته »[11] . وقد اشتكى المدين من تعرّضه لضغوط الحاكم الذي « طبع على مخزنه »[11م] .

ورغم أن مهمّة الحاكم كانت تتضمّن أيضاً الحسبة في عهد بني زيري - حسبما يبدو - فليس من المستبعد أن تكون هذه الوظيفة الأخيرة قد ظلت قائمة الذات بصورة غير ثابتة ، على الأقلّ من الناحية النظريّة . فقد نظر السيوري في إحدى فتاواه في صحّة شهادة أدلى بها أحد الشهود أمام محتسب أو قاضٍ جاهل[12] . ولعلّ عبارة محتسب الواردة في هذه الفتوى مرادفة لعبارة حاكم ، وهو قاضٍ تشمل صلاحياته في آن واحد ردّ المظالم والحسبة بوجه عام ، وشرطة الأسواق بوجه خاصّ . والجدير بالملاحظة أنّ هذه الصّلاحيات تختلف وعلى الأقلّ تتميّز عن صلاحيّات القاضي الشرعي .

---

7) فتوى القابسي (ت . 403 هـ/1012 م) ، المعيار ، 433/9 .
8) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 429/9-430 .
9) فتوى أبي حفص عمر بن العطار (ت . 450 هـ/1058 م) نفس المصدر ، 126/6 .
10) فتوى المازري (ت . 536 هـ/1141 م) نفس المصدر ، 269/10 .
11) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 188/2 ظ .
11 م) [أي ختم بالشمع الأحمر] .
12) فتوى السيوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) ، المعيار ، 92/10 .

ونحن لا نعلم بالضبط أسماء الأعوان التابعين للحاكم ، ولعلّهم كانوا يحملون ، لا سيما في الأسواق ، الاسم الذي كان يطلق في عصر سحنون على مساعدي المحتسب وحتى القاضي ، وهو « الأمين » (ج . أمناء)[13] . كما ورد في بعض المصادر ذكر « ناظر السوق » ، عند الحديث عن سوق ابن هشام[14] .

وفي بعض الحالات الهامة ، يقع اللجوء ، وفقاً للتعاليم الفقهية إلى الأمير ، صاحب السلطة الزمنية والروحيّة .

وقد أثارت الأراء التي أبداها أبو الحسن علي بن أبي طالب العابر حول الهيجان في القيروان ، ما دفع الفقهاء المتخالفين معه إلى تفويض الأمر إلى السلطان . وقد اعتبر محرز بن خلف بتحسّر أن هذا الدّواء أضرّ من الداء[15] .

واستفتي ابن أبي زيد [القيرواني] حول العقوبة الواجب تسليطها على من تطاول على الدين فأجاب : « عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان »[16] .

وفي عهد باديس ، حسب الاحتمال ، أحيل على الأمير سكّير متّهم بالتهجم على مقام الرسول [ﷺ] ، وكان مكبّلاً في الأغلال ، فأودع السجن بعدما ثبتت عليه البيّنة . ورغم ذلك فقد عرضت القضية على القابسي ، كبير فقهاء المالكية في القيروان بلا نزاع ، لإبداء رأيه حول العقوبة التي يجب على السلطة المدنية تسليطها على الجاني[17] .

وفي قضيّة مماثلة اتُّخِذت نفس الإجراءات ، واستُفْتِي القابسي[18] . ومن المعلوم أن الجاني في قضيّة الحال يستحقّ الإعدام ، اللّهم إلاّ إذا كانت هناك ظروف تخفيف مثل حالة السّكر ، حسب رأي القابسي .

وفي سنة 438 هـ/ 1046 م عُرِضَت قضيّة التونسي على المعزّ بن باديس الذي اتخذ قراره المعروف[19] ، بمساعدة ثلاثة علماء من كبار أهل السنّة .

---

13) الحلل ، مخطوط دار الكتب الوطنية تونس ، 140 و ، بساط ، 27 .
14) نقائش عربية ، 2/ عدد 341 .
15) منقاب ، 286 .
16) فتوى ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/996 م) ، المعيار ، 276/2 ، 276 .
17) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 276/2 ، 406 .
18) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 280/2 ، 407-408 .
19) إدريس الكراسات التونسية ، 1956 م ، 508-517 .

واشتكى مظلوم إلى السلطان الذي بحث عن المذنب بواسطة أعوانه وأودعه السجن . وبعد مدّة قليلة قدّم المشتكي إلى السلطان بيّنة ضدّ السجين . واستُفتيَ ابن محرز حول هذه القضية ، فأجاب : أن المشتكي يستحقّ التأديب لأنه التجأ إلى السلطان . وعليه أن يعوّض خصمه عمّا ألحقه به الأمير من أضرار بسبب تلك الشكوى ، وسوف لا تُعتمَد شهادته في المستقبل . واعتبر فقيه آخر لم يُعرَف اسمه أنّ من يشتكي إلى سلطان أو إلى عامل جائر ، يجب عليه أن يعوّض المتهم بقدر ما تعرّض له من تجاوزات . ولكن إذا لم يجد المظلوم ملاذاً آخر غير السلطان ، وإذا اغتنم السلطان الفرصة لتسليط عقوبات قاسية وغرامات جائرة على المتهم ، فإن المشتكي غير مطالب بدفع أي تعويض[20] . وأبدى ابن أبي زيد هذا الرأي : يجب تأديب المشتكي ولكنه غير مطالب بأيّ تعويض ، « هذا قول أصحابنا »[21] .

وسئل نفس الفقيه حول قضيّة رجل اشتكى إلى السلطان من « ظُلْمٍ » ، وهو يعلم أن المتّهم سيكون ضحيّة إجراء تعسّفي من قِبَل السلطان ، وهذا ما وقع بالفعل . فأجاب أنه يأبى تحميل المسؤولية على عاتق المشتكي ، ولكن من يفتي بذلك لا يبتعد عن الحقيقة[22] .

وقبيل غزوة بني هلال « اجتمع على الواعظ أبي عبد الله بن عبد الصمد بعض فقراء القيروان ، واستبشعوا ألفاظاً ذكرها ، فرفعوا رقاعهم إلى المعزّ لذلك »[23] .

وحسب المازري ، هناك خلاف بين الفقهاء حول مَنْ يشتكي من الغير إلى والٍ جائر ، وهو يعلم أن الوالي سيتجاوز الحدّ ، وسيسلّط على صاحب الجنحة غرامة أعلى بكثير من الغرامة التي يستحقّها . ويقول المازري : « إن أحد أصحابنا » يعفي المشتكي ، من دفع أيّ تعويض لضحيّة السلطة ، إذا كان هو نفسه قد تعرّض للاضطهاد . أما بالنسبة إلى من كشف لحاكم جائر عن مال أخفاه شخص آخر ، فاستحوذ عليه الحاكم ، فهناك أيضاً قولان حول مسؤولية المُخبِر[24] . وأكّد نفس الفقيه في موضع آخر أن من يشتكي إلى قائد أو سلطان لا يستحقّ أيّ عقاب ، وأن اللجوء إلى السّلطان أمر شائع[25] .

---

20) فتوى أبي القاسم بن محرز (ت . حوالي 450 هـ/1058 م) ، المعيار ، 266/3 ، 279-280 ، 218/8-219

21) فتوى ابن أبي زيد ، نفس المصدر ، 280/3 ، 218/8-219 .

22) فتوى ابن أبي زيد نفس المصدر ، 127/6 .

23) البيان ، 279/1-280 .

24) فتوى المازري ، المعيار ، 280/3 ، انظر أيضاً : البرزلي ، المختصر ، 13 . و ـ ظ .

25) فتوى المازري ، المعيار ، 218/8-219 .

وقد كاتب محرز بن خلف الأمير باديس ووبّخه عدّة مرات ، لا سيا بخصوص التجاوزات التي تعرّض لها أحد الطلبة[26] .

ويمكن أن يصدر الأمير الصنهاجي ظهيراً لإعفاء أيٍّ كان من الرسوم وحماية شخص وأملاك أيّ فرد أو مجموعة . وقد اتخذ باديس إجراءً من هذا القبيل لفائدة محرز بن خلف ، وجدّه المعزّ بن باديس[27] .

ويرى أبو عمران الفاسي[28] أنّ القاضي لا ينبغي أن يتردّد في إلقاء مذنب في السجن ، حتى لو تأكّد أن المتّهم سيتعرّض للضرب والتغريم بلا حقّ ، وإلّا فسوف يتعذّر ضمان حقوق أيّ فرد .

وفي هذا المعنى جلد الفقيه المذكور رجلاً أدّى الأمير بشأنه هذا اليمين : « والله إن لم تجلد هذا الرجل خمسين جلدة لقطعت عنقه »! ، حتى يجنّب ذلك المسكين ما لا تحمد عقباه . وهذا دليل على مدى استبداد السلطة الملكيّة المطلقة في ذلك العصر .

وفي عهد باديس ، حسب الاحتمال ، سبّ شخصٌ رسول الله [ﷺ] ، ولعنه ، ناعتاً إياه « بالجمّال ويتيم أبي طالب »[29] ، ومضيفاً شتائم أخرى أبشع من ذلك . وقد ثبتت عليه البيّنة التي دوّنها القاضي في محضر . ولكن لم يتعرّض أحدٌ لهذا الشخص بأيّ أذى ، بل إنه بالعكس من ذلك قد بقي طليقاً ، فطلب بعض المحتسبين إلى القاضي تنفيذ العقوبة التي يستحقّها الجاني الذي أقرّ بذنبه ، فأجاب القاضي : « ارفعوا أمره إلى السلطان » . وحسب هذا الجواب ونوع الجريمة ، وعدم تعرّض الجاني لأيّ عقاب ، يبدو أنّ الأمر كان يتعلق بشيعي[29م] .

وقد أحيلت الفتوى على القابسي[30] الذي أجاب عليها بإطناب . فلاحظ أوّلاً أن الجاني « في حماية من السلطان »[30م] ، بحيث لا يستطيع القاضي اتخاذ أيّ إجراء ضدّه ، ويُخشَى من هذا

---

26) مناقب ، 311-314-316 .

27) نفس المرجع ، 316-320 ، 324-326 .

28) فتوى أبي عمران الفاسي (ت . 430 هـ/1038 م) ، البرزلي ، المختصر ، 138 ظ .

29) لقد ربّى الرسول ﷺ وهو يتيم ، عمّه أبو طالب والد عليّ .

29م) [المسألة فيها نظر] .

30) فتوى القابسي ، المعيار ، 408-409 ، 275 .

30م) فتوى المازري . وحول شخص يتصرّف لحساب السلطان ويعتبر من أجل ذلك فوق القانون (لا يأخذه الأحكام) ، انظر البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب 177/2 ومخطوط الرباط 17/2 ظ .

انظر أيضاً فتوى أبي محمد بن أبي زيد (ت . 386 هـ/996 م) ، المعيار ، 414/9 : ففي قضية ميراث تدخّل أحد الطرفين لدى السلطان الذي أمر بسجن الطرف الآخر وفرض عليه تسوية لا تمنحه سوى عُشُر حقوقه .

التقييد التعسّفي لصلاحيّة « قاضي المسلمين » ، أن يشجّع الأشرار . وفي قضيّة الحال ، ما إن ثبتت البيّنة على الجاني ، كان من المفروض أن يُودَع السجن ويوضع في الأصفاد إلى أن يتمّ تنفيذ حكم الإعدام عليه ، بعد استشارة السلطان . وأوضح القابسي أنّ الأمر يتعلق بالحالة التي يكون فيها قاضي المسلمين العادل ، النزيه ، مكبّل اليدين فيما يتعلّق بتنفيذ حكم الإعدام على من يستحقّه . ثم لاحظ أنّ قاضي المسلمين العادل ، النزيه ، ينبغي أن يكون طليق اليدين لتنفيذ أيّ حكم من الأحكام . لأن القاضي العادل لا يتصرّف إلّا وفقاً للقانون الذي يثبت لديه شرعاً ، وللنّصائح التي يسديها من استقام دينهم . وهذا يريح السلطان ويجنّبه مخاطر ارتكاب الإثم ، بإلغاء حكم قابل للتنفيذ بالضرورة . فلو فوّض القضاء إلى قاضٍ نزيه ، عادل ، لاستطاع أن يؤدّي واجبه نحو الله تعالى على أكمل وجه ممكن .

القاضـــي :

من الجدير بالتذكير[31] أنّ من بين الشروط التي اشترطها جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي على الخليفة الفاطمي [المعزّ لدين الله] ليخلفه في المغرب ، « تقليد القضاء » . وبالعكس من ذلك لم يقبل بلكين إمارة المغرب إلّا بشرط أن يولي الخليفة القضاة بنفسه .

وحتى سنة 435 هـ/ 1043 م لم يثر اختيار قاضي القيروان أيّ مشكل ، لأنّ تلك الخطّة كانت وراثيّة يتداول عليها أفراد أسرة مالكية عربيّة وثريّة ، بعد الحصول على موافقة الخليفة ، على الأقلّ بصورة ضمنيّة . ويبدو أنّ هؤلاء القضاة قد كانوا في مستوى المهمّة المناطة بعهدتهم ، محرزين في نفس الوقت رضى الأمير الصنهاجي ونائبه في إفريقية ، ورضى أهل السنّة .

وعند وفاة القاضي المباشر ، كان الأمير يعلن عن تعيين ابنه مكانه أثناء حفل بهيج ، بحضور القاضي الجديد المرتدي لخلعة القضاء . ولم توضّح لنا المصادر إن كان هذا الحفل ينتظم في القصر أم في الجامع الأعظم . ولكنّ سجلّ التقليد كان يُقرَأ في الجامع ، ربّما أثناء صلاة الجمعة ، مثلما تمّ ذلك بالنسبة إلى سجلّ تقليد آخر قاضٍ معروف من قضاة صبرة المنصورية حوالي سنة 441 هـ/ 1049 م . ويبدو أنّ القضاء في صبرة المنصوريّة الوراثي هو أيضاً ، وربّما المستقلّ عن القضاء السنّي بالقيروان ، قد كان حكراً على أسرة عربية من أصل مشرقي ، كانت على الأرجح شيعيّة . وليس من المستبعد أن يكون الإعلان عن ولاية قاضي صبرة المنصورية ، قبل ارتقاء المعزّ إلى العرش ،

31) الاتعاظ ، 142-143 .

يقع في تلك المدينة الأميريّة بالجامع الأعظم .

ومن بين العلامات المحتملة لقرب القطيعة مع القاهرة ، إسناد لقب « قاضي القضاة » إلى قاضي القيروان منذ سنة 424 هـ/ 1033 م ، وتدبير مؤامرتَيْن لتحويل مهمّة القضاء في كلّ من القيروان وصبرة المنصورية من خطّة « وراثية » إلى خطة « انتخابية » .

وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد أن قاضي المهدية قد أصبح « قاضي قضاة « إفريقيّة ، إثر استقرار بني زيري في تلك المدينة ، مثلما أصبح قاضي بجاية في آخر عهد بني حمّاد قاضي الجماعة بالمغرب الأوسط .

ويمكن التأكيد أن أمير القلعة ثم بجاية ، هو الذي كان يعيّن القضاة في مملكة بني حمّاد . ومن سوء الحظّ فإننا لا نعلم أي شيء حول نظام القضاء في عهدهم . وليس من المستبعد أن يكون أبسط من النظام القضائي في إفريقية ، وأن يكون بنو حمّاد قد اقتدوا بجدّهم الذي كان يتولّى القضاء ببساطة أبويّة[32] .

ولم يكن القاضي يتقاضى أيّ أجر[33] .

ومن الجدير بالملاحظة أنّ كبار الفقهاء في القيروان والمهديّة وسوسة وصفاقس وتونس وتوزر وقابس وطرابلس ، وغيرها من المدن الأخرى ، لم يتولّوا القضاء طوال العصر الصنهاجي . ولا شكّ أن ذلك راجع إلى الدور الأهمّ الذي كانوا يقومون به بوصفهم فقهاء ، وكان دور القاضي يقتصر في جلّ الحالات على تطبيق فتاواهم .

وقد كان وجود قاضٍ سنّي بالقيروان إلى جانب القاضي الشيعي بصبرة المنصورية يثير المشكل العويص المتعلق بصلاحيّات كلّ منهما ، التي لم نعثر بشأنها إلاّ على وثيقة واحدة تتمثل في فتوى القابسي . والغريب أن هذا الفقيه المالكي الشهير لم يقدح في صحّة شهادة أدلى بها شاهد لدى قاضي صبرة المنصورية[34] .

---

32) البكري ، 184 .
33) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 27/1 ظ .
34) فتوى القابسي ، المعيار ، 153/10-154 ، المقريزي ، الاتعاظ ، 133 . وفي القاهرة كان يوجد في عهد المعزّ لدين الله قاضيان ، أحدهما سنّي والآخر شيعي ، المعزّ ، 194-197 .

قاضي قضاة القيروان ـ بنو هاشم[35] :

بعدما قضى الخليفة الفاطمي إسماعيل المنصور على ثورة أبي يزيد ، وحرصاً منه على إرضاء أهل القيروان الذين كانوا قد انضمّوا إلى « صاحب الحمار » ، عيّن في سنة 334 هـ/ 945-946 م قاضياً سنّياً بالقيروان ، وهو محمد بن أبي المنظور[36] ، الذي توفّي بعد ذلك بثلاث سنوات وهو مباشر للقضاء[37] ، وصلّى عليه حاكم القيروان عبد الله بن هاشم الذي خلفه وباشر القضاء في القيروان في أيام المعزّ لدين الله الفاطمي وبلكّين ، إلى أن توفّي يوم الاثنين 23 شعبان 363 هـ/ 19 ماي 974 م[38] . وأصبح القضاء منذ ذلك الحين حكراً على آل ابن هاشم الذين باشروا تلك الخطّة أباً عن جدّ طوال عدّة أجيال[39] .

وقد خلفه ابنه محمّد[40] الذي توفّي في 15 شعبان 399 هـ/ 4 أفريل 1009 م .

---

35) بالإضافة إلى المصادر المشار إليها أعلاه ، اطلعنا على كتاب الجودي حول قضاة القيروان ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، انظر أيضاً ، بساط ، 26 .

36) [في معالم الإيمان ، 54/3 : ابن المنصور] .

37) التكملة ، تحقيق كوديرا ، 1/ عدد 332 . رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و [طبعة بيروت 357/2 : أبو عبد الله محمد بن أبي المنظور] ، إدريس ، مجلة الدّراسات الإسلامية ، 1935 م ، 157 ، 164-165 ، أبو العرب ، 173 ، المقريزي ، الاتعاظ ، 133 ، المدارك ، 2-163/3 ظ « أرادت الشيعة بتوليته تسكين نفوس أهل السنّة والنّاس . . . » . وقبل أن يقبل هذه الخطة فرض شروطاً لضمان استقلاليته . انظر أيضاً ، مقديش ، نزهة الأنظار [الطبعة الحجرية] 130/1 [طبعة بيروت ، 343/1] ، وقد أشار المؤلف في هذا السياق إلى ما قاله ابن الدبّاغ عن الفاطميين في إفريقية ، وهو رأي من الآراء الموضوعية النادرة التي أبداها شخص سنّي حول عهد أولئك الخلفاء .

انظر ترجمة والده أبي عمرو هاشم بن مسرور ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 72/7 ظ ، [ط . بيروت ، 144/2] ، معالم الإيمان ، 235/2 ، كان تاجراً وصاحب فرن ، توفي سنة 307 هـ/919-920 م وعمره 74 سنة ودفن في مقبرة باب سلم غربي قبر ابنه القاضي عبد الله .

وحول مسرور الصوّاف مولى الأغالبة الذي نُشِر نصّ قبريّتة المؤرخة في 276 هـ/880 ، في « نقائش عربية ، 128/1-130 ، انظر هذا الكتاب الذي جاء فيه ما يلي : « ربما يتعلّق الأمر بمسرور والد أبي عمرو هاشم (ت . 307 هـ/919-920 م . . . » .

38) 6بقين من شعبان ، نظرياً : الثلاثاء ، انظر ، نقائش عربية ، 1/ عدد 151 ص 267-269 وقد استحق بتجرّده لقب « قاضي الحقّ » ، ابن حمّاد ، 39 ، معالم الإيمان ، 99/3-100 ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 38 ظ ، 91 و ، 96 و ، 98 و [طبعة بيروت ، 148/2 ، 168 ، 272 ، 273] . وحول قبريّة أحد أبنائه جابر انظر ، نقائش عربية ، 1/ رقم 169 مكرر ، ص 293-295 ، معالم الإيمان ، 160/3 .

39) خطط ، 144/4 .

40) وكنيته حسب الاحتمال إمّا أبو بكر أو أبو عبد الله أو أبو البركات ، معالم الإيمان ، 165/3 ، 108-160 ، وقد ورد اسمه في =

ولدينا وثيقتان[41] تثبتان وجود القاضي أبي عيسى أحمد بن القاضي الإمام أبي البركات محمّد بن هاشم . ولعلّ الأمر يتعلّق بابنٍ لا نعرف عنه شيئاً من أبناء القاضي محمّد بن عبد الله بن هاشم الذي ربّما كان يقوم أيضاً بمهمّة الإمامة[42] . وقد يكون خلفه أخوه عبد الرحمن بن محمّد بن عبد الله بن هاشم[43] . وهو أوّل من تلقّب بلقب « قاضي القضاة » في القيروان ، على الأقلّ اعتباراً من سنة 424 هـ/ 7 ديسمبر 1032 ـ 25 نوفمبر 1033 م[43] . ولا شكّ أن هذا اللقب كان مؤشّراً لقرب القطيعة مع الخليفة الفاطمي . وكان قد تلقّب به قاضي القيروان في العهد الفاطمي

= رسم تحبيس مصحف قرآن مؤرخ في جمادى الثانية 378 هـ/6 سبتمبر ـ 14 أكتوبر 988 ، Objects Kaironanais ، 146-145/1 .

41) المرجع المذكور ، 1/ رقم 84 ص 175 « جُدد تحبيس هذا السفر القاضي الجليل أحمد ابن الشيخ القاضي الإمام أبي البركات محمد بن هاشم . . . » . « ضبط نصّ تحبيس هذا السفر القاضي أبو عيسى أحمد ابن الشيخ القاضي الإمام أبي البركات محمد بن هاشم » .

42) في عبارة « القاضي الإمام » ربما تعبّر كلمة إمام عن معنى أشمل أي الرئيس الديني والعالم الجليل .

43) جاء في معالم الإيمان ، 164/3 حول متعبّد [محمد بن إسحاق بن التبان] ، توفي في محرم 397 هـ/27 سبتمبر ـ 26 أكتوبر 1006 م : « وصلّ عليه القاضي عبد الرحمان بن محمد بن هاشم » . فهل نستنتج من ذلك أنه كان قاضي القيروان منذ ذلك التاريخ ، أي قبل وفاة والده في 15 شعبان 399 هـ/14 أفريل 1009 م ؟ أم هل ينبغي تصحيح ذلك التاريخ كما يلي : 397 هـ ، نظراً لسهولة الخلط بين سبعة وتسعة في الكتابة العربية ؟ وقد ورد ذكره في رسم تحبيس علّة مصاحف حبّستها على الجامع الأعظم بالقيروان كلّ من أمّ ملال (بلا تاريخ) وفاطمة الحاضنة (واحد في سنة 410 هـ/ ماي 1016-26 أفريل 1020 م والآخر في رمضان 410 هـ/31 ديسمبر 1019-20 جانفي 1020 م) وشخص آخر في ربيع الأول 413 هـ/4 جوان 3 جويلية 1023 م ، **شهيرات التونسيات** ، 44-49 **ونقائش عربية** ، 1/ ص 27-32 ، 35 .

44) في نسخة من المدوّنة محفوظة بالجامع الأعظم بالقيروان [نقلت جميع هذه المخطوطات إلى المتحف الإسلامي برقادة] ألصقت بظهر الغلاف ورقة تحمل رسم تحبيس وقع أمام « قاضي القضاة عبد الرحمان بن محمّد بن عيسى » في سنة 422 هـ/1032-1033 م ، والمحبّس هو : « سيف الله وعبده الحامي لدينه والمؤيّد لشريعته » أي المعزّ بن باديس ، **نقائش عربية** ، 1/ ص 36-37 .

ولم نتحقّق من الاسم عيسى ، ولعلّه هاشم . ولكنّنا اطلعنا على نصّ قبريّة أمة الرحمان ، ابنة « قاضي القضاة » عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن هاشم المتوفاة ليلة الأربعاء 5 ربيع الثاني 425 هـ/27 فيفري 1034 م وقبريّة مكيّة ابنة « قاضي القضاة » عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن هاشم المتوفاة يوم الجمعة 19 رمضان 427 هـ/16 جويلية 1036 م ، **نقائش عربية** ، 1/ رقم 292 م ص 420-422 ، 2/ رقم 322 .

هذا وإن لقب « قاضي الجماعة » الذي كان شائعاً بالأندلس في العصر الأموي ، كان غير معروف في إفريقية في العصر الصنهاجي ولم يظهر بها إلاّ في العصر الحفصي ، انظر برنشفيك ، المرجع المذكور ، 113/2-114 [الترجمة العربية ، 114/2-115] ، ستوريا ، 13/2-14 ، ابتداء من سنة 405 هـ/1010 م أصبح قاضي قرطبة الذي كان يعرف إلى حدّ ذلك التاريخ بقاضي الجماعة ، يحمل هو أيضاً لقب قاضي القضاة ، **إسبانيا الإسلامية** ، 119-120 .

من سنة 366 إلى سنة 374 هـ/ 976-985 م[45] . وكان مستعملاً قبل ذلك في بغداد خلال القرن العاشر ميلادي . ولا شيء يسمح بالتأكيد أن خطّة قاضي القيروان المستقلّة عن قاضي القاهرة[46] قد طرأ عليها أدنى تغيير .

وقد توفّي عبد الرّحمان بن عبد الله بن هاشم سنة 435 هـ/ 1043-1044 م وترك ولداً كاد أن يخلفه . ولكنّ المعزّ بن باديس قد عيّن مكانه أحمد بن عبد الله بن أبي زيد صاحب « الرسالة » ، إثر المؤامرة التي قام فيها الشاعر ابن شرف بدور رئيسي . فوضع أنصار ابن هاشم عدّة عراقيل في طريق القاضي الجديد وأثاروا العامة ضدّه . فاضطرّ الأمير على مضض منه إلى عزله في آخر رمضان 436 هـ/ أفريل 1045 م ، تفادياً لحصول اضطرابات دامية . ولم تقل لنا المصادر إن كان قد عوّضه بابن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن هاشم . وليس من المستبعد أن يكون أحمد بن أبي زيد قد أعيد إلى منصبه ، حيث أخبرنا أحد المصادر أن المعزّ بن باديس قد أمر بإحضار التونسي بمقصورته يوم الجمعة أوّل صفر 438 هـ/ 7 أوت 1046 م ، « وأحضر معه الفقهاء أبا القاسم اللبيدي فقيه مشيخة الفقهاء وكبيرهم والفقيه أبا الحسن [ابن المقرىء] والقاضي أبا بكر أحمد بن أبي محمد بن أبي زيد »[47] .

وإن كان قد عُيِّنَ فقيهٌ آخر قاضياً بالقيروان ، فلماذا لم يكن عضواً في الهيئة المذكورة ؟ ومهما يكن من أمر فقد توفّي أبو بكر أحمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي زيد بعد سنة 460 هـ/ 1067-1068 م[48] .

وتوجد في محفوظات الجامع الأعظم بالقيروان وثيقة مؤرخة في رجب ـ رمضان 446 هـ/ 6

---

45) حسب القاضي النعمان ، (المجالس ، 203/2) ، الذي استشهد به صاحباً كتاب المعزّ ، 190 ، عيّن الخليفة الفاطمي المنصور النعمان قاضي المنصورية والمهدية والقيروان وسائر مدن إفريقية ، وقد أسند إليه مؤلّفاً الكتاب المذكور لقب قاضي القضاة ، دون أن يوضّحا هل ورد هذا اللقب بصريح العبارة في « المجالس » .

وقد كانَ علي بن النعمان بن حيّون ، قاضي العزيز من سنة 366 هـ إلى سنة 374 هـ/974-988 أوّل من حمل هذا اللقب الذي كان شائعاً في بغداد ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، 101/2 ، 268/1 ، الاتعاظ ، 36 الإحالة ، 1 ، المعزّ ، 199 .

46) كانت سلطة قاضي الجماعة بالقاهرة تمتدّ نظريّاً إلى جميع الأقطار التابعة للخلافة الفاطمية أي مصر وسوريا والمغرب ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، 35/4 ، ستوريا ، 11/3-12 .

47) معالم الإيمان ، 221/3 ، انظر أيضاً ، إدريس ، حوليات معهد الدّراسات الشرقية ، 1954 م ، 169-172 ، مناقب المقدمة ، ترجمة اللبيدي ، 223 ، إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 ، عدد 16 ، 513-516 .

48) إدريس ، حولية معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 169، الإحالة 70، 172.

أكتوبر 1054 م ـ 2 جانفي 1055 م صادرة عن القاضي عبد الرحمان بن أحمد « قاضي الإمام القائم بأمر الله وواليه المعزّ لدين الله »[49] .

قاضي صبرة المنصورية ـ بنو آلكوفي :

إلى جانب آل ابن هاشم قضاة القيروان نجد آل ابن الكوفي[50] الذين تولّوا القضاء في صبرة المنصورية أباً عن جد ، هم أيضاً . ففي عهد إسماعيل المنصور والمعزّ لدين الله ، وهما آخرا من تقلّدا الخلافة الفاطمية في إفريقية ، عُهِد بخطة القضاء في صبرة المنصوريّة إلى قضاة من الشيعة[51] . ويبدو أنّ أوّل من تقلّد تلك الخطّة من آل ابن الكوفي هو محمد بن إسحاق التميمي الذي خلف القاضي الشهير في عهد المعزّ لدين الله ، أبا حنيفة النعمان الذي ارتحل مع مخدومه إلى مصر . ويبدو أن القاضي محمد بن إسحاق التميمي أو خليفته [51م] ، هو الذي صلّى على الفقيه القيرواني ابن أخي هشام ، بوصفه قاضي صبرة المنصورية في صفر 373 أو 371 هـ/ 15 جويلية ـ 12 أوت 983 أو 6 أوت 3 سبتمبر 981 .

وقد مدح الشاعر الشهير ابن رشيق العضو الثالث من أفراد هذه الأسرة ، وهو جعفر بن عبد الله الذي خلف أباه وتوفّي بسبب دعاء أحد فقهاء القيروان عليه ، وهو الفقيه المالكي أبو بكر ابن عبد الرحمان (ت . 432 أو 435 هـ/ 1040-1041 م ، 1043-1044 م) ، وكان قد عاب عليه ارتكاب غلطة فادحة أو إبداء رأي مخالف للسنّة . ومع ذلك لا ينبغي أن يفوتنا أنّ الدبّاغ[52] قد أثنى على بني الكوفي ووصفهم بالقضاة الصالحين ، المتديّنين ، العالمين .

---

49) المجموعة عدد 417 . وتدلّ هذه الوثيقة على أن المعزّ الذي أسندت إليه نفس كنية الخليفة الفاطمي « المعزّ لدين الله » ما زال يعترف بالخليفة العباسي . ولا نعلم أيّ شيء آخر عن هذا القاضي الذي لم يلقّب بقاضي القضاة .

50) إدريس ، تحية لويس ماسينيون ، 2/353-357 .

51) **الاتعاظ** ، 133 ورد بدون ترتيب ذكر القضاة السنّيّين بالقيروان والقضاة الشيعة بصبرة المنصورية في عهد إسماعيل المنصور وهم محمد بن المنظور وعبد الله بن هاشم وعلي بن أبي سفيان ، وأبو محمّد زرارة بن أحمد (انظر أبو العرب ، 241 : زرارة بن أحمد قاضي المهدية) ، وأبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي . والغالب على الظنّ أنّ علي بن أبي سفيان وأبا محمد زرارة بن أحمد قد سبقا قاضي المنصور والمعزّ الشهير أبا حنيفة النعمان صاحب كتاب **دعائم الإسلام** ، دائرة المعارف الإسلامية ، 2/814 (ماسينيون) . وحول ابنه أحمد الذي « كان عراقي المذهب » (أي حنفي) ، انظر ، معالم الإيمان ، 3/128-129 .

51 م) ويرجع سبب هذا الشك إلى تسمية المعني بالأمر بابن الكوفي لا غير .

52) وهو مؤلف معالم الإيمان (ت . 699 هـ/1300 م) الذي علّق عليه ابن ناجي .

وحسب رأي نفس المؤلف ، كان أبو عبد الله محمد بن جعفر وخليفته « أَوْحَدَ أهل زمانه فقهاً وأدباً من بيت علم وصلاح وأدب ، فقيه القيروان في وقته وقاضي مدينة صبرة وخطيبها وإمام الجامع الأعظم بها ، وكان فصيحاً لَسِناً سنّياً مبايناً لأهل البدع شديداً عليهم »[53] .

وإثر ذلك بمدّة ، لا ندري تاريخها بالضبط من سوء الحظّ ـ هجاه ابن رشيق بأبيات من الشعر أفضت إلى عزله بعدما اطّلع عليها المعزّ بن باديس . ولمّا تمّ البحث عن أبي عبد الله محمد بن جعفر الكوفي لمعاقبته ، فرّ إلى القاهرة . فعوّضهُ علي بن أحمد البوني الذي تقلّد كلّ ما مارسه سلفه من مهامّ في صبرة المنصورية ، بمقتضى سجلّ التقليد الذي قرىء في الجامع الأعظم بالقيروان . وبذلك تنتهي مدّة ولاية بني الكوفي . ويبدو أن البوني كان آخر من تولّى القضاء في صبرة .

وفي سنة 443 هـ/ 1051-1052 م « وردت الأخبار أن محمد بن جعفر الكوفي ولّي القضاء بمصر ولقّب قاضي القضاة وداعي الدعاة . قال ابن شرف : نعوذ بالله من سوء العاقبة ! لأن قاضي القوم منهم وعلى مذهبهم ، يعني الشيعة »[54] .

ولا ندري أيّ شيء عن القضاء في القيروان منذ زحفة بني هلال إلى تاريخ الفتح الموحّدي .

قاضـــي المهديّـــة :

الغالب على الظنّ أن قاضي قضاة إفريقية أصبح يقيم في المهدية منذ زحفة بني هـلال . ونحن نعرف أسماء بعض من تقلّدوا هذه الخطّة مثل المسمّى ابن شغلان (أو شعلان) الذي أولاه تميم القضاء في المهديّة قبل سنة 455 هـ/ 1063 م ، على الأرجح[55] .

وفي فتوى للمازري[56] مؤرخة في العشر الأواخر من محرم 515 هـ/ 10-20 أفريل 1121 م

---

53) معالم الإيمان ، 243/3 ، البيان ، 288/1 ، وبعدما استقال من مهامّه غادر مصر وتوفّي بسوريا بعد سنة 470 هـ/1077-1078 م .

54) البيان ، 288/1 .

55) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 504 ، ح . ح . عبد الوهاب ، الإمام المازري ، 71 .

56) المعيار ، 234/3-235 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب 61/2 ظ ـ 62 و : نقلت هذه الفتوى شهادة أدلى بها شاهد بمحضر « قاضي القضاة » أبي القاسم بن ميمون في رجب 515 هـ/15 سبتمبر ـ 14 أكتوبر 1121 م . وفي فتوى المازري ، المعيار 205/8 حول نهب المهدية في سنة 480 هـ/1087 م ، جاء ما يلي : اعتمد القاضي (في مكان الاسم وردت علامة «ح» أي حلف كما لو أن الأمر يتعلق بهفوة) على فتواي . . . » .

ورد ذكر قاضي قضاة يدعى أبو القاسم بن ميمون . ويتضح من ذلك أن هذا اللقب قد انتقل من القيروان إلى المهدية عاصمة آخر أمراء بني زيري .

وعيّن يحيى بن تميم أبا يحيى زكرياء بن الحدّاد (ت . 570 هـ/ 1174-1175 م) قاضياً بالمهديّة ، ربّما بإشارة من شيخه الإمام المازري . ويبدو أن المعني بالأمر قد باشر هذه المهمّة حتّى نهاية الدولة الصنهاجية[57] .

قاضـي الأنكحـة :

لقد أشارت فتوى للمازري إلى « قاضي المناكح »[58] ، [أو الأنكحة] ، الذي لم تؤكّد المصادر وجوده إلاّ في العصر الحفصي[59] . ولا يمكن أن نستنتج من تلك الإشارة التي تتعلق لا محالة بالمهديّة في آخر عهد بني زيري ، وجود الخطة المذكورة في فترة سابقة .

وتحدّثت فتوى أخرى لنفس الفقيه عن قاضٍ آخر من قضاة الأقاليم قلّد شخصاً قضاء الأنكحة[60] .

قضـاة الأقاليـم :

لا نعرف شيئاً كثيراً[61] عن القضاة المفوّضين في أهمّ المدن من قِبَل قاضي القضاة . ومن

---

57) ح . ح . عبد الوهاب ، الإمام المازري ، 40 .

58) فتوى المازري ، المعيار ، 79/10 .

59) برنشفيك ، المرجع المذكور ، 118/2 ، 119 [الترجمة العربية ، 120/2] .

60) « سُئِل عمّن ولاّه قاضي بلده على المناكح ، فأتته امرأة للتزوّج . . . » المعيار ، 87/3-88 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 67/2 ظ ، المختصر ، 52 ظ ولم نجد أي أثر لذكر « ناظر في المواريث » الذي أشار صاحب البيان (190/1) إلى وجوده في عهد عبيد الله سنة 313 هـ/925-926 .

61) تتمثل أهم المعلومات التي لدينا فيما يلي :

1) مدينة تونس : الفقيه عبد الرحمان النحوي معاصر الشاعر الفرامي الذي توفي سنة 408 هـ/1017-1018 م ، الكتبي ، 261/1-262 . والقاضي عبد الرحمان بن محمد بن الفقيه محرز المظنون أنه حفيد محرز بن خلف ، سليمان مصطفى زبيس ، Corpus ، 1/ عدد 16 ، ص 37-38 (نقيشة مؤرخة في ربيع الأول 457 هـ/10 فيفري 11 مارس 1065 م) . وأبو حفص عمر بن خلف بن مكّي الصقلّي ، أصيل صقلية ، وقد هاجر إلى مدينة تونس بعد استيلاء النرمان على الجزيرة ، ابن خلدون ، كتاب العبر ، أماري المكتبة العربية الصقلية ، 485 ، ح . ح . عبد الوهاب الجمانة ، المقدمة ، الخريدة ، نقلاً عن الدرّة ، لابن القطاع ، مخطوط باريس ، 3330 ، 45و، 46و.

المحتمل أن تكون السلطة المحلية هي التي تقوم بدور في تعيينهم .

وقد كان القاضي يسهر بنفسه في بعض المناسبات على حظوظ مدينته ، كما وقع ذلك في طرابلس من 407 إلى 430 هـ/ 1016-1039 م ، وفي مدينة تونس أثناء الفوضى التي سبقت رجوع بني خراسان إلى الحكم . وكان الأمر كذلك في الأندلس خلال القرن الحادي عشر ميلادي أثناء فترة الانحطاط ، حيث تحوّل بعض القضاة إلى رؤساء دول بأتمّ معنىً الكلمة في إشبيلية وبلنسية وقرطبة[62] .

و . وأبو محمد عبد المنعم بن الإمام أبي الحسن وأبو الفضل جعفر بن حلوان .

2) سوسة : أبو الحسن طاهر بن علي صاحب الصلاة والخطبة، وقاضي سوسة لا محالة في آخر عهد بني زيري ، التكملة ، تحقيق كوديرا، 1/ عدد 82 و مخلوفي، 1/ عدد 428. 144.

3) قابس : ابن مشكان ، ويبدو أنه كان قاضي قابس في نفس تلك الفترة وابن زيادة الله القابسي ، قاضي قابس في عهد المازري ، حسب رأي ح . ح . عبد الوهاب .

4) طرابلس : أبو القاسم علي بن محمد بن المنمّر (ت . 432 هـ/1040-1041 م) يبدو أنه كان قاضي تلك المدينة حيث قام بالدور المعروف . ابن فرحون ، الديباج ، 201-202 ، إدريس ، حولية معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 153-155 .

5) قسنطينة : قاسم بن عبد الرحمان ، الذي كان مباشراً للقضاء عند مرور المهدي من تلك المدينة حوالي سنة 514 هـ/1120-1121 م ، البيلق ، 51 .

6) بجاية : والد أبي الفضل جعفر بن محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي المعروف بابن معشرة (541-598 هـ/1146-1202 م) ، الغبريني ، 30 .

قضاة مختلفون . قبريّة القاضي أحمد بن حجّون (ت . 421 هـ/1030 م) نقائش عربية ، 1/ عدد 260 ص 388. استشار القاضي عبد الحق المازري ، وفعل كذلك القاضي عبد الرحيم ، المعيار ، 42/5 ، والقاضي خلف بن المازري ، لم يكن أهلاً لخطته في مدّة عبد الحميد بن الصائغ (ت . 486 هـ/1093 م) واللخمي (ت . 478 هـ/ 1085 م) . وعندما عُزل وعوقب حسبما يبدو ـ وصودرت أملاكه طالب عدد كبير من الدّائنين بحقوقهم ، المعيار ، 88/10-89 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 36 ، ص 2 ظ . أبو حاتم محمود بن أبي المنهار بن درع الأزدي الزبوني ، المعاصر للشاعر محمد بن أبي معتوق. وبلا شك ابن رشيق ، وقد كان قاضياً بزبونة ، وهي قرية من قرى رصفة ، البلدان ، 375/6 ، ورثا ابن رشيق طاهر بن عبد الله قاضي المحمدية ، ابن قفطي ، 301/1 . ودُعِي المسمى أبو طالب أحمد بن المنهال التونسي ، قاضي مدينة تونس الشيعي الإسماعيلي إلى مصر من طرف الوزير ابن كلس في عهد العزيز وسمي قاضي المظالم في القاهرة سنة 368 هـ ، ومن سوء الحظ لم نعرف متى اعتزل القضاء في مدينة تونس ، الكندي ، حكّام وقضاة مصر ، 591-592 : إسحاق بن أبي المنهال قاضي القيروان الشيعي في عهد عبيد الله وحول القاضي أبو علي الحسن بن محمد بن الجدود اللّواتي (ت . صفر 437 هـ/ سبتمبر 1045 م) انظر ، معالم الإيمان ، 213/3 ونقائش عربية ، 2/ عدد 437 ، وحول قاضٍ يدعى أبو الفضل جعفر بن أحمد النحوي المعاصر لابن رشيق ، انظر ، العمدة ، 57/1 .

62) إسبانيا الإسلامية ، 124/3-125 .

وكان صغار القضاة يتعرّضون للعزل في كلّ آن وحين ويتداولون الواحد تلو الآخر على نفس المنصب بسرعة مذهلة بالنسبة إلى المتقاضين . فقد جاء في فتوى للتونسي أن أحد القضاة أُعفِي من مهامّه ثم استرجع منصبه بعد عزل القاضي الذي عُيِّنَ مكانه ، ثم عوّضه قاض ثالث ، وفي الأثناء توفّي المدّعي[63] . وبالعكس من ذلك ، كانت وظيفة القضاء في القيروان وصبرة ـ كما أسلفنا ـ وراثيّة وبالتالي ثابتة أكثر ، على الأقل حتى قدوم بني هلال .

وحوالي سنة 439 هـ/ 1047-1048 م « نُكِب أحمد بن حجّاج قاضي قفصة ، فبادر بعشرة آلاف دينار »[64] .

وفي الأماكن التي لا يوجد بها لا قاضٍ ولا أيّ عون من أعوان السلطة ، يمكن للصالحين والعدول الذين لا عيب فيهم اتّخاذ قرارات صالحة في نظر الفقهاء[65] . كما يوجد بعض القضاة الجائرين أو عديمي الذمّة أو أحياناً الجهلة بل حتّى الأمّيّين[66] .

الإجـــراءات :

تعتمد الإجراءات على الشهادات والأَيْمان . ويصدر القاضي أحكامه بمساعدة عدول الإشهاد واعتماداً على فتاوى المفتين . وعندما يصدر القاضي حكمه يجوز للمدّعي أن يطلب نسخة من الحكم . ويرى ابن أبي زيد أنّ القاضي الذي يكون هو وحده القادر على كتب الأحكام ، يستطيع القيام بتلك المهمّة مقابل مكافأة معقولة . ثم يضيف أنّ القاضي غير مطالب بإيداع نسخة من الحكم في ديوانه ، ولكنّ هذا الإجراء يُعتبَر احتياطاً لا بأس به في صورة الحاجة إلى الرجوع إلى ذلك الحكم[67] . والغالب على الظنّ أن القضاة كانوا يحتفظون بنسخ من الأحكام التي

---

63) فتوى التونسي (ت . 443 هـ/1051 م) ، المعيار ، 390/9 .

64) البيان ، 277/1 .

65) يرى القابسي وأبو عمران الفاسي أن المتعبّدين في بلدة لا يوجد فيها قاضٍ ، يجوز لهم أن يقوموا مقامه ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 67/2 ، المعيار ، 76/10 ، انظر أيضاً ، فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 131 المعيار ، 76/10 .

66) فتوى ابن محرز (ت . حوالي 450 هـ/1058 م) ، المعيار ، 83/10-84 ـ فتوى اللخمي ، المعيار ، 89/10-91 ، البرزلي ، المختصر ، 113 العقوبة الواجب تسليطها على قاضٍ جائر بقفصة . فتوى السيّوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) : لا يمكن الإدلاء بشهادة أمام قاضٍ جاهل يستطيع بصعوبة كتابة اسمه واسم والده .

67) فتوى ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/996 م) ، البرزلي مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 5 و ، مخطوط الجزائر ، 28 ظ ، 29 و ، المختصر ، 93 ، المعيار ، 70/10 .

يصدرونها ، ذلك أنّ ابن الشبّاط قد تصفّح بعض الأحكام التي يرجع تاريخها إلى العهد الصنهاجي واحتفظ بها في « مودَع » (أو ديوان) أحكام القضاة الموجود في الجامع العتيق بتوزر[68] .

وفي رسم الحكم الذي أصدره قاضي قفصة وعرضه الخصم الخاسر بلا شكّ على المازري ، صرّح القاضي أنه حرّره في نظيرين ، الأوّل « لديوان أحكامه » ، والثاني للطرف الرابح ، ثم قُرِىء الرسم في « مجلس قضائه » بمحضره ومحضر شهوده الذين صادقوا عليه[69] .

ويجوز للقاضي أن يؤيّد قراره بحكم صادر عن قاضٍ آخر ، وتعتبر هذه الطريقة ضرباً من ضروب فقه القضاء . وبطبيعة الحال ينبغي أن يكون الرسم المذكور صادراً عن قاضٍ معروف بعلمه ونزاهته . ومن المقبول أن يبتّ قاضٍ من قضاة الأقاليم في قضيةٍ ما وفقاً للإجراءات المتخذة من قِبَل قاضي القضاة بالقيروان حول قضيّةٍ مماثلة شيئاً ما . ولكنّ الرسم المذكور ينبغي أن يكون محرّراً بخطّ القاضي وحاملاً لخاتمه ومصادقاً عليه من طرف عدول ، اللهمّ إلاّ إذا كان خطّ القاضي المعني بالأمر معروفاً معرفة تامّة من طرف الحاكم المدعوّ إلى البتّ في القضيّة . ذلك أنّ ابن أبي زيد قد أقرّ في مثل هذه الحالة صحّة « الشهادة المكتوبة »[70] . ولكنّ الفقيه أبا حفص بن العطّار أبدى تشدّداً أكبر ، إذ اعتبر أنّ الرسم ، حتى ولو كان مكتوباً بخطّ القاضي وحاملاً لخاتمه ، يجب أن يشهد بصحّته شاهدان[71] . ويمكن للقاضي أن يذيّل وثيقة تصديق على شهادات يكون قد كتبها وأمضاها قاضٍ آخر[72] .

ويجب أن يقسم المتقاضون على القرآن في المسجد الجامع . فقد جاء في فتوى للقابسي أنّ زوجاً قد أقسم أن يؤدّي زيارة إلى البقاع المقدّسة ، إن لم يحلّف القاضي والديْ زوجته على المصحف الشريف بجامع سوسة[73] .

وفي عصر المازري كان للقاضي خاتم أو طابع يختم به المكاييل . فهو الذي كان حينئذ يتولّى

---

68) ابن الشباط ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 12/1 ، إدريس ، تحية جورج مارسي ، 2/95-106 .

69) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 50/2 و ـ 51 ظ ، المعيار ، 3/245-247 ، إن هذه الفتوى التي أصدرها المازري كانت تكون أفْيَد لو نُقِلت بحذافيرها . وقد كان المازري يؤكد مراراً وتكراراً « أن الأحكام إنّما تجب أن تُورَد بالنّصوص » .

70) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 71/10 .

71) فتوى أبي حفص العطّار (ت . حوالي 430 هـ/1038 م) ، المعيار ، 70/10 .

72) فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 131 : شهادة المدعو ابن أبي بكر الخلاّل وأخته أمة العزيز حول مهر أمّهما خديجة . وقد رأى المازري أن القاضي الثاني لا يجوز له التراجع في حكم أصدره ونفذه القاضي الأوّل .

73) فتوى القابسي ، المعيار ، 122/3 .

مراقبة الموازين والمكاييل[74] .

وكتب القاضي بخطّ يده في أسفل فتوى للمازري تقضي بتحليف بائع جارية من جبل نفوسة ادّعت أنها من أصل حرّ ، أنه يتعينّ عليه أن يحلف على المصحف في جامع قصبة الرباط[75] وهو واقف ومتوجّه إلى القبلة[76] ، أنه يجهل أنها من أصل حرّ .

وبعد غزو صقلية طُرِح سؤال[77] حول تنفيذ أحكام قاضي صقليّة الذي عيّنه النرمان في إفريقية . فأجاب ابن الضابط بالإثبات ، إذا تأكّدت عدالة ذلك القاضي بشهادة عدول المهديّة بوجه خاصّ ، المؤهّلين قبل غيرهم للبتّ في هذا الموضوع[78] . أما المازري ، فقد رأى أنّ الأحكام التي يصدرها قاضي صقليّة على أساس شهادات عدول ، تفرضها الضرورة ، إذ ينبغي في غياب أدلّة مخالفة لذلك ، أن نفترض أنّ ذلك القاضي لا يقيم في أرض الكفر بطوع إرادته ، وأنّ تعيينه من قِبَل النّصارى لا يفسد أحكامه ولا ينزع عنها قوّتها التنفيذية . على أنّ هناك خلافاً بين الفقهاء حول صحّة تولية قاض من قِبَل سلطان جائر[79] .

عـدول الإشهـاد :

لقد أصبح سلك الشهود أو العدول يكتسي صبغة نظامية في عهد بني زيري . ويبدو أنّ خطّة « عدالة الشهادة » كانت تُسنَد في عصر السيوري إلى أشخاص مُعيَّنين مقابل أجر . ولكنّ الشهادات العادية كانت من اختصاصات بعض الأفراد ، وذلك لا محالة في المدن الصغرى . وقد

---

74) فتوى المازري، البرزلي ، المختصر ، 143 .

65) « جامع قصبة الرباط » : هل هذا الاسم الغريب يطلق على رباط غير معروف في المهديّة ، أم على رباط سوسة ؟

76) فتوى المازري ، المعيار ، 151/9 ، وفتوى أخرى لنفس الفقيه (البرزلي ، مخطوط الرباط 160/2 ط والمعيار ، 130/8-131) ، جاء فيها أن القاضي حلّف شخصاً « بقصر الرباط بمحضر بيّنة » .

77) هذه المسألة لم تكن مطروحة من قبل . فتوى القابسي ، المعيار ، 99/10-100 حول شخص من إفريقية حُكِمَ عليه في صقلية بدفع مبلغ إلى « رجل سلطاني من أهل صقليّة » .

78) فتوى ابن الضابط (ت . 443 هـ/1051-1052 م) ، المعيار ، 83/10 .

79) فتوى المازري ، المعيار ، 79/10-80 ، انظر أيضاً ح . ح . عبد الوهّاب ، الإمام المازري ، 87-89 (نقلاً عن كتاب الدكّانة للشيخ عظّوم القيرواني . وحول الوضعية القانونية « لأهل الدجن » الذين مكثوا في أرض الكفر بإذن ملك النصارى ، وقد كانوا يدفعون إليه الخراج لا سيما في جزيرة قوصرة فيها بعد ، انظر ، المعيار ، 90/2-106 و 340/2-341 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 178/2 ظ ومخطوط الرباط ، 18/2 ط ، 19 و ، والمختصر ، 64 ظ ، 113 و .

أنكر السيوري هذا التصرّف المنافي للسنّة ، لأن حقّ تجريح الشهادة أمر مقدّس[80] .

ففي سنة 400 هـ/ 1009-1010 م عفا باديس على أهل طرابلس الذين ثاروا ضدّه ، « وأشهد بذلك على نفسه »[81] . وبعد ذلك بخمس سنوات « أخذ إبراهيم على نفسه المواثيق » أنّه سيوفي بالالتزامات التي تعهّد بها تجاه الأمير[82] .

وأفتى الداودي مرّتين بأن العدول يستطيعون في المناطق التي لا يوجد فيها لا قضاة ولا سلطان ، أن يقوموا مقامهم . ورأى أبو عمران الفاسي أنّ أحكام الجماعة في غياب السلطان قابلة للتنفيذ ، بشرط أن تكون عادلة ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى « عمّال المنازل »[83] .

وسواء بالنسبة إلى التحقّق من وفاة شخص في مكان بعيد أو بالنسبة إلى رؤية هلال شوّال ، اضطرّ الفقهاء الصنهاجيّون إلى التخفيف من نظريّة « عدالة الشهادة » وقبول « أخبار التواتر » أو « شهادة الاستفاضة » ، لا سيما في المراكز التي ليس فيها عدول .

واعتباراً من ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/ 990 م) ، اكتست هذه القضية أهمّية أكبر فأكبر ، وقد خصّص لها كبار الفقهاء من القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) إلى المازري (ت . 536 هـ/ 1141 م) ، كثيراً من الفتاوى[84] .

وقد دفعتهم الضرورات العملية كلّها تقريباً ، ولكن على درجات مختلفة والحق يقال ، إلى التخفيف من اشتراط شهادة العدالة ، فاقتبسوا من « أهل الأصول » و « المتكلّمين » ومن الأشعريّة على وجه الخصوص ، مقياساً جديداً يتمثل في العلم الضروري المرتكز على أربع شهادات على أقلّ تقدير ، يدلي بها أيّ كان من الشهود (سواء أكانوا رجالاً أو نساء ، وعبيداً أو أحراراً ، أو كانوا

---

80) فتوى السيّوري ، المعيار ، 244/10-245 ، 254-255 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 175/2 ظ ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 135/2-138 [الترجمة العربية 136/2-140] .

81) البيان ، 258/1 .

82) نفس المرجع ، 261/1 .

83) فتوى الداودي (ت . 402 هـ/1011 م) وأبو عمران الفاسي ، المعيار ، 76/10 .

84) إدريس ، تحية جورج مارسي ، 102/2-104 . فتاوي ابنّ أبي زيد والداودي والقابسي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي وأبي القاسم بن محرز ، وأبي الطيب عبد المنعم الكندي والأشيري وأبي القاسم عبد الجليل بن أبي بكر الربعي (المعروف بالديباجي وابن الصابوني) والسيوري وأبي محمد عبد الله الشقراطسي واللخمي وابن الصائغ والمازري والقابسي وأبي الحسن السوسي (المعروف بابن العلاّف) الخ . . . المعيار، 329/1-333-335 ، 206/3 ، 103/10-104 ، 107-108 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 211/1 و 213 ظ ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 71/2 ظ ، المختصر ، 24 ظ ، 52 ظ ، 53 و ، 122 و ، ظ ، 129 ظ .

مسلمين ممّن لا تقبل شهادتهم ، أو حتى غير مسلمين كالنصارى مثلاً) .

وكان المازري متشدّداً أكثر من السيوري ، فاقترح حلاً وسطاً بين النظرية الأشعرية ونظرية الجمهور ، يتمثل فيما يلي : يجب أن يشهد شاهدان أمام الحاكم بصحّة أمر واقع حسب شهادة الاستفاضة[85] .

واعتباراً من أبي عمران الفاسي على الأقلّ ، نوقشت صحّة الشهادة الخطية[86] . فكان عبد الجليل الربعي لا يقبل إلا الشهادات الخطية الصادرة عن أشخاص خطّهم معروف وغير قابل للتدليس ، أو التي يشهد بصحّتها شيخ جدير بنفس الثقة التي يحظى بها شيخه أبو عمران الفاسي[87] .

وهل يجوز إرغام شخص أنكر تحرير إقرار بالدين ، على الكتابة بمحضر عدول ، للتثبّت من صحّة أقواله بالمقارنة بين الكتبَيْن ؟ يجيب اللخمي بالإثبات ، في حين يرى عبد الحميد بن الصائغ والمازري رأياً مخالفاً[88] . وقد أكّد المازري مراراً وتكراراً أنّ « الشهادة على الخطّ مختلف فيها »[89] . وهو يرى أنّ المفتين ـ مثلهم مثل الشهود ـ كثيراً ما يعمدون إلى مناهضة أحد الطرفَيْن ، وأن بعض القضاة يستسلمون لسلطة العدول . « فالقاضي لا يعمل من تلقاء نفسه كالعدول »[90] . وفي أغلب الأحيان لا يمكن الوثوق لا بالعدول ولا بالقضاة ولا بالمفتين[91] . كما يوصي بتدوين الشهادات بحذافيرها . وينبغي في هذا المضمار اجتناب الإشارات المبهمة والعبارات المقتضبة المثيرة للتخمينات[92] .

---

85) فتوى السيّوري ، المعيار ، 108/10 ، البرزلي ، المختصر ، 129 ظ .
86) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 71/10 .
87) نفس المصدر ، 141/10 . وحول أبي القاسم عبد الجليل بن أبي بكر الربعي المعروف بالديباجي وابن الصابوني ، انظر ، إدريس ، حولية معهد الدراسات الشرقية ، 1955 ، 49-50 .
88) فتوى اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) وعبد الحميد بن الصائغ (ت . 486 هـ/1093 م) والمازري ، المعيار ، 136-137/10 .
89) المعيار ، 87/3-88-236 ، 79/10 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 67/2 و ، المختصر ، 52 ظ .
فتاوى السيوري واللخمي ، نفس المصدر ، 141-143/10 .
90) فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 113 ظ .
91) فتوى المازري ، نفس المصدر ، 113 ظ .
92) فتوى المازري ، المعيار ، 245/3-247 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 50/2 و ، 51 ظ .

وجاء في فتوى أخرى لنفس الفقيه ، أنّ قاضياً عينّ طبيبَيْن أحدهما ذمّي لإثبات إصابة شخص بالجذام[93] .

المفتــي :

رغم اعتراف المازري بقدرة القاضي الكفء على إصدار الفتاوى المركّزة على « تهذيب الأصول »[94] ، فإنّ أحكام القضاة طوال العهد الصنهاجيّ كانت تعتمد أساساً عل فتاوى كبار المفتين المالكيين الذين يُعتبرون الرؤساء الحقيقيّين للجماعة الإسلامية والمسؤولين عن عقيدة المسلمين ، وتصدر تلك الفتاوى بطلب من القضاة أو المتقاضين أو أيّ شخص آخر[95] .

وقد أجاب القابسي على سؤال وجّهه إليه تلميذه أبو القاسم بن محرز ، معتبراً أن المفتي الذي حفظ المدوّنة و نوازل ابن أبي زيد و الموازية لا يمكنه إصدار الفتاوى إلاّ إذا درس الكتب مع الشيوخ ، وإلاّ فعليه نقل الفتاوى الواردة في تلك الكتب حرفيّاً وتطبيقها بدون أدنى استعمال للقياس[96] .

ووافق اللخمي ، لا بدون تردّد ، على الرجوع إلى الدواوين المشهورة عند الاقتضاء في صورة غياب الإمام الذي يمكن استشارته ، مشهّراً مع ذلك بمخاطر هذه العملية ، لأنه من النادر جدّاً العثور على قضيّة بعينها بصريح العبارة في كتاب من الكتب القديمة ، إذ لا توجد في أغلب الأحيان سوى بعض الحالات المتشابهة لا المماثلة ، وهذا التشابه تنجرّ عنه كثير من الأخطاء[97] . وبعبارة أخرى ينبغي دوماً وأبداً استعمال القياس الذي هو من اختصاص العلماء الحقيقيّين .

وروى المازري[98] أن المرتهنين والصنّاع قد أمِروا ، إثر احتلال ونهب زويلة والمهدية من

---

93) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 62/2 ظ ، المعيار 235/3-236 .

94) فتوى المازري ، المعيار ، 232/3-232-233 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 60/2 و .

95) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 1/1 ظ ، 31 و . (مسائل الاستفتاء) ، المعيار ، 66/10 ، 30 ، 86/11 وما بعدها ، 205/3-236-237 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 138/2-143 [الترجمة العربية ، 141/2-145] ، المدارك ، 2-72/3 ظ ، 73 و : عينّ زيادة الله أربعة فقهاء لمساعدة القاضيّ حماس (ت . 303 هـ/915-916) . وحسب صاحبا كتاب المعزّ ، 192-193 ، كان قاضي القضاء في عهد المعزّ لدين الله الفاطمي ، أي القاضي النعمان يصدر فتاواه جواباً على الأسئلة التي تلقى عليه ، وكان الخليفة يراقب تلك الفتاوى الشيعيّة .

96) فتوى القابسي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 1/1 ظ ، المختصر ، 1 ظ .

97) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 10/1 ظ ، 11 و .

98) المعيار ، 205/8 .

طرف النرمان ، بإرجاع ما كان في حوزتهم من ودائع إلى أصحابها . وأصدر جميع المشائخ العلماء « والمتوفّرين »[99] الموجودين في المهدية ، فتوى تفرض على المرتهنين والصنّاع الاستظهار ببيّنة تثبت أن الودائع التي كانت لديهم قد استحوذ عليها الروم . وكان المازري قد صادق على هذا الرأي بمقتضى فتوى اعتمدها القاضي . ولكنّ كثرة المعارضين لفتوى المازري قد أجبرت القاضي على إرجاء إصدار الحكم إلى أن يشهد عدلان أمامه أن شيخ الجماعة أبا القاسم السيوري (ت . 460 أو 462 هـ/ 1067-1069 م) كان قد أصدر في السابق فتوى مطابقة لفتوى المازري . وفي الأثناء ورد كتاب المنتقى لصاحبه الباجي الذي أبدى حول الحريق رأياً مماثلاً لرأي المازري .

وسئل المازري حول فتوى ألحقت ضرراً ماليّاً بالغير ، فأجاب : إن كان المفتي قادراً على الاجتهاد والنظر ، فإنه لا يتحمّل مسؤولية تبعات الفتوى التي أصدرها . وفي حالة العكس ، فهو مسؤول عن ذلك لأنه قام بدور لا يجوز له القيام به . ويتعينّ على الحاكم بعد إثبات قصوره ببيّنة أن يعنّفه ، إذ أنه يستحقّ التأديب ، اللهمّ إلا إذا كان قد زاول دراسات في الماضي ، وعندئذ ينبغي أن يعاقَب ويُمنَع من ارتكاب مثل ذلك الخطإ في المستقبل[100] . « ولا خلاف أن إقامة المفتي ليس إليه (يعني القاضي) وإنّما هو لأهل الحلّ والربط ، وهم العلماء »[101] .

وقد قبل ابن شغلان (أو شعلان) خطّة القضاء التي عرضها عليه تميم بن المعزّ ، لكن بشرط استقدام عبد الحميد بن الصائغ إلى المهديّة ليتولى مهمّة الإفتاء . ذلك أنّه كان يريد تركيز أحكامه على فتاوى ذلك الفقيه ، لأنه كان يأبى استفتاء أيّ كان من المفتين الآخرين بالمهدية باعتبارهم من المشكوك فيهم . وقد استجاب الأمير لهذا الطلب ، وقدم ابن الصائغ إلى المهدية واعتبِرت فتاواه حجّة في المدينة . ويبدو أنّ هذا المفتي قد قام بدور المستشار لدى القاضي الذي كان يصدر الفتاوى بطلب منه[102] .

وكما هو الشأن بالنسبة إلى القاضي ، لا ينبغي أن يتقاضى المفتي أيّ جراية أو مكافأة مهما كان نوعها[103] .

---

99) [أي الأثرياء] .

100) فتوى المازري ، المعيار ، 321/2 .

101) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 12/1 ظ .

102) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 504 (ترجمة ابن الصائغ) . إسبانيا الإسلامية ، 127/3-128 .

103) هذا هو رأي اللخمي والمازري ، أما رأي عبد الحميد الصائغ ، فهو يكتسي أقلّ صرامة ، حسبما يبدو ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 27/1 ظ ، والمختصر .

وكثيراً ما كانت نفس القضية تُعرَض على عدّة مفتين في آن واحد[104] .

وإذا أصدر المفتي فتوى تتضمّن عـدّة آراء متناقضـة ، يقرّ ابن أبي زيـد للمستفتي بحقّ الاختيار بينها ، إذا كان قادراً على الاجتهاد ، وإلا فيجب عليه تقليد عالم جدير بأن يُتّبَع[105] .

وقد ظهر مع المازري اتجاه مناهض لتحوّل المتقاضين دون رويّة من مذهب إلى آخر لتحقيق أغراضهم في أغلب الأحيان . وجواباً على سؤال صادر عن قاضي مدينة تونس وفقهائها ، أشار إلى ضرورة التقليد في مثل عصره ، ورأى أن التلاعب بالخلافات بين المذاهب تساهل مخطر[106] .

وتحدّث المازري في هذا السياق عن حادث وقع له وهو صبي فقال : « أذكر أني كنت صبيّاً حين راهقت الحلم بين يدي إمامي في الأصول[107] رحمه الله ، وكان أوّل يوم من رمضان ، وبات النّاس بغير عقد نيّة في الصّيام ، فقلت : إن هذا اليوم نقضيه على مذهب أصحاب مالك في رواية شاذّة . فأخذ بأذني أستاذي وقال لي : إذا قرأت العلم على هذا فلا تقرأه ، فإنك إن اتّبعت ثنيّات الطريق جاء منكزنيدق »[108] .

واجتناباً لأيّ لجوء إلى الحِيَل الشرعيّة ، كان المازري لا يعتمد في فتاواه إلّا على « المشهور »

---

104) عُرِضت قضية فسخ زواج في آنٍ واحد على أبي بكر بن عبد الرحمان (ت . 432 أو 435 هـ/1040-1043 م) وأبي عمران الفاسي (ت . 430 هـ/1038 م) ، المعيار ، 316/3-317 .
لقد اعتُبِر في قفصة أحدُ سكّان تلك المدينة كان مستقراً في سوسة ، في عداد الأموات ، دون أن يثبت ذلك بيّنة أو حكم صادر عن القاضي ، فأجاب كلّ من أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبـد الرحمان وأبي حفص العطار ، أنـه لا يمكن استخلاص نتائج قانونية من وفاة لم تثبت شرعاً ، المعيار ، 132/10 ، البرزلي ، المختصر ، 114 ظ .
رغم وجود أجوبة شيوخه المتوفّين لدى القاضي أبي إسحاق القفصي ، وهم أبو القاسم بن محرز وأبو الطيب الكندي والسيّوري ، حول إحدى القضايا ، فقد عرض القاضي المذكور تلك القضيـة على عبـد الحميد الصـائغ ، البرزلي ، المختصر ، 30 ظ . وحول الأجوبة المختلفة التي تلقّاها القفصي حول إثبات ظهور هلال شوّال ، انظر ، إدريس ، تحية جورج مارسَي ، 100/2-104 .

105) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 11/12-12 والمختصر ، 1/ظ .

106) فتوى المازري ، المعيار ، 249/3-251 ،البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 11/1 ظ ، 13 و ، ومخطوط ح . ح . عبد الوهاب 100/2 و ، المختصر 2 ظ ، 3 و .
ويبدو أن السائل هو الشيخ المحدّث المعروف باسم الجزائري ، الذي كان تعلم في السابق على المازري « شيئاً من علم الأصول » .

107) وهو بلا شك ابن الصائغ (ت . 486 هـ/1093 م) .

108) المعيار ، بنيّات الطريق ، والمختصر ، بينات الطرق ، ونحن نقترح : ثنيّات الطريق .

من أقوال المذهب المالكي ، ويفتخر بذلك[109] .

وقد صرّح أنّه لا يوجد في عصره أيّ مفتٍ بلغ من العلم درجة تمكّنه من إصدار فتوى دون الرجوع إلى أيمّة العصور السالفة ، وأنّه يتعيّن الالتزام بكلّ حذر بتعاليم الإمام مالك وأصحابه وبالدواوين الواردة فيها . وبعبارة أخرى كان يدعو إلى التقليد لكبح جماح الجَهَلة وغلق الباب أمام التجاوزات المحتملة[110] .

وفي كثير من الحالات كان المفتون يعتمدون على « العادة والعرف » في المكان الذي تصدر فيه الفتوى[111] . وأمّا مقياس « مراعاة أخفّ الضررين »[112] ، فقد كان يميّز طريقة ابن الصائغ وتلميذه المازري .

كما كانت تُعرَض على المفتي رسوم (أو محاضر) ويطلب إليه البتّ في صحّتها[113] ، وبالمناسبة كان يشير إلى ضعف التعابير التي يستعملها الموثّقون[114] . فقد كان المفتي يقوم حينئذ مقام قاضي الاستئناف أو التعقيب .

وفي بعض القضايا الدقيقة جدّاً ، كان المفتي يدرج في فتواه نصّ الحكم الذي يجب أن يصدره القاضي ليكون في مأمن[115] .

وقد اعتمد حكمٌ أصدره قاضي قفصة على فتوى عالم محلّي ، فأحيل الحكم على المازري الذي أثبت في جوابه أن تلك الفتوى غالطة بالأساس لأنها لا تعتمد على أيّ نصّ مالكي ، فينبغي مراجعتها وإصدار حكم جديد[116] . وهذا دليل آخر على تفوّق المفتي على الحاكم في العهد الصنهاجي . فالقاضي يبتّ في القضايا ، ولكن المفتي هو الذي يصدر الأحكام في الواقع ، وذلك بالنسبة إلى مختلف درجات القضاء . ومن أجل ذلك لم يقبل أيّ أحد من كبار فقهاء المالكيّة خطّة

---

109) المعيار ، 16/12 ، 9/163-164 ، 2/12 ، 12 ، 29/10 ، 3/245-247 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 50/2 و ـ 51 ظ .

110) فتوى المازري ، المعيار ، 3/245-247 ، 253/6 ، 80/9 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 50/2 و ، 51 ظ .

111) المعيار ، 207/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 83/2 ظ ، 126 ظ .

112) المعيار ، 285/8 .

113) نفس المصدر ، 242/2 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 103/2 و .

114) فتوى القابسي ، المعيار ، 117/3 ، المختصر ، 42 ظ ، 43 و ـ برنشفيك ، المرجع المذكور ، 137/2 [الترجمة العربية ، 141/2] .

115) فتوى السيوري أو اللخمي ، المختصر ، 53 و ظ .

116) فتوى المازري ، المعيار ، 3/245-247 ، البرزلي ، مخطوط الرباط 50/2 و ، 51 ظ .

القضاء ، بالرغم من قيمتهم العلمية وما يتمتعون به من نفوذ كبير ، بل كانوا يرفضون تلك الخطّة التي أُفرِغت شيئاً ما من محتواها الأساسي .

أرباب الشعائر الدينيّة :

لقد كانت خطّة الإمامة والخطابة في العهد الصنهاجي ، حسب الاحتمال ، خطّة واحدة ، كما كان الأمر من قبل ، وكان صاحبها يحمل لقب « صاحب الصلاة والخطبة »(117) . ويمكن أن يجمع القاضي بينها وبين خطّة القضاء . من ذلك أنّ القاضي الأخير من آل ابن الكوفي كان في آن واحد ـ كما أسلفنا ـ « قاضي مدينة صبرة وخطيبها وإمام الجامع الأعظم بها » .

وكما كان بإفريقيّة قاضيَا قضاة ، أحدُهما في القيروان والآخر في صبرة ، كان لكلا المدينتين إمام خطيب(118) . ولا نعلم أيّ شيء حول طريقة تعيين الأيمّة الخطباء ، ولا حول جراياتهم المحتملة(119) .

وقد كان للأميرَيْن الصنهاجيّين الأوّلَيْن إمام ملحق بهما ، هو بمثابة الإمام الخاصّ ، إن صحّ التعبير . فقد ذكر ابن خلدون من بين مشاهير الصنهاجيّين المدعوّ سليمان بن مصعمان بن غيلان(120) ، إمام باديس [بن المنصور] بن بلكّين ، ولعلّه كان يتولّى الإمامة في أشير . وكان بودّنا أن نعلم هل كان يصاحب الأمير في تنقّلاته أم لا .

واعتباراً من المنصور ، يبدو أنّ الأمير قد كان يتولّى الإمامة في بعض المناسبات الرسمية ، مثل صلاة العيدَيْن . من ذلك أنّ هذا الأمير قد صلّى بالناس صلاة عيد الفطر يوم أوّل شوّال 374 هـ/ 25 فيفري 985 م في مصلّى رقّادة الذي بُنِي منذ عهد قريب ، وألقى الخطبة قاضي صبرة المنصورية ابن الكوفي(121) .

---

117) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 172 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 2/150-152 [الترجمة العربية ، 2/153-154] .

118) البيان ، 1/280 : إن عبارة « خطيبَيْ القيروان » تعني بلا شكّ خطيب القيروان وخطيب صبرة .

119) المعيار ، 8/160 : لقد اشترك أهل بعض القرى لدفع جراية إمام ، ولكن يبدو أن هذه الفتوى التي أصدرها « أبو محمّد » لم تكن صادرة عن ابن أبي زيد . البيان ، 1/189 : كان أحد أيمّة جامع القيروان في أيام بني الأغلب « يرتزق في كل شهر عشرة مثاقيل » .

120) حسب العبر ، 6/153 ، وفي البربر ، 2/4 : سليمان بن بتينان بن علّان .

121) إدريس ، تحية لويس ماسينيون ، 2/354 .

وفي سنة 443 هـ/ 1051-1052 م ارتدى خطيبا القيروان وصبرة المنصوريّة وجميع المؤذّنين « لباس السواد »(122) . ونستنتج من هذا الخبر أنّهم كانوا قبل ذلك يلبسون الأبيض لون الفاطميّين .

ويبدو أن المسؤول عن صيانة المسجد وإدارة أوقافه كان يسمّى « النقيب »(123) . وكان القائم على شؤون المسجد الجامع يسمّى « قيّم الجامع »(124) .

122) البيان ، 280/1 .
123) فتوى السّيوري ، المعيار ، 26/6 .
124) فتوى نفس الفقيه ، المعيار ، 26/7 .

الباب التاسع
الحياة الإجتماعيّة والعائليّة

الفصل الأوّل
الطبقات والفئات الاجتماعيّة

كانت الطبقة الأرستقراطية تتألّف من الصنهاجيّين والشيعة والعرب من ذوي الأصل العربي ، وقد كان يُنتدَب من بينهم كبار الموظفين ومنهم نوّاب الأمير ، وكانت تضمّ أيضاً أفراد العائلات العربية والبربرية الماجدة والأشراف[1] ، بالإضافة إلى رؤساء القبائل الهلالية الرحّل ، الذين قدموا بعد زحفة بني هلال .

ويبدو أن تركيبة الطبقة البرجوازية المالكية الصغرى لم تتغيّر ، وكذلك تركيبة الريفيّين وأبناء القبائل الرحّل . وبطبيعة الحال كان يوجد في أسفل السلّم الاجتماعي ، سواء في المدينة أو في البادية ، عبيد أصحاب الأملاك العقارية والأثرياء البرجوازيّين .

أما النّرمان فقد مرّوا مرّ الكرام ، ولم يبق لهم أي أثر في البلاد . ولئن كان الدور الاجتماعي الذي يقوم به بعض النصارى من ذوي الأصل الإفريقي يبدو تافهاً ومقصوراً على الرّعاع ، إلاّ أنه من الجدير بالإشارة ، ما كان يتمتع به العبيد النصارى من نفوذ في بلاط تميم ، لا سيما أسرة جرجي الأنطاكي .

وأمّا الجالية اليهودية ، فإن إسهامها في الحياة الاقتصادية لم يكن زهيداً ، كما سنرى ذلك في الباب الموالي .

1) أنظر حول الأشراف بإفريقيّة ، في عهد بني زيري ، نقائش عربية ، 80/1 .

ولا حاجة لنا إلى تأكيد المظاهر المتعدّدة للاعتداء على حقوق الناس إثر زعفة بني هلال ، من سلب ونهب وخطف واستعباد واغتصاب وقتل . . . [2] .

العبيـــد :

كان العبيد يقومون في المجتمع الصنهاجي بنفس الدّور الذي كانوا يقومون به في سائر البلاد الإسلامية ، وكانوا خاضعين للوضع القانوني الذي حدّدته الشريعة الإسلامية[3] . فكانوا يوفّرون بالخصوص الخَدَم والمرتزقة والجواري[4] ، وكانوا من السود أو البيض ، ولكن يبدو أن هؤلاء كانوا في معظمهم من النصارى[5] . على أنّ عتق العبيد الذي تحثّ عليه الشريعة الإسلامية ، وكان معمولاً به مراراً وتكراراً ، لا سيما لفائدة المعتنقين للدين الإسلامي وأمّهات الوَلَد ، لم يكن يقطع صلتهم بأسيادهم السابقين ، حيث يظلّون موالين لهم ، بل كثيراً ما يستمرّون في خدمتهم . ومن ناحية أخرى ما انفكّ العبيد يتوافدون على إفريقية من الخارج ، بفضل كثافة حركة النّخاسة .

وقد أوصى القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) بتأديب العبيد برفق[6] . وسئل ابن أبي زيد (ت . 386 هـ/ 996 م) هل يجوز لصاحب الجارية التي تغنّي في حفلات الزّفاف والولادة ، أن يأخذ نصيباً من المكافآت والهدايا التي تُسنَد إليها ؟[7] .

إلّا أنّ الفتوى التي خوّل بمقتضاها المعزّ لدين الله [الفاطمي][8] لكلّ من يعتنق المذهب

---

2) انظر بالخصوص فتوى السيوري والمازري ، المعيار ، 221/2 ، 226 .

3) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي [الترجمة العربية 169/2] ، وبالخصوص، دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة 2) ، 41-25/1 .

4) وحول تعاطي الإماء للبغاء في جبل نفوسة ، في دور مخصصة لذلك الغرض ، انظر ، الاستبصار (الترجمة) ، 59-60 .

5) بالنسبة إلى الفترة السابقة للعصر الصنهاجي ورد ذكر متعبّد اسمه ابن الروميّة في رياض النفوس ، مخطوط باريس 82 ظ و 83 و . كما جاء في نفس الكتاب أن خادمة ابن اللبّاد (ت . 333 هـ /944-945 م) اسمها مارية ، مخطوط باريس ، 84 ظ . [طبعة بيروت ، 284/2] . وكان للقاضي ابن هشام « غلام نصراني » في سنة 386 هـ/996 م . وورد في المعيار ، 120/3-121 ذكر خادمة روميّة بالمهدية أصبحت أم ولد ، فأعْتقها صاحبها ثم تزوّجها . وجاء في فتوى للمازري ، المعيار ، 231/3 ، والبرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 59/2 ظ ، انّ خلافاً نشب حول « وصيفة روميّة » (أي خادمة) . وحول العبيد النصارى في عهد تميم ، انظر ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1954 م ، ص 274 .

6) المعيار ، 213/2 .

7) نفس المصدر ، 163/5 ، وجاء في معالم الإيمان ، 59/3 « أنّ مغنيّة بالقيروان كانت مشهورة بالغناء في الأعراس » ، في عصر أبي الحسن القابسي .

8) المعزّ ، 193 ، نقلاً عن المجالس والمسايرات ، 310/2 .

الشيعي التمتّع بوضعيّة الرجل الحرّ ، قد بقيت حبراً على ورق في عهد بني زيري .

وقد افتكّ بنو هلال عدداً كبيراً من العبيد من أصحابهم الأصليّين ، ولم يستنكفوا عن استعباد بعض الأحرار من الرجال والنساء[9] .

وأثبتت فتوى صادرة عن التونسي (ت . 443 هـ/ 1051 م) وجود بعض العبيد المسلمين على ملك النصارى .

---

9) فتوى السيّوري ، المعيار ، 412/9 .

10) فتوى التونسي ، المعيار ، 9/140-141 .

الفصل الثاني
التّزواج

تعطينا الفتاوى الصادرة في عهد بني زيري معلومات كثيرة حول طرق الزواج[11] ، وبالتالي حول كثير من مظاهر الحياة العائلية ومنزلة المرأة في المجتمع . كما تكشف لنا عن بعض محاولات التوفيق بين النظريات الفقهية وبين العادات المحلية المتنوّعة .

ولا بأس من التذكير بوجود قاضي الأنكحة[12] على الأقلّ آخر العصر الصنهاجي ، للسهر على صحّة عقود النكاح واحترام الشروط الملتزم بها كلّ طرف .

ويُشترَط في صحّة عقد النّكاح : الوليّ والصداق وشهادة عدلَيْن[13] . ويتولّى العقد مُوَثِّق[14] ، وتسمّى وثيقة عقد النكاح : الجلدة[15] .

ويبدو أنّ موكب إبرام العقد المعروف باسم الإملاك ، كان ينتظم في بيت الزّوجة لا الزّوج[16] ، أو في الجوامع[17] . وتُقرَأ الوثيقة على الحاضرين[18] ، وإثر ذلك يتسلّم الوليّ النقد ،

11) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 2/174-175] . وقد أصدر القابسي عدة فتاوى حول هذا الموضوع ، انظر ، المعيار ، 3/116-127 .

12) انظر ، الفصل 8 من الباب الثامن ، القضاء .

13) الرسالة ، 172-173 ، المقدسي ، 46-47 ، افتخر المؤلف بتولي الشهادة في عقد نكاح لا محالة بالقيروان بطلب من المسمى أبي الطيّب حمدان .

14) فتوى القابسي ، المعيار ، 3/122 .

15) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 2/60 و : « زعمت أن جلدته ضاعت » ، وتحدّث البرزلي عن « جلدة الصداق » المختصر .

16) حضر المّسي (ت . 333 هـ/944-945 م) حفلات إملاك (إملاكات) في بيت « ولي الزوجة » ولم يحضر في بيت الزوج ، المدارك ، 2-3/152 ظ .

17) معالم الإيمان ، 3/110 .

18) في حفل إملاك أحد أعيان القيروان حضر الفقهاء أبو الأزهر ، وأبو سعيد بن هشام وابن التبّان وابن أبي زيد ، ومن كثرة الحضور ، جلس ابن أبي زيد على الماجل . وقرأ الوثيقة أبو محمد بن الشقيقي ، المدارك ، 2-3/246 و .

ويصدّق الشاهدان على الرسم[19] . وعندئذ تقام وليمة الإملاك على شرف الضيوف[20] .

وكان الصّداق الذي يقدّمه دوماً وأبداً الخطيب ، وفقاً للتعاليم الفقهية ، يتركّب من جزءين متساوِيَيْن ، هما النقد والمهر . ويُدفَع الجزء الأوّل نقداً قبل إتمام الزواج ، ولذلك فهو يسمّى العاجل أو المُعَجَّل[21] ، وينفق في اقتناء الجهاز (أو الشُّوار)[22] .

وينصّ العقد عادة على المبلغ الجملي للصداق وعلى قيمة النقد والمهر . وكان البعض ينقص من قيمة النقد ويضخّم المهر[23] . ويؤجل دفع المهر إلى وقت لاحق (ومن هنا جاءت عبارة الآجل أو المؤجّل)[24] . وقد اقتضى العرف عدم المطالبة بالمهر ، إلاّ في صورة الوفاة أو الافتراق[25] .

وقد طالب الزوج والد زوجة بِكْر توفّيت قبل أن يدخل عليها الزوج ، بصداق ابنته ، أي المهر المؤجّل ، في حين طالب الزّوج بأن يرث المبلغ الذي كان سيُخصَّص للجهاز . وحسب رأي عبد الحميد بن الصائغ ، فإن الأب غير مطالب بدفع أيّ شيء لصهره . في حين أبدى اللخمي رأياً مخالفاً لذلك[26] .

وطالبت امرأة بحقّ الاشتراك مع دائني والد زوجها في مقدار الصداق الذي ضمن دفعه عوضاً عن ابنه . فرأى المازري أنه يجوز للمرأة التمتّع بهذا الحقّ ، إن كان الزواج قد أُبْرِم بضمان الصداق من قِبَل والد الزوج ، اللهمّ إلاّ إذا طالب الدائنون « بأعيان » ميراث مدينهم ، باعتبارها سلعاً[27] .

---

19) فتوى القابسي ، المعيار ، 122/3 ، وصف موكب عقد نكاح .

20) وافق المازري على ذلك ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 97/2 و .

21) صدرت حول هذا الموضوع عدة فتاوى للمازري ، المعيار ، 121/3-123 .

22) فتوى اللخمي ، المعيار ، 209/3 ، 310/9 . وللتعبير عن إعداد الجهاز نجد أحياناً كلمة جهّز (تجهيزاً) وأحياناً أخرى : شوّر (تشويراً) ، انظر أيضاً فتوى المازري ، المعيار ، 243/3-244 ، والبرزلي ، المختصر ، 52 و . وقد نظر المازري في مسألة تخصيص النقد لشراء الجهاز ، فأشار إلى وثائق ابن العطّار (ت . 430 هـ/1038 م) ، مذكّراً بأن الشريعة لا تفرض لا على المرأة ولا على والدها توفير الجهاز ، لأنّ الصداق « عِوَض عن البنت » . ولكنّه يقرّ صحّة العادة المذكورة .

23) فتوى القابسي ، المعيار ، 116/3-117 .

24) فتوى المازري ، المعيار ، 231/3 وفتوى القابسي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 57/2 و ، وقد وَرَدَ ذكر « رَبْع » ضمن الصداق .

25) فتوى القابسي ، المعيار ، 123/3 وفتوى أبي الفرج التونسي ، المعيار ، 221/3 .

26) فتوى المازري ، المعيار ، 26/3-27 ، 243-244 ، المختصر ، 52 و . وقد نقل المازري رأي شيخَيْه عبد الحميد الصائغ واللخمي ، واعتبر أنه من الأفضل أن يتفق الطرفان بالتراضي .

27) فتوى المازري ، المعيار ، 241/3-242 .

وعُرِضت على اللخمي القضيّة التالية[28] :

زوّج والد فتاة بِكْر ابنته ، مقابل 100 دينار ذهباً ، منها 20 نقداً و 20 في شكل مهر « مؤجّل إلى أجل معلوم » . وحسب العادة الجاري بها العمل في كل عصر ، لا يُذكَر النقد في كتاب الصّداق ، لكنّه يُشترَط قبل ليلة الزفاف . فسلّم الزوج إلى الأب 20 ديناراً مدفوعة حالاً . ولما تمّ الزواج ، قدّم الأب إلى ابنته جهازاً متركّباً من أسرّة وكسوة وفروش ، قيمتها 30 ديناراً ، في حين يقتضي العرف أن تتجهّز البنت التي هي في نفس مكانتها بجهاز تبلغ قيمته 50 ديناراً . وحسب العادة الجاري بها العمل منذ عهد قديم ، ينبغي أن يخصّص الأب النقد لشراء الحليّ ، أو يدفع ذلك المبلغ لصائغ بغية صنعها ، دون أن يقتطع منه أدنى قسط لاقتناء الجهاز . والحال أنّ الأب لم يكتف فحسب بعدم إعطاء الحليّ لابنته ، بل أجاب صهره الذي طالب بحقّه حسب العرف الجاري ، بأنه قد خصّص النقد لاقتناء الجهاز . وقبل اتّهام الأب بالتقتير ، ألا يجوز لنا أن نتساءل هل أنه لم يطبّق العادة المشار إليها أعلاه ، والمتمثّلة في تخصيص النقد للجهاز ؟ وعندئذ ندرك لماذا أكّد أنه غير مطالب بدفع أيّ شيء آخر .

وإذا كان الخطيب غير قادر على دفع الصداق ، يُمكن للأب أن يمهله ، حتى بالنسبة إلى دفع المعجّل أو النقد[29] . وكانت العادة الجارية في القيروان تقتضي ردّ النقد إلى الزوج[30] .

وخلافاً للعادة المعمول بها في العصر الحفصي والتي أثبتها البرزلي[31] ، يبدو أن الزّوج لا يوفّر لا الكسوة ولا الحليّ[32] .

وتُحمَل نفقات الزّفاف (أو حقّ العرس) ، على الأقلّ جزئيّاً ، على كاهل الزّوج[33] . فقد استفدنا من فتوى للقابسي[34] أنّ زوجاً رفض دفع مبلغ يفوق مبلغ النّقد المنصوص عليه في

28) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهاب ، 32/3 و .

29) فتوى القابسي ، المعيار ، 118/3 .

30) فتوى أبي عمران الفاسي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب 104/2 ظ .

31) البرزلي ، المختصر ، 50 و . والمعيار ، 203/3 .

32) المعيار ، 237/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 63/2 ظ ، 66 و .

33) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 69 ظ ، [طبعة بيروت 121/2] : « تخاصم رجلان في حقّ العرس إلى حماس بن مروان (قاضي زيادة الله الثالث) ، فقال العروس : ليس يجب عليّ حق العرس ، وقال أبو العروسة بل هو واجب عليك ، فقال لهما حماس : المتعارف في البلد أنه من أتيَ إليه بشوار يسوى خمسه وعشرين دينار أدفع دينارين ونصفا ، وإن كان أقلّ من ذلك دفع على قدر ذلك » .

34) فتوى القابسي ، المعيار ، 119/3-120 .

العقد ، حيث طُلِب إليه دفع ثلاثين ديناراً عوض عشرة ، وذلك اعتماداً على العادة الجاري بها العمل في هذا المضمار . فرفض دفع أدنى مبلغ إضافي ، مصرّحاً بأنه لن يدفع إلّا ما يأمر به العلماء . وأجاب القابسي أنّ ذلك هو ما يسمّى « بحقّ العرس » أي الإعانة المقدمة إلى الزوجة . فالنّقد مخصّص لشراء الكسوة والشُّوَار (الجهاز) ، ولكن هناك أيضاً نفقات العرس : وهي الطّيب والصّباغ والحنّاء واستئجار الحليّ لحفلة « الجلوة » ، فينبغي أن يمتثل الزوج للعادة الجاري بها العمل ويساهم في هذه النّفقة ، لا سيّما وأنّ والد الفتاة مطالب عادة بزيادة مبلغ من ماله الخاصّ لصنع الجهاز . ولعلّ حقّ العرس يكتسي صبغة تفاخريّة ، أكثر ممّا يضيفه أولياء العروس إلى « قِشاش » الجهاز . وختم القابسي جوابه مؤكّداً أن القضاة ، حسب علمه ، لا يأخذون بعين الاعتبار حقّ العرس في أحكامهم ، ولكن من مصلحة الزوج أن يمتثل لأحكام العادة والعرف .

وأفتى اللّخمي بجواز الإعلان عن دفع الصداق قبل الابتناء (الدخول على الزوجة) ، دون أيّ توضيح آخر ، في حين وصف السيوري هذا الزواج « بالفاسد » ، نظراً لعدم تحديد أيّ تاريخ[35] .

وكان « نكاح التفويض » (أي عقد الزواج الذي لا ينصّ فيه المتعاقد على مقدار الصداق) من الأعراف المعمول بها أحياناً في بعض الجهات التي جرت فيها العادة بعدم تحديد النقد والمهر إلّا يوم الزفاف . وبالنسبة إلى هذا النوع من الزواج على الأقلّ ، كان أبو الزوج وأبو الزوجة يتبادلان الهدايا المتمثلة في ملابس الأفراح[36] .

وسئل المازري[37] عن « أنكحة البادية » حسب العرف الجاري ، أي تحديد الصداق وإثباته بالشهادة عند إتمام الزواج ، لا عند إبرام العقد ، مع الملاحظ أن قيمة الصداق لا تتغيّر في جميع الحالات ، مهما كان نوعها .

وفي جهة من الجهات ، لم يحدّدها المصدر الذي نقل الخبر ، زوّج رجل ابنته البكر بصداق قدره 200 دينار ، أعطى منه 150 ديناراً لصهره ، لما علم أنه أنفق 200 دينار (لا محالة لسدّ نفقات

---

35) فتوى اللخمي والسيوري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 68/2 و .

36) الرسالة ، 180-181 ، فتوى ابن الصائغ ، البرزلي نفس المخطوط ، 67/2 و ، وقد جاء فيه : على العروس أن تدفع حق العرس إلى الجماعة حسب العرف .

37) فتوى المازري ، المعيار ، 230/3-231 ، البرزلي المخطوط المذكور 32/2 ظ ، المختصر ، 48 ظ . وقد أضاف البرزلي أنّ المهر اليوم معلوم في البادية حسب العرف وأنّ الكسوة تتخيّر بحسب مرتبة الرجل والمرأة ، المختصر ، 49 و .

الزواج) ، أي مقدار الصداق[38] ، وكما نلاحظ ، لا يتعلّق الأمر هنا لا بالنقد ولا بالمهر .

ويمكن أن تتحصّل المرأة من زوجها على « الخُلْع » ، مقابل « إسقاط المؤجّل »[39] .

ولا حاجة لنا إلى التأكيد أنّ الزواج ـ كما هو الشأن في كلّ زمان ومكان ـ مرتبط بكثير من الظروف الاجتماعية[40] .

ويتعينّ نظريّاً على المالكيّة الإمساك عن ربط أيّ علاقة زوجيّة مع الشيعة . ولكن ، لئن كان الأمر كذلك بوجه عامّ ، إلاّ أنّ هناك بعض الاستثناءات المحتملة . من ذلك مثلاً أنّ التونسي الذي نظر في قضيّة من هذا القبيل قد قال بجواز إبرام عقد زواج مع الشيعة المعتدلين[41] . كما يحدث أحياناً أن يرث المالكي الشيعي[42] .

ولا شكّ أن الزّواج « على عادة أهل القيروان » الذي أشارت المصادر إلى وجوده في أوائل العهد الإسلامي ، ولوحظ فعلاً في العصر الحفصي ، وهو يتمثل في ترخيص الزوج لزوجته بتطليق أية امرأة أخرى يتزوّجها ، قد كان رائجاً في العصر الصّنهاجي ، رغم أنّنا لم نعثر إلاّ على إشارة واحدة حول هذا الموضوع . ويتعلّق الأمر بفتوى لابن أبي زيد حول بند وارد في أصل عقد النكاح

---

38) فتوى أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان (ت . 432 أو 435 هـ/1040-1043 م) ، المعيار ، 226/3-227 والبرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 52/2 و . ظ .

39) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 68/2 و .

40) رياض النفوس ، مخطوط باريس 84 ظ ، [طبعة بيروت ، 285/2] ، قال ابن اللبّاد : « إني خطبت إلى جماعة من الناس ، فردّوني وقالوا : لا نزوّج صاحب محبرة وقلم » .

فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 40/2 ظ : يجوز للأب أن يزوّج ابنته البكر العربية بل حق الشريفة لعربي دونها مرتبة أو لبربري أو مولى غني إن كانت فقيرة .

وحول فتاة سُلِّمت إلى صنهاجة ، انظر المعيار ، 433/9 ، انظر أيضاً فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب ، 41/2 ظ .

41) فتوى التونسي ، انظر ، إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 508-517 ـ فتوى اللخمي ، المعيار ، 211/3 ، البرزلي ، مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب 41/2 و : لا يجوز للولي تزويج البنت التي في ولايته لرجل معروف بسوء سلوكه ويخدمته مدّة طويلة في ديوان بني عُبَيْد ، ويجب فسخ هذا الزواج .

42) فتوى السيوري ، المعيار ، 411/9 ، 301/10 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 100/2 ظ ، ورث شخص نصف ضيعة عن مشرقي [شيعي] ، وأراد تصحيح هذه العملية من الوجهة الشرعية ، فقوّم منابه بواسطة شهود عدول وأوقف المبلغ أمامهم على « العلم » ، وأثبت ذلك بوثيقة . فطلب القاضي الاستظهار بالوثيقة وصرّح بفساد العملية لافتقارها إلى حكم القاضي . وأجاب السيوري بأنه لا ينبغي التعرّض للوارث .

43) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 174/2-175] . وترجع هذه العادة إلى منتصف القرن الثاني من الهجرة على أقل تقدير ، انظر ، المعالم ، 267/1 وأبو العرب ، 231 ، والبساط ، 23 .

أو مضاف إليه ، يصرّح الزوج بمقتضاه لزوجته « أنّ كل داخلة عليها طالق »[44] .

وليس من النادر أن تشترط الزوجة على زوجها عدم إبعادها عن مسقط رأسها بأيّ وجه من الوجوه[45] . فقد تعهّد والد زوجة ، لما زوّج ابنته ، بترحيلها من المهدية إلى قفصة[46] .

وفي قصور قفصة ، كان الصّداق المقوّم بالدينار يُدفَع في أوّل الأمر على قسطين ، قسط قبل البناء والآخر بعده . ثم جرت العادة فيها بعد أن لا تقبض الزوجة أو والدها أو وليّها الجزء المدفوع نقداً في شكل دنانير ، بل يكتفي الزوج بتقديم ملابس أو حليّ من الذهب أو الفضة أحياناً أو بعضها من الذهب والآخر من الفضّة ، ويصرّح بأنّه قد اشتراها بسعر كذا ، ويطرح ذلك المبلغ من أصل النقد المشترط قبل البناء[47] .

وفي قفصة أعمر والد فتاة كانت في عصمته ، أملاكها لزوجها طوال مدة الزوجيّة[48] .

وفي المهديّة وزويلة تخوّل الزوجة أو والداها أو أحدهما للزوج حقّ الإقامة في مسكن دون دفع معلوم الكراء طوال مدة الزوجية . ثم يُقرَأ هذا البند المحرّر على صحيفة مستقلّة عن « كتاب الصداق المُنزَّل على عقد النكاح » ، إمّا إثر ذلك مباشرة ، وإمّا في نفس اليوم أو من الغد . ويتمّ التصديق عليه بشهادات مسجلة بعد تسجيل عقد النكاح ذاته . على أن تحرّر أحكام الوثيقتين في آن واحد . وقد رأى المازري وجوب تقويم هذه المساعدة التي ينبغي أن تدخل في حساب الصداق[49] .

---

44) فتوى أبي محمد بن أبي زيد ، المعيار ، 202/3 ، البرزلي ، مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب ، 68/2 ظ .

45) فتوى القابسي ، المعيار ، 122/3 وفتوى المازري ، المعيار ، 241/3 ، البرزلي ، مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب ، 99/2 و .

46) فتوى اللخمي ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 68/2 ظ .

47) فتوى السيوري ، المعيار ، 203/3-204 ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 31/2 ظ ، 32 و ، 68 و : إن مثل هذا الزواج باطل ، لا سيما إذا كانت الملابس والحليّ من أنواع مختلفة ، حسبما يبدو .

48) فتاوى أبي محمد بن أبي زيد والتونسي والمازري ، المعيار ، 398/9 ، 104-105 ، البرزلي نفس المخطوط ، الكراس 38 ، ص 8 ظ ، وقد أنكر الفقهاء الثلاثة هذا الإعمار ، بنفس العبارات تقريباً . وفي صورة الطلاق يجب مطالبة الزوج بغلّة تلك الأملاك إن كان غنيّاً (مليء) ، وإن كان « عديماً » (لا يملك شيئاً) ، « أُخِذَ به الأب » .

وفي فتوى للمازري ، المعيار ، 244/3-245 ، والبرزلي ، المخطوط المذكور ، 105/2 و : « اعتمر » أبٌ « مستغلّ مال » ابنته التي في ولايته على سبيل « الإرفاق » (المساعدة) ، ما دام ذلك الرجل زوجها ، حسب العرف الجاري بقفصة ، الجواب : لا يحقّ للأب « تعمير ربع » ابنته ، وفي صورة الطلاق ، يكون الزوج مديناً بغلّة ذلك الربع ، إن كان غنيّاً ، وإلاّ فالعهدة على الأب .

49) فتوى المازري ، المعيار ، 244/3-245 ، البرزلي ، نفس المخطوط 12/2 ظ ، 13 و . ويذهب المازري إلى القول ببطلان =

وفي زويلة ، إذا توفّي والد الزوجة المُطَالَب بتوفير جهاز تساوي قيمته قيمة الصداق ، يحقّ للزوج أن يطلب ما يقابل الصداق أي الجهاز المذكور[50] .

وفي العائلات الثريّة بالمهديّة وزويلة ، يوفّر والد الفتاة البكر لابنته جهازاً يسمى « الصداق المسمّى » ، ويمكن إثبات أو عدم إثبات هذه « العادة » في عقد النكاح[51] .

وكان غياب الزوج قبل الدخول على الزوجة أو بعده يثير عدة مشاكل . فقد وافق « رئيس مراكب السلطان » بمقتضى رسم موثّق مُصدَّق عليه من قبل قاضي القضاة على إخلاء سبيل زوجته

مثل هذا الزواج إذا لم يدخل الزوج على الزوجة ، وإذا تم ذلك ، فهناك اختلاف بين الفقهاء . ويدعو إلى منع الكُتّاب والشهود من إبرام مثل هذه العقود . وينبغي تدوين هذا المنع وتاريخه لاكتشاف المخالفين فيما بعد .

وهناك فتوى أخرى مماثلة : المعيار ، 18/3 : في « عُقدة النكاح » بالمهدية وزويلة ، كثيراً ما نجد « إمتاع الزوج من مال الزوجة أو من أبيها » . ويكون هذا التنازل موضوع « عقد منفرد » يقرأ في نفس الوقت مع الصداق أو بعده . ويتعلق الأمر بالخصوص بمسكن الزوجَيْن . وقد أنكر المازري هذه العملية . انظر أيضاً تعقيب المازري على فتوى السيوري حول العرف الجاري بقفصة ، المعيار ، 9/104-105 : حسب العادة الجاري بها العمل في زويلة والمهدية ، يدخل مسكن الزوجين ضمن جهاز النساء .

50) فتوى المازري ، المعيار ، 3/243-244 . البرزلي ، المخطوط المذكور 2/65 ظ ، 66 و ، المختصر ، 52 .

51) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 3/227 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/52 ظ ، زوّج رجل ابنته بصداق قدره 100 دينار وتعهد بإعطائها جهازاً بمقدار 100 دينار .

فتوى المازري ، المعيار ، 3/243-244 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، المختصر ، 52 ، زوّج رجل ابنته مقابل صداق ، نقد ومهر ، وتعهّد بمقتضى التزام مدوّن في عقد النكاح بأن يوفّر لها جهازاً بمقدار 2000 دينار مهدوية (المعيار : مهريّة) . وحسب العادة الجارية بها العمل في المهدية وزويلة ، أيّ شخص ثريّ يزوّج ابنته البكر ينبغي أن يتعهّد بإعطائها جهازاً يساوي قيمه الصداق المسمّى ، سواء ورد هذا الشرط في العقد أم لا ، وفي الصورة الثانية يكون التعهد ضمنيّاً ومقرّراً حسب العرف الذي يعلمه الطرفان . ويرى المازري من المستحسن إثباته في العقد بصريح العبارة ، اجتناباً لأيّ اعتراض .

فتوى المازري ، المعيار ، 3/229-230 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/23 و : اشترط الزوج للدخول على زوجته تقديم جهاز يساوي قيمة الصداق المطالب بتسديده . ويرى الفقيه أنه ينبغي أن يطرح من الصداق ما يعادل الجهاز المقابل لذلك الصداق .

وحسب فتوى أخرى لنفس الفقيه ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/66 و ، استثنى أب بعض القطع من رَحْل ابنته « على قدر الصداق » .

وحسب فتوى أخرى للمازري ، المعيار ، المخطوط المذكور ، 2/27 و ، استحوذت امرأة بعد شهرين من زواجها على الرّحل (الحُروق) خوفاً من أن يفرّ الزوج ويتركها بلا مهر . وقد احتجّ الزوج مصرّحاً بأنه لا ينوي الفرار وأنه غير مطالَب بدفع المهر بعد مدّة قليلة من إتمام الزواج . وقد لاحظ المازري بلباقة كيف تغيّرت الأعراف منذ سحنون !

إذا غاب عن المهدية وزويلة أكثر من أربعة شهور متتالية ، دون أن يوجّه إليها مالاً[52] .

وعلى وجه العموم ، يمكن للزوج بعد الدخول على الزوجة أن يغيب مثلاً في صقلية أو الأندلس أو المشرق ، ما دام يوفّر « النفقة » لزوجته وأبنائه . فإذا توفّر هذا الشرط ينكر الفقهاء الصنهاجيون على المرأة المهجورة حقّ الطلاق[53] . إلّا أنه من المحتمل منذ ذلك التاريخ ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الزواج على عادة أهل القيروان ، أن يعترف الزوج مسبّقاً لزوجته بحقّ تطليق نفسها إذا تجاوز غيابه مدة معيّنة[54] .

ويحقّ للسلطان تزويج فتاة لا يعرف الناس مأتاها[55] ، أو هاجر أبوها إفريقيّة وانقطعت أخباره[56] .

وقبل الدخول على العروس تقام وليمة اسمها « طعام النكاح » أو « طعام العرس »[57] . ويبدو أنها كان تُسمّى أيضاً ـ على الأقلّ في مدينة تونس ـ « فرق »[58] .

وأثناء حفل العرس تُعَرْقَب أحياناً بعض الجمال أو الثيران[59] ، كما تقام بعض الحفلات يوم سابع العرس[60] .

---

52) فتوى المازري ، مؤرّخة في 515 هـ/ 1121-1112 م، المعيار ، 3/234-235، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/61 ظ ، 62 و .

53) فتوى المازري ، المعيار ، 3/244-247 ، البرزلي، المخطوط المذكور ، 2/50 و ، 51 ظ ، فتوى القابسي ، البرزلي ، نفس المصدر ، 2/57 و : غاب زوج بصقلية 5 سنوات قبل إتمام الزواج .

فتوى أبي محمد (بن أبي زيد) ، المعيار ، 3/202 : تعهّد زوج كان في حالة سفر بأن يطلق سبيل زوجته ، إذا لم يرجع في بحر تلك السنة . وبعد انقضاء الأجل تخلّت المرأة المهجورة عن صداقها وتزوّجت رجلاً آخر .

وقد حدّد ابن أبي زيد مدة غياب الزوج بأربع سنوات (الرسالة ، 186-187) .

54) برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 2/175] .

55) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 3/89 ، 227 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/37 و . وفتوى أبي محمد (ابن أبي زيد) ، المعيار ، 3/202 .

56) فتوى أبي محمد (ابن أبي زيد) ، المعيار ، 3/98 ، 201 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/57 ظ : غادر رجل من أهل القيروان إفريقية متّجهاً إلى صقلية وترك بنتاً بكراً ترغب في الزواج . الجواب : تُعرَض القضية على القاضي الذي يكاتب الأب ، فإن لم يُعثَر عليه ، يزوّجها السلطان .

57) وافق المازري على هذه العادة ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 2/97 و .

58) مناقب أبي إسحاق الجبنياني ، 299 ، هامش 57 . [يطلق اسم « الفرق » في العهد الحديث بمدينة تونس على الموكب الديني الذي يقام في بيت الهالك في اليوم الثالث من وفاته] .

59) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 2/20 .

60) أشار مقديش إلى عادة كانت شائعة بمدينة صفاقس في عهد متأخّر (عصر الكرّاي) ، فقال : « وكانت عادتهم أنهم يخرجون =

ويجوز للزوج تأديب زوجته برفق . وحسب رأي القابسي يجب عليه أن يعاملها كما يعامل المؤدّب تلاميذه ، بلا غضب ولا انفعال[61] .

وتوضّح لنا فتوى مطوّلة لأبي عمران الفاسي[62] قضية شبه احتجاز المرأة الحضرية في البيت ، وما تحاول بعض النساء أحياناً اتخاذه من احتياطات لجبر أزواجهن على الالتزام بتعهّدات تضمن لهنّ حدّاً أدنى من الحرية . من ذلك أن زوجاً قد التزم بتحرير زوجته من الرّوابط الزوجية إذا منعها من زيارة « محارمها » أو قريباتها أو حضور موكب « فرح » أو « حزن » أو أداء واجباتها نحوهم في الوقت المناسب أو منعهم من زيارتها في مثل تلك المناسبات . كما طالبت زوجة أخرى بزيارة أهلها كلّ يوم أو ثلاثة أيّام ، فرفض الزوج واقترح أن تكون الزيارات متباعدة أكثر ، فماذا ينبغي أن يكون نسق تلك الزيارات ؟ وهل يتمتّع الأبَوان بحقّ الأفضليّة ، أم ينطبق عليهما ما ينطبق على غيرهما من الأقرباء ؟ وهل تقتضي الزيارات وحضور الأفراح والمآتي أن تبيت الزّوجة خارج بَيْتها ؟ .

أجاب أبو عمران الفاسي على هذه الأسئلة معتبراً أنّ الوالدَيْن والإخوة يستطيعون استقبال الزوجة في أكثر ما يمكن من المناسبات ، ثم يأتي الأقرباء الآخرون ، وتكون زياراتهم متناسبة مع درجة القرابة . وينبغي اعتبار العرف واجتناب أيّ شطط في هذا الشأن . ويحسن بالزوج من حيث المبدأ أن لا يسمح لزوجته بالخروج من بيتها ، إلاّ عند الضرورة وفي الحالات التي لا يجد فيها أيّ مطعن . على أنه من الأفضل اجتناب مثل هذه الشروط المثيرة للنزاع ، والتي يأبى الفقهاء إدراجها في العقود أو جعلها موضوع شهادات . ويجوز للمرأة أن تبيت خارج بيتها بمناسبة الأفراح والمآتم بوجه خاصّ ، لأنّها غير مضطرّة إلى ذلك أثناء الزيارات العادية التي تقوم بها في المدينة . وإذا جرت أعمال مكروهة أثناء موكب زفاف أو مأتم ، يحقّ للزوج أن يمنع زوجته من الحضور .

ولا يحبّذ العلماء تردّد النساء على الحمّام ، لا سيما وقد اعتدن التجرّد من ثيابهنّ بتلك المناسبة . كما يعترض الزوج أحياناً على ذهاب زوجته إلى الحمّام العمومي أو يستأجر لها حمّاماً لتغتسل فيه بمفردها[63] .

سابع العرس مصطفّين من باب البحر ، يدورون خارج البلد ، ويدخلون من باب الجبلي ، بعدما يكون اجتماعهم بحومة العروسَيْن ، وإلى الآن تسمّى بذلك الاسم » ، نزهة الأنظار ، (الطبعة الحجرية 2/151-152) ، [الطبعة الجديدة ، 335/2] .

61) فتوى القابسي ، المعيار ، 213/2 .

62) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 86/3-87 .

63) الرسالة ، 306 ، وذكر المقدسي ، 46-47 ، أنّ أهل المغرب يدخلون إلى الحمامات العمومية بلا ثياب ، إلاّ ما قلّ وندر .

ومما لا شكّ فيه أن المرأة الحضريّة كانت تحتجب[64] . ولا يجوز إكراه الزوجة الحرّة على السكن في بيت الحمو . وكذلك الشأن بالنسبة إلى « أمّ الولد » التي لا يتعيّن عليها خدمة والدَيْ مولاها[65] .

وفي صورة نشوب خلاف بين الزوجين ، ينبغي تعيين حكَمَيْن ، أحدهما من أهل الزوج والآخر من أهل الزوجة ، ليصلحا بينهما[66] ، مِصْداقاً لقوله تعالى : ﴿ وإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا ، إنْ يُرِيدَا إِصْلاحاً يُوفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا ، إنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾[67] . أمّا بالنسبة إلى العامّة ، فيُعَوَّض الحكمان بامرأة أمينة تنتصب في بيت الزوجين لتراقب حركاتهما وسكناتهما . وقد أدان أحد الفقهاء هذه العادة ، لأنّها منافية للكتاب والسنة[68] .

وفي صورة الطلاق قبل إتمام الزواج ، يتعيّن على الزوج دفع نصف المهر[69] . ولكن هناك عادة محليّة تفرض على المُطلّق أن يدفع حالاً نصف مجموع الصداق ، دون انتظار أجل دفع النصف

فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 59/1 و .

وفتوى السيّوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 59/1 و ، المختصر ، 8 و . ظ : يتزواح معلوم « إخلاء » الحمّام بين درهم ودرهم ونصف . وفي بيت شعر لابن رشيق حول الحمّام (الشريشي ، شرح المقامة الحريرية ، 54/1) ورد ذكر : بيت الحوض وبيت الطهور [المطهرة] . وانظر النادرة الواردة في معالم الإيمان (3/141-142) حول الحمام في العصر الصنهاجي ، انظر أيضاً ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 376/2 .

64) المعالم ، 3/141-143 : كشفت امرأة خارجة من الحمام عن وجهها ولم تظن أنّ أحداً ينظر إليها ، فلما رأت أحد طلبة الأندلس سترت وجهها . .

65) فتوى المازري ، المعيار ، 229/3 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 105/2 و .

66) البرزلي ، المخطوط المذكور 91/2 ظ .

67) سورة النساء ، الآية 34 .

68) فتوى أبي حفص بن العطّار ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 90/2 و . وجاء في المعيار ، 2/344-346 أن « الرافضة من أتباع ابن المسرّة » تخلّوا عن الفريضة وعوّضوا الحَكَمين بامرأة أمينة . انظر ، حول تشيّع ابن المسرّة ، محمود علي المكي ، التشيّع في الأندلس ، 108-109 .

69) لا كلّ الصداق . فتوى القابسي ، المعيار ، 123/3 : زوّج رجل ابنته البكر بصداق قدره 200 دينار معجّلة و100 دينار مؤجّلة ، وقد انقضت سبع عشرة سنة دون أن يدخل الزوج على زوجته . ولما أُخطِر بوجوب إتمام الزواج ، أجاب أنّه أقسَم بأن يطلّق زوجته إذا لم يُسعَفْ بتخفيض المائة دينار المؤجّلة . ورأى القابسي أنه يحقّ لأهل العروس رفض أيّ تخفيض . ويجوز للزوج ، إذا رغب في ذلك ، أن يدخل على زوجته ويدفع الصداق ثم يطلّقها وفقاً لقَسَمه . وإذا فضّل الانفصال عنها قبل الدخول عليها ، يتعيّن عليه دفع نصف المائة دينار . ولكن من المستحسن أن يقبل الأب التخفيض الذي يسمح به بعض الفقهاء .

المؤجّل[70] . ومن المعلوم بالنسبة إلى الطلاق بالثلاث ، أنّه لا يجوز شرعاً للزوج إرجاع زوجته إلاّ إذا تزوّجها رجل آخر[71] . وقد احتجّ المازري بشدّة على رجل من أهل تونس أراد ، استناداً إلى رأي سعيد بن المسيّب إرجاع زوجته المطلّقة بالثلاث (مبتوتة) ، بعد أن تزوّجها رجل آخر بمقتضى عقد شرعي ، دون أن يدخل عليها[72] .

وتزوّجت أَمَةٌ غلامَ مولاها بعد وفاة هذا الأخير ، وأنجبت منه بنتاً ، فأراد ابن الهالك الاقتران بها ، وقد منع السيوري هذا الزواج[73] .

واشترى رجل « خادمة روميّة » في المهديّة ، ووهبها لابنه الذي أعتقها بعدما أنجب منها عدّة أطفال ، ثم تزوّجها بصداق مسمّى[74] .

وكان أحد البرجوازيين الأثرياء يربّي أَمَة ليجعل منها فيما بعد « أمّ ولد »[75] .

وممّا تجدر الإشارة إليه أخيراً أن قبريّات بني زيري قد تضمّنت أسماء بعض النساء الصنهاجيّات مثل : سيّدة الجميع ، وستّ السيّد ، وستّ الأهل ، وزين الدّار[76] . وهناك عدّة أسماء تبدأ بلفظ « أمَة » (مؤنّث عبد) ، يتبعه اسم من أسماء الله الحسنى مثل : أمة الحقّ ، وأمة العزيز ، وأمة العظيم ، وأمة الرحمان . . .[77] .

---

70) فتوى السيوري ، **المعيار** ، 208/3 ، البرزلي ، **المخطوط المذكور** ، 105/2 ظ : إذا كانت تلك هي العادة ، فإن الزواج باطل ولا يتضمّن أيّ صداق .

71) **الرسالة** ، 182-183 ، 184-185 .

72) فتوى المازري ، **المعيار** ، 249/3-251 ، البرزلي ، **المخطوط المذكور** ، 99/2 ظ ، 100 و ، **المختصر** ، 2 ظ ، 3 و ، مخطوط الجزائر ، 11/1 ظ ، 13 و .

73) فتوى السيوري ، **المعيار** ، 204/3 ، البرزلي ، **المخطوط المذكور** ، 53/2 ظ .

74) فتوى القابسي ، **المعيار** ، 120/3-121 .

75) **معالم الإيمان** ، 142/3-143 : حكاية الصبيّة التي ربّاها ابن أبي زيد ليتزوّجها فيما بعد رغم تقدّمه في السنّ . وقد أعطاها ، مع ما تحتاج إليه من ثياب وحليّ وفروش ، لأحد طلبة الأندلس ، وهو إمام مسجد الشيخ ، كان قد رآها خارجة من الحمّام ، « فأخذت من نفسه مأخذاً عظيماً » . وفي نفس الكتاب حكاية أخرى مفادها أنّ ابن أبي زيد قد زوّج ابنته لطالب ، كانت قد باتت في بيته ، إذ أدركها الليل وهي خارجة من الحمّام ، فدخلت إلى أوّل بيت اعترضها . ولمقاومة أيّ إغراء ، أحرق الطّالب أصابعه « بذبالة المصباح » . ويبدو أن هذه القصة الثانية تحريف للقصّة الأولى التي تكتسي هي نفسها صيغة خرافية ، بصورة تزيد أو تنقص .

76) يبدو أنّ هذه العبارات هي صفات أثبتت عمداً في القبريّات عوض أسماء المتوفّيات ، انظر ، **نقائش عربيّة** ، 341/1-342 ، انظر أيضاً ، برنار روا ، المجلة التونسية ، 1918 م ، 91 .

77) سليمان مصطفى زبيس ، Corpus ، 71/1 ، هامش 129 ، ونقائش عربيّة ، 386/1-387 ، 406-407 .

الفصل الثالث
الغـــذاء[1]

الأطعمـــة :

كان الخبز المعجون في البيت يُحمَل على « لوح العجين »[2] إلى الفرن الذي يشرف عليه الفرّان . ويسهر المسؤولون على أن يكون وزن الخبز المباع في السوق مطابق للوزن المحدّد[3] . ويمكن أن يكون الخبز من السميد[4] .

وكثيراً ما يُقلَى الشعير والقمح والفول ، ولا شكّ أيضاً الحمص[5] . وتُصنَع البسيسة من « الدقيق المقلوّ » والزيت والماء[6] . كما تُطْبَخ العصيدة بالحنطة والزبدة والعسل[7] . ولم يرد في أيّ نصّ من النصوص الصنهاجية التي بين أيدينا ، ذكر الكسكسي الذي أشارت المصادر إلى وجوده في العصر الحفصي[8] . فهل يمكن أن نستنتج من ذلك أن هذا الطعام غير المعروف في المشرق والمُمَيِّز للطبيخ المغربي ، لم يظهر إلا فيما بعد ؟[9] ويبدو أن الدشيش هو نوع من حساء الشعير المدقوق ،

1) انظر ، E.G. Gobert ، المراجع التاريخية للأغذية التونسية ، الكراسات التونسية ، 1955 ، 501-542 .
2) فتوى أبي حفص ابن العطّار ، المعيار ، 200/8 .
3) فتوى اللخمي ، المعيار ، 347/6-348 ، رياض النفوس ، خبز فرني [طبعة بيروت ، 408/2-409] .
4) معالم الإيمان ، 153/3 [السميد] ، محمد الطالبي ، أرابكا ، 299/3 ، وحسب تحفة العقباني ، كانت تباع في إفريقية في القرن الثاني عشر م . ثلاثة أنواع من الخبز : خبز الدقيق « دُقاق » ، وخبز السميد « والحسكار » (الدقيق الأسمر) ، خلافاً لمصر وسوريا حيث لم يكن يوجد هناك سوى نوع واحد من الخبز ، وهو المصنوع من طحين القمح ، ولا تطرح منه إلا « النخّالة الكبيرة » .
5) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 90 ظ و 91 و ، وفي فتوى اللخمي ورد ذكر « دقيق مقلوّ » ، البرزلي مخطوط ح .ح . عبد الوهّاب 145/2 و .
6) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 52/1 ، 338] .
7) نفس المصدر : عصيد [طبعة بيروت ، 34/2] .
8) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي [الترجمة العربية ، 282/2] .
9) لم يشر إليه الكاتب المشرقي المقدسي المعروف بحبّ الاطّلاع .

يُفتّت فيه الخبز ويُسمّى بالمرق[10] . وهو يشبه الجشيش المصنوع من الشعير والمصنوع في الفرن[11] . ويسمّى الدقيق الأبيض المستخرج من الحنطة : حوّارة (أو حوّاري)[12] ، ويسمّى الدقيق الغليظ : سُوَيْق[13] . ولا شكّ أن الجَرْدَق (ج : جرادق) كان يعني ، كما هو الشأن الآن في باجة مثلاً ، الرغيف الرقيق المخبوز في التنّور[14] . وورد في إحدى الفتاوى[15] ذكر جهة يقتات أهلها الزبيب والقطاني[16] والجبن واللبن والدُّخْن والرزّ والعَلَس .

الحلويّات[17] :

تُصنَع الغسّانية من السميد والعسل والزعفران و « حوايج أخرى »[18] . وأشارت المصادر إلى الكعك الذي توجد منه عدّة أنواع[19] ، والسفنج أو الأسفنج الملبّس بعسل جلولة ، ويبدو أنه مرادف للزّلابيّة[20] ، وأطباق اللّوزينج المرشوش بالسكر[21] وقرص السميد بالعسل[22] ، والقُبّاط المحشوّ باللّوز ، عند الاقتضاء[23] . وأحياناً تُحَلّى الثردة بالسكّر وتُعَطّر بماء الورد والكافور[24] .

---

10) المدارك ، 2-72/3 و ، وحول الدشيشة وهو نوع من الكسكسي المصنوع من دقيق الشعير ، انظر ، Beaussier ، المعجم ، 335 .

11) رياض النفوس [طبعة بيروت 297/1] .

12) نفس المصدر ، [طبعة بيروت 196/1] ، وفي موضع آخر : خبز نقي .

13) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 90 و ، والمعجم ، 504 .

14) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 531/1] .

15) فتوى السيوري ، المعيار ، 55/2 .

16) انظر القائمة في : Fagnan ، إضافات ، 144 .

17) بساط ، 25 ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 300-301 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 284/2 .

18) معالم الإيمان ، 107/3 ، 108 ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 448/2] .

19) معالم الإيمان ، 108/3 ، رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 294/2-295] .

20) معالم الإيمان ، 12/3 ، 104-105 ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 80 و ، 97 ظ ، [هذا النوع من الإسفنج المعروف إلى الآن باسم فطائر العسل يختلف عن الزلابيّة] .

21) المدارك ، 2-27/3 و ، دوزي ، الذيل ، 557/2 : نوع من الطعام شبيه بالقطايف يطبخ بزيت اللوز .

22) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 91 و .

23) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 396/2] ، دوزي ، الذيل ، 302/2 : المُلَوَّن ، أمّا قراءتنا فهي : المُلَوَّز ، أي المحشوّ باللوز .

24) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 360/1] .

ويبدو أن الفالوذج[25] هو نوع من الحلويات المصنوعة من النشا والماء والعسل . ويُمضَغ القصب السكري (أو القصب الحلو) قطعةً قطعةً[25م] ، ويستخرج منه ـ حسبما يبدو ـ نوع من الشراب[26] . وكان رجل إباضي طاعن في السنّ قد خارت قواه حتى أصبح عاجزاً عن الطعام ، فكان يسعى إلى استرجاع قواه بتناول شراب الجُلاّب ، وهو نوع من شراب العسل أو الزبيب (؟)[27] ، وكان يُصنَع أيضاً شراب الورد والبنفسج[28] .

الخمر :

كان النّصارى يبيعون الخمر للمسلمين من ذوي الأخلاق الفاسدة رغم احتجاجات الفقهاء[29] . فقد تحدّثت فتوى للمازري عن عطّار طلب استرداد ماله من وَرَثة رجل كان قد زوّده بالخمر وبأشياء أخرى[30] . ويبدو أنّ النبيذ (المستخرج من الزبيب) قد صار مهجوراً[31] .

---

25) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 396/2] ، معالم الإيمان ، 182/3 : قِطَع فالوذج .

25 م) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 182/2] ، المدارك ، 2-85/3 ظ .

26) فتوى أبي حفص ابن العطّار وأبي عمران الفاسي البرزلي مخطوط الرباط ، 77/2 و ، ومخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 230/2 ظ .

27) يتعلق الأمر بأبي عبد الله محمد بن داوود (ت . 555 هـ/1160 م) ، الشماخي ، 450 ، نلاحظ استعمال كلمة « زجاجة » (قدح من البلوّر) .

28) فتوى أبي حفص بن العطّار وأبي عمران الفاسي ، البرزلي ، مخطوط الرباط 77 و ، ومخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 230/2 ظ . انظر أيضاً ، قطب السرور ، مخطوط باريس ، 165 : عدّد زيادة الله الأغلبي الأشربة التالية : شراب الورد ، شراب الجُلاّب ، مطبوخ العنب ، مطبوخ الزبيب ، نبيذ العسل ، نقيع الزبيب ، نبيذ زبيب طرقوني (ربّما نسبة إلى طرقونة ، البلدان ، 44/6) ، مُقْنَع مضروب بالعسل .

29) فتاوى أبي محمد بن أبي زيد واللخمي والمازري ، المعيار ، 414/9-415 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 101/2 و ، 223 و . وقد باع العابد أبو الحسن الدباغ (ت . 359 هـ/969-970) فندقا كان يملكه وتصدّق بجميع ثمنه ، لأن رجلاً قد شرب فيه مسكراً ، معالم الإيمان ، 94/3 .

30) المعيار ، 245/10 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 188/2 و .

31) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 35 ، كان الحنفيون يعتبرون النبيذ حلالاً ، وكان الناس يستهلكونه في العهد الأغلبي ، الرقيق ، قطب السرور ، 164 ط . وما بعدها ، وفي رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 479/2] ، ورد ذكر زوج فراخ يأكلان « حبّ الزبيب الذي يطرحه النبّاذون » ، وذلك في عصر السّبائي (ت . 365 هـ/966-967 م) . وفي عصر عبد الله بن طالب ، قاضي محمد بن أحمد بن الأغلب (250-261 هـ/864-875 م) ، كانوا يستعملون في قابس القدور النحاسية لطبخ النبيذ ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، الكرّاس 32 ، ص 6 ظ .

وكان حيّ المومسات بالقيروان يسمّى البقريّة . وقد جاء في بعض المصادر أنّ الشاعر بكر بن علي الصابوني (ت . 409 هـ/ 1018-1019 م) دخل على صاحب له في محلّ قِيان ، « فوجد عنده جماعة من إخوانه يشربـون ، منهم ابن أبي حفص الكاتب ، ورأى بـرذونه (جـواده) قائماً في السقيفة . فقال له بكر : كم لكم ها هُنا ؟ فقالوا : كذا وكذا يوماً ، فشرب معهم نهاره أجمع وليله وأراد الانصراف من الغد ، فافتقد رداءه ودراهم كانت معه ، وسأل القوم فما وقع على عين ولا أثر ، فقال لابن أبي حفص : سألتك بالله إلاّ ما نزلتَ بنا إلى هذا العبد الصالح فاستوهبتَ لنا منه دعوة بأن يفضح الله سارقنا أو يجمع علينا ما راح منّا ، فإنه صائم النهار قائم اللّيل . فقال ابن أبي حفص : وأيّ عبد يكون هذا ؟ قال بكر : برذونك يا سيّدي . فضحك الجماعة وجبروا ما ضاع له »[32] .

وفي بجاية أهرق المهدي الخمر الذي كان يباع في باب البحر[32م] وفي نفس المدينة فرّق بين الرجال والنساء اللذين كانوا مختلطين في البطحاء يوم عيد ، ومنع الرّجال من التزيّن بزيّ النساء . ولا شكّ أن الأمر كان يتعلّق بمحترفي الشّذوذ الجنسي[33] .

المـآكــل :

ممّا لا شكّ فيه أن اللحم لم يكن يمثّل الغذاء الرئيسي بالنسبة إلى أهل إفريقية ولا سيما منهم العامّة[34] ، كما هو الشأن الآن . وفي البادية كان معدّل حصّة الفرد من الطّعام يتمثّل في « مُدّ قمح » في اليوم ، أو كميّة أكبر من الشعير في المناطق التي تستهلك هذا النوع من الحبوب ، وستّة أثمان من الزيت والخضر ، وشيء من اللحم خلال يومين أو ثلاثة أيّام في الأسبوع . وكان كثير من الناس لا يأكلون اللحم مدّة أسبوع أو أكثر . وبالعكس من ذلك كان أهل المدن يستهلكون كمية أكبر من اللّحوم[35] . وكان لحم البقر يدخل بالخصوص في تركيبة وجبة أهل البادية[36] . ولا شكّ أن السّمك كان يمثّل الغذاء الرئيسي في المناطق الساحليّة . كما كان لحم الطريدة يمثّل غذاء تكميليّاً

---

32) معالم الإيمان ، 118/2 .
32 م) البيلق ، 53 .
33) انظر ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية 177/2] .
34) نفس المرجع ، [الترجمة العربية ، 282/2] .
35) فتوى القابس ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 86/2 ظ .
36) حسب ابن رشد ، البرزلي ، المختصر ، 31 ظ .

هامّاً هنا وهناك ، ويوضّح القابسي أن طيور الصيد التي تباع في السوق بلا رؤوس ، يجب أن تُذَكّى قبل قطع رؤوسها[37] .

وفي المناطق الجنوبية ، مثل قسطيلية (توزر ومنطقتها) ونفطة وقفصة بلا شكّ ، كان لحم الكلاب يملأ مناضد الجزّارين . وكان سكّان تلك المناطق متّهَمين بوضع ذلك اللحم في هريستهم (ج : هرائس)[38] . والهريسة هي عبارة عن عجين مركّب من حبات قمح وقطع لحم « مهروسة » (أو مسحوقة) ، بعد طبخها[39] . وكان ابن أبي زيد يشتري الهريسة من السوق . وكان بائعها يسمّى الهريسي[40] . وكان الثريد أو الثردة يطلق على نوع من الحساء الذي يفتّت فيه الخبز . وقد أشار بعض المصادر إلى صحفة ثريد مع خبز قمح ، تعلوها قطعة لحم خروف سمين[41] ، وإلى ثريدة بالشمندر[42] ، وثريدة بلحم الخروف ، مع سلق وحمص[43] .

ويتمثل البيسار في فول يطبخ مع الزبدة والحليب ، ويُجمَّد عندما يبرد[44] . وتُطبَخ الفقّاعية باللحم[45] . وإليك فيما يلي وصف بعض المآكل الأخرى ، وهي : السماصاخية والحريرة ، أي بلا شكّ حساء بالفلفل والثوم[46] ، والكواكبيّة ، وهي سلق وحمص[47] ، والنيسابوريّة ، وهي سلق وجزر (السفنّارية)[48] ، والفستقية ، وهي سلق وفول[49] ، والإفريقية وهي دجاجة مطبوخة بزيت الزيتون[50] .

---

37) المعيار ، 3/2 ، الرسالة ، 158-161 .

38) المقدسي ، 60-61 ، البرزلي ، المختصر ، 31 ظ . وحسب ابن رشد ، يرجع سبب « هرش » المغاربة إلى استهلاكهم للحم الكلاب .

39) فتوى اللخمي حول جواز شراء اللحم والهريسة من جزّار غنيّ أو فقير ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 137/1 ظ ، ومخطوط الرباط ، 48/2 ظ . انظر أيضاً ، السقطي ، 36 والمعجم ، 69 .

40) فتوى القابسي ، المعيار ، 436/9 .

41) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 48 و .

42) نفس المصدر ، 93 و ، 91 ظ .

43) يتعلق الأمر بطعام أعدّه أبو القاسم البرادعي (توفي بعد سنة 386 هـ/996 م) ، رياض النفوس ، 1/ المقدمة 42 ، عن المدارك .

44) رياض النفوس [طبعة بيروت 32/26].

45) معالم الإيمان ، 153/3 .

46) رياض النفوس : سما صاحية ، (وهي الخزيرة) ، [طبعة بيروت ، 101/2] .

47) نفس المصدر .

48) نفس المصدر .

49) نفس المصدر .

50) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 120/2] : دجاجة إفريقية

كما ذُكِرَت المآكل التالية ، دون توضيح نوعيّتها ، وهي : الإسكباج[51] ، والإطريّة[52] ، والـبرزق (ج: برازيق)[53] ، والحساء[54] ، والهبيص[55] ، والكنافة[56] ، والسخينة[57] ، والسكباجة[58] ، والسنبوسق[59] .

وكان الروّاس يبيع بلا شكّ رؤوس الخرفان المشوية في الفرن[60] . وكان الناس يملّحون الزيتون[61] . وقد أشارت المصادر إلى التوابل التالية[62] : الفلفل والكرويّة والزعفران والقرطم والخردل . ولا شكّ أن أهل البادية ـ كما هو الشأن الآن ـ كانوا يستهلكون عدداً كبيراً من الثّمار والخضر البريّة[63] .

---

51) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 408/2] ، إسكباج : هكذا في الأصل ، [وفي المعالم ، 62/3 : سكباج] .
52) رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 409/2] : لحم بإطرية .
53) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 17/2] .
54) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 31 و .
55) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 59 و .
56) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 168/2] ، وفي بساط ، 25 : لحم مبلّل ومطبوخ بالبخار .
57) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 360/1 : طعام رقيق يتّخذ من دقيق] .
58) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 98/2] .
59) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 389/2] : « كنت أشتهي الساعة أن آكل معك لحماً مطبوخاً بلفت وبعده سنبوسق » .
60) نفس المصدر ، [طبعة بيروت ، 536/1] .
61) نفس المصدر ، مخطوط باريس ، 48 و .
62) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 120/2 و ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2 و ، ظ ، المختصر ، 82 ظ .
63) في فتوى لابن الصائغ (البرزلي ، مخطوط الرباط 120/2 و ، ومخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263 ، وظ ، والمختصر ، 82 ظ) ورد ذكر الأسماء التالية : البلّوط ، البُطْم ، النّبق (ثمر العنّاب البرّي أو السّدرة) ، الخرّوب ، الجربير.

الفصل الرابع
اللّبــاس[1]

كان غطاء رأس الخاصّة يتمثّل عادة في العمامة ، وهي عبارة عن شريط مستطيل من القماش ملفوف حول الرأس . وكان فقهاء المالكيّة ، وفقاً لتعاليم مذهبهم ، يستنكرون لباس العمامة بلا رداء . وكان طرف العمامة (الذؤابة) يحيط بالعنق . وقد لاحظ ابن أبي زيد أن الأتراك هم الذين كانوا يتعمّمون بهذه الطريقة . ولا يجوز « حنق » العنق بهذه الصورة ، إلاّ إذا كانت العمامة مغطاة بالرداء[2] . ويمكن أن نتساءل هل كانت هذه التوصية متّبعة من طرف غير الفقهاء مثلاً ؟ ويبدو أن هذا الرداء مطابق لما يسمّى بالطيلسـان . ولكن المقدسي أشـار إلى أنّ المغاربـة يرتـدون لباس المصريين، ولا يلبسون الطيلسان، إلاّ ما قلّ وندر[3]. وكان التجّار يتفنّنون في لباسهم ويتعمّمون بالعمامـة[4] . وكان أهـل قابس « يشـدّون عمامتهم » بـطريقة مخالفة للطريقـة المعمول بهـا في القيروان[5] . ولكنّ المصادر لم تصفها لنا .

وأخبرنا أحد المؤلّفين أنّ إباضياً من جبل نفوسة كان يرتدي ثوبَيْن أي قميصين معقودين في طَوْق واحد ، وعمامة جميلة وكساءً من سجلماسة[6] . وكان رجل معاصر للمعزّ بن باديس يرتدي « الطّاق »[7] ، عندما يكون في بلده زواغة ، ويرتدي العباءة عندما يتحوّل إلى جبل نفوسة[8] .

---

1) انظر ، L. Golvin ، المغرب الأوسط ، 169-175 .

2) رياض النفوس [طبعة بيروت 247/1] ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 م ، 298 ، البرزلي ، مخطوط الجـزائر ، 127/1 ظ ، الغبريني ، 117 ، الشماخي ، 334 ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 288/2] .

3) المقدسي ، 46-47 .

4) المدارك ، 2-178/3 ظ .

5) « كان لأبي الحسن القابسي عمٌّ يشدّ عمامته بشدّ قابس ، فسمّي بذلك » ، معالم الإيمان ، 168/3 ، انظر أيضاً ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقيّة ، 1954 ، 173 .

6) الشماخي ، 334 .

7) رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 108/1] : الطاق (ج . طيقان) ، ويطلق هذا الاسم على الطيلسان .

8) الشماخي ، 337 .

ويبدو أن « الكرزيّة »[9] ، التي يكون لونها أحياناً أسود ، هي عمامة من نوع بدائي . وتسمّى قطعة القماش التي تصنع منها العمامة ، المنديل[10] . وأشار أحد المصادر إلى استعمال القطن والكتّان لصنع ملابس العيد التي يرتديها الزّوج ، وهي متركّبة من ملحفة ومنديل[11] . ويبدو أن كلمتيْ « أسماط » و « شروق » كانتا تطلقان على بعض الملابس الفاخرة[12] .

وكان العامّة يضعون على رؤوسهم قلنسوة (ج: قلانس) ملوّنة[13] ، وبالخصوص طاقية من الصوف أو شاشية (ج: شواشي)[14] . وكان أحد المتعبّدين يشتري الشواشي للأطفال الفقراء[15] . ولا بدّ أن لونها كان أحمر ، وعلى كلّ حال ، فإن أحد سكّان الساحل كان يلبس شاشية حمراء[16] .

وكان بنو حمّاد في بجاية يتعمّمون بعمائم من الشّرب (كتّان رقيق) مطرّزة بالذهب ، يمكن أن يبلغ ثمنها 600 دينار فما فوق . وكانت ملفوفة ومشدودة شدّاً ، حتى يُخيَّل للناظر أنّها تيجان . وكان بعض الحرفيّين المختصّين في صنع تلك العمائم يتقاضون دينارَيْن وأكثر عن كلّ عمامة . وكانت لهم قوالب خشبيّة في دكاكينهم تستعمل لهذا الغرض وتسمّى الرؤوس[17] . وقد اشتهرت

---

9) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 35/2] .

10) نفس المصدر [طبعة بيروت ، 35/2 ، 408/2] : منديل مهلّبي . البرزلي ، مخطوط الرباط ، 67/2 و ، المدارك ، 15 و ، 72 ظ ، 90 ط . وحول لباس الوزراء الفاطميين ، انظر ، الخطط ، 304/2 . وحول الفرق بين كساء ومنديل ، انظر ، المقدسي ، 48-49 .

11) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 67/2 و : ويضيف المؤلف : وبعث إليه صهره بكساء وملحفة ومنديل لارتدائها في الأفراح والأعراس ، وهناك قبريّة تحمل اسم الملاحفي (صانع الملاحف) ، نقائش عربية ، 369/1-370 .

12) معالم الإيمان ، 123/3 .

13) المقدسي ، 48-49 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 292/2 . لم تشر المصادر في العصر الصنهاجي إلى وجود « القلنسوة الطويلة » ، التي غالباً ما تسمى « الطويلة » ، وهي غطاء رأس الارستقراطية الأغلبية والفاطمية . ولا يمكن أن نستنتج من ذلك أنها انقرضت ، المدارك ، 12/3/2 ظ . « قال ابن بسطام كان لسحنون قلنسوة طويلة ربّما لبسها . . . وقال سليمان بن سالم : رأيت لسحنون ساجاً (نوع طيلسان) كحيلاً وساجاً وقلنسوة زرقاء وَشْياً وقلنسوة تشبه الأغلبي ، فإذا قعد للسّماع لبس رداء وقلنسوة الأغلبي ، وإذا شهد الجمعة لبس السّاج وقلنسوة ، وإذا حضر جنازة لبس الساج الأزرق والقلنسوة الزرقاء » ، الحلل السندسية [طبعة بيروت ، 757/1] .

14) أشارت المصادر إلى وجود الشاشية بالقاهرة في عهد المعز والحاكم ، الخطط ، 217/2 : « شاشية مرصّعة في غلاف » ، 333 : « شاشية مرصّعة » . وفي نفس المصدر ، 5/3 ، إشارة إلى عمائم ملفوفة حول الشواشي في عهد الحاكم .

15) معالم الإيمان ، 160/3 .

16) الشماخي ، 390-391 .

17) الاستبصار ، الترجمة 34 .

الملابس المصنوعة في قلعة بني حمّاد بجودتها ورقّتها ، وكان لباس العيد المصنوع في تلك المدينة يسوى ثلاثين ديناراً[18] .

وعندما أقام ابن تومرت في بجاية منع انتعال الأقراق ذات السيّور المذهّبة (أقراق زرّاريّة) والتعمّم بعمائم « الجاهلية » ، وحرّم على الرجال ارتداء الجلابيب المعروفة « بالفتوحيّات » والتزيّن بزينة النساء[19] .

وكان أمراء بني زيري يتعمّمون بالعمامة . وقد أسلفنا أن عمامة باديس في معركة الشلف كانت حمراء[20] . ولما وقع الاعتداء على يحيى ، قطعت ضربة السكّين « طاقات » من عمامته[21] .

وكانت الجبّة[22] ـ وهي ثوب فضفاض واسع الكمّين مصنوع في الغالب من الصوف ـ تمثّل اللّباس العادي لكافة سكّان المدن على اختلاف طبقاتهم ، في حين كان أهل البادية يفضّلون ارتداء الكساء ، وهو عبارة عن قطعة قماش ، يسدلون طرفها على كتفهم الأيسر . ولكن يبدو أن هذين اللباسَيْن لا يلغي أحدهما الآخر . وأشار المقدسي إلى رداء مشقوق إلى شقّيْن يسدل على الظهر كالعباءة ، وميّز بين أكسية سكّان الأقاليم ومناديل السوقة[23] .

وكثيراً ما تشير المصادر إلى القميص والسروال والمئزر . وكان الناس يرتدون « الجلالـة » (الجلباب) مع القميص[24] « و الدّراعة »[25] ولا شك أن تلك الملابس التي أشير إلى وجودها قبل

18) نفس المصدر ، 105 .
19) البيلق ، 52 .
20) البيان ، 264/1 ، قال الرقيق :
« تجلو عمامته الحمراء غرّته كأنه قمر في حمرة الشّفق »
21) ابن خلكان ، 240/2 ، نقلاً عن ابن شدّاد .
22) المدارك ، 2-3/174 ظ : كان أبو الحسن بن نصر (ت . 341 هـ/952-953) يلبس جبّة من الصوف ، وعندما تتّسخ مقدّمتها ، يلبسها بالخلاف ، ويغطّي صدر المرقّعة بخرقة لطيفة . وكان يرتدي فروا وقلنسوة فرو . وجاء في فتوى لأبي محمد بن أبي زيد أن أكسية من الصوف وجبّات وميازر قد أعطيت للفقراء ، المعيار ، 405/9-406 .
23) المقدسي ، 48-49 ، المدارك ، 2-3/6 و ، ظ ، : كان القاضي عيسى بن مسكين (ت . 303 هـ/915-916) يغسل جبّته ويتأزّر بكسائه ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 74 ظ : كان قاضٍ آخر يرتدي كساء وفروة وجبّة ، وفي نفس المصدر [طبعة بيروت ، 463/2] : كُفّن أبو سعيد خلفون (ت . 354 هـ/965 م) في كساء وجبّة من صوف مع إزار وثوبَيْن .
24) المدارك ، 2-3/15 و ، 72 كان جبلة (ت . 299 هـ/911-912 م) يرتدي قميصاً وجلالة وسراويل ومنديلاً على أكتافه ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 33/2] ، وجاء في نفس المصدر أنه يرتدي قميصاً ورداءً .
25) المدارك ، 2-2/90 ظ ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 271/2] .

العصر الصنهاجي ، كانت لا تزال رائجة في ذلك العصر . وقد أشار أحد المؤلّفين إلى الكانشي (ت . 347 هـ/ 959 م) وقد لفّ رأسه بتأزيره[26] ، وأشار في موضع آخر إلى نفس الفقيه وقد التفّ بعباءته[27] . ووصف أبو الصلت غلاماً لابساً قباء أحمر وغلاماً غزيّاً عليه قرمزيّة[28] .

ويمكن أن يرتدي الرجل الحضري الملابس التالية : الجبّة والقميص والمقنعة (غطاء الرأس) والكساء[29] . وكان الفقيه أبو عمران الفاسي يرتدي قميصاً ورداء[30] ، والشاعر بكر بن علي الصابوني يرتدي رداء[31] . وفي فتوى للقابسي ، ورد ذكر الملابس التالية : الجبّة والقميص والحملة والمقنعة[32] .

ولعلّ البدن[33] (ج: أبدان) ما زال يعني نوعاً من الحزام[33م] . وفي الشتاء يتغطّى الناس بفَرْو قطّ أو سمور[34] ، وفي أغلب الأحيان بفرو مصنوع من جلد الخروف ، وذلك حسب ثروة كلّ فرد .

وعندما يذهب الصرائري (ت . 418 هـ/ 1027-1028 م) إلى سوق ابن هشام لشراء اللحم ، كان يرتدي فرواً أحمر كعامّة الناس ، وبالعكس من ذلك كان يرتدي في بيته ثياباً فاخرة تتمثل في عمامة وشملة مصنوعة في دبيق (بمصر) . ولا شكّ أن المحشوّ (أو المحشوّة) كان يطلق

---

26) المدارك ، 2-176/3 ظ ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 338/1] .
27) المدارك ، 2-176/3 ظ .
28) الخريدة [طبعة تونس ، 214/1 ، 241/1] .
29) ذُكِرت هذه الملابس في فتوى لأبي حفص عمر بن العطّار ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 81 و ، ظ .
30) معالم الإيمان ، 194/3 .
31) بساط ، 24 .
32) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 86/2 و ، ظ .
33) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 50/2] .
33م) [البَدَن في المصطلح التونسي ثوب من الصوف] .
34) [رياض النفوس ، طبعة بيروت ، 147/2] : السمور حيوان ثديي من آكلات اللحوم يُتّخذ من جلده فرو ثمين (المعجم الوسيط) . المدارك ، 2-174/3 ظ ، معالم الإيمان ، 221/2 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 82/2 و ، برنشفيك ، المرجع السابق ، [الترجمة العربية ، 290/2] . وأشير إلى جلود السّمور من بين هدايا باديس إلى الحاكم في سنة 405 هـ/1014-1015 م . معالم الإيمان ، 17/3 : كان المتعبّد أبو القاسم عبد الوهّاب بن عبد الله (ت . 330 هـ/941-942 م) يرتدي فرواً « وصوفه إلى الخارج وعلى رأسه دَوْخَلة خوص » .
35) الصفدي ، 61/2-63 رقم 354 .

على ثوب مُبطّن[36] . وكما هو الشأن بالنسبة إلى الإمام سحنون ، كـان أهل إفـريقية يلبسـون البرانس السوداء (م : برنس)[37] .

وكان الحذاء الذي تردّد ذكره أكثر من مرّة في النصوص هو القرق (ج : أقراق) ، وهو خفّ نعله مصنـوع من الفلّين (؟) ومشدود بسيـور[38] . ورغم أن المصادر لم تشر إلى ذلـك ، فمن المحتمل أن يكون النعل (ج : نِعَال أو أنعال) ما زال رائجاً في العصر الصنهاجي[39] ، وكذلك الخفّ (ج : خِفـاف)[40] . وأشارت المصـادر أيضاً إلى القبـاقب المصنـوعـة من الخشب (م : قبقاب)[41] . ولا شكّ أن المسافرين قد استمرّوا أثناء سفرهم في انتعال اللفائف[42] .

والجدير بالتذكير أن المتآمرين على يحيى كانوا يرتدون لباس أهل الأندلس ، وانتقاماً منهم قُتِل في المهدية عدد من الأشخاص المتزيّين بذلك الزيّ .

وممّا لا شكّ فيه أن أهل البادية كانوا يجهلون الملابس المصنوعة ويقتصرون على ارتداء قطعة قماش غليظة تسمى « تلّيس » ، وكانوا يمشون في أغلب الأحيان حفـاة ونعالهم في أيديهم[43] . ويبدو أن ملابس بني هلال التي لا نعرف عنها شيئاً كانت تشبه ملابس أهل البـادية في العصر الحديث[44] . وحسب البكري[45] ، كان المتعبّدون في جبل أدار في أقصى الوطن القبلي ، يرتدون « البردي » .

---

36) فتوى أبي حفص عمر بن العطّار ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 82/2 و ، الشمّاخي ، 347 .

37) المقدسي ، 48-49 ، الحلل السندسيّة ، المرجع المذكور [ترجمة الإمام سحنون] .

38) ليفي بروفنسال : وثائق غير منشورة عن تاريخ الدولة الموحديّة ، 50 ، المعجم ، 245 ، برنشفيك ، المرجع المـذكور [الترجمة العربية ، 292/2] ، الغبريني ، 117 .

39) ريـاض النفـوس [طبعـة بـيروت ، 163/2] : الأنعـال والأقـراق ، المـدارك ، 2-152/3 ظ : كـان المَمّسي (ت . 333 هـ/944-945 م) ، يمشي في بيته بنعل البيت وله نعل آخر يذهب به إلى الصلاة .

40) المدارك ، 2-152/3 ظ : كان المَمّسي السالف الذكر يرتدي ثياباً فخمة جديدة وخِفَافاً سوداء . ومن شدّة ورعـه كان السيوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) لا يلبس الفرو ولا النعال ولا الخِفاف إلاّ إذا كانت مصنوعة من جلود الوحش ، ولا يكتب إلا في رقّ قديم أو ما كان من جلود الوحش ، معالم الإيمان ، 226/1 .

41) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 129/1 و ، إشارة إلى أبي حفص عمر بن العطّار .

42) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 75 ظ ، المدارك ، 2-92/3 و .

43) المدارك ، 2-168/3 و (ترجمة الإبياني ، ت . 352 أو 361 هـ/963-972 م) .

44) مقديش ، نزهة الأنظار ، [الطبعة الجديدة ، 331/2] : « فلم يرَ أحداً إلاّ رجلاً يشبه أهل البادية ، بيده رمح ومِخلب ، مشتمل بإحرام وبرجله سبّاط (حذاء) ومتعمّم كأهل البادية » .

45) البكري ، 84 : لا شكّ أن هذا البردي وارد من منطقة سرقوسة .

وأشار الشماخي إلى الكساء الطرّاقي[46] ، ووصف لباس أحد سكّان الساحل ، لعلّه كان إباضياً : كان يرتدي كساء « حَشَميّاً » وينتعل « أقراقاً قلعيّة »[48] ، وعلى رأسه شاشية حمراء وبيده مِزْراق .

ونحن لا نعرف جيّداً لباس النساء ، إلاّ أن بعض أثوابهنّ كانت تحمل نفس أسماء ملابس الرجال ، مثل القميص والمُرَقّع والثوب والجبة والكساء[49] . ولا شك أن الحجاب لا يزال يسمى « المقنعة »[50] .

وجاء في فتوى لأبي حفص عمر بن العطار[51] ، قد شُوّه نصّها ويا للأسف ، أنه يتعيّن على الأب أن يوفّر لابنه الملابس التالية :

محشوّ وفرو ، كلّ سنتين ، و . . . (كلمة غير مقروءة) أو طُوَيْق (تصغير طاق) من الحرير الخام (الخزّ) وقميصان وزوجان أقراق ، وزوج مُوقِس (خفّ من الجلد الغليظ) وجَوْرَبان ، كلّ سنة . ويجب أن تشتمل معدّات الفراش على ملحفة بنصف (دينار؟) وكساء بنصف (دينار؟) وشُوَيْذكة (تصغير شاذكة أي غطاء صغير) بربع (دينار؟) ومرقّع (بربع الربـع)[53] . ويحقّ للمُرضِع الحصول على الفراش والملبس في كلّ سنة : مهد وشويذكة تبلغ قيمتها ربع (دينار؟) وأربع لفائف من الصوف ولفيفتان من الكتّان وإحرام (حايك)[54] وشان (شال)[55] ومحشوّ وفرو وقميص وجُوَيْربات (تصغير جوارب) .

---

46) الشماخي ، 386 ، في الأصل « طاقي » ، والصّواب ما أثبتناه .

47) نفس المصدر ، 390-391 .

48) نسبة إلى قلعة بني حمّاد .

49) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 33/2] : قيل إنّ جبلة خرج مرّة إلى الجمعة بقميص زوجته . المدارك ، 2-153/3 ظ : اشترى الممّسي ثوباً لامرأته . وحول المرقّعة ، انظر ، المدارك ، 2-174/3 ظ . وجاء في رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 74 ظ أن خادمة قاضٍ توفّي سنة 316 هـ/928-929 م ، كانت ترتدي جبّة وكساء .

50) جاء في ترجمة جبلة (ت . 299 هـ/911-912 م) . أنّه « أخذ مِقنعة أمّه فتردّى بها ومضى » ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 29/2] .

51) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 82/2 و .

52) « بربع صرف » .

53) 1/16 دينار ؟ .

54) Beaussier, 197

55) نفس المرجع ، 551 .

ويمكن أن تكون الألحفة (م: لحاف) مزركشة في كلّ طرف « بأعلام » (تطريزات) من الحرير ، يبلغ عرضها حوالي ثلثي شبر[56] . وجاء في فتوى للقابسي[57] أنّ « فراش النّوم » يشتمل على لحاف محشوّ وكساء وملحفة وما يوضع على الفراش أي نطع (زربية جلد) وسبنية (وقاء الفراش)[58] .

والجدير بالتذكير أن الخلعة الرسمية لبني زيري أتباع الفاطميّين كان لونها أبيض بلا شكّ ، ثم اتّخذوا الأسود ، لون العباسيّين ، بعد انفصالهم عن القاهرة[59] . وكانت ملابس الحِداد سوداء[60] .

وكان رجال الدولة الصنهاجية يطلقون شواربهم[61] . وكان حلق لحية الأسير يعتبر أكبر إهانة وينذر بقرب إعدامه[62] . وكان النساء والرجال « يخضّبون بالحنّاء » ، كما كان الشأن من قبل[63] .

وجاء في بعض المصادر أن زوجة المتعبّد ابن اللبّاد (ت . 333 هـ/ 944-945 م) كانت ترتدي في الأعراس « مُعَصْفَرات »[64] . وكان من الممكن تزويق القباقب بالفضّة[65] . كما كان

---

56) فتوى أبي الطيب عبد المنعم (ت . 421 هـ/1030 م) ، المعيار ، 227/9 .

57) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 86/2 و ، ظ .

58) Beaussier, 459.

59) ابن خلكان ، 240/2 ، نقلاً عن ابن شدّاد : أشار إلى اكتشاف خزنة بالملابس القديمة المزركشة بأشرطة مذهّبة ، عند حفر قصر المهدي . وأهدى المعزّ بن باديس إلى القائد بن حمّاد « طياب مُثقّلات » ، المؤنس ، 81 . ويبدو أنّ بني زيري لم تكن لهم معامل تطريز رسميّة .

60) يتجلّى ذلك من هذا البيت الوارد في رثاء أبي علي بن خلدون (ت . 407 هـ/1016 م ، والذي نظمه ابن يحيى ، المدارك ، 288/3-2 و :

أَلَبِسْت لبس الشاكلات وجئت في سود السُّلاّب كأنّي من حام

61) الصفدي ، 61/2-63 ، رقم 354 : كان الشاعر الصرائري (ت . 418 هـ/1027-1028 م) صديقاً للقاضي حُسَيْن بن مهنّى الفاسي ، « قد أخذ بزيّه في ترك شاربه لا يخفّفه تَشَبُّهاً برجال الدولة من صنهاجة » ، العُمَري ، مخطوط باريس ، 2327 ص 109و . ظ .

62) البيان ، 265/1 .

63) معالم الإيمان ، 75/3 : كان أبو إبراهيم أحمد بن أبي الوليد (ت . 345 هـ/956-957 م) « يلبس السواد ويخضب بالحناء » . المدارك ، 28/3-2 و : كان متعبّدان توفّيا حوالي 292-293 هـ/904-906 م) « يتخضّبان بالحنّاء » . وقد أقرّت الرسالة هذه العادة ، ص ، 304-305 .

64) المدارك ، 149/3-2 و .

65) حسب أبي حفص عمر بن العطّار ، لم يتّفق فقهاء القيروان على لبس « القباقب من الفضّة » ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 129/1 و .

النساء ينتعلن أحياناً نعالاً من الفضّة[66] .

وكانت تُنقَش على فصوص الخواتم بعض الآيات القرآنية[67] . وكان الأطفال يلبسون حليّاً من الذهب والفضّة[68] ، والنساء يلبسن قلائد من الأحجار الكريمة واللؤلؤ[69] . ووصف أحد الشعراء[70] مروحة « تُلْوَى وتُنشَر » ، ويُطرَّز الجلد أحياناً بالذهب[71] .

66) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و ، المختصر ، 79 و . أجاز ذلك أبو حفص عمر بن العطّار ومنعه أبو بكر بن عبد الرحمان .

67) لقد سئل السيوري حول خاتم نُقِشَت عليه هذه الآية : ﴿ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ . سورة التوبة ، الآية 129 .

68) فتاوى التونسي واللخمي والمازري ، المعيار ، 301/1-302 ، 212/6-215 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 234/1 و .

69) في فتوى اللخمي ، المعيار ، 59/9 : « عِقْد جوهر » على ملك امرأة .

70) ابن خلوف الحروري (ت . 430 هـ/1038-1039 م) ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص 133-134 .

71) انظر ، الباب العاشر من هذا الكتاب : الجلود .

الفصل الخامس
المسكن

كان أهل البادية المستقرّون يقيمون في مساكن بدائية من نوع الكوخ ، تضاف إليها أخصاص القصب والنخيل والغرف والكهوف في الجنوب الشرقي[1] .

ولا شكّ أنّ خيمة البدو كانت تشبه الخيمة المعروفة في العصر الحديث . وبطبيعة الحال ، فقد تغطّت السهول بالخيام إثر زحفة بني هلال ، في حين هجر كثير من الناس أكواخهم ، على الأقلّ في البداية، قبل أن تحصل تسوية بالتراضي بين المقيمين والرّحل .

وكانت المنازل الموجودة في المدن تحتوي في أغلب الأحيان على طابق واحد[2] . وفي صورة تأجير منزل أو طابق علوي ، على وجه الخصوص ، لفتت انتباه الفقهاء المسألة المتعلّقة بمعرفة هل أنّ المطر النازل على السطح والمجمّع في الماجل هو من حقّ المستأجر أو المالك[3] .

وحتى بالنسبة إلى المنازل الموجودة في المدن ، فإن مادة البناء الأكثر استعمالاً هي الطوب[4] .

---

1) **رياض النفوس** ، مخطوط باريس ، 104 و ، برنشفيك ، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** ، [الترجمة العربية ، 296-295/2] .

2) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، الكراس 34 ، ص 6 و : علوي - سفلي - إفريز . فتوى السيوري ، **المعيار** ، 26/7 : بيع عمود مسجد ، يُبيت عليه « حنيّة » أو اثنين وعلوي .

3) **معالم الإيمان** ، 145/3 (محرز بن خلف بالقيروان) : قبل نزول المطر يُكنّس السطح ويُفتح الميزاب الذي ينزل منه الماء إلى الماجل . فتوى ابن أبي زيد : يجوز لمستأجر العلوي أن يتصرف كما يشاء في الماء الذي ينزل على سطحه ويمنعه من التسرّب إلى ماجل الطابق السفلي ، البرزلي ، **المختصر** ، 145 و ، فتوى ابن شبلون (ت . 390-391 هـ/999-1000 م) ، البرزلي ، ٢المختصر ، 145 و : يرجع الماء إلى صاحب الطابق السفلي . ويرى المازري ، (**المعيار** ، 76/5 ، **المختصر** ، 106 و) أنه ينبغي العمل بالعرف ، وحسب رأي شيخه الفقيه أبي محمد عبد الحميد الصائغ ، يرجع الماء إلى المالك ، في حين يرى فقهاء المدينة ، مثل السلمي (لا شك أن الأمر يتعلق بأبي عبد الرحمان محمد السلمي صاحب **تاريخ الصوفيّة**) ، أن الماء يرجع إلى المستأجر . وأعلن المازري أنه بعدما اعتقد أن الماء الذي هو من منافع المنزل المؤجّر ، يرجع إلى المستأجر ، أدرك بعد ذلك بسبع سنين أن حجّته ضعيفة : ذلك أنّ تصنيف الماء من بين المنافع التي يحق للمستأجر أن يتصرّف فيها ، يحتاج إلى دليل . ولذلك فقد انضمّ إلى الرأي المطابق للعادة .

4) **المدارك** ، 2-176/3 ظ ، (ترجمة الكانسي المتوفّى سنة 347 هـ/958-959 م) ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية 297/2] .

ويُبنَى المطبخ عادة فوق « السقيف » (أو السقيفة)[5] .

وتحمي الستارة (أو السترة) « المطلع » (الطابق الأول) والسطح من الريح والشمس وفضول الجيران[6] . وقد اعترض صاحب « مطبق » (الطابق العلوي) على بناء « سهم » (نتوء) على الجدار العلوي لإقامة سترة ضدّ الجيران[7] .

وإذا سكنت عائلة منزلاً يحتوي على طابق علوي ، فإنّ الأبوَيْن يقيمان في الطابق السفلي ويقيم الابن في الطابق الأوّل[8] . ولا يمكن فتح باب جديد في زقاق إلّا بموافقة جميع الجيران الذين تفتح منازلهم على ذلك الزقاق[9] . وكان سكّان الأسواق والشوارع مُطالَبين برفع الوحل المتراكم فيها . ولا يجوز صبّ الماء الملوّث المستخرج من الآبار في الشارع ، حيث يُمنع تصريف المياه الأسنة[10] . وكانت أبواب المنازل الموجودة بمدينة تونس مُطوَّقة بالمرمر[11] . وفي طرابلس كانت الحجرة المرتفعة التي يمكن الوصول إليها بواسطة درج ، تسمّى « الغرفة »[12] .

« وليس في قسنطينة كلّها دار كبيرة ولا صغيرة إلّا وعتبة بابها حجر واحد ، وكذلك جميع عضادات الأبواب ، فمنها ما يكون من حجرَيْن ، ومنها ما يكون من أربعة أحجار .

وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع ، منقورة في الحجر ، لذلك تبقى بها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها »[13] .

ويتمثّل أحد العناصر الأساسيّة من أثاث البيت في الخزنة التي تُكتنَز فيها الفضّة والحلي[14] ، وكثير من الأشياء الأخرى ، بلا شكّ .

---

5) فتوى السيوري ، البرزلي مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، الكراس 32 ، ص 8 ظ ، المختصر ، 160 و .

6) فتوى اللخمي ، المعيار ، 277/8 ، 282 ، Beaussier ، 460 .

7) فتوى اللخمي ، المعيار ، 284/8 .

8) فتوى المازري ، المعيار ، 229/3 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 105/2 و : يقيم ابنٌ وزوجته وأمّ ولده في العلوّ ويقيم والده في الطابق السفلي .

9) فتوى عبد الحميد بن الصائغ ، المعيار ، 43/9 : انظر حول كلّ هذه المسائل ، برنشفيك ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1947 م ، 127-155 .

10) فتوى اللخمي ، المعيار ، 47/9 .

11) البكري ، 40 : أشار إلى المثل المتعلق بديار مدينة تونس : « الرخام في الخارج والسخام في الداخل » .

12) مناقب ، 115 ، 293 .

13) الإدريسي ، ص 96 .

14) فتوى اللخمي ، المعيار ، 59/9 وفتوى القابسي ، المعيار ، 75/9 .

الباب العاشر
الحياة الإقتصاديّة

الفصل الأوّل
النظام العقاري

حقـوق الملكيّـة :

لقد عكست فتاوى فقهاء العصر الصنهاجي[1] الأضرار الجسيمة التي ألحقتها الاضطرابات الهلالية بحقوق الملكية . ففي القيروان ، على وجه الخصوص ، رجع بعض السكّان الذين فروا منها واستقرّ كل واحد منهم كيفما كان الحالُ ، دون أدنى اهتمام بحقوق الغير . ونحن نتصوّر أن أفخر المساكن لم تكن آخر ما تمّ الاستيلاء عليها . وقد أثيرت عدّة نزاعات ، وكان من الصعوبة بمكان في أغلب الأحيان التوصّل إلى تسويتها . ولئن أمكن في بعض الحالات إرجاع المحلّات إلى أصحابها وإجراء مبادلات مشروعة ، إلاّ أن كثيراً من الملاّكين قد فقدوا رسومهم ولم يكن دائماً من الهيّن الحصول على الشهادات اللازمة لإثبات حقوقهم .

وقد أثارت اغتصابات الأعراب وغيرهم من المعتدين ، نفس البلبلة في البوادي ، وكان من النادر جدّاً وجود ممتلكين شرعيّين للحقول أو الزياتين . وقد سقطت كثير من الأراضي بين أيدي حائزين ، يصعب التثبّت من حسن نواياهم . وحسب رأي السيوري ، يتعيّن على هؤلاء الحائزين

1) السيوري (ت . 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) ، البرزلي مخطوط الرباط ، 217 و ، المختصر ، 105 ظ ، اللخمي (ت . 478 هـ/1085 م) ، المعيار ، 308/10 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب الكراس 236/ ط ، المازري (ت . 536 هـ/1141) ، المعيار ، 369/6 ، البرزلي ، المختصر ، 140 ظ ، 141 و

تعويض خسائر الملاّكين بتسديد معلوم كراء معقول . وقد أشارت فتوى صادرة عن اللخمي إلى امرأة عادت بعد 36 سنة من هجرتها وطالبت زوجها بأن يرجع إليها العقار (الرّبع) الذي كانت قد سلّمته إليه ، مقابل قرض قدره 100 دينار ، وقد عثرت على وثيقة الإقرار بالـدين . ولكن المغتصب أكّد أنه هو صاحب ذلك العقار ، مستنداً إلى بعض الشهادات . كما أثيرت قضايا من هذا القبيل في عصر المازري .

الإقطاعــات العقاريــة :

ما هو مفهوم « الإقطاع » في عهد بني زيري ؟ فهـل أن الأمر يتعلق بـإقطاع جبـائي أم عقـاري ، كما هـو الشأن في العهـد الحفصي[2] ؟ نظراً لغيـاب النصوص الصريحـة حول هـذا الموضوع ، يتعذر علينا الجواب على هذا السؤال . ولنتذكـر في هذا الصّـدد أنّ ابن الأثير قـد تحـدّث ، عند ذكـر تعيين عـامـل طبنـة في عهـد بـاديس[3]، عن «إقـطاع»، ولكن ربمـا كـانت هـذه العبارة سابقة لعصرها. وأضاف المؤلف أن هذا الأمير قد أقـطع أحد صنـائعه «ضِيَـاعاً وربـاعاً بكـل كورة من كُوَر إفريقية »[4] . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن أمراء بني زيري كانوا لا يمنحون الإقطاعات في منطقة قسطيلية ، لا لأسباب قانونية ، بل ربّما لأن السلطة المركزية لم تكن قويّة في المنـاطق الجنوبيّـة التي تكتسي صبغة خـارجيّة زنـاتية صميمـة . وخـلال الفـترة 460-470 هـ/ 1067-1078 م أقطع الناصر بن حمّاد « ضواحي » الزاب وريغة[5] .

ويبدو أن الإقطاع قد شمل أساساً « الأراضي المَوَات » ، إذ أوضح القابسي أن ملكيّة أرض المقبرة لا ترجع إلى مَنْ يُحييها بواسطة إقطاع سلطاني[6] . كما أكّد ابن أبي زيد أنه لا يجوز للسّلطان إقطاع أرض موات ، ولو كانت قرب عمران[7] .

وفي عهد المعزّ بن باديس ، يبدو أن أرضاً عمومية تقع في ساحل المهدية قد كانت موضوع

---

2) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 184/2] .
3) البيان ، 250/1 .
4) نفس المصدر ، 262/1 .
5) ابن خلدون، العبر، 45/7.
6) فتوى القابسي ، المعيار ، 7/22-23 .
7) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 3/ الكراس 34 .

عقد « مغارسة » ، وقد حدّد الكتب « شيئاً معلوماً من الخراج » ، يتعيّن على كل مغارس[8] تسديده على مدى عدّة سنوات . وكان الأمر يتعلق بزياتين ، ولذلك فقد قُدِّر الخراج بحساب قفيز الزيت ، ولعله كان يسدّد نقداً لا عيناً[9] .

وقبل سنة 395 هـ/ 1004-1005 م ، حسب الاحتمال ، استولى السلطان في منطقة المنستير على حقول ومساكن ، ثم أرجعها إلى أصحابها ، مقابل زراعة الكروم لحسابه . وعندما يحين موعد قطاف العنب ، تُقوَّم المحاصيل التي يتسلمها السلطان ليستخرج منها الخمر ، ويتحصل المزارعون على نصف قيمة العنب . أمّا بالنسبة إلى الزراعات الأخرى ، فكان الخراج زهيداً . وبعد ذلك ردّ السلطان إلى الملاّكين حريّة الانتفاع بأملاكهم ، ومنحهم حقّ التصرّف في عنبهم وغير ذلك من المنتجات الأخرى[10] .

وأثبتت فتوى للقابسي وجود نظام مزارعة من نوع « المناصفة » ، كان مطبّقاً على ضيعة ربّما تقع في منطقة المهديّة . وأراد أحد سكّان « قاساس » ؟ الاستقرار بالمنستير ، ولكنّ المتعبّدين منعوه من ذلك ، بسبب كرههم لتلك الأرض التي تقسّم غلّتها مناصفة بين السلطان والمزارعين . ورأى المازري أنه يجب على المزارع أن يقتطع من حصّته من « الزرع » (أي الحبوب) معلوم كراء الأرض ، وأن يوزّعه على الفقراء . فيتعينّ عليه حينئذ إجراء تقويم تقريبي لذلك المعلوم ، بالمقارنة مع أرض مماثلة غير خاضعة لأيّ أداء[11] .

وهناك مثال آخر للمناصفة ربّما يرجع تاريخه إلى العهد الصنهاجي : فقد كان الخوارج في تقيوس بالجريد يقدّمون إلى السلطان نصف غلّة الواحة ، « الغابة والجبّات » ، ويدفعون من النصف الراجع إليهم « الظلم » (المكس) وربما « العُشُر » . وتقدّر قيمة الغلّة قبل جنيها من طرف « الخرّاص السلطاني » (أي المُقَوِّم)[12] .

---

8) هل يتعلق الأمر بهوّارة .

9) الشماخي ، 342-343 .

10) فتوى القابسي (ت . 403 هـ/1012 م) ، المعيار ، 438/9-439 .

11) فتوى القابسي ، المعيار ، 428/9-429 . في النصّ الأصلي : « طساس » ، ولعل الأمر يتعلق بتحريف كلمة « قاساس » ، وهو اسم ربض من أرباض زويلة ، البكري ، 31 . ثم تأتي فتوى أخرى لنفس الفقيه حول وصيفة فرّت من طساس وأكّدت أنها حرّة .

12) الشماخي ، 459 . لعل الأمر يتعلق بواقعة قد أشار إليها الدرجيني . برنشفيك ، المصدر المذكور [الترجمة العربية ، 199/2] .

وأكّد المؤلف الإباضي الشماخي أنه يجوز « لأهل المشاع » (أي أصحاب أرض على الشيوع) التفاهم فيما بينهم حول غرس تلك الأرض التي تنطبق عليها « أحكام المِلْك » ، ما لم تكن بُوراً[13] . أما الأراضي التي يغتصبها السلطان فهي مُدنّسة . وحسب فقهاء القيروان ، لا تجوز الصلاة في صبرة المنصورية ، وتعتبر جميع الموادّ المتأتية منها ، من لحوم وملابس ، محرّمة[14] .

ومن حيث المبدأ ، تُعتبَر الحمّامات العمومية والدكاكين في الأسواق والفنادق والأفران ، تابعة للدولة التي تؤجّرها . ويجوز أن يتصرف فيها الخواص حسب مشيئتهم ، شريطة أن يسدّدوا معلوم كراء . وقد اشترى أحد العمّال قطعة أرض وبنى فوقها دكاكين وحمّامات معدّة للإيجار[15] . ولما تداعت بعض المباني للسقوط ، أعاد المستأجرون بناءها وأصبحت تابعة لهم بصورة تكاد تكون تامّة . على أنّ تلك الأملاك تخضع لمعاليم الكراء ولكنها تكون موضوع صفقات حرّة . وعندما يُعفَى العامل المعني بالأمر من مهامّه ، يستخلص خليفته معاليم الكراء . وأحياناً يتولى العامل أو الأمير الراجع إليه بالنظر تحبيسن تلك العقارات .

وأكّد البرزلي أن الأفران ودكاكين الربض (بمدينة تونس) في عصره (العهد الحفصي) كانت تعتبَر بصورة اعتباطية « ربع مناصفة » ، يرجع نصف مداخيلها إلى المستغلين والنصف الآخر إلى بيت المال .

ولم تكن تلك العقارات في أوّل عهدها خاضعة «لخراج الكراء»[16] .

الأوقـاف (أو الأحبـاس) :

كانت في أغلب الأحيان الزياتين والنخيل والحقول والدكاكين والعقارات الخ . . . ، محبّسة

---

13) الشماخي ، 488 .

14) المعيار ، 106/6 . لقد اغتصب الخليفة الفاطمي أملاك أهل هذه المدينة الأميريّة . وقد، أفتى ابن أخي هشام (ت. 371 أو 373 هـ/981-983 م) وأبو بكر بن عبد الرحمان (ت .432 أو 435 هـ/1040-1043 م) بصحة الصلاة في منطقة صبرة ، البرزلي ، **المختصر** ، 142 ، و ، ظ . أما ابن التبّان فقد أبدى نفس الرأي ، إذا خشي المصلي خروج وقت الصلاة ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 355 ، 358-359 .

15) فتوى المازري ، المعيار ، 103/6-104 . وفي **أحكام السوق** ليحيى بن عمر ، أُطلِقَ على صاحب الحمّام اسم « المتقبّل » (أي الذي يدفع القبالة) ، ابن ناجي ، **شرح الرسالة** ، 376/2 .

16) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 158/2 و ، ظ : فتوى المازري ، حول فرن يملكه (أو يستأجره ؟) شريكان . وفي نفس المخطوط ، 181/2 و ، فتوى المازري حول شريكين يملكان فندقاً .

على المساجد والرباطات والمواجل العمومية وغيرها من المؤسسات ذات المصلحة العامة[17] . كما يمكن تحبيس عبد أو فرس على الجهاد[18] .

وهناك أمثلة كثيرة للأوقاف[19] ، نذكر من بينها ما يلي :

كان يوجد في دمنة آهلة بسكّان سليمين مكاناً يسمّى « الأحباس » ، وقد كان في أوّل عهده محبّساً على الجذماء . وحسب رأي القابسي ، يجب أن يظلّ ذلك المكان وقفاً ، إلاّ أن المحلاّت التي تقام فيه ينبغي أن ترجع إلى مَن بَنَوْها ، سواء كانوا جذماء أم لا ، وأن تُنقَل ملكيّتها بالوراثة[20] . وقد كان تحبيس الأملاك على الورثة شيئاً معمولاً بـه[21] . ويجوز للمحبّس في حياته أن يعيّن وكيلاً ، يبدو أنه كان يسمّى الناظر ، وذلك لإدارة المِلْك المحبّس[22] . وقد طُرِح السؤال التالي حول مِلْك قد حُبِّس على الفقراء ثم عُرِض القسم المشاع للبيع : هل تجوز الشفعة لفائدة المعوزين والمساجد ؟ فتهرّب ابن أبي زيد من الجواب ، في حين استعرض أبو عمران الفاسي خلافات الفقهاء حول هذه المسألة المتنازع فيها[23] . وكانت بعض الأوقاف مخصّصة لصيانة الأسوار لا سيما في صفاقس[24] . وقد أشارت المصادر إلى وجود « متولّي الأحباس » في سوسة في عهد بني زيري[25] . ولا ندري لماذا انقرضت هذه الوظيفة التي ربّما كانت موجودة أيضاً في المدن الأخرى .

وفي هذا الميدان بالذات ، لا بدّ أن الفوضى الهلالية قد تسبّبت في بعض الاحتكارات ، من

---

17) فتاوى أبي حفص عمر بن العطّار وأبي عمران الفاسي والتونسي واللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر، 234/1 ظ، 236 و، 237 ظ . وفتوى ابن أبي زيد حول بناء مواجل للسبيل وتحبيس مساقي أرض بيضاء عليها ، المعيار ، 159/7 ، وفتوى السيوري حول تأجير ربع تابع لمسجد ، البرزلي ، المختصر ، 104 و ، وفتوى نفس الفقيه ، المعيار ، 26/6 وفتوى اللخمي ، المعيار ، 232 وفتوى السيوري ، المعيار ، 272/8 .

18) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 229/7 وفتوى عبد الحميد بن الصائغ ، المعيار ، 37/7 .

19) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 7/279-284 وفتوى عبد الحميد بن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 138/1 و ، 158 و ، المعيار ، 159/7 .

20) المعيار ، 25/7 .

21) فتوى القابسي ، المعيار ، 7/19-20 .

22) فتوى مجهول ، المعيار ، 229/7 .

23) فتوى ابن أبي زيد وأبي عمران الفاسي ، المعيار ، 8/76-77 .

24) مقديش ، نزهة الأنظار ، الطبعة الحجرية ، 73/2 [طبعة بيروت ، 174/2] .

25) يتعلق الأمر بالفقيه عبد الله بن حمود (ت . 357 هـ/967-968 م) ، رياض النفوس [طبعة بيروت ، 396/2] ، المدارك ، 2-3/179 ظ وفي مصر في حدود سنة 363 هـ/973-974 م ، حُوِّل « مال الأحباس » إلى « مودع قضاة بيت المال » . وكان « أصحاب الأحباس » خاضعين « لشرائط » الاتعاظ ، 201 ، الهامش 1 (مودع = تابوت القضاة) .

ذلك مثلاً أن فتوى للسيوري قد أشارت إلى أرض تقع وسط بستان ، من المفروض أن تكون تابعة للفقراء ، فاستولى عليها أحدهم واكتفى بدفع كراء للآخرين [26] .

والجدير بالتذكير في هذا المضمار أن أحباساً مسيحية كانت موجودة بتوزر حتى أواخر العصر الصنهاجي للقيام بشؤون الكنائس[27] .

---

26) فتوى السيوري ، المعيار ، 40/7 .
27) إدريس ، نحية جورج مارسي ، 2/105-106 .

الفصل الثاني
الضرائب والمكوس

سنتولّى فيما يلي ، على سبيل التوطئة ، تحليل شهادة ثمينة لابن حوقل[28] ، حول الجباية الفاطمية التي كانت مطبّقة في إفريقية قبل بضع سنوات من رحيل المعزّ لدين الله إلى القاهرة . فقد استقى هذا الجغرافي مباشرة من الداعي الذائع الصّيت أبي الحسن بن أبي علي ، صاحب بيت مال أهل المغرب المعلومات التالية :

إن الضرائب الآتي ذكرها : الخراج والعشر والصدقات والمراعي[29] والجوالي (ضريبة الرؤوس) والمراشد (مكوس المرور) والأعشار الموظفة في الموانىء على السلع المستوردة من بلاد الروم والأندلس ، والأداءات الموظفة على الصادرات من القيروان إلى مصر ، والورق (النقود) المصدّر هو أيضاً من القيروان ، كانت تدرّ على خزينة الدولة ما بين 700.000 و 800.000 دينار مدفوعة عيناً ونقداً .

وصرّح ابن حوقل أن زيادة الله أبا نصر (مُضَر؟) بن عبد الله بن القديم[30] قد أفاده في سنة 360 هـ/ 970-971 م بنفس المعلومات التي استقاها من الداعي السابق الذكر ، كما لو أنّ هذين الشخصين قد اتّفقا على ذلك من قبل .

ومن ناحية أخرى كان أصحاب الأعمال (العمّال) يقدّمون هِبَةً إلى الأمير الذي يعيّنهم أو يثبّتهم في مناصبهم عند ارتقائه إلى العرش . وكانوا « يستأثرون » بفوائض الإيرادات ، بالنسبة إلى المبالغ المُطالَبينِ بدفعها لخزينة الدولة ، تطبيقاً للقوانين الصادرة لهم في هذا الشأن .

وفي عهد بني عُبَيْد كان « يُعمَل بالأمانة من غير ضمان »[31] في جميع أنحاء بلاد المغرب إلى أن

---

28) ابن حوقل ، 1/96-97 . وفي موضع آخر ، 1/77 أشار ، عند ذكر الجباية المطبقة في تنس ، إلى الخراج والجوالي والصدقات والأعشار والمراشد .

29) ورد ذكر الصدقات والمراعي جنباً إلى جنب في الاتعاظ ، 140-141 والخطط ، 2/165 .

30) الكامل ، 8/244 .

31) الضمان أو القبالة أو اللزمة (في المصطلح التونسي) : تأجير إيرادات الضرائب أو بعض المواد كالملح والصابون إلخ . .

« تَقَبَّلَت » برقة ، وهي المدينة الوحيدة في المغرب التي لم تكن خاضعة للضمان .

ولا شكّ أن هذه المعلومات قد بقيت صالحة على وجه العموم ، حتى زحفة بني هلال .

الـخــراج :

إنّ عبارة خراج ـ كما هو الشأن في العهد الحفصي[32] ـ قد فقدت معناها الأصلي[33] الذي هو الغرامة العقارية ، وأصبحت تعني الضريبة العقارية بوجه عامّ أو العُشْر . والدليل على ذلك ما جاء في فتوى للقابسي حول الواحات ، لمّا ذكر أن السلطان فرض على « البَلَد غرامة أو مغرم ، تعرف باسم العشر أو الخراج » . ووزّعها دافعوها على نخيلهم ومائهم . وسُجّل اسم كلّ واحد منهم في « ديوان » ، مع بيان حصته من الضريبة[34] .

ورغم استمرار فقهاء العصر الصنهاجي[35] في التساؤل في بعض المناسبات حول وضعيّة إفريقية من الناحية القانونية ، بُعَيْد الفتح الإسلامي ، فإن هذه المسألة لم تعد تكتسي لا محالة سوى أهميّة نظرية ، ولكنهم صرّحوا أنّ منطقة قفصة وقسطيلية قد « كان افتتاحها صُلْحاً في أوّل الإسلام » ، بما أنه ما زالت فيها بعض الكنائس المسيحيّة . ويرى ابن أبي زيد أن هذه المنطقة ، لو فُتِحَت عنوة لأقطع السلطان الأملاك لمن يشاء ، لكنه « ليس له فيها حكم »[36] .

واستناداً إلى فتوى صادرة عن اللخمي ، تولّى قاضي توزر بيع الأحباس المسيحية المعدّة لصيانة الكنائس المنهارة ، وخصّص ثمنها للمسلمين . ولدينا فتوى بارعة ومتسامحة للقابسي حول التعويض الذي يستحقّه النصارى الخاضعين للجزية ، عن الحجارة المتأتية من تلك الكنائس ، والتي أعيد استعمالها في بعض المباني الإسلامية[37] . ويمكن أن يؤدّي الخراج شخص آخر غير

---

32) برنشفيك ، المرجع المذكور ، 2/195-196 .

33) يميّز ابن محرز والسيوري أحياناً بين ذلك الخراج الموصوف « بالصحيح » وبين « الخراج الظُّلْم » ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 2/234 ظ ، 279 و ، ومخطوط الرباط ، 2/138 ظ ، والمختصر ، 84 و .

34) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/434-435 وفتاوى السيوري ، نفس المصدر ، 6/107-108 ، 9/424 ، 10/292 ، والمختصر ، 138 ظ .

35) مثل التونسي ، المعيار ، 2/176 ، انظر نفس المصدر ، 9/49-50 .

36) أي لا يستطيع السلطان التصرّف فيها .

37) إدريس ، المرجع السابق ، 2/105-106 .

الملاّك ، ولكن في صورة عدم التسديد تتولى إدارة الجباية بيع الملك[38] .

وما هو مفهوم الضريبة العقارية المعبّر عنها « بالوظيف » في فتوى لأبي حفص عمر بن العطار ؟ وقد طُولب بدفعها أصحاب الأملاك المقيمين في إحدى القرى ، فاستظهروا بوثيقة تقيم البيّنة على « حرّية أملاكهم »[39] . ومن الصعب تحديد معنى هذا « الوظيف » كما هو الشأن بالنسبة إلى « الوظيفة » الحفصية . ولعلّ هذه الكلمة كانت تعبّر عن معنى غامض[40] .

وقد أعفى الناصر سكّان عاصمته الجديدة بجاية من الخراج .

العُشُر والزكاة :

لقد كان « العُشُر » الذي يستخلصه الوالي أو العامل مطابقاً للزكاة . ولكنّ الفقهاء لم يقبلوا بلا تردّد أن يقوم العشر الذي يستخلصه العبيديون مقام الزكاة . فقد رأى ابن أبي زيد مع أغلب أصحابه أنّ الزكاة التي يستخلصها الولاة بإذن من ملك إفريقية تقوم مقام العُشُر الشرعي . وفي حالة العكس يجب على المسلم دفعها من جديد من باب الاحتياط[41] .

ولا يرى القابسي أيّ مانع من شراء البضائع المعروضة للبيع من طرف الباعة القادمين من أماكن أخرى ، والتي أخضعها سلطان ذلك العصر للعُشُر . وقد أجاز شراء تلك البضائع حرصاً على عدم إحراج الناس ، ولو أن أولئك الباعة ، إثر حصول تسوية مع ولاة ذلك السلطان ، قد

---

38) أسئلة موجّهة إلى أبي عمران الفاسي والتونسي ، المعيار ، 292/10 والبرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 34 ، 9 ظ .

39) أي ليست خاضعة لأي نوع من المكوس ، المعيار ، 126/6 .

40) برنشفيك، المرجع المذكور [الترجمة العربية، 200/2] وفي عهد عبيد الله في سنة 303 هـ/915-916 ورد ذكر متولّي الخراج الذي «تولّى وظيف التقسيط على ضياع إفريقية»، البيان، 244/1 . وفي سنة 305 هـ/917-918 م « أخذ أهل الضياع بأعمال إفريقيّة بمغرم سُمّيَ التضييع وزعموا أنه من بقايا التقسيط » ، البيان ، 181/1 ، انظر ، إسبانيا الإسلامية ، 39/3 . وفي ترجمة عيسى بن مسكين (ت . 295 هـ/907-908 م ، إشارة إلى التقسيط ، المدارك ، 2-5/3 و . وفي الأندلس في عهد الأمويين ، كانوا يميّزون بالنسبة إلى الضريبة العقارية بين النذّ المستخلص نقداً والوظيفة المستخلصة عيناً ، إسبانيا الإسلامية ، 37/3 ، أما الحكر والجزاء فلم يرد ذكرهما في عهد بني زيري ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية 199/2] .

41) المعيار ، 304/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 232/1 و ، والمختصر ، 28 و ، ظ ، انظر أيضاً ، مناقب ، 323-324 والهامش 151 .

سدّدوا نقداً أو عيناً بعض المعاليم التي تقوم مقام العُشر[42] .

وإن لم نخطىء في فهم النصّ الذي يفتقر إلى الوضوح ، فقد كان اليهود والنصارى مطالبين هم أيضاً بدفع العُشر الذي يقوم مقام الجزية ، مثلما يعوّض العُشر الزكاة بالنسبة إلى المسلمين . ويبدو أن جواز الخلط بين العُشر والجزية قد أقرّه في أوّل الأمر ابن أبي زيد الذي استند إلى رأي شيخه ابن اللبّاد . ولكنّ القابسي قد أكد أن صاحب الرسالة قد عدل عن هذا التأويل في آخر حياته[43] .

وتؤكّد شهادات كثيرة أنه خلافاً للزكاة التي يجب أداؤها عيناً بعد الحصاد ، فإن العُشر ينبغي دفعه نقداً قبل الحصاد وتقديره مسبّقاً . وحسب رأي ابن محرز ، فإن « الغُرْم » الذي يستخلصه السلطان على الحبوب ، حسب تقدير مسبّق لقيمة الزرع ، يقوم مقام الزكاة الواجبة على المحاصيل بأكملها ، دون أيّ طرح ناتج عن ذلك الغرم ، لتقدير العشر الشرعي . أمّا إذا أخذنا بعين الاعتبار طرح الغرم السلطاني ، فينبغي توظيف العُشر على قيمة المحاصيل يوم « الدّرس » لا عند التقويم[44] .

وحسب رأي أحد الفقهاء ، فإن « قَوْماً يُخَرَّص عليهم زرعهم »[45] قبل الحصاد ، إلى أن يسدّدوا بعض الدراهم نقداً ، يجب عليهم أن يحسبوا مقدار جميع الدراهم المدفوعة ، ويطرحوه من مقدار الزرع ، ثم يقدّروا الزكاة على البقيّة . وقد أوضح الفقيه أنّ هذا الطرح ينبغي أن لا يشمل سوى الزرع الذي تمّ فعلاً تقدير قيمة مغارمه قبل الحصاد[46] . وأبدى السيوري نفس الرأي حول الحبوب والزياتين التي قدّر الأعراب أو السلطان قيمة مغارمها قبل الحصاد . ويتمتّع الملاّكون المطالبون بدفع مبلغ كبير من المال ، بإمهال لمدة شهر أو شهرين بعد الحصاد والجني والعصر . ويطرح من مبلغ الزكاة مقدار المغارم ، رغم أنه لم يقتطع من العين[47] .

وسئل اللخمي عن شخص باع زياتين أو تموراً وسدّد العُشر على سعر البيع ، لا عُشر

---

42) المعيار ، 310/1 .

43) نفس المصدر ، 310/1 ، مناقب ، 324 .

44) فتوى ابن محرز ، المعيار ، 306/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 222/1 ظ .

45) أي يحتجز محاصيلهم .

46) فتوى أبي الطيب عبد المنعم الكندي (ت . 421 هـ/1030 م) ، المعيار ، 305/1 ، البرزلي ، المصدر المذكور ، والمختصر ، 26 ظ .

47) فتوى السيوري ، المعيار ، 295/1 ، البرزلي ، المصدر المذكور . انظر أيضاً المعيار ، 295/1-296 والبرزلي ، مخطوط الجزائر ، 224/1 و : فتوى السيوري وابن محرز حول « التخريص في الثمار » .

« المساكين » ، ولم يكن المشترون جديرين بالثقة التي وُضِعت فيهم[48] . فهل يعني ذلك أنه يجوز للمشتري أن يتحمّل دفع العُشُر ، وإن اقتضى الحال الزكاة المخصّصة للمساكين ، إن كان على حسن نيّة ؟ وهل نستنتج من ذلك أن الملاكين ، اعتباراً لعدم وجود بيت مال شرعي ، وحرصاً على دفع الزكاة للمحتاجين، كانوا يوزّعون بأنفسهم ما كانوا يعتبرون أنه ما زال متخلّداً في ذمّتهم من الزكاة ، بعد دفع العشر السلطاني ؟ وفي صورة وجود أرض مرويّة بالآلات يخفض من العُشُر نصفه[49] . وتجب الزكاة على غلّة الأشجار المحبّسة على الربّاطات والمساجد[50] .

وبعد غزوة بني هلال تفاقمت المصاعب المتعلقة بتطبيق التعاليم الشرعية المتعلقة بالزكاة[51] . وحرصاً على تجنّب أعمال النهب التي يقوم بها الأعراب ، كان المزارعون مجبورين أحياناً على حصاد أراضيهم وزرعها قبل الأوان ، الأمر الذي يضطرّهم إلى انتداب عدد إضافي من اليد العاملة والسعي إلى الإسراع بنقل بضائعهم إلى العاصمة (المهديّة) . وكانوا يودّون طرح تلك النفقات الإضافية[52] الباهظة في أغلب الأحيان ، من الزكاة . ولكن المازري اعترض على ذلك اعتراضاً مطلقاً ، متعلّلاً بالمذهب ، وأجاز السيّوري الزكاة التي يؤديها مغتصبو الأنعام للفقراء وسمح للملاّكين بأن يطرحوا من الزكاة الأداءات العينيّة التي يفرضها عليهم الأعراب .

وإذا صدّقنا ابن خلدون[53] فإن الأعشار التي توفّرها بعض المناطق من إقليم صفاقس في عهد باديس ، قد بلغت 80.000 قفيز ، أي أن قيمتها تساوي 80.000 قفيز ، لأنّ العُشُر - كما أسلفنا - كان يدفع نقداً لا عيناً . ولعلّ تلك الضريبة كانت تقدّر في أوّل الأمر عيناً ، وعلى الأقلّ نظريّاً لتشبيهها بالزكاة ، ثم تقدّر بعد ذلك نقداً . وقد أمدّنا البكري[54] بالمعلومات التالية : لقد بلغت

---

48) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 235/1 و .

49) فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 298/1 ، البرزلي مخطوط الجزائر ، 235/1 و .

50) رأي أبي حفص عمر بن العطّار وأبي عمران الفاسي حول واحات محبّسة على مسجد أو حصن ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 176/1 و . ظ : 236 و 237 .

51) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 222/1 ط ، المختصر ، 26 و . ظ . المعيار 295/1 ، 302-303 ، 213/6-214 ، 225-226 .

52) كان الملاّكون يسلمون إلى ملتقطي حبّات الزيتون ثلث بل حتى نصف المحاصيل التي كان بإمكانهم الحصول عليها بأنفسهم بمساعدة عبيدهم في زمن السلم . وكان أجر الحصّاد يساوي ديناراً ، بقطع النظر عن نفقات الأكل . وكانت نفقات النقل إلى المدينة تساوي ديناراً بالنسبة إلى كل حبّة . وكانت هذه النفقات ترتفع إلى ما يعادل نصف قيمة المحاصيل وأكثر ، في حين كان بإمكان الملاّكين في الظروف العادية القيام بهذه الأعمال بأنفسهم بمساعدة عبيدهم .

53) ابن خلدون ، العبر ، 159/6 .

54) البكري ، 36 .

جباية ساحل القيروان ـ أي سوسة والمهدية وصفاقس وتونس ـ المستخلصة لفائدة بيت المال ، بقطع النظر عن إيرادات « الدخل والخرج » التي لا تدفع لبيت المال : 80.000 مثقال . وبلغت الضريبة المستخلصة من بونة 20.000 دينار ، بقطع النظر عن الجباية الراجعة إلى بيت المال[55] . في حين بلغت جباية قفصة 50.000 دينار[56] وجباية قسطيلية هذا المقدار الضخم : 200.000 دينار[57] . وكانت بعض القبائل الجبلية المتمرّدة تدفع « للأمراء » (أي العمّال) كل سنة ضريبة ذات بال تتمثل في عدد من الخيول[58] .

ولا ندري بالضبط ماهيّة الضرائب المعروفة باسم « المعاوين » (م : معونة) التي أشار إليها ابن حوقل[59] .

المكــوس :

كان جابي المكوس يسمّى المكّاس . وقد أكّد اللخمي (أو السيوري) عدم جواز الزواج مع المكّاس[60] . وأشارت فتوى للقابسي إلى « المراشد » الموظفة على المسافرين والأداءات المستخلصة في أبواب المدن والمكوس الموظفة على السلع[61] . وإن لم نخطىء الفهم ، فالمقصود بالمراشد أداءات المرور لا الأداءات الجمركية بأتمّ معنى الكلمة[62] .

وكان « ملتزم السوق » مكلّفاً بتحصيل مكوس السوق[63] . وفي فتوى صادرة عن اللخمي ، إشارة إلى شخص « اكترى قبالة القرستون » بمبلغ 70 ديناراً وقبالة الخضر وغيرها من المواد بمبلغ 400 دينار . ولعلّ المقصود بالقرستون الخشب المستعمل لصنع السفن والمستورد من منطقة القبائل بالجزائر ومن أروبا[64] .

---

55) نفس المصدر ، 55 . 56) نفس المصدر ، 7 .

57) نفس المصدر ، 49 .

58) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 128/6 .

59) ابن حوقل ، 75/1 .

60) فتوى السيوري أو اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 55/2 و .

61) فتوى القابسي ، المعيار ، 434/9-435 . وأشارت بعض المصادر إلى المراشد في عهد عبيد الله ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 74 ظ .

62) ابن حوقل ، 96/1-97 .

63) في عصر الجبنياني (ت 369 هـ/879 م) ، مناقب ، 77 ، 264 .

64) المعيار ، 211/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 40/2 ظ . وأشار ابن الخوجة إلى وجود مسجد يحمل اسم

ولا شكّ أنّ قبالات بني عُبَيد على التراب (أي الطين) والملح والسّمك وغيرها من المواد الغذائية قد بقيت قائمة الذات[65] . وقد حلف شخص بأن يتصدّق من أجرته إذا ما كُلِّف « بأعمال القبالة »[66] .

ومن الصعب توضيح مهامّ « كتّاب باب الغنم » بالقيروان . فهل هم مراقبو أداءات المرور ، أم المكلفون بحسابات المكوس الموظفة على الغنم المجلوب إلى السوق من داخل المدينة أو خارجها ؟ وأنّ هؤلاء الموظفين الذين أشارت إليهم النصوص في سنة 441 هـ/ 1050-1049 م[67] ، كانوا موجودين قبل ذلك بقرن[68] . وكان « المتقبّل » (أو اللزّام) يستخلص « مغارم السلطان » على بضاعة من بضائع السوق[69] . ولنتذكّر في هذا المقام « المغرمَيْن » اللّذين وظّفهما عامل القيروان[70] على أهل هذه المدينة في عهد بلكّين .

تحصيل الضرائب :

لقد كانت الضرائب من نوع « المغارم » تكتسي بصورة عامّة صبغة جماعيّة ، وكان دافعوها يتولّون توزيعها بأنفسهم ، وكذلك بالنسبة إلى « الجزية » . ذلك أن هذه الضريبة المقدّرة بأربعة دنانير أو أربعين درهماً لم تكن مستخلصة بصورة فردية ؛ على الأقلّ في عصر اللخمي - بل كانت

مسجد القرستون في نهج الزياتين بمدينة تونس ، معالم التوحيد ، 155 ، [طبعة بيروت ، 251] . وهناك مثل تونسي يقول « ولد القبّة والقرستون » ، أي ابن أسرة ماجدة . وفي المعيار ، 2/5 ، استعملت كلمة قرستون بمعنى الميزان ، [لعلّه ميزان الذهب] .

65) « قبالة السلطان على التراب » : المدارك ، 247/322 و ، ومعالم الإيمان ، 120/3 : « كان تميم ابن أبي العرب إذا أراد أن يطر داره وسقوفه احتفر في وسط داره حفرة وطر من تراب الحفرة ويقول إن السلطان يغرم على التراب » . وفي المدارك ، 2-120/3 إشارة إلى قبالة الملح . وجاء في رياض النفوس [طبعة بيروت ، 216/2 أن أبا جعفر القمودي (ت . 324 هـ/ 935-936 م) قال : « ربما أشتهي من الحيتان هذا اللّجي لأنه ليس عليه قبالة » . [اللجي هو الحوت الذي يؤتى به من عميق البحار والأنهار] .

66) فتوى القابسي ، المعيار ، 59/2 .

67) البيان ، 278/1 .

68) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 361/2] والمدارك ، 2-172/3 ظ .

69) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 129/6 وجاء في المدارك ، 2-150/3 ظ . (ترجمة ابن اللبّاد ، ت . 333 هـ/944-945 م) أنّ « بيوت المتقبّلين » بالقيروان قد هُدِّمت أثناء ثورة أبي يزيد .

70) إنّ هذا العامل الذي سبقت الإشارة إليه هو عبد الله بن محمّد الكاتب .

موظفة بصورة جماعية على الجاليتين اليهودية والمسيحية ، ويتولى رئيس كلّ جالية توزيع الحصص الفـردية[71] . أمّـا بالنسبـة إلى المسلمين ، فمن الممكن أن يضبط رجـل من رجال الـبرّ قائمـة الخاضعين للضريبة ويبيّن المبلغ الواجب على كل واحد دفعه[72] .

وقد صرّح أبو عمران الفاسي بخصوص المغارم أنّه يجوز شرعاً لبعض الأشخاص ـ وهم الأعيان بلا شكّ ـ حضور العمليّات الجبائيّة للضرورة وحرصاً على منع أعوان الجباية من سجن الناس أو سلبهم بلا تمييز ، ولكن لا يجوز لهم المساهمة في « التوظيف » . وترجع إلى المجموعة مهمّة توزيع الضرائب بين الأفراد توزيعاً عادلاً[73] . ويمكن أن نستخلص من ذلك أن السكّان الذين يرفضون تلك الضرائب أو لا يتعهّدون بتنظيم تحصيلها وتوزيعها يتعرّضون لتعسّف الجُباة .

وسئل ابن أبي زيد عن عامل وظّف مبلغاً معيّناً من الضرائب على بلدة دون توزيعه بين السكّان . فهل يجوز لهؤلاء شرعاً القيام بعملية التوزيع اللازمة ؟ وهل يتم التوزيع على أساس ثروة كل شخص أو بحسب عدد الأفراد ؟ وهل يجوز لشخص أن يفرّ ثم يرجع فيما بعد وهو يعلم أن حصته قد تحمّلها السكان الآخرون ؟ وهل يستطيع شخص أن يلتمس من الجابي إعفاءه من الضريبة ؟ وهل يجـوز للسكّان أن يـطلبوا إلى السلطان تعيـين موزّع للضرائب ، رغم احتـمال تعرّضهم لتعسّف ذلك الشخص ؟ وهل يمكن شراء ما يبيعه الخاضعون للضريبة ليتمكّنـوا من تسديدها ، أو تقديم سلفة إليهم ، لأنّ أعوان الجباية سوف لا يتأخّرون عن الرجوع ، في صورة تأخير الدفع ؟[74] ، وهو احتمال رهيب يحرص الناس على تحاشيه بجميع الوسائل ، ويجعل من الضروري تضامن الخاضعين للضريبة[75] .

وقد أصدر القابسي فتوى حول رجل وُظِّفَت عليه ضريبة من أجل وصيفة (زنجية) كان

---

71) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المختصر ، 34/ ظ ، والرسالة ، 134-135 .

72) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 106/6-107 وفتوى السيوري ، نفس المصدر ، 423/9-424 ، وإثر هذه الفتوى وردت بعض الإيضاحات المفيدة حول الجباية قبل العصر الصنهاجي ، نخصّ بالذكر منها ما يلي : في الأماكن التابعة لمنطقة تونس والخاضعة « لوظائف مخزنيّة ظلميّة » التمس السكان من أيمّتهم ضبط قائمة في الأشخاص المطالبين بدفع تلك الضرائب .

73) فتوى مقتطفة من « تعاليق » أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 107/6 ، 428/9 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر، 166/1 و، ولفتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 427/9 .

74) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 427/9 .

75) نفس المصدر ، 428/9 ، سئل ابن أبي زيد عن أناس وظّف عليهم السلطان مكوساً ، فتعاونوا فيما بينهم بكل إنصاف لجمعها .

يملكها . وكان رجل آخر يملك خادماً ووصيفة ، فطُلب إليه تسديد « المغارم والفروض » على تلك الوصيفة . فأجاب : أنها حرّة وأنه غير مطالب بدفع أي شيء . وبناء على ذلك فقد أعفِي من تسديد تلك الضريبة (المغرم) ، وقد أضاف القابسي بعض الملاحظات التي تنمّ عن رغبته في وضع المستفتي في مأمن من أيّ ردّ فعل من قِبَل السلطان[76] .

وكان كثير من الناس يضطرّون إلى بيع ممتلكاتهم كليّاً أو جزئيّاً لتسديد الضرائب والغرامات المفروضة عليهم ، والحال أن فقهاء المالكية يقرّرون بالإجماع بعدم صحّة « بيع المضغوط » . وكثيراً ما كان يُطلَب إلى الفقهاء في العصر الصنهاجي إبداء آرائهم حول هذه المسألة المقلقة جدّاً ، إذ تتوقّف على مثل تلك العملية سلامة البائع . فكانوا يجيبون على مضض منهم[77] - ويستشفّ ذلك من قراءة أجوبتهم - ويبدون آراءهم وفقاً للإجماع المالكي ، متعلّقين بالمعنى الضيّق للقانون ، دون مراعاة للظروف . إلاّ أنّ آخر كبار فقهاء القيروان وهو السيوري ، ربّما تحت تأثير الفوضى الناشئة عن زحفة بني هلال واستناداً للمذهب الشافعي الذي يعتمده في بعض المناسبات ، لم يتردّد في الإعلان صراحةً عدّة مرّات عن صحّة « بيع المضغوط » ، بالنظر إلى « المصلحة » و « المعونة » المقدّمة إلى ضحايا أعمال التعسّف ، ولكنّ المشتري سيلقى جزاءه لا محالة[78] . وأبدى تلميذه اللخمي نفس الرأي حول يتيم سجنه الأمير ، فاضطرّ إلى بيع عقاره بدون رخصة من القاضي ، لاجتناب ما لا تحمد عقباه[79] .

وفي فتوى للمازري ، ورد ذكر شخص طالب باسترجاع حليّ أودعها بعنوان الرهن لدى

---

76) فتوى القابسي ، المعيار ، 440/9 .

77) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 426/9 : بيع ربع لتسديد مغرم ، نفس المصدر ، 428/9 : بيع عروض لدفع ظلم ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 165/2 ظ ، المختصر ، 63 و : بيع عروض وقمح لتسديد مال السلطان . فتوى أبي بكر بن عبد الرحمان ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 165/2 و ، المختصر ، 63 و : أجبر السلطان شخصاً على بيع بضاعته . فتوى اللبيدي ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 164/2 ظ ، 165 و . فتوى المازري ، البرزلي ، نفس المخطوط . 177/2 و - ظ ، مخطوط الرباط ، 17/2 و : باع رجل بستاناً لتسديد فدية ابنه الذي يعمل في خدمة السلطان ، لكن الابن تعرّض بعد ذلك للتعذيب .

78) فتوى السيوري ، البرزلي ، لمخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 163/2 و ، 165 ظ ، المختصر ، 62 ظ ، 63 و ، المعيار ، 422/9 ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 163/2 و ، المختصر ، 62 ظ ، : بيع ربع لتسديد فدية أسير لدى الأعراب أي الهلاليّين ، وهي عملية صحيحة وسيلقى المشترى جزاءه في الدنيا والآخرة .

79) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 165/2 و ، المختصر ، 62 ظ .

شخص آخر كان قد دفع مغرماً باسمه وبإذن منه منذ حوالي 20 سنة خلت[80] . فهلاّ يتعلق الأمر بقرض بضمان يكتسي إلى حدٍّ ما صبغة ربويّة ؟ .

وكانت توجد في عصر القابسي معصرة على ملك شريكَيْن اثنين . فطلب أحدهما من الثاني عدم تشغيلها خوفاً من الضريبة التي قد يوظّفها عليه السلطان . فتعهّد شريكه بتغطية المخاطر واستعمل المعصرة ، ولكنّه لاذ بالفرار لمّا طالبه السلطان بدفع الضريبة . فانقلبت السلطة ضدّ الشريك الثاني وفرضت عليه دينارَيْن[81] . وأشار نصّ آخر إلى رجل استخلص منه السلطان الضريبة ، ثم سجنه لأنه ادّعى أنه لا يملك مالاً آخر غير المبلغ الذي اغتُصِب منه . وبعد ذلك اكتُشفت وصيّته التي أشارت إلى ديون متخلّدة في ذمة الغير ، فأمر السّلطان المدينين بأن يسدّدوا إليه الأموال المذكورة[82] . ولاذ رجل آخر بالفرار هروباً من طلبات السلطان الذي أعلمه شخص بسيط بوجود مطمورة تابعة للهارب ، فاستولى عليها ، وقد أقرّ السيوري مسؤولية الواشي[83] . وكان « أصحاب الجاه » (الوجهاء) معفين من المغارم والضرائب بصورة تكاد تكون مطلقة[84] . وحسب رأي ابن أبي زيد ، ينبغي أن تطرح حصّتهم مسبّقاً من مجموع الضرائب ، لكي لا تثقل كاهل الآخرين . ويرى أبو عمران الفاسي أنّه لا يجوز للمتمتّعين بالإعفاء عدم التضامن مع المجموعة الخاضعة للضريبة ، دون محاسبتهم إن لم يفعلوا ذلك . ولكنّ الداودي يرى أن كلّ من يستطيع اجتناب دفع ما يسمّى بالخراج للسلطان ، يجب عليه الاستفادة من هذه الفرصة للتخلص من الضريبة[85] .

وتتمّ جباية الضرائب في المناطق الخارجة بصورة أو بأخرى عن السلطة المركزية أثناء حملات عسكريّة . وقد أخبرنا المؤلف الإباضي الشماخي عن جيش مؤلّف من « أعوان السلطان والأجناد » ، يبدو أنّه كان يقوم بتلك الجولات الجبائية والعسكرية التي ستتكرر في العهد الحفصي[86] . وكان كلّ هؤلاء الأشخاص يعسكرون في مكان معيّن ، ربما في المنطقة الإباضية ،

---

80) فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 129 و .
81) فتوى القابسي ، المعيار ، 9 .
82) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 429/9-430 .
83) فتوى السيوري ، نفس المصدر ، 411/9-412 : المقصود بالسلطان هنا : السلطة أو الحكومة أو الأمير .
84) فتوى ابن أبي زيد ، نفس المصدر ، 129/6 : إعفاء من طرف المتقبّل من مغرم السلطان على بضاعة مباعة في السوق .
85) المعيار ، 106/6-107 ، 427/9 ، البرزلي ، المختصر ، 138 ظ .
86) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 70/2] .

وبعد تناول العشاء يأخذون في الغناء على أنغام الآلات الموسيقية[87] .

والغالب على الظنّ أن السكّان هم الذين كانوا يتكفّلون بإيواء أعوان الجباية أثناء تنقلاتهم ، بواسطة تذاكر السكن المعروفة باسم « الشقاف » (م : شقفة)[88] .

التجــاوزات :

لدينا شهادات كثيرة حول التجاوزات المتنوّعة الناجمة عن التعسف الجبائي . فقد كان أحد عمّال السلطان يستحوذ على « العُشر » ثم يفرض الضرائب على الناس بلا موجب شرعي[89] . وكان الجُباة يرتكبون أعمال الاختلاس المتعددة ويثرون على حساب الرعيّة . ولكنّ الأمير يسترجع منهم بالقوّة في أغلب الأحيان كلّ ما اختلسوه من أموال[90] . وكان بعض الأشخاص الذين تجعلهم وضعيّتهم في مأمن من المغارم ، يقومون بمنافسة غير نزيهة ، دون التعرّض لأيّ عقاب ، وذلك بتأجير الأراضي والسلع بمبالغ باهظة أو استئجارها بمبالغ زهيدة ، مقابل تقديم وعود خلّابة إلى شركائهم . وقد يعترض المستأجر فيما بعد على صحّة العقد ، متعلّلاً بأنه عرض ثمناً أعلى من الثمن الحقيقي ، لحماية الملّاك من أي مغرم سلطاني مشطّ ، بفضل نفوذه الذاتي[91] . وبالعكس من ذلك كان بعض الأشخاص الآخرين يضعون تحت حمايتهم الأرامل واليتامى والعجّز المطالبين بدفع المغارم السلطانية ، فيسدّدون تلك المبالغ باسمهم ويتحصّلون لفائدتهم على بعض

---

87) الشماخي ، 517 .

88) المدارك ، 2-176/3 و (ترجمة الكانشي ت . 347 هـ/958 م) ؛ سجّل شيوخ المنزل أسماءهم في الشقاف لتعيين المطالبين « بضيافة الأعوان » . فأخذ والد الكانشي شقفة وقال لهم : خذوا اسم فلان ، فضيافتكم عليه هذا اليوم .

89) فتوى القابسي ، المعيار ، 310/1 ، 432/9 .

90) فتوى السّيوري ، المعيار ، 425/9-426 : باع أحدهم أملاكه لتسديد الغرامة التي سلّطها عليه السلطان . فتوى اللخمي ، نفس المصدر ، 120/6 ، 423/9 : كان رجل سكير ومشهور بالشذوذ الجنسي يعمل في خدمة السلطان ويستخلص الخراج لحساب مستخدمه في ديوان أسّسه بنو عُبَيْد . فتوى اللخمي ، نفس المصدر ، 422/9-423 : عُزِل رجل ظالم قد نال الجزاء الذي يستحقه . فتوى المازري ، نفس المصدر ، 103/6-104 : اشترى عامل « مغترق الذمّة » أرضاً وبنى فوقها دكاكين للإيجار وحمّامات . وإثر عزله ، استخلص معاليم الكراء أحد خلفائه . ويمكن أن يحبّس تلك العقارات العامل الجديد أو الأمير الذي يأمر العامل بأوامره . ويمكن أن نتساءل هل أن تلك العمارات ليست تابعة لأملاك الدولة ؟ . انظر أيضاً فتوى المازري ، المعيار ، 418/9-419 .

91) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 186/8-187 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 219/2 و ، 219 ظ ، المختصر ، 106 و . ظ .

التخفيفات . والجدير بالملاحظة أن القابسي لم يستنكر مثل هذه التصرّفات ، لكنه خشي أن تترتّب عليهـا بعض المخـالفـات المكـروهـة ، فكـان يفضّـل أن تتمّ هـذه التـوسّـطات دون التـدخّـل في شؤون المنتفعين[92] . وأشارت فتوى لنفس الفقيه إلى أحد الولاة كان يجبر منظوريه إمّا على شراء سِلعِه أو بيع سلعهم له ، وإمّا على توجيه الأنعام إلى والٍ آخر[93] . وجاء في فتوى أخرى للمازري « أنّ المشتري يتصرّف للسلطان وأنه لا يأخذه الأحكام »[94] .

وورد مراراً وتكراراً في النصوص ذكر « الأرض المغتصبة »[95] .

ويبدو أن سكّان المناطق الساحلية التي استولى عليها النرمان لم يُعَانوا من الجباية التي كان يتصرّف فيها عمّال محليّون باسم المحتلّين ، وقد اشتهرت بكونها معتدلة وعادلة نسبيّاً .

ومما لا شكّ فيه أن الضرائب المفروضة في المغرب الأوسط لم تختلف عن الضرائب المعمول بها في إفريقيّة ، إذ أنّ عبد المؤمن قد وعد أهل قسنطينة بإلغاء الضرائب غير الشرعية : « القبالات والمكوس والمغارم والمظالم »[96] . كما اشترط على أهل تونس « مشاطرتهم في رباعهم وأموالهم » ، وكلّف أمناء بضبط تلك الأملاك . إلاّ أنّ بعض الملاّكين قد احتفظوا بممتلكاتهم مقابل دفع « أجرة » تساوي نفس قيمة « الربع » . وقد طُبِّقت تلك الإجراءات « على سائر بلاد إفريقية »[97] .

---

92) فتوى القابسي ، نفس المصدر : ربما ينبغي أن نقرأ « مُهَبّل » عوض : « فتحيّل » . وفي موضع آخر ، المعيار ، 154/10 : أجاز القابسي شهادة إمام لدى حاكم يضطهد ملهبه ، لفائدة المدّعى عليه ودفع المظلمة باسمه .

93) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 454/9 ، 437-438 : قبل 334 هـ/945-946 م ، باع الأمير قطناً لقطّانين بثمن أعلى من ثمنه الحقيقي (ديناران القنطار عوض دينار ونصف الدينار) ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 87و .

94) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 177/2 و . ظ ، مخطوط الرباط ، 17/2 و .

95) لقد اغتصب الخليفة الفـاطمي المنصور منطقة صبرة من أصحابهـا القيروانيّين ، المعيار ، 104/6 . فتوى ابن محرز والسيوري ، المعيار ، 345/1-346 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 246/1 و . أصبحت ضيعة كان اغتصبها بنو عبيد ، ملكاً من أملاك أحفاد الملاكين الأصليين عن طريق الشراء أو الوراثة . فتوى القابسي ، المعيار ، 435/9 حول توبة غاصب . فتوى المازري ، نفس المصدر ، 417/9-418 : لا يجوز الحصول على أي ربح من أرض تقع في بلدة ، ولا تصحّ فيها الصلاة . فتوى السيوري ، نفس المصدر ، 423/9 ، اغتصاب ملك على الشيوع . فتوى الـداودي ، نفس المصدر ، 413/9-416 : استرداد أرض مغتصبة بها محاصيل تحصل عليها المغتصب .

96) انظر الفصل الخامس من الباب السادس .

97) رحلة التجاني ، 345-346 .

الديـوان (الجمـارك) :

يبـدو أن الأداءات الجمـركيـة لم تكن تحمـل أسـماء خـاصّـة بها[98] ، كـما يبـدو أنّ « الـديوان » الموجود في حدود سنة 543 هـ/ 1148-1149 م بمدينة تونس قرب باب البحر ، هو عينه مكتب الجمارك[99] .

وقد أثبتت المصادر أنّ كلمة « ملازم » كانت تعني في عصر المازري الأداء الموظف على نبات الصباغ المصدّر إلى صقليّة[100] . كما أنّ السلع المستوردة من الإسكندرية إلى تونس عبر بنزرت كانت خاضعة لأداءات جمركيّة تسمّى « الأخماس واللّوازم »[101] .

وكانت القوافل الذاهبة إلى السودان أو القادمة منه تدفع « اللّوازم » ، لا سيما في طرابلس ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى القوافل المتنقّلة بين إفريقية ومصر ، ذهاباً وإياباً[102] .

---

98) فتوى ابن شبلون (ت . 390 أو 391 هـ/999-1000 م) ، المعيار ، 186/8-187 . البرزلي ، مخطوط الرباط ، 225/2 و . ظ . المختصر ، 108 و . كانت سفينة متجهة من صقلية إلى سوسة فأجبرتها العاصفة على الإرساء في تونس حيث اضطرّ الركاب إلى تسديد مغرم « أكثر من المتعارف » ، أي ربما أعلى من المغرم الذي كان من المفروض أن يدفعوه في سوسة . وفي فتوى مماثلة لأبي سعيد بن أخي هشام (ت . 371 أو 373 هـ/981-983 م ، يبدو أن الأداء الجمركي كان يسمّى القبالة : « وقبالات السلع في الموضع الذي نزلوا أكثر من سوسة التي اكتروا إليها أو أقلّ فيها خسارة » ، المعيار ، 193/8 . انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 67/2-68] .

99) البيان ، 313/1-314 .

100) فتوى المازري ، المعيار ، 115/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 141/2 و . وحول اللازمة (ج . لوازم) ، انظر برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 200/2] .

101) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 146/2 ظ ، 149/2 و .

102) كان الأمير الأغلبي يستخلص اللوازم على القوافل الذاهبة إلى السودان والقادمة منه ، ابن حوقل ، 167/1 .

الفصل الثالث
الزراعــة

عقود الاستغلال العقاري :

تفيدنا الفتاوى الصادرة في العصر الصنهـاجي ببعض المعلومات حـول عقود الاستغـلال العقاري وأنواعها . وقد كانت الحصّة المسندة إلى المزارع والالتزامات الملقـاة على عـاتق الملاّك متنوّعة ومتغيّرة ، ربّما بحسب نوع التربة والزراعة .

وكان معلوم إيجار الأرض المزمع زرعهـا بالكتّـان محدّداً بـالربـح النـاتـج عن المحاصيـل الزراعية[1] . وقد سُلّمت أرضاً مقابل ربع إنتاجها من الزرع (أي الحبـوب) ، على أن يـوفّر صاحب الأرض ربع البذور . ويرى ابن أبي زيد أنّ هذه العملية تُعتبَر صحيحة إذا كانت قيمتها مطابقة للعمل الذي يقوم به المزارع والثيران التي يوفّرها[2] . أمّا القابسي ، فهو يستنكر تأجير الأرض مقابل ربع أو ثلث المحاصيل ، إذا لم يتسلّم صاحب الأرض نصيبه من البذور[3] . ويجوز أن يكون إيجار الأرض لمدة سنة واحدة[4] . وإذا وفّر الملاّك الماشية والبذور ، يبدو أنه يحقّ لـه الحصـول على أربعـة أخماس المنتـوج[5] . ويتعلّق الأمر حينئـذ بنظام المـزارعة المعـروفة بـاسم « الخماسة » الذي ما زال معمولاً به إلى يومنا هذا[6] . وفي بعض الحالات يتسلّم صاحب الأرض ثلاثة أرباع المحاصيل[7] . والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنّ الفتى الذي عهد إليه أبو عـلي

1) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 115/8، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 220/2 ط . وقد ذكرت الفتوى أن المستأجر قد اشترى بعد ذلك الأرض بربع محاصيل الكتان الراجعة إليه .

2) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 281/2 ظ . ومخطوط الرباط ، 141/2 و . ظ .

3) فتوى القابسي ، المعيار ، 101/8 .

4) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 186/8-187 .

5) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 101/8-102 .

6) وحول الخمّاس ، انظر ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية 206/2] .

7) فتوى القابسي ، المعيار ، 429/9 .

حسن بن خلدون البلوي في سنة 395 هـ/ 1004-1005 م بزراعة حقل ، واشترى له ثورَيْن وأعطاه بذور القمح والشعير، إنّما انتدبه بصفة خمّاس[8] .

ويجوز لصاحب الأرض أن يشترط على المستأجر توفير الأسمدة[9] . وقد كان أهل توزر يبيعون « فضلاتهم » لتُستعمَل في تسميد الأرض[10] . وبالنسبة إلى الأراضي المرويّة ، هناك الأراضي المرويّة « بالماء الكبير » (أي المياه الغزيرة) والأراضي المرويّة « بالماء الصغير » (أي المياه القليلة) . ففي الحالة الأولى لا يتحصل المزارع إلّا على العُشْر ، وفي الحالة الثانية يتحصل على الخُمُس[11] . وبالنسبة إلى البساتين المرويّة بواسطة النواعير (السواني) يتحصل المزارع على الخُمُس ، ولكنّه لا يتقاضى سوى العُشْر ، إذا كان ريّ الأرض من السهولة بمكان[12] .

أمّا بالنسبة إلى زراعة الأشجار المثمرة ، فسنكتفي بالإشارة إلى نظام « المغارسة » الذي لا نعرف عنه سوى بعض المعلومات حول الأراضي السلطانيّة[13] .

وكان العملة الفلاحيّون يتقاضون أجورهم في أغلب الأحيان عيناً من المحاصيل . وقد أثبتت النصوص ذلك بالنسبة إلى ملتقطي حبّات الزيتون (اللقّاطة)[14] . وكان المشتغلون بالالتزام يتقاضون أجورهم من « اللّقاط »[15] .

---

8) معالم الإيمان ، 190/3-191 .
9) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 216/2 ظ .
10) فتوى اللخمي ، المعيار ، 232/8 ، رحلة التجاني ، 115 ، الخطط ، 184/1 ، العمري ، الترجمة ، 106 الهامش 1 ، القلقشندي ، 106/5 .
11) فتوى السيوري ، المعيار ، 180/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 213/2 و . المختصر ، 28 ظ . والجدير بالتذكير أن الفقه يخفض الزكاة إلى الجزء العشرين في صورة حصول نفقات طائلة للريّ بواسطة الدلو مثلاً . فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 298/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 235/1 و . فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 224/1 ظ .
12) فتوى السيوري ، المعيار ، 296/1 ، البرزلي ، المصدر المذكور .
13) ومن سوء الحظ فإننا لا نستطيع نسبة الإشارة التي أوردها البرزلي إلى العصر الصنهاجي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 272/2 و ، ومخطوط الرباط ، 130/2 ظ والمعيار ، 113/8 . يتعلق الأمر بمنح شجرة زيتون أو شجرة خروب للشخص الذي طعّمها في جبل وسلات . وينبغي أن تقسم الغلة بين الملاك والمُطعِّم . ولكن خلافاً للتعاليم الفقهية ، فإن المطعّم لا يستحق أي شيء إذا تلفت الشجرة ، وترجع الأرض إلى صاحبها . الجواب : أن العقد المبرم على هذا الأساس فيه عيب شكلي .
14) فتوى المازري ، المعيار ، 142/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 196/2 ظ .
15) فتوى ابن العطّار ، المعيار ، 167/8 .

ويخصوص نظام « المساقاة » المطبّق على الزراعات المرويّة ، كان نصيب المساقي يتراوح بين عُشْر وثُمُن المحاصيل[16] . أما بالنسبة إلى الزياتين ، فيبدو أن للمساقي الحقّ في « نصف ما يخرج منها »[17] .

حراسة المحاصيل الزراعية :

لقد عالجت عدّة فتاوى لابن أبي زيد[18] موضوع حراسة الزراعات قبل حصادها ، وأوضحت وجوب مكافأة هذه الخدمة بأجر ثابت وغير مشروط ، على أن لا تتمثّل هذه المكافأة في الاشتراك في المحاصيل . والأرجح أن الطريقة المذكورة كانت الأكثر شيوعاً ، إن لم تكن الطريقة الوحيدة المستعملة عهدئذ . إذ أنّ كلّ الأسئلة الموجّهة إلى الفقهاء قد تعرّضت لها . وبطبيعة الحال ، فإنها كان توفّر لأصحاب الأراضي فوائد جمّة ، وتستنهض همم الحرّاس المتحمّلين للمسؤولية ، ولو بصورة جزئية . وفي صورة التقاعس أو الكوارث يمكن أن يُحرَم الحرّاس من أجورهم . وبالنسبة إلى الزرع (الحبوب) والزياتين والكروم ، يرى ابن أبي زيد أنه لا يجوز مكافأة الحرّاس من المحاصيل ، ولكنه لا يرى مانعاً من حصول حرّاس البيادر المُهيّأة للدّرس على كميّة معيّنة من الحبوب يتمّ تقديرها مسبّقاً بالقفيز ، لا بحسب عدد الدوابّ المستعملة للدرس ولا بحسب حجم المحاصيل . أمّا حرّاس الحقول الذين يقومون بعملهم ليلاً ونهاراً ، فإنهم يتحصّلون على كميّة تتراوح بين مدّيْن أو ثلاثة ، عن كلّ قفيز من المحاصيل . ويجوز تكليفهم ، علاوة على ذلك ، « بتفريغ الأحمال والشّباك » ، ويتحصل حرّاس « الفحص » (السهل) المكلّفون بحراسة الزرع والزياتين ليلاً ونهاراً على ثُمْنَيْن من الشعير عن كلّ « زَوْج » (أي المساحة التي يحرثها زوج دوابّ في الموسم الواحد) ، أو عن كلّ مائة شجرة زيتون . وقد أشارت المصادر إلى «زمام الحرس » (سجّل الحراسة) الذي كان يُقيّد فيه لا محالة اسم الحارس والعمل المكلّف به .

ومن المحتمل أن يكون استخدام أبناء قبيلة رياح لحراسة الزراعات في العهد الحفصي ،

---

16) فتوى السيّوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 236/1 و .

17) معالم الإيمان ، 227/3 (ترجمة السيوري) .

18) فتاوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 8/143-145 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 192/2 ظ ، المختصر ، 97 و . ظ . برنشفيك المرجع المذكور [الترجمة العربية ـ 207/2] .

يرجع تاريخه إلى أواخر العصر الصنهاجي[19] . وقد كانوا يتقاضون مقابل هذا العمل ديناراً عن كل سانية (أيّ الحقل المرويّ) ، إثر انتهاء الحصاد في أوائل الربيع .

الأشغــال المائيـة :

إنّ الدراسة الرائعة التي نشرها سولينياك حول هذا الموضوع[20] تعفينا من التـأكيد عـلى التجهيزات المائية في إفريقية التي ربّما كانت تمثل أهم عامل من عوامل ازدهار هذه البلاد قبل زحفة بني هلال . فقد واصل الفاطميّون العمل المبتكر الذي بدأه الأغالبة ، والغالب عـلى الظن أن الصنهاجيّين قد تعهّدوا تلك الإنجازات وأثّروْها . ولكنّ هؤلاء كانوا في هذا الميدان ، كما في غيره من الميادين الأخرى ، المواصلين الأوفياء لأعمال مخدوميهم ، بحيث يتعذّر فنّياً إماطة اللثام عن إضافاتهم الذاتية . وكلّ ما يمكن أن ننسبه إليهم ، على سبيل الافتراض ، الحوض الواقع في رقادة والمختلف شيئاً ما عن المنشآت الأغلبيّة والفاطمية المماثلة ، « من حيث علاقة أبعاد الدعائم ببقيّة البنـاء ، ومن حيث الطلاء الخـاصّ ، وباعتبـار أن الحوض لم يكن مكشـوفاً ، بـل مبنيّاً تحت الأرض »[21] .

وقبيل الكارثة الهلالية ، استنبط ابن بنت خلدون (ت . 435 هـ/ 1043-1044 م) مشروعاً يرمي إلى ربط القيروان بالبحر بواسطة قناة . بل يقال إن هذا المشروع قد دخل طور التنفيذ في المكان المعروف « بالكلبيّة »[22] . وكان الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله قد فكّر قبل ذلك في ربط المنصوريّة بالبحر[23] .

وقد قام المهندسون المائيّون العرب الذين كثيراً ما نُسِبت منشآتهم خطأً إلى الرومان ، بتزويد المراكز العمرانية بالماء ، وتلبية حاجات الصناعات الرعويّة باستعمال الميـاه الجاريـة ، استعمالاً محكماً ، وقد كانت هذه المياه مخزونة في خزانات كبرى مزوّدة هي أيضاً ، كلّ ما أمكن ذلك ،

---

19) المعيار ، 145/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 194/2 و . ط ، برنشفيك نفس المرجع .

20) سولينياك ، أبحاث حول المنشآت المائية بالقيروان والسباسب التونسية من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر من الميلاد ، الجزائر ، 1953 م ، تقديم إدريس ، الكراسات التونسية ، 1954 م ، 336-338 .

21) نفس المرجع ، ص 256-256 .

22) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 م ، 35 .

23) المعزّ ، 185 ، نقلاً عن المجالس والمسايرات (592/2) للقاضي النعمان .

بقنوات مياه العيون والطبقات المائية . كما توفّقوا إلى حلّ مشاكل قلّة الأمطار وعدم انتظامها ، ونفوذية الأرض ، والتبخير ، وتوحيل منشآت تجميع المياه . وكان الجهاز المائي يشتمل عموماً على مجموعة من الأحواض وحوض تصفية الماء والخزّان ، بالإضافة في أغلب الأحيان إلى حوض الاغتراف . وكان النوع الأكثر شيوعاً هو الحوض المستدير في القرن العاشر م. والحوض المربّع الزوايا في العصر الفاطمي والصنهاجي .

ومن بين كلّ هذه المنشآت المائية الموزعة على أحسن ما يرام توزيعاً مكثّفاً ، تجدر الإشارة إلى القنوات الواقعة بين بئر الأدين والقيروان ، والتي طوّرها الفاطميون وأضافوا إليها أجهزة جديدة لتزويد صبرة المنصورية بالماء[24] . وكانت توجد بسوسة والمحرس والمهديّة مواجل كبيرة مغطّاة . وكانت مواجل المهدية تتلقّى المياه الواردة من قرية ميّانش المجاورة . ويستخرج الماء من الآبار بواسطة دواليب ثم يُوجّه إلى صهريج ويُصبّ بعد ذلك في أنابيب مفضية إلى ماجل الجامع الأعظم ، الذي يستخرج منه الماء بواسطة دواليب[25] . وتُوزّع المياه حسب قواعد عرفيّة قد تم تجاوزها بلا شك بصورة تزيد أو تنقص بعد غزوة بني هلال ، لفائدة أشدّ الناس قوّة[26] .

ويستخرج الماء من البئر بواسطة سطل من الجلد (دَلْو) مرفوع بحبل ملفوف على بكرة ، من طرف حيوان يبتعد عن البئر على مستوى منحنٍ ، أو بواسطة قواديس ناعورة (سانية) ذات مدوّرة يحرّكها حيوان[27] .

وفي توزر ، بوجه خاص ، كانت المياه الواردة من الأودية بواسطة قنوات أو مجارٍ مبنية بالحجارة ، تُوجّه بجهاز يتضمّن ساعات مائية بدائية تفرغ 192 مرة في كل 24 ساعة وتُستعمَل لقياس أوقات الريّ وتحديد المعاليم التي يجب أن يدفعها أصحاب الأراضي المرويّة[28] . وفي أواخر العصر الصنهاجي أشارت المصادر إلى حالة مثيرة للاهتمام تتعلق « بحوالة أسواق » (تحويل دَيْن)

---

24) سولينياك ، المرجع المذكور ، 126-181 . لقد جلب الأغالبة الماء إلى القيروان بواسطة قناة طولها 35,500 كم وجلب الفاطميون الماء إلى صبرة بواسطة قناة طولها 25,750 كم .

25) نفس المرجع ، 259-262 .

26) فتوى ابن محرز ، المعيار ، 345/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 246/1. و . فتوى السيوري ، المعيار ، 346/1 ، 424/9-425 . ونجد فيها عبارة « يد غالبة » التي يبدو أنها تعني المكتسح .

27) فتوى ابن الصائغ واللخمي ، المعيار ، 298/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 224/1 ظ ، 235 و . فتوى السيوري ، المعيار ، 182/8-183 البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 281/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 181/2 ظ ، المختصر ، 85 و ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية 218/2] .

28) برنشفيك ، نفس المرجع ، البكري ، 48-49 ، التجاني ، 113 .

تهمّ المياه الجارية في قسطيلية التي كانت محلّ معاملات غير قانونية . وحسب عادة معمول به في تقيوس ، يجوز لبائع الماء الوارد من قواديس ناعورة ، أن يستعمل حقّه في امتلاك مائه ، حالما يرجع إلى المشتري المبلغ الذي كان هذا الأخير قد دفعه له[29] .

ويمكننا أن نتصوّر مدى أهمّية الأضرار التي ألحقتها الاضطرابات الهلالية بالمنشآت المائية[30] . ذلك أن تدهور الأشغال المائية هو المسؤول عن خراب عدة مناطق مزدهرة مثل منطقة قمودة ، أكثر من اختلال الأمن وأعمال النهب .

وبطبيعة الحال فقد استمرّ أهل البادية ، كما هو الشأن الآن ، في استعمال التقويم اليليوسي المطابق لتسلسل الفصول[31] .

29) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 225/2 ظ ، 263 ظ ، مخطوط الرباط ، 70/2 ظ ، 121 و.

30) فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 306/5-307 .

31) لقد وُجدت في مقبرة السلسلة بمدينة تونس قبريّة مؤرخة في « يوليو » 490 هـ/1097 م ، س . م . زبيس ، Corpus ، 34/1-35 ، رقم 14 .

الفصل الرابع
الإنتاج الزراعي والصناعي والمنجمي

الحبوب والفواكه والخضر :

يتمثّل الإنتاجان الرئيسيّان من الحبوب في القمح والشعير[1] . وبفضل بساطته كان الشعير هو السائد في المناطق الأقلّ حظوة . وبما أن ثمنه يساوي نصف ثمن القمح ، فقد كان يمثل العنصر الأساسي من عناصر التغذية الشعبيّة . وبفضل تربته السوداء ، استحقّ سهل باجة وماطر لقب « مطمورة إفريقية » . وقد كانت الأسعار المعمول بها في تلك المنطقة معتدلة دوماً وأبداً ، سواء كانت السنة خصبة أم جدباء ، وذلك بالرغم من قدوم ألف جمل كل يوم لأخذ الحبوب .

وفي سنوات الرخاء كان حمل الجمل يباع بسعر زهيد لا يتجاوز درهمَيْنْ[2] . وفي القرن الثاني عشر من الميلاد كانت باجة تعتبر أغنى مدينة في بلاد المغرب ، من حيث الحبوب[3] . واشتهرت أيضاً بإنتاج الحبوب كلّ من مدينة الأنصاريّين التي بينها وبين الأربس مسيرة يوم ، ومدينة بلّ ، أو بلّاريجة في العصر القديم[4] . كما كان يُزرَع القمح بنجاح في تيفاش والمسيلة بمنطقة هضاب قسنطينة ، وكذلك في طبنة وتامديت غربي وادي ملاق[5] . وكانت تزرع أيضاً الذرة البيضاء والدُّخن والحمص والفول[6] .

وكما هو الشأن الآن ، فقد كانت الزياتين تمثّل أهمّ ثروة في منطقة الساحل[7] ، إلاّ أنّ غابة

1) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 2/225-226] .
2) البكري ، 56 .
3) الإدريسي ، 115 .
4) البكري ، 46-47 ، 53-54 .
5) الإدريسي ، 93 ، 117 .
6) البكري ، 56 : لقد أشاد بحمص وفول باجة . فتوى السيوري ، البرزلي مخطوط الرباط ، 2/216 ظ ، حول الزراعات التي تنهك الأرض : الجلجلان (السمسم) والدُّخن .
7) برنشفيك ، المرجع المذكور[الترجمة العربية ، 2/227-228] .

صفاقس التي كانت تمثّل مركزاً كبيراً من مراكز إنتاج زيت الزيتون ، قد أتلفها بنو هلال في آخر الأمر شيئاً فشيئاً ، ولكنّها لا تزال مزدهرة في عصر الإدريسي (القرن الثاني عشر م)(8) . وقد تعرّض ساحل سوسة والمهدية لأضرار أقلّ جسامة(9) ، في حين أتلِفَت زياتين طرابلس(10) . كما أنّ وجود الزياتين في سهل القيروان ، بل ربّما حتى في قفصة ، أمرٌ لا شكّ فيه(11) . وكانت هناك زياتين كثيرة في بسكرة(12) . وكانت زيت الزيتون يُعتبَر من أهمّ الموارد المُصدَّرة ، إذ كانت في كلّ قرية من قرى الساحل معصرة زيت(13) . ويُستَخرج الزَيت من الزيتون بواسطة معصرة ذات لوالب ، بعد سحق حبّات الزيتون في طاحونة تحرّكها الحيوانات ، وتسمح هذه الطريقة الموروثة عن الرّومان بالحصول على نوع من الزيت متوسّط الجودة يسمّى « المعصري » وقد لاحظ البرزلي في العصر الحفصي أن هذا النوع من الزيت كان مستعملاً بكثرة في زمانه في مدينة تونس . أمّا في الساحل فلا تستعمل إلاّ طريقة « الضرب على الماء » ، وهي تتمثّل في غسل الزيتون بالماء الحارّ ثم عجنه ووضعه برهة من الزمن في أوانٍ ، حتى يتسنّى بعد ذلك جمع الزيت الذي يطفو على سطح الإناء(14) . ويبدو حينئذ أن إفريقية قد اختصّت بإنتاج الزيت المعصري . ولكن ليس من المستبعد أن تكون طريقة الضرب على الماء التي تبدو في الظاهر أقلّ تطوّراً ، وتنتج كميّات قليلة من الزيت الأكثر جودة ، قد ظهرت إثر زحفة بني هلال . ويبدو أن تونس قد احتفظت بالطريقة العتيقة التي تخلت عنها بالعكس من ذلك منطقة الساحل ، ربما للأسباب التالية : صعوبة حماية المعاصر من جشع الأعراب ؟ وضرورة إنتاج نوع من الزيت الصالح للبيع والتصدير ؟ ويبدو أنّ خمسة قفيزات من الزيتون الجافّ إلى حدّ ما ، لا تنتج سوى قفيز واحد من الزيت(15) .

ويوضع زيت الزيتون والسمن الذائب في الجِرار والزِّقاق (أي القِرَب) . وكانت أخفّ

---

8) الإدريسي ، 107 .

9) كان السيوري يملك 12000 زيتونة في الساحل ، معالم الإيمان ، 227/3 .

10) الإدريسي ، 121 .

11) البكري ، 26 ، وحول نقل الزيت من قفصة إلى القيروان ، انظر معالم الإيمان ، 259/3 .

12) البكري ، 52 .

13) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 102 و .

14) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 170/2 ظ . برنشفيك المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 221-220/2]

15) فتوى أبي عمران الفاسي ، البرزلي ، المخطوط المذكور .

القِرب تُصنع من جلد الأنثى (النعجة أو العنزة) وأثقلها تصنع من جلد الذكر (الكبش أو التيس) . أمّا القِرَب المصنوعة من جلد الخصيّ ، فكانت متوسطة السماكة والوزن[16] . واستعمل الشمّاخي عبارة « بطّة زيت » ، أي بلا شكّ قارورة زيت من الجلد[17] . وأشار مصدر آخر إلى زيت مستهلك ومستخرج من « زرّيعة الفجل » . ومن ناحية أخرى ، ليست لدينا معلومات مفصّلة حول صناعة الصابون في العصر الصنهاجي .

ومنذ العصور القديمة كانت واحات جنوب قسنطينة وتونس مزدهرة[19] . وكانت تمور بسكرة مشهورة[20] . وكان إنتاج توزر التي تُعتبَر أدبر واحة في إفريقية ، يُحمَل على الإبل بحساب ألف حمل في اليوم[21] . وقد أشاد الإدريسي بتمور قابس التي « يجنيها أهلها طريّة ، ثم يودعونها في دنّانات . فإذا كان بعد مدّة من ذلك خرجت لها عسليّة تعلو وجهها بكثير . ولا يقدر على التناول منها إلّا بعد زوال العسل عنها من أعلاها ، وليس في البلاد المشهورة بالتمر شيء من التمر يشبهه ولا يحاكيه في علوكته وطيب مذاقه »[22] . وكانت واحات طرابلس وبرقة تنتج التمور هي أيضاً ، وكذلك واحة أوْجلة[23] . وكانت تحيط بمدينة طرابلس أشجار التين والزيتون والنخل ، « إلّا أن العرب أضرّت بها »[24] . كما انتشرت أشجار التين[25] بكثرة ، لا سيما في بجاية وجبل نفوسة وتونس . وفي تاجنّة التي بينها وبين تنّس مرحلة ، ومرسى الدجاج ، « يُعمَل من التين شرائح مثل الطوب ويُحمَل منها إلى كثير من الأقطار »[26] . وكانت القيروان تستورد التين الطازج من قلشانة[27] . وكانت تحيط بمدينة مذكور ، قاعدة قمودة ، غابة من شجر التين ، يُوجَّه ثمرها

16) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 211/2 و . مخطوط الرباط ، 54/2 و .
17) الشمّاخي ، 321 .
18) زرّوق : شرح الرسالة ، 110/2 وحول زيت الجلجلان والفجل ، الرسالة ، 128-129 .
19) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 228/2-229] .
20) البكري ، 52 ، فتوى التونسي ، المعيار ، 54/1 . رياض النفوس ، [مخطوط بيروت ، 17/2 : تمر برني] .
21) البكري ، 48 .
22) الإدريسي ، 107 .
23) البكري ، 12 .
24) الإدريسي ، 121 ، برنشفيك ، المرجع السابق .
25) الإدريسي ، 90 ، البكري ، 41 ، برنشفيك ، نفس المرجع .
26) الإدريسي ، 83-90 .
27) البكري ، 29 .

المجفّف الذي يُعتبَر من ألذّ ثمار إفريقية ، إلى القيروان حيث كان يُباع غالياً ، وكان المستهلكون يرغبون فيه أكثر من أي نوع آخر من التين[28] .

وكانت البساتين المحيطة بمدينة تونس تنتج نوعاً من اللّوز الطريّ (الفريك) المتميّز بقشرته الرقيقة وثمرته المزدوجة . كما كانت تنتج رمّاناً بلا نوى ، شديد الحلاوة وغزير العصارة ، ونوعاً من الأترجّ المعطّر ، وتيناً أسود غليظاً يسمّى الخارمي ، وهو نوع معسّل ذو قشرة رقيقة يكاد يكون خالياً من النّوى ، وسفرجلاً غليظاً ذا رائحة طيّبة ، وعنّاباً يشبه الجوز[29] . وأشارت المصادر أيضاً إلى وجود شجر الفستق في طرّاق بمنطقة قفصة[30] ، والسفرجل في تنّس وشرشال والمسيلة[31] ، والليمون في توزر[32] ، والنارنج في سردانية التي كانت تعدّ ألف شجرة[33] ، والموز في قابس[34] . وكانت مدينة نقاوس[35] تصدّر إلى الخارج الجوز الذي كان موجُوداً أيضاً في بجاية وجيجيل وتبسّة[36] . كما كان شجر الخروب منتشراً على نطاق واسع[37] . ومن بين الفواكه التي كان يُتاجَر بها ، أشارت المصادر إلى الرمان والتين والخوخ[38] . وكانت الكروم مزروعة في جزر قرقنة[39] ومنطقة المنستير[40] ، وغيرها من المناطق الأخرى . وكان يُصنع الخلّ حسب الاحتمال داخل المدن ، حيث اشتكى الجيران مراراً وتكراراً من رائحته .

وكانت المدن والقرى محاطة بالأجنّة والبساتين . كما كانت الخضر متنوّعة للغاية[42] . وقد

---

28) البكري ، 75 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، الكراسات التونسية ، 1954 م ، 10 .
29) البكري ، 41 .
30) نفس المصدر ، 47 ، معالم الإيمان ، 191/3 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 229/2] .
31) الإدريسي ، 83 .
32) نفس المرجع ، 104 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 230/2] .
33) البكري ، 32 .
34) نفس المصدر ، 17 .
35) الإدريسي ، 94 .
36) برنشفيك ، المرجع السابق ، 229/2-230 .
37) نفس المرجع .
38) فتوى ابن أبي زيد ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 278/2 و . مخطوط الرباط ، 132/2 ظ .
39) الإدريسي ، 127 .
40) فتوى القابسي ، المعيار ، 438/9-439 .
41) فتوى أبي حفص عمر بن العطّار وأبي بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 256/8 .
42) برنشفيك ، المرجع السابق .

أشارت المصادر بالخصوص إلى زراعة البصل الصقلّي في تونس ، وهو نوع غليظ مثل الأترجة ، له قشرة رقيقة ، حلو المذاق وغزير العصارة[43] .

وكان قصب السكر (أو القصب الحلو) موجوداً في جلولة[44] ، وقابس[45] . ولكنه لم يكن يُستعمَل لاستخراج السكر ، بل كان يمتصّ ، حسب الاحتمال[46] .

تربيـة المـاشيـة :

سوف لا نفيض في الحديث عن الماشية التي نستطيع مع ذلك تصوّر وضعيّتها في العصر الصنهاجي[47] . فقد أشارت بعض الفتاوى إلى وجود الخرفان ذات الألية النحيفة (ربّما في منطقة قسنطينة)[48] ، وهي لا تقلّ قيمة عن الخرفان ذات الألية الغليظة التي كانت تمثل السلالة الإفريقية على الوجه الأكمل[49] . وكانت تربية الخيول التي تتعاطاها صنهاجة وزناتة على حدّ السّواء ، مزدهرة لا محالة ورائجة بالخصوص في سهول نوبة بالوطن القبلي . وكان سهل قمّودة ملائماً هو أيضاً لتربية الخيول . أمّا تربية الإبل المنتشرة جدّاً[50] ، فقد اتّسع نطاقها أكثر فأكثر بعد غزوة بني هلال التي تسبّبت في تقهقر الزراعة لفائدة تربية الغنم والعنز . وكان من الشائع استعمال نوى التمور المدقوقة لتعليف الماشية، وبالخصوص البقر . وكان يُعِدّ هذا النوع من العلف حرفيّون في دكاكين تقع في جلِّ الأسواق الكائنة في قلب المدينة . وكثيراً ما كان الجيران يشتكون من

---

43) البكري ، 41 .

44) نفس المصدر ، 32 .

45) نفس المصدر ، 17 .

46) رياض النفوس [طبعة بيروت ، 182/2] ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1935 م ، 305 ، برنشفيك ، المرجع المذكور . رفض المَمّسي قبول حلويّات وجّهت إليه من القيروان ، لأنّه لا يريد أكل سكّر صقليّة الذي « يُعمَل من ضياع اقتطعها السلطان » ، رياض النفوس ، [طبعة بيروت ، 294/2-295] . الإدريسي ، الاستبصار ، الترجمة ، 185 . المدارك ، 152/3-2 ظ .

47) برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 233/2-235] .

48) نفس المرجع ، 234/2 .

49) فتوى السيّوري ، البرزلي ، المختصر ، 29 ظ .

50) لقد لاحظ ابن حوقل أن المغاربة الصحراويين أي البربر الرحّل يملكون الإبل أكثر بكثير من العرب (أي عرب الجزيرة العربية ؟) ، 98/1 .

الضجيج الذي تحدثه هذه الصناعة ، ويتمكّنون من إقصائها إلى خارج المدينة[51] . وكانت تربية الكلاب لاستهلاك لحومها رائجة في قسنطينة وقفصة وتوزر ونفطة[52] .

أما تربية النحل التي أشارت المصادر إلى وجودها في عنّابة وجيجل[53] ، فلا شكّ أنّها كانت منتشرة بكثرة في مناطق أخرى[54] .

وقد كان الشمع يمثّل أهمّ مادّة معدّة للتصدير[55] ، وكان عسل جلولة مشهوراً جدّاً[56] ، وأشارت بعض الفتاوى إلى تربية دودة الحرير[57] .

الصيـد البحـري والبـرّي :

كان الصيد البحري نشيطاً في كافّة السّواحل ، وكان يوفّر تغذية وافرة ورخيصة للسكّان ، لا سيما منهم أهل بنزرت وتونس[58] . ولا شكّ أنّ الأمر كان كذلك في سوسة وصفاقس وغيرهما من المدن الساحليّة . وقد أشار أحد المصادر إلى صيد التنّ في المنستير[59] . وأشارت فتوى إلى تجّار المنستير ، وقد توجّهوا إلى الصيّادين في شبه الجزيرة بالقنطرة ، قرب قصر ابن الجعد ، واشتروا منهم ما صادوه من السمك ، ثم باعوه في المدن . وقد استنكر القابسي مثل هذه الصفقة الرابحة ،

---

51) فتاوى أبي بكر بن عبد الرحمان واللبيدي والسيوري ، المعيار ، 278/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 3/ الكرّاس 62 ، 1 و ، 6 ظ .

52) المقدسي ، 60-61 ، البكري ، 49 ، 148 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 236/2] .

53) الإدريسي ، 98 ، برنشفيك ، نفس المرجع ، 235/2 .

54) فتوى أبي عمران الفاسي حول شركة من نوع المناصفة لتربية النحل ، المعيار ، 123/8 .

55) لقد حرّم المازري بيع الشمع للكفّار ، نفس المصدر ، 186/5-187 .

56) البكري ، 32 .

57) فتوى ابن أبي زيد حول صفقة بيع دود الحرير بالسَّلَم ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 169/2 ظ . وفتوى أخرى لنفس الفقيه حول قسمة « لوز الحرير » ، المعيار ، 85/8 . وفتوى أخرى لنفس الفقيه حول شراء أوراق شجر التوت قبل ظهورها ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 49/2 و . وفتوى المازري حول انتداب رجل « لكبّ » كميّة من الحرير ، نفس المصدر ، 141/8 . وفتوى نفس الفقيه حول قيام شركة بين أقرباء وقريبات لشراء الماعون اللازم لإنتاج الحرير ، المعيار ، 245/2 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 188/2 و . ظ .

58) الإدريسي ، 114-115 .

59) « اشتهى (أبو علي حسن ابن خلدون البلوي) مرّة بالمنستير تنّا مقلوّا ، فاشترى (سمكة) حيّة فيها أزيد من قنطارين وقلى ذلك كلّه وفرّقه على المرابطين بالقصر » ، معالم الإيمان ، 191/3 .

حرصاً منه على تزويد أهل المنستير بأسماك رخيصة[60] . وأشار الإدريسي إلى نوعيّة وحجم السمك في جيجل[61] وإلى براعة أهل صفاقس في صيد السمك في المياه الميّتة ، قائلاً : « وأكثر صيدهم بالزروب (الشباك) المنصوبة لهم في الماء الميّت بضروب الحيل »[63] . وأشار البكري منذ ذلك العهد إلى الطريقة المستعملة حالياً لصيد البوري والمتمثلة في تحريك أنثى البوري على طول الشاطىء لجلب الذكور وصيدها بواسطة الشباك . وأفاض كلّ من البكري والإدريسي في الحديث عن الموارد السمكيّة في بحيرة بنزرت المتّصلة بالبحر ، وقال الإدريسي إنّها « من عجائب الدنيا »[64] . ويكفي أن يخبر التاجر أحد الصيّادين بنوع السّمك الذي يريد شراءه ، ليلبّي الصيّاد طلبه في الحين ، بإلقاء شبكته في البحيرة . وأكّد نفس المؤلف من جهة أخرى « أنّ ماء بحيرة تينجة عذب وماء بحيرة بنزرت ملح ، وكل واحدة منها تصبّ في أختها ستّة أشهر ، حتى ينعكس جريها فتمسك الجارية عن الجري ، وتصبّ البحيرة الثانية في الأولى ستّة أشهر ، فلا بحيرة تينجة يملح ماؤها ، ولا بحيرة بنزرت يعذب ماؤها »[65] . كما أشار إلى وجود اثني عشر نوعاً من السّمك ، [وهي البوري والقاجوج والمجّل والطلنطة والإشبيلينيات والشلبة والقاروص ، واللاّج والجوجة والكحلاء والطنفلوا والقلا][66] . وأمدّنا البكري بمعلومات حول الأسماك التي تُصاد في تونس[67] . وأكّد الإدريسي أنّ « في المسيلة سمكاً صغيراً عليه طرق حمر حسنة . ومقداره من شبر فدُون ، وربّما صِيدَ منه الكثير فاحتُمِل منه إلى قلعة بني حمّاد »[68] .

ويبدو أنّ مصائد البحيرات كانت تابعة لأمراء بني زيري الذين كانوا يؤجّرونها للمتقبّلين .

---

60) فتوى القابسي ، المعيار ، 2/2 : كان الصيّادون يستعملون شباكاً . تسمّى « طرائح » .

61) الإدريسي ، 98 .

62) نفس المصدر ، 107 .

63) البكري ، 58 ، بونيار (Bonniard) ، المجلة التونسية ، 1934 م ، 135 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 237/2] .

64) البكري ، 58 ، الإدريسي ، 114-115 ، جورج مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 181 .

65) الإدريسي ، 98 ، 107 ، 114 .

66) وحول أسماء تلك الأسماك ، انظر ، B.E.A, A. Gateau ، الجزائر ، 1942 م ، 99-101 ، برنشفيك ، المرجع السابق .

67) البكري ، 41 .

68) الإدريسي ، 86 .

وقد اعتبر الفقهاء ذلك من ضروب « الغصب » . وعُرِضت على المازري[69] قضيّة بحيرة كان بها غاصِبٌ يمنع أيّاً كان من الصيد فيها ، من غير العاملين في خدمته . ولا شكّ أن الأمر يتعلق ببحيرة بنزرت وبأمير تلك المدينة ، التابع لأسرة بني الورد[70] . وكان الصيّادون يتولّون بيع السمك المقدّم إليهم بعنوان أجرة . وقد أكّد ابن أبي زيد بلا تردّد أن ذلك الاحتكار لا يُعتبَر غصباً بأتمّ معنى الكلمة وأن السمك المبيع حلال . وبالعكس من ذلك أدان القابسي ذلك التصرّف . وصرّح المازري أنّ رأي ابن أبي زيد « أقرب إلى أصول العلم » ورأي القابسي « أقرب إلى أصول الورع » . واعتبر أن رأي ابن أبي زيد صحيح ، إذا لم يأخذ الصيّاد سوى كميّة من السمك تساوي الكمية التي كان بإمكانه صيدها لو كان الصيد حرّاً . ورأى أنّ السمك الذي يسلّمه الغاصب إلى الصياد حلال ، شريطة أن تكون « الإجارة صحيحة » . وختم المازري رأيه بالاستناد إلى الضرورة التي تبيح ذلك الموقف المتساهل .

ولم نعثر إلاّ على إشارة واحدة حول الصّيد البرّي الذي لا شكّ أنّه كانت منتشراً بكثرة[71] . فقد خرج ليلاً رفيقان مسلّحان بالبنادق « لصيد الجرمان من البرك التي تخلّفها الأمطار . ودخل كلّ منهما زريبة »[72] . ولا شكّ أنّ بعض الصيّادين كانوا يتعاطون الصيد بمساعدة الطيور المطاردة ، لا سيما منها الباز . وكانوا يستعملون أيضاً كلب الصيد والرّمح والسهام[73] .

النباتـات النسيجيّـة وغيرهـا :

لقد كانت زراعة النباتات النسيجيّة كثيرة ومنتشرة . وقد أشار أحد المصادر إلى زراعة الكتّان في بونة[74] وبعض المـدن الأخرى . كـما كان القـطن يزرع في المسيلة ونقـاوس وطبنة وقفصـة

---

69) فتوى المازري وفيها إشارة إلى رأي ابن أبي زيد والقابسي ، **المعيار** ، 271/8 ، البرزلي ، **مخطوط** ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 34 ، 6 ظ .

70) لا يتعلّق الأمر ببحيرة تونس ولا بأمير تلك المدينة ابن خراسان ، فقد تحدّث البرزلي بعد ذلك عن لزمة بحيرة بنزرت . ياقوت (النصف الأول من القرن 13 م) ، **البلدان** ، 292/2 . وجاء في هذا الكتاب أن السلطان كان « يُضمِّن » بحيرة بنزرت وأن تلك « الضمانة » (اللّزمة) تبلغ 12000 دينار .

71) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 236/2] .

72) مقديش ، **نزهة الأنظار** ، الطبعة الحجرية 133/2 [طبعة بيروت ، 298/2] ، ولعل عبارة « البندقية » التي استعملها المؤلّف سابقة لعصرها . وقد أشار ابن رشيق إلى صيد الطيور عند وصفه « لقوس البندق » ، **العمدة** ، 221/2 ، ميمني ، 57-58 ، هانري بيريس ، **الشعر الأندلسي** ، 352 والهامش 5 .

73) **رسالة ابن أبي زيد** ، 154-155 . برنشفيك ، المرجع السابق .

74) الإدريسي ، 117 ، فتوى ابن أبي زيد حول كراء حقل يزرع فيه الكتّان ، **المعيار** ، 187/8 ، البرزلي ، **مخطوط** ، 220/2 =

وقرطاجنة(75) . وكثيراً ما أشارت النصوص إلى تجارة القطن ، وكانت كلمة « قطّان » (بائع القطن) مستعملة بكثرة في أسماء الأعلام . وكان قطن قرطاجنّة يصدّر إلى القيروان . وكانت قرطاجنة تنتج أيضاً القنّب(76) ، وتنتج ضواحيها القرطم (أو العُصْفر) والزعفران(77) . وأشار المازري في إحدى فتاواه إلى تصدير السماق إلى صقلية ، وهي مادة كانت مستعملة في العصر الوسيط في الدباغة والصباغة(78) . وفي جلولة كان أهل القيروان يعطّرون السمسم بالياسمين والورد والنرجس ويستخرجون منه زيتاً أساسيّاً(79) . وأشارت كثير من الفتاوى إلى زراعة الحنّاء(80) ، لا سيّما في تقيوس وقفصة وغيرهما(81) . كما أشارت النصوص إلى زراعة الكمّون(82) في قفصة وسبيبة وجزر قرقنة ، والكروياء(83) في قرطاجنة وسبيبة ، والأنيسون(84) في جزر قرقنة ، والزعفران(85) الشبيه بزعفران الأندلس في أبّة والأربس وماجنّة . ويبدو أن الصمغ كان يستعمل كبخور(86) . وكانت غابات الصنوبر في بجاية توفّر في عصر الإدريسي الخشب الصالح لإنشاء السفن والمراكب وإنتاج الزفت والقطران(87) .

ظ . وأشارت فتوى مجهولة المؤلف إلى نوعين من الكتّان : المصري والدّمني (ربّما نسبة إلى دمنة) ، ولهذا النوع الأخير مذاق خاص عندما تضعه الغزّالة في فمها ، المعيار ، 336/1 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 216/1 ظ ، 217 و .

75) ابن حوقل ، المجلة الأسيوية ، 1842 م ، 241/1-242 ، الإدريسي ، 86 ، 93 ، 104 ، 111 ، جورج مارسي ، العرب في بلاد البربر ، 27 وبلاد البربر الإسلامية ، 179 .

76) ابن حوقل ، 178 ، الإدريسي ، 111 .

77) ابن حوقل ، 178 ، الإدريسي ، 111 . وفي قبريّتين قيروانيّتين الأولى مؤرخة في 417 هـ/1026 م والثانية في 424 هـ/1033 م ، نجد اسم رجلين لقبهما « الأرجواني » (بائع الأرجوان) . نقائش عربية ، 369/1 ، 410 .

78) فتوى المازري ، المعيار ، 114/8-115 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 141/2 و . والجدير بالملاحظة أن هذا النبات لم يطلق عليه اسمه العربي السمّاق أو السموق بل أطلق عليه اسم : تيزرت أو تازغت ، وهو اسم بربري بلا شكّ .

79) البكري ، 32 .

80) فتوى ابن أبي زيد وفتوى اللخمي ، المعيار ، 184/8 ، 233/10 .

81) الإدريسي ، 104 .

82) نفس المصدر ، 104 .

83) نفس المصدر ، 111 ، 119 .

84) نفس المصدر ، 127 .

85) نفس المصدر ، 117 .

86) فتوى اللّخمي حول « بخور المصطكا » ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 35/1 ظ .

87) الإدريسي ، 90-91 : يوجد بالقرب من بجاية منجم حديد طيّب ورخيص .

صناعة النسيج[88] :

كان الغزل والنسيج على وجه العموم من اختصاص النساء اللائي يعملن في بيوتهنّ . وكانت النساء الفقيرات يغزلن لحساب الغير[89] . وكانت أهمّ الأنسجة المستعملة عصرئذ ، أي الصوف والقطن والحرير ، تُنتج في البلاد . وقد أشارت بعض المصادر إلى صنع منديل وملحفة من القطن والكتّان[90] ، وإلى ثوب أسديته من الكتان ولحمته من القطن[91] . ومن بين الهدايا التي قدّمها باديس إلى الخليفة الفاطمي الحاكم في سنة 405 هـ/ 1014-1015 م، كان يوجد الخزّ. ولا شكّ أن الأمر يتعلق بنسيج « أسديته من الحرير ولحمته من مادّة أخرى كالصوف أو الكتّان أو القطن »[92] . وقبل العصر الصنهاجي كان الناس يستعملون البزّ المستخرج من البحر قرب سواحل إفريقية الجنوبية ، لصنع نوع من القماش المعروف باسم « المُخَيَّر » ، وهو نسيج (متموّج) من الطراز الرفيع يختصّ به الخليفة الفاطمي ويُمنع تصديره . وقد أضاف المقدسي الذي استقينا منه هذه المعلومات أن هذا النسيج كان يُهرَّب ويباع الثوب المصنوع منه بألف دينار . ولا شكّ أن هذه الصناعة قد تواصلت في عهد بني زيري ، حيث أشارت بعض المصادر إلى وجودها في العصر الحفصي[93] . وكانت النيلة تُستورَد من المشرق وتباع في مكّة[94] . وكان الطرطر المجمّع في براميل الخمر يُستعمَل كمادّة مثبّتة للحصول على الصوف الأحمر[95] .

« وكان يُعمَل بالمهديّة من الأكسية الحسنة الرقيقة الجيّدة المنسوبة إليها ، ما يُحمَل ويُتجَهَّز به إلى جميع الآفاق »[96] . ومن بين قصور قفصة كانت مدينة طرّاق مختصة في صنع الأكسية المصدّرة

---

88) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 241/2] ، L. Golvin ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1959 م ، 213-231 .

89) فتوى المازري ، المعيار ، 231/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 58/2 و . 248/2 و ، مخطوط الرباط ، 101/2 ظ ، (حسب يحيى بن عمر) : استعمال الرّماد لتبييض الخيط .

90) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 67/2 و .

91) فتوى السيوري ، المعيار ، 46/2 ، البرزلي ، المختصر ، 39 و .

92) برنشفيك ، المرجع السابق ، 25/2 (حسب البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 128/1 و .) .

93) المقدسي ، 52-53 والهامش 143 (المراجع) . برنشفيك ، نفس المرجع [الترجمة العربية ، 242/2] .

94) المعيار ، 158/6 ، 69/9 .

95) فتوى المازري وأبي الفرج التونسي ، المعيار ، 212/6-218 ، البرزلي مخطوط الجزائر ، 42/1 ظ ، المختصر ، 5 ظ

96) الإدريسي ، 108 .

إلى مصر والمعروفة باسم « الأكسية الطّراقية »[97] ، وكانت أقمشة توزر من الأنسجة الذائعة الصيت[98] . كما اشتهرت سوسة بأقمشتها المنسوجة بخيوط ذهبيّة[99] . ولعلّ هذه الخيوط هي التي أطلقت عليها المصادر اسم « الغزل » دون ذكر المادّة المصنوعة منها . وقد قيل لنا أن المثقال من ذلك الغزل كان يساوي مثقالَيْن من الذهب[100] . وفي صفاقس كان ينسج القطن والكتّان[101] ، ويُدْعَك القماش ويُكمَد حسب الطريقة المستعملة في الإسكندرية ، ولكن بأحسن منها[102] . وكانت أقمشة القيروان الرقيقة تُوجَّه إلى سوسة ، لتُدْعَك[103] واختصّت قفصة بصنع الشيلان والملابس والعمائم[104] . في حين كانت قابس تمثل المركز الوحيد في إفريقية المتخصص في صنع الحرير الجيّد والرّقيق[105] . ولكنّ الإدريسي قد أكّد أن هذه الصناعة قد انقرضت في قابس في عصره ولم تبق بها سوى « مدابغ للجلود يتجهّز بها منها »[106] . وكانت طرابلس متخصّصة في صنع وتصدير أقمشة صوفية جميلة ، منها ما كانت واردة من جبل نفوسة[107] . وفي قلعة بني حمّاد[108] وبجاية كانت تصنع ملابس بديعة معدّة لسَرَوات القوم ، وكذلك عمائم الشرب (الكتّان الرقيق) المطرّزة بالذهب[109] .

الجلــد والجلــود :

لقد أشارت المصادر في أواخر العصر الصنهاجي[110] إلى أنّ « الذهب المسكوك المغزول »

---

97) البكري ، 47 ، جورج مارسي ، **بلاد البربر الإسلامية** ، 179-180 .

98) ابن حوقل ، 94/1 .

99) البكري ، 36 .

100) نفس المصدر ، المراكشي ، طبعة 1847، 255: أشار إلى ثياب سوسة .

101) مقديش ، 158/2 ، 159 .

102) البكري ، 20 .

103) نفس المصدر ، 36 .

104) برنشفيك المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 240/2] .

105) البكري ، 17 ، ماس لاتري ، **المقدّمة** ، 221 ، جورج مارسي ، **بلاد البربر الإسلامية** ، 179 .

106) الإدريسي ، 124 .

107) ابن حوقل ، 69/1 .

108) **الاستبصار** ، 105 .

109) نفس المصدر ، 34 .

110) فتوى المازري ، **المعيار** ، 212/6-215 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و . فتوى أبي الفرج التونسي ، **المعيار** ، 215/6-216 .

الوارد من العراق كان يُستعمَل في سالف الزمان في « جلود الذهب » ، والثياب العراقية القديمة ، وأحجبة النساء المعروفة باسم « المعاجر »[111] (م: مِعْجَر) ، والعمائم . وكانت صناعة الجلد مزدهرة في إفريقية وبالخصوص في القيروان[112] . وربّما كانت الجلود المطرّزة بالذهب تستعمل بكثرة ، لا سيما منها المستعملة في السِّراجة (صناعة السروج) . ولهذا الغرض ، كثيراً ما يُعوَّض الذهب « بالسمنتي » (وهو مزيج معدني مؤلّف من النحّاس والقصدير والزّنك أو مزيج مؤلف من الذّهب والفضّة)[113] .

وليس من المستبعد أن يكون الصنهاجيون قد استمرّوا ، على غرار الأغالبة والفاطميّين ، في توريد البردي واستعماله في المراسلات الرسمية والإدارة[114] . ولكن لم يصلنا أيّ نوع من أنواع البردي الإفريقي . وكان الرَّقّ الإفريقي الشهير والملوّن أحياناً (أزرق ولازوردي وقرمزي) يُصدَّر إلى الخارج . وقد أخذ الأندلسيّون عن أهل القيروان الأساليب الفنية المعتمدة لصنع الرقّ ثم الورق فيما بعد[115] .

وفي العهد الأغلبي كان يُصنَع « الكاغذ » (وهو ورق مصنوع من الكتّان) في القيروان. وتونس والمهديّة . وفي العصر الصنهاجي انتقلت صناعة الورق من إفريقية إلى أروبا عن طريق صقلية وجنوب إيطاليا ، ثم عن طريق المغرب والأندلس ، بعد ذلك بقرن[116] . وقد ازدهرت صناعة الرَّق[117] والتجليد في القيروان . وسنتناول بالدرس الموضوع الثاني (التجليد) عند

---

111) حسب أبي الفرج التونسي الذي استعمل بعد ذلك هذه العبارة : « ثياب النساء والمعاجر » . [والجدير بالملاحظة أن كلمة مِعجَر قد حُرِّفت في مدينة تونس في العصور الحديثة وأصبح هذا الحجاب يسمّى « العجار »] .

112) جاء في معالم الإيمان (227/3) أن السيّوري « قد بنى داراً لدبغ الجلود يكريها » . وحول شهرة جلود القيروان ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ، 687/1 . وحول السروج القيروانية الشهيرة حتى في أوربا ، والجلود المطرّزة بالفضّة والخزّ والمستعملة في صنع السروج والأحذية والسروج العسكرية ، انظر ، بساط ، 19-20 .

13) فتوى المازري حول الجلود المطرّزة بالذهب حسب أبي حفص عمر ابن العطّار ، والسمنطي مؤلّف من الذهب والفضة ، المعيار ، 212/6-216 البرزلي ، مخطوط الرباط ، 106/2 و ، المختصر ، 79 و .

14) ابن حوقل ، 86/1 .

115) حسب دراسة لم يسبق نشرها قام بها ح . ح . عبد الوهّاب ، الأندلس ، 1947/12 ، 293 ، ابن الفرضي ، 404/1 ، الضبّي ، 61 ، 93 ، 131 . التكملة ، 101/1 ، 190 ، 367 ، نفس المصدر ، تحقيق ابن الشنب ، 212 المقري ، 115/2 ، المدارك ، 2-162/3 .

116) ح . ح . عبد الوهّاب ، الدراسة المذكورة .

117) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 49/2 و . معالم الإيمان ، 11/3 .

الحديث عن الحياة الثقافية والفنية[118] ، وإلى حدّ ذلك التاريخ ، لم يتمكّن الورق من منافسة الرقّ ، لأنه كان أغلى منه[119] .

وعند تحليلنا للحبر المستعمل في الرقوق القيروانية ـ وقد كان لونه بنيّاً فاقعاً بالنسبة إلى الحروف وأحمر بالنسبة إلى النقط ـ لم نلاحظ وجود أيّ أثر للأملاح المعدنية ، والغالب على الظن أنه كان مصنوعاً من العفص والصمغ[120] . وقد كُتِب مصحف يرجع عهده إلى عصر ابن أبي زيد ، بالذهب الخالص[121] .

صناعـة الخـزف[122] :

لقد كان الخزف مزدهراً في إفريقية لا سيما في تونس[123] وقفصة وكانت تُصنَع في مدينة تونس « آنية للماء من الخزف شديد البياض في نهاية الرقّة ، تكاد تشفّ »[124] ، حتى سمّيت « الهوائية » . وفي بجاية أُخرِجَت من الأرض بعض الأواني المماثلة البالغة الرقّة والمصنوعة من طين غير مطلي[125] . وعُثِر في صبرة وقلعة بني حمّاد وبجاية على عدّة شقفات من الخزف المتعدّد الألوان . وكانت الزخارف على وجه العموم ذات لون بنّي وأخضر وأحياناً أصفر وفيما بعد أزرق[126] .

---

118) انظر الفصل السادس من الباب 12 .

119) ح . ح . عبد الوهّاب ، عناية ، 89 . وحول الورق الرومي الوارد إلى المغرب عبر طرابلس ، انظر ، المعيار ، 76/1 . ولعلّ عبارة « ورقة منصوري » الواردة في معالم الإيمان ، 140/3 ، تعني ورقة منسوبة إلى صبرة المنصورية . وأشار القلقشندي إلى أنّ المصاحف والدفاتر مصنوعة كلها من الرق ، انظر أيضاً ح . ح . عبد الوهّاب ، المرجع المذكور ، 84 ، الهامش 123 .

120) (Objets Kairouanais) ، 287/1 والهامش 3 .

121) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 129/2 ظ : وهذه الختمة المشتملة على 30 جزء كانت محبّسة على جامع القيروان ، ومكتوبة كلّها بحروف من الذهب ومغشّاة بالحرير .

122) جورج مارسي : فخّار وخزف قلعة بني حمّاد ، قسنطينة ، 1913 م ، وفخار وخزف بجاية ، قسنطينة ، 1916 م ، والفنّ الإسلامي ، 86-87 .

123) الإدريسي ، المعجم ، 354-355 ، وفيه إشارة إلى أن خزف مدينة تونس يضاهي الخزف المستورد من العراق .

124) البكري ، 40 .

125) جورج مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 180 .

126) نفس المؤلف ، الفن الإسلامي ، 87 ، إسبانيا الإسلامية ، 111-513 .

ولا شكّ أنّ الأواني المنزلية كانت مصنوعة من الطين والنحاس ، وهناك أيضاً بعض الأواني المصنوعة من الحديد(127) .

صناعــة الزّجــاج :

لقد أشارت كثير من الفتاوى إلى « حانوت الزجّاج »(128) . وأشـارت إحداهـا إلى قدوم زجّاج يستعمل نـوى التمور كمحـروقات ، والحـال أنها كانت تُستعمَـل بعد طحنهـا لتعليف الـدوابّ(129) . وفي صبرة وزويلة ، تمّ اكتشاف بعض أفران الزجّاجين(130) . وكان يُصنَـع في قفصة زجاج من الطراز الرفيع(131) .

المناجـم والمعــادن(132) :

يرى المازري(133) أنّ من واجب المالك الشرعي للمنجم (أو بالأحرى اللزّام) الاقتصار على امتلاك جزء من المعادن المستخرجة وتوزيع البقيّة على الفقراء أو على مشاريع البرّ والإحسان ، حسب بعض الفقهاء . ويجوز أن يتقاضى العملة المُستخدَمـون لاستخراج المعـدن أو صهره أو محصه ، إمّا أجراً ثابتاً للقيام بعمل معيّن ، أو عدداً من القُفف المليئة بالمعدن ، لاستخراج كمية

---

127) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 88/2 و ، المختصر ، 76 و . ظ : « شراء طاجين حديد » .

128) فتوى أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 166/6 .

129) وتبعاً لذلك فقد ارتفع سعر تلك المادة التي أصبحت نادرة . وقد أفتى السيوري بمنع الزجاج من حرقها إذا كان الناس في حاجة أكيدة إليها وباستطاعتهم الاستغناء عن الزجاج ، المعيار ، 247/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 33 ، 2 و . ظ ، المختصر ، 161 ظ . والجدير بالتذكير أن بعض المصادر قد أشارت إلى وجود حيّ أو سوق الزجّاجين بالقيروان ، أبو العرب ، 78 .

130) (Objets Kairouanais) ، 374-371/2 . ولئن لم يتأكد وجود فرن صبرة إلا بفضل وجود حُمَم زجاجية ، فإن فرن زويلة الذي اكتشفه ح . ح . عبد الوهّاب ، قد نجا من التدمير لأنه استُعمِل في فترة لاحقة كفرن جير .

131) الاستبصار ، الترجمة 75 وفي القرن الرابع عشر ميلادي تحدّث أبو الفداء (الجغرافيا ، الترجمة 201/1) عن زجاج طرّة الصافي جداً . وقد كانت هذه البلدة التي اسمها الآن تلمين ، تابعة لمدينة توزر ، (Objets Kairouanais) ، 375/2 والهوامش .

132) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 240-239/2] .

133) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 34 ، 7 و .

من المعدن محدّدة من قبل ، كما يجوز لهم خلط المعادن الموجودة في قففهم ، والاشتراك مع بعضهم بعضاً . وأوضح المازري أن هذه الأحكام لا تهمّ إلاّ الرصاص الذي لا ينبغي أن يكون محلّ صفقات ربويّة .

والغالب على الظن أن منجم جبل الرصاص الواقع على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب شرقي مدينة تونس ، كان مستغَلاً في العصر الصنهاجي ، وكذلك معادن الحديد الموجودة في هنشير الحديد وفي منطقة ونزة . ويتمثل أهم مركز معدني في المنطقة المعروفة باسم « مجّانة المعادن » ، وتسمّى أيضاً « مجّانة المطاحن » ، إذا كانت تُستخرَج منها ـ حسب البكري ـ أحسن صخور الطحن في العالم . وأشار البلاذري إلى وجود منجم فضة بالقرب من مجّانة . وأشار اليعقوبي من جهته إلى مناجم الفضّة والإثمد والحديد والمرتك والرصاص . وأكّد ابن حوقل أنّ منجم حديد وفضة كان تابعاً لمجّانة التي كانت توفّر صخور الطحن المصدّرة إلى جميع أنحاء العالم . وأشار البكري بعد ذلك بقرن إلى وجود عدّة مناجم في المنطقة المذكورة ، منها منجم فضة اسمه « الوريتصي » ، على ملك بربر لواتة . وبعد غزوة بني هلال ، في القرن الثاني عشر من الميلاد ، لم يذكر الإدريسي ، ولا مؤلف « الاستبصار » الخفّي الاسم الذي ينقل كثيراً عن البكري ، إلاّ المطاحن . ولعلّ في هذا السكوت دلالة على ما ألحقته الاضطرابات الهلالية من أضرار بالمناجم[134] . إلاّ أن الإدريسي قد أشار مع ذلك إلى مناجم الأربس وبونة وبجاية .

وأشارت المصادر في عهد الأمير يحيى إلى القصدير ، لما تحدّثت عن « السروج والبنود والقباب والأواني »[135] . ولكن ربّما كان الأمر يتعلّق بمعادن مستوردة .

ولم تشر رسالة ابن أبي زيد إلاّ إلى مناجم الذهب والفضّة[136] . ولا شكّ إن استغلال ملح المناجم ، مثل منجم ربوة الوطاية الواقع شمال غربي بسكرة ، والمشار إلى وجوده في العصر الفاطمي[137] ، قد كان مزدهراً . وأشارت فتوى للمازري إلى ملّاحات من هذا القبيل[138] . ورغم انعدام الوثائق ، فمن المحتمل أن تكون قد هُيِّئت بعض الملاّحات في السباخ

134) جورج مارسي وليفي بروفنسال ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1937 ، 15-18 .
135) ابن خلكان ، 240/2 .
136) رسالة ابن أبي زيد ، 132-133 .
137) البكري ، 52 ، ماس لاتري ، معاهدات ، 224 ، برنشفيك ، المرجع السابق ، 239/2 .
138) فتوى المازري ، البرزلي مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 3/ الكراس 34 ، 6 و .

الإفريقية[139] . وقد كانت ملاّحة لمطة تنتج ملحاً بحريّاً لا مثيل له . يُصدَّر إلى المناطق المجاورة[140] .

وكان استغلال الأرصفة المرجانيّة في عرض سواحل القلّ مزدهراً[141] . إذ كان الصيّادون يستخرجون المرجان بشدّ أغصانه إلى شباك في شكل صليب ، مثقّلة بالحجارة وملفوفة بخيوط القنّب أو الكتّان . وكانت تستغلّ تلك الأرصفة حوالي خمسين سفينة ، يركب كلّ واحدة منها عشرون ملاّحاً . وفي عصر ابن حوقل ، وكذلك في العصور الموالية بلا شكّ ، كان سلطان المغرب يكلّف أُمَناء بمراقبة صيد المرجان ، وكان موظّف آخر يسمّى الناظر مُكلَّفاً بتحصيل جميع المكوس الموظفة على ذلك النشاط لفائدته (وهي الصّلات والمعاون واللّوازم) . ويسدّد الباعة الشركاء أجور الصّيادين التابعين لتلك المنطقة . وكانت محاصيل الصيد وافرة ، إذ يؤكّد المقدسي ، أنه من الممكن الحصول على ما لا يقلّ عن ثلاثين كيلوغرام من المرجان ، بواسطة شبكة واحدة[142] . ويتمّ صقل المرجان الخام غير الملوّن على عين المكان ، ثم يباع بلا ترتيب بأسعار زهيدة للباعة المذكورين الذين يتولّون بدورهم بيعه كما هو بلا فرز ، حسبما يبدو[143] .

ويُصدَّر جزء من المرجان الإفريقي إلى الخارج ، ولا سيما إلى مصر[143] .

---

139) برنشفيك ، نفس المرجع ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 3/ الكراس 33 ، 9 و .

140) البكري ، 84 .

141) ابن حوقل ، 75/1 ، المقدسي ، 48-51 ، البكري ، 55 ، الإدريسي 116 ، البلدان ، 24/8 .

142) المقدسي ، 50-51 ، 84 ، هامش 24 : تتراوح الكمية المستخرجة بين 10,000 و 10 دراهم ، ولعلّ الأمر يتعلق بدرهم مكيال (3 غ 148) لا درهم نقد .

143) فتوى ابن محرز والمازري (أو أبي الفرج التونسي) ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 52/2 و .

الفصل الخامس
النقـــود

لقد كانت عُمْلَتا الذّهب والفضّة مستقلّتَيْن الواحدة تجاه الأخرى ، من حيث المبدأ . « فكلّ عملة منهما لها قوّة إبرائية تامّة ، عندما ترد في الرّسم المنشىء للالتزام ، أو عندما تفضّلها العادة الجاري بها العمل على الأخرى »(1) .

ونستطيع أن نؤكّد أن الصفقات ، قبل غزوة بني هلال ، كانت تتمّ على حدّ السواء بالفضّة أو الذّهب أو العروض(2) . وليس من المؤكّد أن يكون الأمر كذلك فيما بعد ، لا سيما في المهديّة ، بسبب قلّة الذهب .

ويتجزّأ درهم الفضّة إلى نصف درهم (ويسمّى القيراط) ، وربع درهم وثُمُن درهم ، ونصف ثُمُن الدرهم (ويسمّى الخرنوبة أو الخَرّوبة)(3) . وقد طُبع درهم مزدوج وارد من البلاد التونسية باسم الخليفة الفاطمي المستنصر(4) . ويبدو أن الخرّوبة كانت مصنوعة من النّحاس(5) . فقد أشار مصدر إباضي إلى « قيراط حندسي »(6) . وفي جربة كانت تتمّ الصفقات بالحندوس ، أي

---

1) برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، 74/2 .

2) وجاء في فتوى للقابسي ، المعيار ، 222/2 ، أن الديّة يدفعها المُطالَب بها ذهباً « إن كان من أهل الذهب » ، أو ورقاً « إن كان من أهل الورق » أو عروضاً « إن كان من أهل العروض » . وجاء في فتوى لابن أبي زيد أن أهل التلميذ يدفعون للمؤدّب « رُباعيّاً » ، ذهباً أو دراهم ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 و .

3) وورد ذكر نصف وربع الدرهم في معالم الإيمان ، 195/3 (ترجمة أبي سعيد خلف بن محمد الخولاني) لقد كان هذا المتعبّد ينفق درهمين في اثنين وثلاثين يوماً ، كلّ يوم خرّوبة . المقدسي ، 52-53 : نصف درهم = قيراط ، ربع ، ثُمُن ، نصف الثمن = خروبة . وإن كان المثقال يساوي 8 دراهم والدرهم يساوي قيراطَيْن ، فإن المثقال يساوي 16 قيراطاً .

4) F. Viré ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 73 ، رقم 127 : وهناك درهم آخر مطبوع باسم العاضد (555-567 هـ/ 1160-1171 م) ، نفس المصدر ، 80 رقم 155 .

5) المقدسي ، 52-53 والشماخي ، 369 وقد أورد هذه الإشارة الغريبة : يمكن لشخص أن يبيع بضاعة مقابل « قراريط (ج . قيراط) ، والمقصود بذلك « دراهم الحندوس » ، لأنّ القراريط داخلة في « أوزان الذهب » والدراهم داخلة « في أوزان الفضة » .

6) أبو الربيع (مذكّرات نقلها ح . ح . عبد الوهّاب عن مخطوط لهذا المؤلف) ، وقد أشار إلى رجل باع لشخص آخر مطحنة =

بالنقد النّحاسي[7] . ولكن قد تكون هاتان الإشارتان تتعلّقان بفترة موالية للعصر الصنهاجي .

وكان تحويل نقود الفضّة (الدّرهم والقيراط) إلى نقود نحاسيّة (الخروبة) من العادات الجاري بها العمل التي يسمح بها الفقهاء[8] .

وكان الصيارفة يقومون في نفس الوقت بدور أرباب المصارف[9] ، ويتعاطون نشاطهم على « مائدة »[10] .

ولم تكن العلاقة بين الذّهب والفضّة ثابتة ، إنّما كانت تتعرض لعدّة تقلّبات[11] .

وحسب البكري[12] ، كانت رائجة في مدينة تنّس النقود التالية : الدرهم الذي كان يساوي 12 درهماً صقليّاً ، والقيراط[13] وربع الدرهم والصقل (؟) والحبّة المزدوجة .

وكان صرف دينار الذهب ، ثمانية دراهم فضّة[14] . وسنرى أنّ إصلاح الدّرهم الفاطمي في

بستين قيراطاً ، وأوضح البائع للمشتري أنه يعني 60 قيراطاً ذهباً . وعند الدفع سلّم إليه المشتري 60 قيراطاً « حندسية » كانت رائجة آنذاك حسب العادة الجاري بها العمل ، وكانت العملة الرائجة في جربة الحندوس الذي يقوم عندهم إلى اليوم مقام الدرهم .

7) الشماخي ، 367 : « حناديس النحاس » « عرف جربة التبايع بالحناديس » .

8) فتوى التونسي وأبي عمران الفاسي ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 ظ ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 104/2 : كان أبو بكر بن اللبّاد (ت . 333 هـ/944 م) يعطي درهماً لتلميذه ابن أبي زيد الذي يذهب ليشتري له خضراً ويرجع له خراريب .

9) فتوى اللخمي البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 261/2 و ، مخطوط الرباط ، 117/2 و : ثمّ صرف دينار وقُسّم بين شريكَيْن ، فأخذ أحدهما الرّبع والآخر البقيّة . و « تعامل » هذا الأخير مع الصيرفي الذي أخذ منه الرّباعي مقابل قسط من الدراهم وترك له بقية الدراهم التي يسترجعها شيئاً فشيئاً . ومن البديهي أن هذا النوع من العمليات يمكن أن يشمل مبالغ أهمّ من ذلك .

10) المدارك ، 2-150/3 و (ترجمة ابن اللبّاد) .

11) فتوى عبد الحميد بن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2 ظ . ومخطوط الرباط ، 120/2 و . : تمّ تبديل الدنانير الموصى بها لفائدة فقراء المنستير بنقود فضّة ، وقد سمح القاضي بهذه العملية التي قام بها الوكيل وأطلق عليها اسم « الصرف الناجز » . وأثناء التوزيع انخفضت قيمة العملة ، فطالب الوكيل الورثة بدفع الفارق ، لأنّ الأموال (الدراهم) الموزّعة يجب أن تكون مطابقة لقيمة الدنانير (الذهب) الموصى بها .

12) البكري ، 62 .

13) جاء في فتوى قد يكون أصدرها اللخمي أن رجلاً قد سلّم إلى شخص آخر درهماً لصرفه مقابل قيراطين ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 261/2 و .

14) فتوى القابسي ، المعيار ، 118/3 . في حياة جبلة (ت . 299 هـ/911-912 م) ، كان صرف مثقال الذهب ، 12 درهماً ، وكان رُبُع المثقال يساوي أقل من 4 دراهم ، وعلى الأرجح 3 دراهم ، المدارك ، 2-16/3 ظ ، 17 و . في محرّم

عهد الحاكم ، سنة 399 هـ/ 1008-1009 م ، ربّما كانت له انعكاسات على الصرف في إفريقية[15] . وفي عهد المعزّ بن باديس أُدخِلت إصلاحات هامّة على النّظام النّقدي ، أثناء فترة القطيعة مع الفاطميّين ، شملت في آن واحد أو على التوالي عُمْلتيْ الفضّة والذّهب ، وقد أشارت إلى ذلك الإصلاح بعض الفتاوى ، بالنسبة إلى عملة الفضّة ، وأخبار ابن شرف بالنسبة إلى عملة الذّهب .

وقد سُئِل التونسي عن « مراطلة » (أو موازنة) دراهم غير متجانسة ، بعضها ذات عيار أعلى من الفضّة ، وهي الدّراهم القديمة ، والأخرى ضُرِبَت منذ عهد قريب . وقد أجاز الفقيه هذه العمليّة ، ملاحظاً أنّ الدّراهم القديمة لو أعيد سبكها لإنشاء دراهم جديدة ، لفقد صاحبها الفائدة المنجرّة عن عيارها المرتفع من الفضّة ، ولَوُظِّفت عليه رسومُ سَكّ النقود[16] . وبعد ذلك بمدّة أفتى السيّوري بجواز تبديل دراهم قديمة بدراهم جديدة « بلا مراطلة » ، دون التعرّض لأيّ عقاب ، إذا كان الأمر يتعلّق بمبلغ زهيد[17] . ولم يُذكَر الفارق بين النقود القديمة والنقود الجديدة ، من حيث عيار الفضّة ، ولكن تمّ التفكير ـ حسبما يبدو ـ في الطريقة التي يمكن أن يحدّد بها ذلك الفارق على سبيل التقريب .

= 362 هـ/12 أكتوبر ـ 10 نوفمبر 972 م ، حدّد القائد الفاطمي جوهر الذي فتح مصر ، قيمة العملتين بثمانية دراهم فضة مقابل دينار ذهب ، **الاتعاظ** ، 183 . وفي عهد العزيز بالله كان صرف الدينار المعزّي (نسبة إلى المعز لدين الله) في مدّة وزارة يعقوب بن كلس ، 15 درهماً ونصف الدرهم ، المقريزي ، **نقود** ، 14 . وحسب ابن ميسّر ، انهارت أسعار المواد الغذائية في مصر في عهد العزيز ، في ربيع الأول 382 هـ/7 ماي ـ 5 جوان 992 م ، وكانت الدراهم القيروانية تساوي 15 درهماً ونصف الدرهم بالنسبة إلى الدينار ، وبلغت قطع الدراهم ما بين 77 و100 درهم بالنسبة إلى الدينار ، فتوقفت عمليات الصرف وضُرِبت دراهم جديدة . واشتريت قطع الدراهم من الصيارفة لسبكها ، بخمسة دراهم مقابل درهم واحد .

15) المقريزي ، **نقود** ، 14 : وفي عهد الحاكم بلغت قيمة الدراهم في ربيع الأول 399 هـ/3 نوفمبر ـ 2 ديسمبر 1008 م ، 34 درهماً بالنسبة إلى الدينار الواحد ، وانخفضت الأسعار بشكل مدهش ، ممّا دفع السلطة إلى سحبها من التداول . وأُخرِج من القصر عشرون صندوقاً من الدراهم الجديدة التي وزّعت على الصيارفة ، وقُرِىء سجلّ يمنع أيّ معاملة بالدراهم القديمة . وأعطيت مهلة بثلاثة أيام لمن يملكون دراهم قديمة لدفعها بأكملها لدار الضرب . فاضطرب الناس ، وأصبحت قيمة أربعة دراهم قديمة تساوي درهماً جديداً واحداً . واستقر سعر قطع الفضة الجديدة في مستوى 15 درهماً بالنسبة إلى الدينار .

16) فتوى التونسي ، **المعيار** ، 77/6 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 250/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 103/2 و .

17) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 250/2 و ، مخطوط الرباط ، 103/2 و . قارن مع رأي اللخمي المتقارب حول المراطلة بوجه عام ، مع الإشارة إلى كتابه « التبصرة » وكتاب البرادعي ، « التهذيب » ، **المعيار** ، 44/5-45 .

أما بالنسبة إلى عملة الذّهب ، فقد أكّد ابن عذاري ، أن المعزّ بن باديس قد ضرب في سنة 441 هـ/ 1049-1050 م ، بعد حصول القطيعة مع الفاطميّين « الدينار المسمّى بالتجاري »[18] .
ثم قدّم إلينا ، نقلاً عن ابن شرف ، المعلومات التالية حول ذلك الإصلاح النّقدي :
« وفي شوّال من تلك السنة (26 فيفري ـ 26 مارس 1050 م) نادى منادٍ بأمر السّلطان أبي تميم (المعزّ بن باديس) : أنّه من تصرّف بمال عليه أسماء بني عُبَيْد نالته العقوبة الشّديدة ، فضاقت الحال بالفقراء والضعفاء وغلت الأسعار بالقيروان . وكان الدّينار القديم بأربعة دنانير ودرهمين ، وكان صرف الدّينار الجديد خمسة وثلاثون درهماً »[19] .

فالشّهادات المقدّمة في هذا الشأن تبدو متطابقة ، ويمكن تشبيه الإصلاح النقدي الذي أنجزه المعزّ في سنة 441 هـ بإصلاح الحاكم في سنة 399 هـ[20] . والجدير بالملاحظة أنّ الدّنانير الصّنهاجيّة الأصليّة كانت مماثلة للدّنانير التي أصدرها بنو عُبَيْد في إفريقيّة قبل سنة 441 هـ ، من حيث القُطر والوزن والعيار . ومن جهة أخرى ، لا يمكن اعتبار الدّينار التّجاري الذي أمر المعزّ برواجه دون سواه ، مماثلاً للدّنانير المزدوجة والمثلّثة التي كان الفاطميّون يضربونها لتوزيعها كهدايا في بعض المناسبات الرّسميّة .

وفي الجملة يمكننا أن نستنتج من ذلك ، بقطع النظر عن فترات الأزمات ، أنّ الصّرف الإفريقي قد تطوّر قبل قدوم بني هلال في نفس الاتّجاه الذي اتّبعه الصّرف المصري . ولْنُحَاوِلْ تفسير ما وقع انطلاقاً من الملاحظات التالية :

1 ـ لقد شهدت إفريقيّة عهدئذ ، مثلها مثل مصر ، فترة طويلة من الازدهار تتخلّلها مجاعة كلّ عشر سنوات تقريباً .
2 ـ واتّجهت أسعار الموادّ الغذائية نحو الانخفاض . والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ ارتفاع الأسعار في مصر ، (نتيجةً لقلّة السّلع) ليس هو المتسبّب شيئاً فشيئاً في ارتفاع عدد الدراهم مقابل الدينار الواحد ، إنّما هو انخفاض الأسعار (نتيجة لتكاثر السّلع) .
3 ـ إنّ دراسة نقود الفضّة الفاطميّة التي ضُرِبَت في مصر طوال تلك الفترة ، تكشف لنا عن انخفاض تدريجي في عيار الدّراهم .

---

18) البيان ، 278/1 ، [انظر أيضاً ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ورقات ، ج 1 . ص 447] .
19) البيان ، 279/1 .
20) انظر الهامش السابق رقم 15 .

4 - وإنّ الحاجة إلى عملة الفضّة ترتفع كلّما انخفضت كمّية المواد المُستهلَكة الضروريّة .

5 - ولئن كان الذّهب متوفّراً بكثرة سواء في إفريقية أو في مصر ، فإنّ الفضّة كانت نادرة في كلا البلدَيْن .

ويمكن أن نستخلص من ذلك ، الافتراض التالي : يتسبّب الازدهار في انخفاض الأسعار وارتفاع الحاجة إلى نقود الفضّة . إلاّ أنّ قلّة الفضّة الرقيقة تفرض الزيادة في عدد الدراهم وانخفاض عيارها ، وبالتالي ارتفاع عدد الدراهم اللاّزمة لصرف دينار واحد . وبناءً على ذلك ، فإنّنا نفترض عدم تغيير العلاقة بين الذّهب والفضّة (الدينار والدرهم الشرعيّان) ، على الأقلّ من الناحية النظرية . وقد كانت الدّراهم الفاطميّة نادرة جدّاً ، بحيث لا يمكن سبكها للتعرّف على عيارها الحقيقي . ومن الممكن أن يكون ذلك ممكناً في يوم من الأيّام . ذلك أنّ المقارنة بين تطوّر العنصرَيْن (عدد الدراهم المقابلة للدينار وعيار الدّرهم) من شأنها أن تكون مفيدة جدّاً . وليس من المُستبعَد أيضاً أن تكون وفرة الذّهب وقلّة الفضّة قد تسبّبتا في انخفاض قيمة المعدن الأوّل بالنسبة إلى الثاني[21] .

وقد أكّد الجغرافي المقدسي (ت . بعد سنة 378 هـ/ 988 م) أن نقود الذّهب والفضّة في كافّة الأقطار الفاطميّة كانت تُعَدّ بالقِطَع ، في حين كانت عملة الذهب في المشرق تُحسَب دوماً وأبداً بالوزن لا بالعدّ[22] . وتبدو هذه الشهادة غريبة ، لا سيما وقد أشارت كثير من الفتاوى إلى مراطلة سكّة الذّهب والفضّة . وليس من المستبعد أن يكون هذا المؤلّف قد أشار بالخصوص إلى الصّفقات القليلة الأهميّة التي أجاز بشأنها فقيه صنهاجي واحد على الأقلّ ، وهو السيّوري ، الإعفاء من « الموازنة »[23] ، وربّما لأنّ المعاملات التجاريّة تتمّ عادة على أساس القِطَع المعدودة لا الموزونة ،

---

21) حسب دراسة (F. Viré) ، جميع أنصاف وأرباع الدراهم الزيرية التابعة لمجموعة ح . ح . عبد الوهّاب مفضضة بل حق مغشّاة بطبقة من الفضة .

22) المقدسي ، 53-54 والهامش 137 .

23) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 250/2 و ، مخطوط الرباط ، 103/2 و : رداً على سؤال حول صرف دراهم قديمة مقابل دراهم جديدة بلا موازنة ، أجاب السيوري أن ذلك جائز ، بالنسبة إلى كمية قليلة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى صرف دينار ، مقابل دينار أثقل . ولكن هذه العملية ممنوعة إذا كان الأمر يتعلق بكمية كبيرة ، « نظراً لاختلاف الأعراض » . وحسب أبي حفص عمر بن العطّار (المعيار ، 78/6) يجوز وزن الدراهم المشتملة على النحاس ، لأن المقصود بذلك تداول القطع لا شراء عرض مقابل معدن الفضة . وجاء من فتوى للتونسي ، المعيار ، 77/6 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، مخطوط الرباط ، 103/2 و : « أجاز أصحابنا وزن التبر الجيّد بمسكوك دني » .

فقد أوضح المقدسي ما يلي : « ولا يُرَخِّصون في المعاملة بالقِطَع »[24] . ويجب قانونيّاً أن يكون وزن الدينار الفاطمي الرفيع العيار ، المضروب في إفريقيّة أو غيرها ، حوالي مثقال[25] .

ويتجزّأ الدينار أو مثقال الذّهب[26] إلى نصف دينار ورُبُع دينار (أو رُباعي)[27] ، وثُمُن دينار (أو ثُماني)[28] . وبما أنّ سُدُس الدّينار (أو سُداسي) لم يرد ذكره إلّا في نصّ واحد[29] ، ولم يُشِر إليه أيّ مختصّ في المسكوكات ضمن النقود الفاطميّة والصنهاجيّة ، فإنّ وجوده مشكوك فيه إلى أبعد حدّ . ولعلّ الأمر يتعلّق بجزء صوري من الدينار . ومن ناحية أخرى فإن الصّنج الوحيد المساوي لضعف الدينار ، المعروف في الوقت الحاضر ، والذي عُثِر عليه في البلاد التونسية ، قد طُبِع باسم المعزّ لدين الله الفاطمي[30] .

---

24) المقدسي ، 52-53 .

25) يتراوح وزن الدنانير الفاطمية الزيرية بين 3,62 غ و4,36 غ . المقدسي ، 52-53 . وكان الدينار الفاطمي يزن مثقالاً إلّا حبّة (حبة شعير ، ما بين 70 و71 م . م . غ تقريباً) ، أي حوالي 4,18 غ (وعلى الأرجح 4,21 غ) . فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 و : إيجار « قاع » منزل مقابل 8 حبّات مرابطية من الذهب . وقد أراد المستأجر دفع الكراء بالحبات ، بحساب 76 حبّة مقابل مثقال ، في حين طالب صاحب المنزل بدفع 72 حبة مقابل مثقال ، وأجاب ابن أبي زيد أن المعلوم الواجب دفعه هو 8 حبّات ، تبلغ قيمتها الجملية تُسُع المثقال (أي 72 حبّة مقابل مثقال) . Dénéroux, F. Viré . . . كرّاسات تونسية ، 1956 م ، 47-48 : يتمثل معدّل موازين النقود ، حسب وزن الصنوج الفاطمية ، فيما يلي :

1) الذهب ، الدينار المزدوج : 8,500 غ ، الدينار : 4,190 غ ، ربع الدينار : 1,037 غ . 2) الفضة ، الدرهم المزدوج : 5,950 غ ، الدرهم : 2,975 غ ، نصف الدرهم : 1,487 غ ، ربع الدرهم : 0,743 غ .

26) انظر بالخصوص ، فتوى المازري ، المعيار ، 115/8-116 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 121/2 و ، ظ . المقدسي ، 52-53 : لم يذكر إلا الربع .

27) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 و . كان مؤدب صبيان يتقاضى نصف دينار في السنة : ربع دينار معجّل وربع مؤجّل . فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 261/2 و ، مخطوط الرباط ، 117/2 و ، المعيار ، 233/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 60/2 ظ ، 61 و . المختصر ، 121 و .

28) لم ترد كلمة « ثُماني » عوض ثُمُن إلّا في فتوى لابن محرز (ت . 450 هـ/1058) ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 181/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 22/2 و .

29) أشارت فتوى ابن محرز المشار إليها أعلاه إلى « دنانير ثُمانية وسُداسية » . وأشار ساجدة شكري إلى ثلث دينار مضروب في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم (386-411 هـ/996-1002 م) ، مجلة سومر ، المجلّد العاشر ، بغداد ، 1951 م ، عدد 1 ، 132 .

30) F. Viré ، المرجع المذكور .

وقد كانت الدّنانير المغربيّة رائجة في بلاد المشرق التابعة للخلافة الفاطميّة[31] ، والدنانير المرابطيّة رائجة في إفريقيّة[32] .

وليست لدينا سوى معلومات قليلة حول قيمة النّقود التي ضربها بنو حمّاد وملوك الطوائف الذين استبدّوا بالحكم بعد غزوة بني هلال[33] . ولا شكّ أن النّقود الأولى كانت شبيهة بنقود بني زيري والنّقود الثانية ربّما كانت مُفضّضةوأقـلّ قيمة[34] ومن المحتمل أن يكون الدينار الصفاقسي مساوياً للدينار التميمي (أي الذي ضُرِب في عهد تميم بن المعزّ)[35] .

31) **الخطط** ، 335/2 ، المجلة التونسية ، 1936 م ، 341 : في سنة 427 هـ/ 1035-1036 م سُمِح باستعمال الدنانير المغربية في المعاملات ، وقد كانت ممنوعة في السابق من طرف الحاكم نجوم ، 101/5-102 (السّنة 468 هـ) .

32) فتوى ابن أبي زيد، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 112/2 و : حبّة مرابطية . فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 35 ، 8 ظ ، المعيار : 302/10-303 : صداق بمائة دينار مرابطية . فتوى المازري : **المعيار** ، 131/8-132 : دنانير مرابطية سُلّمت بعنوان قراض ، وفتوى نفس الفقيه ، المعيار ، 295/10 . فتوى أبي القاسم المناوي السوسي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 60/2 ظ .

33) [انظر، ح . ح . عبد الوهاب ، ورقات ، ج ، 1 ، ص 449 ، (أمراء الطوائف)].

34) انظر الفصل السادس من الباب الثامن .

35) نفس الفصل .

الفصل السّادس
الموازين والمكاييل

كان المثقال الذي يمثّل وحدة الوزن ، يعادل تقريباً وزن الدينار ، في حين كـان الدرهم الكيل يعادل الدرهم النقد[1] .

وكان الصّنج الفاطمي[1م] ، أو ميزان الزجاج المستعمل لوزن النقود ، يحمل طابعاً مماثلاً لطابع الرطل . ومن بين الصنوج أو أجزاء الصنوج التي عُثِر عليها في قلعة بني حمّاد ، يوجد صنج مطبوع باسم الخليفة الفاطمي الحاكم[3] .

وحسب المقدسي ، كانت المكاييل الفاطميّة تسمّى الدّوار ، وهي أرفع بقليل من الويبـة المصريّة . ويشتمل جزؤها الأعلى على عارضة معدنية متّصلة بالقاع بواسطة محور عمودي مرتكز على قطعة حديدية تدور فوق فتحة المكيال . فإذا امتلأ المكيال يتمّ تدوير القطعة الحديدية التي تسوّي المحتوى بمستوى الفتحة وتسمح بالتعرّف على الكيل المضبوط[4] .

والغالب على الظن أن الإشارة الموالية التي أوردها نفس المؤلف تهمّ العصر الصنهاجي : « وأرطالهم رصاص على كلّ رطل اسم أمير المؤمنين (الفاطمي) وصنوجهم من زجاج مطبوع كما ذكرنا من الأرطال »[5] .

---

1) لا ندري ما هي قيمة المثقال الزيري : 4,25 غ أم 4,21 غ ؟ وكذلك الشأن بالنسبة إلى درهم الوزن الذي كان يزن نظرياً 7/10 المثقال ، أي 2,97 غ ، مقابل مثقال شرعي أي 4,25 غ ، وبالنسبة إلى نصف الدرهم أو القيراط ، والحبّة . انظر ، المقدسي ، 53 والهوامش 134 ، 138 ، 139 ، 140 ، 142 ، وبرنشفيك ، **إفريقية في العهد الحفصي** ، [الترجمة العربية ، 259/2-264] .

1م) [انظر ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ورقات ، 419/1-424 ، الصنوج] .

2) المقدسي ، 52-53 ، والهامش 141 ، انظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، الذيل ، 208/4 ، جورج مارسي وليفي بروفنسال ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1937 ، 6-11 وبالخصوص F. Viré ، الكرّاسات التونسية ، 1956 م ، 17-90 .

3) Objets Kairouanais ، 375/2 والهوامش .

4) المقدسي 50-51 .

5) نفس المصدر ، انظر أيضاً ، ج . مارسي وليفي بروفنسال ، المرجع المذكور .

وتناولت بالدّرس فتوى ، يبدو أنها صادرة عن المازري[6] ، قضيّة شخص « يتـولّى طبع المكاييل » بطابع القاضي ، بمحضر الأمير . وقد زُجّ به في السجن لأنه وُجد عنده طابع مماثل لطابع القاضي كان يستعمله لطبع المكاييل ، في غياب الأمير . فإن تصرّف المعني بالأمر عن حسن نيّة ، تُعتبر عقوبة السجن كافية ويُقتصر على تهديده ، لكي لا يرتكب نفس الخطيئة مرّة ثانية . وفي حالة العكس ، تُسلّط عليه العقوبة التي تستوجبها خطورة الجريمة .

وأكّد المقدسي أن الرطـل المستعمل في الكيل هو البغدادي ، ما عدا بـالنسبة إلى الفلفـل (البهار) ، إذ يفوق الرطل الفلفلي الرطل البغدادي بعشرة دراهم كيل . وهذا الرطل هو الرائج عهدئذ في بلاد المغرب التابعة للخليفة الفاطمي[7] .

وكان رطل تونس يزن 12 أوقية ويساوي 12 درهماً[8] . وقد أكّد البكري أن الرطل المستعمل في القيروان لوزن اللحم والتين وغير ذلك من الموادّ الغذائية ، يساوي عشرة أرطال فلفلي[9] . كما ذكر أنّ « الطعام » (أي القمح) يُكال في باغاية بالويبة التي تساوي 64 مُدّاً نبويـاً ، أي قفيزاً ونصف القفيز من مكاييل قرطبة . ويُكال الزيت بقفيز الزيت القيرواني الذي يساوي 5 أربـاع مكاييل قرطبة ، ويزن رطل اللحم 20 رطلاً فلفليّاً[10] .

وفي عصر المازري اعترفت امرأة غاب عنها زوجها في صقليّة منذ 5 سنوات ، بأنه ترك لها

---

6) البرزلي ، المختصر ، 143 و . وبما أنّ اسم المازري لم يتكرّر ذكره فلعل الأمر يتعلق ببقية الاستشهاد السابق المنقول عن التعليقة ، لأبي حفص عمر بن العطّار ، ولكنّ هذا الافتراض مستبعد على أن ذلك لا ينقص من قيمة النص ، بل بالعكس .

7) المقدسي ، 50-51 والهوامش 125-126 ، درهم كيل = 2,975 غ ، رطل بغدادي = 128 درهماً كيل = 380,8 غ ، رطل فلفلي = 380,8 غ +29,75 غ = 410,55 غ ، انظر ، برنشفيك ، المكاييل التونسية ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1937 م ، 86 ، والعهد الحفصي ، لنفس المؤلف [الترجمة العربية ، 264/2] .

8) المقدسي ، 52-53 والهامش 142 : أوقية = 37,776 غ ، رطل تونسي = 453,312 غ ، إذا افترضنا أن الدرهم الوزن يساوي 3,148 غ . وإذا كان الدرهم الكيل يساوي 2,975 فإن الأوقية تساوي 35,7 غ والرطل التونسي يساوي 428,4 غ . انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 260/2] ، يبلغ وزن الأوقية 31,48 غ .

9) البكري ، 27 ، برنشفيك ، المرجع السابق [الترجمة العربية 261/2] : الرطل العطاري = 16 أوقية ويبلغ وزنه 504 غ . ويستعمل لوزن الذهب والمواد الثمينة والمعادن ، والرطل السوقي الذي يساوي 18 أوقية ويزن 567 غ ويستعمل لوزن المواد الغذائية . وإذا كان الرطل الفلفلي يساوي 410,55 غ ، فإن الرطل المستعمل في القيروان لوزن المواد الغذائية يزن 4,105,5 غ .

10) البكري ، 145 : قفيز باغاية = 512 مدّا نبويا = 0,733 ل × 512 = 375 ل . وبالنسبة إلى البكري يساوي القفيز القيرواني 192 مدّا قيروانياً = 204 مـدّاً نبويّـاً = 0,733 ل × 204 = 149,532 ل والمدّ القيرواني يساوي : =

عدّة أشياء من بينها « رطلان بوزن صقلية من القطن المندوف »[11] . ويمكن أن نستخلص من ذلك أن الرطل المعمول به في إفريقيّة ، وبلا شكّ في المهدية ، كان يختلف عن رطل صقلية . ومن ناحية أخرى ، لا نعلم أي شيء عن قيمة القنطار في العصر الصنهاجي[12] .

وفي القيروان كانت الحبوب والموادّ الجافة تُكال بالقفيز الذي يساوي 8 ويبات ، وبما أن الويبة تساوي 4 أثمان ، والثمنة تساوي 6 أمداد ، فإن القفيز القيرواني كان يشتمل على 32 ثمنة و 192 مُدّاً قيروانيّاً[13] .

ولتقدير الزكاة ، كان الفقهاء يستعملون الصاع النبوي الذي يساوي 4 أمداد نبوية ، والوسق الذي يساوي 60 صاعاً نبويّاً . وقد حدّد ابن أبي زيد القيرواني نصاب الزكاة بخمسة وسوق (من الحبوب أو التمور) ، أي ستة قفيزات وربع القفيز ، فيكون النصاب حينئذ : 60 × 4 × 5 = 1200 مدّ نبويّ . وهذا يعني أن القفيز يساوي : $\frac{1200}{6,25}$ = 192 مدّاً نبويّاً ، باعتبار أنّ المدّ النبوي يساوي بالضبط المُدّ القيرواني[14] . ولكن العلاقة بين المدّ النّبوي والمدّ القيروان قد تغيّرت .

$\frac{149,532}{122}$ ل = 0,7788 لتر . انظر برنشفيك ، المكاييل ، المجلة الإفريقية ، 1935 ، 87-88 . إدريس ، المكاييل ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 119-126 . وإذا كان الرطل الفلفلي يساوي 410,55 غ فإن رطل اللحم في باغاية يساوي 8211 غ .

11) فتوى المازري ، المعيار ، 236/3 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 64/2 ظ .

12) برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 261/2] : يساوي القنطار مائة رطل ذات 16 أوقية أي 50,4 كغ . وفي بجاية وتونس يساوي قنطار الكتان 150 رطلاً أي 75,6 كغ . وفي عنابة كان القنطار يزن 4 أرطال من القنطار المعمول به في بجاية وتونس أي 48,3 كغ .

13) في فتوى للمازري ، المعيار ، 236/3 أشير إلى قفيز قمح وثُمنيّة ، ولكن البرزلي قرأها ثُمنة ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 64 ظ . وإذا كان المدّ القيرواني يساوي 0,733 لتراً ، فإن القفيز القيروان يساوي 140,736 لتراً . المقدسي، 51 ، الهامش 128 : 144 لتراً ، وقد قدّر المدّ النبوي بـ 0,75 لتراً . برنشفيك ، [الترجمة العربية ، 262/2] : يساوي القفيز القيرواني 187,58 لتراً ويتجزأ إلى 16 ويبة ، تساوي كل واحدة منها 11,72 لتراً . ويساوي قفيز تونس الوسق الشرعي أي 175,92 لتراً ويتضمن 10 صفحات ، وتسمى الصفحة أيضاً ويبة وتساوي 17,59 لتراً . وتشتمل كل صفحة على 12 مدّاً ، ويسمّى المدّ أيضاً الصاع الذي يساوي 1,46 لتراً . ويساوي قفيز طرابلس حوالي 252 لتراً . وفي عنابة والقلّ وقسنطينة كان الناس يستعملون لوزن الحبوب الثمنة أي ثمن القفيز التي تساوي 23,13 لتراً في عنابة و 20,69 لتراً في القلّ . انظر إدريس : المكاييل في العصر الصنهاجي ، الكراسات التونسية ، 1956 ، 119-126 .

14) رسالة ابن أبي زيد، 128-129 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 226/1 ظ . وبالنسبة إلى سحنون أيضاً ، النصاب = 6,25 =

وكنّا في دراسة سابقة[15] قد استخلصنا من بعض النصوص المتعلّقة بهذا الموضوع النّتائج التالية :

1 ـ كان فقهاء القيروان في القرنين التاسع والعاشر من الميلاد ، يعتبرون أن المدّ القيرواني يساوي بالضبط المدّ النبوي .

2 ـ وفي أواخر القرن العاشر أو أوائل القرن الحادي عشر ، تحت تأثير اندفاع المذهب السنّي في العصر الصنهاجي ، اعتبر الفقهاء أن المُدّ القيرواني أقلّ من المُدّ النبوي .

3 ـ لا شيء يدلّ على أنّ المُدّ القيرواني قد تغيّر .

4 ـ لم يكن فقهاء القيروان متّفقين فيما بينهم حول قيمة المُدّ النبوي (المدّ المثالي الذي يحاولون تصوّره من جديد) ، وقيمة الفارق بينه وبين المُدّ القيرواني .

5 ـ بالنسبة إلى الحاجات الدينيّة العملية ، استنبط الفقهاء مُدّاً يساوي مُدّاً قيروانياً وثُمن المُدّ ، ولعلّ هذا الثُمُن يمثّل أقصى فارق مفترض بين المُدّين ، إذ أن أهل القيروان يعتبرون أن الفارق بين المدّ المحلّي والمدّ النبوي النظري يبلغ 6 أمداد ، بالنسبة إلى القفيز الواحد .

6 ـ وقد اعترض بعض الأجانب على نظرية فقهاء القيروان في القرن الحادي عشر .

7 ـ يبقى من الصعب التعرّف على مصير الإصلاح الذي تمّ في القيروان في العصر الحديث ، وتوضيح الظروف التاريخية التي حفّت بتحديد المُدّ النبوي بما قدره 0,733 لتراً في بلاد المغرب الشرقية .

وبالنسبة إلى الزيت ، كأن المكيال المستعمل يتمثل في قفيز الزيت الذي يساوي ثلاثة أرطال

قفيز قيرواني ، المعيار ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 225/1 ظ انظر ، إدريس ، المرجع السابق ، وينبغي أن تضاف إليه المعلومات الموالية . المقري ، طبعة 1949 ، 271-270/3 . وأجاز السيوري (المعيار ، 55/2) قضاء الكفارة بالمدّ القيرواني بلا زيادة . ولكن فيما بعد ، في فتوى صادرة عن اللخمي ، المعيار ، 289/9 ، تساءل أحدهم هل ينبغي قضاء الكفّارة بالمدّ القيرواني أم بالمدّ « الوافي » ؟ فتوى ابن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبدالوهاب، 9227/2 ومخطوط الرباط ، 72/2 ظ : أراد سكان بلدة التنقيص من الصاع القديم ، ولا شك أن الأمر يتعلق بالصاع الشرعي المعروف بالصاع النبوي لتحويله إلى صاع قيرواني . وإذا كانت هذه العملية صحيحة ، فهل يمكن أن تتم في فترة قحط وحسب الاقتضاء من طرف بائع طعام ؟ وقد أجاب المفتي بما يلي : إذا كان هذا المكيال شائعاًبين الناس فلا ينبغي تغييره بلا ضرورة . وهذا دليل آخر على أن المدّ القيرواني أقلّ قيمة من المدّ الشرعي ، وعلى استمرارية نظرية فقهاء القيروان حول هذا الموضوع ، بعد مدّة طويلة من غزوة بني هلال .

15) الهادي روجي إدريس ، المرجع المذكور ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 126 .

فلفلية ، والمطر الذي يساوي خمسة قفيزات زيت[16] ، والقلّة التي ربّما كانت تساوي ثلاثة أمطار[17] . كما تستعمل أيضاً الحفنة والقبضة[18] .

وقد أشارت المصادر إلى مقياس واحد للمساحة في العصر الصنهاجي ، وهو الزَّوْج الذي يعادل المساحة المحروثة بواسطة دابّتين مقرونتين في الموسم الواحد[19] .

وممّا لا شكّ فيه أنّ مقياس الطّول كان يتمثل عصرئذ في الذراع وتقاسيمه وهي : الشبر والقبضة والإصبع . كما يتمثّل في قامة الإنسان التي يتراوح طولها بين 1,65 و 1,70 متراً[20] .

وربّما كانت المسافات تُقدَّر بالميل (1,453 متراً) الذي يشتمل على 1000 خطوة (وتساوي الخطوة 1,45 متراً أي 3 أذرع) . وتُقدَّر أيضاً بالساعة والمرحلة (المسافة التي يقطعها المترجّل في اليوم)[21] .

---

16) البكري ، 27 ، انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 262/2] : يبدو أن مطر تونس وجربة كان يساوي 20,69 لتراً في العصر الحفصي .

17) فتوى القفصي واللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 37/1 و : حوّل شخص زيتاً من « خابية » تحوي حوالي 11 مطراً إلى خابية أخرى تحوي ما يعادل ثلاث « قلال » تقريباً . وحول الجرّة الحفصيّة « التي يبدو أنها كانت تساوي في تونس ثلاثة أمطار أو حوالي خمسين لتراً ، بدون أن نعلم هل أن تلك العلاقة بين المطر والجرّة ، كانت مضبوطة بدقة أم لا » ، انظر ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، [الترجمة العربية ، 262/2] .

18) نفس المرجع .

19) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 8/144-145 ، البرزلي - مخطوط الرباط ، 193/2 ظ ، انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، 264/2 .

20) الإدريسي ، 136 ، 261 ، برنشفيك ، نفس المرجع : الذراع = 0,48 متراً ، الشبر = 0,24 متراً (نصف الذراع) ، القبضة = 0,08 متراً (4 أصابع وسدس ذراع) ، الأصبع = 0,02 متراً (الجزء الرابع والعشرين من الذراع) . واستعمل الإدريسي ، 139 ، الذراع الرشاشي الذي يساوي 3 أشبار ، ويقول المقري إنه « الذراع المكي المعروف بالرشاشي » ، ستوريا ، 209/2 ، الهامش 3 .

21) برنشفيك ، نفس المرجع ، 264/2 .

الفصل السّابع
التجـارة الداخليّـة

لقد كان الوسطاء يقومون بدور أساسي في التجارة خلال العصر الصنهاجي ، فكان يُعهَد بدنانير وحليّ (من الذهب) إلى الصيارفة ، وبعبيد ودوابّ إلى النخّاسين[1] . وكـان السماسرة والدّلالة (دلّال) يقـومون بنشـاط حثيث . ويبدو أن بعض السماسرة كانـوا بمثابـة « الوكـلاء الطوّافين » (المتنقّلين)[2] . وكانت أجورهم تثير عدّة نـزاعات[3] . وكـان المنادي (الـدلّال) يتقاضى أجرة ، حتى ولو لم يبع السلعة التي يعرضها على الحرفاء . وقد عُهِدَ بكمية من السكّر إلى سماسرة متتابعين . والتمس أحد المشترين من سمسار أن يوفّر له ملابس من الحرير .

وقبل غزوة بني هلال كان الوسطاء يبيعون لحساب الغير الملابس والدوابّ والعبيد على وجه الخصوص . وقد أشارت بعد المصادر إلى شركة مكوّنة بين عدد من السماسرة[4] . وأثبتت مصادر أخرى وجود سندات بأتمّ معنى الكلمة ، تأذن المُرسَل إليه بتسليم مبلغ معينّ إلى حاملها[5] .

ولم يعترف القابسي بصحّة عقد مبرم بين شخصَيْن متعاملَيْن تعهّداً بمقتضاه بإعطاء ممتلكاتها لمن يبقى منهما على قيد الحياة بعد وفاة الآخر[6] . كما استنكر ، على غرار الإمام سحنون ، إقراض كميّة من الشعير إلى أشخاص يتعهّدون بإرجاعها من المحاصيل الزراعية الموالية[7] .

---

1) فتوى أبي محمد بن أبي زيد ، المعيار ، 8/199-211-212 .

2) المعيار ، المصدر المذكور . ومن الجدير بالذكر أن الإبياني (ت . 352هـ/964م) قد ألف مجموعة عنوانها « مسائل في السماسرة » نُقلت مقتطفات منها في المعيار ، ويملك ح . ح . عبد الوهّاب مخطوطة منها . نقائش عربية ، 1/386-387 : قبريّة ستّ الأهل بنت أحمد بن إبراهيم السمسار الأبزاري ، توفيت في 421 هـ/1030 م .

3) فتاوى أبي محمد بن أبي زيد والقابسي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، المعيار ، 5/176-177 ، 8/198-199 .

4) أبو عمران الفاسي ، نفس المصدر ، 8/226 .

5) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 9/76 ، مناقب ، 30-221 .

6) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/99 .

7) فتوى القابسي ، البرزلي ، المختصر ، 68 ظ ، 69 و .

ولقد استحوذ بنو هلال على معظم الماشية الإفريقية وفرضوا على الفلّاحين ضرائب عينيّة . كما أصبحوا يتحكّمون في الطرقات ، وقد وظّفوا رسوماً على القوافل ، وتولّوا حمايتها مقابل دفع معاليم مالية ، بل كانوا يسهرون على تنظيمها ، هم بأنفسهم[8] .

وأشارت بعض الفتاوى إلى ما أسفرت عنه غزوة بني هلال من عواقب وخيمة على اقتصاد البلاد ، تتمثل بالخصوص في تقلّبات الأسعار والابتزازات وأعمال النهب . وقد خشي تاجر في القمح والشعير والزيت أن يصبح محتكراً ، على كُرْهٍ منه[9] .

وعرض سمسار للبيع حمولات من حبوب الحنّاء لحساب مُوَكِّليه ، فبلغ القنطار ثمناً معلوماً ، واشترى بعض الناس (كميّات قليلة لا محالة) لزرعها . وكان أحد التجّار يشتري أحياناً كامل الكميّة لبيعها فيما بعد بالتفصيل بأرباع معيّنة . وقد أقرّ المفتي صحّة هذه الصفقة ، شريطة أن لا تضرّ بالمصلحة العامّة[10] .

وانتشر البيع « بالثمن المؤجّل » في المدن والبوادي . من ذلك أنّ رجلاً قد وظّف رأسماله في التجارة ، فكان حرفاؤه يسدّدون المبالغ المتخلّدة بذمّتهم بالتقسيط (الثلث ، والربع ، وهلمّ جرّاً . .) ، مع تداخل آجال الدفع بسبب سوء نيّة المدينين ، فاستفسر التاجر عن كيفيّة أداء الزكاة . وأجاب اللخمي أنه يتعينّ عليه أداءها على غرار « المُدير » ، أي التاجر الذي يشتري ويبيع بالسعر الجاري به العمل ، مع تجديد التموينات بحسب الحاجة . كما يجب عليه ضبط حساباته في آخر كلّ سنة ، بتقويم السّلع التي بين يديه ، على أن يتمتع بمهلة شهر لتسديد ما يتعينّ عليه دفعه[11] .

وباعت امرأة منزلاً بمائتي دينار مدفوعة بحساب أربعة دنانير في الشهر[12] . كما بيعت كميّة من الصابون « في آخر الموسم » بسعر يتراوح بين 13 و14 دينار القنطار . وحسب « العارفين في التجارة » ، يسوى القنطار في أوّل الموسم 10 دنانير ونصف الدينار ، وفي منتصف الموسم ما بين

8) فتاوى السيّوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 222/1 و . ظ . المختصر 26 و ، 26 ظ ، المعيار ، 295/1 ، فتاوى المازري حول جواز شراء اللحم من المجزرة ، نفس المصدر ، 213/6 ، 223-225 ، 421/9-422 .

9) فتوى ابن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 226/2 و . ظ . مخطوط الرباط ، 71/2 و . ظ .

10) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 226/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 71/2 ظ .

11) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر 235/1 و . ظ . وجاء في فتوى للمازري أنّ بضاعة بيعت بالثمن المؤجل تسوى أغلى من المباعة بالثمن النقد ، المعيار ، 103/6 .

12) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 172/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 12/2 ظ .

11 و 11 دينار ونصف الدينار . ولا شكّ أنّ المقصود بالموسم فترة جني الزيتون وصنع الزيت[13] .

ولاذ بالفرار رجل أعمال كان يستثمر أموال جميع سكّان إحدى المدن ، بل كان يتّجر مع بعض « مستغرقي الذمّة »[14] .

وأقرض ذمّي دنانير إلى تاجر في سوق الزيت . فاعترف هذا الأخير بتسلّم ذلك المبلغ الذي اشترى به زيتاً بإذن من دائنه الذي ادّعى أنه لم يتسلّم سوى ثمانية دنانير[15] .

ويرى فقهاء المالكية أنه لا يجوز شرعاً إبرام أيّة صفقة مع النهّابين الهلاليّين المثقلين بالديون . وينبغي للرجوع إلى حظيرة المجموعة ، أن يتوب هؤلاء المارقون ويتصدّقوا بما اكتسبوه من أموال في السابق . إلاّ أن الفقهاء قد اضطرّوا إلى التخفيف من هذه الأحكام المتشدّدة ، فسمحوا للتائب بتسديد ما تخلّد بذمّته شيئاً فشيئاً[16] .

وفي عصر المازري ، كان أهل البادية مضطرّين في أيّام الحرب إلى شراء قوتهم بالتأجيل . وعند الحصار لم تكن لديهم الأموال اللاّزمة لتسديد ديونهم ، إنما لديهم « الطعام » (أي الحبوب) ، فيكون الدائن مضطرّاً إلى قبول ذلك الطعام ، خوفاً من عدم تمكّنه من استيفاء حقّه ، نظراً لفقر المدينين وانعدام الحكّام في البادية . وقد أفتى المازري بجواز تسديد سعر الطعام المُقترَض بالطعام . فإذا تعذّر على المدين تسديد دينه نقداً ، يجب عليه أن يكلّف شخصاً ببيع طعامه في العاصمة ، حتى يتسنّى له تسديد دينه نقداً[17] . ويبدو أن المازري قد سمح في فتوى أخرى للدائنين باستيفاء حقّهم عيناً ، متعلّلاً بالضرورة وفقر المدينين وغياب الحكّام في البادية وتسامح المذهب (المالكي) في مثل هذه الحالات[18] .

---

13) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب ، 182/2 و . ظ ، مخطوط الرباط ، 23/2 و .

14) فتوى المازريَ ، المعيار ، 417/9 .

15) فتوى المازري ، نفس المصدر ، 293/2 .

16) فتوى السيوري ، نفس المصدر ، 411/11 ، فتوى المازري ، نفس المصدر ، 6/104-105 ، 6/102-103 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 231/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 78/2 و : إشارة إلى رأي اللخمي في كتاب الأكرية حول منع مساعدة عرب إفريقية ، بتمويلهم أو منحهم حق اللجوء إلى الزوايا للهروب من الذين يريدون الانتقام منهم . ويبدو أن هذا المنع قد جاء متأخّراً ، انظر ، المعيار ، 50/6 .

17) فتوى المازري ، البرزلي ، المختصر ، 68 ظ ، 69 و . المعيار ، 214/6 ، 226-227 ، 313/10 .

18) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 47/2 و . ظ .

وأمدّتنا فتوى أخرى لنفس الفقيه[19] بمعلومات حول الأهمية التي يكتسيها المصرف في العمليّات التجارية والتعامل بالأوراق المالية في مدينة المهديّة على الأرجح .

« وكان الكتّانون والقطّانون والزيّاتون والجزّارون والحنّاطون »[20] يدفعون ما تحصّلوا عليه من دراهم للصّيارفة الذين يتعهّدون بتسديدها إليهم فيما بعد بالدنانير . ويبدو أنّ هذه العمليات الربويّة ، حسب الفقه المالكي ، كانت موضوع عقود لم نتعرّف على صيغتها ، ويا للأسف . وكان هؤلاء التجار بالجملة (؟) لا يسدّدون ثمن السّلع أو الحبوب المُسلّمة إليهم من طرف تجار آخرين والمقوّمة بالدينار ، بل يدفعونه بواسطة الديون المتخلّدة في ذمّة الصيارفة . ويتعلّق الأمر « بحوّالة » ، أو تحويل دين إلى حساب الغير . فالبائع هو المدين « المُحيل » ، والمزوّد هو الدائن « المُحَال » ، والصيرفي هو المدين « المُحَال عليه »[21] . إلاّ أنّ المزوّدين الذين لا يدركون دائماً طريقة الدفع بالحوّالة ، كانوا يخشون عدم قبض الذهب مقابل السلع التي باعوها . فهل نفهم من ذلك أن الصيارفة كانوا يسدّدون ثمن تلك السلع بالدراهم ؟ ومن ناحية أخرى فإن معظم أولئك التجار كانوا فقراء بلا حماية[22] .

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن المصارف كانت تتحكّم في جميع العمليّات التجارية وتُحابي التجّار الكبار على حساب الصغار الذين هم في وضع غير ثابت . وكانت الصفقات المقدّرة بالذهب الصّوري ، تتمّ عملياً بواسطة الفضّة ، نظراً لقلّة المسكوكات الذهبيّة . ذلك أن غزوة بني هلال قد أوقفت تدفّق الذهب السوداني . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن الفوضى قد تفاقمت حتى جعلت إفريقيّة مضطرّة إلى شراء الحبوب من صقلية . وبما أنّ النرمان كانوا يشترطون تسديد ثمن سلعهم بالذهب ، فقد لوحظ نزيف حقيقي للمعدن الأصفر ، وتميّز الوضع في المهدية بنقص فادح في الذهب ، وضرورة اللجوء إلى أعمال القرصنة للحصول عليه (الاستحواذ على السلع الثمينة وقطع الذهب ، والقبض على أسرى النصارى ثم إطلاق سراحهم مقابل فدية مدفوعة ذهباً) .

وفي عصر اللخمي كان الجزّارون ، ولا سيما أشدّهم فقراً ، يجدون صعوبة كبرى لشراء

---

19) فتوى المازري ، المعيار ، 212/6 ، 219 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب 3/ الكراس 36 ، 8 و . مخطوط الرباط ، 106/2 ط ، 107 و .

20) [أي باعة الكتّان والقطن والزيت واللحم والحبوب] .

21) وحول هذه المصطلحات انظر ، سيّوس ، 31 ، 139-140 ، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، 284/3-298 .

22) لقد تم تحريف الجملة الأخيرة من السؤال ، حسبما يبدو ، وهي ربّما تشير إلى أن المعنيّين بالأمر كثيراً ما يضطرّون إلى الإفلاس .

الأكباش من العرب أو البربر ، بسبب وجود « تاجر السلطان » الذي كان يستحوذ على الحيوانات ثم يبيعها بثمن مرتفع . وكان الجند والعبيد يقومون هم أيضاً بمثل هذه العمليّات[23] . وقد أصبح من الصعوبة بمكان شراء اللحم الحلال من الجزّارين[24] .

ولم نعثر في المصادر على أيّ أثر لعمليّات الاحتكار السلطانية[25] . والجدير بالتذكير في هذا السياق أنّ خزّانات الحبوب التابعة لابن العظيم[26] ، قد نُهِبَت أثناء الأحداث المعادية للشيعة التي جدّت بمدينة تونس في سنة 406 هـ/ 1015-1016 م[27] . ولعلّ هذا الرجل الشيعي كان يضارب على حساب بؤس الشعب . وقد أشارت الفتاوى الصادرة في العصر الصنهاجي إلى أعمال المضاربة على الحبوب[28] .

ويمكننا أن نتصوّر كيف كانت بعض البيوعات المؤجلة المصحوبة بقروض ، يقال : إنها كانت تُمنَح بلا فائدة . وقد كان بعض التجّار متخصّصين في هذا النوع من المتاجرة في الزيوت أو الحبوب[29] .

وممّا لا شكّ فيه أن كثيراً من مظاهر الأساليب التجارية أو المبادلات الداخلية قد فاتتنا . ولكن يمكننا أن نفترض أنّ أغلب العادات المعمول بها في هذا الميدان وفي كثير من الميادين الأخرى ، كانت مطابقة في الجملة لتقاليد متواصلة من العصر الأغلبي ، إلى عصرنا هذا ، مروراً بالعصر الحفصي[30] .

وكانت عمليّات الإبحار بين مرافىء إفريقية نشيطة جدّاً (طرابلس ـ صفاقس ، صفاقس ـ قابس ، الخ . .)[31] .

---

23) فتوى اللخمي متبوعة بملاحظات البرزلي حول عمليات مغارسة مماثلة جرت فيْ عصره في تونس والقيروان ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 48/2 ظ ، المختصر ، 69 ظ .

24) حسب رأي المازري والسيوري وأبي عمران الفاسي ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 47/2 ظ ، 48 و .

25) انظر أيضاً : المعزّ ، 174 نقلاً عن الخطط ، 110/1 : كانت الحكومة الفاطمية تحتكر بعض المواد المعدنية مثل الشبّ والنطرون وبعض المواد الصبغية مثل الشنط . وتسمّى المصلحة التي تمارس هذا الاحتكار : « ديوان المستغلّات » .

26) مناقب ، 299 .

27) فتوى المازري ، المعيار ، 213/6 .

28) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 182/2 ظ .

29) فتوى المازري ، المعيار ، 205/8 .

30) انظر ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، الباب الحادي عشر .

31) البرزلي ، مخطوط الرباط ، 162/2 ظ ، المختصر ، 89 و ، المعيار ، 129/8-130 : فتويان نسبهما البرزلي إلى البرقي =

الأسعار ومستوى المعيشة :

لقد قدّمت إلينا ترجمة أبي سعيد خلف بن محمد الخولاني (ت . في حدود سنة 408 هـ/ بعض الإيضاحات حول مستوى المعيشة : كان هذا المتعبّد خيّاطاً « وكان رأسماله مقصّاً بنصف درهم وحلقة (قمع الخياطة) بربع وإبرة بخروبة . وكان إذا خاط بدرهمين لا يخيط شيئاً حتى ينفقهما في اثنين وثلاثين يوماً ، كلّ يوم خرّوبة . فإذا فرغ ذلك ، خاط كذلك بدرهمين ، ولو قيل له تخيط ثوباً بمائة دينار لم يفعل حتى يفرغ الدرهمان ، وكان يدرس الشهر كلّه . وانصرف يوماً من مجلس أبي محمد بن أبي زيد وعليه أطمار كأنما نفشت من القبور ، فنظر إليه أبو محمد والى ثيابه ، وسأل عنه ، فقيل له : والله ما يلبس هذه إلاّ يتجمّل بها في الميعاد ، وأمّا ما يقطع به الأيام ففرو يساوي درهمين . فبعث إليه أبو محمد بن أبي زيد بصرّة فيها خمسون ديناراً ذهباً ، فأبى أن يقبلها على شدّة فقره وحاجته وقال : إنّما قوتي كلّ يوم خرّوبة ، آخذ بها خبزاً ، فتصبّ عليه الوالدة مرق بقل أو ما تيسّر وتهيّا »[32] .

وكان سعر الزيت في صفاقس يتراوح حسب السنوات بين ستين ومائة قفيز مقابل دينار واحد[33] .

وفي سنة 395 هـ/ 1004 م « اشترى أبو علي حسن بن خلدون البلوي ثورَيْن لم يُرَ أحسن منهما بإحدى وأربعين مثقالاً ذهباً »[34] .

وكان سعر البغل يساوي ، حسب بنيته ، حوالي ثلاثة أو ستة أو تسعة دنانير[35] . وكان الجمل يباع بحوالي تسعة دنانير[36] .

والمعيار إلى البوني . ونحن نفترض أن الأمر يتعلق بعبد الملك مروان البوني (ت . قبل سنة 440 هـ/1048 م) تلميذ القابسي . انظر أيضاً ، الهادي روجي إدريس : فقيهان . . . ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 193 .

32) معالم الإيمان ، 3/195-196 . وجاء في نفس المصدر ، 3/94 ، أنّ أبا الحسن الدبّاغ (ت . 359 هـ/969-970 م) ، رغم ثروته ، حيث كان يملك فندقاً « له غلّة كثيرة عظيمة » ، قد كان يكتفي بأربعة دنانير في كلّ شهر ، « اثنين لصدقته واثنين لنفقته » ، الهادي روجي إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 1/30 ، المدارك ، 2-3/153 و : اشترى الممّسي (ت . 333 هـ/944-945 م) ثوب امرأة بستة دنانير .

33) ابن حوقل ، 1/70 .

34) معالم الإيمان ، 3/190-191 .

35) فتوى المازري ، المعيار ، 8/115-116 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/141 و . ظ .

36) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/430 .

وقد أكّد ابن حوقل على الرخاء الذي كان سائداً في المغرب ، وعلى بخس الأسعار[37] .

وإثر غزوة بني هلال بيعت أمَة بحوالي خمسين ديناراً[38] .

وفي غدير وارو بالمغرب الأوسط كان قنطار العنب يباع بدرهم واحد[39] .

وكان حمل الجمل في قسطيلية وقابس يسوى درهمين[40] .

واندهش المقدسي[41] من بخس الأسعار بالقيروان ، إذ يستطيع الإنسان أن يشتري بدرهم واحد عشرة أرطال لحم أو عشرين رطلاً تين . ثم قال : ولا تسأل عن سعر الزبيب والتمر والعنب الطريّ والزيت ! .

ولكن هناك عنصر مقلق . فقد كانت إفريقية عرضة للمجاعة كلّ عشر سنوات تقريباً لا سيما خلال السنوات 395 هـ/ 1004-1005 م و413 هـ/ 1022-1023 م و425 هـ/ 1033-1034 م و432-433 هـ/ 1040-1042 م[42] .

وقد وصف لنا أبو إسحاق الرقيق وصفاً مؤثراً مجاعة سنة 395 هـ :

« كانت بإفريقية شدّة عظيمة ، انكشف فيها السّتور ، وهلك فيها الفقير ، وذهب مال الغنيّ ، وغلت الأسعار ، وعدمت الأقوات . وجُلي أهل البادية عن أوطانهم ، وخلت أكثر المنازل ، فلم يبق لها وارث ، ومع هذه الشدّة وباءٌ وطاعون ، هلك فيه أكثر الناس من غنيّ ومحتاج ، فلا ترى متصرّفاً إلا في علاج ، أو عيادة مريض ، أو آخذ جهازميّت، أو تشييع جنازة ، أو انصراف من دفن . وكان الضعفاء يُجمَعون إلى باب سالم ، فتُحفَر لهم أخاديد ويُدفَن المائة والأكثر في الأخدود الواحد ، فمات من طبقات الناس وأهل العلم والتجّار والنساء والأطفال ما لا يحصى عددهم إلاّ خالقهم تعالى ، وخلت المساجد بمدينة القيروان ، وتعطّلت الأفران والحمّامات . وكان النّاس يوقدون أبواب بيوتهم وخُشُب سقوفهم . وجاء خلق من أهل الحاضرة والبادية إلى

---

37) ابن حوقل ، 97/1-98 .
38) فتوى اللخمي ، المعيار ، 456/9 .
39) البكري ، 60 .
40) المقدسي ، 26-27 .
41) نفس المصدر ، 26-27 .
42) البيان ، 256/1-257 ، انظر أيضاً ، الكامل ، 77/9-136 .

جزيرة صقليّة . وكانت الرمّانة بدرهمين للمريض في ذلك الوقت ، والفرّوج بثلاثين درهماً . وقيل : إنّ أهل البادية أكل بعضهم بعضاً »[43] .

وأضاف الرقيق قائلاً :

« وفي سنة 396 هـ ، كثر الخصب بإفريقية ، ورخصت الأسعار ، وارتفع الوباء عن النّاس »[44] .

وليس من باب الصدفة أن تشير بعض الفتاوى الصادرة بعد غزوة بني هلال إلى الوسائل المستعملة ضدّ الحمل ، مثل « إسقاط الجنين » و« العزل » ، الأمر الذي يدلّ على رغبة بعض الناس في عدم الإنجاب أو على الأقلّ تحديد النّسل نظراً « لفساد الزمان »[45] .

---

43) البيان ، 256/1-257 ، انظر أيضاً ، الكامل ، 77/9 والنويري ، 126/2 ، والمعالم ، 160/3 ، 190 ، 191 .

44) البيان ، 257/1 .

45) فتوى اللخمي وابن الصائغ ، المعيار ، 266/3-282 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 121/2 و ، المختصر ، 58 ظ .

الفصل الثامن
التجارة الخارجيّة

التجـارة البحريّـة :

كانت التجارة الخارجيّة لبلاد المغرب الشرقيّة تتمثّل أساساً في التجارة البحرية وكانت مرتبطة ارتباطاً متيناً بالوضع السائد في البحر الأبيض المتوسّط ، حيث كانت المنافسة على أشدّها . ففي سنة 1091 م (484 هـ) أصبح الكُنت رُجار الأوّل يتحكّم في صقلية بأسرها . وكان قبل ذلك قد استولى على منطقة بوبي (1071 م) ومنطقة أمالفي (1073 م) وإمارة سالرنو (1076 م) . كما استقرّ النرمان في دورازو وفالونا في البحر الأدرياتيكي وأصبحوا يهدّدون مدينة البندقية بالاختناق . وقد جازى الامبراطور البيزنطي أليكس كومين البندقية بمنحها في سنة 1082 م امتيازات جديدة ، بالإضافة إلى الامتيازات التي كانت قد حظيت بها في سنة 992 هـ . وأصبح تجار أمالفي المقيمون في الامبراطورية البيزنطية مرغمين على دفع ضريبة الكنيسة القديس مارك . ولم يكن باستطاعة أيّ بلد في أواخر القرن الحادي عشر منافسة البندقية تفوّقها التجاري في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسّط ، في حين بدأت تتأهّب بيزة وجنوة ـ المزاحمتان للبندقية فيما بعد ـ ثم مرسيليا في فترة لاحقة ، للاستفادة من انتعاش التجارة في جنوب إيطاليا وجنوب فرنسا (البروفانس) ، قصد التنافس في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط[1] .

وقد تضايقت المبادلات التجارية بين إفريقيّة الصنهاجية والبلاد المسيحيّة ، من جرّاء منع النصارى من بيع الأسلحة والخشب المعدّ لصنع السفن للمسلمين[2] ، بصرف النظر عن

---

1) الكامل ، 82/10 ، ستوريا ، 180/3 ، بيران Pirenne ، التاريخ الاقتصادي ، 174 ، Boissonnade ، نشرية قسم الجغرافيا ، 1929 م ، 1-37، A.R. Lewis ، Navalpower ، 206-224 ، كريستيان كورتوا ، Ch. Courtois ، ملاحظات حول التجارة البحرية في شمال إفريقيا في القرن الحادي عشر ، تحية جورج مارسي ، 2/51-59 .

2) Sayours، 36 ، انظر أيضاً : R.S. Lopez و I.W. Raymond ، Medieval trade in medeterranean world ، نيويورك 1955 م ، 333-335 .

الإجراءات التي اتخذها حكّام البندقية والبابا غريغوار السابع لمقاومة الخناسة[3] . والحال أنّ بني زيري قد كانوا في حاجة ملحّة إلى استيراد الأسلحة وبالخصوص الخشب اللاّزم لأسطولهم ، وتصدير العبيد الذين كانت تجارتهم رابحة . إلاّ أن عمليّات التهريب لم تفتر أبداً ، بل تواصلت بصورة شبه رسميّة ، وربّما على نطاق أضيق ممّا كان متوقّعاً ، لو لم تُمْنَع بصورة رسميّة .

وكان قسم كبير من التّجارة البحريّة يتمّ مباشرة ، سواء من قِبَل أمراء بني زيري بالمهديّة ، أو من قِبَل ملوك النّرمان بصقلية ، لحسابهم الخاصّ . ولم تكن تلك العمليّات التجاريّة الرسميّة معفاة فقط من الرسوم الراجعة إلى الأمير المنظّم لها ، بل كانت تتمتّع أيضاً بإعفاءات هامّة وتخفيضات في الأداءات الجمركية ، كان الملوك يمنحونها بعضهم لبعض[4] .

وفي قضيّة صفاقس ، ربّما كان الدافع لردّ فعل الأمير علي (بن يحيى) يتمثّل في رغبته في الاحتفاظ بالاحتكار شبه المطلق الذي كان يمارسه على استئجار السّفن التجاريّة ، أكثر ممّا كان يتمثّل في الاعتبارات السياسية . ولا شكّ أن إلغاء الأداءات الموظّفة على البضائع النرمانية ، لم يكن من أقلّ المزايا التي جناها النّرمان من احتلالهم لسواحل إفريقيّة .

العقـود البحريّـة :

نظراً لافتقارنا إلى الوثائق ، يصعب علينا توضيح الأهميّة النسبيّة التي كانت تكتسيها في العصر الصنهاجي صيغ العقود البحريّة الثلاث المعمول بها من قِبَل التجّار النصارى في علاقاتهم مع إفريقيّة وهي : القرض البحري والشركة البحريّة والشركة التجاريّة[5] . وقد أكّد سايوس أنّ عقد الشركة البحرية قد ظهر قبل مدّة قليلة من ظهور عقد القرض البحري في المعاملات التجاريّة بين جنوة وتونس[6] .

---

3) Schaube ، 23 .

4) كانار (M. Canard) ، رسالة من الخليفة ، 133-136 .

5) Sayous ، المقدمة .

6) Y. Renouard ، رجال الأعمال الإيطاليون في العصر الوسيط ، باريس ، 1949 م ، 14-31 ، Sayous ، المقدمة و 57-58 . يتمثل القرض البحري في تسليم صاحب رأس المال إلى تاجر مبلغ مالي أو في أغلب الأحيان بضائع ، ويتحصل ربّ المال على 3/4 الأرباح والتاجر على الربع ، مقابل عمله . وبالنسبة إلى الشركة البحرية يوفّر التاجر لا عمله فحسب بل أيضاً ثلث رأس المال . ويتحصل ربّ المال على ثلثَيْ حصّة رأس المال التي تبلغ 3/4 أي نصف مجموع الأرباح ، ويتحصل

أمّا شركة التوصية الإسلامية أو « القِراض » التي هي صيغة قديمة جدّاً قد استعملها الرّسول [ﷺ] ، فهي تتمثل في تقديم مبلغ مالي من طرف صاحب رأس المال إلى شخص مكلّف باستثماره في التجارة ، واقتسام الأرباح بالتساوي بين الطرفين حسب نسبة محدّدة من قبل[7] .

وممّا لا شكّ فيه أنّ القراض في صيغته المذكورة قد كان معمولاً به بكثرة في إفريقية في العصر الصنهاجي ، ونجد أمثلة عديدة لذلك في القرن الثالث عشر[8] . والجدير بالملاحظة أن المذهب المالكي قد جوّز القراض بالدنانير والدراهم ، مع التسامح في استعمال قطع غير مضروبة من الذهب والفضّة . وكان القراض بالعروض (البضائع) معمولاً به أيضاً في إفريقية على نطاق واسع ، على الأقلّ منذ القرن العاشر ميلادي ، وذلك حسب صيغة بارعة اعتنى ابن أبي زيد بتوضيحها في رسالته[9] . وتشتمل العمليّة على مرحلتَيْن مُميَّزتَيْن : يستلم العامل في القراض السلع التي سيبيعها في مكان بعيد ، مقابل أجرة معلومة ، ثم يشترك في الأرباح المتأتية من بيع تلك السلع . فالعامل هو في المرحلة الأولى مجرّد أجير[10] إلى أن يتمّ بيع العروض ، فسيصبح عندئذ شريكاً منتفعاً بالأرباح حسب الصيغة المتعارف عليها .

وقد أوضح ابن أبي زيد أنّ « للعامل كسوته وطعامه إذا سافر في المال الذي له بال . وإنّما يكتسي في السفر البعيد . ولا يقتسم (المتعاقدان) الربح حتى ينضّ رأس المال (أي يصبح ذهباً أو فضّة) »[11] . وتتراوح حصّة ربّ المال بين ثلث ونصف الأرباح .

وفي صورة نشوب خلاف ، بما أنّ المُقارِض هو من أهل الثّقة ، فإن أقواله تُصدَّق ، إلى أن يثبت ما يخالف ذلك . ومن الأفضل في بعض الحالات تصديق أقوال ربّ المال ، بشرط أداء اليمين[12] .

- التاجر على النصف الآخر ، أي 1/4 مقابل عمله وربع مقابل رأسماله . أمّا الشركة التجارية فهي شركة توصية وكانت في أوّل الأمر تجمّعاً عائليّاً للمصالح .

7) انظر حول القِراض ، ابن علي فاكر ، القراض في الفقه الإسلامي ، ليون باريس ، 1910 م ، وانظر أيضاً : برنشفيك ، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** [الترجمة العربية ، 257/2] ، Sayous ، 29 ، ابن أبي زيد ، الرسالة ، 216-217 .

8) برنشفيك نفس المرجع .

9) الرسالة ، 216-217 .

10) يقول القابسي في إحدى فتاواه : « العامل أجير » ، انظر المعيار ، 80/9 .

11) فتوى القابسي ، نفس المصدر 128/8-129 و 80/9-81 حيث ينبغي تعويض كلمة « سكّة » بكلمة « سلعة » .

12) فتوى ابن الضابط (ت . 443 هـ/1051-1052 م) ، المعيار ، 128/8 ، 268/2-272 .

والغالب على الظنّ أن القراض بالعروض قد أثار ، منذ ظهوره في القرن العاشر ، أي في عصر ابن أبي زيد ، مجادلات فقهيّة تواصلت بعد ذلك بمدّة طويلة ، إذ صرّح المازري أنّه عثر على رسالة بخطّ ابن أبي زيد يقول فيها : إذا أتاك فلان ، فخُذْ السّلع التي بين يديْه وأعطه أجره ديناراً ، وسدّد له ثمن بيع العروض بعنوان القراض . ثمّ أشار المازري إلى الصّعوبات التي أثارها عقد ينصّ في آن واحد على قراض وإجارة أو جُعْل[13] .

ويبدو أنّ العامل ، بعد جمع السّلع المسلّمة إليه وتلقّي الإذن من ربّ المال بأن لا يشتري أي شيء آخر ، يستطيع شراء سلع أخرى لحسابه الخاص[14] . ويمكن أن يستعمل العامل في القراض أحياناً جزءاً من المال المسلّم إليه للدخول في شركة ، دون أن يرخّص له ربّ المال في ذلك[15] .

ولا يجوز لصاحب رأس المال أن يطالب شريكه صاحب السفينة باقتسام الأرباح معه دون اعتبار أجرة السفينة الملقاة على عاتقه ولو بصورة جزئية[16] .

وبالنسبة إلى بيع السفن ، لا يتعلّق الأمر بالتجّار[17] ، لأنّ العمائر البحرية هي على ملك الملاّحين .

وقد قيل لنا : إنّ التجّار الذين يصاحبون أو لا يصاحبون سلعهم هم الذين يستأجرون السفينة ، حسب العرف الجاري به العمل . إلاّ أنّه يجوز أن يملك صاحب السفينة قسماً من الشحنة[18] . وبطبيعة الحال فإنّ السفينة المُستأجَرة كثيراً ما تكون ضحيّة القراصنة النصارى[19] . وتُدفَع أجرة طاقم السفينة مسبّقاً للقيام برحلة معيّنة . فإذا تعذّر على الملاّحين الوفاء بتعهّداتهم

---

13) فتوى المازري ، مخطوط الرباط ، 159/2 ظ ، ثم يلاحظ البرزلي أن معظم التجار في عصره (القرن الخامس عشر) يتعاطون القراض بالعروض التي يروّجها المُقارض شرقاً وغرباً ويتقاضى أجرة معلومة ثم يستلم المبلغ بعنوان القراض (نقداً) . البرزلي ، مخطوط الرباط ، 162/2 و . ظ ، المعيار ، 128/3-129 وقد نقل ابن مشكان ، من أواخر تلامذة المازري ، آراء ابن شبلون والتونسي والقابسي والمازري حول جواز القراض بالعروض . وصرّح هو نفسه أنه رأى وثيقة من هذا القبيل محرّرة بخطّ ابن أبي زيد .

14) المعيار ، 132/8 .

15) فتوى القاسي ، نفس المصدر ، 79/9-80 .

16) فتوى أبي محمد (ابن أبي زيد) ، نفس المصدر ، 130/8-191 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 163/2 و، المختصر، 89و.

17) انظر مثلاً فتاوى ابن شبلون (ت . 390-391 هـ/ 999-1000 م) حول « مسائل السفن»، البرزلي، المختصر، 108 و، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 177/2 ظ .

18) فتوى أبي حفص (عمر بن العطّار) والتونسي ، البرزلي ، المختصر ، 98 و .

19) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 188/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 226/2 ظ ـ 227 و ، المختصر ، 108 ظ .

لأسباب خارجة عن إرادتهم ، مثل تعرّضهم لعاصفة ، لا يطالَبون بأيّ تعويض ، ولكن يتعيّن عليهم تسديد رهونهم ، لأن الموانع تمثّل عاملاً من عوامل إبطال عقد الإجارة[20] .

وقد ادّعى بعض الركّاب أنهم أجّروا سفينة « لوكيل في المراكب » ، وأنّ لديهم رقاعاً بخطّ يده ، يعترف فيها بأنه تقاضى أجرة السفينة . فأنكر الوكيل وجود أيّ عقد وأكّد أنه لم يستلم أيّ مبلغ[21] .

التجـارة مع صقليّـــة :

لقد كان أهل إفريقية ، قبل غزوة بني هلال ، يتحوّلون إلى صقلية لتعاطي التجارة ، ويدوم غيابهم هناك عدّة سنوات[22] . وكان تموين البلاد مرتبطاً بوصول القمح الصقـلي ، لا سيما في سنوات القحط . وخلافاً لما كان متوقّعاً لم تشر الفتاوى الصادرة في العصر الصنهاجي إلى تصدير الزيت أو النسيج إلى صقلية مثلاً ، ولم تتعرّض إلّا لعقود القراض بالمال لشراء الحبوب . ومن الصّعب التسليم بأنّ كلّ تلك الفتاوى لا تهمّ إلّا سنوات القحط . ومهما يكن من أمر ، خلافاً لما سيحدث فيما بعد ، فإن إفريقية التي ربّما كانت مفتقرة إلى ما يكفي من الموارد الزراعية لتغذية عدد أكبر فأكبر من السكّان ، بفضل السّلم الزيريّة ، لا بدّ أنّه كان لديها مدخّرات هامّة من الذهب .

وقد أشارت بعض النصوص[23] إلى استئجار سفينة للقيام برحلة من صقلية إلى سوسة . فحـوّلت الريـح اتّجاهها إلى تونس ، حيث أرست ولكنها أُجبِرَت عـلى دفع « مغـرم أكثر من المتعارف »[24] ، أي ربما أكثر من الرسوم التي كانت ستدفعها على السّلع (القمح بلا شكّ) ، لو أرست في سوسة . ولذلك فقد عبّر بعض الركّاب عن الرغبة في تحويلهم إلى سوسة ، طبقاً لعقد الإيجار .

---

20) فتوى الداودي وأبي عمران الفاسي ، المعيار ، 186/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 223/2 ظ ، المختصر ، 107 ظ . ينبغي حسبما يبدو حذف « لا » النفي من جواب أبي عمران الفاسي « لا يذهب عملهم باطلاً » .

21) فتوى المازري ، المعيار ، 291/10 ، 187/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 226/2 و ، ونلاحظ عبارة « برطيل النّوتيّة » أي أجرة البحّار . وحول هذه الكلمة انظر : E.W. Lane ، An Arabic-english lexicon ، 189/1 .

22) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 201-98/3 ، البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب ، 57/2 و . ظ .

23) فتـاوى ابن شبلون وأبي سعيد (بن أخي هشـام) (ت . 371 أو 373 هـ/981-983 م) المعيـار ، 187-186/8 ، البرزلي ، المختصر ، 108 و ، مخطوط الرباط ، 225/2 و . ظ .

24) « مغرم أكثر من المتعارف » ، أي رسوم أعلى قيمة من المعاليم الموظفة عادة على البضائع .

وتسلّم « صاحب لوح »[25] (أي مركب) بعض الدنانير من ربّ المال الذي جلب له القمح ، وأخذ منه أجرة السفينة المتعارف عليها . وحسب هذا المثال يمكن أن يكون صاحب السّفينة في آن واحد ناقلاً للبضاعة ومُقارِضاً .

ورافق عامل في القراض السّلعة (المتمثلة في القمح) على متن سفينة مستأجرة لنقلها ، وأثناء الشحن تم تحرير « بيّنة » حول الكمية المشحونة وإبرام عقد حول أجرة السفينة ، أُطلِق عليه اسم « شَرَنْبل »[26] .

وأُرسِلَت دنانير إلى وسيط[27] في صقليّة لشراء القمح ، فأتمّ العملية ورجع بالحبوب . وكان من المفروض أن يتحمّل كلّ طرف من الطرفَيْن المتعاقدَيْن نصف أجرة السفينة ، إلاّ أنّ صاحب السفينة قد ظنّ أنّ المال على ملك العامل ، فأعفاه من دفع كامل الأجرة ، إمّا للتودّد إليه أو لشكره على خدمة قد يكون قدّمها إليه .

وكان شريكان يملكان سفينة ، فتحوّل أحدهما إلى صقليّة وسلّم إليه شريكه دنانير رُباعية ليشتري بها كميّة من الحبوب لحسابه . ولما عاد الشريك الأوّل من صقليّة أرجع إلى صاحبه المال الذي تسلّمه منه ، دون أن يستعمله ، وأتى بكمية من الحبوب خاصّة به . فهل هو مطالب بدفع حصّته من أجرة السفينة لا غير ، كما ادّعى ذلك ؟ وهل يتعينّ عليه دفع أجرة السفينة « طعاماً » (أي حبوباً) عند الإياب أم دراهم عند الذهاب ؟ الجواب : لقد تجاوز الشريك الأوّل حقوقه وعليه أن يدفع على الحبوب التي أتى بها لنفسه كامل أجرة السفينة المقدّرة بالدرهم أو بالدينار من

---

25) فتوى القابسي ، المعيار ، 79/9 .

26) المعيار ، 78/9 : فتوى القابسي حول مُقارض اشترى طعاماً بمال واستأجر سفينة لنقله . وقد شحن العامل القمح بلا بيّنة ولم يبرم الطرفان عقد شرنبل (كذا) ، لأن صاحب اللوح قد أشار عليه بعدم إبرام هذا العقد قائلاً له : « إن كلّ الطعام ملك كل ، إلاّ مالي أنا فيه » . ولما وصل المركب ، ادّعى الناقل أن له حقاً في جزء من القمح المنقول ، فسلّم إليه العامل كميّة منه إثر تسويه وديّة . فهل للعامل ضمان القمح الذي طالب به صاحب المركب ؟ أم يتعينّ عليه تسديده ، لأن « الطعام الحاصل » (أي القمح الصافي) قد تمّ بيعه ؟ الجواب : « إذا لم يتوثق العالم عند الشحن توثّقاً يعصمه من الدعاوى والإنكارات » ، فهو ضامن للقمح الذي احتفظ به النوتي حسب زعمه ، وذلك في المكان الذي بدأ فيه « التفريط » المتسبّب في إضرار ربّ المال . ويتعينّ عليه تعويض هذا الأخير بإعطائه نفس كمية القمح الموزونة . ويجوز للطرفين إبرام تسوية بالتراضي . وفي قضية الحال لا ينبغي اعتبار بيع القمح قبل استرداده . وفي البرزلي ، مخطوط الرباط ، 224/2 ظ ، والمعيار ، 186/8 ، وردت كلمة « شربيل » (عوض شرنبل) وكلمة « زمام » (أي الدفتر) .

27) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/76-77 ، « الواسطة » .

28) فتوى القابسي ، نفس المصدر ، 79/9 .

صقلية إلى ميناء الوصول ، وأن يسدّد ذلك المبلغ في المكان الذي صدر فيه الحكم[28] .

واشترك بعض التجّار في شحن كميّة من القمح ، على أن يأخذ كلّ واحد نصيبه منها[29] .

وسُلِّمت أكياس حبوب أو قِرَب زيت إلى ملّاح مكلّف بنقلها إلى المكان التي سيبيعها فيه ، دون استخلاص أجرة السفينة ، ثم شراء بعض السلع وجلبها ، مع الحصول على أجرة السفينة .

ويبدو أن المثالين الأخيرين يقيمان الدليل على تصدير القمح والزيت من إفريقية قبل غزوة بني هلال . ولكن كلّما أشير إلى استئجار سفينة لنقل الحبوب ، إلّا وكان الأمر يتعلّق باستيراد القمح الصقلّي[31] . ولكنّنا نلاحظ بعد الغزو اتّساع نطاق هذه التجارة وتحوّل عدد كبير من الإفريقيين إلى صقليّة ، حيث كانوا يقيمون مدّة طويلة[32] . وكانت السّفن القادمة من صقليّة تصل إلى إفريقية في الصيف[33] .

وجاء في فتوى للمازري[34] أنّ بعض التجار قد اشتركوا مع بعضهم للتحوّل إلى صقليّة قصد شراء الحبوب ، وحملوا معهم لهذا الغرض دنانير طرابلسية ومرابطية « من الذهب الجيّد » . فأمر صاحب السكّة في صقليّة بسبك تلك النقود وأدمج فيها ربع وزنها من الفضّة وحوّلها إلى دنانير رُباعيّة ليس لها رواج إلّا في صقلية[35] ، واحتفظ بوزن مجموع الفضّة الممزوجة في شكل دنانير رباعيّة . وبموجب ذلك ، تقاضى الإفريقيّون نفس الكمّية من النقود الذهبية ، مع انخفاض

---

29) وُجّه نفس السؤال في آنٍ واحد إلى ابن أبي زيد وأبي سعيد بن هشام وأبي محمد بن التّبان (ت . 371 هـ/981 م) ، المعيار 191/8 ، البرزلي ، المختصر ، 109 ظ .

30) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 51/9 .

31) انظر مثلاً : فتاوى أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهاب 178/2 ، المختصر ، 64 و . ظ .

32) فتوى المازري ، المعيار ، 236/3 ، البرزلي ، المخطوط المذكور ، 64/2 ظ : ذهب رجل إلى صقلية وغاب عن زوجته مدة 15 سنة . فتوى المازري ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 127/2 ظ : ذهب أبٌ وصهره إلى صقلية حيث غابا نحو السنتين .

33) فتوى المازري ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 127/2 ظ .

34) فتوى المازري وأبي الفرج التونسي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 243/1 ظ ، 245 و . ظ . مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 202 و . مخطوط الرباط ، 42/2 ظ ، 43 و ، 141 ظ ، المعيار ، 212/6-213 ، 220-222 ، 116/8 .

35) من بين الموانع الشرعية التي أشار إليها المازري في فتواه تمثيل الصليب في تلك النقود الصقلية

عيارها بنسبة 25%[36] . ثم تحدّثت الفتوى بإطناب عن الصعوبات الناشئة عن توزيع شحنة الحبوب بين الشركاء عند وصولها إلى المهديّة .

وفي أواخر عهد تميم ، قبل سنة 486 هـ/ 1093 م (تاريخ وفاة ابن الصائغ الذي سيأتي الحديث عنه بعد حين) ، وربّما بعد سنة 484 هـ/ 1091 م (انتهاء استيلاء النرمان على صقلية) ، أي في حدود 486 هـ/ 1091-1093 م ، روى المازري في نفس تلك الفتوى أنّ السلطان قد جمع أهل الفتوى ليأخذ رأيهم حول جواز السّفر إلى صقلية لشراء الموادّ الغذائية . ونظراً لصعوبة التوفيق بين الأحكام الشرعيّة وضرورة تموين السكّان ، حدثت بلبلة كبيرة داخل هذا المجلس العلمي . ورأى المازري أنّه لا يجوز للمسلمين الذّهاب إلى أرض خاضعة لسلطة الكفّار ، مهما كانت حاجاتهم المتأكّدة ، مستشهداً بهذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[37] . فينبغي حينئذ الاقتداء بالمسلمين الأوائل وتفويض الأمر إلى العناية الإلّهيّة . وقد صادق المجلس على هذا التأويل الذي تبنّاه المازري .

إلّا أن الحيرة التي تملّكت الفقهاء في الأوّل قد دفعت المازري إلى عرض المسألة على شيخه الجليل الإمام عبد الحميد بن الصائغ الذي أصدر فتوى مماثلة لفتوى تلميذه ، رغم تقدّمه في السنّ وإمساكه عن الفتوى منذ مدّة طويلة . وقد استند ابن الصائغ إلى حجّة أخرى لم يعتمدها المازري ، وهي تتمثّل فيما يلي : إذا ذهبنا إلى بلادهم سترتفع أسعار الموادّ الغذائية هناك ، وسيتسلّمون منّا أموالاً طائلة سيستعملونها لمقاومة المسلمين وغزو بلادهم .

ويبدو أنّ الصقليّين لم يصدّروا القمح إلى إفريقية لسببَيْن اثنين ، حسب رأينا : أوّلاً لأنّ المهديّة المفصولة عن منطقتها الخلفية لا تستطيع أن توفّر للصقليين سلعاً نافعة يرجعون بها إلى بلادهم ، وثانياً لأنّ هؤلاء حريصين على الاحتفاظ بالأرباح التي يوفّرها لهم ضرب النقود ، ومنع الإفريقيين من الانتفاع بها[38] .

---

36) وحول المعاهدة المبرمة بين بيزة وأبي إسحاق إبراهيم ملك تونس ، انظر ، ماس لاتري ، مكتبة مدرسة شارت 1848 ، 147 ، الهامش 3 .

37) سورة التوبة ، الآية 28 .

38) برنشفيك ، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي** [الترجمة العربية ، 252/2] .

وقد كانت صقليّة تستورد الزيت من إفريقية عن طريق صفاقس[39] . وكان شريكان يملكان قارباً قد أجّراه بمبلغ عشرة دنانير ، للتحوّل من صقليّة إلى قابس . ولما وصل القارب إلى المهدية أكّد الركّاب وأحد الشريكين ، أنهم استأجروه للذهاب إلى قابس ، في حين ادّعى الشريك الآخر أنّ القارب قد استُؤجِر للتوجّه إلى المهديّة[40] .

وسلّمت امرأة مجوهرات وخاتماً من ذهب وسواراً كبيراً من الفضّة إلى شخص مكلّف بأن يبيعها في صقليّة ويشتري بثمنها طعاماً (أي قمحاً) يروّجهُ في المهدية . على أن يتحصّل كلّ طرف على نصف الأرباح[41] .

كما سلّم تاجر إلى بحّار دنانير مرابطية ليتاجر بها في صقلية بعنوان قِراض . فغاب ربّ المال ، ولما رجع تولّى محاسبة البحّار الذي صرّح له أنّه اقترض « قارباً لطيفاً » (أي خفيفاً) ، غير القارب الذي اعتاد أن يسافر على متنه من صقليّة إلى إفريقية . وأثناء الرّحلة نبّه المقيمون في حصن اسمه « الرّكام » الركّاب إلى اقتراب العدوّ . فتخلّى البحّار عن القارب ، وأخذ كلّ ما في السفينة ، وبالخصوص السلع (أي بلا شك الحبوب) التي اشتراها بدنانير ربّ المال ، وسلّمها إلى قائد الحصن . وضاع القارب الذي استولى عليه لا محالة القراصنة النصارى[42] .

وكانت السّفن الصنهاجية تحمل أسماء خاصّة[43] .

وبما أنّ أهل المدينة يغيبون مدّة طويلة ، فقد كانوا يوجّهون المال بانتظام إلى عائلاتهم . من ذلك أن واحداً منهم قد أرسل سبعة دنانير إلى زوجته وأبنائه بواسطة سفينة أولى ، وأرسل إليهم فيما بعد اثني عشر دينار بواسطة سفينة ثانية[44] .

ويمكن أن نأخذ فكرة عن الغزو في البحر ، وما ترتّب عليه من صعوبات عائلية ، من خلال تحليل بعض الفتاوى التي تمثّل وثائق حقيقية ، ومن بينها هذه الفتوى المعبِّرة[45] . فبمقتضى رسم ، صرّح عبد الله الرائس المعروف باسم عبد الله بن صدقة الأنصاري ، بأن زوجته تكون في

---

39) البكري ، 20 ، ستوريا ، 2/509-514 كورتوا ، المرجع المذكور ، 2/54 .

40) فتوى المازري ، المعيار ، 8/190-191 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/228 ظ .

41) فتوى المازري ، المعيار ، 8/132 ، 9/52 البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/161 ظ ـ 162 و .

42) فتوى المازري ، المعيار ، 8/131-132 ، البرزلي ، المختصر ، 88 ظ ، مخطوط الرباط ، 2/16 و . ظ .

43) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المختصر ، 122 ظ : مركب اسمه « البوني » .

44) فتوى المازري ، المعيار ، 6/32 .

45) فتوى المازري ، المعيار ، 3/234-235 ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 2/61 ظ ، 62 و .

حلّ من الروابط الزوجية ، إن غاب عنها اضطراراً أكثر من أربعة أشهر متوالية ، ولم يرسل إليها نفقتها ، أو سافر مع مراكب السلطان ولم يرجع معها إلى المهدية أو زويلة .

وقد أمضى الزوج على هذا الالتزام في العشرة الأواخر من محرّم سنة 515 هـ/ 10-20 أفريل 1021 م . وسُجّلت في ظهر الرسم شهادتان أدلى بهما شاهدان أمام قاضي القضاة أبي القاسم بن ميمون . وحسب الشهادة الأولى المؤرخة في رجب 515 هـ/ 15 سبتمبر- 14 أكتوبر 1121 م ، سافر عبد الله إلى صقلية بعد الدخول على الزوجة ، فانقطعت أخباره ، ولم يرسل أي مبلغ مالي إلى زوجته التي بقيت بلا مورد رزق . وأشارت الشهادة الثانية إلى غياب الزّوج نحو أربعة أشهر في طرابلس الغرب .

التجارة مع مصر والمشرق :

لدينا عدّة شهادات حول كثافة العلاقات التجارية بين إفريقية في عهد بني زيري ومصر في العهد الفاطمي . وكانت هذه التجارة ذات الصبغة البحريّة أوّلاً وبالذات ، لا سيما بعد زحفة بني هلال ، تغذّي حركة نشيطة من المبادلات التجارية بين المهديّة والإسكندريّة . ففي أوائل العصر الصنهاجي ، ذهبت قافلة من مصر إلى إفريقيّة عبر برقة ، وسلكت في الإياب نفس الطريق[46] . ثم أشارت وثيقة أخرى إلى توجيه سفينة إلى الإسكندريّة لعرضها للبيع[47] . وكانت القوافل القادمة من مصر تمرّ من قابس التي كان ميناؤها تتردّد عليه السفن من جميع أنحاء العالم[48] .

وفي عصر ابن حوقل ، خلال الفترة الصنهاجية بلا شكّ ، كان الزّيت المُستهلَك في مصر ، يُستَوْرَد من صفاقس[49] .

وغادرت الإسكندريّة سفينة محمّلة بالسلع ومصحوبة بسفن مهدويّة . وفي عرض جبل برقة استولى عليها الرّوم إثر معركة طاحنة وأخذوها . ولكن بعد ذلك تعرّض المعتدون بدورهم لهجوم الأسطول الصقلّي الذي خلّص المسلمين وذهب بهم إلى صقليّة . ورأى أبو عمران الفاسي أنّ من الواجب إرجاع السفينة إلى مَن يعنيه الأمر ، لأنّ المسلمين الذين خلّصوا إخوانهم قد قاموا بعمل

46) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 218/2ظ .
47) فتوى القابسي وأبي عمران الفاسي ، المعيار ، 215/8 ، 340/9-341 .
48) البكري ، 17 .
49) ابن حوقل ، 70/1 ، البكري ، 6 ، 20 .

نبيل لا يتقاضون عليه أجراً . على أنّه يجوز أن يُعَوّضوا عن بعض النّفقات التي ينبغي أن يتحمّلها صاحب السّفينة . ويجب حسم النّزاع في المدينة التي توجّهت إليها السفينة ، إن كان أميرها عادلاً[50] .

واشترى تاجرٌ من مكّة المكرّمة قنطاراً من النيلة نقله إلى إفريقية ، ولكنّ المصدر لم يذكر وسيلة النقل التي استعملها[51] .

ولا يبدو أنّ القطيعة مع القاهرة قد ضيّقت من نطاق التّجارة البحريّة مع مصر ، إلاّ أنّه من الممكن أن تكون غزوة بني هلال قد قطعت تماماً الطرق البريّة . على أنّ البكري قد أكّد أن قلعة بني حمّاد أصبحت بعد خراب القيروان نقطة التقاء القوافل القادمة من العراق والحجاز ومصر والشام وبقية بلاد المغرب[52] .

وأشارت بعض فتاوى المازري إلى الوقائع التالية . فقد جاء في الفتوى الأولى أنّ رجلاً كلّف شخصاً آخر ببيع عروض في الإسكندريّة مقابل أجر معلوم وتوجيه المال إلى المهديّة والأندلس[53] .

وجاء في فتوى أخرى أنّ رجلاً دفع لعامل مالاً قِراضاً ليسافر به إلى المشرق ، وكتب بينهما وثيقة . واشترى العامل بضاعة وحملها في مركب ، فلمّا وصل إلى جزيرة لنبدوشة انفتح المركب وخشي عليه الغرق ، فرجع سالماً إلى المهدية ورفع البضاعة إلى ربّ المال . فطلبه بمقتضى الوثيقة أن يرحل من جديد في الموسم القادم . وانصرف العامل لحساب رجل آخر مقابل مبلغ أهمّ بكثير من المبلغ الذي سلّمه إليه رب المال الأوّل[54] .

وتوفّي إفريقي تاركاً المال الذي وجّهه إليه رجل في مصر . ويبدو أن الأمر يتعلّق بتوجيه أموال إلى وكيل مقيم في مصر[55] .

---

50) فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 8/188-189 ، البرزلي ، المختصر ، 108 ظ ، 109 و ، مخطوط الرباط ، 2/227-228 و .

51) فتوى أحد الشيوخ مع رأي أبداه أبو بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 6/158 ، 9/69 .

52) البكري ، 49 .

53) فتوى المازري ، المعيار ، 9/52-53 .

54) فتوى المازري ، نفس المصدر ، 8/130-131 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/160 ظ ، 161 و .

55) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/172 و ، المعيار ، 9/388 ، 10/232-233 : « وذكر المقدّم أنّ الميّت له مال عند رجل في مصر على وجه الرسالة ووكّله الرجل المذكور على التصرّف » .

وتتضمّن فتوى مطوّلة للمازري[56] نسخة محضر يتعلّق بتقديم حساب مفصّل ضبطه عامل في القراض بالعروض . وقد ارتحل إلى الإسكندريّة ومعه كميّة من المرجان والحرير ، تولّى بيعهما واشترى بثمنها قِفافاً من النيلة « وخمس حصر كتّان »[57] . وقد أُنزلت تلك السلع في بنزرت ثم وُجِّهت إلى تونس حيث تمّ بيعها ، ووُظِّفت عليها رسوم من بنزرت إلى تونس . وقد اشترى الصبّاغون في تونس النيلة بأثمان معجّلة أو مؤجّلة[58] . وسلّم العامل كميّة من النيلة إلى شقيق له كان قد سلّم إليه قبل سفره إلى المشرق كميّة من الحرير ، فحوّلها بعنوان تسديد دين إلى ربّ المال

---

56) فتوى المازري متبوعة بفتوى أخرى أصدرها المدعوّ أبو القاسم الفقيه ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 146/2 ظ ، 149 و ، 156 ظ ، 159 و . النصّ مشوّه شيئاً ما .

57) « خمس حصر كتان » : ليس من المستبعد أن تكون واردة من روسيا ، انظر : S.D. Goitein ، **Speculum** ، أفريل 1954 م ، ص 192 .

58) تفاصيل الأرقام والحسابات الواردة في هذه الفتوى : انتج بيع المرجان : 484 ديناراً + 1/3 + 1/4 + 1/8 (أجزاء الدينار) ، وأنتج بيع الحرير : 460 دينار + 1/6 + 1 قيراط . ولتسديد النفقات اقتطع 34 ديناراً + 1/2 + 1/4 من ثمن بيع المرجان و 37 ديناراً + 1/4 من ثمن بيع الحرير .

واشترى قفاف نيلة (مقابل 377 ديناراً) وخمس حصر كتان (213 ديناراً) وكبش القرنفل (102 دينار) والمسك (25 ديناراً) ومعاجر وقماش حرير رقيق (سندس ؟) (50 مثقالاً) . وبقي من هذه العملية نحو 35 ديناراً . وبلغت القيمة الجملية لهذه الشراءات 800 دينار. فسدد 40 ديناراً أجرة السفينة وأنفق 330 ديناراً إلا قيراطَيْن لسدّ نفقات الإقامة .

ولما سئل العامل عن وزن وسعر النيلة والكتّان أعطى المعلومات التالية : تزن النيلة في الإسكندرية 11 قنطاراً إلاّ ربع قنطار بسعر 33 ديناراً القنطار ، فتكون الجملة 376 ديناراً . يضاف إليها 16 ديناراً معلوم النفقات و 4 دنانير مصرية كانت عنده من قبل ، لتكون النتيجة : 376 ديناراً + الدنانير المصرية ، في حين تبلغ القيمة المعلن عنها سابقاً 377 ديناراً . وفي جوابه لاحظ أبو القاسم الفقيه أن الفارق حسب حساب العامل لا يبلغ سوى دينار واحد ، وليس أربعة ، ورأى أنه قد أخطأ لأنّ ثمن 11 قنطاراً إلاّ ربع قنطار بحساب 33 ديناراً القنطار الواحد يبلغ 355 ديناراً إلا ربع دينار ، فيكون الفارق حينئذٍ 6 دنانير ، ذلك أنّ : 354,75 + 16 + 6,25 تساوي 377 . وبما أن العامل قد أوضح أن الأمر يتعلق بأربعة دنانير مصرية ، يمكن أن نستنتج من ذلك إشارة هامة حول المعادلة بين العملتين (4 دنانير مصرية = 6.25 دنانير إفريقية) . إلاّ أن تشويه النصّ يدعو إلى الحذر . ويبلغ وزن الكتان في الإسكندرية 43 قنطار إلا الثلث (؟) فتكون النتيجة بما في ذلك النفقات 213 ديناراً . إلاّ أن النصّ المنقوص لا محالة لم يُشر إلى سعر القنطار ومبلغ النفقات . وقد أُنزِلت تلك البضائع في بنزرت ووُجِّهت إلى تونس حيث تمّ بيعها .

ومن بين الأرقام والتفاصيل الموالية ، نستنتج المعلومات التالية : بيعت النيلة بسعر يتراوح بين 2600 و 3.300 درهم القنطار الواحد المسلّم إلى الصبّاغين (بتونس ؟) بثمن معجّل أو مؤجل مقابل بيّنة .

وبيع قنطار الكتّان بنحو 392 درهماً .

وبيعت الأقمشة بمبلغ 2500 درهم وكبش القرنفل بمبلغ 3582 درهماً وبلغت « الأخماس واللوازم » (الرسوم) 1523 درهماً من بنزرت إلى تونس . وفي الجملة فقد اعترف العامل أن لديه 43.501 درهماً .

الذي أمره ببيعها لشراء بضائع أخرى ، وبالخصوص الشعير .

وتسلّط وثائق الجنيزة[59] أضواءً ساطعة على جانب مهمّ من جوانب التجارة المتوسطيّة في العصر الوسيط ، أعني امتدادها إلى الشرق الأقصى ، وهي تضيف لحسن الحظّ معلومات تكميليّة إلى المعطيات الواردة في النّصوص العربيّة ، من نوع فتوى المازري السالفة الذكر ، وتوضّح نوعيّة قسمٍ على الأقلّ من البضائع المصدّرة إلى مصر ، مثل كميّات المرجان والحرير التي بيعت في الإسكندرية كما أسلفنا ، ومصدر بعض البضائع المشتراة في المقابل .

وتُعتبَر مصر منطلق العلاقات بين الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط ، وبين الشرق الأقصى ، إذ كانت بمثابة الواسطة بين تيارَيْن مستقلَّيْن من المبادلات التجارية ولكنّهما مرتبطَيْن بفضلها ارتباطاً متيناً .

وكان كثيرٌ من تجّار القاهرة يتنقّلون من المغرب الأقصى إلى الهند[60] . وفي أواخر القرن الحادي عشر كانت أكثر من 90% من البضائع الواردة من الهند تُشتَرى مقابل بضائع إفريقية ومصرية و 10% فحسب مقابل الذهب .

وإلى حدود منتصف القرن الثاني عشر كانت الموادّ التالية تصدّر من عدن إلى الهند وهي :

---

59) S.D. Goitein ، **Speculum** ، 29 أفريل 1054 م ، عدد 2 ، القسم 1 ، 181 ، 1997 م كامبريدج . ماساشوسيتس .

60) نفس المرجع ، 186-188 ، 191 ، ولنفس المؤلف : **اليهود والعرب** ، نيويورك ، 1955 م ،115، 209 .

والجدير بالملاحظة أنّ بعض أوراق جنيزة المتعلقة بالمعاملات متأتّية من الوثائق العائلية التابعة لتاجر تونسي قضى قسماً كبيراً من حياته في الهند ، وهو رجل عالم وشاعر ، اسمه ابن ياغو (= ياغو الصيغة الرومانية لاسم يعقوب) ، ولعل هذا الاسم يشير إلى أصله الأندلسي . انظر أيضاً ، S.D. Goitein ، مجلة الدراسات الإسلامية(Studia Islamica) ، 1955/3 ، 75-91 وجاء في نفس المرجع ، ص 80-81 أن مدن إفريقيا الشرقية وجنوب الجزيرة العربية والهند وسيلان كانت تعجّ بالبضائع الواردة من إفريقية (القيروان والمهدية والأربس ونفوسة) ومن المدن الأخرى (مالقة وفاس وطانجة وسجلماسة ودرعة) . وذكر B. Lewis في مجلة كليّة التجارة بجامعة اسطنبول ، 1952 م أنّ الفاطميّين قد حرصوا على افتكاك التجارة الهندية من خصومهم العراقيين بفضل الازدهار الاقتصادي التي تشهده المناطق المغربية الخلفية التابعة لهم .

وابتداء من القرن الرابع الهجري لم تعد بلاد المغرب التي أصبحت غنيّة سوقاً « استعمارية » بالنسبة إلى التجار الفرس والعراقيين والسوريّين ، وقد حققت تقدّماً تجارياً في الهند والشرق الأقصى . انظر كذلك : كلود كاهن (Cl. Cahen) ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1955/3 م ، 109 الهامش ، 4 ، و S.D. Goitein ، **اليهود والعرب** ، نيويورك ، 1955 م ، 107-119 .

الحرير والنحاس والرّصاص والموادّ الكيميائية ، ومن عدن إلى مصر : التوابل والبرنيق والأقمشة[61] .

وتتعلّق عدّة وثائق قانونية تابعة لمجموعة الجنيزة بأحكام صادرة عن مجلس الأحبار بالقاهرة حول بعض القضايا التجاريّة التي عُولِجت في الهند[62] .

وكانت الجالية اليهودية باليمن تتولّى ربط الصلة بين مصر والهند ، وكان أحد كبار التجّار في كلّ من عدن والقاهرة يضطلع بمهامّ الوكيل ، وهو بمثابة أمين التجار الذي يقوم في نفس الوقت بدور المؤتمِن ووسيط العبور والصيرفي ، ويشرف على « دار الوكالة »[62] .

وفي سنة 1102 م (؟) استقرّ تاجر يهودي[63] يحمل لقب اللّبدي (نسبة إلى المدينة الطرابلسية لبدة) بالقاهرة حيث اشترى جزءاً من منزل بمبلغ 300 دينار . وقبل التحوّل إلى الهند ذهب إلى المهدية حيث سلّم إليه « الديّان » (القاضي بمحكمة الأحبار) المدعوّ ابن لبرات كميّة من المرجان ، واشترى كميّة أخرى لحسابه الخاصّ . ولما رجع إلى القاهرة تسلّم السلع التي عهد بها إليه الوكيل والمتمثلة في الأقمشة وبالخصوص الكتّان الروسي المقدّر حقّ قدره في الهند ، والأواني الفضيّة والنّحاس والأدوية والمرجان ، مع كيس نقود فيه عشرون ديناراً من الذهب حديثة الضرب . وأمره الوكيل بتسليم نصف تلك السلع إلى وكيل عدن الذي سيشتري في مقابلها بهار مالابار ، وتوجيه النصف الآخر إلى مدينة أنهيلورة الواقعة شمالي بومباي لتبديله بالبرنيق .

فسار اللبدي نحو عالية نهر النيل ، إلى أن وصل إلى مدينة قوس[64] في الصعيد ، ومن هناك اجتاز الصحراء على ظهر جمل إلى أن وصل إلى ميناء عيذاب[65] الذي تنطلق منه السّفن في اتجاه الهند .

وقبل الوصول إلى المكان المقصود ، قام اللبدي ببعض الصفقات المتعلقة بالنسيج

---

61) S.D. Goitein ، **Speculum** ، 1954 م ، 187-188 والهوامش ، ولنفس المؤلف ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1955/3 م ، 81-82 ، واليهود والعرب ، 116-117 .

62) نفس المؤلف ، **Speculum** ، 1954 ، 189 .

62 م) نفس المؤلف ، اليهود والعرب ، 118-119 .

63) نفس المؤلف ، **Speculum** ، 1954 ، 191-195 .

64) البلدان ، 183/7 : كانت هذه المدينة التي هي قاعدة الصعيد المصري ملتقى التجار القادمين من عدن والذين يكوّنون أعظم قسم من السكّان .

65) نفس المصدر ، 246/6 : كانت تتردّد على هذا الميناء السفن القادمة من عدن والمحمّلة ببضائع موجّهة إلى الصعيد .

والمخدّرات ، ونقل معه إلى الهند كميّة المرجان التي سلّمها إليه كلّ من ديّان المهدية ووكيل القاهرة ، بالإضافة إلى الكمية التي اشتراها لحسابه الخاصّ . ولكنّه عِوَض أن يبيع مرجان وكيل القاهرة ويشتري بثمنه البرنيق ، أبدله بالخرز أو الخُرَيْزات (أي اللؤلؤ) ، ووجّه البهار والفولاذ إلى وكيل عدن .

ولما عاد إلى القاهرة لام عليه وكيل تلك المدينة ودِيّان المهديّة مخالفته لتعليماتها . وأثيرت حول هذا الموضوع قضيّة عدلية دامت زهاء السنتين من 1097 م إلى 1098 م وكانت موضوع عدّة جلسات عقدتها المحاكم اليهودية في عدن والهند والبلاد التونسية (أي بلا شكّ المهديّة) ، وانتهت بتسويات صُلحيّة .

وقد دافع عن مصالح ديّان المهديّة في القاهرة ممثّلان عنه . وسلّم اللبدي إلى الديّان ثلاثة أكياس من المسك ، تعويضاً عن مرجانه الذي كان من النّوع الرّديء ، وتولّى بالإضافة إلى ذلك الاتّجار بالنيلة في القاهرة . ويبدو أنّه استظهر للوكيل بتذكرة في السلع التي تسلّمها ، مع بيان قيمتها بالعملة المحليّة . والجدير بالذكر أنّ الاتفاقيات المتعارف عليها ، المبرمة بين ربّ المال والعامل لم تكن موضوع عقود كتابية . ذلك أن المُقارِض المكلّف بالقيام بعمليّات تجارية في الهند مطالَب بأن يسدّد إلى شريكه كامل رأس المال المسلّم إليه وثلثَيْ الأرباح ، ويحتفظ بالثلث الآخر مقابل أتعابه[66] . والجدير بالتذكير من ناحية أخرى أنّ كتب الفقه القديمة تنصّ على أنّ التاجر المسلم مطالب بدفع ضريبة قدرها 2,50% من قيمة السّلع وأنّ التاجر غير المسلم مطالب بدفع 5% ، مع الإشارة إلى أنّ الحدّ الأدنى الخاضع للضريبة يبلغ 40 ديناراً بالنسبة إلى التاجر المسلم و 20 ديناراً بالنسبة إلى التاجر غير المسلم[67] .

ويبدو أنّ هذا الميز الذي ربما لم ينصّ عليه الفقه الإسماعيلي ، لم يطبّقه الخلفاء الفاطميّون المتسامحون إلى أبعد حدّ مع السكّان غير المسلمين[68] .

ولعلّ الضرورة الدينية التي تقتضي أن لا تصحّ الصلاة اليومية إلاّ بمشاركة عشرة كهول من

---

66) وحول المقارنة بين المضاربة الحنفية والقراض المالكي ، انظر ، S.D. Goitein ، **Speculum** ، 1954 م ، 195 ، الهامش 24 .

67) نفس المرجع ، 196 ، الهامش 26 ، أبو يوسف ، كتاب الخراج ، 79 ، الشافعي ، كتاب الأم ، 228/7 .

68) نفس المرجع ، 196 ، الهامش 27 : أشار المؤلف إلى تطبيق هذا الميز من جديد في عهد الأيوبيّين ثم إلى إلغائه في عهد صلاح الدين ، وبموجب ذلك أصبح اليهود والنصارى يدفعون نصف الأداء مثل المسلمين .

الذكور على أقلّ تقدير ، هي التي تفسّر ولو بصورة جزئية لماذا كان التجار اليهود يسافرون ضمن مجموعات كبيرة إلى حدٍّ ما ، ومن الأفضل أن تكون متجانسة ومؤلّفة من أفراد يسكنون في نفس الحيّ ، الأمر الذي من شأنه أن يساعد على فضّ بعض مشاكل القسمة الناشئة عن حالات الغرق والوفاة . أضف إلى ذلك أن كلّ تاجر سواء في الهند أو في البحر الأبيض المتوسط يجب أن يكون مصحوباً برفيق . كما نلاحظ من ناحية أخرى تشابك العمليّات التجارية وترابط العلاقات المتينة والوديّة أحياناً ، بل حتّى الأخويّة ، بين التجّار اليهود والنصارى والمسلمين الحريصين على التعاون فيما بينهم لتذليل المخاطر وتحقيق الأرباح ، أكثر من حرصهم على المنافسة التي لا شكّ أنّها لا تجدي نفعاً[69] .

التّجــارة مع السّـــودان :

من الجدير بالتّذكير أنّ المغرب في أوائل العصر الوسيط كان يستورد من السّودان أعظم جزء من الذهب الخام الذي يصل إليه من ثلاث طرقات صحراوية : الطريق الغربي (عبر سجلماسة) والـطريق الأوسط وهو الأهمّ (عـبر ورقلة) والطريق الشرقي (عـبر الجريـد وطرابلس مـروراً بغدامس)[70] .

وكـان الخوارج في ورقلة (وارجـلان) يتحوّلـون إلى بلاد السّـودان لبيع تمـور سجلماسة والزّاب ، « ويُخرجون منها التّبر ويضربونه باسم بلدهم » . وكانت ورقلة مرتبطة بالمغرب الأوسط عن طريق المسيلة التي تبعد عنها 12 مرحلة كبار ، وبشرق إفريقية عن طريق قفصة التي تبعد عنها 13 مرحلة[71] . وقد تمكّن الفاطميّون في أوائل القرن العاشر من السيطرة عـلى هذه الـطرقات الثلاث ، ممّا هوّن عليهم إلى حدّ كبير غزو مصر . ثمّ افتكّ منهم الطريق الغربي حكّام الأندلس الأمويّون الذين فوّتوا فيه بدورهم لفائدة المرابطين خلال القرن الحادي عشر ، ولم يستطع بنو زيري إرجاعه . وممّا لا شكّ فيه أن تأسيس مملكة بني حمّاد لم يقطع الطريق الرابط بين ورقلة وقفصة الذي

---

69) نفس المرجع ، 1954 م ، 196-197 .

70) أماري ، Diplomi Arabi ، التوطئة ، ص 38 ، الهوامش 1 ، 58-407 ـ ماس لاتري ، المقدمة ، 222 ، لوتبار ، 150-151 ، ليويكي ، التوزيع الجغرافي. . . 337 ، ستوريا ، 420/2 .

71) الإدريسي ، 120-121-Bel ، بنو غانية ، 181 ، الهامش 1 .

ظلّ تحت سيطرة الإباضيين المستقلّين عمليّاً بالحكم . إلاّ أن غزوة بني هلال قد عرقلت لا محالة نشاط القوافل ، مدّة من الزمن على الأقلّ .

وممّا يفسّر توقّف تدفّق التبر السوداني ، نقص الذهب في المهدية ، وصعوبة تلافي النزيف المتولّد عن ضرورة استيراد القمح الصقلي إلاّ أن هذه المعلومات المتعلّقة بالحالة الاقتصادية في المهدية لا تنطبق إلاّ على هذه المدينة دون سواها . ويحقّ لنا أن نعتقد أنّ بني هلال الرحّل ما لبثوا أن أعادوا تنشيط هذه الحركة التجارية التي كانت تقوم بها القوافل . وليس لدينا ما يكفي من الوثائق حول المبادلات التجارية بين إفريقية والسودان[72] .

ففي عهد المنصور بن بلكين مثلاً تحوّلت قافلة من الواد (أريغ أو ريغ) إلى القنطرة مروراً بتوزر[73] .

وتوفّر لنا فتْوَيَان بعض المعلومات حول المبادلات التجارية بين إفريقية والسّودان قبل غزوة بني هلال . فقد جاء في الفتوى الأولى أن إفريقيّاً توفّي في السّودان بلا وصيّة . فأُجبِر الرجل الذي استحوذ على مفتاح مخزنه على تسليمه إلى الشخص الذي كلّفه ملك البلاد بالحكم بين المسلمين بالاتّفاق معهم . وسلّم الشخص المكلّف ببيع ممتلكات المُوَرِّث إلى القاضي إيرادات البيع التي اعترض عليها وريث الهالك . فأجاب القابسي بالموافقة على تلك العمليّة[74] . وتتعلّق الفتوى الثانية بعقد قراض يقضي بتحوّل المُقَارض إلى منطقة تادمكة في بلاد السّودان . ولكنه ذهب إلى غانة ومنها إلى أوداجست حيث تزوّج ومكث هناك 11 سنة . فماذا يكون الجواب لو تحوّل مثلاً من تادمكة إلى الأندلس وسجلماسة ومن هناك إلى غانة وأوداجست ؟ أجاب المفتي : أنه بالنظر إلى المخاطر التي يمكن التعرّض لها ، لا ينبغي إبرام عقود قراض خاصّة بالسّودان[75] . ولا شكّ أنّ هذه التوصية غير المجدية لم تنقص أبداً من كثافة العلاقات التجارية مع تلك البلاد النائية . إلاّ أن

---

72) تجدر الإشارة إلى استعمال « أزقاق سودانية » لتبريد الماء في آخر العهد الفاطمي بإفريقية ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 102 ظ ، [طبعة بيروت ، 483/2] .

73) الشماخي ، 360 ، يقول النص : من أريغ إلى تمتار (؟) ، وحسب ح . ح . عبد الوهّاب ، فإنّ البلدة الأخيرة مطابقة لقرية جنطرار القريبة من الحامّة شمالي توزر ، وقد أشار ابن الشباط إلى هذه القرية التي انقرضت .

74) فتوى القابسي ، المعيار ، 98/10-99 .

75) فتوى القابسي ، المعيار ، 78-79 . أشار الجغرافيون العرب إلى المدن السودانية المذكورة ، البكري ، الفهارس ، البلدان ، الخ . . . وحول إبدال مسحوق الذهب بالملح والغوري والنحاس الخ . . . ، انظر البكري ، 179 وابن حوقل ، 101/1 .

الفوضى الناشئة عن غزوة بني هلال قد عرقلتها ، وينبغي أن ننتظر عصر المازري[76] لنعثر على إشارة إلى جلب التبر (السوداني ؟) عن طريق الجريد . فقد تسلّم عامل في القراض بضعة قناطير من الأرجوان[77] لبيعها في توزر مقابل أجرة معلومة تُقتطَع من سعر البيع ، والحصول على ثلث الأرباح . على أن يشتري في تلك المدينة بما يتبقّى له من المال سلعاً من المتوقع أن تكون مربحة . فالأمر يتعلق حينئذ بقراض عروض . وقد أمره صاحب رأس المال بأن يشتري له دابّة إن كانت موجودة هناك . ولكنّ العامل قد صرّح بأنه سيشتريها لنفسه بماله الخاصّ . كما تسلّم من شريكَيْن آخريْن سلعاً لترويجها في توزر ، مقابل أجرة محدّدة من قبل . ثم ارتحل دون أن يحمل معه أيّة بضاعة تابعة له شخصيّاً .

وفي توزر اشترى المقارض سلعاً لحساب الشريكَيْن الأوّل والثاني واقتنى ذهباً لحساب الشريك الثالث ، واشترى سلعاً لحسابه الخاصّ ، بمعلوم إيجار دوابّه ، وبأجرته ذاتها وبما استلمه من دنانير بعنوان سلفة على ثمن الزيت . كما اقترض ديناراً ونصف دينار على حساب رأسمال الشريك الأوّل ، على أن يقتطَع ذلك المبلغ من ثمن الكسوة التي يتعيّن على ربّ المال توفيرها له .

ولما عاد العامل من توزر سالماً ، سلّم إلى كل واحد من الشركاء الشيء الراجع إليه . ولكنّ الشريك الأوّل ادّعى أنّ كلّ ما رجع به المُقارض قد اشتراه بمال القراض ، في حين ادّعى العامل أنّه اشترى تلك السلع لحسابه الخاصّ ، حسبما هو مبيّن أعلاه ، وأنه قد تعوّد تسلّم المال على سبيل الوديعة ، مؤكّداً أنه اقتنى كلّ ذلك خوفاً من مخاطر الطريق . وأجاب المازري بقبول تصريحات العامل .

التجارة مع الأندلس :

إنّنا مدينون للمأسوف عليه كريستيان كورتوا بدراسة قيّمة[78] حول العلاقات الأندلسيّة المغربيّة في أوائل العصر الوسيط . ولا يسعنا في هذا المقام إلّا تقديم أهمّ ما جاء في هذه الدّراسة من معلومات .

كانت مدينة تنّس في عصر اليعقوبي (القرن الحادي عشر ميلادي) تمثّل القاعدة الأساسيّة

---

76) فتوى المازري ، المعيار ، 130/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 160/2 ظ .

77) الأرجوان ، حسب البرزلي ، مخطوط الرباط ، وفي المعيار ، « يَرْجُوَال » .

78) كورتوا (Ch. Courtois) ، المرجع السابق ، 2/51-59 .

للملاحة الأندلسيّة التي تفضي في النهاية إلى ميناء طبرقة . وقد كان التجّار الأندلسيّون يصدّرون المرجان من القالة والصوف من بونة والعسل من الجزائر ، وكانت تستهويهم بالخصوص في النواحي الشرقيّة ، الموادّ الشرقية المربحة إلى أبعد حدّ . ومن هنا جاءت في أوائل العصر الفاطمي أهميّة إفريقية التي كانت تقوم ، بفضل موقعها الجغرافي ، بدور الواسطة بين التجارة الشرقيّة والتجارة الأندلسيّة ، عن طريق ميناء المهديّة من جهة وميناء طبرقة من جهة أخرى ، « وقد كانا يمثّلان نقطة الوصول والانطلاق بالنسبة إلى تيّارَيْن اقتصاديَّيْن ، قد عمل الفاطميّون على الربط بينهما ربطاً مثمراً » . وقد أصبحت القالة (أو مرسى الخرز) عصرئذ وكراً مخطراً للقراصنة ، مجهّزاً بدار صناعة . في حين أُقصيت التجارة الأندلسيّة في اتّجاه الغرب ، الأمر الذي يفسّر ما شهدته طبرقة آنذاك من تدهور اقتصادي ، لفائدة بونة ، وما تمّ إنشاؤه من مستوطنات أندلسيّة في بجاية ومرسى الدجاج على سبيل المثال ، في منتصف القرن الحادي عشر ، تلك المؤسسات التي أقيمت « بلا شكّ أكثر من مرّة بمبادرة من أهل البحر » .

وقد تعدّدت المسالك الرابطة بين الساحل الإفريقي الممتدّ من شرشال إلى الجزائر وبين السّاحل الأندلسي الممتدّ من قرطاجنة إلى مصبّ نهر الإبر . ولعلّ التجزئة السياسيّة التي تعرّضت لها بلاد المغرب ، غربيّ خطّ طول مدينة الجزائر ، وبلاد الأندلس إثر انقراض الخلافة في قرطبة ، هي التي تفسّر تعقّد التجارة الأندلسية عصرئذ ، ويدلّ ظهور مسلكَيْن جديدَيْن يفضيان إلى الجزائر أو إلى ضواحيها القريبة على أنّ هذه المدينة التي طوّرها بلكين بن زيري قد أصبحت تقوم بدور مماثل للدّور الذي قامت به مدينة شرشال في العصر الروماني ، ومدينة تنّس في عصر اليعقوبي ، ذلك أنّ مدينة الجزائر قد صارت تمثّل « نقطة الاتّصال بين المسالك البحرية في أعالي البحار وبين المسالك البحرية الساحلية » . ولا أدلّ على ذلك من شهادات الجغرافيّين العرب . ففي حين أشار إليها المقدسي مجرّد الإشارة واعترف ابن حوقل بما تكتسيه من أهميّة نسبيّة ، وصفها البكري بأنّها مدينة كبيرة يستقبل ميناؤها أفواجاً من البحّارة الأندلسيّين والإفريقيّين وغيرهم .

وختم المؤلف دراسته مشيراً إلى نقطتين اثنتين لا جدال فيهما ، « أولاهما أنّ الشبكة التجارية المغربية كانت معقّدة أكثر بكثير مما يمكن أن نتصوّر من أوّل وهلة ، وأنّها تكشف لنا عن نفس ضروب المزاحمة والمنافسة المعروفة في البلاد المسيحية عهدئذ ، وبالخصوص في القرون الموالية . وتتمثل النقطة الثانية في كون التجارة قد أصبحت تكتسي صبغة « إسلامية » صميمة ، وتندرج ضمن نفس المجموعة الاقتصادية التي تنتمي إليها صقليّة والأندلس ، أي ضمن مجموعة تشمل الغرب الإسلامي بأسره » .

« وهكذا تتجلّى لنا في منتصف القرن الحادي عشر إحدى الخصائص الأساسيّة لأوائل العصر الوسيط المتمثلة في نموّ الطريق الإسلامي والطريق المسيحي بصورة متوازية ، إن صحّ التعبير ، على ضفّتي البحر الأبيض المتوسط . وقد تمّ الاتّصال الذي لا مفرّ منه بين العباد والموادّ في تخوم منطقة « كمبانيا » وفي حدود الأندلس غير الثابتة ، ليس إلاّ . وينبغي أن ننتظر بضعة عقود أخرى لينجرّ عن التوازن السياسي الجديد بين المسيحيّة والإسلام انبعاث المسالك المستعرضة وانتعاش النشاط التجاري الذي تتوقّف عليها كثافته » .

أضف إلى ذلك أنّ بجاية سوف لا تلبث أن تصبح بمثابة المهديّة ، بالنسبة إلى المغرب الأوسط ، إن صحّ التعبير ، وأن تتفوّق على مدينة الجزائر التي أشار الإدريسي مع ذلك إلى ازدهارها في القرن الثاني عشر .

وحول العلاقات التجاريّة بين الأندلس وإفريقيّة ، لم نعثر إلاّ على ثلاث فتاوى للمازري . وقد جاء في الفتوى الأولى أنّ رجلاً من قفصة تحوّل إلى الأندلس ومكث بها ستّ سنوات ، فطالبت زوجته بالطلاق[79] . وأشارت الفتوى الثانية إلى ولدٍ حمل معه إلى الأندلس أثاث أمّه الذي تبلغ قيمته 100 دينار[80] . وأخيراً جاء في الفتوى الثالثة أن إفريقيّاً تحوّل إلى الأندلس تاركاً (في المهدية ؟) زوجته وابنه ، وابناً آخر من زوجة مطلّقة ، وقد أرسل إليهم تسعة دنانير بواسطة سفينة أولى واثني عشر ديناراً بواسطة سفينة ثانية[81] .

التجارة مع الجمهوريات الإيطالية :

يعتقد شوب[82] أنّ سفن البندقية هي التي كانت تتولى تصدير الأقمشة البديعة ذات اللّون الأزرق والأسود ، في آخر القرن العاشر من طرابلس إلى البلاد المسيحية . وممّا يؤكّد هذا الاحتمال أن النسّاجين الإفريقيّين كانوا يجلبون مساديهم من البندقية . وقد أشارت المصادر إلى وجود سفن قادمة من البندقية في[83] المهديّة وطرابلس في سنة 971 م / 366 هـ[84] . كما أشارت وثيقة مؤرخة

79) المعيار ، 3/245-247 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/50 و .
80) المعيار ، 10/291 .
81) نفس المصدر ، 3/240 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح عبد الوهّاب 2/95 و .
82) Schaube، 22، ابن حوقل، 1/69.
83) ماس لاتري ، المقدمة ، 221
84) كورتوا، المرجع المذكور ، 2/54 ، الهامش 30 .

في جويلية 1083 م / أوائل 476 هـ إلى استئجار سفينة من البندقية للذهاب إلى طرابلس الغرب[85] .

وفي عهد الحسن شهدت الجمهوريتان المتنافستان بيزة وجنوة ازدهاراً اقتصاديّاً مطّرداً . وقد أثبتت بعض الوقائع تواصل المبادلات التجارية بين المدن البحرية الإيطالية الأخرى وبين إفريقيّة . من ذلك أنّ عقداً مؤرّخاً في سنة 1123 م قد أشار إلى نقل 53 جلداً و 7 قناطير من الشمع[86] من تونس إلى غايت بواسطة سفينة تابعة لمدينة سالرنو .

ويبدو ، رغم افتقارنا إلى الوثائق ، أن رعايا بيزة قد تفوّقوا على رعايا جنوة ، حتى تاريخ الفتح الموحّدي ، لا سيما في تونس ، حيث تمكّنوا من التصالح مع حكّامها .

وفي ظرف بضع سنوات أبرمت كلّ من بيزة وجنوة معاهدة مع المرابطين لمدّة 10 سنوات[87] . وفي نفس الفترة تقريباً سلّطت جنوة ضغوطاً لوضع حدّ لمنافسة مدن البروفانس (في جنوب فرنسا) مثل منبوليي ولا سيما مرسيليا . وتمثّل المعاهدة المبرمة بين المدينتين في سنة 533-532 هـ/ 1138 م حلفاً هجوميّاً ودفاعيّاً مُوجّهاً ضدّ المسلمين في المغرب الأقصى ينصّ على تعهّد الجنويّين بمساعدة تجّار مرسيليا على الاستقرار في شمال إفريقيا[88] .

ولنتذكّرْ في هذا السياق استيلاء أسطول تابع لبيزة وجنوة على بونة في سنة 528-529 هـ/ 1134 م ، واستيلاء رعايا بيزة على طبرقة في سنة 534-535 هـ/ 1140 م ، واستغلالهم لأرصفة المرجان التابعة لتلك المدينة ، ويبدو أن تجارة المرجان في ذلك التاريخ كانت تتعاطاها على وجه الخصوص مدينة تونس[89] .

وتحدّثت أخبار جنوة عن الهجوم الذي شنّته 12 سفينة شراعية جنويّة على بجاية في سنة 530-531 هـ/ 1136 م ، ورجعت القوادس مصحوبة بسفينة مشحونة ببضائع ثمينة[90] . ولكن رغم انعدام الوثائق ، نستطيع أن نؤكّد أن جنوة ما لبثت أن أبرمت معاهدة مع بني حماد ، حيث

---

85) Schaube ، 24 .

86) سايوس (Sayous) . 49-50 وشوب (Shaube) ، 276 انظر أيضاً ، ماس لاتري ، المقدمة ، 34 . . ولكن الأستاذ كلود كاهن (Cl. Cahen) قد أفادنا بأنّ تلك الوثائق مزيّفة .

87) ماس لاتري ، المقدمة ، 35-36 ، شوب ، 277-279 .

88) ماس لاتري ، مكتبة مدرسة شارت ، 1866/2 م ، 88 ، انظر أيضاً ، R. Pernoud ، تاريخ التجارة في مرسيليا ، 181-182/1 .

89) ماس لاتري ، المقدمة ، 8 والهوامش ، ومكتبة مدرسة شارت ، السلسلة 2 ، 1948/5 م ، 135 .

أشارت المصادر إلى وجود جنويّين في بجاية اعتباراً من سنة 546-547 هـ/ 1152 م[91] .

وقد حدّدت المعاهدة المبرمة بين جنوة وبيزة في 17 أفريـل 1149 م / 6 ذو الحجة 543 هـ المجال التجاري الذي يدّعي الإيطاليون الاستئثار به على حساب مرسيليا[92] .

ورغمَ ما كان يتمتع به رعايا بيزة من امتيازات في مدينة تونس ، فإن التجارة الجنويّة كانت نشيطة في هذه المدينة ، كما يدلّ على ذلك العقدان اللّذان حرّرهما الموثّق جيوفاني سكريبا[93] . ويتمثل العقد الأوّل المؤرّخ في 549-550 هـ/ 1155 م في قرض « مخاطرة كبيزة » ينصّ على تحمّل المُقرِض مخاطر الذهاب والإياب ، وتحديد سعر الفائدة بنسبة تتراوح بين 20 و30% . ويتمثّل العقد الثاني المؤرّخ في 550-551 هـ/ 1156 م في التعهّد بإعطاء شخص قاصد تونس المبلغ الذي سينفقه فيها لافتداء أسيرَيْن . وبما أنّ الأمر يتعلّق على الأرجح بجنويَّيْن ، فإن هذه الوثيقة تدلّ على أنّ رعايا جنوة كانوا يتمتّعون بنفس الامتيازات التي يتمتع بها رعايا بيزة ، وهو ما يتماشى مع محتوى الرّسالة التي وجّهها ابن أبي خراسان إلى رئيس أساقفة بيزة .

وحول المكانة المرموقة التي اكتسبتها تجارة بيزة في تونس قبل الفتح الموحّدي ، لدينا وثيقة ذات أهمّيّة بالغة تتمثّل في المكتوب الذي وجّهـه عبد الله بن عبـد العزيـز بن عبد الحقّ بن أبي خراسان آخر جمادى الأولى سنة 552 هـ/ 10 جويلية 1157 م إلى رئيس حكومـة جمهوريـة بيزة ورئيس أساقفتها ، لتذكيره بالاتفاقيات المبرمة شفهيّاً مع سفير بيزة أبي تميم ميمون بن غليوم[94] .

وكان بودّنا أن نعرف مَنْ هو « ابن غليوم » هذا الذي أضفى عليه ابن أبي خراسان عنوان الشيخ والرئيس . فهل كان في أوّل عهده من النصارى المعتنقين للدّين الإسلامي والمساهمين في عمليّات الغزو في البحر التي كان يقوم بها بنو زيري ؟ وهل ينبغي أن نسلّم بأنه قد ارتدّ بعد ذلك عن الدين الإسلامي وتحوّل إلى خدمة بيزة ؟ وهل يمكن أن تستخدم بيزة نصرانيّاً معتنقاً للدين

90) ماس لاتري ، المقدمة ، 35 ، شوب ، 278-279 .

91) Pernoud ، المرجع المذكور ، 1/169-170 ، انظر أيضاً : R.S. Lopez و I.W. Raymond ، التجارة المتوسطية في عالم البحر الأبيض المتوسط ، نيويورك ، 1955 م .

92) Pernoud ، نفس المرجع ، 1/183-187 .

93) سايوس (Sayous) ، 56 .

94) 1) النص اللاتيني نشره ماس لاتري ، في مكتبة مدرسة شارت ، السلسلة 2 ، 5/1848 م ص 137-139 .

2) النص العربي نشره أماري ونقلة إلى الإيطالية ، Diplomi ، 1-6 ، انظر أيضاً ص 397 .

3) الترجمة اللاتينية للنص العربي ، أماري ، المرجع المذكور 255-256 .

3) تحليل مفصل بالفرنسية ، ماس لاتري ، المقدمة ، 37-39 ، شوب 278 .

الإسلامي ، مثلما استخدم ابن زيري جرجي الأنطاكي ؟ وهل كان المعني بالأمر يتظاهر بالإسلام في تونس ويتظاهر بالمسيحية في بيزة ، بفضل التباس لم يكن من صالح أيّ طرف رفعه ؟ .

ومهما يكن من أمر فقد وقع الاختيار على هذا المفوّض باعتبار اتّصالاته ببعض أعوان السلطة في تونس . والجدير بالذكر أنّ المكتوب الذي لدينا نصّه العربي وترجمته اللاّتينية المسجّلة في دفاتر المحفوظات في بيزة ، يفيد باستلام الرسالة التي قدّمها سفير بيزة ، ويشير إلى العلاقات الوديّة التي تربط بين البلدين . وقد أعلم ابن أبي خراسان بيزة التي يحبّها أكثر من أيّ دولة مسيحيّة أخرى ـ حسب قوله ـ بالانتصار الذي أحرزه أخيراً على المصامدة الموحّدين[95] ثم أجاب على عتاب بيزة ـ الوارد لا محالة في الرسالة السالفة الذكر ـ بشأن السفينة الإسكندرية التي خصّتها تونس بحسن القبول ، رغم ما ألحقته برعايا بيزة من أضرار . وقد حاول الاعتذار لدى أعضاء مجلس الشيوخ ، مذكّراً بأنه كان قد وجّه سفينة للغزو في البحر ، فاضطرّت إلى الإرساء في الإسكندرية حيث حظيت بحسن القبول . وبعد مدّة قليلة قدمت سفينة إسكندرية إلى تونس حيث عوملت بالمثل ، ثم تزوّدت بالمؤونة وباعت بعض أسراها وقفلت راجعة وعلى متنها القسم الأكبر من أولئك الأسرى . وكان ابن أبي خراسان يجهل تماماً وجود أسرى من رعايا بيزة في تلك السفينة ، وإلاّ لما تردّد في افتدائهم بماله الخاصّ وإرجاعهم إلى بلادهم بلا مقابل . وحرصاً على وضع حدّ لمثل هذه الأعمال ، أصدر تعليمات لمنع النخّاسين أو الأسرى من القيام بصفقات تتعلّق برعايا بيزة في كامل تراب بلاده . وقد أبرم هذا الاتفاق مع الشيخ الرئيس أبي تميم .

وأمّا بخصوص العادة الجاري بها العمل في تونس والمتمثلة في أخذ خمس حفنات (ملء اليدين)[96] من كل كيس حبوب ، فسوف يُقتصَر على أخذ أربع قبضات (ملء اليد) من أعلى كل كيس[97] . وفيما يتعلّق بالبضائع التي يستوردها رعايا بيزة ولكنّهم لا يتمكّنون من بيعها ، ومع ذلك فقد كان مُوظّفاً عليها (كما هو الشأن بالنسبة إلى المبيعات) أداء قدرة واحد من عشرة[98] ، فإنها ستُعفى في المستقبل من أيّ أداء ويمكن نقلها بكلّ حرية .

وكان الشبّ الذي يصدّره رعايا بيزة خارج إفريقية يدفع 38 ميلاراً وثلث الميلار عن كلّ قنطار[99] ، وسيُعفى ابتداء من ذلك التاريخ من أيّ أداء .

---

95) الفصل الخامس من الباب الرابع من هذا الكتاب .

96) الفصل السادس من الباب العاشر : « المكاييل والموازين » .

97) فهذا الأداء منخفض بأكثر من النصف .

98) لم يرد هذا التوضيح إلا في النص اللاتيني .

99) لم يرد هذا التوضيح إلا في النصّ اللاتيني .

وبعد ذلك تأتي في النصّ العربي عبارات تبدو مُشوَّهة ، وقد استنتج منها المحقّق أماري ، ومَن اقتدى به من المؤلّفين الآخرين أنّ رعايا بيزة كانوا يملكون فندقاً في مدينة تونس[100] .

ولكن يبدو ـ إن لم نكن قد أخطأنا في التأويل ـ أن ابن أبي خراسان قد صرّح بأنه أمر بمراعاة تجار الجمهورية والاعتناء بهم[101] .

وبناءً على ذلك فإنّ أسيراً من رعايا بيزة يوجد في مدينة تونس ، سيُطلّق سراحه بلا فدية ، إن أمكن ذلك ، أو يفتديه الأمير بماله الخاصّ ، ويُعامَل معاملة حسنة ثم يُوجَّه إلى بيزة . وفي المقابل تقرّر أن يُعامَل أيّ أسير تونسي يوجَد في بيزة بنفس المعاملة ويُرجَع إلى بلاده[102] .

وقد أُبرِم الاتّفاق الذي استبعد أيّ موضوع مثير للخلاف ، بصورة باتّة لا رجعة فيها ، مع سفير بيزة المكلّف بإبلاغ الرّسالة وتقديم بعض الإيضاحات شفهيّاً .

النّخاسة (تجارة الرّقيق) :

لا شكّ أن تجارة الرقيق ، أي الزنوج السودانيّين والصقالبة الأروبيّين[103] ، كانت نشيطة جدّاً في القيروان والمهديّة وتونس . وقد اتّسع نطاقها في آخر عهد بني زيري بفضل الغزو في البحر .

ويبدو أنّ بلاد كانم في السّودان كانت أهمّ مزوّد لإفريقية بالعبيد السّود . وكانت القوافل القادمة من الجنوب الإباضي تتجمّع في زويلة التي تبعد عن أجدابيّة أربع مراحل[104] .

وكان أسرى الحرب من الرّجال والنّساء يُبَاعون بالمزاد العلني[105] أو يُطلّق سراحهم مقابل فدية[106] .

---

100) أكد لاتري (المقدمة 37) أن رعايا بيزة كان لهم في مدينة تونس حيّ أو فندق خاصّ يحتوي على عدة منازل وأسيجة .

101) إن النصّ التالي الذي نشره أماري مبهم وغير مستقيم :

« وأمرنا ليصاير عامة تجاركم والقيامة بهم الأهسل (أو الأهال) بسورهم وحرياتهم على الإكرام والرعاية والاهتمام » .

وقد اقترحنا القراءة التالية :

« وأمرنا أيضاً بمراعاة تجاركم والعناية بهم والاعتناء بشؤونهم وجَرْيانهم على الإكرام والرعاية والاهتمام » .

102) هذا البند وارد في صلب النصّ اللاتيني ، ووارد في هامش النصّ العربي ، مع بعض الاختلافات .

103) شوب ، 22-23 . سابوس ، 36 .

104) الشماخي ، 509 ، البكري ، 10-11 ، الاستبصار ، الترجمة ، 61 .

105) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 129/6 : شراء جارية داخلة في المغنم .

106) فتوى التونسي ، المعيار ، 332/2 : حُدّدت فدية عِلْج بمائة دينار .

والجدير بالتّذكير أنّ سوق العبيد بالقيروان كانت تسمّى « البركة » ولا شكّ أنها كانت تحمل نفس الاسم في تونس[107] . وكان نفس التاجر يتعاطى تجارة الرقيق والدوابّ[108] . وكان كثير من الصقالبة[109] يُعرَضون للبيع في السوق ويتعرّضون للخصي[110] .

وكانت إفريقيّة وسائر مناطق المغرب تزوّد المشرق بالمولّدات الجميلات والرقيق المِلاح والخصيان السّودانيّين أو الصّقالبة[111] .

وقد وصف رئيس النخّاسين الأسيرة المثالية بقوله : "إنها فتاة في التاسعة من عمرها كتاميّة الأب ، صنهاجية الأمّ ، قد تربّت عند المصامدة وأُتِي بها إلى المدينة المنوّرة حيث مكثت ثلاث سنوات ثم إلى العراق حيث قضت عشر سنوات[112] .

وأشارت إحدى الفتاوى إلى نصراني توفّي وترك عبداً مسلماً يمكن عتقه بعد وفاة الهالك مقابل 100 دينار ، وكميّة من الخمر تساوي 100 دينار ، ونقوداً تبلغ قيمتها 100 دينار ، وولدَيْن نصرانيَّيْن . وتتعلّق قطعة من الرقّ محرّرة بالعبرانية بهبة أَمَة ، والأرجح أنها حُرِّرت بالمهديّة في القرن الحادي عشر[114] .

وفي عهد بني زيري بالمهديّة كان الغزو في البحر هو المزوّد الرئيسي بالعبيد الروم والجواري والخدم . وقد سئل اللخمي عن جواز مثل هذه العمليّات نظراً لعدم شرعية الطريقة التي يتوخّاها القراصنة لاقتسام الغنائم[115] .

ولم يمتنع الهلاليّون عن اختطاف العبيد لبيعهم فيها بعد . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأنّهم كانوا يتعاطون تجارة الأسرى على نطاق واسع .

---

107) المدارك ، 2-172/3 ظ ، ترجمة أبي ميسرة (ت 337 أو 339 هـ/948-951 م) ، المعيار ، 129/6 .
108) فتوى ابن أبي زيد حول نخّاس يتاجر في الدوابّ والرقيق .
109) دائرة المعارف الإسلامية ، 79/4-80 .
110) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 41/2 و .
111) ابن حوقل ، 97/1 ، ماس لاتري ، المقدمة ، 215
112) السقطي ، 50 .
113) فتوى التونسي ، المعيار ، 140/9-141 .
114) Objets Kairouanais ، 209/1 .
115) فتوى اللخمي ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2 ظ ، مخطوط الرباط ، 121/2 ط ، المختصر ، 82 ظ .

في عصر أبي بكر بن عبد الرحمان كانت الخادمة النصرانية تباع في صقلية بثمن أغلى من الخادمة المسلمة ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 223/2 و ، مخطوط الرباط . 80/2 ظ .

وقد عُرِض على اللّخمي والمازري رسم شهود يثبت أن الخادمة (ربّما كانت زنجيّة) التي اشتراها أعرابي بخمسين (أو ستين) ديناراً قد كان لها مالك شرعي[116] .

وجاء في فتوى للمازري أنّ رجلاً جاء ليبيع خادمة يقول إنّه قد اشتراها من ناحية الجبال . وقد أكّدت الخادمة أنّها من أصل حرّ ، وهي مولودة من أبوَين حُرَّين في جبل نفوسة ، حيث يعرفها كلّ الناس . وقد أثبت حاجّ قادم من نفوسة صحّة أقوال الخادمة ووعد باستقدام شهود ، ولكنه لم يفعل ذلك ، فمرّت الأيّام وأراد صاحب الخادم أن يعود بها . وقد أشار تعليق بخطّ القاضي أنّ الأمر يتعلّق بمُوَلَّدة[117] .

لمحـة عـامّـة :

قدّم إلينا الجغرافي المقدسي[118] القائمة التالية في الصادرات الإفريقية وهي : الزيت والفستق والزعفران واللوز والخوخ المجفّف والمزامير وقطع الجلد والقِرَب . وكانت الأقمشة المغربيّة ولا سيما منها المعروفة « بالسوسيّة » مُقدَّرة في مصر حقّ قدرها[119] .

وباختصار ، كانت الواردات الإفريقية تتمثّل في الموادّ التالية : القمح ـ وبالخصوص في سنوات القحط وفي مدّة استقرار أمراء بني زيري بالمهديّة ـ والخشب والمعادن وموادّ الصّباغ والتوابل[120] . وتتمثّل الصّادرات الإفريقية فيما يلي : الزيت والجلد والجلود والصوف والحرير والشمع والنسيج والمرجان والشبّ والزعفران والفواكه والعبيد والذهب[121] .

---

116) فتوى اللخمي ، المعيار ، 456/9 ، فتوى مماثلة للمازري ، المعيار ، 421/9-454 .

117) فتوى المازري ، المعيار ، 151/9 : « الخادم السمراء المُوَلَّدة » . [أي المولودة من أبوَيْن أبيض وأسود] .

118) المقدسي ، 48-49 .

119) الخطط ، 240 ، 258 ، 260 ، 261 ، 262 ، 358 : إشارة في سنة 516-517 هـ/1122-1124 إلى « شقّة خزّ مغربي» و «شقّة سوسي» و «منديل سوسي» . وأشار الإدريسي ، 67 إلى ما يلي : «ويُعمَل في بلاد السّوس الأكسية الرقيقة والثياب الرفيعة التي لا يقدر أحد على عمل مثلها بغيرها من البلاد » . فلا ندري هل أن كلمة « سوسي » منسوبة إلى بلاد السوس أو إلى سوسة .

120) انظر أيضاً ، برنشفيك ، المرجع السابق [الترجمة العربية ، 273/2-277] . وحسب ابن حوقل ، 80/1 كانت مدينة البشرى [بشمال المغرب] تصدّر القطن إلى إفريقية وغيرها . وحول تجليد الكتب ، انظر ، Objets Kairouanais ، 211/1 .

121) برنشفيك ، نفس المرجع ، Pernoud ، المرجع المذكور ، 171/1-172 ـ ماس لاتري ، المقدمة 222 . ابن حوقل ، 97/1 . انظر أيضاً : كورتوا (Ch. Courtois) ، تحيّة جورج مارسي ، 54/2 .

الباب الحادي عشر
الحياة الدينية

الفصل الأوّل
المذاهب السنيّة

1 ـ المذهبان الحنفي والشافعي :

يبدو أنّ المؤلّفين[1] الذين أكّدوا أنّ المذهب الحنفي هو المذهب الذي كان سائداً في إفريقيّة حتى عهد المعزّ بن باديس ، قد طغت عليهم نظرة تبسيطيّة للأشياء ، جعلتهم يعترفون لصانع القطيعة مع القاهرة بالفضل في استئصال المذهب الشيعي وفرض الإجماع المالكي . ولئن كان من المحتمل أن يكون المذهب الحنفي قد ظلّ قائم الذات إلى حدّ ما ، باعتباره مذهباً مستقلاً عن المذهب الشيعي ، إلاّ أنه لم يكن هناك ما يؤكّد قيامه بدور ذي بال بعد سقوط الدولة الأغلبيّة ، بل إن غياب المجادلات بين الفقهاء الأحناف والمالكية وانضمام كثير من الأحناف إلى المذهب الشيعي ، يدلّان على خلاف ذلك . فقد تحقّق التفوّق المالكي قبل عهد بني زيري ، وتدعّم فيما بعد وبلغ ذروته في عهد المعزّ بن باديس ، متسبّباً في القطيعة بين بني زيري والفاطميّين . ويبدو أن الاتّحاد الوثيق بين الأحناف والفاطميّين قد أوهم بعض المؤلّفين وحثّهم على تمديد فترة التفوّق الحنفي إلى ما بعد ظهور الدولة العبيدية بمدّة طويلة ، وهو ما يتنافى مع الحقيقة التاريخية . والجدير

1) أحمد أمين ، **ظهر الإسلام** ، 1/293-294 ، نقلاً عن القاضي عياض ـ الديباج ، 12 ـ الكامل ، 9/106 ، المقدسي ، 42-44 ابن خلكان ، 2/105 . **نجوم** ، 4/106-107 .

بالذكر في هذا الصدد أنّ « جماعة من العراقيّين » [أي الأحناف] قد خرجوا مع أبي يزيد صاحب الحمار[2] .

أمّا المذهب الشافعي ، فسنرى أنّ تأثيره لا يمكن إهماله ، ويبدو في كثير من الحالات[3] أنّه قد ساهم في انتشار العقيدة الأشعريّة . وكان ذلك التأثير واضحاً بوجه خاصّ لدى فقيهَيْن اثنَيْن هما الإبياني (ت . 352 أو 361 هـ/ 963-972 م) والسيوري (ت . 460 أو 462 هـ/ 1067-1069 م) . على أن المذهب المالكيّ الصنهاجي لم يكن متحجّراً ولا منغلقاً ، بل بالعكس من ذلك يبدو أنه كان متفتّحاً على جميع الاتّجاهات السنيّة ، على نحو جدير بالملاحظة .

ولا يفوتنا أن تقلّص المذهب المالكي في العراق لم يتمّ إلا بعد وفاة الأشعري (375 هـ/ 985-986 م)[4] ، أي بالضبط في الوقت الذي توطّد نهائيّاً في إفريقيّة .

المذهب المالكي :

الرّباط : لقد فقد الرباط كلّ قيمة عسكرية إبان ظهور الدولة الصنهاجيّة[5] . ذلك أنّ المرابطين الذين كانوا يعيشون في الرّباطات لم يعودوا يقومون بأيّ دور عسكري ، بحصر المعنى ، فقد أصبحوا متعبّدين ، مكرّسين حياتهم للتزهّد ، وليس لهم من المقاتلين إلّا الاسم . على أنّ هذه المؤسّسة ما لبثت أن أصبحت مهملة ، وأقفرت الرباطات من سكّانها . وتسمح لنا بعض المصادر بتتبّع مراحل انحطاط رباط المنستير .

وكانت الرباطات تتمتّع بكثير من الأوقاف المحبّسة عليها[6] ، وكان يشرف على حظوظها

---

2 **رياض النفوس** [طبعة بيروت ، 339/2] .

3) ابن فرحون ، الديباج ، 13 : ظهرت آثار المذهب الشافعي جزئياً في إفريقية والأندلس بعد القرن الثالث من الهجرة ، وحول المذهب الشافعي في إفريقية قبل بني زيري ، انظر مدارك ، 2-10/3 و ، 28 ظ ، 29 ظ ، 88 ظ، 95ظ، 167و، أبو العرب ، 213 الضبّي ، 431 رقم 1293 ، الحميدي ، 309 رقم 763 .

4) مدارك ، 2-218/3 و ـ 219 و .

5) انظر حول الرباطات الإفريقية قبل بني زيري ، جورج مارسي ، نشرية معهد الدراسات العليا المغربية ، 11/ باريس 1925 م ، 395/2-430 ، ولنفس المؤلف كتاب **الفنّ الإسلامي** ، 45/1 ظ . الثانية ، **الهندسة المعمارية الإسلامية** ، 29-35 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1230/3-1232 (ج . مارسي) ، الهادي إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 294-298 ، زروق وابن ناجي ، **شرح الرسالة** ، 13/2 .

6) جاء في ترجمة السبائي (ت . 356 هـ/966-967م) ، **رياض** [ط . بيروت ، 469/2-506] ومدارك ، 2-182/3 و ، أن حمام الجزارين كان محبّساً على القصر الجديد .

أمناء[7] . فقد تولّى أهل « المنزل » (أي البلدة) زراعة أرض مخصّصة لإنتاج الحلفا ومحبّسة على حصن . ولكنّ العمليّة التي تمّت في الأصل لصالح المرابطين بلا شكّ وبموافقتهم قد انقلبت ضدّهم وأصبحت تهدّد وجودهم ذاته[8] .

وكان قصر أبي (أو ابن) الجعد معموراً في عصر القابسي . وقد وهب أحد المرابطين أملاكه وبالخصوص بستانَيْن لعدد من أصحابه وللفقراء والمساكين[9] . ولا ندري إن كان قصر زياد الذي حوّله عبيد الله المهدي إلى دار صناعة قد عاد إلى ما كان مرْصوداً له[10] . وأشارت بعض المصادر إلى أنّ العادة المتمثّلة في تحبيس أوقاف على فقراء المنستير لم تزل جارية بعد غزوة بني هلال[11] . وكان المرابطون المقيمون في قصر المنستير يعيشون بالخصوص من مداخيل الصيد البحري الذي كان يمثّل بالنسبة إليهم حقّاً يحظى بالأولويّة ، مثل التقاط العشب والخشب في المناطق الغابيّة . إلّا أنّ فتوى للقابسي قد أشارت إلى وجود صيّادين ، كان أهل المنستير يشترون منهم كلّ أسماكهم لبيعها في المدن الأخرى ، وربّما كان أولئك وهؤلاء لا يقيمون بالرباط . وقد ألحقت هذه التجارة أضراراً جسيمة بتموين سكّان رباط المنستير وقصر ابن الجعد . ورأى القابسي أنّ الأسماك المتأتّية من هذا الصّيد يجب أن تُعرَض للبيع على عين المكان ، أمّا الكميّة الفائضة التي لم تجد من يشتريها ، فيمكن بيعها في أماكن أخرى[12] .

وكان أهل القيروان يتحوّلون إلى المنستير لقضاء شهر رمضان[13] . وبالنسبة إلى الأعياد أو المواسم ، لا سيما موسم عاشوراء ، كان النّاس يتوافدون على الرباط[14] . وكان القاضي يطالب

---

7) جاء في رياض النفوس [ط . بيروت 437/2] أنّ أحد معاصري السبائي كان أميناً بالمنستير ، وعُثِر في مقبرة المنستير على شهادة قبر « أمين المنستير » المتوفى سنة 419 هـ/1028 م ، زبيس ، Corpus، 29/2-30 رقم 6 . وتحدثت فتوى لعبد الرحيم (بن الصائغ) عن وكيل فقراء المنستير المكلف بتوزيع الدنانير المسندة إليهم ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 120/2 و ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2 .

8) فتوى القابسي ، المعيار ، 24/7-25 .

9) فتوى القابسي ، المعيار ، 405/9 . وفي نفس المصدر ، 133/1 تحدّث القابسي عن صلاة أقامها في قصر أبي الجعد .

10) رياض النفوس ، [ط . بيروت 222/2] ، إدريس ، المرجع السابق 1936-298 .

11) فتوى عبد الرحيم (بن الصائغ) ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 120/2 و ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 263/2ط.

12) فتوى القابسي ، المعيار ، 2/2 .

13) مثلاً القابسي وأبو بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 138/1 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 م ، 31 .

14) جاء في رياض النفوس [ط . بيروت ، 127/2] أنّ رجلاً أسود كان يأتي كل سنة إلى قصر الطوب أول رجب فيقيم فيه رجب وشعبان ورمضان . وقبل سنة 324 هـ/935-936 م كان الناس يأتون من بعيد (على الأقل من سوسة) لإقامة =

أحياناً المتقاضين بأداء اليمين « ببعض الرباط »[15] . وفي فترات الاضطرابات كان النّاس يعهدون إلى المرابطين بأموالهم التي لم تكن مع ذلك بمنأى عن اللّصوص[16] . ويرى ابن أبي زيد أن مهمّة المرابطين الأساسية تتمثّل في أداء الصلوات في أوقاتها . وعندما يكثر المصلّون في المواسم لا ينبغي اللّجوء إلى المُسمِّع . ويعتبر الاجتماع لتلاوة القرآن بعد صلاة الصبح بدعة . ولا يجوز اعتبار « القراءة » (تلاوة القرآن) أفضل من الذّكر الذي ينبغي أن يتمثل في الخشوع ومحاسبة النفس أكثر ممّا يتمثل في الأذكار ذاتها . ولا ينبغي أن يكسب ساكن الحصن رزقه إلاّ من كدّ يمينه ، ولا يجوز اعتبار إيرادات الأرض المحبّسة على الفقراء إلاّ مجرّد إعانة ، كلّما دعت الحاجة إلى ذلك . ولا ينبغي أن يستغلّ الأغنياء « أرض السبيل »[17] .

وقد لوحظ أثناء توزيع الإعانات (التّسعيف) في ربيع الثاني 395 هـ/ 15 جانفي ـ 12 فيفري 1005 م ، في شكل دراهم دفعها أهل المهدية لسكّان رباط المنستير ، ربّما في مقابل استغلال الزياتين المحبّسة على الرباط ، أنّ كثيراً من المرابطين المزعومين لا يقيمون بالرباط ، بل يكتفون بالحصول على إحدى الغرف ولا يحضرون إلاّ لأخذ نصيبهم من التبرّعات ثم يعودون إلى بيوتهم . وقد كانوا يستغلّون قطعة الأرض التي يقيمون بها ، إذ يبدو أنّهم هم الذين احتجز السلطان كرومهم مدّة من الزمن ، وأجبرهم على أن يسلّموا إليه كلّ محاصيلهم من العنب ، مقابل منحهم نصف قيمتها[18] . ولا شكّ أنّ مثال ذلك المرابط المتعبّد الذي كان يتعاطى التجارة ويخزن البضائع في غرفته لبيعها فيها بعد في الوقت المناسب ، كان شائعاً أكثر فأكثر[19] .

وكان القصر ممنوعاً على النساء ، وهذا ما دعا المرابطين إلى الإقامة خارج الرباط الذي تحوّل

= صلاة عاشوراء بالمنستير ، نفس المصدر ، مدارك ، 2-175/3 و : كان أبو علي حسن بن نصر (ت . 341 هـ/952-953 م) يسهر على « مواسم الرباط » بسوسة . وكان ابن الإمام (ت . حوالي 349-352 هـ/960-964 م) يخرج من المنستير إلى سوسة عندما يتوافد الناس على القصر في أيام المواسم ، نفس المصدر ، 178 ظ ، إدريس ، المرجع السابق ، 1956 ، 361-363 (ترجمة ابن التبّان) .

15) فتوى المازري ، المعيار ، 130/8-131 ، البرزلي ـ مخطوط الرباط ، 160/2 ظ ، 161 و : بقصر الرباط (أي بلا شكّ رباط المنستير) .

16) مناقب ، 234-235 ، 241-242 .

17) فتوى ابن أبي زيد حول رباط المنستير ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 173/1 و ، 176 ظ ، مدارك ، 2-176/3 و : كان الكانشي يمسك عن زراعة أرض الحِمَى لانه يستطيع أن يستغني عن ذلك بزراعة الأرض في مناطق أخرى .

18) فتوى القابسي ، المعيار ، 438/9-439 .

19) فتوى أبي بكر بن عبد الرحمان ، المعيار ، 159/7 .

شيئاً فشيئاً إلى محـلّ لخزن المؤونة ، وانجرّ عن ذلك بناء أماكن لإيواء المتعبّدات قبليّ رباط المنستير ، قرب ضريح السيّدة[20] .

وقد شهد المازري إخلاء القصر الكبير بالمنستير من سكّانه . وكان السلطان قد كلّفه قبل ذلك ، هو و « صـاحبه » أبـو علي حسن (بن بكـر البريـري المهدوي)[21] بـالقيام بتحقيق في المنستير . فضبطاً مع الشيخ أبي حفص (عمر القمودي)[22] الأحكام الشرعية الواجب مراعاتها ، ولكن بعد ذلك بقليل توفّي السلطان[23] وبقيت الأمور على حالها . وقد تأسّف المازري لانحطاط تلك المؤسّسة وأوصى بأن تُجرى عليها إصلاحات بلطف . وأصبح القصر الكبير لا يحتوي إلّا على مخازن القمح والشعير التابعة لبعض المرابطين المقيمين داخـل القصر أو خارجـه . وكان بعض الزائرين يغلقون مخازنهم ويغيبون عدّة أشهر . وكان كثير من المرابطين لا يبيتون في القصر بـل خارجه ، ولكن ذلك لم يمنعهم من الحصول على الصّدقات (المعروف) مثل غيرهم من سكّان القصر . وقد أقرّ المازري حقّ المرابطين في زيارة زوجاتهم من حين لآخر ، لتلقّي العلاج في صورة المرض ، ووصف البساتين والمغارس التي لم تكن موجودة في عصر « الأئمة » . ونستنتج من ذلك أن البوادي المجاورة قد تمّ إحياؤها . وقد استحـوذ بعض المرابـطين ، أكثر من غـيرهـم ، على الأراضي التي غرسوها وأصبحوا يتوارثونها[24] .

ووصف المازري[25] بعض الاستعراضات الليليّة التي كانت تُنظّم على الأرجح في سوسة والمنستير . فكان النّاس يتجمّعون إثر صلاة العشـاء الآخرة ويتـوجّهون إلى السـور على ضـوء القناديل ، على غرار الجنـود ، مردّدين بصـوت واحد : « سبحـان الله وبحمده ، سبحـان الله العظيم » . ثم يجتاز الموكب المدينة بنفس الطريقة ، ويطوف بالشوارع مارّاً بدكاكين الجـزّارين وأكوام الفضلات ، إلى أن يصل إلى السور .

وقد أيّد المازري تحريم مثل هذه البدعة واستنكر تلك الأناشيد وذلك الحماس غير اللائق ، وكذلك ارتداء الأكسية والملابس الصوفيّـة الخشنة ذات اللّون الأسـود ، وكلّ تلك التصرّفـات

---

20) انظر الباب السابع من هذا الكتاب : المنستير .

21) وهو الاسم الكامل حسب البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 180/1 ظ .

22) حول هذا الفقيه ، انظر ، إدريس المرجع السابق 1955 ، 37 .

23) قراءة ظنيّة ، فهل يتعلق الأمر بتميم أم يحيى أم علي ؟

24) فتوى المازري ، المعيار ، 119/7-122 . البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 176/1 ظ ، 178 ظ .

25) المعيار ، 243/12-247 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، الإمام المازري ، 76-86 .

المقتبسة بصورة أو بأخرى ، عن الرّهبان النصارى ، حسب قوله .

وكان بعض النسّاك يعيشون في جبل زغوان وفي الوطن القبلي[26] . ولم تَخْلُ البلاد من العجائز المتعبّدات ، مثل تلك المرأة الصالحة التي كانت تتردّد على القابسي في القيروان وقد أسماها « بعجوز الحارة »[27] .

وقد كان الاختلاف أو بالأحرى التمييز بين الفقهاء والمتعبّدين ، وبين العلماء والنسّاك ، نظريّاً أكثر منه حقيقيّاً . وعلى أيّ حال يبدو أن أصحاب كتب الطبقات قد حرصوا على التقليل من أهميّته ، مؤكّدين عمداً على ورع فقيه مثل ابن أبي زيد ، وعلى علم رجل صالح ، مثل محرز بن خلف . « فلا علم بلا عمل ولا زهد بلا فقه »[28] .

التصـوّف :

كان للتصوّف ، باعتباره مذهباً روحانيّاً ، ذا صبغة باطنيّة بصورة تزيد أو تنقص ، أتباع متحمّسون بالقيروان قبل مدّة طويلة من قيام الدولة الصنهاجية[29] . ففي القرن الثالث من الهجرة / القرن التاسع ميلادي ، كان تُعقَد اجتماعات صوفيّة أسبوعيّة في مسجدَيْن من مساجد القيروان على الأقلّ ،هما مسجد الخميس[30] وبالخصوص مسجد السبت[31] .

---

26) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 279 ، **معالم الإيمان** ، 166/3 .

27) **معالم الإيمان** ، 177/3-178 ، انظر أيضاً مجلة الدراسات الإسلامية ،1935 م ، 285 .

28) إدريس ، المرجع المذكور ، 1935 ، 273-274 . وبالعكس من ذلك ، فقد جاء في **رياض النفوس** [ط . بيروت ، 215/2] أن النّاسك أبا جعفر القمودي (ت . 324 هـ/935-936 م) قد تأسف لأنه لم يحسن قبول الفقيه ابن اللبّاد الذي لم يعرفه ، وقد خرج ابن اللبّاد وهو يقول : عالم عند الله أفضل من سبعين عابداً . انظر أيضاً جواب أبي إسحاق التونسي حول هذا الموضوع في المعيار ، 226/11 . وانظر فتاوى ابن أبي زيد ، **المعيار** ، 241/12 وأبي بكر بن عبد الرحمان ، نفس المصدر ، والمازري ، **المعيار** ، 241/12 .

29) إدريس ، المرجع السابق ، 1935 ، 289-291 ، وحول أحد كبار المتصوّفين القيروانيّين » وهو ربيع القطان ، انظر **رياض النفوس** ، [ط . بيروت 323/2-346] **ومعالم الإيمان** ، 35/3-42 ومدارك ، 2-155/3 و . ظ ، انظر أيضاً ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 129 . وحول أبي مالك سعد بن مالك الدبّاغ الصّوفي (ت . 361 هـ/971-972 م)، انظر ، **معالم الإيمان** ، 97/3 : كان دِينَوْري المغرب . وقال أبو عبد الرحمان محمد السلمي في **تاريخ الصوفية** إنّ أبا مالك الدبّاغ كان من تلاميذ أبي سعيد الخرّاز وإنه لا يدانيه أحدٌ في « علم الحقيقة » . وحول الدِّينَوْري ، انظر ، **البلدان** ، 188/4-189 .

30) **معالم الإيمان** ، 116/2 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 8/32 و .

31) **رياض النفوس** [ط . بيروت 471/1-493-495-496] ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، 289-291 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 95 ظ ، **معالم الإيمان** ، 159/2-160 ،27/3-28 ـ مدارك ، 2-10/3 ظ ، 158 و ، **الديباج** ، 107 .

وكان يحيى بن عمر (ت. 289 هـ/ 901-902 م) قد استنكر بشدّة هذه البدعة ، بل ألّف كتاباً لمنع الناس من التردّد على مسجد السبت . وقد عارضه كثير من أهل القيروان المواظبين على تلك الجلسات التي حاول بنو عُبَيْد هم أيضاً منعها ، ولكن لأسباب أخرى[32] . ونحن نتصوّر مدى مساهمة هذا المركز الصوفي في إثارة حماس المالكيّة ضدّ الشيعة .

واستنكر حمديس القطّان (ت . 289 هـ/ 901-902 م) من جهته مثل هذه التصرّفات الملاحظة في المنستير[33] . إلاّ أنّ جهود المتشدّدين من الفُقهاء لم تمنعها من الاستمرار . وكان ابن أبي زيد وابن التبّان وغيرهما يتردّدون خفيةً على مسجد السبت ، خوفاً من بني عبيد[34] . ولم يتردّد لا القابسي ولا أبو عمران الفاسي على هذا المسجد[35] الذي لم يهجره الناس[36] .

والجدير بالتذكير أن المعزّ بن باديس قد استاء من الاجتماعات التي كان يعقدها في الجامع الأعظم بالقيروان أبو الحسن محمد بن أبي الفضل عبد الصمد الجواهري قبل حصول القطيعة مع الفاطميّين . وقيل لنا : إنّ هذه الاجتماعات التي كان يحضرها كثير من الرجال والنّساء ، كانت

وقد بُني هذا المسجد بالطوب في ربض المبطلين . وفي عصر ابن ناجي كان يسمّى مسجد العربي وكان يقع خارج القيروان قرب ضريح الصحابي أبي زمعة البلوي . وفي القرن الثالث هجري كان يُعقَد فيه كل يوم سبت ميعاد لتلاوة بعض الآيات القرآنية وبعض الأذكار والقصائد الصوفية . وكان يحضر هذا المجلس أحمد بن معتب صاحب سحنون وفي فترة لاحقة ابن اللبّاد وربيع القطان وأبو بكر بن سعدون وكان بعض الناس يتردّدون على هذا المسجد بالخصوص لأن بني عُبَيد لا يستحسنون ذلك . وقد جاء في رياض النفوس ، مخطوط لندن ، أن هؤلاء قد منعوا التردّد على مسجد السبت .

32) ومن الجدير بالملاحظة من جهة أخرى أن يحيى بن عمر الأندلسي الأصل قد تعرّف في صباه على يُمن بن رزق ، أصيل طليطلة صاحب كتاب الزّهد . وقد كلّف القائمون على مسجد السبت أندلسيّاً آخر بأن يقرأ في مسجد يحيى بن عمر الواقع « لحذاء حمّام النعمان » [بسوسة ؟] بعض آيات من القرآن الكريم تستنكر النهي عن حضور مسجد السبت . وكان أحد شيوخ ابن أبي زيد ، وهو أبو محمد بن مسرور الحجّام (ت . 346 هـ/957-958 م) ينهى عن قراءة كتاب الزهد ليمن بن رزق الذي كان ينعته « بصاحب الوساوس » ، انظر رياض النفوس ، [ط . بيروت ، 492/1 ، 493-494] ومجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، 289-290 ، وابن فرضي ، 63/2-64 رقم 1611 .

33) مدارك ، 17/3-2 ظ .

34) رياض النفوس [ط . بيروت ، 286/1] : « كان ممنوعاً دخول الناس إلى مسجد السبت » .

35) معالم الإيمان ، 27/3-28 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 95/1 ظ :

36) كان يتردد على مسجد السبت أبو عبد الله أحمد الخيّاط الواعظ المعروف بابن نمرة ، وهو رجل صوفي تتلمذ إلى عدد من الأساتذة المشارقة من بينهم الدينوري . وقد حضر معه ذات يوم في ذلك المسجد أحد تلاميذ ابن أبي زيد وهو أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت . 422 هـ/1030-1031 م) وعندما توفي ابن نمرة كفنه ابن أبي زيد الذي توفي بعده بثلاثة أيام ، معالم الإيمان 134/3-135 .

تشبه الاجتماعات الملتئمة بمسجد القرافة بالقاهرة ومسجد السبت بالقيروان[37] .

وإنّنا لنميل إلى اعتبار هذه الاجتماعات مظهراً من مظاهر التصوّف الشعبي الكفيل بمعارضة التصوّف المالكي الإفريقي ، ممّا يفسّر ردّ فعل المعزّ ، ولكن ليس هناك ما يؤيّد هذا الافتراض .

وعلاوة على عمل الصوفيّين والمتعبّدين والفقهاء ، يبدو أن العامّة قد تعرّضت لتأثيرات أخرى خفيّة بصورة تزيد أو تنقص . فقد أشارت المصادر عدة مرّات متتالية إلى « شيخ عامّي » كان يثير حماس العامّة[38] .

ويبدو أن فرقة الكرّامية ذات النزعة التجسيمية قد قامت بدورٍ ما في هذا المضمار[39] . وباستثناء بعض الذين أشرفوا على مجازر الشيعة ، أمثال محرز بن خلف في تونس وابن خلدون البلوي في القيروان وابن المنمّر في طرابلس ، يبدو أن قادة أهل السنّة قد تجاوزهم ، إن صحّ التعبير ، التصرف العاميّ الذي حاولوا طوعاً أو كرهاً التخفيف من حدّته أو توجيهه ، بل قلّ استغلاله ، لمّا عجزوا عن التحكّم فيه .

وقبل عهد بني زيري بمدّة طويلة ظهر النسّاك المكلّلين بهالة الصلاح في حياتهم بمظهر مقوّمي الأخلق ومرشدي أهل السنّة . وقد بدا هؤلاء الذائدون عن السنّة منذ ذلك التاريخ ، وكأنّهم الزعماء الروحيّون ، بالنسبة إلى البرجوازية الصغرى والحرفيّين ، على الأقلّ ، وأصبحت السلطة تخشاهم وتقرأ لهم حسابهم[40] . وقد تعاظم نفوذهم ، لا سيما وقد حصل اتّحاد حقيقي بين الفقهاء والمتصوّفين ، وواصل الجبنياني ومحرز بن خلف فيها بعد عمل السّبائي . ويمكن تفسير نجاح ابن أبي زيد والقابسي ومن جاء بعدهم ، ذلك النجاح الذي انجرّ عنه الانتصار النهائي للمذهب المالكي ، بالتمازج المتناسق والمتماسك بين كافّة القوى الحيّة السنيّة في إفريقية .

واستقرّ أحد منظّري التصوّف من أهل صقليّة المسمّى عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله البكري ، بالقيروان حيث أصبح قدوة للآخرين . وقد ذهب به الأمر إلى التصريح بأنه تمكّن من رؤية الله في حالة يقظة ، مؤكّداً أنّ الفقهاء عاجزين عن فهم مثل هذه الأسرار الخفيّة . واستنكر

---

37) البيان ، 1/279-280 ، معالم الإيمان 3/236-239 ـ مدارك 2-3 ، 160 و ، إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/344-347.

38) انظر الباب الثالث ، الفصل الأوّل .

39) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 155-159 .

40) نفس المؤلف ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 60-88 .

ابن أبي زيد بشدّة هذه النّظريات وألّف رسالتَيْن في الموضوع [41] .

وقد أثار هذا الموقف ضجّة كبيرة في البلاد ، وتهجّم عدد كبير من الصوفيّين والفقهاء والمحدّثين على ابن أبي زيد واتّهموه بإنكار كرامات الأولياء ، كما لو كان من المعتزلة . وفنّد كثيرٌ من المؤلّفين الأندلسيّين والشرقيّين آراءه .

وقد استفتى بعض خصوم ابن أبي زيد من القيروانيّين ، وكذلك المعني بالأمر ذاته ، البقلاّني الذي قيل إنّه ألّف كتاباً يحمل هذا العنوان : « **الفرق بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء** » ، مصرّحاً في البداية بقوله : « شيخنا أبو محمد رضي الله عنه متسع العلم في الفروع ، مطلع على جمل من الأصول ، لا ينكر كرامات الأولياء ولا يذهب مذهب المعتزلة »[42] .

ويتّضح من ذلك أن الأمر يتعلّق بتوضيح أكثر مما يتعلّق بتفنيد . إذ أنّ ابن أبي زيد ـ كما لاحظ ذلك المؤلف الأندلسي الطلمنكي ـ قد قصد وضع حدّ لبعض مظاهر التصوّف المتطرّف التي تشبه الشعوذة . ولربّما حرصاً منه على وضع حدّ لهذا الجدل ، أكثر من حرصه على الرجوع عن رأيه ، ألّف ابن أبي زيد كتاباً بعنوان « **جزء في إثبات كرامات الأولياء** »[43] . وذلك على الأرجح لتوضيح رأيه حول هذه القضيّة . وساهم القابسي في هذه المعركة ، فانضمّ إلى صفّ ابن أبي زيد ، وقد نُسِبت إليه رسالة تحمل العنوان التالي : « **الرسالة الناصرة في الردّ على البكريّة** »[44] . وليس من المستبعد أن يكون الداودي قد فعل مثل ذلك[45] .

الفقه المالكي :

وبالتوازي مع الاتّجاه الصوفي ، وتعزيزاً له ـ إنّ صحّ التعبير ـ هناك اتجاه ثانٍ يمثّله الفقهاء الذين كرّسوا جهودهم أساساً لدراسة المسائل التي تثيرها العبادات[46] .

---

41) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 129-130 ، وحوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 146-149 ، 154 . المعيار ، 305/2 ، 343-344 ، ستوريا ، 102/1 ـ مائوية أماري ، 100/2-101 .

42) حسب المعيار ، 305/2 ، 343-344 . وفي المدارك ، ينبغي على الأرجح تعويض « وكان أرشدهم » بـ « وكان أشدّهم » .

43) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 149 .

44) نفس المرجع ، ص 183 .

45) إدريس ، تحية ماسنيون ، 2/د33-334 .

46) ويتمثل هذا الاتجاه « في حفظ المناظرة (الجدل) والنظر للمسائل وتعليقها والحجّة » . وحسب القاضي عياض ، مدارك ، 2-160/3 ظ ، يمثّل هذه الطريقة أبو عبد الله محمد بن مسرور النجّار المعروف بابن الأصلع أو ابن الأقرع وربيع القطّان وابن حارث والممّسي . وقد نقض آراءهم أحمد بن النظر (كذا) الذي سمّاهم « العمليّة » ، وأيّده أحمد بن نصر وأبو =

ونحن نتصـوّر مدى السهـولة التي كـانوا يلتجـأون بها إلى المجـادلات الشرعيّـة المـطابقـة إلى أبعـد حدّ لعبقريّة الفقه . وقد كانوا يجتهدون في تذليل الصعـوبات التي تثـيرها تـدقيقات المسلمـين الأتقياء ، حرصاً منهم على التعلّق بالمعنى الضيّق للنصوص أكثر من التعلّق بروحها .

وقد كانت هذه المدرسة الامتثالية ذات النظر الضيّق ممثّلة بعدد من الفقهاء خلال العصر الصنهاجي(47) .

فقد لمس ابن التبّان ذات يوم ساق ابنته ، ظنّاً منه أنها زوجته ، فانفصل عن تلك الزوجة التي هي أمّ ابنته ، معتبراً أنها أصبحت محرّمة عليها . وقد درس معظم فقهاء العصر تلك المسألة بعناية فائقة(48) . إلّا أنّ هذا النشاط النظري لا ينبغي أن ينسينا أنّ الفقهاء المولعين بالمجادلات الشرعية ، بل حتى من كان منهم أكثر تفتّحاً ، قد اهتمّوا بمثل هذه القضايا التافهة . فبالنسبة إلى كثير من المسائل الواردة في المدوّنة ، كان ابن شبلون مثلاً يتعلّق بالمعنى الضيّق للنصّ ، في حين كان ابن أبي زيد يستخلص منه المبدأ الأساسي(49) .

وبقطع النظر عن المنافسة الشخصية ، يبدو أنّ الخلاف بين أبي بكر بن عبد الرحمان وبين أبي عمران الفاسي ثم اللّخمي والسيّوري فيما بعد ، يرجع سببه ـ على الأقلّ جزئياً ـ إلى اختلافات مذهبيّة ، وإلى النزاع الذي لا مفرّ منه بين التقليد والتجديد .

فبخصوص إمكانيّة تسبيح الجمادات ، نرى اللّخمي يقرّ هذا الاحتمال ، مستشهداً بـآية قرآنية ضدّ « أهل الأصول » الذين يصرّحون باستحالته . وقد حاول المازري عبثاً معارضته برأي القاضي أبي بكر بن الطيب البقلاّني ، فنصحه اللخمي بالتخلّي عن « كلام الأصوليين » الذي كان ينفر منه . وتوجّه إليه عبد الجليل الديباجي المعروف بابن الصابوني بقوله : إذن هذه الحصى تسبّح لله ؟ فأجاب اللخمي : أجل ! وبلغ به الغضب حدّاً جعل معارضيه يحجمون عن مواصلة النقاش معه(50) .

ميسرة . ومن سوء الحظّ فإن الفقرة تبدو مشوّهة . ومن الممكن تعويض « وأيّده » بـ « وأيّدهم » . وحول أبي ميسرة صاحب السبائي ، انظر ، رياض النفوس [ط . بيروت ، 2/361-367] ، وأبو العرب ، 23 . وحول أبي ميسرة أحمد بن نزار الفقيه ، انظر ، الهادي روجي إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 130 .

47) وكان يمثلها بالخصوص ابن أخي هشام وابن التبّان وابن معتب وابن شبلون وأبو بكر بن عبد الرحمان واللخمي والمازري الذكيّ .

48) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 360-362 .

49) نفس المرجع ، ص 370 .

50) فتوى المازري ، المعيار ، 12/233 .

وكان القضاة يحكمون بالإعدام على من يسبّون الدين ، وذلك طبقاً للتعاليم الفقهيّة[51] .
وقد أفتى فقهاء القيروان بجواز معاقبة « مستغرق الذمّة » (أي الخارج عن القانون) ، بأن لا تُرجَع إليه الأمانة التي يكون قد عهد بها إلى أحد الأشخاص[52] .

المجادلات الدينيّة :

لقد التجأت المدرسة المالكية القيروانية من أوّل وهلة إلى الجدل الديني ، وتأثّرت بعلم الكلام ، ولا شكّ في وجود بعض المعتزلة الإفريقيين في العهدين الأغلبي والفاطمي[53] ، وقد كان النّقاش حادّاً حول تعريف العقيدة[54] وخلق القيروان[55] وحرية الاختيار[56] .

ومن ناحية أخرى ، فإن المقاومة التي أبداها المذهب المالكي ضدّ المذهب الحنفي الذي كان يمثل مذهب الارستقراطية الأغلبيّة[57] لم تساهم قليلاً في تليين وإثراء المذهب المالكي الذي وجد نفسه بُعَيْد قيام الدولة الفاطمية الممثّل الوحيد للمذهب السنّي ، إثر الانضمام الجماعي للأحناف إلى الشيعة[58] .

واضطرّ علماء المالكيّة إلى مواجهة الدعاية الشيعية ، مُحَاوِلين ـ لا بدون مهارة فائقة ـ تفنيد حججها . وقد اضطلع ابن اللبّاد وبالخصوص ابن الحدّاد بهذه المهمّة الجسيمة بتفوّق[59] .

وإثر فشل ثورة أبي يزيد استفاد المذهب المالكي من فتور الدعوة الفاطمية[60] واستطاع في عهد بني زيري تنظيم صفوفه وتدعيم مواقعه والاستعداد لاستئصال المذهب الشيعي .

---

51) فتوى القابسي ، المعيار ، 411/2 ، ورسالة ابن أبي زيد ، 250-251 .

52) فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 105/6-106 .

53) أبو العرب ، 222-298 ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، معالم الإيمان ، 202/2 : كان ابن الحدّاد يسمّي المدوّنة ، المُدَوْدة . وأشار ابن حوقل ، 96/1 إلى أن زناتة ومزاتة كانوا في معظمهم معتزلة من أتباع واصل بن عطاء . وصرّح في موضع آخر ، 70/1 أنّ كثيراً من النّهابين في بادية قابس كانوا يقولون بالوعد والوعيد .

54) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، 132 ، ونفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128 ، والمدارك ، 2-10/3 و ، 17 و ، 22 و ، 24 و ، 153 ظ ، 173 ظ ، 245 و ، 248 ظ .

55) رحلة التجاني ، 19 ، الحلل ، 114/1 ، مدارك ، 2-5/3 و ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 ، 137-139 ، نقائش عربية ، 1/ رقم 77-83 ، 170 ، 267 : مشاهد قبور تؤكد أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق .

56) إدريس ، المرجع المذكور ، 139-141 .

57) أبو العرب ، 180-197 ، 219-222 ، إدريس ، المرجع السابق ، 129-137 .

58) أبو العرب ، 223-227 .

59) إدريس المرجع المذكور ، 148-152 ، أبو العرب ، 198-212 .

60) الصفدي ، 4/4 .

فقد أخبرتنا بعض المصادر أن أحد « العراقيّين » (أي الأحناف) وهو أحمد ابن قاضي المعزّ لدين الله الذائع الصيت ، أبي حنيفة النعمان ، الذي ربّما انضمّ مثل أبيه إلى المذهب « المشرقي » (الشيعي) ، سأل ابن أخي هشام (ت . 371 أو 373 هـ/ 981 - 983 م): لماذا يقول المالكية بإعدام من اتّهم عيسى بالزّنا ؟[61] .

وأجاب الشاعر ابن أبي سهل الخُشَني (ت . 406 هـ/1015-1016 م) عبد الله بن محمد الكاتب الذي دعاه إلى اعتناق المذهب الشيعي بأبيات مناسبة للمقام ، رجاه فيها عدم الإلحاح على رجل يأبى بيع ولائه بالمال[62] . وقبيل وفاة ابن التبّان (ت . 371 هـ/ 981 م) ذكرت بعض المصادر[63] أنّ نفس الوالي ونائب الأمير المعروف « بالمختال » قد دعا علماء القيروان ، ومن بينهم ابن أخي هشام وابن التبّان وابن شبلون وابن أبي زيد والقابسي ، إلى اعتناق المذهب الشيعي . وكان المختال قد تلقّى دعوة العزيز ، ثم قتله المنصور بعد ذلك بقليل[64] . فاجتمع أولئك العلماء بمسجد ابن اللّجام أو بدار بن أبي زيد ـ وربّما اجتمعوا مرّتين متتاليتين في المكانين المذكورين ـ وتعهّد ابن التبّان بأن يلبّي باسمهم دعوة المختال .

وبمحضر الوالي ، تناظر ابن التبّان مع اثنين من دعاة الشيعة هما أبو طالب وأبو عبد الله . وقد دار النقاش حول فضائل آل البيت وتفوّق علي بن أبي طالب على أبي بكر وفاطمة على عائشة .

وقيل : إن ابن التبّان قد أفحم منافسَيْه ، فقال له المختال : « يا أبا محمّد أنت شيخ المدنيّين ، ادخل العهد وخذ البيعة ! » . فعطف عليه أبو محمد وقال له : « شيخ له ستّون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويردّ على اثنتين وسبعين فرقة ، يقال له هذا ، لو نشرتني في اثنين ما فارقت مذهب مالك ! » . فلم يعارضه وقال لمن حوله : « امضوا معه ! » . وخرجوا ومعهم سيوف مصلّتة ، فمرّ بجماعة من النّاس ممّن حضروا لأخذ الدعوة ، وقال لهم : « تثبّتوا ، ليس بينكم وبين الله إلاّ الإسلام ، فإن فارقتموه هلكتم » . فترك عبد الله بقيّة الشيوخ .

وتعجّب ابن حزم (ت . 456 هـ/ 1063-1064 م) لمّا رأى فقيهاً متكلّماً إفريقيًا من أصل علويّ يعلن على رؤوس الملإ عن تفوّق عثمان على علي . ويبدو أنّ الأمر يتعلّق بأبي الحسن علي بن

61) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 ، 354-355 .

62) ابن القفطي ، 179/2 .

63) معالم الإيمان 113/3-115 ، إدريس ، المرجع السابق 363-366 .

64) انظر الباب الثاني ، الفصل الثاني .

أبي طالب العابر (معبّر الرؤيا) صاحب كتاب الأزهار[65] .

الأشعـريّـة :

لم تكن المسائل العقائدية غائبة عن مشاغل العلماء في العصر الصنهاجي[66] . فقد انتشرت العقيدة الأشعرية بسرعة في القيروان قبل ذلك العصر بمدّة طويلة[67] ، إذ كان فقهاء المالكية المتهيّئين لتقبّلها قد أدركوا من أوّل وهلة ما يمكن أن يجنوه من فوائد من هذه الجدليّة الدقيقة التي تمثل حلاً وسطاً بين المذهب السنّي والمذهب المعتزلي ، لا سيما وقد اعتبر علماء المالكية خطأً أو صواباً باعث النظرية الأشعرية واحداً منهم[68] .

ويبدو أن القلانسي (ت . 359 أو 361 هـ/ 969-971 م) كان من أوائل الأشاعرة القيروانيّين[69] . ويمكن أن يكون تعريف الإيمان قد طُرِح من جديد تحت تأثير الأشعرية[70] . فقد أخبرتنا المصادر أنّ المدعوّ أبا الحكم محمد بن حكمون الربعي الزيات هو الذي نقل هذه النظرية من العراق . وقد أثارت بلبلة في صفوف العلماء ، وتخاصم ابن التبّان وابن أبي زيد حول هذا الموضوع . فرأى الأوّل أنه يكفي أن يقول الإنسان إني مؤمن على سنّة الله ليكون مؤمناً ، وأيّده بعضهم ، في حين رفض خصمه هذا الرأي وعوّضه بالاقتراح التالي الذي حظي بموافقة جلّ العلماء : إذا كان الجهر بالإيمان تعبيراً صادقاً عمّا يخالج الإنسان من أفكار فهو مؤمن . وحسب رواية أخرى إذا قال : « أنا مؤمن إن شاء الله » . وقد شاطر السبائي والقابسي[71] و« الجماعة »

---

65) ابن حزم ، نقط العروس ، 246 ، انظر ، مناقب 285 ، 286 ، 308 .

66) وهذه بعض المواضيع التي لفتت انتباههم : التجسيم والتشبيه : ابن أبي زيد والقابسي والمازري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 135/1 و ، 137 و ، إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128 ، 155-159 ، ـ قيمة أسماء الله : التونسي ، المعيار ، 128/9 ـ معنى بعض الآيات القرآنية حول البعث : المازري ، المعيار ، 211/12-212 ـ معرفة إبليس واليهود والنصارى لله : عبد الحميد بن الصائغ . والسيوري والمازري ، المعيار ، 212/12-215 .

67) إدريس ، الكرّاسات التونسية ، 1953 ، 126-128 .

68) يقال إن الأشعري قد أكّد أنّ مالكاً تعاطى الكلام ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 136/1 ظ .

69) إدريس المرجع السابق ، 127-128 ، ونحية ماسينيون ، 332/2-333 .

70) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128 والمجلة الإفريقية ، 1956 ، 359-360 .

71) لقد عرّف القابسي الإيمان في أوّل « الرسالة المفصّلة » ، 246-247 ، بقوله : « مَنْ أظهر الإقرار بالإيمان ، وعمل فيما أظهر بما أُمِرَ به ، وانتهى فيما يُرعى ُمنه عمّا نهي عنه ، وقلبه غير مؤمن بذلك أنه من عند الله ، فليس هو إسلاماً على الحقيقة . . . » . إنّما الإيمان « هو التصديق في القول والعمل . . . » . « وتبيّن بذلك أن الإيمان على الحقيقة إسلام » .

قارن مع تعريف ابن أبي زيد للإيمان ، الرسالة ، 24-25 : « إنّ الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح » . نلاحظ التطابق بين التصديق عند القابسي والإخلاص عند ابن أبي زيد .

رأي ابن أبي زيد . ودامت المعركة حتى آخر حياة ابن التبّان . وقيل : إنه لما رأى خصومه الذين يضمرون له حقداً دفيناً يناقشونه حول بعض المسـائل الأخـرى ، تمنّى من الله الموت ليتخلّص منهم ، فاستجاب الله دعاءه .

وقد استهلّ ابن أبي زيد رسالته الشهيرة التي حرّر نصّها الأوّل استجابة لطلب السبائي ، باستعراض لقواعد الإيمان يشبه إلى حدّ كبير العقائد الأشعرية سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون . وحسبما انتهى إليه البحث حول هذا الموضوع في الوقت الحـاضر ، لا شيء يسمح بالتأكيد أن هذا الباب التمهيدي لم يرد في النصّ الأوّل . ومن الجدير بالتذكير أن ابن أبي زيد قد قدّم النصّ النهائي إلى ابن خالته محرز بن خلف (ت . 413 هـ/ 1022 م)[72] .

وقد أخذ ابن أبي زيد عن شيخَيْن أشعريّين على الأقلّ ، هما أبو ميمونة درّاس بن إسماعيل الفاسي (ت . 357 هـ/ 967 م)[73] وأبو بكر أحمد بن عبـد الله بن محمد بن عبـد المؤمن[74] . وكـان الفقيه الأخـير المكّي الأصل والقـيرواني الموطن من تـلاميذ العـالم الأشعري ابن مجـاهـد البصري ، أحد شيوخ البقلاّني[75] . وكان لابن عبد المؤمن صاحب ابن أبي زيد وأستاذ القابسي ، تأثير بالغ على علماء القيروان الذين كان يناقشهم ويجادلهم ، وقد أثار إعجابهم وأصبح قدوة للكثير منهم . وإنّنا نجد عند ابن أبي زيد شخصاً اسمه أبو القاسم عبد الرحمان بن عبد المؤمن المتكلّم ، فهل هو نفس الشخص أم أحد أقاربه ؟ ولدينا الجواب الذي أجاب به هذان الفقيهـان رجلاً استفسرهما حول خلود الخَضِر[76] .

أما الفقيه المغربي درّاس[77] فقد رحل إلى الأندلس والمشرق وأقام في القيروان ضيفاً على ابن أبي زيد ، وكان له تأثير كبير في هذه المدينة . وقد علم ابن أخي هشام أنه كان يحمل فكرة سيّئة عن علماء القيروان ، فتناظر معه ويقال إنه أفحمه .

وإنّ كنّا غير مخطئين ، فإن درّاس هو الذي ألّف رسالة في الدفاع عن الأشعريـة ، وقد

---

72) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 130 ، 63 ، 68 ، 149 .

73) نفس المؤلّف ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1974 ، 134 .

74) نفس المرجع ، 138-139 والهامش 49 .

75) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128 والهامش 12 م .

76) نفس المؤلف ، حوليّات . . . 1954 ، 138-139 والهامش 49 ، 152 .

77) نفس المؤلف ، حوليات ، 1954 ، 134 ، 175 ، والكراسات التـونسية ، 1953 ، 132-133 والمجلة الإفـريقية ، 1956 ، 353-354 .

نقضها المجادل الظاهري السليط اللّسان ابن حزم (ت . 456 هـ/ 1064 م) .

وعندما يؤكّد ابن أبي زيد « أنّ الله فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كلّ مكان بعلمه » يبدو أنه يقتدي بالأشعري ، ويمكن أن تسمح لنا الدراسة المعمّقة لنوادره التي لم تقع إلى حدّ الآن ، بتوضيح العلاقة القائمة بين المدرسة المالكية القيروانية والعقيدة الأشعرية .

وفي الكتاب الذي ألّفه ابن عساكر لدحض الأكاذيب المنسوبة إلى الأشعري ، خصّص فصلاً لابن أبي زيد الذي سمّاه « بمالك الأصغر » واعتبره مُتضلّعاً في أصول الفقه ، وذكّر بأن أحد المعتزلة في بغداد وهو علي بن أحمد بن إسماعيل قد كاتب ابن حزم لحثّه على اعتناق مذهبه الذي هو مذهب مالك وأصحابه ، حسب زعمه . ثم استشهد ابن عساكر بفقرة من الرسالة التي أجابه بها ابن أبي زيد ، وقد قال فيها : إنّ أبا الحسن الأشعري رجلٌ معروف بنقضه لآراء الخوارج والقادرية والجهميّة وتعلّقه بالسنّة[78] .

وجواباً على الرسالة التي وجّهها ابن مجاهد إلى ابن أبي زيد في سنة 368 هـ/ 978 م ليطلب إليه إمداده بكتابيْه المختصر و النّوادر ، كلّف هذا الأخير شابيْن قيروانيّين ، هما محمد بن خلدون وإسماعيل بن عذرة بأن يسلّما إلى ابن مجاهد مختارات من المختصر مصحوبة بإجازة . فتحوّل الشابّان إلى مكّة المكرّمة للاتّصال بابن مجاهد والأشعري .

وكان ابن عذرة من تلاميذ ابن مجاهد ، وقد نقل رسالته الشهيرة حول العقيدة الأشعرية التي سلّمها إليه المؤلف . وقد أخبرتنا المصادر أنه كان يلقّنها في القصر الكبير بالمنستير لأبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبني الذي أبلغها بدوره إلى العالم الأندلسي أبي علي الغسّاني[79] .

وتأثّر القابسي هو أيضاً بالعقيدة الأشعرية[80] . وقد رحل إلى المشرق من سنة 352 إلى سنة 357 هـ/ 963-968 م صحبة شيخه درّاس الفاسي والأصيلي . وكان ينتسب إلى الأشعري الذي مدحه وألّف رسالة لعرض مذهب أستاذه الذي نعته بالإمام .

وجواباً على سؤال ورد عليه من تونس ، قال القابسي بالخصوص إنّ الأشعري لم يعتمد الكلام إلّا لتوضيح الأحاديث وإثباتها وتخليصها من أيّ عنصر مشكوك فيه . ويمكن أن يفهم ذلك كلّ من أنعم الله عليه بالإدراك ويسهى عنه كلّ من أعمى الله بصيرته . ثم أوضح أنّ

---

78) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 128-129 . وحوليات . . . 1954 ، 146 . وحسب القاضي عياض وُجّهت رسالة المعتزلي إلى جميع فقهاء القيروان الذين نقضوها .

79) إدريس ، حوليات ، 1954 ، 155 ، وتحية ماسينيون ، 329/2 والكراسات التونسية . . . ، 1953 ، 128 .

80) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 132-134 وحوليات . . . 1954 ، 177-178 .

أبا الحسن الأشعري لم يكن سوى أحد من الذين عملوا على نصرة الحقّ ، ولم نسمع بأيّ شخص منصف قد وضعه دون تلك المرتبة التي هي مرتبته أو فضّل عليه أحداً من مناصريه أو أتباعه الذين اقتفوا أثره لفرض أوامر الله عزّ وجلّ والذّود عن دينه بقدر المستطاع . . وقد توفّي الأشعري رضي الله عنه ، فبكى عليه أهل السنة لّما أدركته المنيّة وأراحت وفاته المارقين عن الدين . وإن تقديمه في مظهر آخر لدليل على عدم معرفته .

فهل يتعلّق الأمر بمقتطفات من فتوى ، أم يتعلق بفقرة من الرسالة التي ألّفها القابسي للدفاع عن الأشعريّة ؟ إن السؤال الذي ألقاه عليها رجل من أهل تونس ربّما قد حثّه على تأليف رسالة لم تصل إلينا .

وإثر وفاة البقلاّني سنة 403 هـ/ 1012 م ، وهي نفس السنة التي توفي فيها القابسي ، انتشر أتباعه في جميع أنحاء العالم . واستقرّ اثنان منهم ، هما أبو عبد الله الحسين بن حاتم الأزدي وأبو طاهر البغدادي ، في القيروان ، حيث كان لهما بالغ التأثير .

وممّا زاد في أهميّة عملهما ، أنّهما كانا مثالاً للعلم والتقوى ، وأنّ مناهضة الشيعة من قِبَل البَقلاّني الذي ألّف كتاباً للقدح في نسب الفاطميّين ، ما لبثت أن ساهمت في إشعاع العقيدة الأشعرية في إفريقية المتلهّفة على التحرّر من نير الشيعة[81] .

وقد ألّف الأزدي كتاب **اللّمع في أصول الفقه**[82] . اللّهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بنقل **كتاب اللمع** للأشعري[83] .

وقد رحل أبو عمران الفاسي ، تلميذ القابسي المعجب بأبي طاهر البغدادي في سنة 399 هـ/ 1008 م إلى بغداد ، حيث تابع دروس البقلاّني الّذي قدّر علمه حقّ قدره ، رغم أن أبا عمران قد اعترف بأنه شعر بنفسه وكأنّه مبتدىء .

ولا شكّ أنّه بعد رجوعه إلى القيروان ما لبث أن غرس المبادىء الأشعرية في أذهان تلاميذه القيروانيّين والأندلسيّين الكثيرين الذين كانوا يتزاحمون على دروسه . ويُعتبَر هذا الإقبال مماثلاً للإقبال على دروس شيخه القابسي .

---

81) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 ، 130-132 .

82) **الصلة** في المكتبة العربية الصقلية ، 47/2 ، ينبغي تعويض ابن علدرة بالأزدي . فقد درّس المؤلف أبو عبد الله الحسين بن حاتم الأزدي مصنّفه كتاب **اللمع في أصول الفقه** لأبي بكر عبد الله بن محمد القرشي المالكي الذي نقله إلى علي بن عثمان بن الحسين الربعي الذي نقله بدوره إلى أبي علي الغسّاني القرطبي .

83) نشر هذا الكتاب للأشعري ر . ج . ماك كارثي في **رسالة استحسان الخوض في علم الكلام** ، بيروت 1953 م .

وقد أظهرته لنا بعض النوادر وهو يخفّف من حماس العامّة ، بالاعتماد على بعض الحجج المتّسمة شيئاً ما بطابعها الأشعري[84] .

ومن بين العلماء الإفريقيّين الآخرين من ذوي الاتجاه الأشعري الذين سنتحدّث عنهم فيما بعد ، نشير بالخصوص إلى عبد الجليل الديباجي المعروف باسم ابن الصابوني ، وأبي إسحاق التونسي والسيّوري ، وثلاثتهم من تلاميذ الأزدي وأبي علي حسن بن محمود التونسي وعبد المنعم الكندي المعروف بابن بنت خلدون وعبد الحميد بن الصائغ .

واشتهر بالأشعريّة في بلاد المشرق ذاتها أحد علماء القيروان وهو أبو عُبَيْد (أو عبد) الله محمد بن أبي بكر عتيق السوسي[85] الذي عيّنه أبو عمران الفاسي قبل وفاته ليصلّي عليه صلاة الجنازة . كما أراد المعزّ بن باديس تكريم علمه ، فمنحه منزلاً . وقد أخذ محمد بن أبي بكر بن عتيق أصول الفقه في القيروان عن الأزدي صاحب البقلاني . ثم استقرّ في العراق ، ربّما إثر زحفة بني هلال ، ودرس في المدرسة النظامية الذائعة الصيت في مدينة بغداد التي توفّي بها سنة 512 هـ/ 1118 م ودُفِن في ضريح الأشعري . كما أنّنا نعرف اسم عالم أشعري إفريقي آخر وهو ابن العمورة الذي أنهى بقيّة حياته في المشرق ، وربّما في بغداد ، وقد توفّي بها سنة 517 هـ/ 1123 م[86] .

ورحل المتكلّم الأشعري أبو الحسن علي بن أبي القاسم محمد التميمي القسنطيني[87] إلى دمشق ثم إلى بغداد حيث تابع دروس أبي عبيد (أو عبد) الله محمد بن عتيق القيرواني السالف الذكر ، ثم عاد إلى دمشق . وقيل : إنه كان « يعمل كيمياء الفضّة »[88] . وقد ألّف كتاباً في الأصول موجّهاً ضدّ غلاة أنصار النظرية التجسيمية[89] ، وتوفي في دمشق يوم 18 رمضان 519 هـ/ 18 أكتوبر 1125 م .

وكان الإمام المازري (ت . 536 هـ/ 1141 م بالمهدية) أشعريّاً ونقل كتاب البقلاّني

---

84) إدريس الكراسات التونسية 1953 م ، 134-136 وحوليّات . . . 1955 م ، 54-56 .

85) نفس المؤلف ، حوليات . . . 1954 م ، 184-185 .

86) نفس المؤلف ، الكراسات التونسية ، 1953 م ، 136-137 .

87) البلدان ، قسنطينة ، 7/89-90 .

88) يتولى تحويل الفضة إلى عنصر آخر .

89) ياقوت ، البلدان ، 7/89-90 : قال المؤلف أنه رأى هذا الكتاب الذي كان يحمل العنوان التالي : « كتاب تنزيه الإلاه وكشف فضائح المشبّهة الحشويّة » .

ـ التمهيد حسب الاحتمال ـ الذي أخذه من الأزدي ، إلى قاضي إشبيلية أبي بكر بن العربي (ت . 543 هـ/ 1148 م) .

كما كان سميّه تلميذ السيّوري أشعريّاً هو أيضاً ، وقد توفّي سنة 512 هـ/ 1118 م .

وكان أبو حفص عمر بن محمد بن إبراهيم البكري الصفاقسي المتكلّم الذي أقام بمصر وتوفي بها سنة 505 هـ/ 1111 م ، متضلّعاً في علم الكلام والطبّ ، وقد نقض آراء الغزالي .

وأخيراً فقد ألّف المتكلّم اليابري (ت . 523 هـ/ 1128 م بمكة) الذي نقض آراء ابن حزم ، شرحاً للباب الأوّل من رسالة ابن أبي زيد وأوضح العقائد الواردة فيه . كما ألّف مدوّنة في الفقه وأصول الفقه تتضمّن تصنيفاً يحمل عنوان المدخل ليكون بمثابة المقدّمة لكتاب آخر يحمل عنوان : **سيف الإسلام على مذهب مالك الإمام** ، أهداه إلى الأمير الصنهاجي على بن تميم[90] .

وأشار أحد المصادر[91] إلى وجود مجموعة من الأشاعرة في ورقلة في حياة أحد العلماء الإباضيين (ت . 528 هـ/ 1134 م وعمره 96 سنة) . ولكن ربّما لا يتعلّق الأمر إلا ببعض السنّيين المالكية الذين كان الإباضيون الوهبية يسمونهم وقتئذ بالأشاعرة . ويدلّ هذا التوسّع في المعنى على مدى تأثير الأشعرية في المذهب المالكي بإفريقيّة .

الشعائر الدينيّة :

لقد استمرّت في العصر الصنهاجي قراءة نافع[92] التي أقرّها المذهب المالكي في إفريقية من قبل . وانتقد القابسي إماماً اعتمد قراءة أبي عمرو بن العلى التي نقلها عن اليزيدي[93] في « قيام رمضان » (أي صلاة التّراويح)[94] . وقد كانت « القراءة بالشدّة » محرّمة[95] .

---

90) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 م ، 137-138 .

91) الشماخي ، 438-439 .

92) بفضل ابن خيرون (ت . 306هـ/918م) وانتشرت قراءة نافع في إفريقية وأزاحت قراءة حمزة ، بلاشير ، القرآن ، 1/ المقدمة ، 131 ، المقدسي ، 46-47 ، المدارك ، 2-151/3 و : إنّ لقمان بن يوسف الغساني (ت . 318 أو 319 هـ/930-932 م) قد عاش في القيروان وأقام حقبة من الزمن في صقلية واستقرّ بتونس وبها توفّي . وكان يجيد القراءة ويدرّس قراءة نافع .

93) بلاشير ، القرآن ، 1/ المقدمة ، 123 .

94) المعيار ، 181/1 .

95) المعيار ، 49/12-52 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 131/1 ظ ، 139 ، و ، ظ .

والغالب على الظنّ أن معظم المتعبّدين كانوا يؤدّون جميع النوافل التي أشار إليها ابن أبي زيد في رسالته[96] .

وكان بعض المصلّين يجتمعون لقراءة سورة من القرآن إثر صلاة الصبح ويتوجّهون إلى الله بالدعاء بعد ختم القرآن . وقد وافق القابسي على ذلك ، لا بدون تردّد[97] . وصرّح ابن التبّان ذات يوم في المنستير أن الاجتماع لقراءة القرآن بدعة . وادّعى أحد المتهوّسين أنه ادّعى أن قراءة القرآن بدعة . وقد وجد القابسي صعوبة لتهدئة خواطر العامّة[98] . وقد شاطر ابن أبي زيد رأي ابن التبّان حول هذا الموضوع[99] .

ويبدو أنّ صلاة الضّحى قد كانت تقام خفية ، رغم أنّ الشيعة قد حرّموهـا . وفي سنة 407 هـ/ 1067 م أقامهـا ابن المنمّر علانيّة في طرابلس[100] .

وفي عصر السيّوري أقيمت صلاة الشفع والوتر قبل انتهاء الغسق بإمامة بعض الأئمّة في أحد المساجد ليلة الجمعة ، بل حتى في أيام الأسبوع الأخرى[101] .

وكان النّاس على الأرجح يعتكفون في المساجـد ، لا سيما في رمضـان ، ومن الأفضل في العشر الأيام الأواخر منه . ويدوم الاعتكاف عشرة أيام ، « ولا اعتكاف إلاّ بصيام ولا يكون إلاّ متتابعاً »[102] .

---

96) « ويُستحَبّ الذكر بأثر الصلوات . . . ويُستحَبّ بأثر صلاة الصبح التمادي في الذكر والاستغفار والتسبيح والدعاء إلى طلوع الشمس أو قرب طلوعها وليس بواجب ، ويركع ركعتيّ الفجر قبل صلاة الصبح . . . ويتنفّل بعد صلاة الظهر ويُستحَبّ له أن يتنفّل بأربع ركعات يسلّم من كلّ ركعتين ، ويُستحَبّ له مثل ذلك قبل صلاة العصر . . . ويَستحَبّ أن يتنفّل بعد صلاة المغرب بركعتين وما زاد فهو خير وإن تنفّل بستّ ركعات فحسن ، والتنفّل بين المغرب والعشاء مُرَغّب فيه . . . (وبعد صلاة العشاء) يصلّي الشّفع والوتر جهراً ، وكذلك يستحبّ في نوافل الليل الإجهار وفي نوافل النهار الإسرار . . . وأقّل الشفع ركعتان ويستحبّ أن يقرأ في الأولى بأم القرآن وسبّح اسم ربّك الأعلى وفي الثانية بأم القرآن وقل يا أيها الكافرون ويشهّد ويسلّم ثم يصلّي الوتر ركعة . . . وأفضل الليل آخره في القيام ، فمن أخّر تنفّله ووتره إلى آخره فذلك أفضل » . (رسالة ابن أبي زيد ، 64-73) .

97) فتوى القابسي ، المعيار ، 127/11 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر 106/1 و ، انظر أيضاً برنشفيك ، الدولة الحفصية [الترجمة العربية ، 324/2] .

98) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 350 (ترجمة ابن التبّان) .

99) البرزلي ، مخطوط الجزائر 175/1 و .

100) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 155 .

101) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 98/1 ظ ، 99 و ، المختصر ، 13 و .

102) الرسالة ، 124-127 ، 290-291 ، فتوى القابسي ، المعيار ، 340/1 .

ومن الجدير بالتذكير أن قاضي القيروان ونوّابه في الأقاليم كانوا في العصر الصنهاجي من أتباع المذهب المالكي . ولا شكّ أنّ ذلك كان من أهمّ أسباب الطمأنينة التي اتّسم بها المذهب السني الإفريقي قبل غزوة بني هلال بمدّة طويلة .

ولم يكن المذهب الشيعي الرسمي يتجلّى إلا من خلال الأذان وخطبة الجمعة[103] .

ومن المحتمل أن تكون قد جُلِبَتْ الحصي من مكّة المكرّمة لاستعمالها في التسبيح . ولكن ربّما يتعلق الأمر بحالة خاصّة[104] .

وقد وصفت لنا بعض الفتاوى[105] التي وردت فيها بيانات جذّابة ، الحياة في أحد المساجد الذي يمكن أن يكون مسجد قفصة . إذ كان النّساء يصلّين في العادة في « السقائف » ، ولكن عندما يشتدّ الازدحام يوم الجمعة ، تتّصل صفوف الرجال بصفوف النساء . وقد خصّص القاضي وبعض الشيوخ مقصورة للنساء مبنيّة بالطوب[106] . ولكن عندما يكثر المصلّون ، تُعطى الأولويّة للرجال ، ولا تُقبَل النساء إلاّ إذا بقيت أماكن شاغرة .

« وعلى رأس جامور » أحد المآذن ، يوجد منذ أربعين سنة ديك مصنوع من النحّـاس . ولا شكّ أن الأمر يتعلّق بدوّارة هواء . فينبغي حينئذ إزالة ذلك التمثال الحيواني أو جعله بلا شكل محـدود . كما توجد في المسجد المذكور مخازن للزيت والقناديل والخشب والجبس الخ ، ومسكن القيّم الذي بنى فوقه تنّوراً لطبخ الهريسة[107] .

وقد تعوّد المصلّون في الصفّ الأوّل على وضع نعالهم بين الحائط والحصير في اتجاه القبلة . فقرّر القيّم تهيئة رفّ مصنوع من الجريد [لوضع النعال] . وتوجد حول المسجد بيوت محبّسة عليـه ، يؤجّرها القيّم . ويقضي الناس القيلولة في المسجد ويبيتون فيه . ويُستعمَل صحن المسجد أحياناً لتجفيـف الشعير الأخضر والتّين والغسيل[108] . وكان الناس يتردّدون على المسجد ذهاباً وإياباً لاغتراف الماء من الماجل ، فيوسّخون المحلّ ويقلقون راحة المصلّين . ويمكن منع استعمال

---

103) انظر الفصل الثاني من هذا الباب .

104) معالم الإيمان ، 263/3 ، مناقب ، 24 ، 216 ، الهامش 65 .

105) فتوى اللخمي وابن الصائغ ، البرزلي ، مخطوط الجزائر 137/1 و ، 138 و ، مخطوط ح . ح . عبدالوهّاب، الكراس 2/33 ظ ، المختصر ، 18 و ، 161 ظ ، 162 و .

106) الشماخي ، 536-537 : في المساجد الإباضية بنفوسة تُوجَد سترة في الصفّ الأخير تفصل بين النسّاء والرّجال .

107) انظر الفصل الثالث من الباب التاسع .

108) انظر حول استعمال المساجد لأغراض دنيوية ، إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 ، 61-62 .

ماجـل المسجد في المدن التي يوجد بها نهر . ولكن في قضية الحال يعتبر ماء الماجل المذكور ضرورياً لطبخ الفول وغسل الثياب .

وينبغي وضع مواجل المساجد على ذمّة جميع الناس بلا ميز ، عندما يكونون في حاجة إلى الماء أثناء اشتداد الحرارة . وقد استنكر القابسي العادة القديمة المتمثّلة في إعطاء الأولوية للإمام أو للمؤذّن . فيجب أن لا يكون هناك أيّ ميز في هذا الميدان(109) .

وكانت صلاة الجنازة تقام في بعض المساجد المبنيّة وسط المقابر(110) .

وقد أجاز ابن أبي زيد الصلاة بإمامة إمامَيْن ، أحدهما داخل المسجد والآخر خارجه أو في الصحن(111) .

وأشارت بعض المصادر إلى حضور أبي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان صلاة عيد الأضحى في مصلّى القيروان ، وقد كان المصلّون المنقسمون إلى فريقين يكبّرون على التوالي . فسُئِل الفقيهان عن هذه العادة التي لم تزل جارية في عصر ابن ناجي (القرن الخامس عشر ميلادي) ، فأجابا أنها صحيحة(112) .

وحتى تاريخ القطيعة مع القاهرة ، كان أهل إفريقية من المالكيّة يمسكون عن حضور صلاة الجمعة التي تقام باسم الخليفة الفاطمي . « فكان بعضهم إذا بلغ إلى المسجد قال سرّاً : اللهمّ اشهد ! اللهمّ اشهد ! ثم ينصرف فيصلّي الظهر أربعاً »(113) .

ولكن قد يكون من المبالغة الاعتقاد أن جميع السكّان المالكية كانوا متشدّدين إلى هذا الحدّ . ومهما يكن من أمر ، فلرّبما أصبحت الدعوة للخليفة الفاطمي في عهد بني زيري ، مجرّد إجراء تشريفاتي .

---

109) فتوى القابسي ، المعيار ، 230/7 ، رأي مماثل لرأي التونسي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 60/1 ظ ، 61 و ، حول مواجل مساجد القيروان وإشارة إلى رأي اللخمي ، وحول مواجل جامع قفصة ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 60/1 ظ : بيع ماء مواجل المساجد في عصر البرزلي لتعويض النّقص في مداخيل أوقافها ، إلاّ أنّه لا يزال من الممكن أخذ الماء مجّاناً من جامع القيروان .

110) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 204/1 و ، وقد منع أبو عمران الفاسي هذه العادة التي أجازها ابن الكاتب . وصرّح ابن محرز أنّ هناك اختلافاً حول هذه المسألة بين الفقهاء .

111) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي مخطوط الجزائر 134/1 و .

112) المعيار ، 358/2 ، إدريس ، حوليات . . . 1955 م ، 29 .

113) البيـان ، 277/1 . وقـد كـان يفعل مثـل ذلك أبـو الحسن الدبّـاغ المتوفى سنة 359 هـ/969-970 م أي في العهد الفاطمي . انظر أيضاً معالم الإيمان ، 3-96 .

ورغم أنّ موقف التونسي الموالي للشيعة المعتدلين تنقص من قيمة شهادته ، فقد رأى هذا الفقيه أنّ الصلاة تصحّ في جامع القيروان أو جامع صبرة ـ المنصورية على حدّ السواء ، وأنّ ذكر « السلاطين » في الخطبة لا يلغي وجوب حضور صلاة الجمعة . وصرّح أنه لا يعرف حول هذه المسألة أيّ اختلاف بين « أصحابه » ، الأموات منهم والأحياء[114] . وقد أبدى السيّوري رأياً مماثلاً لهذا الرأي[115] . وبالعكس من ذلك أدان ابن عــذرة والـداودي بشدّة الخطباء الذين كـانوا يخطبون في الجوامع في عهد الشيعة وأفتى الـداودي بعدم صحّة صلاة الجمعة ، إذا كانت الخطبة تتضمّن الدعوة للفاطميّين . ولكن يبـدو أنّ هذا المـوقف المتشدّد لا يعكس سـوى وجهة نـظر متطرّفة ، سابقة للعصر الصنهاجي[116] .

ولدينا بعض المعلومات حول طقوس المآتم[117] . فقد أشارت بعض المصـادر إلى وجود « المسمّـع » في صلاة الجنـازة في أواخر العصر الصنهـاجي[118] . واستنكر ابن أبي زيـد وجود « المسمّع » أثناء الصلوات بوجه عام ، وذكر أن بعض أصحابه قد أجازوا ذلك في صلوات الجمعة والعيدَيْن ، لأنّ جميع المسلمين مطالبون بأدائها[119] .

وفي بعض الأحيان يُدفَن الأموات ليلاً على ضوء المشاعل[120] .

ولمّا دُفِن القابسي (ت . 403 هـ/ 1012 م) نُصِبَت قرب قبره « الفساطيط » وبات فيهـا النّاس . وكان أبو عمران الفاسي من بين الذين أقاموا هناك شهراً كاملاً[121] .

وإثر موكب جنازة أبي بكر بن عبد الرحمان (ت . 432 أو 435 هـ/ 1040-1044 م) الذي

---

114) فتوى التونسي ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 106/1 ظ ، 107 و .

115) فتوى السيّوري ، المعيار ، 365/2-366 ، 270/6 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 107/1 ظ .

116) إدريس ، تحيّة ماسينيون ، 330/2-331 ، 337-338 . وكان الـداودي يرى أنّ من واجب علماء القيروان الخروج من بلاد بني عُبَيْد .

117) انظر أيضاً الرسالة ، 105-117 .

118) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 206/1 و .

119) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 173/1 ظ ، 174 و . وحول صحّة الصلاة بالمسمّع ، انظر المعيار ، 133/1 : استشهاد بكتاب التعليقة على أحـاديث الجوزقي لـلإمام أبي عبـد الله المازري (الإسكنـدراني) المتوفّى سنـة 530 هـ/1135 م وفتوى القابسي التي يبدو أنها لا تنطبق على هذه المسألة .

120) معالم الإيمان ، 154/3 .

121) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 197 ، المعيار ، 273/1 .

انتظم ليلاً ، سهر خلق كثير على ضوء المشاعل والشموع ، ولم ينصرفوا إلاّ عندما منعهم السلطان من البقاء هناك[122] .

وغداة الدّفن يُقام في الصّباح قرب القبر موكب يسمّى « صباح القبر »[123] . ويُطْعَم النّاس « ليلة الثالث »[124] . ولعلّ إحدى فتاوى القابسي قد أشارت إلى هذه العادة بالذّات لما ذكرت أن بعض القرى قد وجّهت « قصاع الطعام » (ربّما الكسكسي) إلى أهل الميّت المتجمّعين في بيته[125] .

وتوجد في بعض القبور « ألواح مكتوبة من الجهتين »[126] وألواح مزدوجة[127] .

ويمكن أن تُبنى قبور أفراد من نفس العائلة في مكان مسوّر ، مفصول بحائط صغير عن بقيّة المقبرة ، يسمّى « الحوطة » [أو التّربة][128] . وكان بعض الأشخاص ، كابن أبي زيد مثلاً ، يُدفَنون في بيوتهم مع أقاربهم وذريّتهم . واستقبل النّاس موكب جنازة أحد الصّالحين بالتكبير[129] . وكانت تبنى بعض الأضرحة في المقابر[130] .

وحول زيارة المقابر ، نعرف أن النساء كُنّ يتحوّلن إلى مقبرة باب سلم كلّ يوم خميس[131] .

---

122) إدريس ، المرجع المذكور ، 1955 ، 41 .

123) [ما زالت هذه العادة جارية في تونس إلى الآن] ، فتوى القابسي ، المعيار ، 1/275-276 . ويُسمّى هذا الموكب أيضاً « صباح قبر فلان » . وتعني عبارة « تصبيح القبر » ، زيارة القبر في الصباح . ويبدو أن هذه البدعة قد ظهرت في « السنة السابعة » (307 هـ ؟) وقد حضر الموكب ابن أبي زيد ، ولكن يبدو ، حسب قول القابسي ، أنه أصبح فيما بعد يزور بيت الميت لا قبره ، غداة يوم الدفن . ولم يحضر ابن التبّان « صباح قبر » أمه . ولم يستنكر السبائي هذه العادة بمناسبة وفاة « أمّ بني صدور المشائخ » ، إذ اعتبرها مظهراً لتضامن المسلمين في المحنة . كما أقرّها القابسي ، انظر أيضاً ، مناقب ، 93 ، 276 .

124) فتوى القابسي ، المعيار ، 1/275-276 ، [ما زالت هذه العادة جارية في تونس إلى الآن وتسمّى « الفَرْق »] .

125) استنكر القابسي هذه العادة المنافية للسنّة ، المعيار ، 1/275 .

126) معالم الإيمان ، 3/100 .

127) يتعلّق الأمر بمشاهد قبور بني خراسان ، زبيس ، Corpus ، 1/64 .

128) معالم الإيمان ، 3/161-206 .

129) نفس المصدر ، 3/168 .

130) المعيار ، 7/23 : فتوى القابسي : الرسالة ، 108-109 « ويُكرَه البناء على القبور وتجصيصها » ، المعيار ، 9/292 ، فتوى ابن زيادة الله : يُكرَه أن يوصي إنسان بوضع « ختمة » أو جزء من القرآن أو من جزء من الأحاديث النبوية أو الأذكار في كفنه .

131) مدارك ، 2-85/3 و .

ولم تلبث بعض القبور التي يتبرّك بها النّاس ، مثل قبر اللّخمي (ت . 478 هـ/ 1055 م) بصفاقس ، أن أصبحت بمثابة الملاجىء[132] . ذلك أن بركة الوليّ تمنع الأعراب الرحّل من اختلاس أي شيء من ذلك المكان .

وحول صلاة الاستسقاء[133] ، لم نعثر إلّا على نصّ طريف ، ولكن ربّما يرجع تاريخه إلى ما بعد العصر الصنهاجي[134] . فقد كانت توجد في مقبرة باب سلم [بالقيروان] بالقرب من قبر أبي حفص عمر بن العطّار « حوطة فيها مشاهد على قبور متعدّدة ، يقول العامة إنها قبور حنّاطين كانوا صلحاء ، فقحط النّاس واستسقوا أيّاماً فلم يُجابوا ، فخرج هؤلاء الحنّاطون وبأيديهم الويبات والصيعان[135] ، وخرجوا يطلبون الله عزّ وجلّ بالدعاء ، فكان من دعائهم أن قالوا : إن كنت تعلم أنّا لا نكتال إلّا حقّاً ولا نغشّ في بيع طعامنا أو في معناه فأمْطِرْنا . فأُمْطِروا من الفور في تلك الحالة بمطر وابل ، فكان ممّا عُلِمَ لهم ذلك . فجرت عادة العامة يتبرّكون بقبورهم ويزورونهم ويدعون عندهم » . وأضاف المؤلّف قائلاً : « ولا أعرف أحداً من المؤرّخين ذكرهم » .

وأشارت بعض المصادر إلى الاحتفال بعاشوراء في المنستير وقفصة[136] .

وحسب القاضي النعمان كان العامّة يسمّون « يوم الرؤوس » اليوم الأول من « أيام التشريق » الثلاثة التي تلي عيد الأضحى ، لأنهم كانوا يأكلون رؤوس الخرفان في ذلك اليوم[137] .

---

132) مقديش ط . حجرية 134/2 [الطبعة الجديدة ، 277/2] .

133) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 م ـ 45 ـ 46 .

134) معالم الإيمان ، 246/3 ، إثر ترجمة أبي حفص عمر بن محمد بن العطّار الذي دُفِن (حوالي سنة 430 هـ/1038 م) في باب سَلْم .

135) الويبات : جمع ويبة ، والصيعان : جمع صاع .

136) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 362-363 : بالمنستير في حياة ابن التبّان (ت . 371 هـ/981 م) ، البكري ، 36 : كان يقام في القصر الكبير بالمنستير موسم عظيم بحضور جمهور غفير يوم عاشوراء . وقد أقَرّ الحدّاد في عاشوراء بمناسبة ذكرى استشهاد الحسين بن علي ، في سنة 366 هـ/976-977 م في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، نجوم ، 126/4 . كما أقرّه الأمير البُوَيْهي في بغداد سنة 352 هـ/963 م ، الكامل ، طبعة القاهرة ، 7/7-8 . تاريخ أبي الفداء ، 104/2 . ولم يتحدث ابن أبي زيد في رسالته ولا القاضي النعمان في كتابه دعائم الإسلام عن المواسم غير الشرعية .

137) دعائم ، 387/1-388 وابن ناجي (شرح الرسالة ، 345/1) الذي ذكر أنّ عبارة ابن أبي زيد « وحجّ بيت الله الحرام الذي ببكّة » (الرسالة ، 140-141) تشير إلى كثير من « العُتاة » الذين شيّدوا معابد وأمروا الناس بالحجّ إليها ، مثل المعبد الموجود بالمهديّة ، أبعده الله ! إلّا أنّ الأمر يتعلق لا محالة بافتراء ، لأن عبارة ابن أبي زيد مقتبسة من الآية الكريمة ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ . . . ﴾ ، سورة آل عمران ، الآية 96 .

ويبدو أن إفريقية لم تكن تحتفل بالمولد النبويّ الشريف في العصر الصنهاجي[138] . كما يبدو أن رؤية هلال رمضان كان يعلن عنها أحياناً في كل قـرية ، بـإشعال النّـار[139] . وبخصوص الاختلاف حول رؤية هلال رمضان وهلال شوّال ، لاحظ السيّوري وجود فوارق بين الرؤية التي تمّت في كلّ من قفصة والقيروان وصقليّة[140] .

ولعلّ ما أشارت إليه المصادر من استعمال « البوقات » في العهد الحفصي للإعلان عن وقت الإفطار والإمساك ، يرجع تاريخه إلى العصر الصنهاجي[141] . ولئن كان حمّاد يلتزم هو نفسه بصيام رجب وشعبان ، فالغالب على الظنّ أنّ كثيراً من الناس كانوا يفعلون مثله[142] .

ومن المحتمل أن يكون تاركو الصّلاة يصومون رمضان هم أيضاً ، كما هو الشأن الآن[143] .

ورغم منع الشيعة لصلاة التراويح (أو قيام رمضان) ، فإنها كانت تقام سـرّاً في العصر الصنهاجي ، بصورة أو بأخرى[144] ، قبل حصول القطيعة مع القاهرة ، وذلك حسبما أثبتته فتوى للقابسي[145] . وقد أقرّ ابن المنمّر « قيام رمضان » بطرابلس في سنة 407 هـ/ 1016 م وألغى الأذان الشيعي[146] .

ومن المعلوم أن حجّ بيت الله الحرام فـريضة عـلى كل من استـطاع إلى ذلك سبيـلاً من

---

138) انظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، 3/481-484 ، المَوْلد (فوكس) . برنشفيك ، **الدولة الحفصية** [الترجمة العربية 2/318] ، **الديباج** ، 193 ، **المعيار** ، 8/160-161 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/199 ظ .

139) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 10/108 ، إذا كان فعل « نَيَّر » يعني أشعل النار .

140) ابن الشبـاط ، مخطوط ح . ح . عبـد الوهّـاب 1/6 . المعيار ، 1/335 ، الـبرزلي ، مخطوط الجـزائر ، 1/213 ظ ، إدريس ، محية جورج مارسي ، 2/103 .

141) لقد منع القـاضي الأغلبي ابن طالب البـوق ، البرزلي ، مخـطوط ح . ح . عبد الـوهّاب ، 3/ الكـراس 32/6 ظ . برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 2/322] .

142) الرسالة ، 290/291 ، ابن حزم ، **نقط العروس** ، 175 . انظر أيضاً : **Objets Kairouanais** ، 1/124 : ورد في أحد الرقوق أن من يصوم رجب يُبْنَى له قصر من الذهب في الجنّة ومن يصوم رمضان يبنى له قصر من الزعفران ومن يصوم (شعبان) يبنى له قصر من الأحجار الكريمة . **رياض النفوس** مخطوط باريس ، 82 ظ ، : كان أبو القاسم عبد الوهّاب المتعبّد (ت . 330 هـ/941-942 م يلتزم الصمت خلال تلك الأشهر الثلاثة .

143) فتوى القابسي ، المعيار ، 9/436 .

144) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 145 ، يبدو أن المقدسي (14-15) قد تأسّف لعدم إقامة صلاة التراويح بالقيروان .

145) المعيار ، 1/180-181 ، الرسالة ، 122-125 . وحسب اللخمي يجب أن تقام صلاة التراويح « بين العشاءَيْن » .

146) التجاني ، 190-191 ، إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 154-155 .

المسلمين ، مرّة في العمر . ولئن لم يُؤَدِّ أيّ أمير صنهاجي مناسك الحجّ ، إلاّ أنّنا نستطيع أن نؤكّد أنّ كثيراً من أهل إفريقية قد قاموا بتلك الفريضة(147) ، لا فحسب لأسباب دينيّة بل أيضاً لأسباب ثقافية وتجارية(148) ، بل حتى سياسية ، كما تدلّ على ذلك بعض التراجم .

وفي صورة تعذّر أداء مناسك الحجّ لأسباب قاهرة ، يجوز تكليف شخص آخر بـذلك ، بمقتضى التسهيلات الممنوحة للمسلمين في هذا الشأن(149) . ويبدو أن الشخص الذي قيل إنه قد أدّى مناسك الحجّ عدّة مرّات ، قد فعل ذلك لحساب الغير(150) . وكثيراً ما أشارت الفتاوى التي وصلتنا إلى بعض النّاس الذين أوْصوا بتخصيص جزء من تركتهم لمكافأة المُعَوِّضين المكلّفين بأداء مناسك الحجّ باسمهم بعد وفاتهم(151) .

وقد أسلفنا أنّ المعزّ بن باديس ، لما كان يتأهّب لقطع علاقته مع الخليفة الفاطمي ، قد فكّر في الانعكاسات المحتملة لتلك القطيعة على الحجيج الإفريقيّين(152) . وقد كانت قـافلة هؤلاء الحجيج تتجمّع في قابس(153) .

وكان يُقام بالقيروان احتفال بهيج بمناسبة رجوع الحجيج القادمين من البقاع المقدّسة مكلّلين بالتيجان والرياحين ، وقد كانت إبلهم المزيّنة بأبدع زينة تُرَشّ بالعطور(154) .

وإثر غزوة بني هلال ، أصبح الحجّ عن طريق البرّ مستحيلاً . وقد أثار السفر إلى البقاع المقدسة عن طريق البحر على متن سفينة مسيحية عدّة مشاكل شرعيّة وعمليّة(155) . ومع ذلك لا يمكننا التأكيد أنّ أهل إفريقية قد أمسكوا عن الحجّ . إلاّ أن آخر كبار الفقهاء في العصر الصنهاجي ، أمثال السيّوري واللخمي وابن الصائغ ، بل حتى المازري رغم إقامته بالمهديّة(156) ، لم

147) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 280 ، برنشفيك ، المرجع السابق [الترجمة العربية ، 324/2] .

148) فتوى القابسي حول الزكاة الواجبة على رجل زار البقاع المقدسة وتعاطى التجارة في طريقه ، المعيار ، 311/1 .

149) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 146/8 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 196/2 و : كان المعوّض يتقاضى مبلغاً من الدنانير والطعام .

150) مناقب ، 305-306 .

151) انظر مثلاً فتاوى القابسي ، المعيار ، 349/1-350 .

152) انظر الفصل السابع ، الباب الثاني .

153) إدريس ، تحية ماسينيون ، 345/2 .

154) مناقب ، 262-263 .

155) فتوى ابن محرز ، المعيار ، 343/1-344 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 243/1 و .

156) المعيار ، 343/1 ، البرزلي مخطوط الجزائر ، 245/1 ظ ، 246 و .

يسافروا إلى المشرق . وفي الجملة فقد كانوا يرون أنه يتعذّر أداء فريضة الحجّ بالنظر إلى المخاطر المترتّبة عليها[157] .

ومن البديهي أنّ فريضة الجهاد « التي يتحمّلها بعض النّاس عن بعض » [على حدّ تعبير ابن أبي زيد] ، قد كانت إحدى دوافع الكفاح ضدّ الشيعة في أوّل الأمر ، ثم ضدّ النرمان فيما بعد[158] .

وليست لدينا معلومات مفصّلة حول الختان ، ويبدو أن الأمراء الصنهاجيين كانوا ، مثل الخلفاء الفاطميّين[159] ، يقومون بمناسبة ختان أبنائهم ، بختان عدد كبير من أبناء الفقراء والمساكين ، وإسناد العطايا إليهم . وقد تمّ ذلك مثلاً بمناسبة ختان المعزّ بن باديس[160] .

علماء المالكيّة[160م] :

بعدما أبرزنا مختلف اتجاهات الفقه المالكي ، بقي علينا أن نوضّح طرق عمل الفقهاء واستكمال البيانات السالفة الذكر باستعراض أبرز العلماء الذين أذاعوا صيت المذهب المالكي في العصر الصنهاجي بالتعليم والتأليف والفتوى .

وسنعطي أوّلاً بعض المعلومات الموجزة حول مشاهير الفقهاء السابقين :

فقد كان **ابن اللبّاد** (ت . 333 هـ/ 944 م)[161] أحد تلاميذ يحيى بن عمر يعرف معرفة جيّدة اختلافات المدرسة الفقهية المدنية . وقد اضطهده بنو عُبَيد ومنعوه من التدريس والفتوى . وكان تلاميذه « يقصدونه خفية ويجعلون كتبهم في أوساطهم » .

وكان **ابن سعيد بن الحدّاد** (ت . بعد سنة 320 هـ/ 941 م)[162] نجل مجادل بارع (ت . 302 هـ/ 914 م) ، تعاطى النظر والقياس والاجتهاد ونبذ تقليد كبار الفقهاء واعتنق المذهب الشافعي على نحو انتقائي وناقش بتألّق وشجاعة فقهاء المذهبين الحنفي والشيعي .

---

157) المعيار ، 1/342-344 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 1/239 ظ ، 240 و ، 242 ظ ، المختصر ، 39 و .
158) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1936 م ، 82-85 ، الرسالة . 162-167 ، المعيار ، 2/165-167 : آراء أبي عمران الفاسي والداوودي واللخمي والمازري .
159) ابن حمّاد ، 39 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية 2/326] .
160) النويري ، 2/136 .
161) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 126 .
162) نفس المرجع ، 127-128 .

وكان الممّسي (ت . 333 هـ / 944 م) عارفاً بفنّ تحرير العقود ومتفوّقاً في الجدل والنظر . وإثر رجوعه من البقاع المقدسة بعد أداء مناسك الحجّ مال إلى الزهد والنّسك . وقد خرج مع أبي يزيد لقتال بني عُبَيد ومات شهيداً . وألّف عدة كتب ، من بينها بالخصوص اختصار الموازية [كتاب في الفقه من تأليف محمد بن المواز] .

وبالنسبة إلى أبي العرب (ت. 333 هـ / 945 م)[164] صاحب الكتاب الشهير « طبقات علماء إفريقية » ، سنكتفي بالتذكير بأنه كان محدّثاً وفقيهاً بارعاً .

وكان ربيع القطّان (ت . 344 هـ/ 946 م)[165] متضلّعاً في الحديث والتفسير . وإثر عودته من الحجّ سنة 324 هـ / 935 م ، اعتزل الشؤون الدنيوية والعلمية واستشهد أثناء ثورة أبي يزيد وأهل القيروان ضدّ الشيعة .

ورغم أن أبا ميسرة بن نزار (ت . 337 هـ / 946 م)[166] كان متعبّداً أوّلاً وقبل كلّ شيء ، فقد عرض عليه الخليفة الفاطمي المنصور خطّة القضاء .

وكان الإبياني (ت . 352 هـ / 964 م)[167] أصيل قرية إبيانة الواقعة في فحص مرناق من ضواحي مدينة تونس ، يتحوّل كلّ يوم إلى هذه المدينة للتدريس والفتوى . وقد كان يدرّس الواضحة لابن حبيب ، وكان ذا نزعة شافعية ، ويبدو أنه أخذ عن ابن اللبّاد وابن مسرور العسّال . وكان العالم المشرقي أبو إسحاق بن شعبان يعتبره أعلم علماء المغرب في عصره . وقد كان متفوّقاً في تحديد المسائل ومفضّلاً ذلك على العروض النظرية .

وأقام بالقيروان درّاس الفاسي (ت . 357 هـ / 967 م)[168] أحد تلاميذ ابن اللبّاد وصاحب كتاب الدفاع عن الأشعرية الذي نقضه ابن حزم . وقد ترك بالقيروان بالغ الأثر .

وكان السدري (ت . 361 هـ / 971 م)[169] فقيهاً ذا قيمة عالية ، أخذ عن شيوخ إفريقيّين وطرابلسيّين وأندلسيّين ، ورفض خطة القضاء ، ويقال إنّه أوّل من أدخل إلى إفريقية كتاب ابن المواز .

وكان ابن زكرون (ت . 370 هـ / 980 م)[170] ناسكاً طرابلسيّاً ، طاف في أرجاء المشرق

---

163)) نفس المرجع ، 126-127 .
164) نفس المرجع ، 128-129 .
165) نفس المرجع ، 129 .
166) نفس المرجع ، 130 .
167) نفس المرجع ، 132-174 .
168) نفس المرجع ، 134-175 .
169) نفس المرجع ، 175 .
170) نفس المرجع ، 176 .

صحبة ربيع القطّان ، وألف كتباً عديدة في الشريعة والفرائض و« الرقائق » (علم التصوّف) والحديث .

وألّف العالم الأشعري **القلانسي** (ت . 359 أو 361 هـ / 969-971 م)[171] **كتاب الإمامة والردّ على الرافضة** [أي غلاة الشيعة] ، فامتحن على يد أبي القاسم (الملقّب بالقائم) ثاني الأمراء العُبَيديين الذي حبسه مدّة من الزمن في دار البحر بالمهديّة .

وينبغي أن نشير أيضاً إلى **ابن الحجّاج** (ت . 346 هـ / 957 م)[172] الذي كان يملك مكتبة ، و**الكانشي** (ت . 347 هـ / 958 م)[173] ، العابد الأديب ، و**البزّاز** (ت . 355 هـ / 965 م)[174] ، أحد مشاهير أصحاب ابن اللبّاد ، وقد فرّ من الدعوة الشيعية إلى مصر وتوفّي بها ، و**ابن مسرور الدبّاغ** (ت . 359 هـ / 969 م)[175] و**ابن مسرور العسّال** (ت . 346 هـ / 975 م)[176] .

وأخيراً لا ينبغي أن نستهين بالعمل الذي قام به الناسكان الشهيران **السبائي القيرواني** (ت . 356 هـ / 966 م) الذي كان فقيهاً بارزاً هو أيضاً و**الجبنياني الساحلي** (ت . 369 هـ / 979 م)[177] .

وتجدر الإشارة إلى بعض الفقهاء الذين ماتوا خلال العقد الموالي لارتقاء بلكين إلى العرش وهم :

ابن أخي هشام (ت . 371 أو 373 هـ / 981-983 م)[178] أحد تلاميذ ابن اللبّاد والإبياني ، وقد كان يُعَدّ من بين كبار فقهاء عصره ، واشتهر بالعلم والتقوى ، وكان يعرف معرفة جيّدة اختلافات علماء المدينة المنوّرة والمذاهب الأربعة والحالات الخاصّة وفقه الفضاء . وكان ابن شبلون والإبياني وابن أبي زيد معجبين به شديد الإعجاب . وتفيدنا بعض النوادر أنه استاء ، ربّما

---

171) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 م ، 127-128 وتحية ماسينيون ، 2/332-333 .

172) إدريس ، حوليات .... 1954 م ، 131-132 .

173) نفس المرجع ، 132 .

174) نفس المرجع ، 133 .

175) نفس المرجع ، 175 .

176) نفس المرجع ، 175 .

177) نفس المرجع ، 133-134 ، 135 ، 176 ، مناقب ، القسم الأول .

178) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 349-357 .

في آخر حياته ، من ابن أبي زيد الذي كان اتّجاهه العقلاني لا يتماشى مع اتجاهاته التقليدية ذات الصبغة الصوفية . وأثناء الجدل حول كرامات الأولياء ، لم يشاطر آراء صاحب الرسالة ، هذا المناظر لدرّاس الفاسي .

وإنّنا لا نعرف شيوخ ابن التبّان (311-371 هـ / 923-981 م)[179] الذي كان متضلّعاً في العلوم القرآنية والفقه وأصول التوحيد . وقد سخّر مواهبه الخطابيّة للذبّ عن المذهب المالكي ، وسبق أن رأينا مدى ما أظهره من شجاعة ومخاطرة ، لما جادل منافسيه أمام والي إفريقية « المختال » . وكان متفنّناً في علوم شتى منها النحو واللغة والرياضيات والفلك والطبّ وتفسير الأحلام . وله مع ذلك ورع شديد وولوع بالشعر الصوفي والنوادر البليغة . وحسب الإبياني الذي كانت له معرفة بالرجال ، كان ابن أبي هشام علاّمة وابن أبي زيد ثاقب الفكر ، وابن التبّان لسان حال الحكمة المنبثقة عن كامل شخصيته . وقد ألحّ أصحاب التراجم على ما كان يتحلّى به من لطف وتواضع ونزاهة . وكانت الفتوى تأتيه من كلّ مكان . وقد تجمّع حوله ذات يوم بالمنستير خلق كثير من الأعراب الرحّل والقرويّين وأهل سوسة والمنستير والمرابطين ، جاؤوا ليعرضوا عليه بعض الحالات الخاصّة . وقيل : إنّه اضطرّ إلى غلق الباب في وجوههم ، بعدما أصدر زهاء الألف فتوى .

وكان ابن معتب ، أحد تلاميذ ابن اللبّاد وابن مسرور العسّال (ت . في حدود 371 هـ / 981 م)[180] ، فقيهاً . وقد نوّه بقيمته ابن أبي زيد ، ولكنّه لم يقم بأيّ دور يُذْكَر .

ولا نعلم عن الخشني (ت . 371 هـ / 981 م)[181] الذي هاجر إفريقية إلى الأندلس وهو صغير السنّ ، إلاّ التحاقه بالأمويّين لخدمتهم وإعلامهم بكل ما كان يجري في إفريقية في عهد بني عُبَيْد ، وقد شوّه سمعتهم هم وأتباعهم . ويُعتبَر كتابه طبقات علماء إفريقية على غاية من الأهميّة ، لأنه يتضمّن تراجم علماء من غير المالكية ، ومجادلين وقضاة ، وبالخصوص تراجم أهل السنّة الذين اعتنقوا المذهب الشيعي . وقد حاول إقامة الدليل على أن هؤلاء المرتدّين قد تصرّفوا هذا التصرّف إمّا رغبةً في المال ، أو لضعف عقلهم .

وكان أبو محمد عبد الله بن أبي زيد (310-386 هـ / 922-996 م)[182] يمثّل أنجع عامل من

179) نفس المرجع ، 357-367 .
180) نفس المرجع ، 367-368 .
181) نفس المرجع ، 368-369 .

عوامل انتصار المذهب المالكي نهائياً في إفريقية . وهو أصيل نفزاوة ، ولكنه وُلِد في القيروان وزاول دراسته فيها . وقد أظهر في وقت مبكّر نبوغاً جديراً بالملاحظة . وكان شيخه الأوّل في الفقه ابن اللبّاد . ومن بين الشيوخ الآخرين الذين أخذ عنهم ، نشير بالخصوص إلى المَمّسي وابن سعيد بن الحدّاد وأبي العرب وابن مسرور العسّال وابن الحجّاج والكانشي والإبياني والبزّاز ودرّاس الفاسي وأبي بكر أحمد بن عبد الله بن محمّد عبد المؤمن ، والمتعبّدين ربيع القطان وأبي ميسرة بن نـزار والسبائي والجبنياني .

وتأثر ابن أبي زيد بالعالم الأندلسي الأصيلي (ت . 392 هـ / 1001 م) وببعض الشيوخ الشرقيّين أمثال الأبهري (ت . 395 هـ / 1004 م) وابن شعبان (ت . 355 هـ / 965 م) . وسوف لا نتعرّض من جديد لاتّجاهات ابن أبي زيد الأشعرية ولا لآرائه حول كرامات الأولياء .

وكان تأليفه الأوّل **الرسالة** عملاً رائعاً . وقد شعر ابن أبي زيد وهو في السابعة عشرة من عمره بضرورة تأليف كتاب لتبسيط المذهب المالكي . ونحن نعلم أن نصّ **الرسالة** الحالية مهدي إلى ابن خالته محرز بن خلف الذي كان آنذاك مؤدب صبيان . ورغم جفاء أسلوب **الرسالة** ، فإننا نميل إلى الاعتقاد أنها تمثل كتاباً مؤلفاً لغرض الدعاية وبالأحرى الدعاية المضادة ، لأنها سبقت ثورة أبي يزيد وركود الدعوة العُبَيدية . وقد جاءت في وقتها وأحرزت نجاحاً منقطع النظير في إفريقية وفي الخارج . وما فتئت منذ ذلك التاريخ محلّ درس وشرح .

وحظي كتابه الذي لم يصلنا **مختصر المدوّنة** بتقدير كبير في أوّل الأمر ، ثم تفوّق عليه كتاب البراذعي . ولكنّ تأليفه الرئيسي الذي وضع فيه زبدة معارفه الفقهية هو كتاب : **النوادر والزيادات على ما في المدوّنة وغيرها من الأمّهات** وهو عبارة عن مجموعة ضخمة من المعلومات المتعلقة بالفقه المالكي ، قد أحكم صاحبها صياغتها وأعدّها لإتمام **المدوّنة** . ولا شكّ أن نشر ما وصلنا من هذا الأثر الرائع ، سيجني منه الدارسون فوائد جمّة .

ومن بين آثار ابن أبي زيد العديدة ، نشير بالخصوص إلى المؤلفات التالية(182م) :

- **تهذيب العتبية** ، للفقيه القرطبي [محمد بن أحمد] العتبي (ت . في حدود 254-255 هـ / 868-869 م) .
- **كتاب قيام رمضان والاعتكاف** .
- **رسالة في أصول التوحيد** .

---

182) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 122-172 .

ـ كتاب الاقتداء بأهل المدينة .
ـ كتاب الذبّ عن مذهب مالك .
ـ كتاب المعرفة واليقين والتوكّل (وهي رسالة للردّ على محمد بن الطاهر القائد) .
ـ كتاب ردّ الخاطر من الوسواس .
ـ في من تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة .
ـ رسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن .
ـ الردّ على القدريّة ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي .
ـ الردّ على ابن مسرّة المارق ، وهو [محمد بن عبد الله بن مسرّة] (ت . 319 هـ / 231 م) الذي سخّر جهوده للفلسفة والتصوّف ، وقد تأثّر بالمذهب الشيعي[183] ، وأشارت المصادر إلى مروره بالقيروان .
ـ ثلاثة أجزاء في إثبات كرامات الأولياء الخ . . .

ويكفي هذا العرض لإعطائنا فكرة عامة عن غزارة وتنوّع إنتاج ابن أبي زيد الذي كان علاوة على ذلك كاتباً بارعاً . فقد جمع أسلوبه بين المتانة والإيجاز والأناقة ، دون اللجوء إلى المحسّنات البديعية . ولم تكن صياغة فتاواه أقلّ رونقاً من صياغة كتبه ورسائله .

وقد أخذ عنه عدد كبير من الإفريقيين ، والصقليّين والمغاربة والطرابلسيّين والأندلسيّين وغيرهم ، واستجازه كبار علماء المشرق أمثال ابن مجاهد البغدادي والأبهري الذي جمع الأحاديث التي استندت إليها المسائل الواردة في **رسالة** ابن أبي زيد . وألّف عبد الوهاب بن علي بن نصر الذي تولى القضاء في العراق ومصر ، شرحاً على **الرسالة** و**المختصر** . « وقد ذُكِر أن ابن أبي زيد بعث إليه بألف دينار عيناً . فلما بلغته قال : هذا رجل وجبت عليّ مكافأته ، فشرح **الرسالة** »[183م] .

وممّا زاد في شهرة ابن أبي زيد أنه كان على غاية من الثراء ، وكان « من الأجواد وأهل الإيثار والصدقة ، كثير البذل للفقراء والغرباء وطلبة العلم ، كان ينفق عليهم ويكسوهم ويزوّدهم » . وكان ابن أبي زيد وليّ نعمة ابن شبلون والقابسي ، وقد جهّز ابنة هذا الأخير بأربعمائة دينار عيناً .

ونحن نتصوّر مدى إشعاع مثل هذا الرجل على الصعيدين الروحي والاجتماعي . ففي حياته لهجت الألسن بالثناء على ما كان يتمتع به من علم وتقوى ، ذلك الفقيه الذي كان يُعرَف

---

183) محمود علي المكي .

« بمالك الأصغر » ، وازداد الثناء عليه بعد وفاته . وكان يُعتبَر ، إلى جانب الأبهري ، مدعّم المذهب المالكي . إذ لولاه ولولا تعاليمه الرائعة وما بذله من جهد ومثابرة لجمع الفقه المالكي وترتيبه وتصنيفه وتركيزه على أسس عقلية ، وفضلاً عن ذلك ، نشره بين الناس بواسطة تآليفه ومصنّفاته ، لولا كلّ ذلك لما تمكّن المذهب المالكي في آخر الأمر من الانتصار في إفريقية . وأخيراً فهو الذي استهلّ العصر الذهبي للمفتين الإفريقيّين .

وبفضل تلاميذه ، تواصل عمل ابن أبي زيد إلى أبعَد بكثير من القيروان . فقد رأيناه يبعث برسالة إلى أهل توزر ليوصيهم خيراً « بصاحبه » أبي زكرياء الشقراطسي الذي كان ضحيّة بعض الأعمال العدوانية . بل أكثر من ذلك : فإنّ لدينا نصّ الرسالة التي وجّهها علماء القيروان إلى عامل توزر يوصونه خيراً بهذا العالم الجليل الذي كان ضحية بعض الأوباش الأشقياء ، ويعالم آخر من العلماء المجدّدين للسنّة[184] .

ويستعرض هذا الحكم المجهول المصدر أسباب الحظوة التي كان يتمتع بها ابن أبي زيد :

« قال بعضهم : كان أبو محمد إمام المالكية في وقته وقدوتهم وجامع مذهب مالك وشارح أقواله . وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية ، كتبه تشهد له بذلك ، فصيح اللّسان ، ذا بيان ومعرفة بما يقوله ، ذابّاً عن مذهب مالك ، قائماً بالحجّة عليه ، بصيراً بالردّ على أهل الأهواء ، يقول الشرع ويجيده ، ويجمع إلى ذلك صلاحاً تامّاً وورعاً وعفّة ، وحاز رئاسة الدين والدنيا وإليه كانت الرحلة في الأقطار »[185] .

ولمّا التحق ابن أبي زيد بجوار ربّه مكلّلاً بهالة الصلاح ، خلفه أبو الحسن القابسي الذي سيتسنّى له أكثر من أيّ عالم آخر ، إتمام عمل سلفه الجليل وإثراؤه .

وأخذ ابن شبلون (ت . 390 أو 391 هـ / 999-1000 م)[186] عن ابن أخي هشام وابن الحجّاج والكانشي ، وصنّف تأليفاً ضخماً وهو كتاب المقصد الذي فُقِد . ولم يشاطر رأي ابن أبي زيد الدقيق حول عدّة مسائل من المدوّنة التي كان متعلّقاً بمعناها الضيّق . وقيل لنا إنه كان « مفتي المدينة والبادية » ، حيث كان يفتي كلّ يوم في مائة مسألة ، وإن نفوذه كمفتي ومدرّس قد تدعّم

---

184) إدريس ، تحية جورج مارسي ، 2/95-97 .

185) معالم الإيمان ، 3/136 .

186) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، -369 ـ نُشر النص الوارد في مشهد قبره المؤرخ في 17 ربيع الأول 390 هـ/26 فيفري 1000 م في نقائش عربية ، 1/291-292 .

بالخصوص بعد وفاة ابن أبي زيد ، اللهمّ إلّا كان ذلك يعني أنه كان يحتلّ المرتبة الثانية بعد صاحب النوادر .

ويبدو أنّ أحد معاصري ابن شبلون ، وهو **أبـو موسى عيسى بن منـاس** (ت . 390 أو 391 هـ / 999-1000 م)[187] قد اشتهر بالتدريس والإفتاء .

وسبقت الإشارة إلى **ابن عذرة**[188] الفقيه والمحدّث والمتعبّد ، لما تحدثنا عن الأشعـرية ، وإدانته للخطباء الذين يدعون للخليفة الفاطمي الحاكم . وقد تولّى تبويب **صحيح الإمام مسلم** . والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أن أهل المغرب المالكية قد فضّلوا في أوّل الأمر صحيح مسلم على صحيح البخاري ، لأنّ مسلماً غالباً ما يعتمد رواية مالك . ورغم أنه قد قسّم الأحاديث هو أيضاً حسب أقسام الفقه ، فإنه لم يبوّب كتابه بنفس طريقة البخاري . وقد أضيفت فيها بعد العناوين المتغيّرة بحسب المخطوطات المنقّحة .

وكان أبو الحسن بن تمّام المعروف **بابن المهدي** (أو المهري)[189] فقيهاً ذائع الصّيت ، له عدد كبير من الأنصار ، وكان يغيّر المنكر ويصدع بالحقيقة . وقد عارض القاضي أبا بكر بن أبي زيد حول تحديد يوم العيد . وكان يحظى بتقدير المعزّ بن باديس ويتدخّل لديه لفائدة العـامّة ، معتبراً نفسه المتحدّث باسمهم .

وأما **الطرّاقي**[190] فهو جدير بالملاحظة لمعارضته الشديدة للمذهب الشيعي . وقد كان يرى أنّ من واجب أهل إفريقيّة الهجرة من بلادهم بعدما سقطت بين أيدي الشيعـة الذين يصفهم بالزنادقة .

ولا نعرف شيئاً كثيراً عن أحد معاصري ابن أبي زيد والقابسي ، المدعوّ **ابن دحمون**[191] الذي ورد ذكره عدّة مرّات عند الحديث عن الأندلسيّين الذين تابعوا دروسه بالقيروان .

وأما **الـدّاودي** [192]، فهو فقيه طرابلسي ، مسيلي (أو بسكري) الأصل ، قد كوّن نفسه بنفسه ولم يتتلمذ إلى أيّ شيخ معروف ، ما عدا القـلانسي الأشعري المـذهب . وكان « فقيهـاً

187) نفس المرجع ، 350-371 .
188) إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/329-331 .
189) نفس المرجع ، 2/343-344 .
190) نفس المرجع ، 2/331-332 .
191) إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 372-373 .
192) إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/332-338 .

متقناً ، مشاركاً في الحديث والنظر واللّسان » . وقد أملى شرحه على الموطأ ، ثم نزل بتلمسان وبها توفّي ، ويوجد قبره في أغادير . وقبل أن يتفوّق عليه أبو مدين (ت . 594 هـ / 1197 م) ، كان يُعتبَر « سلطان مدينة تلمسان » . وقد ألّف عدّة كتب منها : **شرح الموطأ** ومتن فقه و**شرح صحيح البخاري** الذي يقال إنه كان أوّل كتاب من هذا النوع ألّفه إفريقي ، و**كتاب الأصول** و**كتاب البيان** و**كتاب الأموال** الذي ربّما كان يبحث في الأوضاع العقارية[193] و**كتاب في الردّ على البكرية** مماثل للكتابَيْن اللّذين ألّفهما ابن أبي زيد والقابسي . وقد اقتفى أثرهما الداودي في الجدل حول إثبات كرامات الأولياء . وكان قدوة لكثير من تلاميذه ، وأغلبهم من الأندلسيّين . وقد أدان هو أيضاً الخطباء الذين يدعون لبني عُبَيْد ، وكاتب علماء القيروان يعاتبهم على بقائهم بإفريقية الخاضعة للفاطميين ، فتلقى هذا الجواب اللاّذع : « اسكت ، فليس لك شيخ »! .

واتُّهِم **البراذعي**[194] (ت . في أواخر القرن الرابع هجري / الحادي عشر ميلادي) الذي كان صاحب ابن أبي زيد ثم حصل بينهما نفور ، بموالاة الفاطميّين ، فاضطرّ إلى الفرار إلى صقلية ، وتوفّي بها بلا ريب ، ولو أنّ أحد المصادر يؤكّد أنه مدفون بالقيروان . وقد أخذ عنه بعض التلامذة الأندلسيّين ، ولكنّنا لا نعرف له إلا تلميذاً إفريقيّاً واحداً وهو القاضي أبو بكر أحمد بن عبد الله بن أبي زيد . ومن أشهر مؤلّفاته كتاب **التهذيب** الذي توجد منه عدّة مخطوطات ، وهو تلخيص **للمدوّنة** ، انتهى مؤلّفه من تحريره في سنة 372 هـ / 982 م . وقد اشتهر هذا الكتاب منذ ظهوره واعتنى به خصوم المؤلف أنفسهم عناية فائقة . واستحسن أهل القيروان على مضض وضوح ومتانة وإيجاز هذا الأثر الذي يتضمّن زبدة كتاب الإمام سحنون الضخم . وتؤكّد كلّ المصادر التي بين أيدينا بالإجماع أن التهذيب قد أزاح **مختصر** ابن أبي زيد وأصبح الكتاب المفضّل في إفريقية وصقلية والإسكندرية والمغرب والأندلس ، وتواصلت شهرته حتى الخامس عشر ميلادي وتناوله الفقهاء بالدرس والشرح ، وسوف لا يتفوّق عليه فيما بعد سوى **مختصر** خليل .

وكان أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف **بالقابسي** (324-403 هـ / 935-1012 م)[195] إمام المذهب المالكي بلا منازع في القيروان ، لا سيما بعد وفاة ابن أبي زيد . وهناك رواية شفهية تقول إنّ هذا الفقيه القيرواني النشأة والقابسي الأصل ، هو وابن أبي زيد

---

193) نفس المرجع ، 334/2 .

194) نفس المرجع ، 348/2-353 : ويضاف إلى المراجع : الغبريني 86 .

195) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 173-198 .

ومحرز بن خلف ، أبناء خالات ، تزوّج آباؤهم ثلاث أخوات .

ومن بين الشيوخ الذين أخذ عنهم القابسي ، نشير بالخصوص إلى الإبيـاني وابن مسرور الدبّاغ وابن مسرور العسّال وابن الحجّاج والكانشي ودرّاس الفاسي والسدري وابن زكرون . وتأثّر مثل ابن أبي زيد تأثّراً بالغاً بالعابدَيْن الجليلين السّبائي والجبنياني الساحلي . ويدلّ كتاب مناقب الجبنياني الذي ألّفه اللبيدي تلميذ القابسي ، على ما كان يكنّه فقيهنا لشيخه المبجّل من محبّة .

وأقام القابسي بالمشرق من سنة 352 إلى سنة 357 هـ / 963-968 م صحبة درّاس الفاسي والعالم الأندلسي الأصيلي . وحسب أصحاب التراجم ، كان العالم المصري حمزة بن محمد الكناني من أشدّ العلماء المشارقة تأثيراً عليه .

وقد وصلتنا مجموعة من مؤلّفاته نخصّ بالذكر منها[195م] :

- **الملخّص للمتحفّظين** جمع فيه ما اتّصل به إسناده من حديث مالك في الموطأ . وقد حظي هذا الكتاب الذي توجد منه عدة نسخ خطية بتقدير كبير ، لا سيما في الأندلس .
- **والرسالة المفصلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلمين** ، وهي مقتبسة من كتاب محمد بن سحنون آداب المعلمين .

وعلاوة على مجموعة كبيرة من الأحاديث المبوّبة على أبواب الفقه ، ألّف القابسي عدّة رسائل في أغراض شتى من العلم كالتفسير والعبادات والعقائد ومناسك الحجّ والرباطات وتزكية الشهود وتجريحهم وحسن الظنّ بالله تعالى والتوبة الـخ[196] . . . ومن الجديـر بالتـذكير أيضـاً أنه ألّف كتاب **كشف المقالة** حول آراء أبي الحسن الأشعري ، ورسالة في الردّ على البكرية .

وكان القابسي أعمى يستعين بأصحابه للقيام بدور الكَتَبة . وقد ألحّ أصحاب التراجم على اتّساع معارفه ودقّتها ، وما كان يتحلّى به من فضائل مثالية هذا الرجل المعوز الذي سخّر حياته للدراسة والعبادة . وقد بدأ بتدريس القراءات ، وكان القرّاء القيراونيّون يعتمدون عليه ، ولكنه لما علم أن أحد تلاميذه قد علّم الأمير قراءة القرآن ، تخلّى عن تدريس هذه المادّة وتفرّغ للفقه .

وكان القابسي فقيهاً فذّاً ، مولعاً بأصول الفقه . وقد أسلفنا أنّه كان أحد كبار أنصار المذهب

---

196) وردت في رياض النفوس ومعالم الإيمان ، حسب رواية القابسي ، معلومات كثيرة حول اضطهاد الشيعة لأهل السنّة . انظر أيضاً ، المعيار ، 2/414-415 ، فتوى مهمّة للمازري حول صحّة توبة الشيعة ، ولكنّ النصّ مشوّه .

197) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 180 ، ويضاف إلى المراجع المعيار ، 12/135-136 (فتوى مطوّلة للقابسي تدلّ على اتساع معارفه في علم الحديث) .

الأشعري في إفريقية . وكان تأليف ابن المواز يمثّل كتابه المفضّل ، لأنّ هذا المؤلف كان ـ حسب رأيه ـ يربط بين الفروع والأصول ولا يكتفي بجمع المعلومات . وكان يعيب على العالم المصري أبي إسحاق محمّد بن القاسم بن شعبان القرطبي (ت . 355 هـ / 965 م) نقله لأقوال غريبة منسوبة إلى مالك وآراء شاذة ، حسب معلومات غير معروفة .

ولكنّ القابسي كان أوّلاً وقبل كلّ شيء محدّثاً شهيراً ، نشر في المغرب **صحيح البخاري** ووضع له رواية تُعرَف برواية القابسي[197] . « ولما طُلِب للفتوى وعزم أهل القيروان ، أبى وسدّ بابه دونهم ، فقال لهم أبو القاسم بن شبلون : اكسروا عليه بابه لأنه قد وجب عليه فرض الفتيا وهو أعلم من بقي بالقيروان » . فقبل القابسي مكرهاً وأصبح مفتياً مسموع الكلمة ، وذاع صيته بالخصوص بعد وفاة ابن أبي زيد وابن شبلون .

وقد تجلّى دور القابسي كمتكلّم باسم الرأي العام وشيخ فقهاء القيروان ، بمناسبة قضيّة ابن أخي حاضنة باديس[198] . وأخذ عنه عدد كبير من التلاميذ ، ووصفته لنا أحد المصادر ، وقد بلغ من العمر أكثر من أربع وثمانين سنة ، وهو يصعد بصعوبة إلى غرفة عالية حيث كان في انتظاره زهاء الثمانين طالباً من القيروان والأندلس[199] والمغرب . وسيكون أبو بكر بن عبد الرحمان وأبو عمران الفاسي من كبار المواصلين لعمله .

ويقال إنّ أبا علي حسن بن خلدون البلوي، أحد تلاميذ القابسي البارزين (ت. 407هـ/ 1016 م)[200] ، قد اهتمّ بالعقيدة الأشعريّة ، أما في مجال الفقه ، فيبدو أنه كان متشدّداً ومتعلّقاً بالشكليّات ، وقد شاطر مرّة واحدة على الأقلّ وجهة نظر أبي بكر بن عبد الرحمان وعارض آراء ابن الكاتب وأبي عمران الفاسي . وكان يتمتع بنفوذ قويّ ويعارض الشيعة معارضة شديدة . وقد سبق أن رأينا ما قام به من دور في مجازر سنة 407 هـ وتعرّضه للاغتيال على نحوٍ مأسوي .

وكان **ابن الكاتب** ، تلميذ ابن شبلون والقابسي (ت . 408 هـ / 1017 م)[201] ، يتمتّع

---

198) نفس المرجع ، 196-197 : هذه الواقعة سابقة لسنة 396 هـ/1005 م تاريخ وفاة والي إفريقية محمد بن أبي العرب الذي شارك فيها ، انظر معالم الإيمان ، 3/175-176 .

199) من بين الطلبة الأندلسيّين القرطبي حاتم بن محمد الطرابلسي (ت . 469 هـ/1076 م) ، وهو من أهمّ الناقلين لصحيح البخاري حسب رواية القابسي ، إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 194 .

200) إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/338-343 .

201) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 188 والمجلة الإفريقية ، 1956 م ، 372 .

بشهرة كبيرة في ميدان الفقه والجدل . وقد اختلف حول كثير من المسائل مع أبي عمران الفاسي وواجهه بتألّق .

وكان **أبو الحسن بن المقلوب السوسي** ، أحد أصحاب القابسي[202] ، من أشهر فقهاء سوسة وأعيانها . وقد رحل إلى المهدية وتولى فيها التدريس ، بعد غزوة بني هلال بلا شكّ .

واستقرّ العالم الأندلسي **ابن سعدي** ، تلميذ ابن أبي زيد والأبهري (ت . بعد 410 هـ / 1019 م)[203] بالمهديّة التي أصبح مفتيها الأبعد صيتاً وبها توفّي .

وكان **أبو عبد الله محمد بن سفيان الهوّاري المقرىء** (ت . 415 هـ / 1024 م)[204] من مشاهير القرّاء . وقد ألّف عدّة كتب وقرأ الفقه والقراءات على القابسي الذي كان يحبّه حبّاً جمّاً . وأخذ عنه هو نفسه عدد كبير من التلاميذ .

أمّا المقرىء الجليل والمفسّر **أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي** (ت . 440 هـ / 1048 م)[205] ، فقد قرأ الحديث على القابسي والقراءات على أبي عبد الله محمّد بن سفيان ، وغادر إفريقية متوجهاً إلى الأندلس قبل وفاته بنحو عشر سنوات . وقد ألّف كتاباً في التفسير وآخر في القراءات السبع ، نال شهرة واسعة .

وأخذ الفقيه والمتعبّد **الخواصّ** (ت . 428 هـ / 1036 م)[206] عن ابن أخي هشام وابن أبي زيد وأبي عمران الفاسي .

واهتمّ **ابنا الأجدابي** الأب (ت . 384 هـ / 994 م)[207] والابن (ت . 432 هـ / 1040 م) ، تلميذاً ابن أبي زيد ، بترجمة المتعبّدين بالقيروان .

وألّف تلميذ آخر من تلاميذ ابن أبي زيد ، وهو **أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي** (ت . 432 هـ / 1030 م)[208] كتاباً مفقوداً بعنوان **« الافتخار في مناقب فقهاء القيروان »** .

وتفرّغ **أبو الحسن علي بن أبي طالب العابر**[209] ، تلميذ القابسي لتعبير الرؤيا (تفسير

202) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 189 .
203) نفس المرجع ، 159-160 .
204) نفس المرجع ، 185-186 ، الصفدي ، 114/3 ، رقم 1049 .
205) إدريس ، نفس المرجع ، 186 .
206) نفس المرجع ، 151 .
207) نفس المرجع ، 151-152 .
208) نفس المرجع ، 153 .
209) نفس المرجع ، 185 ومناقب ، 285-286 ، 308 .

الأحلام) . ويقال إنّه أبدى حول هذا الموضوع بعض الآراء التي استنكرها علماء القيروان بشدّة[210] . ونحن نعرف عالمَيْن أندلسيّين على الأقلّ ، قد أخذا عنه هذا الفنّ . وقد ألّف نحو مائة كتاب ، وقرأ عليه أبو القاسم المهلّب بن أبي صفرة .

وأخذ **أبو بكر محمد بن نعمة الأسدي العابر القيرواني** (ت . 481 أو 482 هـ / 1089-1088 م)[211] عن أبي عمران الفاسي والبوني وعبد الحقّ الصقلي . كما تتلمذ مدّة طويلة إلى علي بن أبي طالب العابر السالف الذكر . وتضلّع في « العبارة » (تعبير الرؤيا) وألّف في هذا الفنّ عدّة كتب . واستقرّ في المرية وبها توفّي . ويعتبره بعضهم ذا حجّة ضعيفة .

واعتبر **أبو بكر بن عبد الرحمان** (ت . 432 أو 435 هـ / 1040-1043 م)[212] ، على غرار منافسه وخصمه أبي عمران الفاسي ، من كبار الفقهاء المغاربة في عصره . وكان أبرز شيوخه الثلاثة ابن أخي هشام وابن أبي زيد والقابسي الذي رخّص له في الانتصاب للفتوى . وكان القابسي يقول : إنّه لا يفوقه أحد في التقوى والعلوم الشرعية . ولاحظ السيوري من جهته أن أبا بكر بن عبد الرحمان لم يخطىء ولو مرّة واحدة حول مسألة من مسائل المدوّنة و الموازية . ويبدو أنه انقطع للتدريس والفتوى دون سواهما . وقد كوّن عدداً كبيراً من التلاميذ الإفريقيين والأندلسيّين والصقليّين ، أي ما يناهز المائة والعشرين ، حسبما يقال .

وقرأ **أبو عمران الفاسي** (365 أو 368-430 هـ / 975 أو 978-1039 م)[213] أصيل مدينة فاس على القابسي . ورحل إلى قرطبة بإرشاد صديقه أبي عمر يوسف بن عبد البرّ (ت . 464 هـ / 1071 م) ثم إلى المشرق .

وفي حدود سنة 399 هـ / 1008 م تابع في بغداد دروس العالم الأشعري الشهير البقلاني (ت . 403 هـ / 1012 م) ، وعندما توفّي القابسي كان موجوداً بالقيروان . وفي حدود 425-426 هـ / 1033-1034 م ، رحل من جديد إلى المشرق ، ويبدو أنه لم يرجع إلاّ قبل وفاته بقليل . ونلاحظ انتقائية تكوين أبي عمران الذي استقى معارفه من القيروان والأندلس ومصر والحجاز والعراق .

وبدأ التدريس بتعليم القرآن الكريم -على الأرجح قبل سفره إلى المشرق- ثم تفرّغ إثر

---

210) مناقب ، 285-286 ، النص غير واضح .
211) إدريس ، حوليّات . . . 1955 م ، 47 .
212) نفس المرجع ، 39-41 .
213) نفس المرجع ، 40-58 .

عودته لتدريس الحديث والفقه . وكان متضلّعاً في القراءات السبع والتجويد ونقد المحدّثين وأصول الفقه . وقد أثارت شهرته المتزايدة ـ بالإضافة لا محالة إلى الاختلافات المذهبية ـ معارضة أبي بكر بن عبد الرحمان الذي ذهب به الأمر إلى لعن من يحضر مجلس خصمه من تلاميذه . وقد أسلفنا أن المعزّ بن باديس قد حاول بلا جدوى ، والحقّ يقال ، الاستفادة من خصومتهما[214] .

ورغم اختلاف أبي عمران مرات عديدة مع ابن الكاتب ، تلميذ ابن شبلون والقابسي ، يبدو أنه قد اتّفق معه ضمنياً مرّة واحدة على الأقلّ لأنه كان على خلاف مع أبي بكر بن عبد الرحمان . وقد حاول العالم القرطبي أبو العباس أحمد بن رشيق الكاتب (ت . بعد 440 هـ / 1048 م) بلا جدوى في الظاهر ، المصالحة بين الخصمين بتوجيه رسالة إلى كلّ منهما . ونعرف من مؤلفات أبي عمران الفاسي على وجه الخصوص كتاب **التعاليق على المدوّنة** الذي لا شكّ أنه يتضمّن عدّة معلومات حول التراجم ، والدليل على ذلك الاستشهادات المتكرّرة الواردة في **المدارك** للقاضي عياض الذي أعلن بصريح العبارة في مقدمة كتابه أنه اعتمد تعليقات أبي عمران الفاسي الخطّية . ومن بين المؤلفات الأخرى ، نشير إلى مجموعة أحاديث نبويّة وكتاب يحمل عنوان **النظائر** ، وقد قيل إنه يوجد مخطوطاً . وأشار أصحاب التراجم إلى الجمهور الغفير المتابع لدروسه والذي كان يضمّ علاوة على القيروانيّين ، عدداً كبيراً من التلاميذ القادمين من فاس وسبتة والأندلس . وقد كانت توجّه إليه الرسائل من كل الأنحاء للاستفتاء والاستجازة . وقام بدور بارز في نشأة الحركة المرابطيّة .

وألّف **أبو حفص عمر بن العطّار** (ت . في حدود 430 هـ / 1038-1039 م)[215] تعليقاً على **المدوّنة** واشتهر بالتدريس والفتوى .

وتتلمذ العالم الطرابلسي **أبو الحسن علي بن محمد المنمّر** (ت . ـ 432 هـ / 1040 م)[216] ، تلميذ ابن أبي زيد وابن زكرون الطرابلسي (ت . 370 هـ / 980 م) ، إلى عدد كبير من الشيوخ المشارقة ، وألّف عدّة كتب منها كتاب في الفرائض . ونحن نعرف ما قام به من دور سياسي وديني في طرابلس من 407 إلى 430 هـ ، قبل أن يجليه الزناتيون عنها فيما بعد .

وأمّا الفقيه أبو الطيب عبد المنعم بن محمد الكندي المعروف **بابن بنت خلدون** (ت .

---

214) انظر الفصل 7 الباب الثالث .

215) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 186 ،و 1955 م ،33 .

216) نفس المرجع ، 1954 م ، 153-155 .

435 هـ / 1044 م)[217] ، وهـو ابن أخت الـشيـخ أبي عـلي بـن خلدون (ت . 407 هـ / 1016 م) ، فقد قرأ القرآن على أبي عبد الله بن سفيان والفقه على أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي . وقد كان هذا الفقيه والمدرّس الجليل متضلّعاً في الأصول والكلام واختلافات الفقهاء والحديث والنحو وعلم اللغة ونحو عشرة علوم تطبيقية يقال إنه ألّف فيها عدّة كتب لم يُكمِلها .

وأخذ **أبو إسحاق التونسي** (ت . 443 هـ / 1051 م)[218] أصيل مدينة تونس ، الفقه عن أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، والأصول والكلام عن العالم الأشعري الأزدي . وكان ميّالاً إلى النظر ومتضلّعاً في القراءات والفقه والحديث والنحو ، وانقطع للعبادة . وقد كانت فتاواه على غاية من الروعة ، وسبق أن أشرنا ما كان لفتواه حول الشيعة المعتدلين من صدى بعيد . وقد ألّف تعليقاً على المدوّنة يعرف بتعليقة التونسي وتعليقاً على الموازية . وأخذ عنه عدد كبير من التلاميذ .

ودرس عبد الجليل الديباجي المعروف **بابن الصـابوني**[219] عـلى الأزدي والقابسي وأبي عمـران الفاسي وأبي علي حسن بن محمود التونسي ، وكان عالماً في الأصول ومدرساً لهذا العلم ، وألّف عدة كتب وغادر إفريقية على الأرجح بعد غزوة بني هلال ، متجهاً إلى قلعة بني حماد وفاس للتدريس .

واستقرّ **أبو عـلي حسن بن محمود التـونسي**[220]، أصيل مـدينة تـونس وتلميذ الإبيـاني، بالقيروان سنة 423 هـ / 1031 م وتحوّل إلى المشرق حيث تابع دروس العالم الأشعري ابن فورك (ت . 406 هـ / 1015 م) .

وكان أبو زكرياء يحيـى **الشقراطسي** المولود بتوزر (ت . 429 هـ / 1036 م)[221] من تلاميذ ابن أبي زيد الذي كان يجلّه كثيراً ، وابن أخي هشام والقابسي. وبعدما رحّل إلى المشرق رجع إلى توزر لتدريس الفقه والإفتاء . ولا ندري أسباب المعارضة التي ظهرت ضدّه ودعت ابن أبي زيد « والجماعة » بالقيروان إلى التدخل لفائدته . وقد ألّف بعض الكتب ونظم عدداً من القصائد .

---

217) نفس المرجع 1955 ، 34-35 .

218) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م .

219) إدريس ، حوليات . . . 1955 م ، 49-50 .

220) نفس المرجع ، 50 ، الهامش 43 .

221) نفس المرجع ، 1954 م ، 153 ونخبة جورج مارسي ، 2/95-97 .

وأخذ ابنه **عبد الله الشقراطسي** (ت . 466 هـ / 1073 م)[222] عن ابن بنت خلدون وأبي حفص بن العطار وعبد الحقّ بن محمد بن هارون الصقلي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي والسيوري ، وخلف والده في التدريس والفتوى . ولكنه اشتهر بالخصوص بقصيدته **« الشقراطسية »** في مدح خير البريّة التي نالت شهرة كبيرة واستوحى منها البوصيري قصيدة **البردة** ، بعد ذلك بقرنين .

وقام **أبو محمد مكي بن أبي طالب المقرىء** (ت . 437 هـ / 1045 م)[223] ، تلميذ ابن أبي زيد والقابسي ، بعدّة رحلات في المشرق، تخلّلتها فترات إقامة بالقيروان ، قبل أن يرحل إلى الأندلس سنة 393 هـ / 1002 م ، وقد رصد حياته للعلوم القرآنية التي ألف فيها عدّة كتب لا سيما منها ما كانت مخصّصة للقراءات . وصرّح أنه ألف في القيروان كتاب **التبصرة** سنة 392 هـ / 1001 م .

وأما **أبو عبد الله محمد المالكي** (ت . 438 هـ / 1046 م)[224] ، فقد وهب نفسه لخدمة القابسي الذي كان يكلّفه بالصلاة بالنّاس . وإثر وفاة القابسي زار مكّة المكرّمة ، ودرس بها **صحيح البخاري** على أبي ذر المروي وعاد إلى القيروان صحبة أبي القاسم بن الكاتب في أوائل سنة 408 هـ . وألف كتاباً في مناقب شيخه المُوقّر القابسي وألّف ابنه **أبو بكر المالكي** كتاب **رياض النفوس** .

وغادر القيروان **أبو عبد الملك مروان البوني** (ت . قبل 440 هـ / 1048 م)[225] ، تلميذ القابسي والداودي قبل سنة متجهاً إلى بونة ، وقد توفّي بها . وألّف شرحاً **للموطأ** ، وكان له عدد من التلاميذ أغلبهم من الأندلسيّين .

ودرّس **ابن الضابط** (ت . بعد 440 أو 444 هـ / 1048-1049 م أو 1052-1053 م)[226] المولود بصفاقس ، الحديث وعلم اللغة والأدب بالقيروان لا محالة ، ولفت إليه الانتباه بالخصوص بوصفه سفيراً للمعزّ بن باديس . ونحن نعرف عناوين بعض مؤلفاته ، نخصّ بالذكر منها رحلة إلى المشرق ومجموعة من الأحاديث النبوية معروفة باسم **عوالي الصفاقسي** وكتاب **الاقتصاد في**

---

222) إدريس ، مجلة جورج مارسي ، 97/2-100 .
223) إدريس ، حوليات . . . 1954 ، 152-153 .
224) نفس المرجع ، 187 .
225) نفس المرجع ، 193 .
226) إدريس ، مجلة ماسينيون ، 357/2-359 .

القراءات السبع .

وأخذ **أبو القاسم بن محرز** (ت . في حدود 450 هـ / 1058 م)[227] عن القابسي وأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي وأبي حفص عمر بن العطّار ، كما أخذ عن بعض الشيوخ المشارقة . وقد ألّف عدّة كتب في الفقه ووصلتنا بعض فتاواه .

ويقال إنّ **أبا محمّد عبد الله الفحصي**[228] ، تلميذ أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، كان من كبار فقهاء إفريقيّة في عصره . وهو الوحيد الذي كان يكاتبه السيّوري باسم « الفقيه » . وفي حياة كبار الشيوخ القيروانيّين ، كان يحضر دروسه عدد كبير من المستمعين ، وكان منصرفاً للعبادة .

وأما **أبو بكر المالكي** (ت . بعد 453 هـ / 1063 م وربما في سنة 474 هـ / 1081 م)[229] صاحب التراجم الشهير ومؤلف « **رياض النفوس** » ، فقد روى عن أبي بكر بن عبد الرحمان « وكان قارىء حلقته بين يديه » .

وكان العالم القيرواني **أبو حفص عمر القمودي**[230] ، تلميذ أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، وصاحب السيّوري ، فقيهاً وأديباً . وانتهى به الأمر إلى الاستقرار بصفاقس .

وأخذ **السيّوري** (ت . 460 أو 462 هـ / 1067-1069 م)[231] الفقه عن أبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، والقراءات عن أبي عبد الله بن سفيان ، والأصول والكلام عن الأزدي ، ودرس على البقلاني . وقد كان غنيّاً ، أنفق كلّ ماله في أعمال البرّ والإحسان . وخالف مالكاً في مسائل ثلاث : « خالفه في اختلاف جنس القمح والشعير وخالفه في التدمية ، إذا لم يذكر فيها أثرد دم ، وقال بخيار المجلس ، لما قام عنده من الأدلّة على رجحان قول المخالف » . ويقال إنه مال أخيراً إلى المذهب الشافعي . ولكنّه كان مدرّساً وفقيهاً قبل كلّ شيء ، لذلك لم يؤلّف أيّ شيء تقريباً . ولازم السيّوري الذي كان المازري يسمّيه « شيخ الجماعة » ، القيروان بعد أن خرّبها الهلاليّون ، وبها توفّي .

---

227) إدريس ، حوليات . . . 1954 م ، 185 .

228) نفس المرجع ، 1955 م ، 37 .

229) نفس المرجع ، 36 .

230) نفس المرجع ، 37 .

231) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1953 م ، 138 ، 1956 م ، 494-500 .

وبالعكس من ذلك انتقل **اللّخمي** (ت . 478 هـ / 1085 م)[232] إلى سكنى صفاقس ، وأخذ بالخصوص عن التونسي وابن بنت خلدون وابن محرز والسيّوري الذي لم يكن يستحسنه .

ومن أشهر مؤلفات اللخمي « **التبصرة** » ، وهو تعليق على **المدوّنة** ، توجد منه بعض النسخ الخطيّة . « وهو مقدّم بتخريج الخلاف في المذهب [المالكي] واستقرار الأقوال ، وربّما اتّبع نظره فخالف فيما ترجّح عنده ، فخرجت اختياراته عن المذهب »[232م] . وتخرّج عليه جماعة من جلّة العلماء .

وأخذ **محمد بن سعدون** (413-485 هـ أو 486 هـ / 1022-1093 م)[233] عن عدد من الشيوخ الإفريقيين ، نخصّ بالذكر منهم أبا بكر بن عبد الرحمان واللبيدي والسيوري والبوني ، ومن الشيوخ المصريّين والمكيّين . وألف كتاب مناقب أبي بكر بن عبد الرحمان وكتاب « **الإكمال على التعليق** » ، وهو تكملة لتعليق التونسي على **المدوّنة** . وطاف في أنحاء المغرب والأندلس ، متعاطياً التجارة والتدريس .

وبعد خراب القيروان تهجّم على بني عُبَيْد في كتابه : « **تآسي أهل الإيمان بما طرأ على مدينة القيروان** » وهو الكتاب الذي كثيراً ما استشهد به الإخباريّون ، وتوفي في أغمات جنوبي مرّاكش .

وانتقل **عبد العزيز التونسي الزاهد**[234] ، أصيل مدينة تونس وتلميذ أبي عمران الفاسي إلى سكنى أغمات وبها توفي سنة 486 هـ / 1093 م .

وهاجر **ابن الصّائغ** (ت . 486 هـ / 1093 م)[235] إلى سوسة بعد غزوة بني هلال وأدرك جماعة من كبار الفقهاء كأبي بكر بن عبد الرحمان وأبي عمران الفاسي ، وأخذ عن أبي حفص عمر بن العطّار وابن محرز والتونسي والسيوري وابن بنت خلدون . « وكان فقيهاً نبيلاً فهيماً فاضلاً أصوليّاً زاهداً » . وكان معاصروه من الفقهاء يفضلونه على اللخمي . ويبدو أنه لم يؤلف سوى تعليق على **المدوّنة** أكمل به تعليق التونسي . ولما أراد تميم بن المعزّ تولية ابن شغلان القضاء ، اشترط هذا الأخير أن لا يتقلّد ذلك المنصب إلا باستجلاب عبد الحميد بن الصائغ إلى المهدية ليقوم بفتواها، فاستجاب الأمير لطلبه. وقد اعتُبِرَت فتاوى ابن الصائغ حجّة في المهدية. ولكنّ ابنه تعرّض للاضطهاد أثناء قمع الثورة التي اندلعت في سوسة سنة 455 هـ / 1063 م ، فرجع ابن

---

232) نفس المرجع ، 1956 م ، 500 ومعالم الإيمان ، 247/3 .

233) إدريس ، حوليات . . . 1955 م ، 35-36 .

234) نفس المرجع ، 51 .

235) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 502-505 .

الصائغ إلى سوسة واعتزل الحياة العامّة نحو خمس وعشرين سنة . ثم استجاب لنداء تميم لما دخل الفرنج مدينة المهدية واستباحوا أهلها سنة 480 هـ / 1063 م ، فرجع إليها واستأنف دروسه وفتاواه إلى أن أدركته المنية .

وأخذ **الكلاعي الصفاقسي** (ت . 505 هـ / 1111 م)[236] ، أصيل مدينة صفاقس بالخصوص على اللخمي . ورحل إلى المغرب والأندلس واستقرّ في سبتة وتوفّي في أغمات . وقد كان فقيهاً وأصوليّاً ، ومتضلّعاً في الهندسة والحساب والفرائض .

وكان **المازري الذكيّ** (ت . 512 هـ / 1118 م)[237] ، أصيل مدينة مازرة بصقلية ، من سكّان قلعة بني حماد ، وقد تعلّم بها في أوّل الأمر ثم أخذ عن عدد من فقهاء القيروان أمثال الخرقي والقفصي والسيوري الذي تخاصم معه فيما بعد . وقد ألّف كتاباً في القراءات وشرحاً في الفقه المالكي ، ولا ندري تاريخ استقراره نهائياً في المشرق . وكان من خصوم الغزالي .

وأقام **القفصي**[238] مدّة من الزمن في قفصة مسقط رأسه ثم انتقل إلى سكنى طرابلس . وكان من أصحاب ابن بنت خلدون والتونسي والسيوري ، وألف كتاباً حول رؤية هلال شوّال .

وقرأ **ابن النحوي** (ت . 434 أو 519 هـ / 1042-1111 م) في مدينة توزر مسقط رأسه[239] على أبي زكرياء الشقراطسي ، كما أخذ عن السيوري والديباجي والمازري . وأقام في آخر حياته بقلعة بني حماد إلى أن أدركته المنيّة . وقد كان متضلّعاً في الأصول ومدرساً لعلم الكلام ، وكان يبدي آراء شخصيّة حول المسائل المعروضة عليه ، وتولّى الدفاع عن الغزالي عند تعرّضه للاضطهاد ، وهو صاحب القصيدة الشهيرة المنفرجة ، [وطالعها (الخبب) :

اشتدّي أزمة تنفرجي قد آذن ليلك بالبلجِ]

ولا ينبغي أن يشتبه علينا **الإمام المازري** (ت . 536 هـ / 1141 م)[240] إمام المذهب

---

236) نفس المرجع ، 502 . 237) نفس المرجع ، 505-507 .

238) إدريس ، تحية جورج مارسي ، 100/2-101 ، الكراسات التونسية 1956 م ، 506 .

239) إدريس ، الكراسات التونسية ، 1956 م ، 502 ، وما زال الناس يتبركون بضريحه الواقع في سفح أطلال القلعة ، وقد أطلق اسمه على قرية صغيرة ، هي قرية سيدي فضْل (حسب رواية L. Golvin) .

240) الديباج ، 279-281 ، ابن خلكان ، 486/1 ، الصفدي ، 151/4 رقم 1680 ، ابن قنفذ ، 42 ، شذرات ، 114/4 ، مخلوف ، 127/1-128 الزركشي ، ترجمة فغنان ، 2 ، الهامش 3 ، البيان ، ترجمة فغنان ، 469/1 ، الهامش 4 ، أماري ، المكتبة العربية الصقلية ، 125 ، 133 ، 522 ، 629 ، 65/2-68 ـ ستوريا ، 544/2-549 ، ماثوية أماري ، 384/1-389 ، 390-402 ، 92/2-94 ، 217-223 ، 224-244-492-493 . حسن حسني عبد الوهّاب ، الإمام المازري ، إدريس ، الكراسات التونسية 1953 م ، عدد 2 ، 137-138 .

المالكي بالمهديّة بمعاصرَيْه اللذين يحملان نفس لقبه[241] . فهو أصيل مدينة مازرة بصقلية ، ولا ندري هل وُلد بإفريقية أم لا ، ولكنّه تكوّن بها ، والدّليل على ذلك أننا لا نعرف أنّه تتلمذ إلى شيخ صقلي . فقد أخذ عن اللخمي وبالخصوص عن العالم البارع ابن الصائغ الذي كان بمثابة والده الروحي الحقيقي . وكان متضلّعاً في أصول الفقه والعقائد ، وكان يتبنّى أحياناً الآراء الشافعيّة . وكان مثل ابن الصائغ يقول بمبدإ اختيار أخفّ الضررَيْن[242] . وكان قاضي المهدية يستشيره وهو لم يبلغ العشرين من عمره[234] ، وقد اعتُبِر أكبر فقيه في عصره . وكان يركّز فتاواه على المشهور من المذهب المالكي ، إلاّ أنه كان يستخلص المبادىء العامة ويرجع إلى المصادر التي كان يأوّلها بحريّة . وبعبارة أخرى كان يطبّق الاجتهاد لا التقليد . وتُعتبَر بعض فتاواه من الآثار الرائعة في بابها[244] . واهتمّ أيضاً بالأدب ـ إذ كان من فحول الشعراء ـ وبكثير من العلوم الصحيحة مثل الرياضيات والطبّ . وكان وَرِعاً ، ليِّن الجانب .

ومن بين مناهضي المازري وأتباعهِ نشير بالخصوص إلى العلماء الآتي ذكرهم ، وهم :

1 ـ أبو علي الحسن بن بكر البربري المهدوي[245] تلميذ السيوري وابن الصائغ . وكثيراً ما كان يذكره المازري ويسمّيه « صاحبنا » .

2 ـ أبو علي بن ثابت الخولاني المعروف بالحدّاد المهدوي (ت . حوالي 490 هـ / 1096 م) .

3 ـ أبو يحيى زكرياء بن الحدّاد (ت . بعد 566 هـ / 1170 م) قاضي المهدية ، وعلى الأرجح ابن العالم السالف الذكر .

4 ـ عمر الميّانشي (ت . 581 هـ / 1185 م) .

5 ـ ابن مشكان أصيل قابس التي يبدو أنه كان قاضيها . والغالب على الظنّ أنّه كان آخر تلاميذ المازري وناقل آثاره .

كما أخذ عن المازري عدد كبير من الأندلسيين . وكانت مجموعة من فتاواه[246] متبوعة

241) المازري الذكّي (ت . 512 هـ/118م) والمازري الإسكندراني (ت . 530 هـ/1135 م) (بالإضافة إلى الإمام المازري) ، والثلاثة كنيتهم أبو عبد الله محمد .

242) المعيار ، 285/8 .

243) نفس المرجع ، 205/8 : فتوى تتعلق باستيلاء الروم على زويلة والمهدية سنة 480 هـ/1087 م . فالمازري الذي توفي سنة 536 هـ/1141 م وهو يبلغ من العمر 83 سنة قد وُلد حينئذٍ حوالي سنة 453 هـ/1061 م .

244) انظر مثلاً البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 170/1 ظ ، 171 و ، ح . ح . عبد الوهّاب الإمام المازري ، 75-89 .

245) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 180/1 ظ .

246) المعيار ، 212/6 وما بعدها .

بجواب المدعوّ أبو الفرج الذي يبدو أنه أبو الفرج التونسي(247) من طبقة المازري أو من الطبقة الموالية .

ومن بين آثار المازري ، نشير بالخصوص إلى الكتب التالية التي توجد منها نسخ خطيّة ، وهي :

- **كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم** وهو أوّل شرح على **صحيح مسلم** يتضمن تحاليل متنوّعة ، ذات فوائد جمّة(247م) .
- **كتاب إيضاح المحصول من برهان الأصول** ، وهو أقدم شرح على كتاب [إمام الحرمَيْن] أبي المعالي عبد الملك الجويني (ت . 478 هـ / 1085 م) ، في أصول الدين .
- **شرح على تلقين عبد الوهّاب** ، والتلقين هو تأليف القاضي عبد الوهاب (ت . 422 هـ / 1030 م) ، ويخرج الشرح في أربعة أجزاء .

وتُنسَب أحياناً إلى المازري بعض الآثار الأخرى التي يبدو أنّها من تأليف أحد سميّيْه .

---

247) نفس المرجع ، 221/3 .

248) [نُشِـر المُعْلِم في تونس سنة 1991 م في 3 أجزاء بتحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، بيت الحكمة ، قرطاج] .

الفصل الثاني
المذهب الشّيعي

إنّ العرض الموالي ليس دراسة مقارنة ، تُعتبَر في غير محلّها ، للمذهبَيْن المالكي والشيعي ، إنّما هو محاولة مقصورة على إفريقية في العصر الصنهاجي[1] لدراسة الاختلافات العقائدية بينهما وخصوماتهما التي أثبتتها على وجه الخصوص كتب التراجم ، وكتاب دعائم الإسلام[2] للقاضي أبي حنيفة النعمان ورسالة ابن أبي زيد[3] ، وهما كتابان من كتب الدعاية ظهرا بالضبط في وقت واحد ، وبعض فتاوى فقهاء العصر الصنهاجي .

فكلّما تحدّث النّعمان ، ذلك العالم الحنفي الإفريقي الأصل والمعتنق للمذهب الشيعي فيما بعد ، عن المالكيّة ، إلاّ وسمّاهم « العامّة »[4] . ولا غرابة في استعمال هذه العبارة المشينة ، لأنّ المذهب الحنفي كان مذهب « الخاصّة » من الأغالبة الذين انضمّوا إلى بني عُبَيْد[5] .

في حين كان أتباع الإمام سحنون ، أعداء الشيعة الألدّاء ، ينتمون إلى الفئات الشعبية والعامّة ، وكان ميل المذهب الشيعي إلى الميز الطّبقي واضحاً جدّاً . وحينما ينقض القاضي النعمان آراء أهل السنّة ، مشدّداً على تناقضاتهم العقائدية ومنتقداً منهجيّتهم[6] ، يراعى الأحناف الذين

---

1) بالنسبة إلى فترة ما قبل العصر الصنهاجي ، انظر : أبو العرب ، رياض النفوس ، معالم الإيمان ، الهادي إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 144-152 ، 1936 م ، 72-88 ، البيان ، 233/1 ، ابن حماد ، 15-16 ، الاستبصار ، الترجمة ، 173 ، برنشفيك ، تحية جورج مارسي ، 13/2-20 .

2) تم تأليف هذين الكتابين على الأرجح في عهد المنصور (334-344 هـ/945-955 م) . وقد اطلع عليهما المقدسي ، 44-45 .

3) من الجدير بالتذكير أن النصّ الأول من الرسالة قد حُرِّر حسب الاحتمال في سنة 327 هـ/938 م بطلب من السبائي ، وحُرِّر الكتاب في صيغته الحالية المهداة إلى محرز بن خلف ، قبل سنة 375 هـ/985-986 م . انظر إدريس ، الكراسات التونسية ، 1954 م ، 63-68 . وحول ترجمة النعمان وآثاره ، انظر بالخصوص ، المعزّ ، 258-268 ، ومجلة هسبيريس ، 1953 م ، 324 ودائرة المعارف الإسلامية (ط . 2) ، 106/1-107 (S.M. Stern) .

4) العامّة ، مقابل الخاصّة ، دعائم ، 33/1 ، 49 ، 315 الخ . .

5) أبو العرب ، 223-226 .

6) أي الرأي والقياس والتقليد ، دعائم ، 106/1-120 .

يعتبرهم القابلين وحدهم للانتشال من بين أهل السنّة[7] .

ويتضمّن الكتابان المشار إليهما أعلاه (**الرسالة** وكتاب **دعائم الإسلام**) في المقام الأوّل أركان العقيدة[7م] ، مع الملاحظ أن العقيدة ، حسب تعريف ابن أبي زيد ، تتّسم بأكثر منهجية ودقّة . فهي تدعو إلى الإيمان « بأن أفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديّون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين وأن لا يُذكَر أحد من صحابة الرسول إلاّ بأحسن ذكر والإمساك عمّا شجر بينهم ، وأنهم أحقّ الناس أن يُلتَمَس لهم أحسن المخارج ويُظنّ بهم أحسن المذاهب ، والطاعة لأئمّة المسلمين من ولاة أمورهم واتّباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم والاستغفار لهم وترك المراء والجدال في الدين وترك كلّ ما أحدثه المحدثون »[8] . وبطبيعة الحال فإن النعمان لا يمكن أن يوافق على مثل هذا التعريف السنّي الذي يُعتبَر موقفاً مناهضاً للشيعة بشكل يكاد يكون مفضوحاً . فقد أدمج تعريف الإيمان في الباب الأوّل المطوّل الذي خصّصه « للولاية » ، باعتبارها الركن الأساسي للعقيدة والشرط الذي لا بدّ منه للإيمان[9] . ولا حاجة لنا إلى التذكير بأنّ الإسماعيليين لا يعتمدون فحسب على ما يعتبرونه السنّة الوحيدة الصحيحة ، بل يتفاخرون بأنهم هم أهل السنّة الحقيقيّون دون سواهم ، وأنهم قد ركّزوا نظريّتهم حول الإمامة على السنّة[10] . ولعلّ من قبيل البراعة أو الانتهازية ، أن لا يتعرّض القاضي النّعمان لعقيدة عصمة الإمام[11] ، بل بالعكس من ذلك ، فإنّه أظهر لنا القائم والمنصور ، وقد عبّرا عن أسفهما الشديد لمغالاة أتباعهما الذين يضعون « عُبّاد الله » في مقام الأنبياء ، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيعمدون إلى تأليه أولئك الذين لم ينعم الله عليهم إلاّ بتلك المنّة العظمى والرهيبة ، ألا وهي الولاية . وإنّ هذه الصفحة المؤثّرة ذات الصّبغة الإنسانية العميقة ، تتميّز بنبرة صادقة حقيقيّة[12] .

---

7) **دعائم** ، 116/1-117 ، ويُطلَق على الأحناف في المصادر المالكية (أبو العرب، المدارك ، **رياض النفوس** ، **معالم الإيمان**) اسم « العراقيين » ويسمّى مذهبهم « بمذهب العراق » ، انظر المدارك ، 2-88/3 ومائوية أماري، 261/1 .

7 م) **دعائم** ، 3/1-17 : ذكر الإيمان (3-15) ذكر الفرق ما بين الإسلام والإيمان (15-17) ، **الرسالة**: باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانة (18-27) .

8) **الرسالة** ، 26-27 .

9) **دعائم** ، 3/1-120 : كتاب الولاية ، انظر أيضاً ، النعمان ، **كتاب الهمّة** ، في مواضع مختلفة وسيرة **المؤيّد** ، 66 .

10) غولدزيهر ، **Dogme** ، 193-194 .

11) نفس المرجع ، 175-178 ، 181-186 .

12) **دعائم** ، 69/1-70 ، والملاحظ أن المؤلف قد أوصى بالرجوع إلى أحد الكتب السابقة المخصصة للإمامة ، 311/1 .

ويضيف الشيعة في الأذان والإقامة إلى « حيّ على الفلاح » عبارة « حيّ على خير العمل » تلك « الحيعلة »[13] الشهيرة التي يكرهها المالكية كرهاً شديداً ، إلى درجة أنهم يفضّلون الموت على النّطق بها[14] . فهي في نظرهم رمز لمروق الشيعة الذين يولون إليها من جانبهم أهمية بالغة . إذ يؤكّدون أنها من السّنن الأصليّة التي ألغاها عمر « خليفة الغزوات » ، لكي لا يعتبر المسلمون الصلاة أفضل من الجهاد . ويعيبون على أهل السنّة بكل ألم إهمال هذه النقطة الأساسية من السنّة النبويّة واتّباع بدعة من بدع عمر[15] . ومع ذلك فإنهم يقرّون بتفوّق الجهاد بقيادة الأيمّة على سائر الواجبات الدينيّة[16] .

وبالنسبة إلى الإقامة ، فهي عند المالكية وتر ، أي لا تُقال إلاّ مرّة واحدة [ما عدا التكبير الأوّل والثاني] ، وهم يتبّعون في ذلك العادة التي سنّها بنو أميّة[17] . وبالعكس من ذلك فإن الشيعة ، بالاتفاق مع الأحناف ، يرون أن الإقامة يجب أن تُكَرَّر[18] .

ويزيد المالكيّة في نداء الصبح « الصلاة خير من النوم » مرّتَيْن ، ولم يقبل الشيعة بإضافة هذه الجملة[19] .

وخصّص ابن أبي زيد باباً من الرسالة « للمسح على الخفّيْن » مؤكداً أنه يجوز للمصلّي أن يتوضأ دون غسل رجليه ، وذلك بأن يمسح على الخفّيْن بيدَيْه ، « ما لم ينـزعهما »[20] . إلاّ أن الشيعة رفضوا بشدّة هذه الرخصة التي تبدو من أوّل وهلة غير ذات قيمة ، ولكنّ مالكاً وأبا حنيفة قد تمسّكا بها . فبالنسبة إلى الشيعة ، تتمثل الأعمال الثلاثة التي لا يمكن قبولها فيما يلي : شرب المُسْكِرات والمسح على الخفّين وعدم الجهر بالبسملة (في الصلاة)[21] . فهم يعتبرون أن الجهر

---

13) اختصار جملة « حيّ على خير العمل » ، غولدزيهر ، المرجع المذكور 191 ، 291 .

14) إدريس ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 114-115 ، معالم الإيمان ، 95/3 ، البيان ، 223/1 ، مناقب ، 227-260 .

15) دعائم ، 172/1-173 ، المقدسي ، 44-45 .

16) انظر بالخصوص ، القاضي النعمان ، كتاب الهمّة ، 59-66 .

17) المقدسي ، 44-45 ، الرسالة ، 56-57 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 485/2-486 (Th. W. Juynboll) .

18) غولدزيهر ، المرجع السابق ، 191 ، المقدسي ، 44-45 ، دعائم ، 172/1-176 ، مناقب ، 209 .

19) الرسالة ، 56-57 ، مناقب ، 312 .

20) الرسالة ، 48-51 ـ غولدزيهر ، المرجع المذكور ، 190-291 دائرة المعارف الإسلامية ، 1203/4 (شاخت) ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 369-370 .

21) دعائم ، 131/1-134 .

بالبسملة من بين الشعائر الدينية الأساسية . وحسب رأيهم يجب قراءتها جهراً في كل ركعة قبل الفاتحة والسورة التي بعدها[23] ، كما أن الشافعية يقرؤونها جهراً هم أيضاً ، ولكن المالكية لا يفعلون ذلك[24] .

ويوصي ابن أبي زيد بأن يقول المصلّي بعد قراءة الفاتحة : آمين ! [سواء كان وحده أو خلف الإمام][25] . ولكن القاضي النعمان يستنكر هذه العادة « العاميّة »[26] .

وفي حين يرى ابن أبي زيد في الرسالة أنّ الإمام أو المصلّي الذي يصلّي وحده يقول : « السلام عليكم ، تسليمة واحدة » ، ولا يسلّم تسليمتَيْن إلّا المأموم[27] ، يرى الشيعة [وكذلك الأحناف والشافعية والحنابلة] أنّ من واجب المصلّي في جميع الحالات أن يسلّم تسليمتين ، مرّة عن اليمين ومرّة عن اليسار[28] .

وأكّدت مناقب الجبنياني أنه كان يؤخر صلاة الظهر وصلاة العصر إلى أقصى حدّ لمعارضة عمل الشيعة ، وقد اقتدى به القابسي[29] . ذلك أنّ القاضي النعمان لا يوصي فحسب بالتعجيل بصلاة الظهر وأداء صلاة النافلة المعروفة باسم « الصبحة » ثم صلاة العصر ، بل يشهّر بالعامّة الجَهَلة الذين يؤخّرون صلاة العصر لمعارضة الشيعة[30] .

ويتّفق المالكية مع الشافعية على التوصية بدعاء القنوت في صلاة الصبح[31] ، إلّا أنّ القنوت

---

22) نفس المصدر ،133/1، غولدزيهر ، المرجع المذكور ، 190 ، المقدسي ، 44-45 .

23) دعائم ، 193/1-194 ، البيان ، 223/1 ، المعزّ ، 243-245 .

24) دائرة المعارف الإسلامية ، 689/1 وما بعدها (Cara De Kaux) .

25) الرسالة ، 58-59 .

26) دعائم ، 194/1 .

27) الرسالة ، 64-65 .

28) مناقب ، 227 ، دعائم ، 199/1-200 . فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 143/1 و : السؤال : رجل يسكن قرب مسجد وهو أعلم أهل الحارة ، فقالوا له : « تَؤُمّ حتى تلتزم قراءة بسم الله الرحمان الرحيم والتسليم تسليمتين » ، فما هو الحكم إن قرّر عدم الخروج من بيته ؟ الجواب : « ما أُمِر به قد اختلف الناس فيه ، وعِمارة المسجد أولى به » . انظر أيضاً ، البيان ، 223/1 .

29) مناقب ، 254-254 .

30) دعائم ، 166/1-167 ، البيان ، 223/1 : أمر المعز لدين الله الناس « بأن لا يؤخّروا العصر ، ولا يكّروا بالعشاء الأخيرة » .

31) غولدزيهر ، المرجع المذكور ، 190 ، 290 ، المقدسي ، 44-45 ، الرسالة ، 50-51 ، 60-61 ، 72-73 ، دعائم ، 244/1-248 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1183/2 وما بعدها (Wensinck) .

المالكي أخفّ من الشافعي[32] ، كما أن الشافعية يشدّدون على أهميّة هذا الدعاء في صلاة الفجر ، في حين لم تتعرّض الرسالة لذلك[33] .

ويتفق المالكية مع الشافعية أيضاً على تحديد صلاة الوِتر بركعة واحدة ، ولكنّ النعمان يدمج فيها القنوت خلافاً لابن أبي زيد[34] .

وكان أهل السنّة يرفضون حضور صلاة الجمعة لعدم سماع الخطيب وهو يدعو للخليفة الفاطمي ، وقد اعتبر علماؤهم الخطباء الذين يدعون للفاطميّين خارجين عن السنّة[35] . أضف إلى ذلك أنّ الفقه الشيعي يوصي بدعاء القنوت في صلاة الجمعة خلافاً للفقه المالكي[36] .

« والتكبير على الجنازة أربع تكبيرات » حسب المذهب المالكي ، وخمس تكبيرات ، حسب المذهب الشيعي[37] .

ويستنكر الشيعة صلاة الضحى التي تقام جماعةً في المسجد باعتبارها بدعة[38] ، في حين كان المالكية حريصين على إقامتها[39] .

كما يأنف الشيعة من « قيام رمضان » بدعوى أنّه بدعة سنّها الخليفة عمر ، وهي تتمثّل في أداء صلاة التراويح جماعة في ليالي رمضان[40] .

وقد منعوا منعاً باتّاً تلك الصلاة التي يحرص المالكية على أدائها[41] . ومع ذلك فإن النّعمان

---

32) الرسالة ، 60-61 ، دعائم ، 1/247-248 ، يبدو أن الفاطميّين في إفريقية قد منعوا المالكية في وقت ما من دعاء القنوت في صلاة الصبح ، وذلك بلا شكّ لأنّ هؤلاء كانوا يتهزون تلك الفرصة للعنهم ، رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 63 ظ ، والمدارك ، 2-16/3 و .

33) الرسالة ، 72-73 ، 288-289 ، دعائم ، 1/247-248 .

34) المقدسي ، 44-45 ، دعائم ، 245/1 ، الرسالة ، 70-73 .

35) إدريس ، تحية ماسينيون ، 2/330-331 ، 337 .

36) دعائم ، 221/1 ، 248 ، الرسالة ، 94-97 ، انظر أيضاً ، الاتعاظ ، 170 ، و168 : ألغى جوهر في مصر السّواد ومنع قراءة سبّح اسم ربّك في صلاة الجمعة وألغى التكبير بعد هذه الصلاة ، وانظر : المعزّ ، 241-242 ، 245 .

37) دعائم ، 282/1 ، غولدزيهر ، المرجع المذكور ، 190 ، مناقب ، 323 : إذا كان الميت من الأعيان أو من عائلة الإمام ، يزيد الشيعة في عدد التكبيرات ، من ذلك أن المعزّ صلى في صفر 363 هـ على أحد بني عمومته بسبع تكبيرات ، الاتعاظ ، 198-199 ، المعزّ ، 250 ، نجوم ، 120/5 . في سنة 349 هـ أمر المعزّ المصلّين بأن يكبّروا على الجنائز خمساً ، ومنع النساء من النحيب وراء الجنائز ، ومنع العميان من قراءة القرآن على القبور إلا عند الدفن ، البيان ، 223/1 .

38) دعائم ، 1/255-256 .

39) الرسالة ، 288-289 .

40) دعائم ، 1/255-256 .

41) الرسالة ، 288-291 .

يوصي بأداء صلاة التراويح في ليالي 12 و21 و23 رمضان ، مشيراً إلى أن المسألة فيها اختلاف[42] ، فهل هذا تنازل من جانبه ؟ .

ويرى النّعمان أنّ صلاة الخسوف[43] تشتمل على مجموعتَيْن متتاليتَيْن من خمس ركعات وسجدتَيْن ، أي عشر ركعات وأربع سجدات في الجملة[44] ، في حين يؤكد ابن أبي زيد[45] أن تلك الصلاة لا تشتمل إلا على خمس ركعات وأربع سجدات فحسب . ويبدو أنّ هذه الاختلافات التي أشار إليها المقدسي[46] لم تكن لها نتائج تُذكَر ، وذلك لا محالة بالنظر إلى قلّة المناسبات التي تقام فيها صلاة الخسوف .

كما أنّ الشيعة وأهل السنّة لا يقيمون صلاة الاستسقاء بنفس الطريقة ، وما علينا لإثبات ذلك إلاّ المقارنة بين الطريقة التي اتّبعها إسماعيل المنصور في سنة 340 هـ / 951-952 م وبين البيانات الواردة في هذا الشأن في رسالة ابن أبي زيد[47] .

---

42) دعائم ، 139/1 ، من المفروض أن تكون إحدى تلك الليالي هي « ليلة القدر » الشهيرة التي خصّص لها النعمان باباً في كتابه ، 333/1-336 ، في حين أهملها ابن أبي زيد ، خلافاً لما كان منتظراً .

43) دعائم ، 240/1-241 .

44) نفس المصدر . انظر أيضاً المقدسي ، 44-45 .

45) الرسالة ، 100-103 .

46) المقدسي ، 44-45 . ولمزيد من التفاصيل حول صلاة الخسوف انظر المصدرين السابقين : رسالة ابن أبي زيد ودعائم الإسلام .

47) ـ ابن حمّاد ، 38 : ركع إسماعيل ركعة وكبّر تكبيرة واحدة ثم ركع ركعة ثانية وكبّر خمس تكبيرات . وبعد ذلك صعد على المنبر وقلب رداءه على منكبَيْه واستقبل القبلة وكبّر مائة تكبيرة ثم التفت إلى اليمين وسبّح مائة تسبيحة والتفت إلى اليسار وهلّل مائة تهليلة . ثم أولى ظهره للقبلة وخطب خطبتين وجلس بينهما ودعا الله ثم انصرف . وأضاف المؤلف أن هذه الطريقة هي التي اتبعها أهل البيت .

ـ ابن أبي زيد ، الرسالة ، 102-104 : « وصلاة الاستسقاء سنّة تُقام ، يخرج لها الإمام كما يخرج للعيدين ضحوةً فيصلّي بالناس ركعتين يجهر فيها بالقراءة ، يقرأ بسبّح اسم ربّك الأعلى والشمس وضحاها ، وفي كلّ ركعة سجدتان وركعة واحدة ، ويتشهّد ويسلّم ثم يستقبل الناس بوجهه ، فيجلس جلسة ، فإذا اطمأن الناس قام متوكّئاً على قوس أو عصا ، فخطب ثم جلس ثم قام فخطب . فإذا فرغ استقبل القبلة ، فحوّل رداءه يجعل ما على منكبه الأيمن على منكبه الأيسر ، وما على الأيسر على الأيمن ولا يقلب ذلك . وليفعل الناس مثله وهو قائم وهم قعود . ثم يدعو كذلك ثم ينصرف وينصرفون . ولا يكبّر فيها ولا في الخسوف غير تكبيرة الإحرام والخفض والرفع » . ويبدو أن ملاحظة ابن أبي زيد الأخيرة تشير إلى تكبيرات صلاة الاستسقاء العديدة عند الشيعة .

48) الرسالة ، 88-91 .

كما حدّد هذا الفقيه[48] سجود القرآن بإحدى عشرة سجدة ، وحدّده القاضي النعمان[49] بخمس عشرة سجدة .

ولئن كانت الاختلافات بين الفقه المالكي والفقه الشيعي طفيفة حول تحديد قيمة الزكاة[50] ، فهي ليست كذلك بالنسبة إلى طريقة دفعها واستعمالها . ذلك أنّ الشيعة يرون أن الزكاة التي كانت تُدفَع في القديم للرسول (ﷺ) ، يجب أن تُدفَع لخلفائه الشرعيّين ، وهم الأيمّة الفاطميّون ، المسؤولون وحدهم على توزيعها على مستحقّيها . ولا ينبغي أن يشغل المسلمون بالهم بالطريقة التي يتّبعها الإمام لاستعمالها ، ومن لم يسلّمها إليه بلا تردّد فهو مُشْرِك . على أنّه لا يجوز للإمام أن يقتطع من الزكاة أدنى جزء لاستعماله في أغراضه الشخصية ، لأنه لا يحقّ له التصرّف إلاّ في خُمُسها[51] .

وقد أكّد القاضي النعمان في كتاب الهمّة أنّ الإمام له الحقّ في خُمُس « الغنيمة » ، واستعمل هذه الكلمة بمعنى « الكسب » . ولا يتمتع أهل البيت ، وبالتالي الأيمّة ، بأي امتياز بالنسبة إلى الزكاة (أو الصدقة) . فإذا اقتنى المسلم مِلْكاً ، عليه أن يدفع الخُمُس للإمام ، من غير مساس بالزكاة التي يجب أداؤها على البقية ، أي مداخيل الأربعة أخماس . ولا يُدفَع الخُمُس الذي هو بمثابة الضريبة على المكاسب إلاّ مرّة واحدة ولا يُعتبَر ضريبة سنويّة مثل الزكاة . ولا ينبغي أن يكون وجوب أداء الخُمُس محلّ ضغط من قِبَل الإمام ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الزكاة التي هي فريضة . ويتعلّق الأمر بأمانة في عنق المسلم المُطالَب معنويّاً بتسليمها إلى الإمام ، فإن لم يفعل ذلك ، يكون قد خان الله والرسول وخلفائه[52] .

وأكد النعمان بكل مهارة ، معتمداً على كثير من الاستشهادات السنيّة ، أنّ أهل السنّة أنفسهم يعترفون بوجوب دفع الزكاة للأمير الجالس على العرش ، مهما كان ، ومن باب أولى وأحرى الأيمّة الشيعة ، على الأقلّ بوصفهم أمراء ، في واقع الأمر . ثم احتجّ بشدّة على المالكية الذين لا يدفعون الزكاة للإمام ، ويوزّعونها رأساً على الفقراء مبتدئين بأقاربهم ، وذلك خلافاً لما

---

49) دعائم ، 257-258 .

50) انظر مثلاً ، دعائم ، 301/1 ، 297/1 والرسالة ، 138-139 ، و128-129 . والجدير بالملاحظة أن باب الزكاة قد ورد في دعائم الإسلام بعد الصلاة وقبل الصوم وورد في الرّسالة بعد الصوم .

51) دعائم ، 291/1-300 ، 306-308 .

52) كتاب الهمّة ، 66-73 ، المعزّ ، 238 .

جاءت به السنّة[53] . بل يذهب معظمهم إلى أبعد من ذلك فيمتنعون عن أداء الزكاة ، مخالفين بذلك تعليمات أيمّتهم ذاتهم ، كما رفض النعمان بكلّ ازدراء ما ذهب إليه أبو عُبَيْدَة من أنّ الزكاة على الأنعام والحبوب والثمار هي وحدها التي يجب أن لا تُدفَع إلّا للسلطان . أما الزكاة على الذهب والفضة فيجوز دفعها على حدّ السواء للأمراء أو للفقراء . ولاحظ أن العامّة قد أجمعوا على رفض دفع الزّكاة للأيمّة المُؤَهَّلين دون سواهم لجمعها ، مخالفين بذلك كتاب الله وسنّة رسوله .

والجدير بالملاحظة أن صاحب الرسالة قد تجنّب بمهارة[54] التعرّض لهذه المسألة وأشار إشارة عرضية بلا ملاطفة إلى « المُصدِّق » (أي جامع الضرائب)[55] .

وبالنسبة إلى صلاة العيدَيْن ، يتمثل أهم الاختلاف بين الفقه المالكي والفقه الشيعي فيما يلي : يكبّر الشيعة بعد قراءة الفاتحة والسورة[56] ويكبّر المالكية قبلها[57] .

ويحدّد المالكية بداية الأشهر (القمرية) برؤية الهلال ، وهو أمر من الأهمية بمكان بالنسبة إلى تحديد أوّل وآخر يوم من شهر رمضان ، وقد درس فقهاء القيروان قضية الرؤية بكلّ عناية[58] .

أمّا الشيعة فإنهم يرون أنّ الإمام هو الذي يحدّد بداية ونهاية الشهر ، وما على المسلمين إلّا الاقتداء به[59] . وقد تخلّى الفاطميّون في إفريقية عن رؤية الهلال واعتمدوا طريقة الحساب[60] .

---

53) أشار البرزلي إلى هذه المسألة في كتابه « جامع مسائل الأحكام » ، مخطوط الجزائر ، 236/1 و ، فتوى السيوري (المتوفّى سنة 460 أو 462 هـ/1067-1069 م) الذي أجاب بعدم جواز إعطاء الأولوية للأقارب بالنسبة إلى الزكاة ، اللهم إلّا إذا كانوا فقراء فقـراً مدقعاً أو مدينين ، أو إذا تحصلوا على نفس المقدار الذي تحصّل عليه المستحقّون الآخرون ، وبشرط أن لا يكون ذلك حيلة تسمح للمزكّي بعدم أداء واجباته .

54) دعائم ، 311/1-314 .

55) الرسالة ، 138-139 : « ولا خِيار أموال الناس ولا يُؤخَذ في ذلك عرض ولا ثمن ، فإن أجبره المُصَدِّق على أخذ الثمن في الأنعام وغيره أجزأه إن شاء الله » .

56) دعائم ، 224/1 ، الخطط ، 222/2 .

57) الرسالة ، 98-99 .

58) نفس المصدر ، 116-117 ، إدريس ، تحية جورج مارسي ، 100/2-104 .

59) دعائم ، 322/1-323 .

60) ولا شكّ أن المقدسي قد أشار إلى هذه المسألة (44-45) لما قال : « والثالث مال تفرّد به ممّا يخالف الأئمة وإن لم يعرف له قدمة مثل الحيعلة في الأذان وجعل أوّل الشهر يوماً [لا] يُرى فيه الهلال . . . » .

وممّا لا شكّ فيه أن المقدسي قد اعتمد على كتاب الدعائم الذي قال إنه اطلع عليه (44-45 ، السطر الأخير) . وحول الحساب في العهد الفاطمي ، انظر ترجمة محمد بن سليمان القطان ، مدارك القاضي عياض ، 2-94/3 ظ - 95 و : « كان الشيعية يصومون يوماً قبل رمضان ويفطرون يوماً قبل الناس » . إدريس ، مجلّة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 147 ، =

ومن الجدير بالتذكير في هذا الصدد أنّ أهل القيروان قد رفضوا القرار الذي اتخذه القاضي أبو بكر بن أبي زيد ، بالاتفاق مع السلطة الشيعية ، أي بالاعتماد على الحساب ، حول تعيين يوم العيد ، قبل يوم من الموعد الذي حُدِّد بالاعتماد على الشهادات السنّية التي يعتبرونها هي وحدها الصحيحة .

وهناك اختلافات أخرى بين الفقه المالكي والفقه الشيعي حول مسائل شتّى ، نخصّ بالذكر منها هاتين المسألتين ، رغم أن تاريخهما يرجع إلى ما قبل العصر الصنهاجي . فقد أقرّ الشيعة « سقوط الحِنث عمّن طلّق بالبتّة وإحاطة البنات بالميراث »[61] .

ولا نعلم شيئاً عن البنية الفوقية الدينيّة الشيعية ، ولا عن مختلف أطوار تدهورها . وقد أسلفنا أنّ الخليفة الفاطمي العزيز كلّف المختال « بالدعوة » ، وأنّ هذا التعيين هو الذي ربّما تسبّب في نكبته وقتله من طرف المنصور[62] .

كما لا نعلم شيئاً عن « دار الإسماعيلية » الواقعة في صبرة المنصورية ، سوى تاريخ هدمها (407 هـ / 1016 م) . وهي مكان مُعَدّ لاجتماع الشيعة أو مركز للدراسة والرعاية مماثل لبيت الحكمة الأغلبي الشهير .

= الاستبصار ، 173 : « الصوم بالعلامة والفطر بها » ، الاتعاظ ، 165 ، ديوان المؤيّد ، 23 ، الخطط ، 388/2 ، سيرة المؤيّد ، المقدمة ، 18، 59 .

61) البيان ، 159/1 ، المدارك ، 2-88/3 ظ ، 181 ظ ، وقد جاء فيه أنّ المدعوّ أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي (ت . 319 هـ/931-932 م قد حرّر «كتاب صداق» فيه شرط ، « ولا يُكتَب في نكاح بشرط بيمين طلاق » ، وقد حكم القاضي إسحاق بن أبي المنهال على المخالِف بثلاثة آيام سجناً . انظر أيضاً ، A.A. Fyzee ، مجلة ستوديا إسلاميكا ، 1958/10 م ، 61-69 .

62) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني .

الفصل الثالث
المذهب الخارجي

يعتبر المالكيّة الإباضيين خارجين عن مذهب أهل السنة ، [ومن هنا جاءت تسميتهم بالخوارج] . وقد ذكّر ابن أبي زيد بأن مالكاً وأصحابه لا يأخذون قطعاً بشهادتهم وأنّ بعض العلماء الآخرين[1] يقبلون بأن يشهدوا فيما بينهم في الأماكن التي يمثّلون فيها الأغلبيّة ، وذلك على غرار الإمام مالك الذي أقرّ شهادة الرافضة لفائدة رافضة آخرين[2] . كما أن الخوارج في جربة مثلاً « لا يماسحون بثيابهم ثياب أحد ممّن ليس على مذهبهم ولا يؤاكلون في آنيته »[3] .

ويجوز للمالكية عند الاقتضاء تعليم القرآن لأبناء الخوارج ، لا الكتابة[4] .

أما الزواج بين الخوارج وأهل السنّة ، فقد استنكره الفقهاء السنّيون بشدّة ، على الأقلّ بعد غزوة بني هلال ، من غير أن يأمروا بفسخه . وحول هذه المسألة التي تشبه قضية الروابط الزوجية بين أهل السنّة والشيعة ، يبدو أن الفقهاء كانوا متسامحين أكثر[5] .

ولدينا جوابان[6] متشابهان ومتكاملان ، صادران عن السيّوري واللخمي حول بعض الوهبيّة القاطنين منذ عدّة سنوات مع أهل السنّة ، وقد أخذوا في نشر مذهبهم علانيةً . فبنوا

---

1) هذه إشارة إلى الأحناف الذين كانوا يقبلون شهادتهم ، البرزلي ، مخطوط حسن حسني عبد الوهّاب ، 55/2 و . (إثر فتوى صادرة عن السيوري) .

2) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 138/10 ، البرزلي ، المختصر ، 125 ظ .

3) انظر بالخصوص الإدريسي ، 128 .

4) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 150/8 والبرزلي ، مخطوط الرباط ، 203/2 ظ ، 204 و ، وفتوى أبي الطيب ابن خلدون المعروف بابن بنت خلدون ، المعيار ، 150/8 ، 154 ، 161 وما بعدها ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 204/2 و ، مخطوط الجزائر ، 113/1 ظ ، 114 و .

5) المخطوط المذكور ، 55/2 و . انظر أيضاً المعيار ، 210/3 ، 211 ، البرزلي المخطوط المذكور ، 55/2 و . انظر أيضاً المعيار ، 110/10-111 وحسب البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 138/1 ظ ، 139 و ، والمختصر ، 18 ظ ، يرى السيّوري جواز لعنة جماعة الخوارج لأنهم مسلمون مرتكبون للكبائر .

6) فتوى السيوري ، المعيار ، 346/2 ، 109/10 ، 126/11-127 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 112/1 و ، ظ ، فتوى اللخمي ، المعيار ، 346/2 ، 347 ، 109/10-111 ، 127/11 ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 112/1 ظ ، 113 و .

مسجداً يجتمعون فيه ، وكان يتوافد عليهم من كلّ حدب وصوب بعض المثقفين (العزّابة) البالغ عددهم ما بين خمسين وستين شخصاً ، حاملين معهم الأطعمة ، فيتمتعون بالضيافة خلال عدّة أيام . ويؤدّي الوهبيّة صلاة العيدين في مصلّى خاصّ بهم ، يقع قرب مصلّى أهل السنّة . فاعتزم العامل الذي استولى على تلك المنطقة هدم مسجدهم وإلغاء عقود أنكحتهم ، لأنهم في كثير من الحالات لم يتزوّجوا نساءً سنّيات إلّا لتدعيم منزلتهم الاجتماعية . وأراد العامل سجنهم وجبرهم عنوةً على اعتناق المذهب المالكي . فهل يجوز له ذلك ؟ الجواب : لا ينبغي هدم المسجد ، بل تخصيصه لأهل السنّة دون سواهم ، وينبغي منع العزّابة من الاجتماع بهم . كما يتعينّ فسخ عقود الزواج المبرمة مع « نسائنا » . وينبغي أن نعرض عليهم التوبة ، فإن رفضوا ، يُضرَبون ويُسجَنون . وممّا يزيد في خطورتهم أنهم أخبث من اليهود والنصارى ، لأنهم يستطيعون التبجّح بكونهم مسلمين صالحين والظهور بهذا المظهر الخدّاع .

وكان الإباضيّون بجبل نفوسة يُقبِلون بكثرة على أداء مناسك الحجّ ، ويذهبون إلى البقاع المقدسة صحبة نسائهم وأطفالهم[7] .

العلماء الإباضيّون[8] :

تثبت كثير من الوقائع ما كان للإباضيين من تأثير في إفريقية . فقد استقبل أبو صالح

---

7) الشماخي ، نقلاً عن أبي العرب .

8) إن الخوارج في إفريقية وطرابلس هم من الإباضية أي أتباع عبد الله بن أباض التميمي (ت . حوالي 130 هـ/748 م) . وقد أوفد أبو عبيدة التميمي الزعيم الروحي للإباضيين في البصرة ، إلى المغرب خمسة دعاة ، عُيِّنَ أحدهم إماماً من طرف الإباضيين الطرابلسيّين ثم قُتِل في سنة 144 هـ/761 م . وتحوّل ابنه السّمح إلى عبد الرحمان بن رستم مؤسس الإمامة الرستمية في تاهرت ، وذلك في سنة 166 هـ/776-777 م وأصبح وزيراً لابنه عبد الوهّاب بن عبد الرحمان بن رستم (168-208 هـ/784-824 م) الذي عينه عاملاً على الإباضيين بطرابلس ، بطلب منهم . وكان السمح عادلاً ووفيّاً لعبد الوهّاب ، ولذلك قرر الطرابلسيون بعد وفاته تعين ابنه خلف رئيساً لهم ، وقد رفض الإمام هذا التعيين وانجرّ عن ذلك انشقاق ، ففي حين ظل جبل نفوسة وفيّاً لبني رستم ، أصرّت بقية الأقاليم الطرابلسية على الاعتراف بخلف ، ومن هنا جاءت تسميتهم بالخلفيّة ، انظر ، T. Lewicki ، **دراسات إباضية** ، 112/1-115 وسمّي المعارضون للإمام الثاني الرستمي - ومنهم أبو يزيد - بالنكارة ، وقد اتهموا بالتعصب ، في حين ظل الخوارج الإفريقيون أوفياء لعبد الوهّاب وبني رستم ، وهم معتدلون أكثر ، وقد أطلق عليهم اسم الوهبيّة . وكان هؤلاء مناهضين للصفرية ومستاوة والحشويّة ، الشماخي ، 280-282 ، 345-346 ، Lewicki ، المرجع المذكور ، 1 ، 49 ، 50 ، 66 ومجلة ستوديا إسلاميكا ، 1958/9 م ، 72-82 .

الباجراني بالقيروان عدداً من أتباع هذه الفرقة (العزّابة)[9] . وأكد أبو نوح أن اثنين وثلاثين شيخاً إباضياً قد استقرّوا في إفريقية ، متعاطين التدريس والقيام بشؤون الطلبة ، وحين يتوفّى أحدهم يعوّضه زميله . وكان آخرهم أبا عبيدة وشق ، أحد تلاميذ الشيخ أبي الربيع سليمان بن زركون النفوسي صاحب أبي يزيد الشهير[10] .

وفي تلك الفترة بالذات أو بعدها بقليل ، تمكّن أبو مسور يسجى بن يوجين اليراسني[11] من حمل معظم الخلفيّين في جربة على اعتناق الوهبيّة .

وأراد بعض الشيوخ الإباضيين بإفريقية ، ومعظمهم تابعون ـ حسبما يبدو ـ للقصور ، أي قسطيلية ونفوسة ، زيارة الطرابلسيين الذين لم يتعرّضوا مثلهم لما أحدثه الفاطميّون من تخريب[12] . ولكن بما أنه يتعيّن عليهم اجتياز قابس التي تمثل حدّاً يصعب عليهم تجاوزه ، فقد قدموا إلى جربة واجتمعوا بشيوخها ، وبالخصوص بأبي مسور السالف الذكر[13] .

وكان الجدل بين الوهبيّة ومستاوة حادّاً ، لا سيما في جبل نفوسة . وعندما يُلقَى سؤال على أحد العلماء الوهبيّين بنفوسة لا يجيب عليه إلا بعد عرضه على سائر زملائه في لالوت وتيجرمين[14] .

أمّا كبار العلماء الوهبيّين في الفترة السابقة للعصر الصنهاجي فهم : أبو القاسم يزيد بن مخلد وأبو خزر يعلى بن زلتاف المقيمان بالحامّة[15] وأبو نوح سعيد بن زنغيل . وكان أوّلهم ثريّاً جدّاً ، كثيراً ما يتحوّل ، مرتدياً أفخر اللباس ، إلى القيروان ويترك قدومه إليها أثراً بالغاً . ويتوافد الناس

9) الشماخي ، 378 ، وجاء في الصفحة الموالية أنه التجأ إلى درج (قرب غدامس) حيث بقي سبع سنوات على إثر الاضطرابات التي اندلعت في وارجلان .

10) وحول هذا المعاصر لصاحب الحمار ، انظر ، الشماخي ، 279-280 . والجدير بالتذكير أن سحنون هو الذي منع الخوارج الصفرية ، والإباضية من الاجتماع بالجامع الأعظم بالقيروان ، أبو العرب ، 102 .

11) الشماخي ، 345-346 .

12) في النصّ : المسودة ، ويمكن قراءة هذه الكلمة كما يلي : المُسَوَّدَة أو المُسَوِّدة . وكانت المصادر الإباضية تنعت بهذا النعت على حدّ السواء العباسيين الذين كان شعارهم السواد والأغالبة (انظر الشماخي ، 229 : إبراهيم ابن الأغلب أمير المُسوِّدة) وكذلك الفاطميين رغم أن شعارهم كان البياض . ويمكن أن يكون الأمر متعلقاً بتورية مستمدّة من هاتين الآيتين ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (سورة آل عمران ، الآية 106) ، ﴿ وَيَوْمَ القِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ (سورة الزمر ، الآية 60) .

13) حسب تعليق لحسن حسني عبد الوهّاب على مخطوط أبي العرب .

14) الشماخي ، 534-535 .

15) نفس المصدر ، 346-348 . أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 288-295 .

عليه لإلقاء الأسئلة عليه واستفتائه . وقد أشار إليه أحد المصادر وهو يناقش صفات الله مع ورّاق[16] . والجدير بالملاحظة في هذا الصّدد أنّ الوهبيّين متّفقون مع المعتزلة حول بعض المسائل العقائدية الهامّة مثل حريّة الاختيار وخلق القرآن[17].

وكان المعزّ لدين الله يستحسن أبا القاسم يزيد بن مخلد وصاحبيْه أبا خزر وأبا نوح . فكان يستقبلهم مع كثير من العلماء الإباضيين المقيمين بالقيروان ، وكان يكرمهم ويشرف على مناظراتهم عن طيب خاطر[18] . من ذلك أن بعض المصادر قد تحدّثت عن أبي نوح وهو يناقش بعض النكّارة ، بمحضر الخليفة . أضف إلى ذلك أن كثيراً من الخوارج كانوا يخفون عقائدهم ، بل كانوا يتصادقون مع رجال السلطة ، ويبدو أن هذه الدعوة السريّة كانت نشيطة في السّاحل[19] .

وكان ينقص أبا القاسم يزيد بن مخلد الحذر ، ولربّما فكّر في تدبير ثورة لدى مزاتة ، إلى أن أمر الخليفة عامله بالحامّة بقتله[20] . ويقال إن أبا خزر وأبا نوح قد ثارا للأخذ بثأره[21] . وبعد استسلام أبي خزر سنة 359 هـ / 969-970 م ، تمّ الصلح بالتراضي بين الفاطميّين والخوارج في المناطق الجنوبية من إفريقية ، وتواصل احترام الصلح بعد رحيل المعزّ لدين الله إلى القاهرة . وقد اصطحب أبا هزار ، وكان يودّ اصطحاب أبي نوح أيضاً ، ولكنّ هذا الأخير تمارض والتجأ إلى وارجلان ثم عاد إلى إفريقية فيما بعد[22] .

وكان أبو نوح[23] يتنقل ذهاباً وإياباً بين قسطيلية وإفريقية بحصر المعنى . وقد أشارت بعض

---

16) الشماخي ، 348 : اسم هذا الورّاق ، إبراهيم المُشَبَّه ، أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 291 .

17) الشماخي ، 486 : يرى الوهبية بالإجماع أن سخط الله ورضاه فِعْلان وأن القرآن مخلوق . وبالنسبة إلى العلماء الإباضيين في العصر الصنهاجي كثيراً ما تشير المصادر إلى تضلعهم في الكلام . والجدير بالتذكير أنّ المعتزلي أبا حفص سليمان بن حفص الفرّاء (ت . 269 هـ/882-883 م) بعدما ابتعد شيئاً ما عن المذهب الإباضي ، رجع إليه فيما بعد ، حسبما يقال . البيان ، 111/1 والشماخي ، 262 .

18) الشماخي ، 339 ، 346-348 ، 353-354 ، 358 ، 361-362 . كان الإباضيون يعتبرون المجادل القيرواني الشهير أبا عثمان سعيد بن محمد بن الحدّاد (ت . 302 هـ/914 م) واحداً منهم . وقد نقض آراء عبد الله بن يزيد ، الشماخي ، 260-261 ، ولذلك كان يسمي « المدوّنة »المدوّدة ، معالم الإيمان ، 202/2 .

19) الشماخي ، 390-392 ، 417-418 .

20) نفس المصدر ، 348-349 .

21) انظر الفصل الثالث من الباب الأول .

22) الشماخي ، 349-350 . 353-355 ، 357-358 .

23) نفس المصدر ، 337-345 ، 353-354 ، 357-362 ، أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 295-310 .

المصادر إلى اجتماعه بعدد من أبناء مستاوة ، وانتمائه إلى حاشية ويجنين مقدّم درجين ، واستقدم المنصور بن بلكين الذي ساعد الخوارج[24] أبا نوح إلى بلاطه وأغدق عليه النعم. وفي ختام المناظرة بين أبي نوح وبين المدعوّ ابن حمّو الذي اتهمه بالاعتزال ، أرجع المنصور أبا نوح إلى بلاده محمّلاً بالهدايا .

وكانت تلك المناظرات العقائدية تتحوّل أحياناً إلى مشاجرات دامية[25] . وقد سجن عامل توزر أبا نوح ، على أمل ابتزاز بعض الأموال من الخوارج . فمرّت من هناك قافلة متوجّهة من أريغ إلى تمتار . فاقترح أبو نوح على الوهبي الوحيد التابع للقافلة وهو المدعو يوسف بن توجينت أن يشتري منه جِمال الركب . فاستجاب الوهبي لطلبه ، ولكنّ الصنهاجيين استولوا عليها . وأُطلِق سراح أبي نوح بفضل تدخّل يوسف ، فتحوّل إلى سوف ثم أريغ ثم وارجلان . وأوضح المصدر الذي روى هذا الخبر أنه عاد إلى وارجلان بعد وفاة أبي صالح[26] . وقد أقام أبو صالح أبو بكر بن قاسم اليراسني[27] في أوّل الأمر في بادية إزران . وكان يعاقب الأشرار بكلّ قسوة ويضعهم في الأغلال ولكنه كان لا يمسّ اللّصوص الصنهاجيّين بأيّ سوء . ولمّا اندلعت اضطرابات خطيرة ، تحوّل إلى جربة ، ثمّ غادرها لمّا اجتاح النكّارة جبل دمّر وتوغّل في الجبال . ويُروَى أن أهل دمر عرضوا عليه قضية قتل ، فحكم فيها بفرض الديّة ، الأمر الذي أرضى رئيسهم زيري بن كملين ، لأن العرف الجاري يقضي بأن يتقاضى المقدم ثلث الديّة . فاستنكر أبو صالح هذه العادة المنافية للشريعة .

وحضر أبو زكرياء فصيل بن أبي ميسر اليهراسني[28] نهب جزيرة جربة من طرف ابن ويمي (؟) ، قائد السلطان الظالم ، التابع لإباضية مزاتة بالقيروان . وكان ذلك القائد قد كاتب أبا زكرياء ، مقترحاً عليه الاحتماء بالجامع الأعظم ، هو وأبناء عشيرته ، ليسلموا من النهب . وبفضل بركة أبي زكرياء اكتفى ابن ويمي بطلب دينارَيْن من بني يهراسن ، أبناء قبيلة الشيخ .

أما أبو باديس أبخت بن باديس اليكشني[29] ، فهو شيخ إباضي زناتي ، كان يتعاطى تربية

24) لقد صرّح المصنور بما يلي : « إنّ سيفي للوهبيّة ورمحي » ، الشمّاخي ، 358 .
25) نفس المصدر ، 359-360 .
26) نفس المصدر ، 361-362 .
27) نفس المصدر ، 367-371 .
28) نفس المصدر ، 371 .
29) نفس المصدر ، 382-384 .

الخيول في فحص بونة (كذا) ، ولا شكّ أن الأمر يتعلّق بنوبة (سيدي داود في الوقت الحاضر) الواقعة في الوطن القبلي . وقد أهدى حفيده إلى المعزّ بن باديس مُهْرَيْن كان قد ربّاهما وروّضهما . فقبل الأمير الهديّة بابتهاج وجازاه . ولكنّ وزراءه استنكروا موقفه إزاء هذا الخارجي ، قائلين له : اقتله لكي لا يثور عليك ، فهو إباضي يجوز قتله ، لا سيما وقد شاهدت أهمية هديّته التي لا تمثّل مدى ما تركه من قوّة وراءه . ثم أعادوا إلى ذهنه العداوة الدفينة بين زناتة وصنهاجة وتمكّنوا من إقناعه وتغيير فكرته . فسألهم ما العمل لقتل شخص كان قد تلقّى هديّته بمرأى ومسمع من الجميع ؟ فأشاروا عليه بأن يأمره بمصارعة « أسد السخط »[30] المعروف بضراوته ، إذ لا شكّ أن الأسد سيتغلّب عليه بسهولة . ومن الغد استقدم المعزّ الإباضي الذي استشعر ما كان يتهدّده من خطر ، فأسرع إلى طلب العفو . فقال له الأمير : ستصارع أسد السخط[31] . إذ أنكم معشر الزناتيين بارعون في الفروسية . فأُدخِلَ المسكين إلى « خان السباع » وامتطى صهوة أحد المُهْرَيْـن ، وأُطلِق الأسد الضاري ضدّه ، واحتلّ الحاضرون مقاعدهم في « المعالي » (المدارج) للاستمتاع بالمشهد . فتمكّن الزناتي ببراعة فائقة من تطويع الأسد وتهدئته ، ثم اقترب منه رويداً رويداً ، لحثّه على الهجوم ، فتقدم الحيوان المفترس برشاقة نحو حوافر الفرس الذي انقضّ عليه في الحين وهشّم رأسه ، فسقط على الأرض . ورجع الإباضي إلى أهله ، بعدما سلّم إليه الأمير ألف دينار للفرس الذي مكّنه من القيام بذلك العمل الباهر ، وخمسمائة دينار للفرس الآخر ، وتحقّق بذلك ما كان تنبّأ له به جدّه .

وقد أدان الشيوخ الإباضيّون مَنْ يزورون الجبابرة . من ذلك أنهم أبعدوا في نفس تلك الفترة تقريباً عبد الله بن جابر الذي اتّهموه بزيارة أمراء قابس . ولكنّ الأمور كانت تجري على غير هذا النحو ، وذلك بسبب احتياط الإباضيين وحرصهم على إخفاء دعوتهم ، كما تدلّ على ذلك النادرة التالية[32] .

فقد فارق أبو عبد الله محمد بن بكر[33] (ت . 440 هـ / 1048-1049 م) شيخه أبا زكرياء[34] ليدرس النحو بالقيروان التي كان يوجد في ضواحيها عدد كبير من « أهل الدعوة »

30) يبدو أن الأمر يتعلق باسم حيوان متوحّش .

31) في النصّ « مُهْر الخطّ » وهو تحريف محتمل لعبارة « أسد السخط » .

32) الشماخي ، 390-391 .

33) نفس المصدر ، 384-392 ـ أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 310-323 ، وهو ابن أبي صالح أبي بكر بن قاسم البراسني .

34) وهو بلا شكّ أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور اليهراسني .

(أي الإباضيين) . فأخذ الكلام عن أبي نوح سعيد بن زنغيل الذي تجاوزت شهرته شهرة أسلافه الذين كانوا علماء أباً عن جدّ منذ عهد جدّه الأكبر . وكان تلاميذه الكثيرون يشكلون شبه جماعة تسمّى الحلقة التي ضبط هو نفسه نظامها[35] . وقد روى أبو عبد الله محمد بن بكر أنه ذهب ذات يوم مع عدد من الطلبة لزيارة أهل الدعوة الذين آوَوْه ، وكان يوجد من بين زملائه في الدراسة شخص يرتدي في الظاهر زيّاً ساحليّاً[36] ، فابتعد عنه من أجل ذلك . ولكنّ ذلك الشخص قد أدخلهم إلى بيت ومعهم « أعوان الجبابرة » الذين أصبحوا ندماء لهم . ولم يهدأ غضب أبو عبد الله محمد بن بكر إلّا عندما أدخلهم مرافقهم إلى بيت آخر وقدّم إليهم طعاماً جديراً بطعام الإباضيين الحقيقيّين ، ثم أعلمهم أن سلوكه السابق لم يكن سوى وسيلة لإخفاء مذهبهم وعدم إثارة الشكوك حولهم . ثم أمّ المصلّين وألقى درساً في التفسير . وعندئذ شعر أبو عبد الله محمد بن بكر بالغبطة والسّرور لعدم تسرّعه في استنكار موقف ذلك الشخص ، حيث لم يكن سوى حيلة بارعة .

ولما قرّر الذهاب إلى أريغ في سنة 409 هـ / 1018-1019 م ، طلب إلى أبي القاسم يونس بن وزجين الوليلي أن يحفر له غاراً[37] .

وعاش ابن عالمنا الإباضي ، أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن بكر (ت . 504 هـ / 1110-1111 م)[38] في بلدة تمسولت ، وذاع فيها صيته وألف اثنين وعشرين كتاباً[39]

---

35) Lewicki ، المرجع المذكور ، الهامش 165 .

36) وكان يرتدي « كساءً حشمياً » وينتعل « قرقاً قلعيّاً » (وفي رواية أخرى نقلها ح . ح . عبد الوهّاب عن مخطوط أبي العرب : شماشق قلعية) ، وعلى رأسه شاشية حمراء وفي يده مزراق .

37) الشماخي ، 469-470 .

38) نفس المصدر ، 423-425 ، 431-432 ، شاخت ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 390 عدد 78 .

39) وهذه الكتب هي :

1) أصول الأرَضين في 6 أجزاء (حول القانون العقاري ؟) .
2) السيرة في الذمّة .
3) الجامع ، واسمه أبو مسألة في جزءين ، وهو كتاب يبحث في الفروع ، ألفه بطلب من أبي عبد الله محمد بن سليمان النفوسي .
4) كتاب القسمة (حول الفرائض) .
5) تبيان أفعال العُبّاد في 3 أجزاء .
6) كتاب الألواح .
7) وألف في آخر حياته كتاباً في 25 جزء وترك كتاباً آخر في أجلو في شكل مسودّة ، ولعلّه كتاب الألواح السالف الذكر .

=

وترك كتاباً آخر في أجلو في شكل مسودّة . ويمكن أن نستنتج من ذلك أنه أنهى بقية حياته في البلدة الأخيرة . كما تدلّ هذه الرواية على أهميّة الثقافة الإباضية في العصر الصنهاجي . وقد أخبر أبا العباس شيخُه سعدون أن هناك رأيَيْن حول مسألة فقهيّة[40] ، من غير أن يذكر له اسم صاحبَيْهما ، فتحوّل أبو العباس إلى الديوان ، أي مكتبة جبل نفوسة ، وأخذ في مطالعة الكتب صباح مساء مدة أربعة أشهر ، وطالع بالخصوص نحو 33000 جزء من الأجزاء التي ألفها الإباضيّون بالمشرق .

وفي سنة 471 هـ / 1078-1079 م ، اندلعت المعركة الأولى بين الوهبيّة في اريغ (الواد أو وادريغ)[41] . فقد هجم على أريغ عنان بن دليم الطرفي قبل سنة 502 هـ / 1108-1109 م ، وهو بلا شكّ نكاري ، ولكنّ المغراويين تمكّنوا من صدّ الهجوم[42] ، ونجح أبو العباس في صدّ محاولة ثانية قام بها عنان ، وقد كان معظم جنوده ، أي حوالي ألف رجل ، تابعين لبني ورتيزلن . وكان عنان قد قتل زهاء الستّين رجلاً من بني يطّوفت واحتفظ برؤوسهم ، ولكنه تخلّص منها ودفنها بعدما تقهقر . ثم حشد من جديد عدداً كبيراً من الجنود ضدّ أبي العبّاس وتمكّن من الهجوم عليه بغتةً . ويبدو أنّ أبا العبّاس الذي نبّهه أحد الجواسيس إلى ذلك في الوقت المناسب قد لاذ بالفرار ، ولكنه لم يستطع تجنّب هدم قصره . فحشد رجالاً من بني ورتيزلن ومن رأس الوادي ، وحذّره المدعوّ فلفل بن فلنار (؟) من عنان ونصحه بعدم قبول الاجتماع به . وبالفعل فقد طلب عنان مقابلة أبي العبّاس الذي أُجْبِر على عدم تلبية دعوته ، بل إن الشيخ أبا عبد الله (؟) قد أمر بقتله إن رفض الامتثال . فأتلف عنان الواحة في سنة 502 هـ / 1108-1109 م ، ولكن عندما انسحب جنوده هزمهم 313 رجلاً من بني ورتيزلن وغيرهم شرّ هزيمة .

وقبل وفاته بمدّة قليلة اجتمع العزّابة ليحرّروا بالتعاون فيما بينهم تلخيصاً مخصّصاً للمبتدئين يحمل عنوان **ديوان العزّابة**[43] .

= انظر ، شاخت ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 382-387-390 عدد 20-21 ، 40-51 ؛ 77 . وقد راجع كتبه الاثنين والعشرين ما عدا الكتاب الأخير .

40) وهي « مسألة ذبيحة القلق » .

41) الشماخي ، 424-425 : أضاف المؤلف هذه المعلومات التي لم نستطع توضيحها : إثر هذه الاضطرابات فرّ أبو يعقوب بن عبد الله من أريغ إلى وارجلان وفرّ أبو صالح من واغلانت وتوفي أبو يعقوب هناك في تموانت .

42) في النصّ مغرارة [عوض مغراوة] .

43) يشتمل الكتاب على 52 جزء ، وقد حرّر أبو الطاهر إسماعيل بن بيّدير كتاب الصلاة ، وهو أحسن وأفيد باب ، وحرّر أبو =

وحظي بنفس الشهرة عبد الغني الوسلاتي المزاتي وابنه المنصور[44] المعاصران لأبي عبد الله محمد بن بكر وابنه أبي العبّاس .

ويبدو أن أبا محمد عبد الله بن مانوج الهوّاري اللّمّاعي[45] ، قد عاش في أوّل الأمر في جزيرة جربة ، وكان من بني الفقهاء السبعة في غار الجماج (أو أمجماج) .

وكان أبو الخطّاب عبد السلام بن منصور (أو منظور) بن وزجونة المزاتي[46] تلميذ أبي نوح سعيد بن زنغيل ، من بين الذين نظموا حلقة مماثلة للحلقة التي تكوّنت حول أبي عبد الله محمد بن بكر في أريغ ، ثم عاد إلى أهله . وقد صاحب المزاتيين في هجرتهم إلى طرابلس ، ولما غادروها[47] ، استقرّ في نفوسة ثم زار البقاع المقدس لأداء مناسك الحجّ وعند عودته استقر في درجين . وإثر المجاعة الكبرى التي ظهرت في سنة 430 هـ / 1038-1039 م ، تفرّق الطرابلسيّون ، فحاصر جيش صنهاجي درجين ونهبها وقتل جميع المدافعين عنها . ولعلّ الأمر يتعلق بالحملة التي قام بها نزار بن المعزّ ضد زناتة[48] . وبعد نهب تلك البلدة ، ذهب به بنو ورتيزلن إلى أجلو وأعطوه أراضي كثيرة . ويبدو أنّه اتّجه بعد ذلك إلى إفريقية ثم أريغ ، وقد وجد بها أبا عبد الله محمد بن بكر الذي توفي بعد ذلك بقليل (440 هـ / 1048-1049 م) .

وكان أبو عمران موسى بن زكرياء[49] أحد كبار العلماء الإباضيين في عصره . وهو ناسخ ديوان العزّابة الشهير الذي حرّره الفقهاء السبعة في غار الجماج (أو أمجماج)[50] .

= العباس (بن أبي عبد الله) بن بكر كتاب الحيض ويخلفتن بن أيوب النفوسي كتاب النكاح ومحمد بن صالح النفوسي المسناني كتاب الوصايا . وتوفي داود بن أبي يوسف قبل إتمام الكتابين اللذين عُهدا بهما إليه ، أما المساهمون الآخرون في هذا التأليف فهم : يوسف بن سوسى القنطراري ويوسف بن عمران بن أبي عمران وموسى بن زكرياء المزاتي التجديتي ، ومن أجير : عبد السلام بن سلام ، وجابر بن حمّو وإبراهيم بن أبي إبراهيم . وتولى مراجعه الكتاب أبو العباس بن أبي عبد الله بن بكر وأبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي وماكسن . وحول هذا الكتاب المسمّى ديوان الأشياخ ، انظر ، شاخت المرجع المذكور ، 382 . عدد 18 .

44) الشماخي ، 392-393 ، يبدو أن جعفر الوسلاتي وابنه أبا زكرياء يحيى كانا يعيشان في نفس العصر .

45) نفس المصدر ، 396-398 .

46) نفس المصدر ، 398-401 .

47) على الأرجح في سنة 430 هـ/1038-1039 م وهي السنة التي ظهرت فيها مجاعة كبيرة أجبرت الطرابلسيين على التفرّق .

48) انظر الفصل الخامس من الباب الثالث .

49) الشماخي ، 401-402 ، أخبار أبي زكرياء ، الترجمة ، 312 .

50) لم نستطع تحديد موقع هذا الغار الذي ينبغي علاوة على ذلك ضبط اسمه الصحيح . وقد أطلق عليه الشماخي (404) من =

وسنسلّط فيما يلي بعض الأضواء على العلاقات بين الشيعة والإباضيين . فقد سئل أحد العلماء الإباضيين عن الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ[51] ، ومفاده أنّ صنفين من النّاس سيضلّان طريق السلامة من أجل علي (بن أبي طالب) ، أحدهما لغلوه في حبّه ، والآخر لغلوّه في كرهه . فأجاب العالم أنّ الشيعة قد اتخذوا بالفعل تجاه عليّ موقفاً مماثلاً لموقف النصارى إزاء المسيح عليه السّلام ، إذ ذهب بعضهم إلى حدّ تأليهه ، في حين يرى الخوارج الصفريّة أنّ مرتكب الكبائر مُشْرِك ، وعلى هذا الأساس اعتبروا عليّاً من هذا الصنف لارتكابه الكبائر .

واشتكت أمّ أبي محمد ماكسن بن الخير[52] لأمّ المعزّ بن باديس من عمى ابنها ، وبإشارة من هذه الأميرة التي لاحظت في الطفل أمارات الذكاء ، أُدخِل إلى الكتّاب وحفظ القرآن بسرعة مذهلة ، ثم أصبح في جربة فيما بعد ألمع تلميذ من تلاميذ أبي محمد ويسلان . وحسب ماكسن ، أجاب أحد الفقهاء على هذا السؤال : « هل تجوز المُوَارثة بين الشيعة وبيننا » ، بقوله : كلاّ ، إن كانوا ينكرون « التعطيل » ، وأجل ، إن كانوا يقولون « بالتفضيل » (أي تفضيل علي) » . ويمكن أن يكون ذلك الفقيه هو أبو إسحاق التونسي .

وإثر الاضطرابات الدامية التي اندلعت بين بني ستيتن وغلاته ويا نجاسن ، أراد من نجَوْا منهم من الموت اعتناق مذهب « الحشويّة » (= المالكية) ، ولكنّ ماكسن الذي أقام بينهم ثلاث سنين قد استطاع تفادي الخطر . وبعد ذهابه أراد « أهل الخلاف » (أي المالكية بلا شكّ) بناء

= جديد اسم غار الجماج ، وورد اسم أمجماج في مخطوط أبي العرب الذي اطلع عليه ح . ح . عبد الوهّاب . والمشائخ السبعة الذين ذُكِر اسمهم هم :

1) أبو عمران موسى بن زكرياء (المزاتي) .
2) أبو عمر الذميلي .
3) أبو محمد عبد الله بن مانوج .
4) أبو زكرياء يحيى بن جرناز النفوسي .
5) جابر بن سدرمام .
6) كبّاب بن مصلح .
7) أبو مجبّر توزين . وحسب أبي العرب (المخطوط المذكور أعلاه) ينتمي المشائخ رقم 1 و5 و6 و7 إلى مزاتة ، أي أنهم إفريقيون ، والشيخان رقم 2 و3 من جربة ، وورد في هذا المخطوط اسم جرنان عوض جرناز . ويشتمل الكتاب على 12 قسماً . انظر ، موتلنسكي ، بيبلوغرافيا مزاب ، 24-25 .

51) واسمه أبو زكرياء يحيى بن وجمين الهوّاري ، الشماخي ، 405 .
52) نفس المصدر ، 414-416 .

مسجد . فسمح لهم بذلك بعض ضعاف العقول ، ولكنّ أبا يوسف بن زيري منعهم من تحقيق ذلك المشروع[53] .

وقد علّم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي[54] تلميذ أبي عبد الله محمد بن بكر ، قراءة القرآن لعدد كبير من التلاميذ[55] . كما ألّف كتاب **المُتحِف في الأصول** وكتاب **السِّيَر** ، وذاع صيته في البلاد . ويبدو أنه عاش في جربة ، إذ قيل لنا إن مقدّم طُرّة قد لقي حتفه من أجل دعائه ودعاء شيوخ الجزيرة ، وهذا المقدم هو المدعو أبو علي الذي أساء معاملة العزّابة .

وكان محمد بن أبي خالد[56] عالماً إباضياً جليلاً يسكن الساحل الإفريقي ، وقد ألف عدداً كبيراً من الكتب .

أما أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني (عاش في النصف الثاني من القرن الخامس هجري / الحادي عشر ميلادي) ، فهو مؤلف كتاب **السيرة في أخبار الأئمة**[57] .

وفي سنة 450 هـ / 1058-1059 م قدم إلى أريغ أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتي[58] ، وكان يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة . فارتبط بماكسن ، ثم ذهب إلى قلعة بني حمّاد . وهناك فقرة غامضة من سوء الحظّ ، تشير إلى أنّ الوهبيّة بوارجلان قد تعرّضـوا لهجوم جيش[59] السلطان بتواطؤ من الأشاعرة الموجودين في تلك البلدة . ولما علم هؤلاء بالمذبحة التي كانت بصدد الإعداد ابتعدوا عن وارجلان ، ربما للالتحاق بالجنود الإفريقيّين والانضمام إليهم . وقد تنبّه أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتي إلى ذلك في الوقت المناسب ، فلاذ بالفرار . وقد كان موجوداً في وغلانت لما قـام أبو زغيل الخزري الذي ربّما كان نكارياً ، بحصار تلك البلدة بلا نجاح .

---

53) شخص غير معروف ، حسبما يبدو .

54) الشماخي ، 409-412 ، T. Lewicki ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1934 م ، ص 73 وما بعدها ، شاخت ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 397 عدد 139 .

55) يقول الشماخي (440) إن تلاميذه يضمّون أشخاصاً من سوف وأريغ ووارجلان والزاب وقسطيلية .

56) الشماخي ، 417-418 : يشير المؤلف إلى أنه عثر على اثني عشر كتاباً من تأليف هذا الشيخ ، فرفضها لأنه ظن أن المعني بالأمر مستاوي أي نكّاري ، ثم علم أنه من أهل الدعوة ، وقد نقض آراء معارضي وناكري إمامة عبد الوهّاب .

57) يتعلق الأمر بأخبار أبي زكرياء ، شاخت ، المرجع المذكور ، 395 عدد 140 ، و T. Lewicki ، دراسات إباضية ، 11/1-12 ، ودائرة المعارف الإسلامية (ط . 2) 171/1-172 .

58) الشماخي ، 437-440 .

59) نفس المصدر ، 438-439 ، وفي ترجمة يعقوب ابن أبي القاسم يونس بن وزجين الوليلي (469-470) أشار المؤلف إلى الاضطرابات التي اندلعت في وارجلان بين الموهبية والمالكية ، حسبما يبدو .

وكان أبو محمد عبد الله بن محمد اللنتي[60] ، موجوداً في تين ، حيث زاره تلاميذ أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي . وإثر المعركة التي اندلعت في صفوف بني تكسنيت بين المالكية وبين بني يروتن الوهبيّة ، لاذ العزّابة بالفرار وتفرّقوا .

وكان الإمام أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفي المزغني[61] المتضلّع في علم الكلام بوجه خاص ، قد مرّ من الحامة[62] ، حيث ما فتىء المذهب الإباضي يتقهقر منذ عصر أبي القاسم يزيد بن مخلد وأبي خزر يعلى بن زلتاف[63] . فحاول بثّ المذهب الإباضي من جديد في تلك المدينة ولكنه أبعِد منها من طرف المالكية . بل إنّ الإباضيّين الأخيرين الذين ما زالوا موجودين هناك قد أجبِروا على التخلّي عن عقيدتهم ، وإنّ المالكية قد غسلوا المسجد الكبير لتطهيره ، فلعنهم أبو عمرو عثمان بن خليفة . ولذلك قتل الميورقي المعروف باسم علي بن غانية فيها بعد سبعة أو تسعة مائة نفر منهم[64] . وكثيراً ما استشهد الشمّاخي بمصنّفه كتاب السؤالات[65] .

وفي آخر العصر الصنهاجي كان كثير من الإباضيين ولا سيما أهل نفطة يذهبون إلى مدينة تونس لطلب العلم ، نذكر من بينهم أبا عمار عبد الكافي بن يعقوب التناوتي[66] الذي درس أثناء إقامته في تلك المدينة الأدب والنحو الخ . . . وكان يعمل ليلاً نهاراً ، ويتلقى كل سنة من بلده وارجلان ألف دينار ، يعطي نصفها لشيخه . ثم عاد إلى وطنه وأصبح عالماً مشهوراً متضلعاً في علم الكلام ، وألف عدة كتب[67] .

---

60) نفس المصدر ، 440 .

61) نفس المصدر ، 440-441 ، 519 : وهو أصيل سوف ويبدو أنه كان ينتمي إلى بطن من بطون لواته كان يقيم في ذلك البلد ، T. Lewicki ، المرجع المذكور ، 13/1 .

62) انظر حول استعمال الأوقاف لفائدة المساجد الإباضية بالحامة (؟) فتوى الغبريني (العصر الحفصي) ، المعيار ، 144/7-145 .

63) انظر الفقرة السابقة : العلماء الإباضيون في الفترة السابقة للعصر الصنهاجي .

64) حوالي سنة 583-585 هـ/1187-1189 ، A. Bel ، بنو غانية ، 77 وما بعدها .

65) T. Lewicki ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1934 م ، 74 ، شاخت ، المرجع السابق ، 383 عدد 25 . هذا الكتاب الذي يتضمّن مجموعة من الأسئلة التي ألقيت عليه ، قد أملاه أبو يعقوب يوسف بن محمد التناوتي وحرّره أبو موسى عيسى النفوسي وراجعه أبو صالح بن إبراهيم بن يوسف المزاتي ، الشماخي ، 524-598 ، Lewicki دراسات إباضية ، 13/1 .

66) الشماخي ، 411 ، 529 : ينتمي إلى قبيلة التناوتة المستقرّة في نفزاوة ، وكان بطن من هذه القبيلة يقيم في وارجلان ، موتلنسكي ، ببلوغرافيا مزاب ، الجزائر ، 1885 م ، 71 ، Lewicki ، المرجع السابق .

67) من بين الكتب التي أشار إليها الشماخي ، 441 ، نذكر : المُوجز في الردّ على كلّ من خالف الحقّ ، شرح الجهالة ، كتاب =

ويقال إن أبا نوح صالح بن إبراهيم بن يوسف المزاتي كان معاصراً لأبي عمار عبد الكافي السالف الذكر ، ولكنه كان أصغر منه سناً ، بدليل أنه استشهد به في كتابه التاريخي[68] .

وينتمي أبو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني إلى نفس جيل أبي عمار عبد الكافي ، وهو زناتي تابع لقبيلة بني وسيان (أو واسين) الذين كانوا يسيطرون على قسطيلية . وقد اعتمد الشماخي كثيراً على كتابه المخصص للتراجم الإباضية وأشاد به . وكان حيّاً في أوائل القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي[69] .

ويبدو أنّ المؤلف المجهول لكتاب سِيَر المشائخ ، تلميذ الشيخين أبي الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني وأبي عمرو عثمان بن خليفة السوفي ، كان أصيل الجنوب التونسي مثل شيخَيْه ، وعاش في القرن السادس هجري / الثاني عشر ميلادي[70] .

أما أبو سهل ، فهو من بين المصادر المعتمدة في كتاب سير المشائخ ، ويبدو أن الأمر يتعلق بأبي سهل يحيى (أو إبراهيم) بن سليمان بن ويجمن الذي كان يعيش في وارجلان في أواخر القرن الخامس هجري / الحادي عشر ميلادي . كان تابعاً لقبيلة مزاتة[71] . وكان ابنه أبو داود معاصراً لأبي محمد اللّواتي (ت . 538 هـ / 1143-1144 م)[72] .

ويمكن أن نختم هذا الاستعراض لمشاهير العلماء الإباضيّين بإفريقية في العصر الصنهاجي ، بالإشارة أيضاً إلى أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السوارجلاني[73] (ت . 570 هـ / 1174-1175 م) ، وهو عالم ذو معرفة واسعة ومتنوّعة وصاحب مؤلفات عديدة .

ومن بين شيوخ جبل نفوسة[74] ، يبدو بالنسبة إلى العصر الصنهاجي ، أن العلماء الجديرين

= الاستطاعة ، وهو أيضاً مؤلّف كتاب السِّيَر ، انظر ، شاخت ، المرجع السابق ، 395 عدد 141 . وحول تلميذه أبي يعقوب يوسف بن محمّد التناوتي الذي أملى كتاب السؤالات ، انظر ، الشماخي ، 498-499 ، 524 ، 598 ، وكان خاله يوسف بن إبراهيم قاضي ومفتي وارجلان هو الذي يوجّه إليه كلّ سنة المبلغ المذكور ، الشماخي ، 498-499 .

68) الشماخي ، 469-598 ، Lewicki ، المرجع المذكور ، 13/1 .

69) الشماخي ، 454 ، موتيلنسكي ، المرجع المذكور ، 43 ، Lewicki المرجع المذكور ، 12/1-13 .

70) آخر تاريخ مذكور في هذا الكتاب 557 هـ/1161-62 م ، Lewicki ، المرجع السابق ، 12/1 .

71) الشماخي ، 507 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 12/1-14 .

72) الشماخي ، 437-440 ، 503 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 14/1 .

73) الشماخي ، 443-447 ، شاخت ، المرجع المذكور ، 397 الهامش 36 . ثم أورد الشماخي (445-447) ترجمة أبي يعقوب يوسف بن خلفون المزاتي ، موتلنسكي ، المرجع المذكور ، 27-28 .

74) Lewicki ، المرجع المذكور .

بالذكر هم : أبو عبد الله محمد بن حنّون الشروسي الذي كان يتبادل الرسائل مع « ملوك إفريقيّة » أي مع بني زيري الذين كانوا يرغبون في حمل أهل نفوسة على اعتناق المذهب المالكي[75] ، وأبو محمد ورسفلاس بن مهدي[76] ، وأبو زكرياء يحيى بن الخير الجناوني[77] .

ومجمل القول إن « شدّة الخلافات الداخليّة » قد أنهكت المذهب الإباضي الإفريقي الذي قوّض أركانه « تنوّع المدّ السنيّ وقوّته المعنوية والمادية على حدّ السواء »[78] . ولم يستطع تفادي التقهقر الذي بدأ قبل غزوة بني هلال وتواصل بعدها . ولكنه تمكّن من المحافظة على مواقعه مدّة أطول في جبال دمّر ونفوسة ، وكذلك في منطقة جفارة وجزيرة جربة وبني مزاب[79] .

---

75) الشماخي ، 323-324 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 42/1-43 .

76) الشماخي ، 327-328 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 45/1 عدد 25 .

77) الشماخي ، 535-536 ، Lewicki ، نفس المرجع ، 94/1 عدد 92 . دائرة المعارف الإسلامية (ط . 2) ، 171/1 .

78) برنشفيك ، **الدولة الحفصية** ، [الترجمة العربية 362/1] .

79) يصعب تصديق الخبر الذي أكّده الشماخي ، 457-458 حول اعتناق ملك غانة السوداني للمذهب الإباضي في سنة 575 هـ/1179-1180 م بتأثير من علي بن خلف . لأنّ ذلك الخبر منقول عن البكري الذي ألف كتابه في سنة 461 هـ/1068 م ، انظر البكري 178 وبرنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 361/1] .

الفصل الرابع
أهـل الذمّـة

1 ـ النّـصـارى :

لقد أكّد ابن أبي دينار (القرن 18 ميلادي) أنّ عدة قرى في إفريقيّة « كانت عامرة بالكفر إلى ما بعد المائة الرابعة » (القرن الرابع هـ / أوائل القرن 11 م)[1] . وأشارت فتوى لابن أبي زيد إلى وجود النصارى واليهود في الأسواق حيث كانوا يبيعون الأقمشة ، وإلى وجود قرى يمثّلون فيها الأغلبية[2] .

وأشار البكري أيضاً[3] إلى وجود بعض الأفارق المنحدرين من الـروم في قابس ومنستـير عثمان[3م] . وفي القرن 12 ميلادي ما زال الناس يتكلّمون اللغة اللاتينية في قفصة . كـما أشار إعـلان ليون الحكيم إلى أسقفيـة ما زالت قـائمة الـذات[4] . وكـانت قـابس تسمّى « مـدينـة الأفارق »[5] .

وسئل القابسي عن استعمال الحجارة المتأتية من بعض الكنائس المتداعية بقسطيلية في بناء مسجد[6] . وتولّـى أحد القضاة بتوزر ، اعتـماداً على فتـوى اللخمي ، بيع أحبـاس النصارى وتخصيص مداخيلها للمسلمين الذين كانوا في حاجة إليها[7] .

1) المؤنس ، 36 .
2) البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 90/1 ط .
3) البكري ، 17 ، 55-56 .
3 م) منستير عثمان : قرية كبيرة تقع على بعد مرحلة من القيروان في طريق تونس .
4) الإدريسي ، 104-105 ، Courtois ، المجلة التاريخية ، 1945 م ، 110 .
5) الإدريسي ، 121 ، ج . مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 174 : يرى المؤلف أن النصارى قد تم تجميعهم في بلدة ما زالت فيها التقاليد اللاتينية والمسيحية قائمة الذات .
6) فتوى القابسي ، ابن الشباط ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 34/1-35 ، إدريس ، تحية ج . مارسي ، 105/2-106 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1935 م ، 143 .
7) فتوى اللخمي ، ابن الشباط ، المصدر المذكور ، إدريس ، المرجع المذكور انظر أيضاً التجاني ، 115-116 ، المعيار ، =

ويبدو أن الجالية السردانية المستقرّة في فترة غير محدّدة في بلدة سردانية الواقعة قرب القيروان وربّما في عدة قرى من منطقة قسطيلية ونفزاوة ، لم تحافظ على ديانتها[8] . وكذلك الشأن بالنسبة إلى الألف أسرة قبطية التي وجّهها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى تونس لبناء دار صناعة[9] .

وفي ضواحي طرابلس اكتُشِفت مقابر مسيحيّـة يرجع عهدهـا إلى القرنـين 11 و 12 من الميلاد[10] . وحول تقهقر الكنيسة بإفريقيا[11] نذكّر بأن وجود حوالي 40 مدينة أسقفية في القرن 11 م ، ربّما كان نظريّاً أكثر منه واقعيّاً ، وأنه لم يبق هناك حوالي سنة 444-445 هـ / 1053 م سوى خمسة أساقفة ولم يُوجَد في سنة 468-469 هـ / 1076 م الأساقفة الثلاثة اللاّزمون للرّسامة .

وفي عهـد البابـا بينوا السـابع (363-373 هـ / 974-983 م) اختـارت الجاليـة المسيحية بقرطاجنة قسّاً اسمه جاك وأوفدته إلى روما لسيامته . وأكّدت رسائل ليون التاسع وجرجير السابع وجود تلك الجالية حتى أواخر القرن 11 م وقد كان قسطنـطين الإفريقي أحـد أبنائهـا . ورغم الإشارة في القرن 12 م إلى قرطاجنة في وثائق الكنيسة الرومانية ، فمن المستبعد أن تكون موجودة في تلك المدينة أسقفيّة في مثل تلك الفترة المتأخرة[12] .

ولدينا رسالتان الأولى بتاريخ 17 ديسمبر 1053 م / 3 رمضان 445 هـ مـوجّهة من ليـون التاسع إلى القسّ توماس بقرطاجنة والثانية موجّهة من نفس البابـا إلى قسّيْن إفـريقيين بـطرس ويوحنّا ، لا نعرف مركزهما . وقد أشارت الرسالتان إلى ادّعاءات قسّ جمّي ، أي المهدية ، الذي كان يريد دعوة المجامع الدينيّة وسيامة الأساقفة . وقد احتجّ البابا بشدّة على هذه الادّعاءات التي ترمي إلى المسّ بتفوّق الكرسي الأسقفي بقرطاجنة . ويبدو أن قسّ جمّي قد أراد أن يحظى مركزه

192/2-193 . وحول آثار المسيحية في الوسط الإباضي قبل العصر الصنهاجي ، انظر ، الشماخي ، 245 ، 256-257 ، T. Lewicki ، دراسات إباضية ، 1/ في عدة مواضع .

8) البكري ، 33 ، الكامل ، الترجمة 370-371 ، العبر 4/419 ، فورنال ، 360/2 .

9) Courtois ، المرجع المذكور ، 115 ، إدريس ، الأعياد المسيحية ، المجلة الإفريقية ، 1954 م ، 272 ، الهامش 39 .

10) Courtois ، المرجع المذكور ، 112-113 ، نقائش عربية ، 295/1 .

11) دي ماس لاتري ، معاهدات الصلح ، المقدمة ، 270/2 ، Seston ، مجموعة الآثار والتاريخ ، 1936 الكراس 1-4 ، 101-124 وبالخصوص Courtois ، المرجع المذكور ، 97-122 ، 193-226 ، ج . مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 172-175 ، برنشفيك ، الدولة الحفصية [الترجمة العربية ، 461/1] ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1954 ، 269-272 .

12) Courtois ، المرجع المذكور ، 111-112 .

بمنصب كبير الأساقفة في منطقة المهدية على غرار قرطاجنّة بالنسبة إلى منطقتها ، ويتمتع بشيء من الاعتبار بالنسبة إلى سائر المراكز الإفريقية . « إذ يبدو أن كبير الأساقفة في منطقة المهدية كان في سنة 1053 م ، أي غداة غزوة بني هلال ، بمثابة راع بلا رعيّة . . . » . ويبدو أن النزاع بين قسّ المهديّة وقسّ قرطاجنة لم يكن مظهراً من مظاهر الصراع بين كنيسة روما وكنيسة الإسكندرية ، « لأنّ الانشقاق المسيحي لم يدخل بعدُ حيّز الواقع ، وأن المأساة كانت تدور وقائعها بين روما والقسطنطينية دون سواهما »[13] .

وفي سنة 468-469 هـ / 1076 م طلب الناصر بن حمّاد إلى جرجير السابع تعيين الأسقف سرفندوس قسّاً في بجاية ، فسارع البابا إلى تلبية طلبه . ووجّه إليه الناصر هدايا وأطلق سراح جميع الأسرى المسيحيّين الموجودين في مملكته[14] . وكان الناصر قد أشهر الحرب على تميم الذي كان يساند المسلمين في صقلية ضدّ النرمان ، في حين كان جرجير السابع يسعى إلى التقرب من هؤلاء . ويبدو أن هذا التغيير في السياسة البابوية لم يكن غريباً عن العلاقات الودية القائمة بين جرجير السابع والناصر[15] .

وقد أظهرت لنا رسالتان صادرتان عن جرجير السابع ، الأولى موجّهة إلى رجال الكنيسة والطائفة المسيحية بقرطاجنة ، والثانية موجّهة إلى سيرياكوس كبير الأساقفة في تلك المدينة ، أن هذا الأخير قد رفض في سنة 465 هـ / 1073 م الاستجابة لرغبة بعض النصارى الذين طلبوا إليه القيام ببعض الرّسامات التي اعتبرها منافية للتعاليم الدينية . وبما أن الطائفة المسيحية بقرطاجنة قد تحوّلت إلى مدينة تونس التي كانت عهدئذ في أوج تطوّرها ، فمن المحتمل أن يكون سيرياكوس قد رفض أن يتولى بمفرده رسامة قسّ في مدينة تونس . واحتراماً منه لقواعد الدين المسيحي وحرصاً على الدفاع عن تفوّق قرطاجنة ، بل ربّما خوفاً من منافسة القسّ الجديد ، أصرّ على موقفه رغم إلحاح الأمير عبد الحقّ بن خراسان الذي لم يتردّد في سجنه وجلده ، وكما فعل القسّ توماس في سنة 1053 م ، عرض سيرياكوس القضية على روما[16] . فأجابه جرجير السابع في جوان 1076 م / 25 شوال ـ 25 ذو القعدة 468 هـ وبتّ في القضية على النحو التالي : بما أنه لا يُوجَد في إفريقيا

---

13) نفس المرجع 195-203 . لقد أكد ح . ح . عبد الوهّاب التطابق بين جمّي والمهدية ، وأثبتت فسيفساء أوسني هذا التطابق .

14) Courtois ، المرجع المذكور ، 97 وما بعدها ، 207-215 وقد بيّن المؤلف أن Buzea هي بجاية وليست بونة .

15) نفس المرجع ، 219-224 .

16) نفس المرجع ، 216-224 .

الأساقفة الثلاثة اللازمون للرّسامة ، فينبغي أن يختار كبير الأساقفة بقرطاجنّة والأسقف الذي سامه البابا منذ عهد حديث ، إسقفاً يوجّهانه إليه مع المستندات اللازمة ، فيرجعه البابا إليهما بعد رسامته . وعندئذ يستطيع ثلاثتهم رسامة أساقفة آخرين ، حسب حاجة الكنيسة[17] . ومن المفروض أن تكون تعليمات البابا قد طُبّقت ، وأن تكون مدينة تونس قد أصبح لها إسقف معيّن بصورة قانونية .

ويمكن أن يُفسَّر ، ولو بصورة جزئية ، التقارب بين جرجير السابع والنرمان ، بحرص البابا على إرضاء ابن خراسان ، مع السهر على مصالح الكنيسة في تونس . ذلك أن أمير هذا البلد التابع لابن حمّاد ، رغم اضطراره إلى الاعتراف بتبعيّته للأمير تميم حوالي سنة 459-460 هـ / 1066-1067 م ، قد بقي مستقلاً عمليّاً وموالياً لبني حماد ، بصورة تزيد أو تنقص ، والدليل على ذلك أن تميماً قد اضطرّ فعلاً في سنة 491 هـ / 1097 م إلى إخضاعه من جديد . وكان من واجب جرجير السابع الموالي للنرمان ، وبالتالي المناهض لبني زيري ، أن يراعي في سنة 468 هـ / 1076 م عبد الحق بن خراسان عدوّ تميم المحتمل ، وأن يتقرّب في نفس الوقت من الناصر .

وفي سنة 507-508 هـ / 1114 م ، كانت للنصارى في قلعة بني حمّاد ، كنيسة مكرّسة لمريم العذراء[18] . كما اكتُشِفت بالقيروان قبريّة « القارىء » فيرموس المتوفى سنة 439-440 هـ / 1048 م وقبريّة « السنيور » بطرس المتوفى سنة 437-438 هـ أو 442-443 هـ / 1046 أو 1051 م ، وقد كُتِبَت على كلّ واحدة منها كتابة باللاتينية المحرّفة . ويدلّ هذا الاكتشاف على استمرار الديانة المسيحية في مدينة عقبة بن نافع حتى قُبَيْل غزوة بني هلال[19] .

وقد كانت الجاليات المسيحية المتبقيّة في إفريقية تضمّ على الأرجح بعض الموظفين المدنيّين المُعترَف بهم من قِبَل الأمير والمسؤولين لديه ، لأنّ رجال الكنيسة لا يهتمّون إلاّ بالشعائر الدينية[20] . وكانت معرفة اللغة اللاتينية عهدئذ بدائية بلا ريب .

---

17) نفس المرجع .

18) دي ماس لاتري ، المعاهدات التجارية ، المقدمة ، 67-69 ، De Genival ، أسقفية قلعة بني حمّاد المزعومة ، مجلة هسبيريس ، 1932 م ، 14 ، ج . مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 174 ، Courtois ، المرجع المذكور ، 204-207 .

19) Saumagne ، النشرية الأثرية ، 1928 م ، 370 ، Seston ، المرجع المذكور ، 101-124 ، Courtois ، المرجع المذكور ، 113 ، 115-116-118 .

20) Courtois ، المرجع المذكور ، 117-118 .

وممّا لا شكّ فيه أنّ النّصارى الأهليّين لم يقاسوا من غزوة بني هلال أكثر ممّا قاسى منها سكّان المدن المسلمون . ولكن يبدو أنهم لم يسلموا من أذى الإفريقيّين أثناء ثورة المدن الساحلية ضدّ النّرمان .

وفي عهد غليوم الأوّل التجأ عدد كبير من النصارى إلى المهديّة - زويلة التي عيّن الملك النرماني على رأسها في سنة 551-552 هـ / 1157 م رئيس أساقفة تابعاً لكبير الأساقفة في بلرمو[22] .

ولم يتردّد بعض النصارى المساهمين في الغزوة النرمانية أو القادمين من صقلية ، في الاستقرار بطرابلس وصفاقس والمهديّة ، ممّا يفسّر تعيين أسقف تابع لبلرمو هو أيضاً في طرابلس[23] .

وأخيراً فقد أعلنت الغزوة الموحّدية عن نهاية وجود الجاليات المسيحية بإفريقية ، ولا سيما في مدينة تونس . إلّا أن بعض النصارى قد مكثوا في قرى نفزاوة حتى القرن 14 م ، وكذلك في توزر حتى القرن 18 م[24] .

وليست لدينا ما يكفي من المعلومات حول حياة النصارى في إفريقية في العصر الصنهاجي . وقد أشارت المصادر عدّة مرّات إلى النصارى الذين سبّوا الرسول[25] أو باعوا الخمر للمسلمين[26] ، وإلى عتق أو افتداء بعض الأسرى المسيحيين . ولم يكن مسموحاً للنصارى بالزيادة في ارتفاع كنائسهم ولا بإعادة بناء الكنائس المبنية بالطوب ، بالحجارة[28] .

وحسب القابسي ، يجب على المعلّمين أن يمتنعوا عن أخذ الهدايا « في أعياد أهل الكفر ، يدخل فيها أيضاً الميلاد والفصح والانبداس عندنا (أي بإفريقية الصنهاجية) والغبطة بالأندلس ، والغطاس بمصر . كلّ هذا من أعياد الكَفَرة ، لا يجب أن يطلب معلّم المسلمين فيه شيئاً ، وإذا أتي

---

21) نفس المرجع ، 119-120 .

22) ستوريا ، 483/3-484 ، 484-486 .

23) نفس المرجع ، 484/3-485 .

24) البربر ، 231/1 ، 156/3 ، برنشفيك ، المرجع المذكور ، Courtois ، المرجع المذكور ، 110-111 ، 121-122 ، 195 .

25) فتاوى ابن الكاتب والقابسي ، المعيار ، 272/2-273 ، 410 .

26) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 233/2 و .

27) فتاوى التونسي ، المعيار ، 332/2 ، 140/9-141 .

28) فتوى أبي حفص بن العطار ، المعيار ، 207/2 ، فتوى اللخمي ، المعيار ، 170/2-180 .

إليه بشيء في ذلك لا يقبله ، وإن أطاعوا له به . ولا ينبغي للمسلمين أن يتطوّعوا بذلك ولا يتزيّنوا له بشيء من الزيّ ، ولا يتهيّئوا له بشيء من التهيئة ، ولا يفرح الصبيان ، كعمل القِباب في الانبداس ، والقصوفات في الميلاد . كلّ ذلك لا يصلح من عمل المسلمين . . . »[29] .

وبالنسبة إلى كلمة « انبداس » الغامضة افترضنا أن تكون تحريفاً لكلمة « قلنداس » (Calendae) ، أي غرّة الشهر عند الرومان . ولكن هذا التأويل لم يحظ بموافقة الجميع[30] . ويمكن حينئذ التفكير في عيد القربان أو عيد الميلاد ، أو بالأحرى عيد التقدِمة .

وقد سمح أبو الطيّب عبد المؤمن بن محمد الكندي المعروف بابن بنت خلدون للمؤدّبين بقبول الهدايا في عاشوراء والأعياد الإسلامية ، لا في أعياء « العجم » ، وفي هذه الحالة يجب على المؤدب أن يرجع الهدايا إلى أصحابها أو يتصدّق بها ، إن كان لا يعرفهم[31] .

ويبدو أنّ بعض الجاليات المسيحية المحلية ، لا سيما في القيروان والمهدية قد تعزّزت في عهد بني عُبَيْد وبني زيري بعدد كبير من النصارى القادمين من الشرق[32] . ومهما يكن من أمر فإن نصّ القابسي يثبت أن الأعياد المسيحية كانت مصدر فرح بالنسبة للصبيان المسلمين . وكان بودّنا لو نعلم إلى أية فئة اجتماعية يشير ذلك النص ، وهل المقصود بذلك العامّة أم الخاصّة ؟ .

وقد استدعى الفاطميّون والصنهاجيّون الذين كانوا متسامحين إزاء النصارى الأهليّين ، بعض الحرفيّين المسيحيّين القادمين من الخارج . أما النصراني المتضلّع في مذهبه والذي ناظر ابن

---

29) [أبو الحسن علي القابسي ، الرسالة المفصّلة ، تحقيق أحمد خالد ، ص . 154 ، تونس 1986] .

30) إدريس ، الأعياد المسيحية . . . المجلة الإفريقية ، 1954 م ، 261-276 وبالنسبة إلى كلمة « انبداس » يرى Cantineau والسامرّائي وعبد النور أنها تحريف لكلمة « أقداس » أي عيد القربان . وقد كان النصارى في القديم ينصبون مذابح (ج . مذبح) لزيّاح القربان ، مظلّلة بأغصان الأشجار والزهور ، وإلى ذلك تشير كلمة قِباب الوادة في نصّ القابسي .

أمّا Courtois فهو يرى أن الأمر يتعلق بعيد الميلاد ، وكلمة قباب تعني مِذْود المسيح (أي مكان ولادته) .

وبالعكس منذ لك يرى ج . س كولان وبرنشفيك أن كلمة « انبداس » تعني عيد التقدمة (تقدمة المسيح في الهيكل) الذي يصادف يوم 2 فيفري . وعلى هذا الأساس فإن « انبداس » تحريف لكلمة « لمبداس » أي الشموع [وأما محقق الرسالة المفصّلة (المرجع السابق) فقد فسّر تلك الكلمة كما يلي : « تذكاراً لمخيّماتهم في الصحراء بعد خروجهم من مصر] .

31) المعيار ، 8/160-161 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 2/99 ظ .

32) ح . ح . عبد الوهّاب ، المجلة التونسية ، 1917 م ، 312-313 ، إدريس المرجع المذكور ، 1954 م ، 269 وما بعدها .

33) إدريس ، نفس المرجع ، 269-270 .

النبّان بواسطة مترجم وبمحضر نائب الأمير وعامل القيروان عبد الله بن محمد الكاتب ، فإننا لا نستطيع أن نؤكد أنه كان إفريقيّاً[34] .

وكان الشاعر عبد الوهاب بن محمد الأزدي المعروف بالمثقال « يألف غلاماً نصرانيّاً خمّاراً ، فعلقه فاشتهر به . وأقام ببابه في الحانة ثلاث سنين ويدخل معه الكنيسة في الآحاد والأعياد طول هذه المدّة حتى حذق كثيراً من الإنجيل وشرائع أهله »[35] .

وكان حرم أمراء بني زيري عامراً بالجواري المسيحيات اللاّئي أنجبن لا محالة عدداً من الأبناء . والجدير بالتذكير في هذا الصدد أنّ فاطمة حاضنة باديس الذائعة الصيت قد كانت قهرمانة القصر في بداية عهد المعزّ بن باديس ، وأنّ ابن أخيها الذي بقي على دينه قد قُتِل في المهديّة لأنه افتضّ بكارة إحدى بنات الأشراف ، في عهد باديس الذي قيل عنه إنه فكّر في قتل جميع أهل المهدية للأخذ بثأره .

أمّا تميم بن المعزّ فهو صاحب هذه الأبيات [الكامل] :

أليس الله يعلم أنّ قلبي يحبّك أيها الوجه المليح
وأهوى لفظك العذب المفدّى إذا درس الذي قال المسيح
أظاهر غيركم بالودّ عمداً وودّكم هو الودّ الصحيح
وفيكم أشتهي عيد النصارى وأصواتاً لها لحن فصيح[35]

وقد عهد هذا الأمير بإدارة المالية إلى جرجي الأنطاكي الذي أصبح قائد أسطول الملك النرماني فيما بعد . وسيطر جرجي الأنطاكي وأقاربه على أموال المسلمين إلى أن ارتقى يحيى بن تميم إلى العرش . وقد قال مبعوث تميم إلى الناصر إن مخدومه قد مال كلّ الميل إلى مواليه النصارى وأعطاهم كلّ شيء وترك جانباً صنهاجة وتلكاتة وسائر القبائل .

ومن الجدير بالتذكير أن جيش بني زيري لم يكن يضمّ العبيد الزنوج فحسب ، بل كان يضمّ أيضاً عبيداً مسيحيّين ، قد انتُدِب عدد منهم بلا شكّ من بين الأسرى النصارى الذين قبض عليهم قراصنة المهدية .

ولما استولى جرجي الأنطاكي على المهدية (543 هـ / 1148 م) اختبأ عدد من المسلمين عند النصارى وفي الكنائس عوض الفرار[36] .

---

34) نفس المرجع ، 271 .

35) نفس المرجع ، 272-273 .

36) نفس المرجع ، 274-275 [ابن رشيق ، الأنموذج ، 235-236] .

2 ـ اليهــود :

لقـد أشارت المصـادر عدّة مـرات إلى وجود اليهـود في إفريقيـة في فترة مـا قبـل العهـد الصنهاجي[37] . ولا شكّ أنهم كانوا موجودين في معظم المدن الكبرى بشرق الغرب الإسلامي ، حتى بداية الغزوة الهلالية ، لا سيما في القيروان والمهدية وتونس وسوسة وقابس وطرابلس وقلعة بني حماد ، وكذلك لا محالة في الحامة وقفصة وجربة[38] . كما أشارت المصادر أيضاً إلى وجودهم في المناطق الإباضية (جنوب إفريقية وجبـل نفوسـة وشروس وجادو) في العصر الصنهـاجي[39] . وهناك مجموعات يرجع عهدها إلى العصور القديمة من اليهود السّاكنين تحت الخيام والمتـبربرين بصورة تزيد أو تنقص ، وما زالت آثارهم ماثلة للعيان إلى الآن ، لا سيما في منطقة التلّ الأعلى . ورغم سكوت مصادرنا بسبب الغموض الذي يكتنف وجود هؤلاء اليهـود ، فإن ذلك الـوجود لا ريب فيه في العصر الصنهاجي[40] .

ولا غرو أنّ نظام الطائفة اليهودية الإفريقية لم يكن يختلف قطّ عن نظام الطائفة اليهوديّة المصرية المعروفة أكثر بفضل وثائق جنيزة .

وكما هو الشأن بالنسبة إلى مصر والأندلس ، كان رئيس اليهود المقيم في القيروان يسمّى « ناجد » ، وباللغة العربية ، رئيس اليهود . وتشبه صلاحياته التي هي سياسية ودينية في آن واحد صلاحيات بطريرك النصارى في المشرق[41] .

وقد كان معظم رؤساء اليهود بالقاهرة أطبّاء في بلاط الخليفة ، ممّا يسمح لهم باستخدام نفوذهم لصيانة مصالح منظوريهم[42] . ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك في إفريقية . ففي عهد المعزّ بن باديس ، كان طبيبه إبراهيم بن عطاء هو الذي يضطلع بمهمة رئيس اليهود ، ويبدو أن

---

37) رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 83 ظ : تقبّل يهودي خبز السوق . نفس المصدر [طبعة بيروت 501/2-502] : يبدو أن موسى اليهودي التابع لحاشية المعزّ لدين الله كان يهودياً .

38) D. Cazès ، 55 ، 71-72 ، 79-81 ، مجلة الدراسات اليهودية 1890 ، 78-87 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 429/1] ، Objèts Kairouanais ، 209/1 .

39) الشماخي ، 339-340 ، برنشفيك ، نفس المرجع ،

40) ح . ح . عبد الوهّاب المجلة التونسية ، 1917 ، 6 ، مانشيكور ، **منطقة التل الأعلى** ، 301-303 ، برنشفيك ، المرجع المذكور .

41) J. Mann ، Jews ، 123/1-124 ، 144 ، 250-257 .

42) نفس المرجع ، 255/1 .

المدعوّ يعقوب بن عِمران كان يقوم بنفس المهمّة في حدود سنة 426-427 هـ / 1035 م[43] .

وإثر وفاة كافور (357 هـ / 968 م) فرّ إلى إفريقية « تاجره » اليهودي يعقوب بن كلس الذي اعتنق الإسلام حوالي سنة 356 هـ / 965 م على أقصى تقدير ، ودخل في خدمة المعزّ لدين الله الفاطمي سنة 357 هـ / 968 م . وانضمّ إلى اليهود الذين كانوا يدورون في فلك الخليفة . وقد قام بدور بارز في إعداد غزوة مصر ، حيث صاحب مخدومه سنة 362 هـ / 972-973 م . ولم يلبث المعزّ لدين الله أن عهد إليه بإدارة المالية . والجدير بالذكر أن يعقوب بن كلس هو صاحب إصلاح نقدي هامّ ومؤسّس الإدارة الفاطمية . وقد خدم العزيز فيما بعد إلى أن أدركته المنية سنة 380 هـ / 990-991 م[44] . والغالب على الظنّ أن ابن كلس لم يكن المحسوب الوحيد الذي ذهب مع المعزّ إلى القاهرة . أما الإسرائيليّون الإفريقيّون ، فلا نرى لماذا لم يُحِطهم بنو زيري أتباع الفاطميّين ، برعايتهم ، هم أيضاً .

ولا شكّ أن الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للطّائفة اليهودية بالقيروان كانت مواكبة لتألّق مدرستها التلمودية التي سنتناولها بالدرس في الباب الموالي . فقد كان لها مجمعاً يرأسه شخص اسمه « روس كلا » أو « روس » (لا غير)[45] ، ومقبرة[46] وصندوق خيري وعدّة مؤسسات أخرى . وكانت ترسل إعانات لكلٍّ من مجمع صورة ومجمع بمبديثة، وتقوم بدور الوسيط في تحويل الأموال الواردة من الأندلس إلى المجمعَيْن المذكورين . كما كانت تفتدي الأسرى اليهود الذين كانت فديتهم أغلى من فدية الأسرى النصارى[47] .

وكان بعض اليهود يسكنون بجوار المسلمين ويعيشون معهم متكافلين[48] . ويبدو أن حالة ذلك اليهودي الذي صلى ابن تومرت على جثمانه صلاة الجنازة ، عند مروره من تونس ، لأنه كان في حياته يصلّي مثل المسلمين ، لم تكن من الحالات النادرة[49] . ولكن لا شيء يسمح بالتأكيد أن

---

43) نفس المرجع ، 252/1 .

44) Fischel ، Jews ، 51-60 .

45) J. Mann ، المرجع المذكور ، 254/1 ، 277-278 .

46) انظر الفصل الأول من الباب السابع .

47) دائرة المعارف اليهودية ، 414/7-416 : القيروان .

48) فتوى القابسي ، المعيار ، 227/11-228 ، 280/2 ، 413-414 . فتوى السيّوري ، المعيار ، 273/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، الكراس 32 ، 6 ظ ، المختصر ، 152 و . فتوى اللخمي ، المعيار ، 271/8 ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 34 ، 5 ظ ، فتوى المازري ، المعيار ، 206/2-207 .

49) البيذق ، 50 .

عدد اليهود أو النصارى المعتنقين للإسلام كان كبيراً في العصر الصنهاجي . بل إن ما كانوا يتمتعون به من تسامح يدفعنا إلى اعتقاد العكس .

وقد كان اليهود يتعاطون تجارة الأقمشة[50] والزيت[51] . ويبدو أن نقل البضائع كان يتمّ بواسطة الدوابّ المستأجرة يومياً ، والتي يجرّها أصحابها المسلمون[52] . وكان كثير من اليهود أطباء[53] وصائغين وأرباب مال .

وكانت علاقاتهم مع بني قومهم في بقية أقطار البحر الأبيض المتوسط تسهّل المبادلات التجارية الهامّة[54] .

وكان أهل الذمّة ، على الأقلّ من الناحية النظريّة ، خاضعين للواجبات التي يفرضها الفقه الإسلامي . يقول ابن أبي زيد في الرسالة :

« ولا تُبتَدَأ اليهود والنصارى بالسّلام ، فمن سلّم على ذمّي ، فلا يستقيله . وإن سلّم عليه اليهودي أو النصراني ، فليقل : عليكَ ، ومن قال عليك السِّلام بكسر السين ، وهي الحجارة ، فقد قيل ذلك »[55] .

ولما علم أبو عمران الفاسي أن طبيب المعزّ بن باديس اليهودي ابن عطاء « غير مُعْلَم »[57] ، أمر بصبغ طرف عمامته ، باللون الأصفر محالة[57م] . وحسب المازري ، يجب على القاضي أن يفرض على أهل الذمّة حمل العلامات المميّزة لهم ، مثل صبغ أطراف العمائم[58] . ولا يرى

---

50) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 90/1 ظ .

51) فتوى السيوري ، البرزلي ، مخطوط الجزائر ، 41/1 و ، المختصر ، 6 ظ .

52) فتوى ابن أبي زيد ، المعيار ، 165/8 .

53) فتوى المازري ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 239/2 ، مخطوط الرباط ، 88/2 و ، ظ .

54) Max Schloessinger ، دائرة المعارف اليهودية ، J. Mann 416-414/7 ، المرجع السابق ، 204/1 مجلة الدراسات اليهودية ، السلسلة الجديدة ، 162/9 .

55) الرسالة ، 312-313 ، فتوى القابسي ، المعيار ، 227/9-228 .

56) فتوى اللخمي ، البرزلي ، المختصر ، 34 ظ ، الرسالة ، 134-135 .

57) [مُعلَم : أي يحمل العلامة المميّزة لأهل الذمة] .

57م) [معالم الإيمان ، 201/3] ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1935 م ، 53-54 ، الاتعاظ ، 184 رياض النفوس ، مخطوط باريس ، 52 ظ ، مجلة الدراسات الإسلامية ، 1935 م ، 142 ، المعيار ، 51/6 .

58) فتوى المازري ، المعيار ، 206/2-207 ، البرزلي ، المختصر ، 35 و ، : وأوضح السؤال أن هذه العادة صارت مهجورة .

اللخمي ضرورة ارتداء النساء اليهوديات أكسية خاصة بهنّ ، خلافاً للرّجال الذين هم على اتّصال بالمسلمين[59] .

ومن المستبعد أن يكون المدّ السنّي الذي أفضى إلى القطيعة مع القاهرة قد تسبّب في اضطهاد اليهود[60] .

ولما تحصّل يهود القيروان من السلطان ـ وهو على الأرجح باديس ـ على السماح لهم بإتمام بناء بيعتهم ، أبدى القابسي معارضته لهذا المشروع ، ومنع إنجازه . ولكنّه سمح لهم بصيانة المبنى القائم الذات والزيادة في ارتفاع بابه إذا ارتفع مستوى الأرض ، وتهيئته من الداخل حسب مشيئتهم[61] .

ومنذ عصر ابن أبي زيد ، كان « أهل الكتاب » ، أي اليهود والنصارى ، يكلّفون المسلمين بأن يحرّروا ، ربما وفقاً للتراتيب الإسلامية الجاري بها العمل ، شهاداتهم وعقود بيوعاتهم وبالخصوص عقود أنكحتهم ، وإلّا فإن عقودهم تفقد قيمتها الشرعية في نظر المحاكم الإسلامية . ورغم استنكار ابن أبي زيد لهذا التصرف ، فقد أشار على الموثّقين بالإيجاز وإلغاء الصيغ الإسلامية الصِّرف[62] . وفي فترة لاحقة أشارت المصادر إلى حرص بعض اليهود على إحالة واحد منهم على المحاكم اليهوديّة ، بالاعتماد على عقود « بيّنة » يهودية ، ربّما كانت محرّرة بالعبرية أو بالأحرى باللغة اليهودية العربية ، في حين استظهر المدّعي عليه بوثيقة محررة بالعربية من طرف عدول مسلمين ، وطالب بإحالة القضية على قضاة مسلمين . فأجاب المفتي أن القضاء الشرعي هو الذي ينبغي أن يبتّ في القضية ، لا القضاء اليهودي[63] . ولا شكّ أن صلاحيات محاكم الأحبار كانت محدودة

---

59) البرزلي ، المختصر ، 34 ظ .

60) دائرة المعارف اليهودية ، 7/414-416 . تؤكد مع ذلك أن جميع الخارجين عن أهل السنّة بمن في ذلك اليهود وغيرهم قد اضطُهدوا في سنة 436/1045-437 هـ ، في عهد المعزّ بن باديس ، ولكن لم يشر إلى ذلك أي مصدر من المصادر التي بين أيدينا ، ولعل هناك خلط ممكن مع مذابح الشيعة في سنة 407 هـ/1016 م أو سياسية الاضطهاد التي اتبعها الموحّدون ونسبها Benjamin De Tudèle إلى ابن تومرت وحدّد تاريخها بسنة 536-537 هـ/1142 م ، أي قبل استيلاء عبد المؤمن على المغرب الأوسط بنحو عشر سنوات .

61) فتوى القابسي ، إثر فتوى مماثلة لأبي حفص بن العطّار حول الكنائس ، المعيار ، 2/207 ، انظر أيضاً رأي اللخمي حول هذه المسألة ، المعيار ، 2/170-180 .

62) فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 2/46 و ، انظر أيضاً ، ابن ناجي ، شرح الرسالة ، 2/46-47 .

63) فتوى أبي حفص بن العطّار ، المعيار ، 10/42 ، البرزلي ، المختصر ، 117 و .

للغاية . إلاّ أن المصادر قد أشارت إلى وجود قاضٍ من الأحبار (الديّان) في المهدية حوالي سنة 491-490 هـ / 1097-1098 م ، وحتى بعد ذلك التاريخ(64) . ولا شك أن كثيراً من اليهود قد نزحوا مع المسلمين إلى المهدية وتونس والقلعة ، بعد نهب القيروان من طرف الهلاليّين ، وقد زاد ذلك النزوح في عدد اليهود الموجودين في تلك المدن من قبل(65) .

ولما خيّر عبد المؤمن اليهود بين الإسلام والموت اعتنق عدد كبير منهم الإسلام أو تظاهروا بذلك(66) .

وتؤكد بعض الروايات الشفهية أن يهود تونس الذين كانوا يقيمون في قرية الملاّسين خارج أسوار المدينة ، قد سمح لهم محرز بن خلف بالإقامة في حيّ خاصّ بهم مطابق للحيّ المعروف في العصر الحديث « بالحارة » [أو حارة اليهود] . إلاّ أن هذه الروايات مشكوك في صحّتها ، لا سيما وأنّ ليون الإفريقي (المتوفى في تونس سنة 1551 م) قد أكّد أن يهود تونس كانوا يسكنون في ضاحية الملاّسين ، ويعودون إليها كلّ يوم قبل الغروب ، وكان لهم فندق قرب باب البحر . وما زال اليهود في تونس يعتبرون أنفسهم في حماية « سيدي محرز » . ولا ندري متى تمّ بناء البيعة الكبيرة في حارة اليهود بمدينة تونس ، والتي تحمل نقيشة تكاد تكون كتابتها قد زالت تماماً(67) .

---

64) J. Mann ، المرجع السابق ، 264-264/1 .

65) برنشفيك ، المرجع المذكور .

66) زعم Benjamin De Tudèle ، ونقل ذلك Cazés ، 69-70 أن المدعوّ ابن تمورة (كذا) قد أمر باستئصال اليهود من كافة أنحاء إفريقيا حتى المهدية ، وذلك في سنة 536-537 هـ/1142 م ، ولا شك أنّ الأمر يتعلق بابن تومرت الذي خلط المؤلف بينه وبين عبد المؤمن بن علي .

ولعلّ التاريخ المذكور مغلوط . فالجدير بالتذكير أن عبد المؤمن قد استولى على المغرب الأوسط في سنة 547 هـ/1152-1153 م وعلى إفريقية بحصر المعنى في سنة 555 هـ/1160 م .

67) مناقب ، 314-315 والهامش ، 107 ، برنشفيك ، المرجع المذكور [الترجمة العربية ، 448/1] . Cazès ، 75-78 ، Sayous ، 66 .

الباب الثاني عشر
الحياة الفكريّة والفنيّة

الفصل الأوّل
الظروف العامّة

لمّا غادر الفاطميّون إفريقية ، حملوا معهم التراث الثقافي الأغلبي والكتب التي كانت تزخر بها مكتبة بيت الحكمة الشهير . ويبدو أن الوزير اليهودي يعقوب بن كلس قد كان أحد المسؤولين عن هذه العمليّة[1] .

إلاّ أنّ المكتبات الخاصّة قد احتفظت بذخائرها . من ذلك مثلاً أن ابن الجزّار (ت . حوالي سنة 395 هـ / 1004-1005 م) قد ترك بعد وفاته عشرين قنطاراً من المؤلفات الطبيّة وغيرها[2] .

وقد حبّس أهل البرّ والإحسان عدداً كبيراً من المصاحف والكتب على الرباطات والمساجد ، وبالخصوص جامع القيروان[3] . كما حبّس أبو بكر عتيق السوسي على طلبة العلم عدداً كبيراً من الكتب التي أهداها إليه المعزّ بن باديس[4] . وتعلّقت همّة أميرات بني زيري والمعزّ بن باديس بإثراء مكتبة الجامع الأعظم بالقيروان[5] .

---

1) ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، 1 القاهرة 1955 م ، 76 ، ابن خلكان ، 333/2-336 .
2) ح . ح. عبد الوهاب ، نفس المرجع ، 84 (نقلاً عن ابن أُصَيْبع ، **طبقات الأطباء** ، 38/1) .
3) فتاوى ابن أبي زيد والقابسي ، المعيار ، 24/7 ، 197 ، 228 .
4) ح . ح . عبد الوهّاب ، **بساط العقيق** ، 36-39 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 184-185 .
5) انظر ، محمد البهلي النيّال ، مجلة الندوة التونسية ، جانفي - فيفري 1953 .

وقد استوجبت رداءة الخطّ وقلّة المخطوطات[6] وتشويه النّسّاخ للنصوص الاعتماد على الرواية بالإسناد . وهذا ما كان يقع بالضبط بالنسبة إلى القرآن والحديث ، ممّا جعل من الضروري طلب العلم ومخالطة العلماء .

وكانت الإجازة تتمثل في رخصة يمنحها الأستاذ لتلميذه ، ليدرّس ، نقلاً عنه ، الكتب التي نقلها عن غيره أو ألفها هو نفسه[7] . ولدينا عدة أمثلة لإجازات منحها علماء قيروانيّون قبل غزوة بني هلال ، أو بعض رجال العلم الأندلسيين والمشارقة ، عن طريق المراسلة .

وكانت مدّة ولاية المعزّ بن باديس تمثّل العصر الذهبي للخطّ الإفريقي في عهد بني زيري . وقد احتفظ الجامع الأعظم بالقيروان في مكتبته بعدّة نماذج من هذا الخطّ[8] . ونحن نعرف اسم الخطّاطة درّة الكاتبة التي نسخت المصحف البديع المُحبّس على جامع القيروان من طرف فاطمة حاضنة باديس الذائعة الصيت . ويبدو أنها كانت تعمل عند ورّاق يقال له علي بن أحمد الورّاق ، وقد صُنِع المصحف المذكور في مَشْغَله[9] . وكان الحارث بن مروان وابنه يحيى ناسخَيْن عند المعزّ بن باديس[10] . واشتهر بفنّ الخطّ كلّ من إبراهيم بن موسى الماردي أو المارديني وعبد العزيز بن محمد القرشي الطارقي ، الكاتبان في ديوان رسائل الأمير[11] .

ولم نعثر إلاّ على إشارة واحدة[12] حول استعمال الصنهاجيّين في إفريقية للغة البربرية .

---

6) معالم الإيمان ، 191/3 : بلغ ثمن جامع ابن وهب نحو ثلاثمائة درهم ، في عصر أبي علي حسن بن خلدون البلوي (ت . 407 هـ/1016 م) .

7) بالنسبة إلى فترة ما قبل العصر الصنهاجي ، انظر : معالم الإيمان ، 72/3-73 ، انظر أيضاً ، فتوى القابسي ، المعيار ، 228/11 .

8) **نقائش عربية** ، 27/1-38 ، Objets Kairouanais ، في عدة مواضع ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة معهد المخطوطات العربية 1 ، القاهرة 1955 م ، 89 : يحتوي متحف دمشق على مخطوط بديع من كتاب الملخّص مكتوب على الرقّ . وهذه النسخة معاصرة لمؤلف الكتاب ، القابسي (ت . 403هـ/1012 م) . واطّلع ح . ح . عبد الوهّاب على مخطوط كامل من المدوّنة مكتوب على الرقّ ، يرجع عهده إلى القرن الخامس هجري .

9) **نقائش عربية** ، 28/1-33 ، Objets Kairouanais ، 60/1 .

10) **نقائش عربية** ، 37/1 ، انظر أيضاً 36 : مخطوط المدوّنة نسخة عبد الله بن محمد بن قتيبة في سنة 421 هـ/1030 م ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المرجع المذكور ، ص . 85-86 .

11) ح . ح . عبد الوهاب ، نفس المرجع (نقلاً عن الصفدي ، الوافي) : لم يكن للمارديني مثيل في المغرب في الخطّ المعروف باسم « الرياشي الخفي » وكان الطارقي بارعاً في « الخطّ المحلّ من قِدَاح الميسر » . وأشار الغبريني إلى الخطّ الشرقي والغربي والريحاني والتحساني والديواني .

12) الشماخي ، 400 .

فالغالب على الظنّ أنهم تعرّبوا بسرعة ، رغم أنّ من واجبنا الاحتراز من سكوت مصادرنا التي لا يميل أصحابها كثيراً إلى الاهتمام بمثل هذه المسائل .

ومهما يكن من أمر ، فإن غزوة بني هلال التي ألحقت ضرَراً فادحاً بالحضارة القيروانية[13] ، قد كانت مع ذلك عاملاً أساسيّاً من عوامل التعريب .

13) معالم الإيمان ، 252/3 : أشار ابن ناجي إلى الفوضى والانحطاط الثقافي السائد في إفريقية من 500 إلى 550 هـ/ 1106-1156) .

14) ويليام مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1938 ، 23-1 ، 1956 م ، 5-17 : كيف تمّ تعريب شمال إفريقيا .

الفصل الثاني
التعليـــم

ليس من الغريب أن يكون ناشِرَا المذهب المالكي في العصر الصنهاجي ، ابن أبي زيد (ت . 368 هـ / 996 م) والقابسي (ت . 403 هـ / 1012 م) ، قد اهتمّا بتعليم الصّبيان ، فقد قدّم الأوّل كتابه **الرسالة** ، وهو تأليف مدرسي أوّلاً وبالذات ، إلى المؤدب محرز بن خلف ، وألّف الثاني « **الرسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين وأحكام المعلّمين والمتعلّمين** »[1] ، وأصدر عدة فتاوى حول هذا الموضوع .

وإذا صدّقنا ابن خلدون[2] ، فقد ألّف ابن أبي زيد أيضاً كتاباً من هذا القبيل ، ولكنّ هذا الخبر مشكوك في صحّته[3] .

وقد كان الصّبيان يتعلّمون في الكُتّاب القراءة والكتابة وتلاوة القرآن . وكانوا يكتبون الآيات القرآنية على الألواح ، ويرتّلون القرآن بصوت واحد . ويبدو أنّ تعليم مبادىء الفقه للصّبيان لا يبدأ إلاّ بعد الختم الجزئي أو الكلّي للقرآن[4] . وقد أسلفنا أن المالكية كانوا يأنفون من تلقين أيّ شيء غير القرآن لأبناء الخوارج .

ويحثّ الشرع الآباء على توجيه أبنائهم إلى الكُتّاب ، ذكوراً وإناثاً . إلاّ أن القابسي قد أبدى

1) الرسالة المفصّلة متبوعة بدراسة مطوّلة عنوانها . التعليم في رأي القابسي بقلم أحمد فؤاد الأهواني ، القاهرة ، 1364 هـ/1945 م . [الرسالة المفصّلة ، تقديم وتحقيق أحمد خالد ، تونس 1986 م] .
وهذا الكتاب تعديل لكتاب محمد بن سحنون : «آداب المعلمين» ، تحقيق ح . ح . عبد الوهّاب ، تونس 1931 م ، وقد نقله إلى الفرنسية G. Lecomte ، دائرة المعارف الإسلامية ، 1953 م ، 77-105 . وعلى غرار ابن أبي زيد الذي استهلّ رسالته ، 14-27 ، بفصل مخصّص للعقيدة ، بدأ القابسي كتابه بتعريف بعض المفاهيم الدينية ، وهي الإيمان والإسلام والاستقامة والصّلاح .

2) المقدّمة ، طبعة القاهرة ، بلا تاريخ ، 90 .

3) إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 150 .

4) فتوى القابسي ، المعيار ، 8/163-164 ، يجوز أن يتقاضى المعلم أجراً لتعليم الحساب والكتابة والفرائض . البرزلي ، المختصر ، 101 ظ ، رأي أبي حفص بن العطّار حول التعليم

حول تعليم البنت المسلمة الرأي التالي : « وأمّا تعليم الأنثى القرآن والعلم ، فهو حسن ومن مصالحها . فإمّا أن تُعلّم الترسّل والشعر وما أشبهه ، فهو مخلوف عليها . . . وسلامتها من تعلّم الخطّ أنجى لها »[5] . وبطبيعة الحال ينبغي « أن لا يُخلَط بين الذكور والإناث »[6] .

وينهى القابسي عن تعليم الصبيان في المسجد ، « لأنهم لا يتحفّظون من النجاسة »[7] . ويجوز للمؤدّبين كراء محلّ لتعليم الصبيان والاشتراك في ذلك مع بعضهم بعضاً[8] .

ويوصي القابسي المؤدب بأن « يجعل لعرض القرآن يوماً معلوماً ، مثل عشيّة الأربعاء ويوم الخميس »[9] . ويمكنه اللجوء إلى العقوبة البدنية (الضرب) لتأديب الصبيان[10] . ويجوز له أن يأخذ من الآباء أجراً معلوماً على تعليم أبنائهم ، على أن يتمّ الدفع حسب الاختيار ، إمّا مسبّقاً أو في كل شهر أو في كلّ سنة[11] . وتُقدَّم الهدايا إلى المؤدب بمناسبة الأعياد والأختام[12] .

وتتعطّل الدروس على وجه العموم من يوم الخميس بعد العصر إلى يوم السبت صباحاً . ولكن يبدو أن بعض المؤدّبين كانوا يعطّلون الدروس كامل يوم الخميس . وتتراوح عطلة عيد الفطر بين يوم وثلاثة أيام وعطلة عيد الأضحى بين ثلاثة وخمسة أيّام[13] .

« وأمّا بطالة الصبيان من أجل الختم ، فيجوز للمعلّم أن يأذن لهم اليوم ونحوه » . ولكنّ القابسي يرى أنه لا يجوز له أن يأذن لهم أكثر من ذلك ولا أن يتقبّل منهم الهدايا ، إلا بإذن آبائهم .

---

5) القابسي ، الرسالة المفصّلة ، 263-266 ، نقائش عربية ، 2/ عدد 389 ، قبريّة صبيّة توفيّت في سنة 434 هـ/1042 م ولها من العمر ثماني سنوات وتحفظ ربع القرآن . وكان أبوها القيسي طبيباً .

6) القابسي ، المصدر المذكور ، 287 .

7) فتوى القابسي ، المعيار ، 24/7 .

8) فتوى أبي العباس الإبياني (ت . 352 هـ/964 م) وأبي عمران الفاسي (ت . 430 هـ/1038 م) البرزلي ، مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 3/ الكراس 32 : تكوين شركة بين معلّمَيْن أحدهما أعمى . فتوى المازري (ت . 536 هـ/1141 م) ، البرزلي ، نفس المخطوط : كراء دكّانين متحاديَيْن من طرف مؤدّبَيْن .

9) القابسي ، المصدر المذكور ، 287 ، 290 ، مناقب ، 298 .

10) القابسي ، نفس المصدر ، 284-287 ، 312-315 .

11) القابسي ، نفس المصدر ، 270-283 ، 291 ، 302 وما بعدها . فتاوى القابسي ، المعيار ، 214/2 ، البرزلي ، مخطوط الرباط ، 199/2 و ، وما بعدها ، المختصر ، 99 و ، 103 و ، فتوى اللخمي (ت 478 هـ/1085 م) ، المعيار ، 212-213/2 .

12) القاسي ، المصدر المذكور ، 290-291 ، 300-301 ، إدريس ، الأعياد المسيحية ، المجلة الإفريقية ، 1954 م ، 261-276 .

13) القاسي ، نفس المصدر ، 290

كما يستنكر ما جرت عليه العادة « من صنع المعلّمين ، إذا تزوّج رجل أو وُلِد له ، فيبعثون صبيانهم ، فيصيحون عند بابه ويقولون : أستاذنا ! بصوت عالٍ . فيُعطَوْن ما أحبّوا من طعام أو غير ذلك ، فيأتون به معلّمهم ، فيأذن لهم يتبطّلون بذلك نصف يوم أو ربع يوم بغير أمر الآباء »[14] .

ويغادر الطفل الكُتّاب في سنّ البلوغ ، وقد حفظ القرآن وتعلّم القراءة والكتابة ، على وجه الخصوص . ولا شكّ أنّ العائلات الميسورة تكلّف بعض المربّين بتلقين أبنائهم مبادىء العلوم وتكوينهم إلى أن يصبحوا طلبة .

إلّا أنّ الطلبة المعوزين الرّاغبين في مواصلة دراستهم لا يجدون لاستقبالهم معاهدَ من صنف « المدارس » [التي ستظهر فيما بعد في العهد الحفصي][15] .

ويمكن أن نتصوّر أنّ هؤلاء الطلبة كانوا ، قبل التحوّل إلى حلقات دروس الشيوخ ، يتلقّون العلم ، كيفما كان الحال ، بالاعتماد على أنفسهم أو بمساعدة زملائهم الأكبر منهم سنّاً ، ويتردّدون على مجالس رجال الصّلاح .

وعلى وجه العموم ، كان تعليم الشيوخ مجانيّاً ، لأنّ هؤلاء في معظمهم أثرياء . ولا شكّ أن ابن أبي زيد لم يكن الشيخ الوحيد الذي يجود على طلبة العلم ويوفّر لهم المأوى[16] .

---

14) نفس المصدر ، 291 .

15) حول المدارس الحفصية ، انظر ، برنشفيك ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ، [الترجمة العربية ، 376/2] .

16) انظر المفصل الثاني من الباب الحادي عشر : ترجمة ابن أبي زيد .

الفصل الثالث
رجال الأدب

ما فتىء الأدب في شرق الغرب الإسلامي يزدهر أكثر فأكثر في عهد بني عُبَيْد ، ويبدو أنّ رحيل المعزّ لدين الله الفاطمي لم يتسبّب قطّ في تدهوره[1] . ذلك أنّ معظم الشعراء والأدباء لم يصاحبوه إلى القاهرة ، بل بالعكس من ذلك فقد مكثوا في القيروان وغيرها من المدن الأخرى ، متعهّدين الشعلة التي انتقلت إليهم من أسلافهم ، حتى في عهد أمراء بني زيري الذي كانوا مع ذلك مُوَلّين وجوههم قِبَل المغرب . وإن تواصل التقاليد الأدبية المنبثقة عن الثقافة الإفريقية لهو جدير بالملاحظة . فلو كانت تلك التقاليد من المستحدثات الاصطناعية ورهينة الرعاية الملكية ، لما بقيت قائمة الذات . ولكن بما أنها تمثّل صورة من الحضارة القيروانية ، وتستمدّ منها عناصر قواها الحيّة الأساسية ، فلا يسعها إلاّ أن تزدهر معها ، بل أكثر من ذلك ، فإنها ستنجو من الزوبعة الهلالية ، شأنها في ذلك شأن التقاليد الفقهية ، وسوف لا يرجع عليها خراب القرآن بالوبال .

وقد وُلد الشاعر الذائع الصيت ابن هانىء (ت . 362 هـ / 973 م) في إشبيلية ، من أب أصله من ضواحي المهدية . واضطرّ إلى الهجرة من الأندلس إلى المغرب ، وهو يبلغ من العمر سبعاً وعشرين سنة . فقد أنكر عليه أهل إشبيلية مجونه وشغفه بالفلسفة ، وأجبروا أميرهم على إبعاد شاعره المفضّل . وبعدما مدح ابن هانىء القائد جوهر ، ذهب إلى المسيلة ودخل أوّلاً في

1) بالنسبة إلى الفترة السابقة للعصر الصنهاجي نقتصر على ذكر الشاعر أبي القاسم علي الفزاري (ت . حوالي 345 هـ/956-957 م) ، **المنتخب** ، 39-41 ، الصفدي Rendiconti ، 342/25 . **رياض النفوس** [طبعة بيروت ، 302/2 ، 424 ، 475 ، 489 ، 493 ، 498] ، والنحوي أبي القاسم إبراهيم بن الوزّان (ت . 346 هـ/957-958 م) ، **الديباج** ، 91 ، البكري ، 30 ، **أدباء** ، 203/1 ، ابن **قنفطي** ، 172/1-174 ، والشاعر والأديب ابن الراشس (ت . 344 هـ/955-956 م) ، **المنتخب** ، 41-42 ، والشاعرة خدّوج الرصفية (منتصف القرن الرابع هـ) ، **شهيرات التونسيات** ، 52-54 .

وأخيراً فالجدير بالملاحظة أن قسما من الكتب التي جلبها من المشرق الكاتب الشهير أبو علي إسماعيل القالي قد بقيت بالقيروان التي مرّ منها قبل ذهابه إلى الأندلس حوالي سنة 330 هـ/941-942 م ، **أدباء** ، 25/7-33 ، ابن خير ، 395-397 ، 398-400 .

خدمة جعفر بن علي بن حمدون وأخيه يحيى ، ثم في خدمة المعزّ لدين الله الذي بادر إلى إلحاقه بخاصّته . وذهب ابن هانىء إلى مصر مع الخليفة الفاطمي الذي سمح له بعد مدّة قليلة بالعودة إلى المغرب ليأتي بعائلته . ولكنه لقي حتفه ببرقة في طريقه إلى مصر ، وهو يبلغ من العمر ستاً وثلاثين أو اثنتين وأربعين سنة ، وقيل : إنه مات مقتولاً ، وقد كان المعزّ لدين الله يرجو أن يفاخر به شعراء المشرق ، إذ أن ابن هانىء كان متبحّراً في الشعر ، وبفضل متانة لغته وإيثاره للمبالغة وميله إلى الفخامة بل حتى المغالاة ، اعتبره معاصروه « متنّبي المغرب »[2] . وقد عاب عليه أبو العلاء المعرّي « الجلبة اللفظيّة والإغراق في الصنعة مع قلّة المعنى » .

وفسّر بعضهم تحامل المعرّي على ابن هانىء بتعصّبه المفرط لأبي الطيّب . ونحن نفضّل هذا الحكم المتزّن الذي أصدره في شأنه ابن شرف[3] :

« أما ابن هانىء فَرَعْدِيّ الكلام ، سرديّ النظام ، متين المباني ، غير مكين المثاني ، تجفو بِعَطْنها عن الأوهام ، حتى تكون كنقطة النظام . إلاّ أنه إذا ظهرت معانيه ، في جزالة مبانيه ، رمى عن منجنيق ، يؤثّر في النيق ، وله غزل قفريّ لا عذريّ ، لا يقنع فيه بالطُّيْف ، ولا يشفع بغير السّيف . وقد نوّه به ملك الزاب ، وعظّم شأنه بأجزل الثواب ، وكان سيف دولته في إعلاء منزلته ، من رجل يستعين على صلاح دنياه ، بفساد أخراه ، لرداءة عقله ورقّة دينه ، وضعف يقينه . ولو عقل لم تضق عليه معاني الشعر ، حتى يستعين عليها بالكفر » .

وكان علي بن يوسف الإيّادي التونسي[4] (ت . 365 هـ / 976 م) من كبار شعراء

---

2) كان ابن هانىء معاصراً لأبي الطيب المتنبي .

3) رسائل الانتقاد ، تحقيق ح . ح . عبد الوهّاب ، طبعة دمشق ، 1911/1329 ، ص 22 ، طبعة بيروت ، 1983 م ، ص 36 .

مسائل الانتقاد ، نشر وترجمة شار بلاّ ، الجزائر ، 1953 ، ص 40-43 ، 110 .

وحول أبي القاسم محمد بن إبراهيم بن هانىء الأندلسي الأزدي ، انظر أيضاً : بروكلمان ، 91/1 ، دائرة المعارف الإسلامية (ابن الشنب) ، 406/2 ، أدباء ، 92/19-105 ، ابن خلكان ، 5/2-4 ، المقري ، 364/2-367 ، التكملة ، 350/1 ، ابن بسّام ، 180/1-4 ، الصفدي 1/ عدد 240 ، 352-355 ، النجوم ، 67/4-68 ، المعزّ ، 225-230 ، المنتخب ، 42-46 ، النيفر ، عنوان الأريب ، 29/1-31 ، برنشفيك ، تحية ديمبيس ، القاهرة ، 1935-1945 م ، 152 ، العمري ، مخطوط باريس 72327 و ـ 18 .

[انظر كذلك ، محمد اليعلاوي ، ابن هانىء المغربي الأندلسي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1985 م] .

4) العمدة ، 71/1 ، الحصري ، زهر الآداب ، 234/1 ، ابن شرف ، رسائل الانتقاد ، تحقيق ح . ح . عبد الوهّاب ، ط . دمشق ، 14 ، 22 ، مسائل الانتقاد نشر وترجمة بلاّ ، 43 ، 108 ، بساط العقيق ، 30-31 ، المنتخبات ، 46-49 ، شهيرات التونسيات ، 40 ، ابن رشيق ، قراضة الذهب ، مخطوط باريس 3417 ، 50-51 .

إفريقية . وقد التحق بخدمة الدولة العبيدية . وقال عنه ابن شرف عندما عرّف به :

« وأما عليّ التونسي ، فشعره المورد العذب ، ولفظه اللؤلؤ الرطب ، وهو بحتري الغرب ، يصف الحَمام ، فيروق الأنام ، ويشبّب ، فيُعشّق ويُحبّب ، ويمدح ، فيَمنَح أكثر ممّا يُمنَح »[5] .
ونحن نعرف أسماء بعض الشعراء المقلّين الذين توفّوا في نهاية القرن الرابع هجري[6] .

وكان أبو عبد الله محمد بن عبدون الورّاق السوسي[7] (ت . حوالي سنة 400 هـ / 1010 م) ، وهو ابن أحد أعيان القيروان المستقرّين بسوسة ، شاعراً رقيقاً ، يتميّز شعره بعذوبة اللفظ . وإثر وفاة زوجته وابنته قصد جزيرة صقلية سنة 393 هـ / 1002-1003 م والتحق بأميرها ثقة الدولة الكلبي الذي عهد إليه بتربية ابنه جعفر ، ثم عاد الشاعر إلى مسقط رأسه سوسة وتوفّي بها .

أما شاعر باديس عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي[8] (ت . 405 هـ / 1014-1015 م) ،

---

5) ابن شرف ، مسائل الانتقاد ، نشر بلاّ ، ص 43 .

6) نظم كلّ من ابن خاقان النحوي وابن مازن قصيدة في رثاء الفقيه ابن أخي هشام (ت . 371-373 هـ/981-983 م) ، المدارك ، 2-228/3 و ، الهادي روجي إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1956 م ، 356 .

وصرّح ياقوت (البلدان ، 219/8) أنه اطلع على نسخة من كتاب أحمد بن محمد سعيد الميّانشي ، كتاب النقائد بين جرير والفرزدق ، مكتوبة بخطّ المؤلف بالقاهرة سنة 381 هـ/991-992 م .

وتحوّل أحمد بن حبيب القيرواني إلى الأندلس للجهاد وتوفي بها قبل سنة 400هـ/1009-1010م، التكملة، تحقيق ابن الشنب ، 156 ، عدد 319 . وحول ابنه أبي حبيب عبد الرحمان الذي وُلد بالمحمّدية (المسيلة) وذهب مع أبيه إلى الأندلس وهو صغير السنّ ، انظر التكملة ، 2/ عدد 1647 الكتبي ، 251/1 ، الصفدي ، المصدر المذكور ، 601/22 ، العمري ، مخطوط باريس 2327 ، 100 و ، 101 ظ .

وانتقل أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عمر المغربي النحوي من المغرب إلى مصر حيث توفي قبل سنة 400 هـ/1009-1010 م ، بروكلمان ، الذيل ، 202/1 ، الصفدي ، 376/2-377 عدد 848 .

ونشير أخيراً إلى أن أبا الوليد محمد بن محمد بن الحسن الزبيدي ، ابن مؤلف مختصر كتاب العين للخليل بن أحمد ، قد مرّ من القيروان ، الحميدي ، 36 ، 242 ، عدد 4 و 546 .

7) التجاني ، 27-38 ، الحلل ، 120/1-122 ، المنتخب ، 54-55 ، عنوان الأريب ، 48/1-49 ، العمري مخطوط باريس ، 100 و ، ظ ، الصفدي ، 205/3-207 ، عدد 1187 .

8) العمدة ، 58/1-59 ، 71 ، 76 ، 78 ، 82 ، 125 ، 138 ، 17/2 ، 228 ، الحصري ، 221/1 ، 371/2 ، 174/3 ، ابن منظور الإفريقي ، نثار الأزهار ، 36 ، 81 ، العمري مخطوط باريس ، 77 و78 ظ ، المنتخب ، 51-52 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، عبد الكريم النهشلي ، مجلة البدر التونسية ، 542/2-547 ، أحمد أمين ، ظهر الإسلام 1 ، القاهرة 1946 م ، 304-305 ، 306 . [انظر أيضاً ، المنجي الكعبي ، النهشلي القيرواني ، الدار العربية للكتاب ، تونس ـ ليبيا ، 1978 م] .

فهو من المحمّدية (المسيلة) التي ربّما لم يفارقها إلاّ قبل مدّة قليلة من وفاته بالمهديّة . وقد كان عارفاً باللغة والشعر ، خبيراً بأيام العرب . ولكنه لم ينظم إلاّ مقطوعات صغيرة من الشعر ، ولم يهج قطّ . ومهما كانت روعة شعره ، فإنه جدير بأن يسترعي انتباهنا على وجه الخصوص بوصفه مؤلف كتاب في فنّ الشعر يحمل عنوان « الممتع » . وتدلّ المقتطفات العديدة التي نقلها ابن شرف من ذلك الكتاب على ما كان يتمتع به من رقّة تحليل ورجاحة رأي ، هذا الناقد الفذّ الذي كان صاحب « العمدة » مديناً له بالكثير من معارفه . وقد ظهر في هذا الميدان بمظهر الرائد ، إلاّ أن المقاطع القليلة التي وصلتنا من مؤلفاته لا تسمح لنا من سوء الحظّ بتقدير إبداعه وتأكيد مدى تأثيره في ابن شرف .

وكان ابن أبي سهل الخشني[9] (ت . 406 هـ / 1015-1016 م) ـ حسب ابن شرف الذي كان أحد تلاميذه ـ « مشهوراً باللغة والنحو جدّاً مفتقراً إليه فيهما ، بصيراً بغيرهما من العلوم . ولم يُرَ ضرير أطيب منه نفساً ولا أكثر حياءً ، مع دين وعفّة ، يكلّمه التلاميذ فيحمرّ وجهه خَجَلاً . وكان شاعراً مطبواعاً يلقي الكلام ويسلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطف التركيب ، وقرب مآخذ الكلام ، ولا غنىً لأحد من الشعراء الحذّاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه أخذاً للعلم عنه واقتباساً للفائدة . وكان نصير الدولة (باديس) عارفاً بحقّه مقرّباً له ، مقبلاً عليه . لزمه بالقيروان مَغرَم ، فترك بسببه ألوف الدنانير »[9م] .

وشتّان بين هذا الشاعر وبين عبد الرحمان الفِراسي[10] (ت . 408 هـ / 1017-1018 م) الذي « كان شاعراً شرّيراً ، كثير المهاجمات ، قليل المداراة ، خبيث اللّسان ، وتوفّي بسوسة ، سقط من سطح وتردّى ، وعمره نحو الثمانين عاماً »[10م] .

وكان بكر بن علي الصابوني[11] (ت . 409 هـ / 1018-1019 م) « شاعراً مطبوعاً حلواً ،

---

9) أبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير ويدعى أحياناً البقّال ، ابن قنفطي ، 178/2-180 عدد 394 ، العمدة ، 124/1 ، ظهر الإسلام 305/1 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، مجلة البدر التونسية ، 181-182 ، العمري ، مخطوط باريس ، 88 و ، ظ ، 79 ظ ، 80 و ، السيوطي ، البغية ، 308 ، الصفدي ، نكت الهميان ، 194 .

9 م) [ابن رشيق ، أنموذج الزمان ، تحقيق محمد العروسي المطوي والبشير البكوش ، تونس 1986 م ، ص 158-159] .

10) الكتبي ، 261/1-262 ، المنتخب ، 57-58 ، العمري ، مخطوط باريس ، 109 ظ .

10 م) [ح . ح . عبد الوهّاب ، مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص 114] .

11) الكتبي ، 80/1 ، بساط العقيق ، 23-24 ، العمري ، م ، باريس ، 118 ظ ، 119 و ، الصفدي ، الوافي ، مخطوط =

صاحب نوادر ومقالعة وهجاء خبيث ، وأقدر الناس على مهاترة وبديهة ، وهو مع ذلك نقيّ الشيبة والثياب ، حسن الصمت والخطاب »(11م) . وهو من الشعراء الذين مدحوا نائب الأمير ، عبد الله بن محمد الكاتب المعروف بالمختال .

وكان محمد بن عبد الله الناجحون الضرير(12) « شاعراً كفيفاً من أبناء القيروان ، يسرد جميع ديوان أبي نواس ويقرأ القرآن بروايات ويعلّم الصبيان . ولم يكن له صبر على النبيذ . وجرت له واقعة في النبيذ كادت تأتي على نفسه ، فقال [المجتث] :

ما للنبيذ وما لي ... أليس عنه محيصُ
قد بعت رأسي بكأس ... وذاك بيع رخيصُ

أُطعِم طعاماً فمات منه مبطوناً سنة أربع عشرة وأربعمائة (1023-1024 م) مشرفاً على الستين واتّهم به جماعة مما كان هجاهم »(12م) .

ويُعَدّ القزّاز (345-412 هـ / 956-957 هـ / 1021-1022 م) من مشاهير أدباء إفريقية في العصر الصنهاجي . وُلد في القيروان ورحل إلى المشرق لطلب العلم ، فتتلمذ إلى عدد من الشيوخ نخصّ بالذكر منهم الآمدي تلميذ ابن دريد والأخفش . وأقام مدّة طويلة بمصر والتحق فيها بخدمة الفاطميين ثم رجع إلى القيروان ، على الأرجح بعد وفاة العزيز (386 هـ / 996 م) ، ودرس بها اللغة والأدب ، وقد أخذ عنه ابن رشيق وابن شرف ويعلى الإرسي وابن الربيب وعبد الرّحمٰن المطرّز بن أبي طالب ، بقطع النظر عن الأندلسيّين . وهو مؤلف عدة كتب نخصّ

جامع الزيتونة تونس ، 77/9 (نُشِرت مقتطفات منه في جريدة تونس) . وقد ألّب القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم على المدعو أبي بكر بن الوسطاني الذي اضطرّ إلى الهجرة إلى مصر .

11 م) [الأنموذج ، 94] .

12) الناجحون الأعمى محمد بن عبد الله ، العمري ، م . باريس 123 ظ ـ 124 و ، الصفدي ، 342/3 عدد 1411 .

12 م) [الأنموذج ، 387-388] .

13) أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي المعروف باسم القزّاز ، ابن خلكان ، 514/1-515 ، أدباء ، 105/18-109 ، 37/19 ، 111/8، الصفدي ، 304/2-305 ، عدد 746 ، العمدة ، 43/1 ، 48 ، 68 ، 110 ، 115-121 ، 45/2 ، 63 ، 69 ، 150 ، 191 ، 238 ، العمري ، م . باريس ، 130 ظ ، 132 و ، ابن خير ، 362/1-363 ، التكملة تحقيق ابن الشنب ، 163 ، عدد 340 ، المقري ، 374/1 ، السيوطي ، البغية ، 29 ، الحلل ، 102/1-103 ، بروكلمان ، الذيل ، 539/1 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، القزّاز ، مجلة الثريّا التونسية ، أوت ـ سبتمبر ، 1944 م ، ظهر الإسلام ، 304/1 ، عنوان الأديب ، 39/1-40 ، مخلوف ، 480/1-481 ، وقد سار ابن القزّاز عبد الله على منوال أبيه ، وحول مكّي بن أبي طالب ، انظر ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 152-153 .

بالذكر منها : **جامع اللغة** ، وهو معجم ضخم يشبه **التهذيب** للأزهري ، اعتمده كل من صاحب **لسان العرب** و**القاموس المحيط** ، وكتابَيْن في اللغة هما **المثلّث** و**العشرات** ، و**كتاب الحروف** ، وهو كتاب في النحو مبوّب حسب حروف الهجاء ، يحتوي على نحو ألف صفحة ، ألّفه بطلب من الخليفة الفاطمي العزيز ، ودراسة حول الضاد والظاء و**كتاب التعريض فيما يدور بين الناس من المعاريض** ، (**أو التعريض والتصريح**) ، وكتاب **ضرائر الشعر** ، وشرحَيْن ، أوّلهما على **مقصورة** ابن دريد المشهورة ، وثانيهما على رسالة في البلاغة ، ودراسة حول أخطاء المتنبي وأخرى حول « أبيات المعاني » لنفس الشاعر[14] ، وكتاباً في العلوم السياسية يحمل عنوان **أدب السلطان والتأدّب** ، وكتاباً غريباً حول العبيد يحمل عنوان **الحيلة والشيات** .

وقد قال ابن رشيق في صفحة مفعمة بعواطف التمجيد لشيخه الموقّر : « كان الغالب عليه علم النحو واللغة والافتنان في التأليف الذي فضح المتقدّمين وقطع ألسنة المتأخرين . وكان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصّة الناس ، محبوباً عند العامة . . . وكان له شعر جيّد مطبوع مصنوع ، ربّما جاء به مفاكهة ومما لحة من غير تحفّز ولا تحفّل ، يبلغ بالرفق والدعة على الرحب والسعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشعر من توليد المعاني وتوكيد المباني ، علماً بمفاضل الكلام وفواصل النظام » .

وبعدما أورد ابن رشيق عدّة نماذج من شعر القزّاز ، لا سيما بعض المقطوعات القصيرة ، قال : « وشعر أبي عبد الله أحسن ممّا ذكرت ، لكنّني لم أتمكّن من روايته ، وقد شرطت في هذا الكتاب أنّ كل ما جئت به من الأشعار على غير جهة الاختيار »[15] .

وكان أبو إسحاق إبراهيم الحصري[16] (ت . 413 هـ / 1022-1023 م) أوّلا وقبل كل شيء راوية من رواة الشعر والأدب ، اشتهر بكتابه **زهر الآداب** الذي ألفه بطلب من أحد كتّاب ديوان الرسائل أبي الفضل العباس بن سليمان . وعلى غرار منافسه الأندلسي ابن عبد ربّه (ت.

---

14) وحول موقف الأدباء القيروانيين (القزاز وابن رشيق وابن شرف) من المتنبي ، انظر ، بلاشير : **شاعر من القرن الرابع هجري** ، المتنبي ، باريس 1935 م ، 291-293 .

15) ابن خلكان ، 515/1 ، نقلاً عن الأنموذج [ص 365-369] .

16) أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن تميم الأنصاري الحصري ، ابن خلكان ، 13/1-14 ، **أدباء** ، 94/2-97 ، **الحلل** ، 98/1-99 ، ابن خير ، 380/1 ، الضبّي ، 209 عدد 516 ، المقري ، 374/1 ، **المنتخب** ، 60-62 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة الثريا ، أكتوبر 1944 م ، **بساط العقيق** ، 51-52 ، بروكلمان ، 314/1 ، **عنوان الأريب** ، 43/1-44 ، **ظهر الإسلام** ، 306/1-307 ، العمري ، م . باريس ، 87 و ، 88 و .

328 هـ / 940 م) ، اقتصر على المؤلفين الشرقيّين وأهمل المغاربة . وقد وضع تلخيصاً لكتابه المذكور وألّف كتابين آخرين ، وكتيّباً في أعمال المغنّيات .

قال عنه ابن رشيق : « وقد كان أخذ في عمل « طبقات الشعراء » على رُتَب الأسنان ، وكنت أصغر القوم سنّاً ، فصنعت [سريع] :

رفقاً أبا إسحاق بالعالم حصلت في أضيق من خاتم
لو كان فضل السبق مندوحة فُضِّل إبليس على آدم

فلمّا بلغه البيتان أمسك عنه »[16م] .

« وكان شبّان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، وهو رأس عندهم وشرف لديهم . . . وكان شاعراً نقّاداً ، عالماً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحبّ المجانسة والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبّهاً بأبي تمّام في أشعاره ، وتتبّعاً لآثاره ، وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيّته لجرى جري الماء ورقّ رقّة الهواء »[17] .

ومن بين شعراء بلاط الأمير الشاب المعزّ بن باديس ، كان أبو بكر عتيق المجدولي[18] شاعراً خبيثاً معجباً بنفسه . وكان يختلق الكلمات أحياناً ، ويستشهد ببيت من الشعر ، مدّعياً أنه اقتبسه من كتاب لم يسمع به أحد قطّ .

وكان خلف بن أحمد[19] (ت . 414 هـ / 1023-1024 م) شاعراً موهوباً ، رحل إلى القاهرة بعدما درس الأدب في إفريقيّة ، وتوفّي في زويلة عن سنّ تناهز المائة .

وفي سنة 415 هـ / 1024-1025 م ، توفّي عبد الله بن محمد الجراوي ، وهو شاعر أشاد ببني باديس[20] .

---

16 م) [الأنموذج ، 48-49] .

17) [نفس المصدر ، 46] ، أدباء ، 95/2 ، الهامش 1 .

18) أبو بكر عتيق بن عبد العزيز المذحجي المجدولي أصيل بلدة مجدول بمنطقة قمّودة ، توفي وعمره 40 سنة ، البلدان ، 388/7 ، العمري ، م . باريس ، 112 ظ ، 113 و .

19) أدباء ، 65/9-66 ، الصفدي الوافي (نشرت مقتطفات منه في جريدة تونس) ، وقد لُقّب الشاعر بالسعدي (نسبة إلى السعديّين وهي قرية في ضواحي المهدية) .

20) البيان ، الترجمة ، 407/1 ، الإحالة 1 ، العمري ، م . باريس ، 89 ظ ، 90 و ، الصفدي ، Rendiconti ، 232/23 : خصّصت فقرة للشاعر عبد الله بن إسماعيل بن أبي إسحاق الحسني الصفاقسي (توفي سنة 415 هـ/1024-1025 م) على الأرجح في صفاقس اعتماداً على نسبته .

وبرزت موهبة ابن زنجي الكاتب[21] (ت . 416 هـ / 1025-1026 م) من خلال قصيدة صنعها في « قتلة الشيعة وقدّمها القزّاز على جميع ما صنع النّاس كلّهم »[21م] .

وكان الرقيق[22] ، الكاتب والدبلوماسي ومؤرخ الدولة الصنهاجية ، من فحول الشعراء وكبار الأدباء . وقد مدح مخدوميه وفي مقدّمتهم نائب الأمير محمد بن أبي العرب . قال عنه ابن رشيق : « هو شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف الطبع قويّه ، تلوح الكتابة على ألفاظه ، قليل صنعة الشعر ، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق النّاس »[22م] .

ومن أشهر مؤلّفاته : **كتاب النساء وكتاب الأغاني وكتاب الراح والارتياح ، وقطب السرور في أوصاف الخمور ، ونظم السلوك في مسامرات الملوك .**

وكان أبو الحسين الكاتب[23] (ت . 418 هـ / 1027-1028 م) ينتمي إلى أسرة من كتّاب ديوان الرسائل والشعراء . وقد نظم قصائد في مدح والي إفريقية محمد بن أبي العرب .

وتوفّي الشاعر الأربسي[24] تلميذ القزّاز ، في القاهرة سنة (418 هـ / 1027-1028 م) عن سنّ تناهز الستين .

---

21) العمري ، م . باريس ، 95 ظ ، 96 و ، الصفدي ، الوافي ، 292/2 (نُشرت مقتطفات منه في جريدة تونس) ، إدريس ، تحية ماسينيون ، 342/2 . وقد ذكر أحياناً باسم ابن يحيى وأحياناً باسم أبي الحسن الكاتب (النويري ، 135/2) . ويبدو أن اسمه الكامل هو : أبو الحسن علي بن يحيى الكاتب المعروف بابن زنجي ، توفي في صقلية عن سنّ تفوق الخمسين ولا نعلم أي شيء عن ابن الورّاق وابن جرمون اللذين نظما مع ابن زنجي قصائد في رثاء أبي علي حسن بن خلدون البلوي (ت . 407 هـ/1016 م) .

22) أبو القاسم إبراهيم بن القاسم الكاتب المعروف باسم الرقيق ، بروكلمان ، 155/1 (161) الذيل ، 252/1 ، المنتخب ، 62-64 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، مجلة البدر ، عدد 2 ، 395-400 ، أدباء ، 216/1-226 ، العمري ، باريس ، 101 ، ظ ، 103 ظ ، خِطط ، 370/1 ، البيان ، 264/1 ، المقري ، 71/1 ، 128/4 ، 129 ، 131 ، الصفدي ، E. Amar ، المجلة الأسيوية ، مارس - إفريل 1912 م ، 259 ، ابن حماد ، الترجمة ، 74 ، الإحالة 3 ، البربر 292/1 الإحالة 3 ، مقديش ، 130/1 ، المعيار ، 89/10-91 ، ستورا ، 39/1 ، مائوية أماري ، 454/2-574 .

22 م) [الأنموذج ، 55] .

23) أبو الحسين محمد بن إسماعيل بن إسحاق الكاتب المغربي ، الصفدي ، 214/2-216 ، عدد 604 ، العمري م . باريس ، 85 ظ ، 86 ظ .

24) يعلى بن إبراهيم الأربسي ، أدباء ، 105/18-106 ، البلدان ، 171/1 ، العمري ، م . باريس ، 78 ظ . 81 و .

وتوفّي في القاهرة أيضاً في نفس تلك السنة الصرائـري[25] المشهور بشعره الهجائي ، مثل معاصره ابن حجّاج البغدادي[26] .

وكان العطّار[27] (ت . بعد سنة 400 هـ / 1009-1010 م) شاعراً حاذقاً ، رقيقاً . قال عنه ابن رشيق : « هو شاعر حـاذق نقيّ اللفظ جدّاً ، لـطيف الإشارات ، مليـح العبارات ، صحيح الاستعارات ، على شعره ديباجة ورونق يمازجان النفس ، ويملكان الحسّ . وفيه مع ذلك قوّة ظاهرة تأتي في أماكنها في المدح وصفات الجيوش ، ولم أرَ عُطارِديّاً مثله لا ترى عينه شيئـاً إلّا صنعته يده .

وكان الأمير حسن (أو حسين) بن ثقة الدولة قد أراده للكتابة بعد أن استشار الحذّاق فدلّوه عليه . ولكن حال بينهما رجوع حسن إلى مصر .

وكان له عند عبد الله بن حسن[28] بمدينة طرابلس حال شريفة وجراية ووظيفة إلى أن نازعته نفسه إلى الوطن ، فتخلّص على غَرَر ، ووصل على خطر »[28م] . وربما كان رجوعه إلى القيروان بعد ارتقاء مخدومه إلى منصب الوزارة في عهد المعزّ بن باديس (407 هـ / 1016 م) .

ولا نعرف إلّا شيئاً قليلاً عن الشعراء الشيعة ومنهم البحجور. . .[29] .

أمّا إسحاق بن إبراهيم ، فقد قال عنه ابن رشيق : « كان رافضيّاً سبّاباً . وكان اعتماده في الشعر على أبي القاسم بن هانىء ، وله كان يتعصّب ، وإن جانب طريقته ولم يسلكها »[30] .

وتولّى ابن الربيب[31] (ت . 420 هـ / 1029-1030 م) القضاء برهة من الزمن في مدينة

---

25) أبو الحسن محمد بن أحمد بن خليفة المعروف بالصرائري ، الصفدي ، 61/2-63 ، عدد 354 ، البلدان ، 376/2-377 ، العمري ، م . باريس 109 و ، 109 ظ ، وهو أصيل مدينة تونس .

26) التجاني ، 58 والعمري .

27) عبد الله بن محمد الأزدي المغربي المعروف باسم العطّار ، الكتبي ، 235/1-236 (وقد ادّعى خطأ أنه توفي سنة 600 هـ) التجاني ، 53-58 ، العمري ، م . باريس ، 41 ظ ، 43 و .

28) الكتبي (نصّ مغلوط : عبد الله بن حسين) .

28 م) [الأنموذج ، 198] .

29) إدريس ، تحية ماسينيون ، 338/2 .

30) الصفدي ، الوافي (نقلاً عن الأنموذج لابن رشيق) [ص 78] .

31) أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد التميمي النحوي اللغوي النسّابة الإفريقي المعروف بابن الربيب والقاضي التاهرتي ، توفي عن سنّ تفوق الخمسين ، ابن قفطي ، 318/1-319 ، السيوطي ، البغية ، 230 ، العمري ، م . باريس ، 93 و ، ظ . المنتخب ، 64-65 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة العرب التونسية ، 303-306 ، الحميدي ، 273 عدد 658 ، =

تاهرت ، مسقط رأسه ، « ثم طلب العلم بالقيروان . وكان أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوي (القزّاز) معنيّاً له محبّاً له ، فبلغ به النهاية في علم الأدب والخبر والنسب ، وله في ذلك تأليف مشهور . وكان خبيراً باللغة ، شاعراً مقدّماً ، قويّ الكلام يتكلّفه بعض التكلّف »(31م) .

وقد التحق ابن الربيب بخدمة بني أبي العرب(32) ، ومدح محمّد بن أبي العرب . ونقل عبد الكريم النهشلي قسماً كبيراً من شعره ، وخصّص له ابن رشيق فصلاً طويلاً أورد فيه عدة مقطوعات من شعره .

واشتهر هذا الشاعر بالخصوص بالرسالة التي وجّهها إلى الأندلسي أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد (بن عبد الرحمان)(33) بن سعيد بن حزم (ت . بطليطلة 438 هـ / 1046-1047 م) ، وأشار فيها إلى تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلائهم وسيرة ملوكهم . وقد أجابه مخاطبه برسالة طويلة(34) . كما ردّ على مكتوبه ابنُ عمّ مخاطبه المذكور ، المجادل الشهير ابن حزم (أبو محمّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفّى سنة 456 هـ / 1064 م) . ويتّضح من ذلك أن أحد أبناء القيروان هو الذي حثّ أهل الأندلس على إدراك قيمة تراثهم الثقافي . فلئن قام ابن الربيب فعلاً بهذا العمل ، فهو يستحقّ أن يتبوّأ مكانة مرموقة في تاريخ الغرب الإسلامي .

وحسب ابن رشيق ، كان ابن غانم الكاتب(35) (ت . 421 هـ / 1030 م) ، « شاعراً كنانيّ الشعر ، لطيف الألفاظ ، نظيفها ، رشيق المعاني ، وجيزها ، قليل المدح والهجاء ، كَلِفاً بالمواعظ في نظمه . كان توجّه إلى مصر وأقام بها مدّة ثم عاد وتوفّي بالقيروان »(35م) .

أمّا ابن عطيّة الكاتب(36) ، « فهو شاعر ذكيّ ، متوقّد ، سلس الكلام ، تطيعه المعاني

ابن بسام ، 1-110/1-147 ، المقري ، 4/151-155 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 2/407 شارل بلّا ، مجلة الأندلس ، 19 ، مدريد 1954 م ، 53-102 .

32) قدمه إليهم عبد المجيد بن مهذّب وأبو بهلول بن شريش اللذين لا نعلم عنهما أيّ شيء .

33) زيادة من الحميدي ، 273 ، عدد 658 .

34) نشر ابن بسّام (1-113/1-116) مقتطفات من هذه الرسالة ولم يذكر جواب ابن حزم الذي أشار إليه المقري ، 4/154 ، 155 .

35) أبو إسماعيل إبراهيم بن غانم بن عبدون الكاتب القيرواني ، المنتخب ، 66-67 ، **نقائش عربية** ، 1/26 ، الإحالة 3 ، العمري م . باريس ، 106 ظ ، 105 و .

35م) [**مجمل تاريخ الأدب التونسي** ، 127] .

36) أبو عبد الله محمد بن عطيّة بن حيّان الكاتب ، **بساط العقيق** ، 51-52 ، الصفدي ، 4/95-97 عدد 1575 ، العمري ، م . باريس ، 103 ظ ، 104 و ، ح . ح . عبد الوهّاب ، فصل منشور في مجلة العرب التونسية ، 182-184 (وقد

وينساغ له التشبيه ، وتحضره البديهة . وهو صاحب إبراهيم (الرقيق) في كتابة الحضرة ومن أبناء الكتّاب وأهل الخدمة قديماً »[36م] . وقد عمل في خدمة باديس[37] وابنه المعزّ ، بلا ريب .

هذا وإنّ ما ناله ابن أبي الرجال[38] (ت . 426 هـ / 1034-1035 م) من مجد في علم الفلك ، لا ينبغي أن يحجب عنّا ما قام به من دور في تطوير الأدب الإفريقي وذيوع صيته . وهو ينحدر من أسرة قويّة النفوذ في مدينة تاهرت ، وقد تربّى في القيروان وأصبح رئيس قلم الإنشاء في عهد باديس الذي عهد إليه بتربية ابنه المعزّ .

ويبدو أنه قد أثّر تأثيراً بالغاً في سير شؤون الدولة ، وكان في الدرجة الرفيعة من معرفة الأدب وصناعة الشعر . وقد علّق ابن رشيق على أبيات نظمها ابن أبي الرجال في التشوّق إلى أهله بالقيروان ، وكان بتاهرت ، فقال : « لو أن أعرابيّاً تذكّر نجداً فحنّ به إلى الوطن ، أو تشوّق فيه إلى بعض السّكن ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا المُوَلّد الحضري المتأخّر العصر »[39] .

ولئن كان ابن رشيق الذي عمل تحت إمْرَته قد ألّف باسمه كتابه الشهير العمدة ، فلا غرابة في ذلك[40] . إذ كان ابن أبي الرجال يشجّع الكتّاب والشعراء بالعطايا الطائلة ويأخذ بناصرهم . وقد تسبّب ثراء أسرته وكرمها في تلقيبها بلقب « برامكة إفريقية » ، ونحن نعرف اسم ابنه محمود الذي خلفه في خطّته[41] .

واشتهر أبو زكريّاء الشقراطسي[42] (ت . 429 هـ / 1037-1038 م) بالأدب في مدينة توزر .

وطوال عهده الذي دام أربعين سنة ، ما فتىء المعزّ بن باديس يسهّل على العلماء والأدباء

= استشهد فيه بالصفدي ، الوافي ، ج 3 ، وابن منظور الإفريقي ، وكتاب سرور النفس . . . وشرح شواهد التلخيص ، 169/1) .

36 م) [**الأنموذج** ، 396] .

37) كان الأمير يتناول النبيذ ذات ليلة فوق ربوة مطلّة على معسكر جيشه ، فطلب إلى ابن عطية الكاتب أن يصف له هذا المشهد .

38) انظر الفصل الخامس من هذا الباب : العلوم .

39) [**مجمل تاريخ الأدب التونسي** ، ص 127] .

40) **العمدة** ، 87/1 .

41) انظر الفصل الرابع من الباب الثامن : ديوان الرسائل .

42) أبو زكرياء يحيى بن علي الشقراطسي القرشي ولد صاحب **الشقراطسية** الشهيرة ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 153 ، وتحيّة جورج مارسي ، 2/95-97 .

النزوح إليه ، فكان يحيط به زهاء المائة شاعر[43] . وكان مولعاً بالتحدّث إليهم في شؤون اللغة والأدب . ونحن نعرف أسماء عدد منهم .

وقال ابن رشيق عن الكمّوني[44] إنّه « شاعر فصيح الألفاظ ، حسن التقسيم ، جيّد الترسيم ، جزل الشعر ، ظاهر البلاغة ، عالم بأسرار الكلام ، إذا ركّب معنى أجاده ، وله في المعاتبات مذهب مليح »[44م] . وله قصائد مشهورة بالقيروان ، أوحى بها إليه عشقه للغلمان .

وكان الماردي (أو المارديني)[45] كاتباً وشاعراً وأديباً موهوباً . « غير أن الغالب عليه علم الخطّ ، وله من سرعة الحفظ ما ليس لأحد » . قال عنه ابن رشيق : « شهدته يوماً وقد صنعت أبياتاً في شكر سيّدنا (المعزّ بن باديس) أوّل تقريبه إيّاي ، وصنع محمد بن شرف ستّة في مثل ذلك ، وصنع محمد بن خيارة[45م] اثني عشر بيتاً ، وأنشد كلّ واحد منّا شعره . قال إبراهيم (الماردي) لمعدّ : شعرك قديم وأنا أحفظه ، فضحك معدّ مستهزئاً ، وقال له : هات ، فأنشده إلى آخره . ثم التفت إلينا وقال : وكذلك أنتما ، وأسمعنا أبياتنا . فحار معدّ حتى عرّفته حاله »[46] .

وأما الطارفي[47] ، فهو كاتب وخطّاط ، اكتسب ثقافته الأدبية في قريته بني طارف بالساحل ، وإليها يُنسَب . وقدم إلى القيروان متميّزاً بقريحة شعريّة قويّة . « إلاّ أن أكثر اشتهاره بالنثر دون النظم ، إذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان ، ما بين تزوير مقامة مبتدعة ، وتصدير خطبة غير مفترعة ، إلى الرسائل السلطانية والمكاتبات الإخوانية »[47م] .

---

43) بساط العقيق ، 49-53 ، من بينهم المأمون بن رشيد الذي كان الأمير يتخاصم معه .

44) محمد بن إبراهيم التميمي الكمّوني ، الصفدي ، 4/2 ، عدد 250 (لم تقع الإشارة إلى تاريخ وفاته) ، العمري م . باريس ، 82 و ، 83 ظ .

45) إبراهيم بن موسى الماردي (أو المارديني)، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة معهد المخطوطات العربية ج 1 ، القاهرة 1955 م ، 86 ، بساط العقيق ، 52-53.

45 م) [في الأصل بن جبارة ، والتصحيح من الأنموذج] .

46) [الأنموذج ، 65-66] .

47) [في الأصل عبد العزيز بن محمد الطارقي ، نسبة إلى بني طارق ، وفي الأنموذج (ص 167 ، الإحالة 1) الطارفي بالفاء ، نسبة إلى طارف ، قرية في إفريقية حسبما جاء في معجم البلدان ، 4/4] . انظر الصفدي Rendiconti ، 561/22 ، والعمري ، م . باريس ، 88 ظ ، ح . ح . عبد الوهّاب ، بساط العقيق ، 52-53 ، مجلة معهد المخطوطات العربية 1 ، القاهرة 1955 م ، 86-87 .

47 م) [الأنموذج ، 167-168] .

وكان الحروري[48] أحد نبغاء شعراء القيروان وأدبائها في العصر الصنهاجي . قال عنه ابن رشيق : « شاعر مفلق ، ذو ألفاظ حسنة ومعانٍ متمكّنة ، مثقّف لنواحي الكلام ، رطْبُها ، حلوُ مذاقة الطبع عذبُها ، يشبه في المنظوم والمنثور بأبي علي البصير[49] . وله من سائر العلوم حظوظ وافرة ، وحقوق ظاهرة ، أغلبها عليه علم النحو والقراءات وما تعلّق بها » .

وبعدما أورد المؤلف أبياتاً من قصيدة مدح بها الحروري المعزّ بن باديس ، أضاف قائلاً : « وما حسبت أنّ أحداً من أهل عصرنا يبلغ هذه البلاغة ، أو يصوغ الكلام هذه الصياغة ، وأن كثيراً من أشعار المتقدّمين في هذا الوزن والرويّ ليضعف ويقصر دون بنيتها »[49م] .

[وهذه الأبيات هي [الكامل] :

لو يستطيع لأدخل الأموات من	نعماه فيما نالت الأحياءُ
سوّت رعاياه يدا إنصافه	حتى الشوامخ والوهاد سواءُ
متنوّع العزمات ماء مغدق	فيهم وعنهم صخرة صمّاءُ
ما أنت بعض الناس إلاّ مثلما	بعض الحصى الياقوتة الحمراءُ
فتحت لنا نعماك كلّ بلاغة	فجرى اليراع وقالت الشعراء]

وكان ابن الطوبي[50] شاعراً وناثراً صقليّاً متفتّق القريحة . وإثر عودته من المشرق بعد رحلة طويلة ، التحق بالمعزّ بن باديس ووقف نفسه على مدحه . وتغنّى في شعره بنفس النجاح بالشباب والحبّ والنجوم والزهور ، ولم يتأخّر أحياناً عن الهجاء .

وأقام الشاعر الصفاقسي علي بن حبيب[51] (ت . 440 هـ / 1048-1049 م) بالمشرق ثم

---

48) أبو خلوف عبد العزيز بن خلوف الحروري (نسبة إلى حرورة قرية قريبة من الكوفة) النحوي الشاعر ، ابن قفطي ، 180/2-182 الصفدي ، المصدر السابق ، 558/22 ، السيوطي ، البغية ، 307 ، العمري ، م . باريس ، 83 ظ ، ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، مجلة العرب التونسية ، 301-303 .

49) انظر حول هذا الشاعر الكوفي : ابن قفطي ، 181/2 .

49 م) [الأنموذج ، 162-163-164] .

50) أبو الحسن علي بن حسن بن الطوبي ، ستوريا ، 581/2 ، 584 ، أماري ، المكتبة العربية الصقلية ، 590 . ح . ح . عبد الوهّاب ، الاستيلاء الإسلامي على صقلية ، بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين المنعقد بمدينة الجزائر سنة 1905 م ، [ورقات الجزء الثالث ، ص 474] . وحول وجود الشاعر أبو الحسن علي (ت . 430 هـ/1038-1039 م) في بلاط المعزّ ، انظر ، ح . ح . عبد الوهّاب ، المجلة الزيتونية ، ماي 1940 م ، فلعلّ الأمر يتعلق بشاعرنا .

51) علي بن حبيب التنوخي الصفاقسي ، الصفدي ، المصدر السابق ، 347/25 ، التجاني ، 50 ، 55-56 ، الحلل ، 135/1-140 ، عنوان الأريب ، 45/1-46 ، المنتخب ، 70 ، العمري ، م . باريس ، 127 ظ ، 128 و ، وفي نفس =

رجع إلى صفاقس مسقط رأسه وتوفّي بها . وكان شاعراً لطيفاً رقيقاً مطبوعاً ، ذا أسلوب سهل .

أمّا الشاعر عبد الواحد بن فتوح الكتامي[52] المعروف بالورّاق (ت . 447 هـ / 1055-1056 م) ، فهو من أبنار مدينة تونس وبها تأدّب ، ثم استوطن القيروان وانخرط في سلك كتّاب الدواوين ، قال عنه ابن رشيق : « هو شاعر مفلق ، قوي أساس الشعر ، كأنه أعرابي بدوي ، يتكلّف بعض التكلّف »[52م] .

وأقام الشاعر القيرواني أبو الطاهر التجيبي[53] (ت . حوالي سنة 450 هـ / 1058-1059 م) بالمهديّة ، وأخذ عن الحصري والنهشلي ، وزار الأندلس ومصر وأقام مدّة في صقلية . وكان عالماً بفنون الأدب ، متضلّعاً في اللغة ، شاعراً مجوّداً وكاتباً رقيقاً .

وقال ابن رشيق عن زميله وصديقه ابن حديدة[54] (ت . حوالي 450 هـ / 1058-1059 م) : « هو شاعر فَكِه الشعر ، رائق التشبيه ، مولع به ، قليل التكلّف ، قويّ المنهج والظرف ، يرفض المدح والهجاء ، ويخبر الترصيع خبراً جيّداً ولا يركبه إلا في الأماكن التي تصلح له ، كما شرط حذّاق المتقدّمين »[54م] .

وأمّا الشاعر أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد المعروف بكاتب كرامة[55] (ت . بعد سنة 441 هـ / 1049-1050 م) ، فقد « كتب لكرامة بن عدّة العزيز بالله[55م] (المنصور بن بلكين) ، ثم فارقه وتوجّه إلى ناحية المشرق سنة ثلاث عشرة وأربعمائة (1022 م) ، ولم يظهر له خبر » . وكان عالماً في الأدب ومن فحول الشعراء ، وله عدّة مؤلّفات .

هذا المصدر ، 127 و ، ظ ، فقرة مخصصة لمحمد بن حبيب التنوخي الذي كان يتردد على الخمّارات ، ولم تكن له أية صلة قرابة مع علي بن حبيب . وكان أبو أحمد مضر بن تميم ، شقيق جيلان ، الفزاري الصفاقسي من فحول شعراء صفاقس ، العمري ، م . باريس ، 123 ظ ، التجاني ، 56-57 ، الحلل ، 141/1 .

52) المنتخب ، 70-71 ، العمري ، م . باريس ، 90 و ، 91 و ، الصفدي المصدر المذكور ، 202/23 .

52 م) [مجمل تاريخ الأدب التونسي ، 135] .

53) أبو طاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبي المعروف باسم البرقي ، المنتخب ، 72-74 .

54) أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي الليث التميمي القيرواني ، المعروف باسم ابن حُدَيْدة ، الصفدي ، المرجع المذكور ، 592/24 ، العمري ، م . باريس ، 107 ظ ، 109 و ، بساط العقيق ، 64 ، 71 ، المنتخب ، 74-75 . ح . ح . عبد الوهّاب ، ديوان الأدب التونسي ، مجلة البدر ، 33/3-35 ، الميمني ، 52-53 ، 84-85 .

54 م) [الأنموذج ، 71] .

55) [في الأصل « كاتب الكرامة » والصحيح ما أثبتناه . فقد جاء في الأنموذج (90-91) أنه « كتب لكرامة بن عدّة العزيز بالله » ، أي المنصور بن بلكين الصنهاجي] .

55 م) [في الأصل « كاتب الخليفة الفاطمي العزيز » والصحيح ما أثبتناه ، نقلاً عن الأنموذج] .

وكان محمد بن خلوف بن مُشْرِق [السلمي][56] « من أشراف أهل باجة القمح ورؤسائها وبها تأدّب . وهو شاعر مطبوع ذرب عذب الألفاظ واضح المعاني ، سهلُ الطريق ، حسنُ التلويح ، غَزِلُ الشعر ، حلوُ المقطعات »[56م] .

وأشار ابن رشيق إلى عدد من شعراء سوسة[57] وهم : ابن الصفّار وابن الغطّاس والقطّان وأبو هلال التجيبي وأبو الفتوح بن محمد .

فقال عن الشاعر الأوّل[58] ، وقد كان معجباً به شديد الإعجاب : « هو شاعر متّسع القافية ، سالم الطبع ، عالم باللغة ، لا تنقطع مادته . . . له كلام عربي صريح قلّما يأتي مثله للمتقدّمين المحسنين ، فضلاً عن المتأخّرين »[58م] .

وقال عن الثاني[59] : « هو شاعر متدرّب حسن المسلك في اعتدال وقوّة . قد جمع إلى رقّة المعنى رشاقة اللفظ وقرب المقصد »[59م] .

وقال عن الثالث[60] : « كنت أسمع بذكره وهو بسوسة إلى أن اجتمعت به فأنشدني بعض شعره ، ثم قال : كيف رضاك عمّا سمعت ؟ فقلت : أحسن رضا وأتمّه . فتكلّم بكلام جميل ولم أَرَه بعد ذلك الاجتماع »[60م] .

---

56) العمري ، م . باريس ، 124 و ، ط ، الصفدي ، 47/3 عدد 942 ، مع تصحيح عبارة « ناحية القمح » بعبارة « باجة القمح » .

56 م) [الأنموذج ، 378] .

57) لقد نقل رُواة الأدب الأندلسين نادرة طريفة حول شاعر وأديب من أبناء سوسة سكر وأشعل النار في دار غلام كان يعشقه ولكنّ الغلام لم يوافقه . فأحيل على القاضي وتخلّص بأبيات شعر طريفة ادّعى فيها أن نار قلبه هي التي تسبّبت في الحريق ، الصّلة ، 204/1-205 عدد 457 ، الحميدي ، 206-207 عدد 449 ، ابن بسّام ، 4-1/95 - الضبّي ، 283-284 .
وروى ابن رشيق نادرة مماثلة حول شاعر من أبناء تونس اسمه عبيق بن مفرج العبقي ، [أو عتيق بن مفرج العتقي] ، العمري ، م . باريس ، 111 و ، ظ ، [الأنموذج ، 258] .

58) أبو الحسن علي بن أحمد الصفّار السوسي ، الصفدي ، 614/24 ، عنوان الأريب ، 46-47 ، التجاني ، 25-26 ، الحلل ، 118/1-119 ، العمري ، م . باريس 99 و ، 100 و .

58 م) [الأنموذج ، 265-269] .

59) عبد الوهّاب بن خلف بن القاسم بن محمد السوسي المعروف بالغطّاس ، العمري ، م . باريس ، 52 و ، الصفدي ، 199/23 التجاني ، 27 ، الحلل ، 119/1-120 عنوان الأريب ، 47/1-48 .

59 م) [الأنموذج ، 231] .

60) أبو موسى عيسى بن إبراهيم السوسي المعروف بالقطّان ، التجاني ، 27 ، الحلل ، 119/1 ، عنوان الأريب ، 47/1 .

60 م) [الأنموذج ، 328] .

وأما الرابع[61] « فهو شاعر معروف ، حسن الطريقة ، متصرّف بين التصنّع والاسترسال أحياناً »[61م] .

وأخيراً قال ابن رشيق عن الشاعر الخامس[62] : « إن شعره سهل وطيء لا يتكلّفه ، فإذا تكلّف ظهر عليه أثر ذلك »[62م] .

واستقرّ في وقت مبكّر بالقيروان الشاعر ابن ميخائيل[63] الذي هو أيضاً من أصيلي سوسة . وقد وصفه ابن رشيق بقوله : « هو صعب المكاره في الشعر ، شديد الانتقاد على مذهب قدامة بن جعفر الكاتب ، طالب للحقوق ، قليل الاستعارة ، وربّما سربل لفظه كرّة واحدة وعبث فملّح »[63م] .

وبطبيعة الحال كان لمدينة تونس شعراؤها هي أيضاً ، نخصّ بالذكر منهم ابن حربون[64] الذي ذاع صيته من جديد بعدما كان منسيّاً . فكان « لا يخلي نفسه من ذكر الخيل وآلة الحرب ، تقويةً للكلام ، وتفخيماً للمستمع »[64م] .

وأما الشاعر محمد بن إبراهيم القفصي[65] ، فأصله من مدينة قفصة وبها تأدّب . قال عنه

---

61) أبو هلال المحسن بن أحمد بن علي بن الحسن بن أبي هلال التجوبي ، التجاني ، 26 ، الحلل ، 119/1 ، **عنوان الأريب** ، 47/1 . وقد تملّق لوالي سوسة حسن بن بلبل ، ولعل هذا الشاعر متطابق مع ابن أبي هلال (أبو الحسن بن أحمد بن الحسن بن أبي هلال) . العمري ، م . باريس ، 115 و ، ظ .

61 م) [**الأنموذج** ، 102] .

62) **عنوان الأريب** ، 47/1 ، العمري م . باريس ، 128 ظ .

62 م) [**الأنموذج** ، 69] .

63) محمد بن الحسين بن أبي الفتح بن ميخائيل القرشي السوسي ، التجاني ، 25 ، الحلل ، 118-119 ، العمري ، م . باريس 106 و ، ظ ، الصفدي ، الوافي ، 6/3 .

63 م) [**الأنموذج** ، 375] .

64) حسن بن عبد العزيز بن حربون ، العمري م. باريس ، 113 و، ظ ، **بساط العقيق** ، 23-24 و البلدان : 419/4 : نقل ابن رشيق في **الأنموذج** بيتين هجا بهما الشاعر أبو لقمان الصفار ابن المؤدّب ، شاعر زويلة وابن حربون ، شاعر ترشيش (= تونس) .

[قال يهجو رجلين (البسيط) :

لا بـارك الله في دهـرٍ يـكـون بـه ... لابـن المـؤدّب ذكـرٌ وابـن حـرْبُـونِ

ذا مـن زُوَيْـلَة لا ديـنٌ ولا حـسـبٌ ... وذاك مـن أهـل تـرشـيش المـجـانـينِ

الأنموذج ، ص 438] .

64 م) [**نفس المصدر** ، 104] .

65) محمد بن إبراهيم بن عمران القفصي الكفيف ، الصفدي ، 5/2-6 ، عدد 251 ، العمري ، م. باريس ، 94 ظ ، 95 ظ ، الصفدي ، **نكت الهميان** ، 234 .

ابن رشيق : « هو شاعر متقدم علاّمة بغريب اللغة ، قادر على التطويل ، وصّاف للديار ، مولع بذكر الإبل والقفار ، متّبع للعرب في أبنية أشعارها لا يعدو ذلك إلا قليلاً في صفات الخمر والزهر ، قليل الاختراع ، ركّاب لشوارد القوافي ، يصنع القصيدة تبلغ المائة وأكثر في ليلتها ، ويحفظها فلا يشذّ منها شيء ، ويسرد أكثر مسائل كتاب العين للخليل بن أحمد »(65م) .

وشهدت ناحية رُصفة الواقعة غربي رأس قبودية نشاطاً أدبياً يمثله الشعراء محمد بن أبي معتوج الباجي(66) وأبو حاتم الربوني(67) ومحمد بن الربيع(68) .

وكان عبد الرزاق بن علي [النّحوي](69) « شاعراً قادراً يطلب الطباق والتجنيس طلباً شديداً بالتصريف وتبديل الحروف ، ويستعمل القوافي العويصة »(69م) . وقد أورد ابن رشيق الأبيات الجميلة التي وجّهها إليه لتهنئته بإتمام كتابه الأنموذج ، ومنها [الكامل] :

يا مبرزاً إبريز خير سبيكة	ومكلّلاً إكليل خير متوّجِ
ومميّزاً جنسيّ مقدمة النّهى	إن أشكلا من عاقر، أو منتجِ
ومطرّزاً حُلَل البلاغة معجزاً	كلّ الورى ببلاغة « الأنموذجِ »
فكأنه للسمع لفظُ أحبّةٍ	وكأنّه للعين روض بنفسجِ
وكأنه للقلب سحر علاقةٍ	في مهجة تخشى الصدود وترتجي

كما شرّف ابن رشيق ثلاثة شعراء من المهدية(70) بإدراج تراجمهم ونماذج من شعرهم في كتابه

65 م) [الأنموذج، 336-337] .

66) من باجة الزيت ، وبها درس الأدب ، وهو تلميذ محمد بن سعيد الأبروطي ، وكان مرتجلاً ، نظم عدة قصائد في هجاء أبي حاتم الزبني ، البلدان ، 27/2 ، 375/4 ، العمري ، م. باريس ، 52 و .

67) أبو حاتم محمد بن أبي منهال بن دارة الأزدي ، أصيل زُبْنَة وقاضيها ، البلدان ، 375/4 . وهو شاعر ذائع الصيت ، لم يهتم إلاّ بفنّ الشعر . وكان ابنه عبد الخالق بن أبي حاتم أشهر وأعلم سنه ، العمري ، م. باريس ، 118 ظ .

68) من بلدة يمولش (أو ينونش) القريبة من باجة الزيت ، البلدان ، 529/8 ، الصفدي ، الوافي ، 69/3-70 عدد 970 . وكان على قيد الحياة سنة 406 هـ/ 1015 م .

69) أبو القاسم عبد الرزاق بن علي النحوي الشاعر ، ابن قفطي ، 174/2 عدد 338 ، الصفدي ، 192/22 ، العمري ، م. باريس 161 و ، نقائش عربية ، 2 / عدد 384 شهادة قبر مؤرخة في 434 هـ/ 1042 م ، تحمل اسم أبي محمد عبد الغفّار بن عيسى الذي « ربّاه النحوي أبو محمد عبد الرزاق » توفي وهو يبلغ من العمر 27 سنة .

69 م) [الأنموذج ، 155].

70) التجاني ، 262 ، الحلل ، 262/1 .

« الأنموذج » وهم : ابن المؤدب[71] ، ومحمد بن حبيب [التنوخي][72] وعلي بن عبد الكريم بن أبي غالب[73] . وقد كان أوّلهم « مغرى بالسّياحة وطلب الكيمياء والأحجار . . . خرج مرّة يريد صقلية فأسرّه الروم في البحر ، وأقام مدّة إلى أن هادن ثقةُ الدولة ملكَ الروم وبعث إليه بالأسرى ، فكان ابن المؤدب فيهم »[73م] .

أمّا الثاني ، صنو ابن رشيق ، فهو « شاعر حاذق في المقطعات ، عاجز عن التطويل ، لم يصنع عشرة أبيات من جنس واحد قطّ . وقطعه كالنار في أيّ معنى قصد على لوثة فيه »[74] .

وكان إسماعيل بن إبراهيم الزويلي[74م] مادح المعزّ بن باديس متضلّعاً في اللغة على وجه الخصوص . قال عنه ابن رشيق : « له شعر جيّد وطيء الأكناف ، سهل المخارج . تقدّم في علم الغريب وصلبه وعلوّ سماعه . لقي شيوخاً جِلّة من العلماء ببلدنا (إفريقية) وغيره من ناحية المشرق في أيام حجّه . وبحث عن الشذوذ بحثاً شديداً وإلى أمّهات كتبه يُرجَع بجميع النسخ ، وبها تُقابَل وعليها تُصلَح . وطريقته في الشعر طريقة العلماء يستعمل ما عليه الناس »[75] .

وقال ابن رشيق عن الشاعر المثقال[75م] (ت . بعد 500 هـ / 1006-1007 م) : « هو شاعر مطبوع قليل التكلّف سهل القافية[76] ، خبيث اللّسان في الهجاء ، عيّار ماجن لا يمدح أحداً . كان يألف غلاماً نصرانياً خمّاراً فعلقه فاشتهر به . . . وهجره (الغلام) مرّة فاستعان فلم يجد إليه سبيلاً . . . فلما يئس دعا بالفاصد وفصد إحدى يديه ، ثم دعا بفاصد آخر وفصد اليد الأخرى ودخل داره فأغلق باب بيته وفجّر الفصادين فما شعر أهله إلا بالدم يدفع من سُدّة الباب

---

71) عبد الله بن إبراهيم بن المثنّى الطوسي المعروف باسم ابن المؤدب ابن خلكان ، 221/2 ، البلدان ، 419/4 ، العمري ، م. باريس ، 110 ظ .

72) محمد بن حبيب التنوخي ، الصفدي ، 324/2-325 عدد 770 ، العمري ، م. باريس ، 127 و، ظ ، (ثم أورد ترجمة علي بن حبيب التنوخي ، 127 ظ ، 128 ظ) ، الميمني ، 32-33 .

73) حسب التجاني ، 262 والحلل ، 262/1 ، العمري ، م، باريس ، 122 ظ ، 123 و : ابن غالب علي بن عبد الكريم .

73 م) [الأنموذج ، 177-178] .

74) [نفس المصدر ، 370] .

74 م) ابن قفطي ، 192/1-193 ، العمري ، مخطوط باريس ، 122 و ، ظ : أبو الطاهر بن الخازن = إسماعيل بن إبراهيم الزويلي .

75) [الأنموذج ، 81-82] .

75 م) عبد الوهاب بن محمد الأزدي المعروف بالمثقال ، الكتبي ، 24/2-25 ، العمري ، مخطوط باريس ، 51 و ، 52 و ، الصفدي ، 200/23 ، الميمني ، 33-34 ، إدريس ، المجلة الإفريقية ، 1954 ، 271 والإحالة 38 .

76) حسب الكتبي : سهل اللّقاء ، وقد قرأناه : سهل الإلقاء ، وحسب العمري [نقلاً عن ابن رشيق] : سهل القافية

فأدركوه وقد أشرف على الموت ، ويلغ الغلام أنه يدّعي أنه قاتله فصالحه خوفاً على نفسه . وبعد ذلك بمدة علم الشاعر « أن محبوبه النصراني (سلمان) قد مات بالإسكندرية »(76م) .

ويبدو أن عتيق بن محمد الورّاق(77) كان شاعراً غريب الأطوار ، نظم في الغزل والهجاء ومن حين لآخر في التصوّف . تحدّث عنه ابن رشيق فقال :

« دخلت الجامع في بعض الجُمَع فوجدته في حلقة يقرأ الرقائق والمواعظ ويذكر أخبار السلف الصالحين ومَنْ بَعْدَهم من التابعين ، وقد بدا خشوعه وترقرَقت دموعه ، فما كان إلّا أن جئته عشيّة ذلك اليوم إلى داره ، فوجدته ، وفي يده طنبور وعن يمينه غلام مليح وقدّامه شراب ، فقلت له : ما أبعد ما بين حالَيْك في مجلسَيْك ! فقال : ذاك بيت الله وهذا بيتي ، أصنع في كلّ واحد منهما ما يليق به وبصاحبه ، فأمسكت عنه »(77م) » .

وقدم ابن السرّاج الصوري (78) من المشرق، فالتحق بخدمة تميم ربّما قبل وفاة المعزّ بن باديس .

وهناك عدد آخر من شعراء إفريقية قد تسنّى لنا التعرّف على أسمائهم بفضل ابن رشيق(79) . إلّا أنه من الصعب تحديدهم بالتدقيق في المكان والزمان ، ولو أن الأمر يتعلّق لا محالة بشعراء معاصرين لابن رشيق ، كانوا يعيشون في القيروان .

وكان ابن رشيق (ت . 456 هـ / 1064 م)(80) ، نجماً ساطعاً في سماء الآداب العربية ،

---

76 م) [الأنموذج ، 255] .

77) أبو بكر عتيق بن محمد الورّاق التميمي ، الكتبي ، 29/2 العمري ، م. باريس ، 49 و، 50 و .

[الأنموذج ، 255] .

78) الحلل السندسية ، مخطوط دار الكتب الوطنية التونسية ، 171 و ، المنتخب ، 50 ، مخلوف ، 132/2 ، 199 .

79) [تراجع تراجم هؤلاء الشعراء في : ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، وابن رشيق ، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي والبشير البكّوش ، المصدر المذكور] .

80) أبو الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني ، السيوطي ، البغية ، 220 ، أدباء ، 110/8-121 ، الخريدة ، العمري ، م. باريس ، 37 ظ ، 41 ظ ، العمدة في مواضع مختلفة ، الأنموذج [جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي والبشير البكوش ، تونس ، 1989] نُشِرت مقتطفات منه في جريدة تونس حسب مخطوطات الوافي للصفدي ، [قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، تحقيق الشاذلي بو يحيى ، تونس ، 1972] ، الكتبي ، 255/2 ، ابن قنفطي ، 298/1-303 ، 174/2 ، ابن خلكان ، 133/1 ، شذرات ، 297/3-298 ، ابن بسّام ، 1/4 في مواضع مختلفة ، التكملة ، 1/ عدد 660 ، التجاني ، 262 ، الحلل ، 99/1-102 ، 262 ، بساط العقيق ، 56-90 ، خلاصة تاريخ تونس ، 99 ، المنتخب ، 75-78 ، عنوان الأريب ، 52/1-54 ، ستوريا ، 39/1 ، 562/2 ، 567 ، والإحالات . المكتبة العربية الصقلية ، 591-592 ، 650-652 ، مائوية أماري ، 374/1 ، الميمني ، في مواضع مختلفة ، بروكلمان ، 307/1 ، 697/2 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 435/2-436 (محمد بن الشنب) ، أمجد الطرابلسي ، النقد الشعري عند العرب ، دمشق ، 1956 ، في مواضع مختلفة ، الفهارس ، 251 .

وبلا ريب أحد نبغاء الثقافة الأدبية بإفريقية في العصر الصنهاجي . وهو جدير بأن نخصّص له نبذة أثرى بكثير من اللّمحة الوجيزة الموالية التي لا تمثل في الحقيقة سوى جزء يسير مما يستحقّه هذا الشاعر الفذّ من تكريم .

فقد وُلد شاعرنا بمدينة المحمّدية المعروفة بالمسيلة وتربّى بها ، ثم قدم إلى القيروان سنة 406 هـ / 1015-1016 م ، أي نفس السنة التي توفّي فيها باديس ، وعمره يتراوح بين ست عشرة وعشرين سنة . فأخذ بالخصوص عن القزّاز الذي كثيراً ما كان يستشهد به ويسمّيه بشيخه ، وهو مدين له بأحسن ما اكتسبه من ثقافة . كما درس على النهشلي ، في المسيلة بلا ريب ، وابن سهل الخشني ، على الأرجح مدّة قصيرة .

وما لبث أن استرعى الشاعر الشاب انتباه ابن أبي الرجال رئيس قلم الإنشاء الذي ألحقه بدواوينه[81] ، ثم المعزّ بن باديس الذي ضمّه إلى دائرة شعرائه وجلسائه . وقد اشتهر بمنافسته لابن شرف ، بإيعاز من الأمير ذاته ، تلك المنافسة التي أوحت إليه بعدد من القصائد في الهجاء .

وبطبيعة الحال ، رافق ابن رشيق المعزّ لما انتقل إلى المهديّة سنة 449 هـ/1054 م. وعندما أغار أسطول نصراني على المهديّة تقدّم إليه شاعرنا بقصيدة مطلعها :

تـثبّـت لا يخـامـرك اضـطـراب   فقـد خضعت لعزّتـك الـرقـاب

فغضب الأمير وخاطب ابن رشيق بقوله : « متى عهدتني لا أتثبّت ؟ . . . وأمر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة فمزّقت وأحرقت ، وخرج الشاعر مذهولاً . ولّما توفي المعزّ في 24 شعبان 454 هـ/2 سبتمبر 1062 م ، رثاه بقصيدة . وبعد ذلك ببضعة أشهر ركب البحر قاصداً جزيرة صقلية ، فوجد بها ابن شرف الذي سبقه إليها ، فتصالح الخصمان ، ولكنّ ابن رشيق رفض مصاحبة رفيقه في الهجرة إلى الأندلس واستقرّ بمدينة مازرة في رعاية عاملها ابن مثكود ، وتوفّي بها يوم غرة ذي القعدة 456 هـ / 15 أكتوبر 1064 م ، عن سنّ تناهز السبعين .

وقد عاش الشاعر حياة أقلّ ما يقال فيها إنّها لم تكن حياة تقشّف . فكان يهجر أحياناً مقرّ عمله ، حيث نراه يعتذر لدى رئيسه ابن أبي الرجال لأنه غاب مدّة طويلة عن « الديوان » . وكان يخالط الظرفاء والشعراء المعربدين ويتردّد على الخمّارات . وكان يحبّ الخمر والمطربات والغلمان ، وقد عشق غلاماً صائغاً جميلاً مثل أدونيس . وجادت عليه قريحته بجميع الأغراض الشعرية المختصّة بشعراء البلاط ، كما ألهمته قصيدة يندب فيها خراب القيروان إثر زحفة بني هلال . إلاّ

81) على الأرجح في ديوان الجيش ، ففي أحد المخطوطات أضفى شاعرنا على نفسه لقب « كاتب جيش الأمير » ، الميمني ، 70 .

أنّ ابن رشيق قد اكتسب مجده أوّلاً وبالذات بوصفه ناقداً للأدب وراوية للأشعار والأخبار . وعلى هذا الأساس فإنّ كتابه الشهير في صناعة الشعر « العمدة » الذي قدّمه إلى مخدومه المفضّل ابن أبي الرجال ، وألّفه في سنة 420 هـ / 1029 م[82] ، يستحقّ دراسة إضافيّة ، ويسمح وحده بوضع صاحبه في المكان اللاّئق به ضمن تاريخ النقد الأدبي العربي وتقدير أصالة مؤلفه التي لا نزاع فيها .

ومن الجدير بالملاحظة أن الأمر لا يتعلّق قطّ بنقول مجهولة المصدر ، ولو أن شاعرنا يعتمد بكثرة كتابات أسلافه الشرقيين والمغاربة على حدّ السواء ، بل يتعلّق بأثر يمثّل التصوّر القيرواني للأدب ، وبالأحرى يشير إلى بعض التأمّلات حول المخاض الشعري لِوَعْي حقيقي بإمكانات الإبداع وآلياته . فقد شعر ابن رشيق أنّ القضية الأساسية تتمثّل في انتقال الفكرة من أعماق اللاّوعي إلى التعبير عنها تعبيراً جميلاً إيحائياً ، وفي القيمة السحريّة للكلام ، والقدرة المُوحِية للكلمة ، ومدلول الإيقاع والموسيقى وتناسق الألفاظ واختيار البحور ، وضرورات التفعلة والقافية الخ . . . فبإيعازٍ من أساتذته ، وبفضل صراعه المستمرّ مع شيطانه الباطني الذي نفترض أنه كان جموحاً ، وربّما من أجل هذا السبب ذاته ، لم يهمل ابن رشيق أيّ مشكل من تلك المشاكل الأساسية . فكم تضمّن كتابه من ملاحظات عجيبة بدقّتها أو عمقها حول قيمة المتقدّمين والمتأخّرين ، وحول الإلهام والصنعة والفنّ والعبقرية ، والفارق بين الشاعر المطبوع والشاعر المصنوع ، والتكلّف والسجيّة ، وحول الصعوبة المنشودة أو المقهورة ، وعدم التكلّف التلقائي أو المتصنّع بمهارة .

وقد أعلن ابن رشيق بصريح العبارة في مقدّمة كتابه أنه استند أوّلاً وقبل كلّ شيء إلى تجربته الذاتية . ويكفي هذا الاعتراف لاستثناء **العمدة** من هذيان المتحذلقين .

كما ألّف شاعرنا عدّة كتب أخرى في النّقد ، نخصّ بالذكر منها رسالة **قراضة الذهب في نقد أشعار العرب**[83] حول السّرقات الشعرية وأعدّ بعض الدراسات اللغوية ، بل ألّف أيضاً شرحاً على **الموطّأ** .

وتدلّ المقاطع التي نقلها بعض الرواة فيما بعد من كتابه **« أنموذج الزمان في شعراء القيروان »**[84] على أهمية هذه المدوّنة المخصّصة لشعراء إفريقية [في القرن الخامس من الهجرة] ،

---

82) حسب ح. ح. عبد الوهاب ، **بساط العقيق** . ووردت في **العمدة** ، 124/1 هذه الإشارة الثمينة : روى لنا الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل (الخشني ت. 406 هـ/ 1015-1016 م) رحمه الله . . . ومن ناحية أخرى فإن الشخص الذي أُهدِي إليه الكتاب قد توفي سنة 426 هـ/ 1034-1035 م .

83) وجّه الشّاعر هذه الرسالة إلى الشيخ أبي الحسن علي بن أبي القاسم اللواتي .

84) وحول تاريخ تأليف هذا الكتاب روى العمري (المسالك ، مخطوطة باريس ، 100 و) أن ابن رشيق قال : « محمد بن =

وقد تسنّى لنا بفضلها معرفة الكثير منهم ، كما تشهد بذلك الصفحات السابقة . وفي آخر حياته ألّف ابن رشيق كتاباً أدبيّاً جمع فيه أشعار بعض شعراء المهدية ، ولكنّنا لا نعرف عنه إلا عنوانه ، وهو : **الرّوضة الموشّية في شعراء المهديّة** .

وبفضل ابن رشيق ومؤلفاته ، نستطيع أن نتصوّر النشاط الأدبي في إفريقية في أوج الدولة الصنهاجية .

ويمثّل ابن شرف(85) العصر الذهبي للأدب في عهد الدّولة الصنهاجية ، بتألّق لا يقلّ عن تألّق منافسه ابن رشيق . وقد وُلِد بالقيروان حوالي سنة 390 هـ / 1000 م ، وبها أخذ اللغة والنحو عن القزّاز ، والأدب عن الحصري ، والفقه عن القابسي وأبي عمران الفاسي . وما لبث أن تألّق في كلّ هذه العلوم وفرض نفسه كشاعر وناثر ، بل حتى كفقيه بارع ، وأصبح محسوب رئيس قلم الإنشاء ابن أبي الرجال الذي يبدو أنه ألّف له **رسائل الانتقاد** .

ورغم أنّه كان أعور ، فقد نجح في البلاط ، وسرعان ما اتّخذت منافسته الأدبية مع ابن رشيق شكلاً حادّاً . وقد ابتهج بها شديد الابتهاج رجال البلاط والأمير ذاته الذي كان يستمتع بمناظرات الشاعرَيْن . وسرعان ما اكتسى ذلك الصراع الذي كان مبعثاً للشائعات صبغة شبه خرافية ، لفائدة سمعة شاعرنا ، لأن أصحاب التراجم كانوا يعتبرونه أقلّ قيمة بقليل من صاحب **العمدة**(86) .

= عبدون الورّاق ليس سوسيّاً على الحقيقة بل من أكابر القيروان وبها مقامه الآن » . ومن المعلوم أن الورّاق قد توفّي حوالي سنة 400 هـ/ 1009-1010 م .

85) أبو عبدالله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي ، ابن بسّام ، 1-74/1 ، 4-14/1 ، 108 ، 133-186 ، ابن شرف ، **رسائل الانتقاد** ، تحقيق ح . ح . عبد الوهاب ، **مسائل الانتقاد** ، تحقيق وترجمة شال بلاّ ، ريزيتانو ، **ابن شرف القيرواني** . . . ، روما ، 1956 ، 51-72 (تقديم وترجمة **رسالة الانتقاد**) ، **التكملة** ، 1 ، عدد 224 ، **أدباء** ، 37/19-43 ، الكتبي ، 204/2-205 ، المكتبة العربية الصقلية ، 651 ، السيوطي ، **البغية** ، 46 ، ابن قنفطي ، 301/1-302 ، **معالم الإيمان** ، 15/1 ، 233/3 ، 238-241 ، **الخريدة** ، م . باريس ، 3331 ، 34 و ، 38 و ، العمري ، م . باريس 43 ظ ، 46 ظ ، الصفدي ، 97/3-101 ، عدد 1036 المراكشي ط . 1847 ، 260 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 ، 188-189 ، 1955 ، 50-51 ، بساط العقيق ، 48-49 ، 53-53 ، المنتخب ، 78-81 ، الميمني ، 90-115 ، عنوان الأريب ، 56/1-57 ، **ظهر الإسلام** ، 307 ، مخلوف ، 110/1 ، عدد 289 ، بروكلمان 315/1 (268) الذيل ، 473/1 .

86) العمري ، م . باريس ، 44 ظ ، 55 و ، رأي ابن رشيق في ابن شرف : «شاعر حاذق ، متصرّف كثير المعاني والتوليد ، جيّد المقطعات والتقصيد » .

وقد فارق ابن شرف القيروان إثر زحفة بني هلال ، قبل انصراف الأمير بقليل ، أي على الأرجح في سنة 447 هـ / 1055 م[87] ، وتوجّه إلى المهدية حيث أقام برهة من الزمن عند تميم بن المعزّ ، ثم قصد صقلية في وقت لا نعرفه بالضبط ، والتحق به كما أسلفنا ابن رشيق بعد وفاة المعزّ ببضعة أشهر ، وتصالح رفيقا الهجرة ..

وبعد ذلك بقليل توجّه ابن شرف مع عائلته إلى الأندلس[88] ولم يتمكّن من إقناع خصمه السابق بمرافقته . فأخذ يتردّد على ملوك الطوائف الأندلسيّين ، ويبدو أنه أقام بالقرب من المرية ، وتقول المصادر إنه توفّي يوم غرّة محرم 460 هـ / 11 نوفمبر 1067 م بإشبيلية . وخلّف هو أيضاً ابناً اشتهر بالأدب[89] .

وقد شبّه ابن بسّام[90] ابن شرف الذي كان يعتبره أقلّ قيمة من ابن رشيق ، بابن درّاج القسطيلي (ت . 421 هـ / 1030 م) الذي اشتكى من صروف الدّهر ، مثلما ندب ابن شرف خراب القيروان[91] .

وقد مدح شاعرنا ابن أبي الرجال[92] ، وجمع قصائده في ديوان لم يصلنا . كما جمع تحت عنوان **أبكار الأفكار** منتخبات من شعره ونثره .

ولا نعلم محتوى كتابه **لُمح المُلَح** (الذي هو نوع من المنتخبات الأدبية)[93] . ولكن لدينا قسم هامّ من الكتاب الذي ألّفه في آخر حياته بالأندلس ، ويعتبره أصحاب التراجم من أحسن مؤلّفاته ، وهو كتاب **أعلام الكلام** .

[كما ألّف **رسائل الانتقاد**] التي هي عبارة عن مقامات على لسان شخص خيالي اسمه

---

87) قدّمت جميع المصادر هذا التاريخ ولكنها أشارت إلى أنه ذهب مع المعزّ (أواخر شعبان 449 هـ/ أكتوبر 1057 م) . ويمكن أن نلاحظ مرّة أخرى إمكانية الخلط بين 7 و 9 .

88) ابن شرف ، **مسائل الانتقاد** ، يبدو تاريخ 449 هـ/ 1057 م مغلوطاً ، لأنه من الصعب تسبيق تاريخ رحيل ابن رشيق بخمس سنوات . فالغالب على الظن أن هذا الأخير كان موجوداً بالمهدية عندما توفي المعز بن باديس ، فقد رثاه بقصيدة ولم يغادر المهدية إلاّ بعد ذلك ببضعة أشهر ، غرسيا غوميز ، نشرية مجمع قرطبة ، 1929 ، 162 ، الإحالة 3 .

89) أبو الفضل جعفر (ت . 534 هـ/ 1139-1140 م) ، **مسائل الانتقاد** ، المقدمة ، 20 ، الإحالة 7 . المقري . ط. القاهرة 1949 ، 4/363-367 ، **الخريدة** ، م. باريس ، 7 و .

90) ابن بسّام ، 4/133 ، **مسائل الانتقاد** ، 110 .

91) الميمني ، 98-100 ، 110 ، ابن بسّام ، 1-1/74 .

92) الميمني ، 107-110 ، **المنتخب** ، 80 ، ابن بسّام ، 4-1/173-174 .

93) ابن بسّام ، 4-1/138-151 : الكتب التي ألّفها في الأندلس سابقة لكتاب **أعلام الكلام** .

أبو الريّان الصّلت السلماني ، يتحاور مع المؤلف[94] . وقد أعلن المؤلف بصريح العبارة أنه نسج على منوال ابن المقفع وسهل بن هارون وبديع الزمان الهمذاني .

ويتّضح من هذا الكتاب أنّ ابن شرف كان ناقداً بارزاً من طراز ابن رشيق ، وأنه يتميّز بنفس ما يتميّز به صاحب العمدة من فكر ثاقب ونلاحظ كيف دافع عن « المحدثين » بحقّ ، وانتقد « القدماء » بتجرّد .

واشتهر عبد الله الشقراطسي (ت . 466 هـ / 1073-1074 م) بقصيدته المعروفة بالشقراطسية في مدح خير البريّة . وقد علّق عليها الكتّاب مرّات عديدة خلال القرون السالفة[95] .

ورغم هجرة كثير من رجال الأدب (إلى الشرق وصقلية والمغرب الأوسط والأندلس) ، فإن غزوة بني هلال لم تضع حدّاً للنشاط الأدبي الذي ظلّ مزدهراً في إفريقية ، بفضل العديد من ملوك الطوائف الذين عُرِفوا برعايتهم للأدب في كلّ من قفصة وقابس وسوسة وتونس وبنزرت . ولكنّ الآداب قد شهدت عهدئذ ازدهاراً خاصّاً في المهدية .

فقد انتقل العالم الصقلي أبو حفص عمر بن خلف بن مكي[96] إلى مدينة تونس وولي قضاءها في عهد بني خراسان . وهو فقيه ومحدّث وخطيب ، « له خطب لا تقصر عن خطب ابن نباتة » ، ولغوي صاحب كتاب تثقيف اللسان ، وهو شاعر أيضاً ، « وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة مأثور مرويّ » . وقد دُفِن في مدينة تونس .

ويبدو أن ابن فضّال الحلواني[97] قد توجّه بعد غزوة بني هلال إلى صقلية ثم الأندلس ،

94) إن الأسلوب غير اللائق الذي اتّبعه المؤلف يجعل من الصعب الاعتقاد أن ذلك الشخص يتطابق مع ابن أبي الرجال العظيم ، مسائل أدبية ، 2-3 ، 115 .

95) المنتخب ، 86-88 ، عنوان الأريب ، 42/1-43 . والجدير بالملاحظة أن هذا الشاعر هو ابن أبي زكرياء الشقراطسي الذي سبقت الإشارة إليه .

96) ابن قنفطي ، 329/2 ، الخريدة ، م. باريس ، 45 و ، 46 و [قسم شعراء المغرب ، ط . 3 ، تونس 1986 ، 106/1] ، ح. ح. عبد الوهاب ، الجمانة ، القاهرة 1953 ، المقدّمة .

97) أبو الحسن عبد الكريم بن فضّال القيرواني الحلواني ، ابن بسّام ، 4-219/1-231 ، العمري ، م. باريس ، 180 ظ ، الخريدة ، م. باريس ، 17 ظ ، 18 و ، معالم الإيمان ، 14/1 ، الميمني ، 103 ، الإحالة 2 . النجوم ، 124/5 : علي بن فضّال بن علي أبي الحسن المغربي القيرواني ، شاعر وناثر ، توفّي في غزنة في ربيع الأول 479 هـ/ 16 جوان ـ 15 جويلية 1086 م ، الخريدة ، م. باريس ، 120 و ، 121 و : أبو الحسن علي بن فضّال القيرواني المجاشعي النحوي (ذكر من بين المغاربة الذين ارتحلوا إلى سوريا أو العراق) . ولعلّ الأمر يتعلق بأحد أقرباء الحلواني .

وفيها ذاع صيته . وقد كان شعره متميّزاً بالروعة والرقّة والبساطة .

كما يبدو أنّ ابن الطلاّع[98] المهدوي قد عاش في نفس تلك الفترة وهاجر هو أيضاً إلى الأندلس .

وكان أبو الحسن علي الحصري[99] ، ابن عمّ إبراهيم الحصري صاحب كتاب زهر الآداب ، أو ابن أخته ، « قارئاً » وأديباً حاذقاً وشاعراً مفلقاً . وقد هاجر إلى الأندلس في سنة 450 هـ / 1058 م ، وحظي برعاية ملوك طوائفها . وكانّ ميّالاً إلى الهجاء ، واشتهر في القيروان بمعرفته للقراءات السبع ، وعُرِف بالإمام في هذا الفنّ . وهو مؤلف منظومة مشهورة في قراءة نافع . وقد أوحى إليه خراب القيروان ، ووفاة ابنه بعد رحيله من إفريقيّة ، بقصائد غرّاء[99م] .

وهاجر إلى الأندلس الشاعر والأديب القيرواني أبو الطيب عبد المنعم الذي ألف رسالة لنقض رسالة الشعوبي الشهير ابن غرسية[100] .

وأمّا العالم ابن الحدّاد المهدوي[101] (ت . حوالي 490 هـ / 1097 م) الذي كان الأمير تميم بن المعزّ يجلّه ويقدّره ، فقد اختصّ بتدريس النحو وألّف عدّة كتب في هذه المادة .

وبالإضافة إلى الشعراء الإفريقيين الذين يتعذّر عليهم استعراضهم كلّهم[102] ، تجدر

---

98) أبو محمد المهدوي المعروف باسم ابن الطلاّع ، ابن بسّام ، 4-222/1 ، العمري ، م. باريس ، 181 ظ .

99) أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الحصري ، ابن بسّام ، 4-216-192/1 ، الحميدي ، 296 عدد 716 ، ابن خلكان ، 343-342/1 ، ابن جزري ، 551-550/1 عدد2250، معالم الإيمان ، 250/3 ، شذرات ، 386-385/3 ، العمري ، م باريس ، 180 و ، ظ ، الخريدة ، م. باريس ، 16 ظ ، 188 و ، ظ : ترجمة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الحصري ، عنوان الأريب ، 56-55/1 ، المنتخب ، 84-86 ، ح. ح. عبد الوهاب ، مجلة الثريا ، نوفمبر 1944 .

99 م) [واشتهر علي الحصري بقصيدته : « يا ليل الصبّ متى غده » ، التي « عارضها جماعة لا تحصى من الشعراء المتقدمين والمعاصرين » ، ح. ح. عبد الوهاب ، مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص 159] .

100) أبو الطيّب عبد المنعم بن منّ الله بن أبي بكر الهوّاري ، ويبدو أن ابنه أبا بكر محمّد هو الذي عُرِف باسم ابن الكمّاد ، الصلة ، 383/1 ، عدد 385 ، التكملة ، 1 ، عدد 1051 و1052 ، نوادر المخطوطات ، القاهرة ، 1373 هـ/ 1953 م ، عدد 14 ، مجلة أرابيكا ، 1954 ، 371 .

101) أبو الحسن علي بن محمد بن ثابت الخولاني المعروف باسم ابن الحدّاد المهدوي ، ابن الأبار ، الحلّة ، 309-307/1 ، البلدان ، 208/8 ، البيان ، 298/1 ، ابن خير ، 319-320 ، المنتخب ، 88-89 ، مخلوف ، 481/1 ، التجاني ، 238 .

102) الخريدة ، م . باريس ، 67 ظ ، 68 و [ط . تونس 160/1-163] ؛ حميد بن سعيد بن يحيى الخزرجي ، من ندماء تميم بن المعزّ ، وقد جمع شعره ، نفس المصدر ، م . باريس ، 67 و ، مكرّر : الحصيبي شاعر بلاط تميم ، ابن الأبار ، =

الإشارة إلى الشعراء الأجانب الذين عاشوا في بلاط الأمير تميم بن المعزّ ، وقد كان هو نفسه شاعراً مفلقاً ، تغنّى بملذّات الحياة[104] .

كما نشير أيضاً إلى الشاعر ابن النحوي التوزري[105] ت . 513 هـ / 1119-1120 م) الذي زاول دراسته في توزر والقيروان ، ثم طاف في أرجاء المغرب واستقرّ أخيراً في قلعة بني حمّاد . وقد تصدّر للتدريس واشتهر بقصيدته « المنفرجة » السائر ذكرها في الأقطار .

وكـان مظفّـر بن علي[106] ، كـاتب المعزّ بن بـاديس ، ثم كاتب حمّـو بن مليل صـاحب صفاقس ، أديباً أريباً ، كما أسلفنا .

وكان ابن عَيْذُون[107] التونسي (ت . بالإسكندرية أواخـر 519 هـ / 1126 م) من كبار علماء اللغة في عصره .

ويُعتبَر ابن بشير[108] من أحسن الشعراء الذين مدحوا عليّاً بن يحيى بن تميم . إلاّ أنّ أَجْوَد مَنْ مدحوا آخر أمراء بني زيري هو بلا نزاع الشاعر الصقلي الذائع الصيت ابن حمديس[109] الذي

= الحلّة ، 308 : أبو الحسن بن خصيب ، أبو عبد الله محمد بن علي القفصي الأعمى ، ابن بسّام ، 1-351/11 : عتيق المغنّي المهدوي ، ابن خلكان ، 339/1 والكامل ، الترجمة 510 : ابن محمد خطيب سوسة (أو ابن خطيب سوسة) الخريدة ، م . باريس ، 68 و [ط . تونس ، 164/1] : محمد بن حبيب المهدوي القلانسي ، شاعر تميم ، الباب السادس الفصل الثاني من هذا الكتاب (مدة ولاية علي بن يحيى) : محمد بن عبد الله الكاتب ، نقائش عربية ، 2/ عدد 384 .

103) ابن الأبار ، الحلّة ، 308/1 : أبو إسحاق بن خفاجة (انظر أيضاً الخريدة ، م . باريس ، 1 ظ [ط . تونس 147/3] ، عبد الله بن عبد الجبار الطرطوشي ، أبو الحسن علي بن عبد العزيز الحلبي ، المعروف باسم الفكيك .

104) ابن الأبـار ، الحلّة ، 307-310 ، أعـمال ، 457 ، الخـريـدة ، م . بـاريس ، 59 ظ ، 67 ظ [ط . تـونس 141/1-160] ، وقد أورد المؤلف مقطوعات كثيرة من ديوان تميم سلمها إليه ابن شدّاد .

105) أبو الفضل (أو أبو المحاسن) يوسف بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النحوي التوزري ، المنتخب ، 91-92 ، عنوان الأريب ، 50/1-52 ، الخريدة ، م . باريس ، 132 و ، المكتبة العربية الصقلية ، 603 .

106) التجاني ، 52-53 ، الحلل ، 137/1-138 ، مقديش ، 83/2 .

107) أبو الحسن علي بن عبد الجبّار بن سلامة بن عيذون الهذلي التونسي ، ابن قفطي ، 292/2-293 ، عدد 474 ، أدباء ، 8/14-10 شذرات ، 59/4 . وقد نظم قصيدة ذات قافية واحدة تشتمل على 11000 بيت للحض « المرتدّ البغدادي » ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1954 م ، 146 .

108) أبو عبد الله محمد بن عبد الصمد بن بشير التنوخي المهدوي ، التجاني ، 72 ، الحلل ، 243/1 ، مخلوف 126/1 عدد 366 ، المنتخب ، 93 ، الخريدة ، م . باريس ، 117 ظ ، 118 و ، الصفدي ، 258-259 ، عدد 1286 .

109) أبو محمد عبد الجبّار بن أبي بكر بن حمديس الأزدي الصقلي ، ابن حمديس ، الديوان ، نشر سكيابرلي، الخريدة ، م . بـاريس ، 20 ظ ، 27 و ، العمري ، م . بـاريس ، 74 و ، 77 و ، الصفـدي ، Reudiconti ، 565/22 ، =

هاجر أوّلا إلى إفريقية ثم إلى الأندلس ، وقدم بعد ذلك إلى المهدية والتحق بخدمة علي ثم الحسن (على الأقلّ حتى سنة 1123 م)[110] . وإثر ذلك انتقل إلى ميورقة (أو بجاية) وبها توفّي ، وكانت صنعة الشعر عند ابن حمديس جديرة بابن شرف أو ابن رشيق ، ولكنه كان يتميّز بنبرات خاصّة ، لا سيما عندما يتغنى بملذات الحياة .

وكان أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز[111] أحد كبارِ ممثّلي الثقافة المغربية في عصره . ويحقّ لإفريقية أن تنسبه إلى نفسها ، لأنه عاش في ربوعها من سنة 506 هـ / 1112-1113 م ، إلى أن أدركته المنيّة سنة 529 هـ / 1135 م ، ودُفِن بالمنستير . وقد تسنّى لهذا الرجل المتعدّد الاختصاصات ، بفضل تبحّره في شتّى العلوم والفنون ، أن يتألّق في عدّة موادّ أدبية وعلمية أو شبه علمية . وكنّا أشرنا في مقدّمة هذه الدراسة إلى كتاب الأخبار الذي وضعه أبو الصّلت لصاحب

ابن خلكان ، 302/1-303 ، النويري ، 105/1 التكملة ، 2/ عدد 178 ، ستوريا ، 592/2-602 تكملة المجلد الثاني ، ص 15-17 ، المكتبة العربية الصقلية ، 607 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، المجلة التونسية 1917 ، 18-19 ، عنوان الأريب ، 125/1 ، بروكلمان ، 317/1 (269-270) ، الذيل ، 474/1 ، دائرة المعارف الإسلامية ، 406/2 ، ابن حمديس ، تأليف فـ . غريالي ، مازرة 1948 . واعتبر ابن بشرون ابنه محمد أعلى قيمة من أبيه ، الخريدة ، م . باريس 27 و ، ستوريا ، 602/2 ، المكتبة العربية الصقلية ، 607-608 .

110) تاريخ واقعة رأس الديماس التي أوحت إليه بقصيدة . انظر الفصل الرابع من الباب السادس : واقعة الديماس (517 هـ/1123 م) .

111) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الدّاني الأندلسي ، انظر بالإضافة إلى المصادر التي سيرد ذكرها في الفصل الخامس من هذا الباب : التكملة ، تحقيق ابن الشنب عدد 539 ، ابن أبي أصيبعة ، كتاب طبقات الأطبّاء ، 52/2 أدباء ، 52/7 ، ط . الجزائر 1958 م ، 54-80 ، الصفدي ، المجلة الآسيوية مارس - إفريل 1912 م/289 ، الرسالة المصرية ، في نوادر المخطوطات ، 1/ القاهرة 1370 هـ/1951 م ، الخريدة ، م . باريس ، 76 و ، 114 ظ [ط . تونس ، 189/1-270] ، التجاني ، 53 ، الحلل ، 138/1-139 ، م . تونس ، 175 ظ ، ابن الصيرفي ، المقدمة ، 110 ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، 250/1 ، المكتبة العربية الصقلية ، 600-603 ، عنوان الأريب ، 58/1-59 ، مقديش ، 83/2-84 . وأورد صاحب الخريدة [ط . تونس 273/1-284] قائمة الأشخاص الذين كان يتبادل معهم أبو الصلت الرسائل نظماً ونثراً وهم : أبو الضوء سراج بن أحمد بن رجاء الكاتب الذي نظم قصيدة في رثاء ولد رجار ملك صقلية (استشهاد بكتاب المختار في النظم والنثر لأفاضل العصر لابن بشرون) ، وأبو أبو عبد الله محمد بن عبد الصمد بن بشير التنوخي (السالف الذكر) وأبو جعفر عبد الوالي البني الكاتب وأبو حفص عمر بن علي المعروف باسم الزكرمي المهدوي والشيخ أبو الفضل جعفر بن الطيب بن أبي الحسن الواعظ . وذكر العماد الأصفهاني أنه اطلع على ديوان أبي الصلت في دمشق ، وقد كانت القصائد مرتبة على حروف الهجاء وأحياناً مؤرّخة .

[انظر أيضاً ، محمد المرزوقي ، ديوان الحكيم (أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني) ، تونس 1974 م] .

112) انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

المهدية[113] . وقد برع في مدح أمراء بني زيري الثلاثة الأخيرين ، ويكفي شعره الرائع لدعم شهرته، ونـزولاً عند رغبة الأمير المتنوّر وراعي الأدب يحيى بن تميم الذي كانت ثقافته تجمع بين الأدب وعلم الفلك والكيمياء ، ألّف أبو الصلت **الرسالة المصريّة** التي تتضمّن وصف مصر كما شاهدها المؤلف ، ولا تخلو من الطرافة[114] .

كما ألّف للأمير الحسن كتابه الشهير الحديقة الذي ترجم فيه لشعراء عصره . ويقال إنه كتبه على أسلوب كتاب الثعالبي يتيمة الدهر[115] . وأخيراً فهو صاحب كتاب في علم المنطق ، يحمل عنوان : **تقويم الذهن في المنطق** .

وكان ابنه عبد العزيز بن عبد العزيز (وُلد بالمهدية وتوفّي في بجاية سنة 546 هـ / 1151 م) شاعراً حاذقاً ولاعباً بارعاً من لاعبي الشطرنج[116] .

ونقلت لنا المصادر أسماء بعض الأدباء والشعراء المقلّين الذين عاشوا في أواخر العصر الصنهاجي[117] ، وسنكتفي بالإشارة إلى اثنين منهم ، وهما :

1 ـ التّراب السوسي[118] المشهور بقصيدته الطويلة التي مدح بها جبارة بن كامل صاحب سوسة . وقد أوردها التجاني في رحلته مبرّراً ذلك بقوله : « وقد أولع أعراب زماننا بإنشادها وترددادها ، ولأجل ذلك ذكرناها بكمالها وإن كان فيها بعض طول ، فإن الحسن غير مملول »[119] .

2 ـ الشاعر الهلالي فرحان القابسي[120] (ت . 555 هـ / 1160 م) ، وزير مدافع بن رُشيد

113) انظر مقدّمة هذا الكتاب (الجزء الأول) .

114) [**الرسالة المصرية** : مطبوعة حققها ونشرها عبد السلام هارون في الجزء الأول من مجموعة نوادر المخطوطات ، ذكرها ياقوت في المعجم وابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء وقال إنها « في وصف هيئة مصر وآثارها ومن اجتمع فيها من أطبّاء ومنجّمين وشعراء» ، ألفها ليحيى بن تميم] .

115) [**الخريدة** ، ط . تونس ، 189/1] .

116) ابن خلكان ، 81-80/1 ، شذرات ، 84/4 ، **الخريدة** ، م . باريس ، 114 و ، ظ .

117) [انظر تراجم هؤلاء الشعراء في المصادر السالفة الذكر وبالخصوص **الخريدة** ، وكتاب **الجنان** لابن الزبير و**مسالك الأبصار**] .

118) **الخريدة** ، م . باريس ، 54 ظ ، 57 ظ ، التجاني ، 31-37 ، الحلل ، 128-123/1 ، **عنوان الأريب** ، 50-49/1 .

119) نقل التجاني هذه القصيدة بحذافيرها .

120) سلّام بن أبي بكر بن فرحان الهلالي ، **الخريدة** ، م . باريس ، 51 و ، 52 و ، ط . تونس ، 123/1 المكتبة العربية الصقلية ، 598-599 ، المنتخب ، 96 ، **عنوان الأريب** ، 60/1 . وقد توفي كما أسلفنا (الفصل 6 الباب 6) في أواخر شعبان 554 هـ/ أوائل سبتمبر 1159 ـ .

صاحب قابس ، ومادحه .

ويبدو أنّ الحياة الأدبية في إفريقية بعد غزوة بني هلال ، قد تميّزت بثلاث خصائص وهي : استمرار التقاليد القيروانية التي انتشرت في جميع آفاق البلاد ، واستيعاب بعض الأعراب المقيمين في المدن لتلك التقاليد ، وظهور اتّجاه جديد نحو إكساب الشعر صبغة بدويّة .

الفصل الرابع
الثقافة العبريّة

لقد اشتهرت المدرسة العبرية في القيروان عند ظهور الدولة الصنهاجية[1] ، بفضل عالِمَيْن جليلَيْن هما : إسحاق بن سليمان الإسرائيلي[2] (ت . حوالي 320 هـ / 1120 م) ودونش بن تميم[3] . فقد عُرِف إسحاق بن سليمان بوصفه طبيباً يحظى بتقدير الفاطميّين وثقتهم . أمّا زميله أبو سهل دونش بن تميم ، فهو صاحب شرح سفر التكوين الذي وضعه سنة 344 هـ / 955-956 م ، وهو عبارة عن محاولة تأليفية رائعة محرّرة في الأصل باللغة العربية ، حول الإسهامات الإغريقية العربية والشريعة الموسويّة[4] ، وتدلّ المقاطع التي وصلتنا من نقل هذا الكتاب إلى اللغة العبرية ما كان يتمتع به صاحبه من ثقافة موسوعية ومن معرفة جيّدة بالنظريات النحويّة العربية على وجه الخصوص . وقد استوحى دونش بعض أفكاره من الشرح الذي وضعه سعدية بن يوسف الفيّومي (268-331 هـ / 882-942 م) ، ولكنه نقض في كثير من المسائل آراء ذلك « الرائد العالمي » الشهير[5] . وذكّر دونش في مقدمة كتابه بأن سعدية كان ، قبل انتقاله من فيّوم إلى بغداد ، يتبادل الرسائل مع أستاذه إسحاق بن سليمان. ورغم أنّ عمره لم يكن يتجاوز آنذاك العشرين سنة ، كان دونش يبين أخطاء سعدية لأستاذه إسحاق بن سليمان المبتهج بنضج تلميذه المبكّر . وكان دونش طبيب الخليفة الفاطمي المنصور ، وقد قدّم إليه أحد المصنّفات التي ألفها في علم الفلك . كما كان

---

1) دائرة المعارف اليهودية ، 1414/7-1416 .
2) إسحاق الإسرائيلي : G. Vajda ، مدخل للفكر اليهودي ، 65-68 ، 222 ، ابن أبي أصيبعة ، 1958 ، 6-8 .
3) دونش بن تميم : G. Vajda ، المرجع المذكور ، وبالخصوص أطروحته ، الشرح القيرواني على سفر التكوين ، باريس ، 1945 (أطروحة مرقونة في مكتبة الصوربون) ، مجلة الدراسات اليهودية ، 7 (CVII) ، 1946-47 ، 97-156 ، 10 (CX) ، 1949-50 ، 67-92 ، 12 (CXII) ، 1953 ، 3-5 . حوليات معهد فقه اللغة والتاريخ الشرقي والسلافي ، 13/1953 ، تحية إيزيد ورليفي ، 641 ، ح . ح . عبد الوهّاب ، مجلة الندوة التونسية ، جانفي 1953 ، [انظر أيضاً لنفس المؤلف ، ورقات ، 297/1-300] .
4) تفضّل G. Vajda بإعلامنا أنّه تحصّل على قطعَتَيْن هامتيْن من الأصل العربي .
5) G. Vajda ، مدخل للفكر اليهودي ، 45-60 .

يتبادل الرسائل مع اليهودي الأندلسي الشهير أبي يوسف حسداي بن إسحاق بن شبروت[6] (302-359 هـ / 915-970 م) ، وزير عبد الرحمان الثالث الذي ألّف له كتاباً حول التقويم اليهودي .

ونكاد لا نعلم أيّ شيء عن ظمح بن مر بهلول[7] الذي كان رئيس الطائفة اليهودية بالقيروان في عصر كبير الأحبار شريرة (الثلث الأخير من القرن العاشر ميلادي) . وقد أثبت ج . فَجْدَا أنّ بعض الكتّاب قد نسبوا إليه خطأً شرح سفر التكوين الذي هو من تأليف دونش ، كما أسلفنا . وقد اشتهر بالخصوص بتوجيهه على لسان الطائفة اليهودية بالقيروان إلى شريرة مجموعة من الأسئلة المكتوبة حول الروايات التلمودية وطريقة تبليغها ، ولدينا نصّ جواب شريرة الذي يُعتبر وثيقة على غاية من الأهمية حول التاريخ اليهودي[10] ، وقد كان نصفه محرّراً باللغة الأرامية ، والنصف الآخر باللغة العبرية . كما وجّه إليه شريرة رسالة حول الألقاب المسندة إلى العلماء التلموديّين . وتبادل يعقوب بن نسيم الرسائل مع الحاخام الأكبر هاي الذي استفتاه تلاميذ يعقوب حول القدرة الإعجازية لأسماء الإلاه .

ولتقدير أهميّة المدرسة اليهودية بالقيروان حقّ قدرها ، نذكّر بأن آسيا لم تعد هي الموجّهة للديانة اليهودية ، إثر انحطاط المدرسة البابلية . فقد شهد القرنان العاشر والحادي عشر من الميلاد تقلّص نفوذ كبار الأحبار البابليّين ، رغم جهود شريرة وصموئيل بن حُفْني[11] (ت . 403-404 هـ / 1013 م) وهاي[12] (ت . 429-430 هـ / 1038 م ز ، في حين كان غرب العالم القديم يشهد ازدهار الثقافة اليهودية الأندلسية التي شجّع بنو أميّة تطوّرها ، لفصل رعاياهم اليهود عن الخلافة العباسية في بغداد[13] . وتبعاً لذلك لم تعد القيروان التي كانت تمثل همزة الوصل بين الديانة اليهودية البابلية والأندلسية ، تقوم بذلك الدور ، إذ أنّ المدارس التي تأسّست في قرطبة

---

6) Graetz ، 215/3 وما بعدها ، Sarton ، 680/1 .

7) دائرة المعارف اليهودية ، 414-416/7 .

8) نفس المرجع ، 285-286/11 ، Sarton ، 687/1 .

9) نفس المرجع ، 40/7

10) نفس المرجع ، 284-285/11 .

11) G. Vajda ، المرجع المذكور ، 62 ، Graetz ، 252-253 .

12) G. Vajda ، نفس المرجع ، 62 ، دائرة المعارف اليهودية ، 153-155/6 ، Graetz ، 250-253/3 .

13) Graetz ، 215/3 وما بعدها .

ولوسينة وغرناطة بعناية يهود الأندلس المتمتعين بنفوذ ثقافي وسياسي واجتماعي كبير ، قد عوّضت المجمع اليهودي البابلي في كلّ من صورة ويمبديثة[14] .

ومن ناحية أخرى ، سمحت الفتوحات الفاطمية ليهود المغرب ، ولا سيما منهم يهود القيروان ، بالاتصال بفلسطين وإحياء تلمود أورشليم الذي هو أقدم من تلمود بابل ، وقد كان متفوقاً عليه إلى حدّ ذلك التاريخ .

فأصبحت الديانة اليهودية الإفريقية قادرة حينئذ على القيام بدور أكبر فأكبر ، لا سيما وهي لم تتعرّض ، حسبما يبدو ، لسياسة الاضطهاد التي أمر الخليفة الفاطمي الحاكم (ت . 411 هـ / 1020 م) باتباعها ضدّ اليهود والنصارى ، ولو أن آثار تلك السياسة في مصر ما زالت في حاجة إلى التوضيح[15] .

وقد شجّع نفوذ الحاخام حوشيعيل بن الهنن[16] القادم إلى القيروان حوالي سنة 380 هـ / 990 م ، الدراسات التلمودية وأعطاها اتجاهاً جديداً .

وقد وُلد هذا الحاخام على الأرجح في إيطاليا . ذلك أن الرسالة التي وجّهها إلى كبير أحبار القاهرة شمرية بن الهنن تسمح بالتأكيد أنه قدم إلى القيروان زائراً ثم استقرّ بها . وقبل اكتشاف هذه الوثيقة ، كان من المسلّم به ، استناداً إلى شهادة المؤرخ اليهودي الأندلسي إبراهيم بن داود (القرن 12 م) ، أن أربعة أحبار قادمين من صورة ومكلّفين بجمع مساهمات مختلف الطوائف اليهودية[17] ، كانوا موجودين على متن سفينة ، استولى عليها أمير البحر الأموي عبد الرحمان بن رماجس[18] في البحر الأدرياتيكي . ويقال : إن الأسرى الأربعة قد افتداهم بنو ملّتهم ، وإن شمرية الذي بيع في الإسكندرية قد أصبح رئيس الطائفة اليهودية في القاهرة . وتوجّه ناتان بن إسحاق كوهن إلى نربونة ، في حين أصبح موشي بن حنخ رئيس الطائفة اليهودية في قرطبة وأُنزِل حوشيعيل في المهدية وعُرِض للبيع في القيروان فافتداه أحد الأشخاص[19] .

---

14) نفس المرجع ،281-215/3، G. Vajda ، المرجع المذكور ، 79-94 .

15) Graetz ، 248-247/3 ، خطط ، في الاتعاظ ، 299-314 .

16) دائرة المعارف اليهودية ، 511-510/6 ، D.Cazés ، 64-62 ، Graetz ، 210-208/3 .

17) حول الأموال التي كانت ترسلها الطّائفة اليهودية بالقيروان إلى المجامع اليهودية بواسطة السفاتج ، انظر :

- W. J. Fischel, Jews in the economic political life of mediavel ıslam .
- J. Mann, Texts and studies in jewsh history and lıterature, 1/143-144.

18) ليفي بروفنسال ، إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر ، 153-155 ، تاريخ إسبانيا الإسلامية ، 231/3 .

19) J. Mann ، المرجع السابق ، 26/1-27 .

ومهما يكن من أمر ، فقد أصبح حوشيعيل ، بفضل معرفته الجيّدة بالتلمود ، يتمتع بنفوذ كبير ، إلى درجة أنه عُيِّنَ رئيساً للطائفة اليهودية بالقيروان ، بلا شكَّ بعد وفاة يعقوب بن نسيم .

وقد صار حوشيعيل من كبار العلماء التلموديّين ، إن لم يكن أكبرهم في القرن العاشر من الميلاد . فذاع صيته وأصبحت الفتوى تأتيه من يهود الأندلس والمغرب ومصر وسوريا . ولما توفي وهو متقدم في السنّ ، تلقّى ابنه حننعيل رسالة تعزية من الوزير الأندلسي ، ورئيس الطائفة اليهودية بغرناطة ، الحاخام صموئيل بن نغريلة[20] (384-417 هـ / 993-1055 م) الذي كان يحمل لقب أمير اليهود ، في عهد بني زيري بالأندلس . وقد أمر بإقامة الصلوات في غرناطة ولوسينة وقرطبة ترحّماً على روح الفقيد .

وبالنظر إلى كتابات تلميذَيْه حننعيل وتميم بن يعقوب ، نلاحظ أن الاهتمام الذي أولته المدرسة القيروانية من جديد إلى تلمود فلسطين ، يرجع إلى تعاليم حوشيعيل . وقد خلفه هذان التلميذان اللّذان تقلّدا على التوالي رئاسة المجمع اليهودي ومنصب حاخام القيروان ، دون أن نعرف هل كان أحدهما متفوّقاً على الآخر . ويبدو أنّهما كانا متفاهِمَيْنِ يعملان جنباً إلى جنب وباتفاق تامّ .

ولم يتتلمذ حننعيل[21] (379-442 هـ / 990-1050 م) إلى أيّ أستاذ غير والده ، ولكنّه أخذ كثيراً عن كبير الأحبار في بمبديثه ، وكان يتبادل معه الرسائل بانتظام . وقد ساهم كثيراً في إعادة العمل بتلمود أورشليم . كما ساعد شرحه على التلمود الموافق تماماً لتأويل الحاخام الأكبر هاي ، الخالي من أي صبغة صوفية ، على ضبط النصّ الصحيح للتلمود ، وذلك بالرجوع إلى أقدم المخطوطات التي كانت على ذمّته . ولا بدّ أنه كان يحذق العربية واليونانية ، لأنه شرح كثيراً من الألفاظ التابعة لهاتين اللغتين . كما حرّر جميع كتبه بلغة عبريّة جيّدة ، ونظم أبياتاً من الشعر لرثاء الحاخام الأكبر هاي ، وقد كانت آثاره المتعلقة بتفسير التلمود معروفة في أوروبا القروسطية التي يبدو أنها كانت تجهل أصلها الشرقي . ومن بين مؤلفاته نشير إلى شرحه المختصر لقسم من التلمود ، الذي كثيراً ما اعتمده إسحاق الفاسي وناتان بن يحييل[22]. وقد كان من أغنياء التجار ، وترك لبناته التسع ثروة طائلة تتمثل في عشرة آلاف قطعة من الذهب . وتقول المصادر : إنه توفّي أثناء الغزوة

---

20) Graetz ، 253/3-261 ، Sarton ، 704/1 .

21) دائرة المعارف اليهودية ، 205/6 ، Graetz ، 248/3-249 .

22) حول هذا المعجمي الإيطالي (المولودقبل1035هـ ، ت. 1106 م) انظر ، دائرة المعارف اليهودية ، 180/10-183 .

الهلالية التي يبدو أنه كان من ضحاياها حوالي سنة 442 هـ / 1050-1041 م . كما توفي في نفس تلك السنة صِنْوُه نسيم بن يعقوب .

وقد أخذ هذا الحاخام[23] أوّلاً عن أبيه يعقوب بن نسيم بن شاهين، حاخام القيروان ، ثم عن حوشيعيل الذي خلفه في تلك الخطّة . واعتمد كثيراً ، مثل رفيقه في الدراسة حننعيل التلمود الفلسطيني ، وتبادل الرسائل مع الحاخام الأكبر هاي ، وأبلغ صموئيل بن نغريلة الشهير الرّسائل التي كان يوجّهها إليه هاي ، وساهم بذلك في نشر العلوم التلمودية البابلية في الأندلس .

وكانت الطائفة اليهودية بالقيروان مدينة إلى حدّ كبير لذلك الوزير الأندلسي الغني والقويّ النفوذ في عهد بني زيري أصحاب غرناطة ، بما كان يخصّها به من دعم مالي (وربما سياسي) وقد مدّ صموئيل يد المساعدة إلى نسيم بن يعقوب الذي كان فقيراً ، وزوّج ابنه يوسف بابنة نسيم الوحيد .

وبالعكس من حننعيل ، كان نسيم المتمرّن على الأدب الإسلامي يكتب باللغة العربية[24] . ومن بين مؤلفاته نشير إلى شرحه الشهير للتلمود الذي يحمل عنوان **مفتاح مغالق التلمود** ، وقد وضعه حوالي سنة 1083 م ، وكتاب **قصص أخلاقية** ألّفه بطلب من دونش والد زوجته الذي فقد ابنه ، وكتاب آخر مفقود يحمل عنوان : **سدّور خط تفلة** ، وهو يتضمّن بلا شكّ معلومات حول الطقوس اليهودية القيروانية . والجدير بالذّكر[25] أن نسيم بن يعقوب كان له كرسي شرفي في البيعة إلى جانب تابوت القانون . وعندما ينتهي كوهن وليفيتيس من تلاوة الأناشيد الدينية الأسبوعية تُسلّم إليه لفائف القانون التي يستطيع عندئذ كل أحد الاقتراب منها .

وقد أكّد غولدزيهر[26] أن تفكير نسيم كان متأثراً شديد التأثر بالمذهب المعتزلي ، أكثر من تفكير صموئيل بن حفني ، وهاي ، وسعدية . وكان بودّنا لو علمنا كيف تعلّم نسيم مبادىء هذا المذهب الذي كان شائعاً على نطاق واسع في العصر الأغلبي . ولا تسمح لنا مصادرنا العربية

---

23) نفس المرجع ، 317-315/9 ، D. Cazès ، 65-64 ، Graetz ، 249-248/3 ، غولدزيهر ، نصوص يهودية عربية ، نسيم بن يعقوب المعتزلي ، مجلة الدراسات اليهودية ، XLVII ، 1902 ، 179-186 ، ح. ح. عبد الوهاب ، مجلة الندوة ، جانفي ، 1953 ، S.D. Goitein ، اليهود والعرب ، نيويورك ، 1955 ، 197 .

24) ولكن بلا شك بحروف عبرية ، حسبما جرت به العادة عند اليهود في القرون الوسطى ، انظر W.J. Fischel ، المرجع السابق ، 16 ، الإحالة 4 .

25) دائرة المعارف اليهودية ، 416-414/7 .

26) غولدزيهر ، المرجع المذكور ، مجلة الدراسات اليهودية ، XLVII ، 1903 ، 179-186 .

المغرضة ، بأن نستنتج من سكوتها انقراض ذلك المذهب في عهد بني عبيد وبني زيري . ولعلّ نجاح المذهب الأشعري في إفريقية يثبت عكس ذلك . ويمكننا أن نقرّ بأن علم الكلام الإفريقي قد استوعب بصورة تزيد أو تنقص المذهب الشيعي ، وبالخصوص المذهب المالكي الذي كان عهدئذ في أوج تطوّره . ولكن لا شيء يجبر اليهود على التخلّي عن التقاليد التي لا شكّ أنها لم تزل رائحة عندهم آنذاك ، والموروثة عن إسحاق بن سليمان الإسرائيلي الشهير الذي كان قبل ذلك بقرن يمثّل علم الكلام اليهودي أصدق تمثيل . ومع ذلك فإن أصل تكوين نسيم في المذهب المعتزلي قد يكون في آن واحد شرقياً ومغربياً . وقد كانت استدلالاته مطبوعة بطابع علم الكلام ، إلى درجة أنّ غولدزيهر لم يتردّد في وصفه بالمعتزلي . ذلك أنه ، اقتداء بالمؤلفين المسلمين الذين يعلنون عن مذاهبهم في فاتحة مؤلفاتهم ، قد استهلّ كتابه مفتاح مغالق التلمودُ بفصل حول العقيدة التي يمكن أن تكون عقيدة كاتب معتزلي . فقد نفى فيه صفات إلاه إسرائيل الذي هو « حكيم في ذاته ولا تختلف حكمته عن ذاته . . » . وتكتسي جميع فصول الكتاب نفس هذه الصبغة . فهو يقول مثلا إنّ الإلاه لا يفرض على عباده أيّ حكم لا يستطيعون تنفيذه ، وإلاّ لما كان عادلاً ، حسب تصوّر المعتزلة « للتكليف » . وإن الإلاه يَهَب المعرفة بحكم نعمته الضرورية الملازمة للذات البشرية . ونرى في ذلك أيضاً تعبيراً عن نظرية أخرى من نظريات المعتزلة تتعلق « باللّطف » . كما أنّ فكرة تطابق صفات الإلاه الأساسية التي ترتكز عليها بعض تأويلات الكتاب المقدّس ، تمثل إحدى نظريّات الاعتزال . فقد خلق الإلاه صفة الكلام لغرض خارجي ، بحيث يصبح كلامه المخلوق قابلاً للإدراك خارج ذاته . وهذه بالذّات هي عقيدة « كلام الله المخلوق » التي اقتبسها سعديّة من علم الكلام .

وأخذ عن نسيم بن يعقوب عدد كبير من التلاميذ من بينهم بعض يهود الأندلس الذين نشروا تعاليمه في بلادهم . إلاّ أنّ المؤلف الوحيد الذي يمكن اعتباره من تلاميذه هو بلا ريب ابن جسوس[27] .

ومن المعلوم أن نسيم بن يعقوب قد توفي سنة 442 هـ / 1050-1051 م ، أي نفس السنة التي توفي فيها حننعيل ، وربما في نفس الظروف المأسوية .

وقد ظلّت بعض مراكز الدراسات العبرية[28] قائمة الذات في المهديّة بعد غزوة بني هلال

27) أبو إبراهيم إسحاق بن كستر (أو سكتر) بن جسوس ، المعروف باسم يصحقي (982 هـ ـ 1057 م)، وهو طبيب وفيلسوف ، عمل في خدمة مجاهد الداني وابنه علي إقبال الدولة ، Graetz ، 273/3 .

28) S. Poznanski ، قلعة بني حماد ، مجلة الدراسات اليهودية ، ج 58 ، 1909 ، 298 ، D.Cazès ، 72-66 .

وتشتّت يهود القيروان[29] ، بفضل بني زغمار ، وكذلك في قلعة بني حماد الذي كان على رأس مدرستها التلمودية ديّان بن فرمش ، بلا شكّ بعد رحيل إسحاق الفاسي .

وأصبح يعقوب الفاسي[30] المولود بقلعة بني حماد سنة 403-404 هـ / 1013 م ، رئيس الدراسات التلمودية بعد وفاة حننعيل ونسيم ، وقد تتلمذ إليهما في القيروان حسبما يبدو . وفي سنة 480-481 هـ / 1088 م ، اضطرّ يعقوب الفاسي إلى الفرار إلى القلعة ، فوشى به إسرائيليّان : خلفة بن الأعجاب وابنه حيّم ، ولا ندري لأيّ سبب سياسي أو شخصي فعلا ذلك .

وقد أكّد بوزننسكي ، استناداً إلى أصل المعني بالأمر ، وإلى مقتطفات من أجوبة مكتوبة بفاس وصادرة عن تلاميذه ، أنه استقرّ في أوّل الأمر في هذه المدينة وأسّس بها معهداً قبل هجرته إلى الأندلس . فسارع أبو الحسن يوسف ، ابن صموئيل بن نغريلة وخليفته إلى استقباله في قرطبة ، ثم في غرناطة . وإثر مقتل مُضيِّفه[31] استوطن يعقوب الفاسي لوسينة وتوفّي بها سنة 497 هـ / 1103-1104 م . وقد اكتسب من الشهرة ما جعل اليهود يعتبرونه أعلم حاخام بعد الحاخام الأكبر هاي . وقد تفوّق كتابه « هلاخت » ، وهو تلخيص لقسم من التلمود ، على كتاب حننعيل المماثل[32] .

إلا أنّ الثقافة العبرية في إفريقيّة كانت وقتئذ في حالة احتضار . فقد تحدّث ابن ميمون الذي زار هذه البلاد حوالي سنة 560 هـ / 1165 م عن جهل اليهود بأمور دينهم وعن تحجّر دراساتهم التلمودية . وتعجّب بالخصوص من امتناعهم عن أكل مؤخرة الحيوانات المذبوحة ، ومعاملتهم للمرأة الحائض بنفس المعاملة الوهميّة التي يعامل بها المسلمون نساءهم . فقد كان يهود إفريقيّة لا ينظرون للمرأة الحائض ولا يكلمونها ويمتنعون عن المشي على الأرض التي وطئتها قدماها[33] .

ومن الجدير بالتذكير العلاقات الوثيقة التجارية والقانونية وبلا شكّ الثقافية القائمة بين الطائفات اليهودية في المهدية والقاهرة وعدن ، ووجود قاضٍ من الأحبار (الديّان) في المهديّة .

29) انظر الفصل الرابع (ب . اليهود) من الباب الحادي عشر .

30) دائرة المعارف اليهودية ، 357/1-377 ، Graetz ، 285/3-286 ، Poznanski ، قلعة بني حماد ، مجلة الدراسات اليهودية ، ج 58 ، 1909 ، 297-298 ، D. Cazès ، 67-68 ، Sarton ، 751/1-752 .

31) يقول Graetz (273/3-274) أنه قُتِل سنة 1066 م أو على الأرجح سنة 1096 م .

33) D. Cazès ، 79-81 . [هذا التصرّف لا يشبه لا من قريب ولا من بعيد معاملة المسلمين للمرأة الحائض ، وكلّ ما في الأمر ـ كما هو معلوم ـ أن الشريعة الإسلامية تعفي المرأة المسلمة من الصلاة والصوم وأداء مناسك الحجّ ، أيام الحيض والنّفاس] .

الفصل الخامس
العلـوم

لما ارتقى بلكين إلى العرش ، بدأت المدرسة الطبية القيروانية تشتهر بالطّبيبَيْن الإسرائيليَّيْن ، إسحاق بن سليمان ودونش بن تميم[1] . كما أنّنا نعرف اسم طبيبَيْن آخرَيْن هما أعين بن أعين[2] وابن البرّاء[3] معاصر ابن الجزّار[4] (ت . 395 هـ / 1004 م عن سنّ تفوق الثمانين) .

واشتهر أحمد بن الجزّار تلميذ إسحاق بن سليمان الإسرائيلي خارج إفريقية . وله كتاب في الطبّ بعنوان « زاد المسافر » ، نُقِل في حياة المؤلف إلى الأندلس وصقلية ثم إلى إيطاليا وتُرجِم في الحين إلى اليونانية والعبرية واللاتينية . وله كتاب آخر يبحث في الأدوية البديلة [« أبدال الأدوية »][4م] . وقد كان ابن الجزّار غنيّاً جدّاً ، ولكنه كان يعيش عيشة بسيطة ويبتعد عن المحافل الرسمية ويعالج المرضى، ويوزّع الأدوية على المعوزين بلا مقابل ، وقد ألف لفائدتهم كتاب « طبّ الفقراء والمساكين » . وكان مرجعاً من المراجع الرئيسية بالنسبة إلى معاصره الطبيب المستقرّ في مصر ، محمد بن سعيد التميمي .

وكان طبيب المعزّ بن باديس ابن عطاء اليهودي[5] الذي هو بلا شكّ إبراهيم بن عطاء ، وقد أثنى عليه الحاخام الأكبر هاي ثناء جزيلاً[6] .

---

1) انظر الفصل السابق ، الثقافة العبرية .

2) معالم الإيمان ، 191/3 ، رياض النفوس ، م . باريس 104 و ، [ط . بيروت ، 501/2 ، انظر أيضاً ، ح . ح . عبد الوهاب ، ورقات 305/1] .

3) المدارك ، 2-3 ، 183 و .

4) Leclerc ، تاريخ الطب العربي ، باريس 1876 ، 413/1-416 . أحمد بن ميلاد ، المدرسة الطبية القيروانية في القرنين العاشر والحادي عشر ، باريس 1933 م ، 26-47 ، ابن جلجل ، 88-91 ، Sarton ، 682/1 [انظر أيضاً ، ورقات ، 306/1-322] .

4م) [ورقات ، 316/1 ، رقم13] .

5) معالم الإيمان ، 201-202 ، إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية .

6) دائرة المعارف اليهودية ، 782/9-785 .

ومارس الطبيب الأندلسي الشهير أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زُهْر (ت . حوالي 470 هـ / 1077-1078 م) مهنة الطبّ بالقيروان[7] .

وألّف أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز الداني (ت . 529 هـ / 1135 م)[8] الذي كان معجباً شديد الإعجاب بالطبيبَيْن الإغريقيَّيْن غليان وهيبقراط ، عدّة كتب في الطبّ نخصّ بالذكر منها : كتاب **الأدوية المفردة** وكتاب **الانتصار في الردّ على علي بن رضوان** ، وهو كتاب في الطبّ دافع فيه صاحبه عن حُنَيْن ضدّ هجومات علي بن رضوان ، و**رسالة العمل بالإصطرلاب** .

أمـا قسطنـطين الإفريقي[9] المتـوفّى في جبل كـاسينو سنـة (479-480 هـ/1087 م)، فقد وُلـد بقرطاجنة سنة 406 هـ / 1015-1016 م . وبعدما قام برحلة طويلة في أرجاء المشرق ، عاد هذا التاجر والطبيب الذي يقال إنه اعتنق الديانة المسيحية ، إلى قرطبة ثم ارتحل إلى سالرنو حاملاً معه مجموعة من المخطوطات ، وهو يعتبَر مؤسّس مدرسة سالرنو[10] . ودخل بعد ذلك إلى دير جبل كاسينو وأصبح المشرف عليه . وعكف هناك على ترجمة بعض المخطوطات العربية ، أو بالأحرى انتحلها . وكان من أكبر العاملين على تسرّب العلوم العربية إلى أروبا . فبفضله تعرّفت الأقطار المسيحية على إنتاج الأطباء القيروانيين : إسحاق بن عمران وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي وابن الجزار ، كما اطلعت على كتاب ابن أبي الرجال في علم الفلك .

وكانت موجودة بإفريقية « دمنات » أو مرستانات للمصابين بالأمراض المعدية التي يـطول علاجها ويخشى منها تسرب العدوى للسكّان ، مثل الجذام[11] .

ولدينا بعض المعلومات شبه الخرافية حول الكيمياء في العصر الصنهاجي . فقد نقلت لنا

---

7) دائرة المعارف الإسلامية ، 456/2 ، Leclerc ، 83/2 ، المقري ، ط . القاهرة ، 1949 ، 13/3 ، التكلمة ، 2/ عدد 1691 ، Sarton ، 231/2 ، ابن أبي أصيبعة ، الجزائر 1958 م ، 86-88 .

8) Leclerc ، 74-75/2 ، بـروكلمان ، 486-487/1 ، الـذيـل ، 889/1 Sarton 230/2 . [انـظر أيضـاً ، محمد المرزوقي ، ديوان الحكيم ، ترجمة أبي الصلت ، 5-44] .

9) Leclerc ، 539-541/1 ، أحمد بن ميلاد ، 48-53 ، Courtois ، المجلة التـاريخية ، 112 ، الإحـالة 3 ، دائـرة المعارف الإسلامية ، الذيل ، 51-52 ، ح . ح . عبد الوهّاب فصل في مجلة الندوة التونسية ، فيفري 1953 ، 5-6 ، Sarton ، 769/1 ، دائرة المعارف الإسلامية ، ط . 2 ، 61/2-62 (أبو بكر بن يحيى) . [انظر أيضاً ، ورقات ، 211-212/1] .

10) انظر حول هذه المدرسة Sarton ، 725/1-727 .

11) فتوى المازري (ت . 536 هـ/1141 م) ، البرزلي مخطوط ح . ح . عبد الوهّاب ، 62/2 ظ ، المعيار ، 235/3-236 : تمّ فحص رجل مصاب بالجذام من طرف طبيبَيْن عيّنهما القاضي ، أحدهما ذمّي .

بعض المصادر أنّ ابن أبي زيد ترك في مخلفاته آلات الكيمياء . وتضمّنت تركة أبي عمران الفاسي الكبريت الأحمر الذي اشتراه المعزّ بن باديس وردّه إلى بيت مال المسلمين . وكان رجل من أصحاب المازري يتعاطى صناعة الكيمياء ، « فسار بقصد ذلك ثم جاء بدنيا (ثروة) وافرة وأتى بشيء من صنعته . فأمر المازري باستخباره ، فنظره أهل المعرفة ، فكلّ من رآه يقول : طيّب . فقال : هل بقي أحد ممّن يعرف الطيّب ؟ فقالوا : نعم ، فلان ، وقد لزم داره من كبر سنّه ، فقال : اسألوه ، فسألوه فعرّفهم بما يُختبَر به ذلك ، فآل الأمر إلى تلاشيها »[12] .

وكان مربّي المعزّ بن باديس الشهير ، أبو الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب الشيباني[13] ، متضلّعاً في علم الفلك والنجوم ، وقد عُرِف في أوروبا باسم Albohazen أو Albohacen أو Abenragel . وقد حضر عمليات رصد النجوم التي تمّت في بغداد سنة 378 هـ / 988-989 م . ويوجد كتابه الفلكي « البارع في أحكام النجوم » مخطوطاً ، وقد تُرجِم إلى اللّغة القسطيلية القديمة حوالي سنة 1256 م ثم إلى اللغة اللاتينية . كما ألّف منظومة في علم الفلك ، ولدينا نسخة من شرحها باللغة العربية . وطلب إليه المعزّ بن باديس تقدير مدّة حياة أمير صقلية أحمد بن أبي الحسين المعروف بالأكحل ، وسعيد بن خزرون .

ودرس الفقيه أبو الطيّب عبد المنعم بن محمد بن إبراهيم الكندي (ت . 435 هـ / 1043-1044 م)[14] بنجاح العلوم التطبيقية وفكّر في ربط القيروان بالبحر .

وأسّس الأمير يحيى الذي كان مولعاً بعلم الفلك والكيمياء مخبراً في قصره بالمهدية [سمّاه دار العمل][15] .

---

12) معالم الإيمان ، 101/3-103 . كان الشاعر القيرواني ابن المؤدب ، وأصله من المهدية « مغرى بالسياحة وطلب الكيمياء والأحجار » ، ابن خلكان ، 221/2 ، [الأنموذج ، ص 177]

13) أعلمنا السيد ح . ح . عبد الوهّاب أن قبريّة ابن الرجال مؤرخة في سنة 426 هـ/1034-1035 . بروكلمان ، 224/1 ، الذيل ، 401/1 . دائرة المعارف الإسلامية ، 378/2 . ح . ح . عبد الوهّاب ، فصل في مجلة البدر ، 389/2-394 ، المنتخب ، 67 ، 68 ، ستوريا ، 436/2 ، الإحالة 3 ، عنوان الأريب ، 57/1-58 ، العمدة ، 2/1 ، 87 ، 243/2 ، البيان ، 273/1، Gerald Hilty، مجلة الأندلس، 1955/20 م ومجلّة أرابيكا، 1956 م، 131. نلينو: Raccolta dı Scriti editi efinedıti ، 5 ، 1944 م ، 340-341 .

14) ح . ح . عبد الوهّاب ، فصل في مجلة الثريا ، التونسية ، مارس 1945 م . إدريس ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1955 ، 32-33 .

15) ح . ح . عبد الوهّاب ، فصل في مجلة الندوة التونسية ، فيفري 1953 .

أبو الحسن علي بن القاسم بن محمد التميمي القسنطيني المغربي الأشعري الكيماوي ، الصفدي ، **Rendicontl** ، 378/25 .

وبطبيعة الحال ، كان أهل شرق الغرب الإسلامي المتطيّرون بصورة تزيد أو تنقص ، بحسب مستواهم الثقافي والديني ومحيطهم الاجتماعي ، يتعاطون شتّى أنواع أعمال السحر[16] .

16) فتاوى ضدّ السحر والتعزيم : فتوى ابن أبي زيد ، البرزلي ، م . الجزائر ، 133/1 و ، فتوى أبي عمران الفاسي ، المعيار ، 134/9 ؛ فتوى عبد المنعم بن خلدون ، البرزلي ، م . الجزائر ، 133/1 ظ .

الفصل السادس
الفنـون

1 ـ الهندسة المعمارية المدنية :

بالنظر إلى ما وصل إليه البحث في ميدان الآثار ، يبدو من قبيل الرهان تفريد فنّ صنهاجي خالص ، حيث يتعذّر فصل هذا الفنّ عن الفنّ الفاطمي الإفريقي . فقد بلـغ التلاحم بينهما حدّاً يفرض علينا أن لا نتحدث إلا عن فنّ فاطمي صنهاجي[1] .

ولئن تمتّعت إلى حدّ ما بعض المواقع في المغرب الأوسط ، مثل أشير وقلعة بني حمّاد ، بعزلة نسبية وبصلابة الموادّ المستعملة في البناء ، إلاّ أن كلّ العوامل قد ساهمت بالعكس من ذلك في هدم المعالم الصنهاجية بإفريقية بلا رجعة ، مثل أعمال النهب الشاملة وهشاشة الطّوب ، والـترميمات المتلاحقة ، وإعادة استعمال الرخام والآجرّ في بناء المراكز العمـرانية المجـاورة أو التابعـة لنفس المنطقة .

ومع ذلك فقد كان معظم الأمراء الصنهاجيّين بنّائين ، إذ بنى زيري وبلكين مدينة أشـير وغيرها من مدن المغرب الأوسط ، وشيّد المنصور قصر صبرة المنصورية ، وبنى المعزّ بن باديس قصراً في نفس تلك السنة ورمّم عدة معالم ، لا سيما في القيروان . وأقـام حمّاد وخلفـاؤه صرح القلعة ، وبنى الناصر وآخر أمراء بني حمّاد مدينة بجاية . ومنعت زحفة بني هلال ثم الخطر النرماني بني زيري المقيمين في المهدية من تشييد أيّ معلم . ذلك أن ضيق المكان لم يكن ملائماً لإقامة بناءات جديدة . وأما بالنسبة إلى ملوك الطوائف ، أفلم يبالغ الإخباريّون في ذكر آثارهم العمرانية من باب المجاملة ؟ .

وكان الفاطميّون المستقرّون في إفريقية ، عوض قطع صلتهم بالفنّ الأغلبي ، قد أقـرّوه

1) جورج مارسي ، الهندسة المعمارية الإسلامية في المغرب ، باريس 1954 م ، 63-113 ولنفس المؤلف ، الفنّ الإسلامي ، 68-90 ، سليمان مصطفى زبيس ، المجلة الأسيوية ، 1956 م ، 79-93 : المهدية وصبرة المنصورية هنري تـراس ، جامع الأندلسيّين ، فنّ الـدولة المـرابطيـة ، مجلة ستوديـا إسلاميكـا ، 1955/3 م ، 28-29 ، L.Golvin، المغرب الأوسط ، 180-211 .

وواصلوه ، ذلك أنّ هؤلاء المشارقة المُوَلّين وجوههم قِبَل المشرق ، كانوا يستمتعون بلا شك باكتشاف عدة اقتباسات عراقية ومصرية . ولكنهم كانوا أقلّ ميلاً من أسلافهم إلى البذخ ، ربّما تحت تأثير البربر ، ولا سيما منهم الكتاميين والصنهاجيين الأكثر تقشّفاً . ولذلك اعتمدوا الزخرف السطحي الرامي بالخصوص إلى تركيز نفوذهم ودعوتهم[2] . وبالعكس من ذلك يبدو أن الأمراء الصنهاجيين ، سواء المعزّ بن باديس أو بني حمّاد في بجاية ، قد تهذّبوا شيئاً فشيئاً وصاروا يتباهون بثروتهم .

فما هي أهمّ خصائص الفنّ المعماري الفاطمي الصنهاجي ؟ .

في ميدان الهندسة المعمارية لعب « تراجع الجدران في الاتجاهَيْن الأمامي والخلفي » المقتبس من الفنّ العراقي ، دوراً كبيراً ، إلى جانب إبراز الأروقة[3] . وتحت تأثير نفس العوامل ، زُيّنَت الواجهات بمحاريب صغيرة شبه دائرية ، ترتفع من القاعدة وتنتهي بتقوّس[4] . « وتتمثل إحدى خصائص ذلك العصر الجديرة بالملاحظة في تركيب واجهات عريضة ، تتوزّع عناصرها في الارتفاع والعرض ، بتناسق من الجهتين ، حول محور »[5] .

كما تتمثّل طريقة التسقيف الأكثر استعمالاً في « القبّة ذات الزوايا البارزة المتكوّنة من تقاطع قوسين في شكل نصف أسطواني » . والجدير بالملاحظة أن هذا الطراز لم يكن مستعملاً إلى غاية القرن التاسع من الميلاد إلّا في المواجل[6] .

أما الإيوان الذي هو من أصل فارسي عراقي ، فهو يتمثّل في « قاعة مقبّبة تفتح على الخارج بواسطة قوس كبير بلا واجهة » . وقد كان هذا الطراز مستعملاً مع طراز « مقابل القاعة »[8] . وكانت الغُرَف مزيّنة من الداخل بمحاريب صغيرة ذات قعر مسطّح ، مع تراجع الجدران أحياناً ،

---

2) الهندسة المعمارية ، 66 .
3) نفس المرجع ، 84 .
4) نفس المرجع ، 82 ، 84 ، 100-102 .
5) نفس المرجع ، 106 .
6) نفس المرجع، 70 .
7) نفس المرجع ، 80 ، النشرية الأثرية ، 1922 م ، 25-26 ، 1925 م ، 296 . ObjetsKairouanais ، 372/2.
8) الهندسة المعمارية ، 80 ، جورج مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 288 ، ديوان ابن هانىء ، ط ، القاهرة ، 135 هـ ، عدد 57 البيت الرابع (في المسيلة في عصر جعفر بن حمدون) ، Canard ، تحية جورج مارسي ، 43/2 .

مثلما هو الشأن بالنسبة إلى منازل القاهرة القديمة[9] .

وكانت قاعات القصور موزّعة حول خمسة صحون ، وهي تشبه قاعات قصور الأمويّين في سوريا[10] . كما تشبه القاعات الخمس التي اكتشفت منذ عهد قريب في صبرة المنصورية قاعات المنازل الطولونية في القاهرة القديمة[11] .

وتُعَدّ الحدائق والبساتين والأحواض والبِرَك من العناصر الأساسية لقصور الأمراء[12] . كما نلاحظ الميل إلى بناء قصرَيْن متقابلَيْن ، تفصل بينهما ساحة[13] .

ويمثّل تشكيل المآذن المربّعة طرازَيْن اثنين ، يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً . أما مئذنة جامع قلعة بني حماد فهي عبارة عن برج متّصل ذي جدران مقسّمة إلى ثلاث طبقات ومزيّنة ببعض الثقوب والمحاريب الصغيرة المميّزة للواجهات . وتُعتبر صومُعة جامع صفاقس المشتملة على ثلاثة بروج منضّدة ، مماثلة في شكلها للطراز القيرواني ، مع شيء من التهذيب ، ولكنها تتألف من حزّات متتابعة مستوحاة من الطراز الطولوني[14] .

2 ـ الهندسة المعمارية العسكرية :

كان بودّنا الحصول على معلومات فنية حول أسوار صبرة المنصورية والقيروان ، والسور المزدوج الذي بناه المعزّ بن باديس إبّان الزحفة الهلالية للربط بين المدينتين ، وكذلك الأسوار التي بناها في زويلة[16] .

ولم تعلمنا مصادرنا هل عزّز بنو زيري ، بعد غزوة بني هلال ، التحصينات الفاطمية

---

9) الهندسة المعمارية ، 84-87 ، جورج مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 288-290 ، Golvin ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع .

10) الهندسة المعمارية ، إضافة إلى ص . 78 (القصر الذي اكتشف في أشير) . سليمان مصطفى زبيس ، المجلة الآسيوية ، 1956 ، 86 ، Golvin ، المرجع السابق .

11) الهندسة المعمارية ، 80-81 ، ج . مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1952 م ، 286 .

12) ديوان ابن حمديس ، عدد 314 ص . 440-442 ، عدد 347 ص 482-486 : وصف قصر ودار شيّدهما المنصور بن الناصر بن حمّاد في بجاية .

13) الهندسة المعمارية ، 78 ، زبيس ، المرجع المذكور ، 81 .

14) الهندسة المعمارية ، 109 ، ج . مارسي ، الجامع الكبير بصفاقس ، تونس 1960 م .

15) الهندسة المعمارية ، 89-92 ، Golvin ، المرجع المذكور .

16) **Objets Kairouanais** ، 371/2 .

الموجودة في المهدية والتي لا نعرف عنها هي ذاتها شيئاً كبيراً . ومع ذلك نلاحظ أن المصادر لم تشر عند حديثها عن هجوم أبي يزيد ، إلى مقدّم الجدار المُحاط بخندق الذي تجتمع فيه مياه المطر ، وقد وصفه الإدريسي ، في حين لم يذكره البكري[17] .

أمّا تحصينات المدن التي بناها الصنهاجيون في المغرب الأوسط (أشير والقلعة وبجاية) ، فهي تتألّف من سور مبني بالحجر الخام ومحصّن ببروج متماشية مع شكل التضاريس ، ومن خصائصها أنها تتمثل في هضبة منحدرة تحيط بها الوِهاد ، وتستند إلى مرتفع صخري يقوم مقام المرصد والمحرز . وفي القلعة تمتاز أقواس الجسور الممدودة على الوهاد بشكلها الفارسي[18] .

وفي كثير من المدن التي كان بنو هلال يهدّدونها ، يضطرّ السكّان إلى توحيد جهودهم لإقامة تحصينات مرتجلة أو إصلاح المنشآت الدفاعية القائمة الذات[19] .

3 ـ الزخرفة :

لقد تمّ تجديد الزخرفة الداخلية باستعمال المحاريب الصغيرة والأقواس التي تمثّل العناصر الأساسية لتزيين الواجهات[20] . وأصبح النقش على الحجارة والرخام أدقّ مما كان في القرن السابق ، واكتسى النقش على الجصّ المطلي بالدهن في أغلب الأحيان أهمية بالغة ، واتخذت الزخارف أشكالاً متنوعة ، مثل لوحات العَرْبسة (الزخرفة العربية) والأسطوانات ذات الزوايا والتيجان ، والقُبَيْبات المضلّعة ، والشرافات الزخرفية والدّرابزينات المرصّعة بزجيجات ملوّنة[21] .

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى استعمال نصف القباب النخروبية والثقوب الصدفية ، والضلوع المتشابكة في أعلى المحاريب الصغيرة بواسطة قوس داخلي ، و« المُقَرْبصات » ، وإلى إثراء مجموعات الأقواس بظهور القوس البارز المعروف باسم القوس الفارسي[22] .

---

17) الباب السابع ، الفصل الأول (المهدية) .
18) الهندسة المعمارية ، 92 ، 94 .
19) فتاوى اللخمي ، المعيار ، 5/306-308 ، فتوى ابن الصائغ ، المعيار ، 5/306-307 .
20) الهندسة المعمارية ، 110 ، L. Golvin ، المغرب الأوسط ، في عدة مواضع .
21) الهندسة المعمارية ، 97 ، س . م . زبيس ، المجلة الأسيوية ، 1956 م ، 79-93 .
22) الهندسة المعمارية ، 101-103 ، إضافة إلى ص 102 . 495 ، L. Golvin تحية جورج مارسي ، 2/75-94 .

وكان المهندسون يزيّنون أعلى الأسطوانات بحلقات مزخرفة بالخطوط أو الزهور ويستعملون بكثرة الأعمدة الصغيرة ذات الزوايا المُجصَّصة[23] . كما أحدثوا نوعَيْن من تيجان الأعمدة ، وهما تاجٌ ذو أربعة ورقات مزيّنة بزخارف حلزونية ، وتاجٌ مزخرف بإكليلَيْن من الأقنثة ، مستوحى من الطراز الكورنثي[24] . وكانت زخارف الأفاريز المنقوشة على الخشب أو الحجارة متنوّعة ومبتكرة[25] .

وأمّا بالنسبة إلى الخزف[26] ، فإننا نلاحظ استعمال الزخارف في طلاء المآذن ، والدرابزينات ذات الزخارف المقطّعة والمشدودة بأواصر معدنية . كما ظهر ترصيع الخزف في البلاطات وتزيين الجدران ، ربّما إلى حدّ قامة الرجل ، في أغلب الأحيان ، بمربعات من الزليج مزخرفة بالدهن ، وطلي الجدران المجصّصة بطلاء ذي لون واحد أوبزخارف مدهونة[27] . وكانت رسوم عوارض الجامع الأعظم بالقيروان وسقوفه الخشبية ذات نفاسة عجيبة ، سواء من حيث الشكل أو من حيث اللّون[28] .

ويبدأ خلال العصر الفاطمي إعداد الزخرفة العربية المتقنة المعروفة باسم « العَرْبَسة » . ويتمثل العنصر الرئيسي من عناصر هذه النمنمة التجريدية ذات الكثافة المتماثلة بالنسبة إلى اللّوحة الواحدة ، في الشريطة المتشابكة الثابتة العرض . وتتولّد عن تشابك الأشرطة ، بصورة تكاد تكون مستمرة ، مضلّعات كوكبية الشكل ذات ثمانية رؤوس في أفضل الحالات[29] .

وقد ازداد أكثر فأكثر الدور الذي تقوم به النقوش المكتوبة[30] في الهندسة المعمارية وفنّ الزخرفة . ولم يزل الخطّ الكوفي العتيق المتركب من حروف صلبة ذات زوايا ، هو السائد وحده بلا منافس ، مع الخط النسخي . ولكن تحت تأثير العربسة التي هي عبارة عن « زخرفة مُغطّية » تقتضي استكمال الزخرف ، تمّت تعبئة الفراغ الموجود في القسم الأعلى من الفضاء الذي تحتلّه ذيول

---

23) الهندسة المعمارية ، 103-104 .

24) نفس المرجع ، 104-105 ، جورج مارسي ، **قباب وسقوف الجامع الأعظم بالقيروان** ، 19-20 .

25) **الهندسة المعمارية** ، 105-106 ، جورج مارسي **قباب وسقوف** . . . 39 .

26) **الهندسة المعمارية** ، 105-106 ، س . م . زبيس ، المرجع المذكور ، 90-91 . L. Golvin ، **المغرب الأوسط** ، في عدة مواضع .

27) **الهندسة المعمارية** ، 99-100 ، س . م . زبيس ، المرجع المذكور ، 88 .

28) **الهندسة المعمارية** ، 99-100 ، ج . مارسي ، **قباب وسقوف** . . .

29) **الهندسة المعمارية** ، 117-118 ، ج . مارسي ، **الفنّ الإسلامي** ، 78-79 ، 81 .

30) الهندسة المعمارية ، 111-113 ، **الفنّ الإسلامي** ، 79-80 .

الحروف الطويلة ، بواسطة عدة زخارف مثل إثراء وتعديل ذيول الحروف ، وتمديد الحروف المنفردة أو الواردة في آخر الكلمة ، وتغيير حجم بعض الحروف ، واستعمال الأغصان ومساطر الحروف ، والمتقوّسات والكسرات والأقواس الزخرفية والتشابيك ، واستعمال زخارف زهريّة ذات اثنتين أو ثلاث أو خمس قُوَيْسات ، كلّما أمكن ذلك . وأخيراً يُسَدّ الفراغ بزخارف زهرية ، بصورة محتشمة لكي لا تختنق الحروف ، وذلك قصد إدماج الكتابة في الزخرفة[31] .

والجدير بالملاحظة أن هذا الخطّ الكوفي المزخرف لم يكن من خصائص الفنّ الفاطمي الصنهاجي دون سواه ، إذ أنه مقتبس من أمثلة شرقية . ولكن ألا يكفي رونقه الفائق وبساطته التي لم يفسدها البريق ، لإكسابه شيئاً من الطرافة ؟ .

ونلاحظ من جهة أخرى في مشاهد القبور بمدينة تونس اعتباراً من سنة 490 هـ / 1096-1097 م ظهور الخط النسخي المزخرف إلى جانب الخط الكوفي المزخرف[32] . ويبدو أن مشاهد قبور بني خراسان كانت مصنوعة في معمل واحد ، يكتسي صبغة رسمية بصورة تزيد أو تنقص[33] .

أما التشبيك النباتي ، فهو يتميّز بالتخلّي أكثر من ذلك شيئاً ما عن منطق الأشكال ، سواء تعلق الأمر بالجذوع أو السعف أو الأزهار ، و« برسوم إنشائية متقنة أكثر مما كانت في العصر الأغلبي»[34]. ولكن ينبغي تجنّب الحديث عن الابتكار، بخصوص تلك الزخرفة النباتية التي يصعب تحديد أصلها . فقد صرّح جورج مارسي حول هذا الموضوع بما يلي :

« لقد اقتبست بلاد البربر أغلب أشكالها الزخرفية من مصر التي اقتبستها هي ذاتها من بلاد ما بين النهرين »[35] .

ومن ناحية أخرى ، فإن الجمع بين الطوب والحجارة ، لا سيما في مفاتيح العقد المتناوبة ، يفضي إلى تعدّد الألوان ، مع فارقَيْن في درجة إشراق اللّون . إلا أنّ فسيفساء البلاطات الأغلبيّة ذات المكعّبات السوداء والبيضاء ، قد عوّضتها أرضيّات مركّبة تركيباً أحكم وملوّنة بالأمغر

31) ج . مارسي ، **قباب وسقوف** . . . ، 36-39 .
32) س. م . زبيس ، Corpus ، 68/1 .
33) نفس المرجع ، والذيل ، 87 وما بعدها .
34) **الهندسة المعمارية** ، 113-116 ، **الفنّ الإسلامي** ، 18-82 ، **قباب وسقوف** . . . ، 41-42 ، 50 ، 55 .
35) **الهندسة المعمارية** ، 116 .

والأحمر ، وتعتبر فسيفساء المهدية أصدق مثال لذلك[36] . وقد اكتُشِفت بعض قطع من الرخام ، نُحِتت فيها حزّات لترصيعها بالفسيفساء الزخرفية ، كما اكتشفت بلاطات مرمريّة مجوّفة لإدماج قطع من الرخام الملوّن أو الطين المطلي[37] .

وكانت صور الإنسان موجودة في الرسوم بكثرة ، ما عدا في المساجد ، حيث تمنع الشريعة الإسلامية عرضها هناك . ومن بين تلك الصّور ، نشير إلى الأسود المنقوشة على باب المهدية ، والرسوم التي اكتشفت أخيراً في المنصورية والممثلة لعدد من المقاتلين ، والنقيشة الممثلة لملك يستمع إلى عازفة على آلة موسيقية . ولكن يبدو بالنسبة إلى هذه الصّور أن الفنّانين قد استوحوا أعمالهم الفنية من بعض الأغراض الفارسية والعراقية القديمة أكثر ممّا استوحوها من ملاحظة الواقع[38] .

4 ـ صناعة الخشب :

لقد أضيف ظهر جديد إلى منبر جامع الأندلسيين بفاس[39] الذي بُني في شوال 369 هـ / 20 أفريل ـ 18 ماي 980 م ، لما استولى بلكّين على المغرب ، ورُمّم سنة 375 هـ / 985-986 م ، مع المحافظة على طرازه . ولا نعرف إلى حدّ الآن خشباً منقوشاً في العهد الفاطمي ، سابقاً لهذا المثال الذي تأكّدت فيه ما يكتسيه الفنّ الفاطمي من صبغة تأليفيّة . فللمرة الأولى تمّ تنضيد الألواح المربّعة تنضيداً محكماً ، بحيث تقابل كلّ طبقة خطّاً في كلّ درجة من المنبر . وسنجد هذا الترتيب المخالف لترتيب المنبر الأغلبي الموجود في الجامع الأعظم بالقيروان ، في جميع الجوامع المغربية . وتعتبر « مشربيّات » منبر بلكين أقدم مثال في الغرب الإسلامي لهذا النّمط من النجارة .

واستعمل أمراء بني زيري وبني حمّاد المقصورة[40] لأداء الصلاة في الجامع بمعزل عن المصلّين . وبفضل فخامتها وتجديد نمطها ، تدلّ مقصورة المعزّ بن باديس على التحكّم البارع في

36) في قصر القائم المفترض ، الهندسة المعمارية ، 79 ، 86 ، 98 ، س. م . زبيس ، المجلة الأسيوية ، 1956 م ، 83-84 .

37) الهندسة المعمارية ، 98 ، س . م . زبيس ، المرجع السابق ، 87 .

38) الهندسة المعمارية ، 116-117 ، الفنّ الإسلامي ، 83 ، س . م . زبيس ، المرجع المذكور ، 88 ، 90-91 ، L. Golvin ، المغرب الأوسط .

39) هنري تراس H. Terrasse ، جامع الأندلسيين .

40) ابن خلدون ، المقدمة ، 72/2 .

فنّ النقش على الخشب[41] . وتعتبر الشبابيك المصنوعة من الخشب مثالاً جديداً لنجارة « المشربيّات » . ويرجع تاريخ النقيشة الرائعة المكتوبة بالخطّ الكوفي المزخرف على أرضية مزيّنة بالزهور ، إلى سنة 413 هـ / 1022-1023 م ، وهو تاريخ سابق للتاريخ الذي كان محدّداً إلى حدّ الآن[42] .

5 ـ النّحاس والبرنز[43] والحليّ والمصابيح :

إنّ المصباح الكبير المصنوع من النحاس والذي عُثِر عليه في الجامع الأعظم بالقيروان ، يحمل اسم المعزّ ، أي المعزّ بن باديس على الأرجح ، واسم النّحاس[44] .

واكتُشِف في منطقة الكاف وعاء مصنوع من الصلصال يحتوي على حليّ ونقود من الذهب . ويسمح تاريخ تلك النقود بتحديد الفترة التي خُبِّئت فيها (أواخر 436 وأوائل 437 هـ / 1044-1045 م) .

والجدير بالملاحظة أن الأساور والصفائح المثلثة والأقراط المتعددة الفصوص ، وحبّات القلائد ، لها ما يقابلها في المشرق ، سواء بالنسبة إلى الزخرفة أو بالنسبة إلى طريقة الصنع . فهي مصنوعة من الذهب المُطرّق أو من خيوط الذهب المفتولة[45] .

وأمّا المصابيح المنقولة[46] ، سواء كانت مصنوعة من البرنز أو من الصلصال (المطلي أو غير المطلي) فهي تشتمل على واحد أو ثلاثة أفواه ، ومجهّزة في الغالب بقمع ، مع غطاء ومقبض . وكلّ هذه التحف لا تتّسم بأيّ خاصيّة تميّزها عن التحف المكتشفة في البلدان الإسلامية الشرقية والغربية .

---

41) **الهندسة المعمارية** ، 71 ، 97-98 ، **الفنّ الإسلامي** ، 85-86 . حول الباب المنقوش الجميل التابع لضريح سيدي عقبة قرب بسكرة ، وهو نسخة مطابقة للخشب المصنوع بالقيروان والمنسوب إلى المعزّ بن باديس ، انظر ، ج . مارسي ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1939-1941 م ص 1 وما بعدها .

42) إدريس ، مجلة أرابيكا ، 1956 ، 214-215 .

43) **Objets kairouanais** ، 409/2-466 .

44) نفس المرجع ، 411/2-433 ، **نقائش عربية** ، 24/1-26 ، كاتشاريان ، مجلة أرابيكا ، 1956/3 ، 243 .

45) **Objets Kairouanais** ، 2 ، 467-491 .

46) نفس المرجع ، 459/2-466 .

6 - صناعة الزجاج :

لقد عُثِر في موقع صبرة المنصورية على مجموعة رائعة من الأواني المصنوعة من الزجاج المنقوش ، والمشتملة على أقداح وقوارير عطور ، مماثلة للأواني المصرية التابعة لنفس الفترة . ولا شكّ أن هذا الفنّ كان مزدهراً في قلعة بني حمّاد وبجاية وهما المدينتان المرتبطتان ارتباطاً وثيقاً بإفريقية في كافة الميادين الفنية[47] . وقد كانت الكؤوس والأقداح والقوارير وأوعية العطور مُقَوْلبة أو منفوخة ، ومزدانة بزخارف منقوشة بالمدقّة ومرصّعة بخيوط الزجاج ومزخرفة في أغلب الأحيان بصور الحيوانات . وهنا أيضاً يطغى التأثير المصري[48] .

وفي صبرة توجد بكثرة « عبرات الزجاج » ، وهي قطرات من الزجاج تتولّد عند اتصال الزجاج الذائب بالماء البارد . ولعلّ الدّرر الكبيرة الزجاجية البارزة التي تزخرف بعض الأواني ، قد صُنِعت بهذه الطريقة[49] .

ويبدو أنّ بني زيري وبني حمّاد ، مثل الفاطميين في المهدية وصبرة والقيروان ، كانوا يضربون ويطبعون الصّنوج المصنوعة من الزجاج[50] .

وقد سمحت الحفريات التي أُجرِيت في قلعة بني حمّاد وصبرة باكتشاف بقايا درابزينات مصنوعة من الجصّ ومرصّعة بالزجاج الملوّن « وببعض قطع من القوارير وعُرَى الأباريق وأعناق الأواني والقعور ، المزركشة أحياناً بزخارف مُقَوْلبة في شكل مجوّف » . ولون هذا الزجاج في الغالب أبيض ، وأحياناً أزرق وأخضر وأحمر . « وقد عُثِر على قطعة من وعاء مصبوغ في صلب الرخام الأبيض والأسود . وعُثِر على مثل هذه القطع في بجاية أيضاً »[51] .

واكتشفت في صبرة بعض المصابيح الزجاجية المعلّقة بواسطة سُلَيْسلات أو الموضوعة في أطواق دولاب. ولكنّنا لا نستطيع أن نؤكّد أنها صُنِعت في إفريقية . إذ يمكن أن تكون مستوردة من الشرق ، وعلى سبيل المثال من مصر[52] .

---

47) ج . مارسي ، بلاد البربر الإسلامية ، 180 .

48) ج . مارسي ، الفنّ الإسلامي ، 88 ، **Objets kairouanais** ، 2/371-406 .

49) سولينياك ، بحوث ، 70 .

50) [ح . ح. عبد الوهّاب ، ورقات ، 1/419-424 : الصّنوج] .

51) **Objets Kairouanais** ، 2/375 .

52) نفس المرجع ، 2/400-402 .

7 ـ التجليـــد :

توجد في الجامع الأعظم بالقيروان عدّة مخطوطات مجلّدة من الصنع المحلّي[52م] ، تسمح بإعادة رسم ملامح تطوّر هذا الفنّ من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر من الميلاد . وقد كان موضوع دراسة مستفيضة يمكن الرجوع إليها[53] .

وفي الجملة كان حجم المجلّد طوال العصر الصنهاجي مطابقاً للنموذج العتيق المستعمل في القرن التاسع ، وهو نموذج مستطيل وعريض أكثر مما هو مرتفع ، ويعرف باسم « النمط الإيطالي » . ويوضع السفر في علبة مغلقة[54] .

وتتميّز فئة المجلّدات التابعة للقرن العاشر[55] عن الفئة التابعة للقرن التاسع[56] ، بكونها عملاً فنيّاً متّسماً بأكبر عناية وأكثر نفاسة[57] ، وتتميّز الفئة الثالثة[58] (القرن الحادي عشر) بعدة مستحدثات . من ذلك أنّ الحجم لم يزل مطابقاً « للنمط الإيطالي » ، إلاّ أنّ حجم حوالي عشر نسخ كان مطابقاً « للنّمط الفرنسي »[59] وظهر نوع جديد من التسفير يتميّز بتجليد بسيط يشتمل على أجزاء مسطّحة خالية من الحواشي ومن أيّ جهاز إغلاق ، ولم تعد نواتها مصنوعة من الخشب ، بل من الورق المقوّى أو الرقّ ، مع بعض الأوراق العادية أحياناً . وبالنسبة إلى المجلّدات الصلبة المتخذة لشكل العلب والتي ما زالت رائجة آنذاك ، يقتصر الجزء المسطّح الداخلي في جلّ الحالات على ورقة من الرق . كما أضيفت إلى التزويق زخارف جديدة ذات تركيبات بارعة ودقيقة[60] .

وهناك فئة رابعة من المجلّدات[61] تابعة هي أيضاً للقرن الحادي عشر ، لا تشتمل إلا على

---

52 م) [لقد نُقِلت هذه المجلدات إلى مركز الفنون الإسلامية برقّادة] .

53) **Objets Kairouanais** ، مذكرات ووثائق ، 11/ السفر الأول ، تونس 1948 م ، 364 صفحة و 54 لوحة .

54) نفس المرجع ، 15 ، 18-19 .

55) نفس المرجع ، 49-52 ، 126-158 ، رقم 55-72 .

56) نفس المرجع ، 44-49 ، 61-126 ، رقم 1-54 .

57) نفس المرجع ، 322-324 .

58) نفس المرجع ، 52-56 ، 158-228 ، رقم 73-117 .

59) نفس المرجع ، 73 ، 76 ، 94 مكرر ، 108-113 ، 115 ، 116 .

60) نفس المرجع ، 3 وفي عدة مواضع أخرى .

61) نفس المرجع ، 22 ، 56-58 ، 228-243 رقم 118-126 ، انظر أيضاً ص 22-23 ، 32-35 ، 58 وفي عدة مواضع أخرى .

أحجام مطابقة « للنمط الإيطالي » ، ومجلّدات في شكل عُلَب ذات سيور ورزّات . وتتألف نواة الأجزاء المسطّحة من لوحات مغطّاة في الظهر بأوراق من الرق . وتشتمل الزخرفة على عنصر جديد يبدو أنه من المستحدثات القيروانية ، وسيُتخلّى عنه بعد زحفة بني هلال . وهو في معظمه أو بأكمله مُقَوْلب على الخيط . أما الصفائح فتملأها أحياناً صفوف الدواليب ، وفي أغلب الأحيان زخارف زهرية بديعة .

ورغم أن الفنّ القبطي لم يكن غريباً عن نشأته ، فإن التجليد القيرواني يتناسق تماماً مع النمط الإفريقي . وهو نتاج متشعّب للتأثيرات الشرقية والتقاليد المحلية العريقة إلى حدّ لا يسمح لنا بأن نفترض أنه من صنع الحرفيّين المصريّين[62] .

8 - الموسيقى :

لدينا بعض المعلومات حول الموسيقى في العصر الصنهاجي[63] ، فقد كان المعزّ بن باديس « عارفاً بعدّة صنائع من الألحان والتوقيعات »[64] . ويبدو أنّ الذي شجّع هذا الفنّ بوجه خاص هو عبد الوهّاب بن حسين بن جعفر الحاجب[65] أحد معاصري الرقيق . ولا ندري إن كان هذا الفنّان يقيم في القيروان أم في المهدية . وهو على الأرجح حفيد جعفر بن علي ، حاجب الخلفاء الفاطميّين الثلاثة الأوائل .

« كان واحد عصره في الغناء الرائع والأدب البارع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق . وكان قد قطع عمره وأفنى دهره في اللّهو واللعب والفكاهة والطرب ، وأعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه ، وصنعة اللحون ، كثيراً ما يقول الأبيات الحسنة في المعاني اللطيفة ، ويصوغ عليها الألحان المطربة البديعة العجيبة، اختراعاً منه وحذقاً ، وكانت له قريحة وطبع . فكان إذا لم يزره أحد من إخوانه ، حضر مائدته وشرابه عِشْرة من أهل بيته ، منهم ولده وعبد الله بن أخيه وبعض غلمانه . كلّ هؤلاء يغنّون ويجيدون ، فلا يزالون يغنّون بين يديه حتى يطرب ، فيدعو بالعود ويغني لنفسه ولهم . وكان بشارة الزّامر الذي يزمر عليه من حذّاق زَمَرة المشرق . وكان بعيد الهمّة سمحاً

62) نفس المرجع ، 1/60-61 .
63) في سنة 314 هـ/925-926 توفي بالمهدية المغنّي مؤنس البغدادي مولى موسى بن بُغا ، البيان ، 1/191 .
64) المؤنس ، 82 .
65) المقرّي ، نقلاً عن قطب السرور ، للرقيق ، نشر دار المأمون 1/53-59 ، ط . القاهرة 1949 م ، 4 ، 143-144 .

بما يجد ، تغلّ عليه ضِياعه في كل عام أموالاً ، فلا تحول السنة حتى يفسد جميع ذلك ويستلف غيره ، فكان لا يطرأ من المشرق مُغَنٍّ إلاّ سأل من يقصد لهذا الشأن ، فيُدلّ عليه ، فمن وصل إليه منهم استقبله بصنوف البرّ والإكرام وكساه وخلطه بنفسه ، ولم يَدَعْه إلى أحد من الناس ، فلا يزال معه صَبُوح وغَبوق وهو يجدّد له في كل يوم كرامة حتى يأخذ ما عنده من صوت مطرب أو حكاية نادرة » .

« وجلس (الحاجب عبد الوهاب) يوماً وقد زاره رجلان من إخوانه وحضر أقرباؤه فطعموا وشربوا وأخذوا في الغناء ، فارتجّ المجلس ، إذ دخل عليه بعض غلمانه فقال : بالباب رجل غريب عليه ثياب سفر ذكر أنّه ضيف ، فأمر بإدخاله ، فإذا رجل سُنّاط رثّ الهيئة فسلّم عليه : أين بلد الرجل ؟ قال : البصرة ، فرحّب به وأمره بالجلوس ، فجلس مع الغلمان في صفّة ، وأُتِيَ بطعام ، فأكل وسُقِي أقداحاً ، ودار الغناء في المجلس حتى انتهى إلى آخرهم . فلما سكتوا اندفع الرجل يغنّي بصوت نديّ وطبع حسن . فطرب عبد الوهاب وصاح وتبينّ الحذق في إشارته والطيب في طبعه وقال : يا غلام خذ بيده إلى الحمام وعجّل عليّ به ، فأُدخِل الحمام ونُظِّف ، ثم دعا عبد الوهاب بخلعة من ثيابه فألقيت عليه ورفعه فأجلسه عن يساره وأقبل عليه وبسطه فغنّى لـه ، فشرب عبد الوهاب ثم قال : زدني ! فغنّاه .

فمرّ يوم من أحسن الأيام وأطيبها . ووصله وأحسن إليه ولم يزل عنده مقرّباً مكرّماً .

وكان المغنّي خليعاً ماجناً مشتهراً بالنبيذ . فخلاه وما أحبّ . ثم وصف له الأندلس وطيبها وكثرة خمورها ، فمضى إليها ومات بها » .

وأضاف الرّاوي ـ والأرجح أنه الرقيق[65م] ـ قائلاً : « وعلى نحو هذه الحـال كان يفعـل الحاجب عبد الوهّاب بكلّ طارىء يطرأ عليه من المشرق ، ولو ذكرتهم لطال الكتاب » .

فيبدو حينئذ أن الموسيقى ، مثل غيرها من الفنون الأخرى ، كانت من وحي شرقي ، حتى زحفة بني هلال . ومهما يكن من أمر فإن التأثير الأندلسي لم يظهر إلاّ بعد غزوة بني هلال بقليل . فقد أخبرتنا المصادر أنّ أبا الصلت أمية بن عبد العزيز (ت . 529 هـ / 1135 م) هو الذي أدخل الموسيقى الأندلسية إلى إفريقية[66] .

65 م) [هو بالفعل الرقيق حسبما أكّده حسن حسني عبد الوهّاب الذي نقل عنه المعلومات السالفة الذكر . انظر ، ورقات ، 212-208/1] .

66) المقري ، 372/1 : « وهو الذي لحّن أغاني إفريقية » وأضاف ابن سعيد : « وإليه تُنسَب إلى يومنا هذا » . ح . ح . =

أما الآلات الموسيقية التي كانت مستعملة عصرئذ فهي : العود والرباب والناي والطبل والدفّ[67] .

— عبد الوهّاب ، المجلة التونسية ، مارس 1918 م ، 115 ، النيفر ، **عنوان الأريب** ، 104/1 : أورد المقامات الثلاث عشرة في قصيدة تُعرّف بناعورة الطبوع ، من نظم محمد الظريف (ت . 787 هـ/1385 م) .

67) البرزلي ، **مخطوط** ح . ح . عبد الوهّاب ، 95/2 ط ، 96 و ، إشارة إلى فقرة من « **أحكام السوق** » ليحيى بن عمر ، حول الآلات الموسيقية المستعملة في الأعراس قبل العصر الصنهاجي ، البرزلي ، نفس المخطوط ، 97/2 ط ، 98 و ، **المختصر** ، 56 ظ : حول البوقات المستعملة في المساجد وطبل رمضان المستعمل للإعلان عن السحور ، وذلك في فترة لاحقة ، **نقائش عربية** ، 391/1-392 ، قبريّة أحمد بن سفيان المرادي الربّاب (ت . 422 هـ/1031 م) جورج مارسي ، تحية مسبيرو Maspéro ، 3/ القاهرة 1935 م ، 241-257 .

الخـاتـمـة

في خاتمة هذه الحوصلة التي لا يمكن أن تكون نهائيّة ، سنحاول رسم ملامح هذه الدراسة الأوّلية المرتكزة على وثائق محدودة العدد ومتحيّزة ومبتورة ، وهي وثائق قليلاً ما تكون أصلية ، ولكنّها موضوعة بحذر شديد . وفي نهاية هذه المعركة التي خضناها ضدّ أشباح مفتقرة غاية الافتقار إلى النور ، وهذا التمشّي الطويل ، المحفوف بالمخاطر ، على حبل مشدود ، ليسمح لنا القارىء الكريم بالرجوع إلى الوراء لإلقاء نظرة أخيرة على ذلك التحوّل الذي شهده تاريخ بلاد المغرب الشرقية خلال القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد ، ذلك التاريخ الذي استعرضناه في لوحة ذات وجهَيْن : الوجه الأوّل المرتكز على سرد الأحداث والذي يشبه إلى حدّ كبير الأخبار التاريخية القروسطية ، والوجه الثاني الذي يتمثل في جملة من المعلومات المنقولة من شتّى المصادر[1] .

ويمكننا بادىء ذي بدء ، ولو على سبيل التذكير ، الرجوع إلى بعض الاعتبارات التأريخية . فقد دامت الملحمة الصنهاجية أكثر من قرنين ، وذلك من تاريخ تأسيس أشير (324 هـ / 935 م) إلى تاريخ سقوط آخر أمراء بني حمّاد (547 هـ / 1152 م) . وانطلقت طوال مدّة تناهز النصف قرن في عهد أمراء بني زيري الثلاثة الأوائل ، بلكين بن زيري (361-373 هـ / 972-984 م) والمنصـور بن بلكـين (373-386 هـ / 984-996 م) وبـاديس بن المنصـور (386-406 هـ / 996-1016 م) ، الذين ملكوا ، الأوّل والثاني ، كلّ واحد اثنتي عشرة سنة ، والثالث عشرين سنة .

ويمثّل تأسيس مدينة القلعة سنة 398 هـ / 1007 م بداية دولة بني حمّاد ، أكثر مما تمثّلها المعاهدة المبرمة بين حمّاد بن بلكين والمعزّ بن باديس سنة 398 هـ / 1007 م .

وكانت مدّة ولاية المعزّ بن باديس طويلة بشكل ملحوظ (47 سنة) . ويمثّل قسمها الأوّل الذي دام 35 سنة (من 407 إلى 442 هـ / 1016-1051 م) ، وشهد القطيعة مع الفاطميّين سنة (439 هـ / 1047 م) ، أوج السلطة الصنهاجية في إفريقية . وشهد قسمها الثاني الذي دام اثنتي

1) انظر ، إدريس ، إشكالية الملحمة الصنهاجية . . . حوليات معهد الدراسات الشرقية ، 1059 ، 243-255 .

عشرة سنة (من 442 إلى 454 هـ / 1051-1062 م) ، الكارثة الهلالية (هزيمة حيدران سنة 443 هـ / 1062 م وخراب القيروان سنة 449 هـ / 1057 م) ، واستقرار أمراء بني زيري الأخيرين في المهدية . وقد ملك أوّلهم تميم بن المعزّ هو أيضاً 47 سنة (من سنة 405 إلى سنة 501 هـ / 1062-1108 م) ، ولكنه لم يتوصّل إلى القضاء على الفوضى .

ومن بين الأمراء المحليّين في إفريقية الذين يشبهون ملوك الطوائف الأندلسيين ، نذكر بالخصوص بني خراسان ، وهم أوّل من أعطوا لمدينة تونس دور العاصمة الذي ستقوم به فيما بعد .

وتواصل احتضار إمارة بني زيري في المهدية في عهد أمراء بني زيري الثلاثة الأخيرين ، يحيى بن تميم الذي ملك ثماني سنوات (501-509 هـ / 1108-1116 م) وعلي بن يحيى الذي دامت مدة ولايته ستّ سنوات (509-515 هـ / 1116-1121 م) والحسن بن علي الذي ملك ثماني وعشرين سنة (515-543 هـ / 1121-1148 م) . وأخيراً أطرده من المهدية النرمان الذين تولّوا « حماية » الساحل الإفريقي زهاء الاثنتي عشرة سنة .

أما بالنسبة إلى بني حمّاد الذين يبلغ عددهم هم أيضاً تسعة أمراء ، فقد ملك حمّاد بن بلكين (من 408 إلى 419 هـ / 1017-1029 م) ، أي إحدى عشرة سنة (أو 21 سنة إذا اعتبرنا ارتقاءه إلى الحكم منذ تأسيس القلعة) . وملك القائد بن حمّاد سبعاً وعشرين سنة (من 419 إلى 446 هـ / 1029-1054 م) ، ومحسن بن القائد الذي لم تتجاوز مدة ولايته سنة واحدة ، وبلكين بن محمد بن حماد الذي ملك سبع سنوات (447-454 هـ / 1055-1062 م) .

وأمّا مدّة ولاية كلٍّ من الناصر بن علنّاس بن حماد ، وهو أوّل من استقر في بجاية التي بُنِيَت حوالي سنة 460 هـ / 1067 م ، والمنصور بن الناصر ، فقد دامت في الجملة 44 سنة ، وهي تقابل على نحو غريب مدة ولاية تميم بن المعزّ الذي هو أوّل مَنْ استقرّ في المهدية من أمراء بني زيري . ذلك أن الناصر قد ملك سبعاً وعشرين سنة (454-481 هـ / 1061-1088 م) والمنصور سبع عشرة سنة (481-498 هـ / 1088-1105 م) .

وبعد ولاية باديس بن المنصور القصيرة المدى ، ملك العزيز بن المنصور سبع عشرة أو عشرين سنة (498-515 أو 518 هـ / 1105-1121 أو 1125 م) ، ثم انقرضت أسرة بني حمّاد مع يحيى بن العزيز الذي بقي على العرش مدّة تناهز الثلاثين سنة (515 أو 518-547 هـ / 1121 أو 1125-1152 م) ، أي ما يعادل تقريباً المدّة التي قضاها على العرش في المهدية آخر أمراء بني زيري ، الحسن بن علي ، وهذا تشابه آخر غريب ولكنّه جدير بالملاحظة .

وقد دامت مدّة ولاية بني حمّاد أكثر من مدّة ولاية بني زيري لأن بني حماد كانوا أقلّ عرضة لبني هلال وبمنأى عن النزمان ، بفضل تضاريس بلادهم الجبلية . وتبعاً لذلك فقد أضرّت بهم هزيمة سبيبـة (457 هـ / 1065 م) أقلّ ممّا أضرّت هزيمـة حيدران ببني زيـري ، واستفادوا من خراب القيروان ، ولكنهم لم يعرفوا كيف يستغلّون الفرصة التي وفّرها لهم القدر . وقد أخطأت الأسرتان خطأً فادحاً حينما تبارت الواحدة مع الأخرى ، عوض توحيد جهودهمـا ضدّ عـدوهما المشترك ، في صراع بين الأخوة لم يستفد منه إلا بنو رياح الموالون لبني زيري في إفريقية والأثبج الموالون لبني حمّاد في المغرب الأوسط . وفي لمح البصر أسرع الموحّدون إلى افتكاك المغرب الأوسط الذي أدركه الوهن من أيدي بني حمّاد (547 هـ / 1152 م) . وبعد ذلك ببضع سنوات انتزعوا إفريقية الثائرة على النرمان والمتأهّبة لاستقبال حكّامها البربر المسلمين الجُدد ، استقبال المُحرِّرين . كما تمكّن الموحّدون من قمع ثورة بني هلال في سطيف والقضاء على التكتّل الهلالي الذي ظهر في إفريقية وانتهى بهزيمة جبل القرن .

ورغم طموح الأعمام وأعمام الأعمام الصنهاجيين ، تطبيقاً لمبدأ حكم الشيوخ الذي ربما كان من التقاليد البربرية ، فقد لاحظنا انتظام ترتيب الوراثة على العرش بصورة قطعية بالنسبة إلى أمراء بني زيري الذين ملكوا بشكل مسترسل ، الابن خلفاً للأب ، دون صعوبات جمّة ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى أمراء بني حمّاد ، إلا ما قلّ وندر . ولا نستطيع اكتشاف أسباب تعيين الأمير الجالس على العرش لوليّ عهده . ولكن يبدو أن الابن المعيّن لولاية العهد ، كثيراً ما يُكلَّف بولاية إقليم من الأقاليم يكون حِكراً عليه ، وبقيادة الجيش ، الأمر الذي يسمح باختبار قدراته وتمكينه من ممارسة التأثير اللازم على الجنود الذين سيساعدونه فيما بعد على الارتقاء إلى العرش .

كما كان عبيد الأمير الأوفياء له على الدوام يقدّمون إليه يد المساعدة خلال الفترة الرهيبة الفاصلة بين عهدَيْن . وكان الخليفة الفاطمي من جهته يوافق تلقائياً على تعيين وليّ العهد ، ويوجّه إليه إثر ارتقائه إلى العرش السجل الرسمي الذي يصل بعد مدّة طويلة من البيعة التقليدية . ثم يأتي مبعوث الخليفة الذي يقع اختياره من الأفضل من بين الدعاة ، فيأخذ البيعة للإمام الإسماعيلي من الأمير ومن كافة أتباعه .

وكان أمراء بني زيري وبني حمّاد على حدّ السواء ـ إلاّ أن هؤلاء كانوا أشد فظاظة وغلظة من أبناء عمومتهم ـ ذا أنَفة . فبوصفهم رجال حرب أوّلاً وقبل كل شيء ، كانوا يقـودون الجيوش بأنفسهم في المعارك ، بصورة تكاد تكون دائمة ، كما كانوا ملوكاً متعلقين شديد التعلّق بالحكم الفردي . وكان للأميرات الصنهاجيّات تأثير كبير عليهم بلا ريب . ولكن لم يتمكن أيّ قهرمان من

فرض وصايته على مخدومه . فلا ينبغي أن نغترّ بالسلطة المطلقة التي كان يتمتع بها رجل مثل المختال . فلئن عهد إليه الأمير الصنهاجي بإدارة شؤون إفريقية ، فذلك لأن صاحب أشير المهتم أكثر من اللزوم بالمغرب الأوسط ، قد أهمل إفريقية وأوكل أمرها ـ على الأرجح حسب مشيئته ـ إلى أحد أبنائها . ولكن لا ينبغي أن يفوتنا أن الأمير قد أعدم مرّتَيْن متتاليتَيْن عامل إفريقية عندما أصبح يتمتّع بنفوذ قوي أكثر من اللزوم ويأتمر بأوامر الخليفة . أمّا أمراء بني حمّاد فلا شك أنهم كانوا يحكمون بصورة مباشرة ، ولم يكن وزراؤهم يتمتعون إلاّ بسلطة التنفيذ ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى أمراء بني زيري ، لا سيما اعتباراً من عهد المعز بن باديس .

وكان أولئك وهؤلاء ميالين إلى الملذّات ، دون الإغراق فيها ، إن صحّ التعبير . ونحن نتصوّر أنهم كانوا مولعين بالأكل وبإشباع شهواتهم ، ولكنهم كانوا حريصين على عدم الاستسلام للانتشاء . وقد أسرعوا إلى التخلّص من شوائب بربريّتهم الجبلية ، فتعرّبوا بعجَلة ، على الأقلّ لإثبات نسبهم الحِمْيَري ، وشجّعوا الآداب والفنون . إلاّ أنّ بني حمّاد قد ظهروا مدّة طويلة بمظهر الأمراء الأفظاظ ، بالمقارنة مع بني عمومتهم بالقيروان ، على الأقلّ حتى عهد المنصور بن الناصر ، نجل مؤسّس بجاية الذي عمل على « تحضير » مملكته .

ولم يكن أمراء بني زيري المشجّعين للآداب والمشيّدين للمعالم ، أقلّ قيمة من أسلافهم بني عُبَيْد وبني الأغلب ، باعثي « الحضارة القيروانية » . فقد أبرزوا تلك الحضارة بصورة متألّقة إن لم تكن مبتكرة .

وما أشدّ هذا التناقض ، حينما نلاحظ أولئك الصنهاجيّين المنتمين إلى أوّل قبيلة بربرية أشرفت على حظوظ إفريقية الإسلامية ، يساهمون في الرفع من شأن حضارة عربية صميمة مستوحاة من المشرق ، ثم يشاهدون ذلك المعلم البديع وقد قوّضه بنو هلال المنتمون مع ذلك إلى نفس جنس الفاتحين العرب الذين شيّدوه من قبل بالتعاون من أبناء البلاد المعتنقين للإسلام ، تعاون الأخ مع أخيه ! .

ولا ريب أن غزوة بني هلال تمثّل بداية عهد جديد . ولا حاجة لنا ـ عند ذكر هذه الكارثة الخارقة للعادة ـ إلى تأكيد أهميّة استعمال الظرفَيْن « قبل » و « بعد » .

ولكن بالرغم من حدوثها فجأةً ، فإنها لا تمثّل سوى مظهر من مظاهر التباين بين نمطَيْن متناقضَيْن من أنماط العيش .

هذا وإن الصّراع بين الصنهاجيّين الجبليّين المستقرّين في المغرب الأوسط والتابعين للخلافة الفاطمية ، وبين العرب الرحّل المنتمين إلى قبيلة زناتة الغربية والموالين لبني أمية في الأندلس ، قد

تواصل حتى خراب القيروان ، لا سيما في المناطق الجنوبية من إفريقيّة .

وقد استمرّ الصنهاجيّون في الاضطلاع بمهمة الحراسة لمواجهة البربر الرحّل إلى أن سقطوا تحت ضربات أقوام رحّل آخرين ، هم هذه المرة من العرب .

وأثناء تقدّم الصنهاجيين في اتجاه الشرق ، ذلك التقدّم الذي يمثّل إحدى الخصائص الغالبة للفترة التاريخية التي تهمّنا ، يتعلق الأمر بتسرّب تأثير سياسي ، أكثر مما يتعلّق بنزوح قَبَليّ هامّ . ولا يبدو أنّ الفراغ الذي تركه رحيل الكتاميّين ، قد عوّضه مَدَد صنهاجي قوي . كما أنّ إنشاء مملكة بني حماد بصورة مبيّتة وغير عفوية ، سرعان ما فصل بني زيري عن موطنهم الأصلي .

وقبل خراب القيروان ، وكذلك بعده ، كانت تقلّبات التاريخ السياسي والعسكري مرتبطة وثيق الارتباط بالظروف الجغرافية والعرقية . ولكن لا ينبغي أن نظنّ أنها قد غيّرت قبل قدوم بني هلال تغييراً جوهريّاً المحيط البشري الثابت إلى حدّ ذلك التاريخ في المدن والأرياف على حدّ السواء . بل يمكن أن نتصوّر أن تلك البلاد المزدهرة بالنسبة إلى ذلك العصر ، والمتطوّرة ، قد كانت قادرة على تلبية حاجات السكان رغم قناعتهم ، وقد تزايد عددهم بفضل السلام السائد في العصر الصنهاجي ، بالرغم من المجاعات والأوبئة . وفي الجملة لم يكن سكّان المدن يساهمون في الحروب التي لا ينبغي أن نغترّ بتعدّدها ، ولم يتأثر سير حياتهم بذلك تأثراً كبيراً . ولا ينبغي أن ننخدع أيضاً بأقوال الإخباريين الميّالين إلى تضخيم الخسائر التي يتكبّدها المهزومون ، والحديث عن فناء المراكز العمرانية التي نهبها المنتصرون ليس إلّا . كما أن أهمية نزوح السكّان إثر إنشاء المدن الجديدة بالمغرب الأوسط كانت ضئيلة نسبيّاً . وإن سرعة انتعاش المدن المخرّبة رأساً على عقب ـ كما يقال ـ تجعلنا نشكّ في خرابها ، ذلك إنها إثر تغيير الحكام المشرفين على حظوظها ، وما إن يشبع الجنود من القتل والنهب ، حتى تعود المياه إلى مجاريها بسرعة في أغلب الأحيان . ومن باب أولى وأحرى تستعيد الأرياف حياتها الطبيعية بعد رحيل العسكر . وليس من المؤكد أن يكون الخطر الزناتي ، رغم خطورته واستمراريّته ، قد أثّر تأثيراً جديّاً في حياة المدن . وبناء على ذلك فإن الصراعات السياسية لم تكن لها على الأرجح انعكاسات عميقة على المجتمع ، حتى منتصف القرن الحادي عشر من الميلاد .

وبالعكس من ذلك فإن الأعراب الهلاليين الزاحفين بأعداد غفيرة وبأقلّ فوضى مما كنا نعتقد ، قد استولوا على السهول وعلى عدد كبير من المدن التي خُرِّبت وأصبحت في وضع متخلخل ، وأطردوا السكّان المستقرين من البربر المستعربين والبربر الرحّل والمنتجعين ، الذين فرّوا زرافات ووحداناً ، فالتجأ الأوّلون إلى الجبال والتجأ الآخرون إلى المراكز القادرة على التصدّي

للغزاة . ونستطيع عندئذ فحسب أن نتحدّث عن قلب أو فقدان ذلك التوازن الثابت منذ القرن التاسع من الميلاد خلال العهد الأغلبي . أضف إلى ذلك أن السّلم الموحّدية قد أدخلت تغييرات ذات بال ، عوّضها فيما بعد رجوع الأمن إلى نصابه . إلاّ أنّ هذه الظاهرة قد كانت عاملاً من عوامل الاستقرار الناجز والمبتدىء ، أكثر مما كانت عاملاً ثوريّاً ، ولعلّها ساعدت على إعادة العمل ببعض التقاليد التي عاكستها الزحفة الهلالية والغزوة النرمانية .

ولكنّ مأساة بني زيري كانت أوّلاً وقبل كلّ شيء مأساة دينية . ذلك أنّ مقاومة الشيعة بالقتل لم تنتظر ارتقاء المعزّ بن باديس إلى العرش . كما تبيّن أن القطيعة مع القاهرة التي تمّت على مراحل لم تكن من صنيع المعزّ بوصفه زعيم أهل السنّة ، بل كانت تتويجاً للعمل المنظّم الذي قام به العلماء لإثارة حميّة العامّة ، وقد ساعد دعوتهم إلى حدّ كبير استقلال إفريقية شبه التام في عهد بني زيري الأوائل .

والجدير بالملاحظة الدور الذي قام به أحد فقهاء القيروان في نشأة الحركة المرابطية ، والعمل الذي أنجزه الصنهاجيون الملثّمون ، الممتثلون لأوامر العلماء الأندلسيين ، لتحقيق انتصار المذهب المالكي في أقطارهم ، في الوقت الذي كان فيه بنو قومهم في إفريقية يستقبلون في القيروان مبعوث الخليفة العباسي الذي كان مؤسس القلعة قد اعترف من قبل بسلطته في المغرب الأوسط . وفي نفس الوقت أيضاً انتصر المذهب السنّي في المشرق ، حيث أزاح السلجوقيّون السنيّون البُوَيْهيّين الشيعة وحلّوا محلّهم لحماية الخلافة العباسية في بغداد .

ومن ناحية أخرى ، كان اصطباغ الدولة الصنهاجية بصبغة إفريقية ، من دواعي انتهاج سياسة متوسّطية ستمثّل فيما بعد الفرصة الوحيدة لبقاء بني زيري في المهدية وبني حمّاد في بجاية ، وقد أصبحوا مضطرّين أكثر من أيّ وقت مضى إلى تعاطي الغزو في البحر .

وفي الوقت الذي أفقدت فيه نهضة الغرب المسيحي التوازن المتوسّطي ، وتعرّض الشرق الإسلامي إلى الهيمنة الفاطمية التي انطلقت من المغرب ولم تزل تستمدّ منه قوّتها ، نتصوّر أهميّة الدّور الذي كانت تقوم به عهدئذ الكتلة البربرية العربية . أفلا تمثّل تلك الكتلة المتألّفة من إفريقية والمغرب الأوسط وصقلية حاجزاً داخل البحر الأبيض المتوسّط ؟ إلاّ أنّ زحفة بني هلال قد أوهنتها ، والغزوة النرمانية قد فكّكتها ، ولم يسع الموحّدون إلى إنعاشها والتفكير في إعادة وحدتها باسترجاع صقلية . وقد تسبّب توحيد بلاد المغرب تحت رايتهم ، وتقدّم سياسة الاسترداد في الأندلس في اتّساع رقعة النفوذ الإسباني في تلك الربوع ، على حساب النفوذ الشرقي الذي كان متفوّقاً إلى حدّ ذلك التاريخ . فلم تعد إفريقية محطّة عبور الحضارة الشرقية ، بل أصبحت نقطة

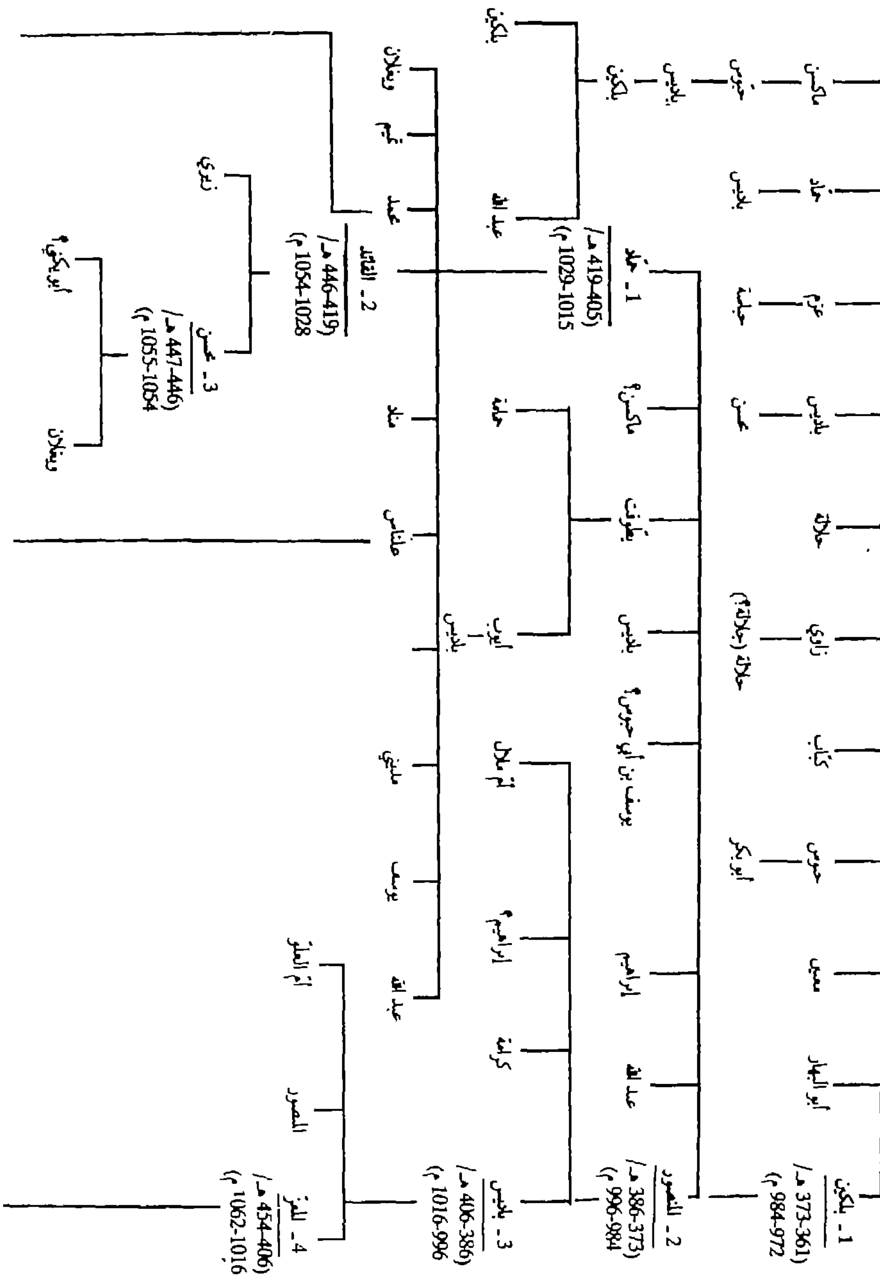
وصول بعدما كانت نقطة انطلاق ومركز انتشار .

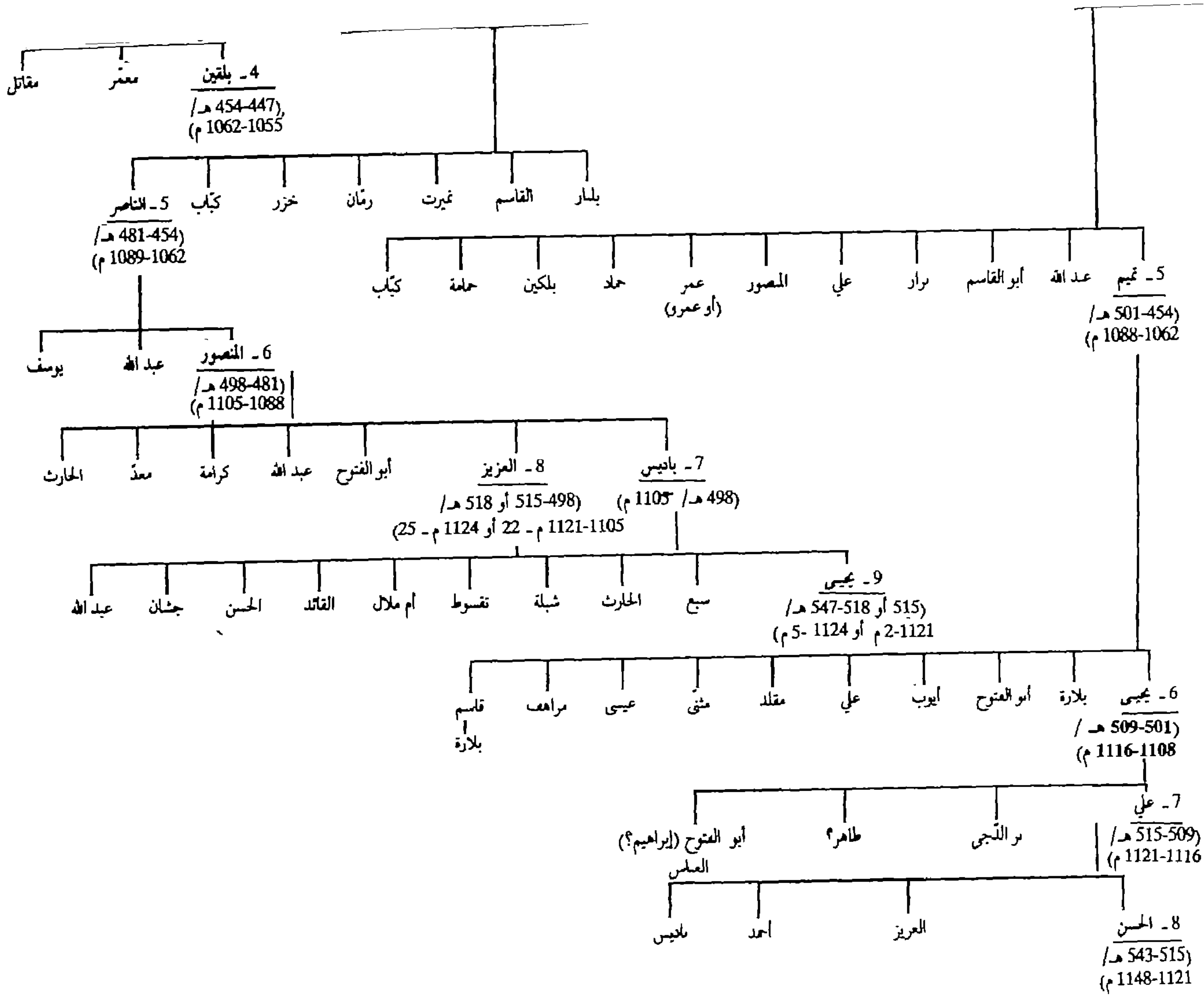
وخلال القرنين العاشر والحادي عشر من الميلاد اللّذين يمثلان بالنسبة إلى الغرب والشرق على حدّ السواء ، الخطّ الفاصل ونقطة الانطلاق ، بين أوائل وأواخر العصر الوسيط ، ستطرأ « التغييرات الرئيسية التي لا تزال تنبثق منها كثير من مظاهر المجتمع الإسلامي الحديث »[2] .

ولا نعتقد أن الموضوع الذي تناولناه بالدرس قد طغى علينا إلى حدّ الإفراط في تمجيده ، إذا ما أكّدنا أن الحضارة الصنهاجية شيء عظيم . ويكفينا للاقتناع بذلك ـ رغم قلّة الآثار الصنهاجية التي ما زالت ماثلة للعيان ـ أن نشير إلى البعض منها ، مثل منارة قلعة بني حمّاد ومقصورة الجامع الأعظم بالقيروان ، و **رسالة** ابن أبي زيد القيرواني ، و **عمدة** ابن رشيق ، الخ . . . فكما نلمح نور بعض الكواكب بعد مدّة طويلة من اختفائها ، وكما تلتصق أنوار الغروب في بعض المناظر الطبيعية بالجوانب البارزة ، وتسطع بعد احتجاب الشمس وراء الأفق ، استمرّت الثقافة القيروانيـة في الإشعاع في محيط مَوْقِد مُخْمَد ، سوف لا يشعّ من جديد ، ويا للأسف !

2) كلود كاهين ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الإسلامي في العصر الوسيط ، ستوديا إسلاميكا ، 1955/3، 110 .

شجرة نسب الأمراء الصنهاجيين




4 ـ بلقين
(454-447 هـ/
1062-1055 م)
معمّر
مقاتل
5 ـ الناصر
(481-454 هـ/
1089-1062 م)
كبّاب
خزر
رمّان
نميرت
القاسم
بلبار
5 ـ تميم
(501-454 هـ/
1088-1062 م)
عبد الله
أبو القاسم
برار
علي
المنصور
عمر
(أو عمرو)
حماد
بلكين
حامة
كبّاب
6 ـ المنصور
(498-481 هـ/
1105-1088 م)
عبد الله
يوسف
7 ـ باديس
(498 هـ/ 1105 م)
8 ـ العزيز
(515-498 أو 518 هـ/
1121-1105 م ـ 22 أو 1124 م ـ 25)
أبو الفتوح
عبد الله
كرامة
معدّ
الحارث
9 ـ يحيى
(515 أو 518-547 هـ/
1121-2 م أو 1124 -5 م)
سبع
الحارث
شبلة
تقسوط
أم ملال
القائد
الحسن
جشان
عبد الله
6 ـ يحيى
(509-501 هـ /
1116-1108 م)
بلارة
أبو الفتوح
أيوب
علي
مقلد
مثنى
عيسى
مراهف
قاسم
بلارة
7 ـ علي
(515-509 هـ/
1121-1116 م)
بر النّجى
طاهر؟
أبو الفتوح (إبراهيم؟)
العباس
8 ـ الحسن
(543-515 هـ/
1148-1121 م)
العزيز
أحمد
باديس

بنـو زيـري

1 ـ بلكين بن زيري بن مناد (361-373 هـ / 972-984 م) .
2 ـ المنصور بن بلكين (373-386 هـ / 984-996 م) .
3 ـ باديس بن المنصور (386-406 هـ / 996-1016 م) .
4 ـ المعزّ بن باديس (406-454 هـ / 1016-1062 م) .
5 ـ تميم بن المعزّ (454-501 هـ / 1062-1108 م) .
6 ـ يحيى بن تميم (501-509 هـ / 1108-1116 م) .
7 ـ علي بني يحيى (509-515 هـ / 1116-1121 م) .
8 ـ الحسن بن علي (515-543 هـ / 1121(1148 م) .

بنـو حمّـاد

1 ـ حمّاد بن بلكين بن زيري (405-419 هـ / 1015-1029 م) .
2 ـ القائد بن حمّاد (419-446 هـ / 1028-1054 م) .
3 ـ محسن بن القائد (446-447 هـ / 1054-1055 م) .
4 ـ بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين (447-454 هـ / 1055-1062 م) .
5 ـ الناصر بن علنّاس بن حماد بن بلكين (454-481 هـ / 1062-1089 م) .
6 ـ المنصور بن الناصر (481-498 هـ / 1088-1105 م) .
7 ـ باديس بن المنصور (498 هـ / 1105 م) .
8 ـ العزيز بن منصور (498-515 أو 518 هـ / 1105-1121 م ـ 2 أو 1124 م ـ 25) .
9 ـ يحيى بن العزيز (515 أو 518-547 هـ / 1121 م ـ 2 أو 1124 م ـ 25 ـ 1125 م) .

بنـو خراسـان

1 ـ عبد الحقّ بن عبد العزيز بن خراسان (حوالي 450-488 هـ/1059-1095 م) .
2 ـ عبد العزيز بن عبد الحقّ (488-499 هـ/ 1095-1105 م) .
3 ـ إسماعيل بن عبد الحقّ (ت. 500 هـ/1107 م) .
4 ـ أحمد بن عبد العزيز (500-522 هـ/1107-1128 م) .
5 ـ أبو بكر بن إسماعيل (ملك 7 أشهر) .
6 ـ عبد الله بن عبد العزيز بن إسماعيل (ملك 10 سنوات) .

الفهارس

1 ـ فهـرس الأعـلام

2 ـ فهـرس القبائل والمجموعات

3 ـ فهـرس الأماكن والبلدان

4 ـ فهـرس المـواضيـع

1 ـ فهرس الأعلام

— ب —

— ت —

- ح -

- خ -

ـ ز ـ

- غ -

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

— م —

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

2 - فهرس القبائل والمجموعات

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

3 - فهرس الأماكن والبلدان

- أ -

– ب –

ـ ت ـ

- ح -

- خ -

— ر —

— ز —

ـ ش ـ

ـ ص ـ

فهرس المواضيع

القسم الثّاني
المؤسّسات والحياة العامّة

الباب السابع : البلاد والعباد

الباب الثامن : النّظام السياسي والإداري

الباب التاسع : الحياة الاجتماعية والعائلية

الباب العاشر : الحياة الاقتصاديّة

الباب الحادي عشر : الحياة الدينيّة

الباب الثّاني عشر : الحياة الفكريّة والفنيّة



دار الغرب الإسلامي

بيروت - لبنان

لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود

تلفون 340131 - 340132 - ص. ب 5787 - 113 بيروت - لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B P .113 - 5787 - Beyrouth - Liban

الرقم : 1992 - 3 - 2000 - 203

التنضيد: سامو برس - بيروت

الطباعة: دار صادر - بيروت

HADY ROGER IDRIS

La Berbérie orientale sous les Zirides
X^e - XII^e siècle

TRADUIT EN ARABE
PAR
HAMADI SAHLI

Tome II



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

Série
Universitaire

HADY ROGER IDRIS

La Berbérie orientale sous les Zirides
X^e - XII^e siècle

TRADUIT EN ARABE
PAR
HAMADI SAHLI

TOME II



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI